الإحاطة

في أخبار غرناطة

لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب

حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه

محمد عبد الله عنان

المجلد الثاني

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الرابعة

١٤٢١ هـ = ٢٠٠١ م

رقم الإيداع : ٢٠٠١/٣٧٣٤

الترقيم الدولى : 2 - 91 - 5046 - 977

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

☎ : ٣٣٨٢٤٠ - ٣٣٨٢٤٢ - ٠١١/٣٣٨٢٤٤

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا هو المجلد الثانى من كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » نقدمه إلى القراء والباحثين، بعد أن تم بحمد الله ، تحقيقه ، وتزويده بمختلف الحواشى التفسيرية، وبعد أن تم كذلك إخراج الطبعة الثانية من المجلد الأول ، من هذه الموسوعة الأندلسية الكبرى .

ونود أن نبدأ هنا بالإشارة إلى بعض حقائق تتعلق بالأصول المخطوطة ، التى رجعنا إليها فى تحقيق هذا المجلد الثانى من كتاب « الإحاطة »، فقد رجعنا فى ذلك إلى الأصول الآتية :

أولا - مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد (مخطوط العلامة جاينجوس) المحفوظ بها برقم CXLII .

ثانياً - مخطوط جامع الزيتونة بتونس المحفوظ الآن بدار الكتب الوطنية برقم 8x35

ثالثاً - مخطوط الإسكوريال المحفوظ بمكتبة دير سان لورنزو بالإسكوريال برقم ١٦٦٨ الغزيرى ، ورقم ١٦٧٣ ديرنبور .

رابعاً - مخطوط الخزانة الملكية بالرباط المحفوظ بها برقم 1840

وقد اتخذنا مخطوط جاينجوس ، حسبما فعلنا بالنسبة للمجلد الأول، أساساً، لتدوين نص المجلد الثانى ومقارنته . والواقع أنه لا يوجد بين هذه الأصول المخطوطة، ما يتضمن المجلد الثانى من كتاب الإحاطة بصورة مستقلة، سوى مخطوط جامع الزيتونة ، الذى يقدم إلينا كتاب الإحاطة فى ثلاثة أجزاء متتالية ، والذى يوصف خطأ ، بأنه هو النسخة الوحيدة الكاملة من الإحاطة فى العالم . وقد سبق أن وصفنا هذا المخطوط وخصائصه وأحجام أجزائه بإفاضة، فى مقدمة المجلد

الأول ، وبينا بوضوح ما يعتوره من ضروب النقص والتصحيف ، وكيف أن القول بأنه هو النسخة الكاملة الوحيدة من الإحاطة،لا يطابق الواقع ، فلا حاجة بنا هنا إلى التكرار .

هذا، وقد سلكنا فى تنظيم محتويات هذا المجلد الثانى من كتاب« الإحاطة » وتبويبه مسلكاً جديداً ، راعينا فيه نظام « الأسفار » التى جعلها ابن الخطيب أساساً لتبويب كتابه ، ومن ثم فإننا لم نتخذ مخطوط جامع الزيتونة ، بالرغم من وصفه المتقدم ، أساساً وحيداً لتصنيف هذا المجلد الثانى من الإحاطة . ذلك أن الجزء الثانى من مخطوط الزيتونة ، يتضمن عقب نهاية ترجمة (محمد بن يوسف ابن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحى) ابن زمرك — الإشارة الآتية :

(انتهى السفر السادس هنا ، والحمد لله رب العالمين)

ويتضمن مخطوط جاينجوس ، عقب ترجمة محمد بن يوسف الصريحى — ابن زمرك المذكور — نفس هذه العبارة .

ويتضمن مخطوط الإسكوريال السالف الذكر ، رقم ١٦٧٣ ديرنبور ، فى رأس صفحة العنوان العبارة الآتية :

(تملك هذا السفر الثانى من مختصر الإحاطة .. بن جعفر بن محمد القيت لطف الله بهم ونفعهم) .

ومن الواضح أن « السفر الثانى » يقصد بها هنا « الجزء الثانى ».ذلك لأنه قد وردت فى الصفحة التالية فى بداية المخطوط هذه الإشارة :

(ومن السفر السابع المفتتح بقوله : ومن الطاربين منهم فى هذا الباب) .

وإذاً فإن مخطوط الإسكوريال ، يبدأ وفقاً لترتيب نظام الأسفار الذى اتخذ أساساً لتبويب كتاب «الإحاطة» ، عقب انتهاء السفر السادس من المخطوطين السابقين ، مخطوط الزيتونة ، ومخطوط جاينجوس،بالسفر السابع . وعلى ذلك وبعد دراسة مقارنة عميقة، لمختلف المخطوطات التى بين أيدينا ، رأينا أن نتخذ نظام الأسفار قاعدة لتبويب «الإحاطة» ،وأن نبدأ بعد نهاية السفر السادس من مخطوطى الزيتونه وجاينجوس ، فى تدوين تراجم السفر السابع الذى يفتتح به مخطوط الإسكوريال .

ويجب أن نعلم بهذه المناسبة ،أن كتاب «الإحاطة» يشغل وفقاً لنظام الأسفار المشار إليه ، والذى اتخذه المؤلف قاعدة لتقسيمه وتبويبه ، إثنى عشر سفراً. يضم مخطوط الإسكوريال منها ستة أسفار ، من السفر السابع إلى السفر الثانى عشر ، ويلى هذا السفر الأخير ، ترجمة ابن الخطيب مكتوبة بقلمه . وهذه الأسفار فيما يبدو — عدا السفر الأخير — متقاربة الأحجام ، يحتوى كل منها على نحو أربعين ترجمة ، وهذا عدا السفر الأخير الذى يضم ثمان تراجم فقط . ومعنى ذلك أن مخطوط الإسكوريال يمثل بحجمه وعدد أسفاره ، نصف المؤلف الأصلى ، وتكون نسخة الإسكوريال هذه ، مكونة من جزئين كبيرين ، وصل إلينا منهما فقط هذا الجزء الثانى ، الموسوم فوق صفحته الأولى بأنه (السفر الثانى) من مختصر الإحاطة ، وهو من محتويات المكتبة الزيدانية الشهيرة ، التى استولى عليها الإسبان فى عرض البحر فى أوائل القرن السابع عشر ، وضمت إلى محتويات المكتبة الملكية بالإسكوريال ، وذلك حسبما فصلناه فى مقدمة المجلد الأول .

هذا وقد رأينا أن نفتتح المجلد الثانى ، بترجمة السلطان محمد بن يوسف ابن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن فرج بن يوسف بن نصر الخزرجى (السلطان محمد الغنى بالله) سلطان ابن الخطيب . هذا فى حين أن النصف الأول من ترجمة هذا السلطان ، يرد فى نهاية الجزء الأول من مخطوط الزيتونة ، فى اللوحات الخمس عشرة الأخيرة (ص ٣٠٦ — ٣٣٥) . ونحن قد وقفنا بالمجلد الأول عند ترجمة السلطان (محمد بن محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر الأنصارى الخزرجى) ثانى الملوك النصريين .

وقد أحصينا التراجم التى وردت بالمجلد الثانى من مخطوط الزيتونة عقب الانتهاء من (السفر السادس) حتى نهايته ، فوجدناها سبعاً وأربعين ترجمة ، تبدأ بترجمة (محمد بن أحمد بن عبد الله الإستجى) وتنتهى بترجمة (محمد بن على بن عبد الله اللخمى) وهى آخر التراجم الواردة بالمجلد المذكور ، وكلها من حرف الميم (المحمدون) . ووجدنا بالمراجعة الدقيقة أنه قد ورد منها فى مخطوط الإسكوريال سبع وثلاثون ترجمة ، وردت متباعدة تتخللها تراجم كثيرة أخرى من (المحمدين) أيضاً ، وتنتهى بترجمة ، محمد بن على بن عبد الله اللخمى فى اللوحة رقم 146 .

ونود أن ننوه بأنه إلى جانب البواعث النظامية والفنية ، التى حملتنا على انتهاج هذه الخطة ، توجد ثمة بواعث علمية هامة ، تتلخص فى أن مخطوط الإسكوريال ، يتناول كثيراً من التراجم المذكورة بتوسع وإفاضة ، ويقرنها بكثير من مختارات المنظوم والمنثور ، التى لم ترد فى مخطوط الزيتونة ، ومنها تراجم كثيرة لشخصيات أدبية بارزة ، أمثال ابن الحداد الوادى آشي ، وابن مرج الكحل ، وابن الجنان ، وابن أبى الخصال ، وذى الوزارتين ابن الحكيم ، وابن طفيل ، ومحمد بن عبد العزيز التجيبى البرشانى ، وابن قزمان ، وابن القصيرة ، وابن خميس الحجرى ، وابن جزى ، وغيرهم . وقد وردت معظم هذه التراجم فى مخطوط الزيتونة فى نصوص موجزة ، ينقصها الكثير من مختارات الشعر والنثر ، التى يوردها مخطوط الإسكوريال ، وهو ما يحملنا على الاعتقاد بأن مخطوط الإسكوريال ، هو أقرب المخطوطات التى انتهت إلينا ، إلى نص كتاب الإحاطة المطول ، وهذا بالرغم من كونه يوصف فى صفحة العنوان ، وفى نهايته بأنه «مختصر الإحاطة» . وهذا كله إلى أن نص مخطوط الإسكوريال ، يمتاز بسلامته ، وخلوه من كثير من الأخطاء وضروب التصحيف ، التى ترد خلال نص مخطوط جامع الزيتونة .

وهنالك إلى جانب ما تقدم فارق التاريخ . ذلك أن مخطوط الإسكوريال قد نص فى نهايته ، على أنه قد تم نسخه فى أوائل شهر ربيع الآخر عام خمسة وتسعين وثمانمائة ، وذلك بمدينة غرناطة ، هذا فى حين أن مخطوط الزيتونة قد تم نسخه حسبما ورد فى نهاية الجزء الثالث منه ، فى شهر جمادى الثانية عام 1273 ، فهو إذن مخطوط حديث . وميزة القدم بالنسبة لمخطوط الإسكوريال ، وكونه قد كتب فى غرناطة موطن مؤلف «الإحاطة» ، وبعد وفاته بنحو قرن وربع فقط ، تسبغ عليه أهمية خاصة ، من حيث الاطمئنان إلى سلامة النص ، وإلى أنه قد نقل من أصول معتبرة يعول عليها .

ولسنا بحاجة إلى أن نعيد هنا شيئاً مما ورد فى مقدمتنا للمجلد الأول ، من البيانات والشروح عن كتاب «الإحاطة» ، وعن مصادره وتاريخ تأليفه ، أو عن مؤلفه ابن الخطيب ، وعن حياته ، وخلاله الفكرية والأدبية اللامعة ، فكل ذلك قد استوفيناه فى مقدمتنا بإفاضة ، يرجع إليها فى المجلد الأول .

ويحتوى المجلد الثانى من كتاب « الإحاطة » على إحدى وثمانين ترجمة ، ويضم طائفة من الرسائل الهامة ،التى دبجها ابن الخطيب بلسان سلطانه ،فى الحث على الجهاد ، وجمع كلمة الأمة فى الذود عن الدين والوطن ، كما يضم طائفة كبيرة من تراجم مشاهير رجالات الأندلس ، مثل المعتمد بن عباد ، والمتوكل ابن هود ومحمد بن سعد بن مردنيش أمير الشرق ، والمنصور بن أبى عامر ، ومحمد بن الأحمر الكبير ، مؤسس مملكة غرناطة ، ومحمد الغنى بالله ، سلطان ابن الخطيب . ومن أكابر الكتاب والأدباء والشعراء ، مثل ابن جبير ، وابن زمرك ، وابن برج الكحل ، وابن شلبطور ، وابن أبى الخصال ، وأبى عبد الله بن الحكيم ، وابن غالب الرصافى ، وأبى بكر بن القصيرة ، وابن قزمان ، وابن خميس الحجرى ، وغير هؤلاء وهؤلاء .

وتتضمن هذه التراجم كثيرا من الحقائق والتفاصيل التاريخية والأدبية الهامة ، هذا فضلا عما تقرن به من مختار المنثور والمنظوم .

وقد عنينا فى هذا المجلد أسوة بالمجلد الأول ، بشرح وتحقيق الأعلام التاريخية والجغرافية ، فى حواشى خاصة ، وربما حدث خلال ذلك بعض تكرار فى التعريف بأعلام أو بلاد سبق التعريف بها فى المجلد الأول . ولكن ذلك لا ينتقص من أهميتها ، لأنها فى مكانها أقرب إلى التناول والإفادة .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا المجلد الثانى من « الإحاطة » سوف يصدر بعون الله ، فى ربيع أو صيف هذا العام — سنة ١٩٧٤ . وتوافق هذه السنة الذكرى السمائة لوفاة ابن الخطيب ، وتقع هذه الذكرى فى خريف العام المذكور . وقد أشرنا فى ختام مقدمة المجلد الأول ، إلى أهمية إحياء هذه الذكرى والإحتفاء بها ، وأهبنا بالدوائر العلمية والأدبية فى مختلف البلاد العربية ، ولاسيما المغرب ، الذى قضى فيه ابن الخطيب أخصب فترات حياته ، ومازال يثوى الثواء الأخير بأرضه ، أن تقوم بتنظيم الاحتفاء بهذه الذكرى العلمية الجليلة . وقد علمنا مع الغبطة أن الحكومة المغربية ، تعنى الآن بالعمل لإحياء هذه الذكرى فى موعدها . ونحن نرجو لها من الله العون والتوفيق فى تحقيق هذه الأمنية النبيلة .

القاهرة فى غرة المحرم سنة ١٣٩٤
الموافق ٢٤ يناير سنة ١٩٧٤

محمد عبد الله عنان

رموز المخطوطات

رأينا وفقاً لما تم فى المجلد الأول ، أن نرمز إلى المخطوطات التى رجعنا إليها فى تحقيق هذا المجلد الثانى من كتاب « الإحاطة » على النحو الآتى :

١ — مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد (مخطوط جاينجوس) بحرف «ج» .

٢ — مخطوط جامع الزيتونة بتونس بكلمة « الزيتونة » .

٣ — مخطوط الخزانة الملكية بالرباط بكلمة « الملكية » .

٤ — مخطوط مكتبة الإسكوريال بكلمة « الإسكوريال » .

٥ — وجرينا فى التعبير عن مخطوطى جاينجوس والزيتونة ، بكلمة « المخطوطين » .

٦ — وفى التعبير عن جاينجوس والزيتونة والملكية « بالمخطوطات الثلاثة » .



صفحتان من الجزء الثاني من كتاب (الإحاطة) من مخطوط جامع الزيتونة المحفوظ الآن بدار الكتب الوطنية بتونس برقم 8135



صفحتان من الجزء الثانى من كتاب (الإحاطة) من مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ ديرنبور المحفوظ بمكتبة دير الإسكوريال

الإحاطة
في أخبار غرناطة

المجلد الثاني

محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن فرج ابن يوسف بن نصر الخزرجى (١)

أميرُ المسلمين لهذا العهد بالأندلس ، صدرُ الصدور ، وعلمُ الأعلام ، وخليفةُ الله ، وعمادُ الإسلام ، وقدوةُ هذا البيت الأصيل ، ونيرُ هذا البيت الكريم ، ولُبابُ هذا المجدِ العظيم ، ومعنى الكمال ، وصورة الفضل ، وعنوانُ السعدِ ، وطاير اليُمن ، ومحوّلُ الصُّنع ، الذى لاتبلغ الأوصاف مداه ، ولا تُوفى العبارة حقه ، ولا يَجْرِى النظم [والنثر](٢) فى ميدان ثنَايِه ، ولا تنتهى المدائحُ إلى عَلْيائِه .

أوّليتـــــه

أشهرُ من إمتاع الضُّحى ، مستوليةٌ على المدا ، بالغةٌ بالسَّعَةِ بالانتساب(٣) إلى سَعْد بن عُبادة عَنان السماء ، مُبْتَجِحةٌ (٤) فى جِهاد العِدا ؛ بحالة من مَلَكَ جزيرة الأندلس ، وحَسْبُك بها ، وهى بها فى أسْنَى (٥) المَزَاين والحُلَى ، وقُدُماً فيه بحسَب لمن سَمع ورأى .

---

(١) وردت فى الزيتونة إزاء اسم هذا السلطان العبارة الآتية فى الهامش الأيسر (ترجمة سلطان المصنف) . هذا وقد وردت بداية هذه الترجمة فى نهاية الجزء الأول من مخطوط الزيتونة، فرأينا أن نبدأ منها بالمراجعة عليه .

(٢) هذه الكلمة زائدة فى الزيتونة .

(٣) هذا فى «ج» . وفى «الملكية» والزيتونة (على الانتساب) .

(٤) هكذا فى «ج» و «الملكية» من ابتجح ، أى افتخر وتباهى .

(٥) فى الملكية ، والزيتونة ، أبهى .

حــــاله

هذا السلطان أيمنُ أهلِ بيته نقيبةً ، وأسعدُهم ميلاداً وولايةً ، قد جمع الله له بين حُسْن الصورة ، واستقامة البِنْية ، واعتدالِ الخُلُق ، وصحّة الفكر ، وثُقُوب الذّهن ، ونُفوذِ الإدراك ، ولطافَةِ المسايل ، وحُسْن التأنّي ؛ [وجُمع له من الظّرْف][1] مالم يُجمع لغيره ، إلى الحِلْم ، والأناة اللذين يُحِبُّهما[2] الله ، وسلامةِ الصدر ، التي هي من علامة الإيمان ، ورقّة الحاشية ، وسُرْعة العَبْرة ، والتبريز في ميدان الطهارة والعفّة ، إلى ضخامة التّنَجُّد ، واستجادةِ الآلات ، والكَلَف بالجهاد ، وثَباتِ القَدَم ، وقوةِ الجأش ، ومشهور البَسالة ، وإيثار الرِّفق ، وتَوخّي السَّداد ، ونُجْح المحاولة . زادَهُ الله من فضله ، وأبقى أمرَه في ولَدِه ، وأمْتَعَ المُسْلمين بعَمْره . ساق الله [إليه] المُلْكَ طواعيةً واختياراً ، إثْر صلاة عيد الفِطْر على بَغْتَةٍ[3] وفاة المُقدّس أبيه ، من عام خمسة وخمسين وسبعمائة ، لمخايِل الخير ، ومَزِيّة السّن ، ومَظَنّة البَرَكة ، وهو يافعٌ ، قريبُ العهد بالمُراهقة ، فأنْبَتَهُ الله النَّباتَ الحَسَنَ ، وسَدَل[4] به السِّترَ ، وسَوّغ العافية ، وهنّأ العَيْش ؛ فلم تشحّ في مدته السماء ، ولا كَلِب[5] الأعداء ، ولا تبدّلت الألقاب ، ولا عُونيت الشدائد ، ولا عُرِف الخوف ، ولا فُورق الخِصْب ، إلى أن كانت عليه الحادثةُ ، ونابَهُ التّمحيص ، الذي أكسبه الحُنْكة ، وأفاده العِبْرة ، فشهد بعناية الله في كَفّ الأيدي العادية ، وأخطأ [ألم][6] السّهام الرّاشقة ، وتخْييب الآمال

(١) وردت في «ج» (وجمال الظرف) . والتصويب من «الملكية» والزيتونة .

(٢) وردت في «ج» والزيتونة ، يحبهم . والتصويب لازم لاستقامة السياق .

(٣) كذا في «ج» و «الملكية» والزيتونة .

(٤) هكذا في «ج» . وفي «الملكية» والزيتونة ، وسبل .

(٥) هكذا في المخطوطات الثلاثة .

(٦) الزيادة من «الملكية» ، والزيتونة .

المكايدة ، وانسدال أروقة الستر والعصمة ، ثم العودة ، الذى عرّف الإسلام ، [بدار الإسلام][١] قدرها ، وتملأ عزها ، ورجح[٢] وزنها ، كما اختبر ضدها فرصة الملك ، وشاع العدلُ ، وبعُدَ الصيتُ ، وانتشر الذِّكرُ ، وفاض الخير ؛ وغزُرَ القطرُ ، فظهرت البركات ، وتوالت الفتوح ، وتخلّدت الآثار . وسيرد من بيان هذه الجمل ، مايسعه الترتيب بحول الله .

ترتيب دولته الأولى

إذ هو ذو دَوْلتين ، ومُسوّغ ولايتين ، عزّزهما الله ، بمُلْك الآخرة ، بعد العُمْر الذى يملأ صحايف البرّ ، ويخلّد حُسْن الذِّكر ، ويُعرف إلى الوسيلة ، ويُرفع فى الرفيق الأعلى الدّرجة ، عند الله خيرٌ وأبقى للّذين آمنوا ، وعلى ربّهم يتوكلون .

وزراؤه وحجابه

انتدب إلى النّيابة عنه ، والتّشمير إلى الحجابة ببابه ، الشيخَ القايدَ المعتمدَ بالتّجلّة ، المُتحول من الخُدّام النّبهاء ، المتسود الأبوة ، المخصوصَ بالقِدْح المُعلّى من المزية ، المُسلّم له فى خُصُوصيّة الملك والتربية ، ظهيرَ العلم[٣] والأدب ، وأمينَ الجد ، ومولى السّلَف ، ومُفرِغَ الرأى إلى هذا العهد ، وعِقْدَ سُفْرة[٤] السلطان ، وبقيةَ رجال الكمال من مشيخة المماليك ، وخيار الموالى ، أبا النعيم رِضوان رحمه الله ، فحمد الكُل ، وخَلَف السلطان ، وأبقى الرُّتب ، وحَفِظ الألقاب ، وبذل الإنصاف ، وأوسع الكنَف ، واستدعى النّصيحة ، ولم يَأل جَهْداً فى حُسن

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة ، وفى «ج» و «الملكية» (بهذه الاسلام) .

(٢) هكذا فى «الملكية» والزيتونة ، وفى «ج» واسترجح . والأولى أفضل .

(٣) وردت فى «ج» و «الملكية» ، العمر ، والتصويب أرجح .

(٤) هكذا فى «الملكية» والزيتونة ، ووردت فى «ج» سفراً .

السِّيرة ، وتَظاهُر المَحْض ، وأفردنى بالمزيّة(١) وعامَلنى بما يرتدّ عنه جسرُ أطرُف الموالاة والصُّحبة ، ووفَّى لى الكَيْل الذى لا يقتضيه السِّن ، والقرْبَة من الاشتراك فى الرتبة(٢) ، والتَّزحزُح عن الهَضْبة ، والاختصاص باسم الوَزارة على المُشْهَر والغَيبة ، والمحافظة على التَّشيُّع والقِدمة ، بلغ فى ذلك أقصى الغايات . مَدارجَ التخلق المأثور عن الجِلّة ، والتودد إلىَّ [المرَّة بعد المرَّة](٣) ، واختصصتُ بفَوْت المَدَّة بالسلطان ، فكنتُ المنفرد بسرِّه دونه ، ومَفْضى همه ، وشِفاء نفسِه ، فيما يُنْكره من فتنةٍ تقع فى سيرته ، أو تَصَيُّر توجيه السَّذاجة فى معاملاته ، وصلاح ما يتغيَّرُ عليه من قلبه ، إلى أن لحق بربِّه .

شيخ الغزاة ورئيس الجند الغربى لأول أمره

أقر على الغُزاة شيخَهم على عهد أبيه ، أبا زكريا يحي بن عمر بن رحُّو بن عبد الله بن عبد الحق ، مَطْمَح الطَّوافِ(٤) ، ومَوْفى الاختيار ، ولُباب القوم ، وبقيّةَ السلف ، حَزْماً ودهاءً ، وتجربةً [وحُنْكة وجدّاً وإدراكاً](٥)[ناهيك](٦) من رجُل فَذِّ المَنازِع ، غريبها ، مستحقُّ التقديم ، شجاعةً وأصالةً ، ورأياً ومباحثةً ، نسّابةِ قبيلِه ، وأضْحَى قسّهم ، وكِسْرَى ساستِهم ، إلى لُطْف السَّجِية ، وحُسْن التأنّي ، لغرض السلطان ، وطرق التَّنزل للحاجات ، ورقّة غزل الشَّفاعات . وإمتاع المجلس ، وثُقوبِ الذِّهن والفهم ، وحُسن الهيئة . وزادَهُ خصوصيَّة ملازمته

---

(١) وردت فى «ج» و «الملكية» بالزبدة ، والتصويب أرجح .

(٢) وردت فى «ج» وفى «الملكية» بالزينة ، والتصويب أرجح .

(٣) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» والزيتونة (المدة بعد المدة) . والأولى أرجح .

(٤) هكذا فى «الزيتونة» ، وفى «ج» و«الملكية» (الطرف) والأولى أرجح .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» والزيتونة (وحركة وجدا) .

(٦) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة ، ويقتضيها السياق .

بجنسَ الرِّقاع المعروضة ، والرسُل الواردة . وسيأتى ذكره فى موضعه بحول الله تعالى .

كاتب سره

قمتُ لأول الأمر بين يديه بالوظيفة التى أسندها[1] إلىّ أبوه المولى المقدس ، رحمه الله، من الوقوف على رأسه ، والإمساك فى التهانى والمبايعة بيده ، والكتابة والإنشاء والعَرض والجواب . والخِلْعة والمُجالسة ، جامعاً بين خدمةِ القلَم ، ولقبِ الوزارة ، معزَّزَ الخطَط برسم القيادة ، مخصوصاً بالنيابة عنه فى الغَيْبة ، على كل ما اشتمل عليه سورُ القلعة والحضْرَة، مطلقَ أمورِ الإيالة ، محكماً فى أشتاته تحكيم الأمانة ، مُطلق الجراية ، ظاهرَ الجاه والنعمة . ثم تضاعف العزُّ ، وتأكد الرَّعىُ ، وتمحَّض القربُ ، فنقلنى من جَلْسَة المواجهة ، إلى صَفِّ الوزارة ؛ وعاملنى بما لامزيد عليه من العناية ، وأحلّنى المحل الذى لا فوقه فى الخُصُوصيّة ، كافأ الله فضلَه ، وشكرَ رعيه ، وأعلى محلَّه عنده .

وأصْدَر لى هذا الظَّهيرَ لثانى يوم ولايته : هذا ظهيرٌ كريمٌ ، صفى شِربُه . وسفَّرنى فى الرسالة عنه ، إلى السلطان ، الخليفة الإمام ، ملك المغرب ، وما إليه من البلاد الإفريقية ، أبى عِنان ، حسبما يأتى ذكره . ثم أعفانى فى هذه المدة الأولى ، عن كثير من الخدمة ، ونوّه بى عن مباشرة العَرْض بين يديه بالجُملة ، فاخترت للكَلِّ والبِذْلة ، وما صان عنه فى سبيل التجلّة ، وإن كان منتهى أطوار الرِّفعة ، الفقيه أبا محمد بن عطية ، مُسْتَنْزَلاً عن قضاء وادى آش وخَطابتها ، فكان يتولى ما يُكتَب بنظرى ، وراجعاً لحكمى ، ومترددًا لبابى ، مُكْتَفِى

---

(١) وردت فى «ج» والملكية ، أسند . والتصويب أفضل .

المؤنة فى سبيل(١) الحمل الكلى ، إلى وقوع الحادثة ، ونفوذِ المشيئة بتحويل الدولة .

قضاته

جدَّد أحكام القضاء والخطابة لقاضى أبيه الشيخ الأستاذِ الشريف ، نسيج وحْدِه ، وفريدِ دهره(٢) ، إغراباً(٣) فى الوقار ، وحُسْنِ السَّمت(٤) وأصالة البَيْت ، وتبَحُّراً فى علوم اللِّسان ، وإجهازاً فى فَصْل القضايا ، وانفراداً ببلاغة الخُطْبَة ، وسَبْقاً فى ميدان الدهاء والرَّجاحة ، أبى القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحَسَنى ، الجانح إلى الإيالة النَّصْرية من مدينة سَبْتَة . وسيأتى التعريف به فى مكانه إن شاء الله . وتوفى رحمه الله بين يَدَى حدوثِ الحادثة ، فأُرْجىء الأمر بمكانه ، إلى قُدوم مُتَلَقِّف الكُرَة ، ومُتَعاور تلك الخُطَّة ، الشيخ الفقيه القاضى ، أبى البركات قاضى أبيه . ووليها الأَحقُّ بها بعده ، إذ كان غايباً فى السِّفارة عنه ، فوقع التَّمحيصُ قبل إبرام الأمر على حال الإسْتنابة .

الملوك على عهده

وأوّلُهم بالمغرب ، السلطان ، [الإمام](٥) ، أميرُ المسلمين ، أبو عِنان ابن أمير المسلمين أبى الحسن بن أمير المسلمين أبى سعيد بن أمير المسلمين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحقّ ، البعيدُ الشأو فى ميدان السَّعادة ، والمُصْمى أغراضَ السَّداد ، ومُعظِّمُ الظَّفَر ، ومُخَوّلُ المَوْهبة ، المستولى على آماد الكمال ،

---

(١) وردت فى الزيتونة بعد هذه الكلمة عبارة (المؤمنة فى) وهى عبارة لا معنى لها هنا ، ومن ثم فقد أغفلناها .

(٢) هكذا فى «ج» ووردت فى «الملكية» ، عصره .

(٣) وردت فى «ج» إعرابا . والتصويب من «الملكية» والزيتونة .

(٤) هكذا وردت فى «الملكية» والزيتونة . وفى «ج» السمة ، والأولى أرجح .

(٥) الزيادة من الزيتونة .

عقلاً وفضلا وأبهة ورُواءاً ، وخَطّاً وبلاغةً ، [وحفظاً وذكاءً][1] وفهماً وإقداماً ، تغمّده الله برحمته ، بعثني إلى بابه رسولاً على إثر بيعته، وتمام أمره ، وخاطباً إثره ووُدّه ، مُسْتَرْفِداً[2] من مِنْحة قبوله ، فألفيتُ بشراً مبذولا ، ورفداً ممنوحاً ، وعزّاً باذخاً ، يضيق الزمان عن جلالته ، وتقصُر الألسنة عن كُنْه وصْفه ، فكان دخولى عليه فى الثامن والعشرين من شهر ذى قعدة عام خمسة وخمسين المذكور ، وأنشدتُه بين يدى المُخاطبة ، ومُضْمن الرسالة :

خليفةَ الله ساعَدَ القَدَر   علاك مالاح فى الدُّجا قمرُ

فأحْسَبَ وكفى ، واحتفل واحتفى ، وأفضتُ بين يدى كَرْمته[3] ، إلى الحضور معه فى بعض المواضع المطلة على مورد رحب . هاج به الخُدّام أسَدًا ، أزْوَد ، شَثْن الكفّين مُشْعر[4] اللِّبدة ، حتى مَرَق عن تابوت خشبى كان مسجونا به ، من بعد إقلاعه ، من بعض كُواه ، وأثارته من خَلْفه ، واستشاط وتوقّد بأساً . وجُلب[5] ثورٌ عَبِلُ الشَّوى ، منتصبُ المَرْوَى ، يقدمُه صُوارٌ[6] من الجواميس ، فقرُبت الخُطا ، وحَمِيت الوغى ، وبلغ الزئير والجُوار ما شاء ، فى موقف من ميلاد الشيم العلى [يخشى][7] الجبانُ مقارعة العدا ، ويوطنُ نفسه الشجاعُ على ملاقاة الرّدَى ، وخار الأسدُ عن المبارزة ، لما بَلَغ منه ثقافاً عن رد المناوشة ، ومضطلعاً بأعباء المحاملة ، فتخطاه إلى طائفة من الرِّجالة ، أولى عُدّة ،

---

(١) هكذا وردت فى «الملكية» والزيتونة . ووردت فى «ج» إدراكاً .

(٢) هكذا فى «ج». وفى «الملكية» مستزيداً .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٤) وردت فى «ج» مقشعر . والتصويب من «الملكية» والزيتونة .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة (وجلبت) . والتصويب أنسب للسياق .

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة (صوارا) فاقتضى التصويب .

(٧) هذه الإضافة أو ما فى معناها لازمة لإستقامة السياق .

وذوى دُرْبةٍ[1]، حمل نفسه متطارحا كشهاب الرَّجم، وسَرَك الدُّجا، وأخذتْه رماحُهم بإبادته[2]، بعد أن أرْدَى بعضَهم، وجُدِّل بين يدى السلطان، متخبطا فى دمه. وعرَّض بعض الحاضرين، وأغرَى بالنظم فى ذلك، فأنشدته:

أنعامُ أرضِك تقهر الآســادا طبعاً كما الأرواح والأجسادا
وخصايصٌ لله بث ضروبها فى الخَلْق ساد لأجلها من سادا
إن الفضايل فى حماك بضايعٌ لم تخْش من بعد النفّاق كسادا
كان الهِزَبْرُ محارباً فجزيته بجزاء من فى الأرض رام فسادا
فابغ المزيدَ من آلايه بشكره وأرغم بما خُولتَه الحُسّادا

فاستحسن تأتِّى القريحة، وإمكان البديهة، مع قَيْد الصِّفَة، وهيبةِ المجلس. وكان الانصراف بأفضل ما عاد به سفيرٌ، من واد[3] أصيل، وإمدادِ مَوْهوبٍ، ومهاداة أثيرة وقطار مجنوب، وصامت محْمول، وطُعْمةٍ مسُوعةٍ. وكان الوصول فى وسط محرم من عام ست وخمسين وسبع ماية، وقد نجح السَّعْىُ، وأثمر الجَهد، وصدَقت المخيلةُ، وقد تضمّن رَحْلى الوُجْهة، والأخرى قبلها جزء. والحمد لله الذى له الحمد فى الأولى والآخرة. وتوفى زعموا بحيلةٍ، وقيل حتْفَ أنْفه، لمّا نَهكَه المرض، وشاع عنه الإرجاف، وتنازع ببابه الوزراء، وتسابق إلى بابه الأبْناء. وخاف مُدبِّر أمره، عايدةَ ملامتِه، على توقع بُرْئه، وكان سيفُه[4] يسبق على سوطه، والقبرَ أقربُ إلى من تعرض لعَتْبه من سِجْنه، فقضى موضعَ هذا السبيل خاتمةُ للملوك الجلّة، من أهل بيته. جدّد الملك، وحفِظ الرسوم، وأجْرَى الألقاب،

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة (ذرية). والتصويب أرجح.

(٢) فى «ج» و «الملكية» بابارته، والتصويب من «الزيتونة».

(٣) هكذا وردت فى «الملكية» والزيتونة. وفى «ج» ود.

(٤) فى «ج» و «الملكية» سفيه. والتصويب من «الزيتونة».

وأغلَظ العقاب ، وصيّر إيالته أضيق من الحَدّ[١] . وأمدّ الأندلس ، وهزم الأضداد ، وخلّد الآثار ، وبنى المدارس والزوايا ، واستجلب الأعلام . وتحرّك إلى تِلِمْسان فاستضافها إلى إيالته،ثم ألحق بها قُسَنْطينة وبجاية ، وجهز أسطوله إلى تونس ، فدخلها وتملكها ثِقاتُه فى رمضان عام ثمانية وخمسين وسبعمائه ، واستمرّت بها دعوته إلى ذى قعدة من العام ، رحمة الله عليه . وكانت وفاتُه فى الرابع عشر لذى حجة من عام تسع وخمسين وسبعمائة . وصار الأمر إلى ولده المسمى بالسَّعيد ، المكْني بأبى بكر ، مختار وزيره ابن عمر الفَدُووى[٢] . ورام ضَبْط الإيالة[٣] المشرِقيةَ فأعياه ذلك ، وبايع الجيشُ الموجهُ إليها منصورَ بن سليمان ، ولجأ الوزير وسلطانُه إلى البلد الجديد ، مثوى الخلافة المرينيّة ، فكان أملك بها . ونازله منصور بن سليمان ، ثم استَفْضى اليه أمرُ البلدلحزم الوزير وقوّةِ شكيمته . وغادر[٤] السلطان أبو سالم إبراهيم بن السلطان أبى الحسن أخو الهالك السلطان أبى عنان [الأندلس][٥] ، وقد كان استقر بها بإزعاج أخيه إيّاه عن المغرب ، كما تقدم فى اسمه ، فطلَع على الوطن الغربىّ بإعانةٍ من ملك النصارى ، عانى فيها هَوْلاً كثيراً ، واستقرّ بآخرة بعد إخفاق شيعته[٦] المرّاكُشية ، بساحل طَنْجة ، مستدعىً ممن بجبال غُمارة ، ودخلت سَبْتة وَطنْجة فى طاعته . وفرّ الناس عن منصور بن سليمان ، ضربة لازبٍ ، وتُقُبِّض عليه وعلى ابنه ، فقتلا صبراً ،

---

(١) فى المخطوطات الثلاثة (الحد) والتصويب أرجح .

(٢) وردت فى «ج» الفدوى . والتصويب من «الملكية» والزيتونة .

(٣) وردت فى «ج» والزيتونة «الأبالى» : والتصويب من «الملكية» .

(٤) وردت فى «ج» (ونعص) . وفى «الملكية» والزيتونة (وبعض) . وهى كلمة لا معنى لها هنا . وقد أضفنا كلمة(وغادر) ليستقيم السياق.

(٥) ساقطة فى المخطوطين . ولازمة للسياق .

(٦) وردت فى «ج» سعية . والتصويب من الزيتونة ، وبه يستقيم المعنى ، لأن السلطان أبا سالم نزل أولا بساحل دكالة على مقربة من منطقة مراكش ، ثم تحول عنها بعد فشله إلى الشمال .

نفعهما الله . وتملك السلطان أبو سالم المدينة البيضاء يوم الخميس عشر لشعبان عام ستين وسبعمائة ، بنزول الوزير وسلطانه عنها إليه . ثم دالَتْ الدولة . وكان من لحاق السلطان برُنْدة ، واستعانتِه على ردِّ ملكه ما يأتى فى محله ، والبقاء لله سبحانه .

وبتِلِمْسان السلطان أبو حمُّو (١) موسى بن يوسف بن يحيى بن عبد الرحمن بن يَغْمُراس بن زيان ، قريب العهد باسترجاعها ، لأول أيام السعيد .

وبتونس الأمير إبراهيم بن الأمير أبى بكر بن الأمير أبى حفص بن الأمير أبى بكر بن أبى حفص بن إبراهيم بن أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد ، لنظر الشيخ رأس الدولة ، وبقية الفضلاء ، الشهير الذكر ، الشائع الفضل ، المعروف السياسة ، أبى محمد عبد الله بن أحمد بن تافراقِين (٢) . تحت مضايقة من عرب الوطن .

ومن ملوك النصارى بقَشْتالة ، بِطْرُه بن ألهنشة بن هِراندة بن شانجه بن ألفنش ابن هراندة ، إلى الأربعين ، وهو كما اجتمع وجهه ، تولى (٣) الملك على أخريات أيام أبيه فى محرم عام أحد وخمسين وسبعمائة . وعُقِد معه سلم على بلاد المسلمين . ثم استمر ذلك بعد وفاته فى دولة ولده المترجم به ، وغمُرت الرُّوم ، وألقت العصا ، وأغضت القضاء ، وأجالت على الكثير من الكبار (٤) الرَّدى ، بما كان من إخافته سائر إخوانه لأبيه ، من خاصّته ، العجلة الغالبة على هواه ، فنبذوه على سوء (٥) بعد قتلهم أمهم ، وانتزوا عليه بأقطار غرّسهم فيها أبوهم قبل موته برعيّة أمِّهم . وسلك لأول أمره سيرة أبيه فى عدوله عن عهوده بمكايبه لمنصبه ،

(١) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» والزيتونة (أبو عمران) . وهو كنية السلطان المشار إليه
(٢) هكذا رُسمت فى «ج» . وترسم أحياناً بالكاف : تافراكين .
(٣) وردت مكانها فى «ج» ، وكاولى . والتصويب من الملكية والزيتونة .
(٤) وردت فى «ج» والزيتونة (كبار) . والتصويب لازم للسياق .
(٥) وردت فى «ج» سوا . والتصويب من «الملكية» .

إلى اختصاص عجلةٍ ، أنف بمرآه كبارُ قومه ، من أجل ضياع بَذْره وانقراض عَقِبه ، فمال الخوارج عليه ، ودبّروا القبض عليه ، وتحصّل فى أنشوطة ، يقضى أمْرَه بها إلى مطاولة عقله أو عاجل خلعٍ ، لولا أنه أفْلَت وتخلّص من شرارها . فاضطره ذلك إلى صلة السِّلم ، وهو الآن بالحالة الموصوفة .

الأحداث فى أيامه

لم يحدث[1] فى أيامه حَدَث إلا العافية المُسِحّة[2] والهُدْنة المتَّصلة ، والأفراح المتجدّدة ، والأمنة المُستحكمة ، والسِّلم المُنعقدة . وفى آخر جمادى عام ست وخمسين وسبعمائة لحق بجبل الفتح فشمّم شعبته ، وأبرّ مَتْبوته[3] ، كان على ثغره العزيز على المسلمين ، من لدُن افتتاحه ، الموْسُوم الخطة ، المخصوص بمزية تشييده عيسى [بن] الحسن بن أبى مَنديل ، بقيّةِ الشيوخ أولى الأصالة والدّهاء ، والتزّى بزى الخير ، والمثل الساير فى الانسلاخ من آية السعادة ، والإغراقِ فى سوء العقبى . والله غالبٌ على أمره . فكان أملك بمصامّه ، وقرّ عينه بلقاء ولده ، والتمتع منه بجوادٍ عتيق . مُلّى من خلال السياسة ، أرْداه سوء الحظ وشؤمُ النصْبة[4] ، واظلمَّ ما بينه وبين سلطانه ، مسوغه برداء العافية على تفَهِ صِغر ، وملبسه رداء العفّة على قِدْح الأمور ، أبدى منها الخوف على ولده ، وعَرّض دَيْسَم عزمه ، على ذوبان الجَبَل ، فانحدُّوا فى هواه ، وغرُّوه بكاذب عُصْبةٍ[5] ، فأظهر الامتناع سادس ذى قعدة من العام المذكور ، واتصلت الأخبار ، وساءت

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة ، تحدث . فاقتضى التصويب .

(٢) وردت فى «ج» و «الملكية» ، المسبحة . والتصويب من الزيتونة .

(٣) اعنى قام بتعلية أسواره وإصلاح أجزائه الخربة الهالكة .

(٤) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى «ج» ، النصفة ، والأولى أرجح .

(٥) وردت فى «ج» عصه التصويب من «الملكية» والزيتونة .

الظنون ، وضاقت الصدور ، ونُكست الرؤوس لتوقُّع الفاقرة ، بانسداد باب الصَّريخ ، وانبتات سبب النُّصرة ، وانبعاث طمع العدوّ [وانحطّت الأطماع][١] فى استرجاعه واستقالته ، لمكان حصانته ، وسموّ الذّروة ، ووفور العُدّة ، ووجود الطُّعمة ، وأخذه بتلاشى الفرصة . ثم رَدِفت الأخبار بخروج جيشه[٢] صُحبة ولده إلى مُنازلة أُشْتُبونة[٣] ، وإخفاق أمله فيها ، وامتِساك أهلها بالدعوة ، وانتصافهم من الطائفة العادية ؛ فبُودِر إليها من مالَقة بالعُدد . وخُوطِب السلطان [من][٤] ملك المغرب أيّده الله ، بالجليّة ، فتحققت المنُابذة ؛ واستقرّت الظنون . وفى الخامس والعشرين من شهر [ذى قعدة][٥] ، ثار به أهلُ الجبل ، وتبرّأ منه أشياعه ، وخذلوه بالفرار ، فأُخذت شِعابُه ونِقابه ، فكرّ راجعاً أدْراجه إلى القاعدة[٦] الكبيرة ، وقد أعجله الأمر ، وحملته الطمأنينة على إغفال الاستعداد بها ، وكوثر[٧] فألقى به ، وقد لحق به[٨] بعضُ الأساطيل بسَبْتة ، لداعى تسوُّر تُوطّى[٩] على إمارته ، فقيد هو وابنه ، وخيض بهما البحرُ للحين ، ولم ينتطح فيها عَنْزان ، رحمه الله ، سَنام فِئة ألقت برْكها[١٠] ، وأناخت بكَلْكلها ، وقد قُدّر أنها واقعةٌ ، ليس لها من دون الله كاشفة ، فقد كان من بالجبل برموا على إيالة ذينك المرتسمين[١١] ،

---

(١) وردت فى «ج» و «الملكية» (وركعت الأطباع) . والتصويب من الزيتونة .

(٢) وردت فى «ج» والزيتونة بعدها كلمة ، إلى ، وهى حشو لا محل له .

(٣) أشتبونة ، وبالإسبانية Estpona ، ثغر أندلسى صغير ، يقع جنوبى اسبانيا ، وشمال جبل طارق فى منتصف المسافة بينه وبين ثغر مربلة .

(٤) الزيادة من «الملكية» والزيتونة .

(٥) مكانها بياض فى المخطوطات الثلاثة ، ونعتقد صحة ما أثبتناه ، وهو متفق مع ما سيأتى .

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة (القاهرة) . وهو تحريف ظاهر . والتصويب أرجح .

(٧) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وقد تعنى كثرة خصومه .

(٨) وردت بعدها فى المخطوطات الثلاثة كلمة (الأسطول) ، ووجودها هنا يخل بالسياق . والأغلب أنه من باب السهو .

(٩) هكذا وردت فى «ج» والزيتونة . وفى الملكية (سور تولى) .

(١٠) هكذا فى «ج» . وفى الزيتونة ، بركابها .

(١١) وردت محرفة فى «ج» ، المرتسين . والتصويب من «الملكية» .

وألقوا أجوارها، وأعطوها الصفقة، بما أطمعهما فى الثورة[1]، ولكل أجل كتاب. واحتمل إلى الباب السلطانى بمدينة فاس، وبرز الناس إلى مباشرة إيصالهما مجلوبين فى منصّة الشهرة، مرفوعين فى هضْبة المُثْلة. ثم أمضى السلطان فيهما حُكْمَ الفساد، بعد أيام الحرابة، فقُتل الشيخ بخارج باب السمّارين من للبلد الجديد، بأيدى قرابته، فكان كما قال الأُول:

أضحت[2] رماح بنى أبيه تنوشه　　لله أرحامٌ هنـاك تُشقق

وقُطعت رِجْل الولد ويدُه، بعد طول عمل وسوء تناول، ولم ينشب أن استنقذه حِمامُه فأضحى عِبرة فى سُرعة انقلاب حالهما من الأمور الحميدة، حسنُ طاعةٍ، وذياع حَمْد، وفَضْل شهرة. واستفاضة خَيْريّة، ونباهة بيت، وأصالة عِزّ، إلى ضد هذه الخلال، وقانا الله مصارع السوء، ولا سلب عنا جِلباب السِّتر والعافية.

وسدّ السلطان ثَغْر الجبل بآخر[3] من ولده اسمه السعيد، وكنيته أبو بكر، فلحق به فى العشر الأول من المحرم من عام سبعة وخمسين وسبعمائة، ورتّب له بطانته، وقدر له أمره، وسوّغه رزْقاً رغداً، وعيشاً خَفْضاً. وبادر السلطان المترجم له، إلى توجيه رسوله، قاضياً حقه، مقرّر السّرور بجواره، وأتبع ذلك ما يليق من الحال من برّ ومهاداة ونزَل، وتعقبت بعد أيام المكافآت[4]، فاستحكم الوُدُّ، وتحسنت الأُلْفة إلى هذا العهد. والله ولىّ توفيقهم[5] ومُسنى الخير والخيرة[6] على أيديهم.

---

(١) فى المخطوطات الثلاثة (الثروة) وهو تحريف.

(٢) هكذا وردت فى «ج». وفى الزيتونة، ظلت.

(٣) وردت فى «ج» بأمر، والتصويب من «الملكية».

(٤) هكذا وردت فى «الملكية» والزيتونة. وفى «ج» المكافأة. والأولى أرجح.

(٥) وردت فى «ج» تفويقهم. والتصويب من «الملكية» والزيتونة.

(٦) هكذا وردت فى «ج». وفى الملكية» والزيتونة، والخيرات. والأولى أرجح.

الحادثة التي جرت عليه

واستمرت أيامه كأحسن أيام الدول ، خفضُ عيش[١] ، وتوالى خِصب ، وشياعُ أمْن ، إلا أنَّ شيخْ الدولة القايد أبا النعيم رحمه الله ، أضاع الحَزْم . وإذا أراد الله إنفاذ [قضايه وقَدَره][٢] ، سلب ذوى العقول عقولهم ، بما كان من أمنه جانب القصر[٣] الملزم دار سكناه ، من عِلْية فيها أخو السلطان ، بتهاونه بحيل أمّه المداخلة فى تحويل الأمر اليه ، جُملة من الأشرار ، دار أمرهم على زوج ابنتها الرئيس محمد بن إسماعيل بن فرج من القرابة الأخلاف ، وإبراهيم بن أبى الفتح . والدليل الموروري[٤] ، وأمدته بالمال ، فداخل القومُ جملةً من فرسان القيود ، وعَمَرة السُّجون ، وقلاميد الأسوار . وكانت تتردد إليه فى سبيل زيارة بنتها الساكنة فى عِصمة هذا الخبيث ، المنزوع العصمة ، خارج القلعة حتى تم يوم الأربعاء الثامن والعشرين لرمضان من العام ؛ اجتمعوا وقد خَفِى أمرهم ، وقد تألفوا عددا يناهز المائة بالقوس الداخل من وادى هَدَاره الى البلد ؛ اصق الجناح الصاعد منه إلى الحمراء ، وكان بسورها ثَلْم ، لم يتم ما شرعوا فيه من إصلاحه ؛ فنصبوا سُلما أُعُد لذلك ، وصعدوا منه . ولما استوفوا ، قصدوا الباب المُضاع المَسْلحة ، للثقة بما قبله ؛ فلما تجاوزوه أعلنوا بالصياح ، واستغلظوا بالتهويل . وراعوا الناس بالاستكثار من مشاعل الخلفاء ، فقصدت طايفة منهم دار الشيخ القايد أبى النعيم ؛

---

(١) وردت فى «ج» عيشة . وقد آثرنا لفظة «الملكية» والزيتونة .

(٢) هذا ما ورد فى «ج» . وفى «الملكية» ، والزيتونة (أمر من أوامره) . والمؤدى واحد .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (الصبر) وهو تحريف . ونعتقد أن المعنى يستقيم بالتصويب

(٤) الموروري أو الدليل الموروري ، هو أحد الزعماء الذين اشتركوا مع الرئيس محمد بن إسماعيل بن فرج فى تدبير الثورة ، التى نشبت فى رمضان سنة ٧٦٠ هـ ، وانتهت بعزل محمد الغنى بالله ، وإجلاس أخيه إسماعيل بن يوسف مكانه على العرش . وقد ولاه هذا السلطان وزارته ، وجعله حافظ الباب وأمين السدة . راجع الإحاطة (١٩٧٣) ج ١ ص ٤٠١ و ٥٢٤ . واللمحة البدرية ص ١١٦ .

فاقتحمته غلاباً وكسرت أبوابه ؛ وقتلته فى مضجعه ؛وبين أهله وولده ، وانتهبت ما وجدت به . وقصدت الأخرى دار الأمير ، الذى قامت بدعوته ، فاستنجزته واستولت على الأمر . وكان السلطان متحولاً بأهله[1] الى سكنى « جنة العريف »[2] خارج القلعة ، فلما طرقه النبأ ؛ وقرعت سمعه الطبول سدّده الله ؛ وساند[3] أمره فى حال الحيرة ، إلى امتطاء جواد كان مُرْتَبطا عنده فى ثياب تبذّله ومصاحباً لأفراد من ناسه ؛ وطار على وجهه ، فلحق بوادى آش قبل مسبوق نكبته ، وطُرق مكانُه بأثر ذلك ، فلم يُلْف فيه ، واتُّبِع فأعْيا المُتْبع . ومن الغَد ، استقام الأمرُ لأولى الثورة ، واستكملوا لصاحبهم أمر البيْعة ، وخاطبوا البلاد فألْقَت إلى صاحبهم بالأزِّمة ، وأرسلوا [إلى][4] ملك النصارى فى عقد الصلح . وشرعوا فى منازلة وادى آش ، بعد أن ثبت أهلُها مع المُعتصم بها ، فلازمته المحلات وولى عليه التضييق . وخيف فوات البدر ونفاد القوة ، فشرع السلطان فى النظر لنفسه ، وخاطب السلطان أبا سالم ملك المغرب فى شأن القدوم عليه ، فتلقاه بالقبول وبعث من يمهد الحديث فى شأنه ، فتمّ ذلك ثانى يوم عيد النّحر من العام . وكنت عند الحادثة على السلطان ، ساكناً بجنتى المنسوبة إلىّ من الحَضْرة ، منتقلا إليها بجملتى ، عادةُ المُترَفين ، إذ ذاك من مثلى ، فتخطانى الحَتْف ، ونالتنى النكبةُ ،

---

(١) هكذا فى «ج» والملكية ، وفى الزيتونة (بأمره) .

(٢) هو قصر صغير أنيق يقوم فوق ربوة عالية ، تقع على مقربة من شمال شرقى قصبة الحمراء . وقد كان فيما يبدو بموقعه الجميل وروعة المناظر الطبيعية التى تحيط به ، مصيفاً لسلاطين غرناطة ، ويعرف بالإسبانية El Generalife . وقد كان الوقت الذى وقع فيه الانقلاب الذى يرويه ابن الخطيب وهو أواخر رمضان سنة ٧٦٠ هـ يوافق أوائل سبتمبر سنة ١٣٥٧ ، أعنى أوائل فصل الخريف .

(٣) هكذا فى «ج» ، وفى «الملكية» والزيتونة (وسواس) وهو تحريف .

(٤) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة ويقتضيها السياق .

فاسْتأصلت النعمةُ العريضةُ ، والجِدة الشهيرة ، فما ابتقَت طارفاً ولا تليداً ، ولاذَرَت قديماً ولا حديثاً ، والحمد لله مُخَفف الحساب ، وموقظ أولى الألباب ، ولَطَف الله بأن(١) تَعَطّف السلطان بالمغرب إلى شفاعةٍ بى بخطِّه ، وجعل أمرى من فصول قَصْده . [فُفَكّت عنى](٢) أصابعُ الأعداء ، واستُخْلصت من أنيابهم ، ولحِقْتُ بالسلطان بوادى آش . فذهب البأس ، واجتمع الشّمل . وكان رحيلُ الجميع ثانى عيد النحر المذكور ، فكان النزول بفحص ألفَنْت ، ثم الانتقال إلى لَوْشة ، ثم إلى أنتقيره ، ثم إلى ذَكْوان ، ثم إلى مَرْبلّة(٣) يضم أهلُ [كلٌ](٤) محل من هذه [مأتماً للحسرة ، ومناحةً للفُرْقة](٥) . وكان ركوب البحر صَحْوة الرابع والعشرين من الشهر ، والاستقرار بمدينة سَبتة ، وكفى بالسلامة غُنْماً ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين .

وكان الرحيل إلى باب السلطان ، تحت برٌ لا تسعه العبارة ، ولقاؤنا إياه بظاهر البلد الجديد لإلمام ألمّ عاقَهُ عن الإصحار(٦) والتغنّى على البعد ، يوم الخميس السادس لمحرم من عام أحد وستين بعده ، فى مَركب هايل ، واحتفال رايع رايق ، فعُورض فيه النزول عن الصَّهوات ، والبرُّ اللايق بمناصب الملوك ، والوصولُ إلى الدار السلطانية(٧) ، والطعامُ الجامع للطبقات وشيوخ القبيل . وقمتُ يومئذ فوق رأس السلطان وبين يدى مؤمِّله ، فأنشدتُه مُغرياً بنَصره ، كالوسيلة بقولى :

---

(١) وردت فى «ج» . ولم ترد فى الملكية . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) وردت فى «ج» والزيتونة (ففككت عن) . والتصويب أفضل للسياق .

(٣) إن هذه البلاد كلها تقع فى الطريق من وادى آش إلى لوشة أولا ، ثم جنوبا بغرب إلى أنتقيرة ، ثم إلى ذكوان ، ثم إلى مربلة على شاطىء البحر المتوسط . وقد كانت بعد سقوط الجزيرة الخضراء وجبل طارق فيما بعد من أهم ثغور العبور بين الأندلس والمغرب .

(٤) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة ، وبها يستقيم السياق .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . ووردت فى «الملكية» والزيتونة كالاتى : (مأتم الحسرة ومناحة الفرقة) .

(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى الملكية والزيتونة (الإحصار) وهو تحريف .

(٧) هكذا فى «ج» . ووردت فى الملكية والزيتونة (الإمامية) .

سلا هل لديها من مُخَبِّرة ذِكْرُ   وهل أعشب الوادى ونمّ به الزهر

فهاج الامتعاض[١]، وسالت العَبَرَات، وكان يوماً مشهوداً، وموقفاً مشهوراً، طال به الحديث، وعمرت به النوادى، وتوزّعتنا[٢] النزايل على الأمل، شكرَ الله ذلك وكتبَه لأهله، يوم الافتقار إلى رحمته. واستمرت الأيام، ودالت الدولة للرئيس بالأندلس، والسلطان تغلبُه المواعيد، وتونسُه الآمال، والأسبابُ تتوفر، والبواعث تتأكد. وإذا أراد الله أمراً هيّأ أسبابه، واستقرّت بى الدارُ بمدينة سَلا، مرابطاً، مُستمتعاً بالغَيْبة، تحت نعمةٍ كبيرة، وإعفاء من التكليف.

وفى اليوم السابع لشوال من عام التاريخ، [قَعَدَ السلطان بقبّة العرْض][٣] بظاهر جنّة المُصارَة لتشييعه[٤]، بعد اتخاذ مايصلح لذلك؛ من آلةٍ وحِلْية[٥]، وقد برز الخلق، الشاهدة ذلك الموقف المُسيل للدموع، الباعث للرِّقّة، المُتْبَع بالدَّعوات، لماقذف الله فى القلوب من الرحمة، وصحِبه به فى التغرُّب من العناية، فلم تَذْبُ عنه عين، ولا تَخَلَّ له مَوْكِب، ولا تقلّصت عنه هيبةٌ، ولا فارقته حشمةٌ، كان اللهُ له فى الدنيا والآخرة. وأجاز، واضطربت الأحوال. بما كان من هلاك مُعِينه السلطان أبى سالم، وغَدْر الخبيث المُؤتَمن على قَلْعته به، عمر[٦] بن عبد الله بن على، صَغَّر الله حِزْبَه[٧]، وخَذّل خِزْيَه، وسُقِط

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة: الامتعاط.

(٢) وردت فى المخطوطين (وتورعتنا)، وبالتصويب يستقيم السياق.

(٣) هذه العبارة ساقطة فى المخطوطين. ونقلناها من «اللمحة البدرية» و «النفح».

(٤) وردت فى «ج» وتشييعه. وفى «الملكية» والزيتونة وتشيعه وهو تحريف. والمقصود هنا هو تشييع سلطان غرناطة المخلوع.

(٥) وردت فى «ج» وحيلة. وهو تحريف.

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة محرفة (عامر). والصواب ما أثبتناه.

(٧) وردت فى «ج» خزبه. والتصويب من «الملكية» والزيتونة.

فى يده ، إلا أنه ثَبَتَت فى رُنْدة من إيالة الأندلس ، الراجعةِ إلى إيالة المغرب(١)، قدمُه ، فتعلّل بها ، وارتاشَ بسببها ، إلى أن فتح اللهُ عليه ، وسدّد عَزْمه ، وأراه لمّا ضَعُفَت الحيل صُنْعَه ، فتحرك إلى برّ مالَقة ، وقد فَغَر عليها العدو فمَه ، ثم أقبل على مالقة ، مستميتاً دونها ، فسهّل الله الصَّعْب ، وأنجح القصد ،واستولى عليها ، وانثالت عليه لحينها البلادُ ، وبَدا الريس المُتَوثِّب على الحضْرة ، بعد أن استَوْعَب الذّخيرة والعُدّة ، فى جُملةٍ ضخمةٍ ممن خاف على نفسه ، لو وفّى بذمّة الغادر وعهده ، واستقرّ بنادى(٢) صاحب قَشْتالة ، فأخَذَه بجريرته(٣) ، وحَكّمَ الحيلة فى جنايته وغَدْره ، وألْحق به من شاركه فى التّسوّر من شيعته ، ووجّه إلى السلطان برؤوسهم تَبَع رأسه . وحَثّ السلطان أسعده الله خُطاه إلى الحضْرة ، يتلقّاه الناسُ ، مُسْتبشرين ، وتتزاحمُ عليه أفواجُهم مُستقبلين مُستغفرين ، وأحقّ الله الحقّ بكلماته ، وقَطَع دابر الكافرين .

وكان دخولُ السلطان دار مُلْكه ، وعَوْدُه إلى أريكة سلطانه ، وحلولُه بمجلس أبيه وجَدّه ، زوال يوم السبت المُوفى عشرين لجمادى الثانية من عام ثلاثة وستين وسبعمائة ،جعلنا الله منهمّ الدنيا على حَذَر ، وألْهَمَنا لِما يَخْلُص عنده من قول وعمل. وتخلّف الأميرُ وولدُه بكرُه ، أسعدهُ الله ، بمدينة فاس فيمن معه من جملة ، وخلّفه من حاشية . [ولدّ المُسْتَولى(٤) على مُلْك المغرب فى إمساكه إلى أن يسترجعَ رُنْدة فى مُعارضة هدفَه . ثم إن الله جمع لأبيه بجمع شمْله ، وتمّم المقاصد بما عَمّه من سعده . وكان وصُولى إليه معه ، فى مَحْمل اليُمن(٥) والعافية ، وعلى كِسْر التّيْسير من الله

(١) كانت رندة يومئذ ضمن القواعد التى نزل عنها ملوك غرناطة لملوك المغرب (بنى مرين) لتكون لجيوشهم قواعد للنزول والرباط عند عبورها إلى الأندلس لإنجادها .

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة (بنا) والتصويب لازم لاستقامة المعنى .

(٣) وردت فى «ج» بجريرة . وفى «الملكية» (فى جزيرة) وهو تحريف .

(٤) هكذا فى «ج». وفى الزيتونة (المتوثب) (٥) هكذا فى «ج» . وفى الزيتونة (اليسر) .

والعناية][1] يوم السبت المُوفى عشرين شعبان عام ثلاثة وستين وسبعمائة .

ترتيب الدولة الثانية السعيدة الدور
إلى بيعة الكور

هَنّأ المسلمين ببركتها الوافرة ، ومزاياها المُتكاثرة . السلطان أيده الله قد مرّ ذِكرُه ، ويسر الله من ذلك ما تيسّر .

وزراؤه

اقتضى حَزْمُه إغفالَ هذا الرَّسم جُملة ، مع ضرورته فى السياسة ، وعظم الدخول ، حذَراً[2] من انبعاث المكروه له من قِبَله ، وإن كان قدّم[3] بهذا اللقب فى طريق[4] مُنْصَرفه إلى الأندلس . وإيّاماً من مُقامه برُنْدة ، فنَحَله عن كُرْه ، على بن يوسف بن كُماشة ، من عِتاق[5] خدّامه وخدّام أبيه ، مُستصحباً إيّاه ، مَسدول التَّجمُّل على باطن نفْرة ، مختومُ الجُرْم ، على شوكه ، فى حَطْبه فى حَبْل المتغلب ، وإقراضِه السيئة من الحسنة ، والمنزل الخَشِن ، إلى الإنفاق منه على الخِلال الذّميمة ، ترأسها خاصّة الشّوم ، علاوة على حَمْل الشيخ الغريب الأخبار ، والطّمع فى أرزاق الدور[6] ، والاسترابة بمودّة الأب ، وضيق العَطَن[7] ، وقِصَر

---

(١) وردت فى «الملكية» مقابل هذه الفقرة التى بين الحاصرتين ، فقرة أخرى لا تمت إليها بأية صلة ، وذلك على النحو الآتى : (يصل فيها اليتيم والأرملة ، فيفرح الضعيف ، وينتظر حصول الزمن ، يعتمد .... ويعاقب الوزعة فى الأغلاط إلى أحسن الملكة .... فى الأمر عن سعد . وكان ... فى ترك الحظ ، والتبرى من سجية الانتقام ، والكلف بما تيسر من الله والعناية ، يوم السبت ...)

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة : حوزا . والتصويب أرجح .

(٣) وردت فى « ج » والملكية (قدموه) . وفى الزيتونة (قدمه) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٤) وردت فى المخطوطين : طريقه .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة : عقاق . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٦) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى «ج» والملكية (الدر) .

(٧) وردت فى المخطوطات الثلاثة : (الطعن) . وهو تحريف .

الباب ، وعَىّ اللسان ، ومشهور الجُبْن . ولما وقع القَبْضُ ، وساء الظن ، بعثه من رُندة إلى الباب المَرِينى ليخلى منه جُندَه ، ويجسّ مرض الأيام ، بعد أن نقل من الخُطة كعْبَه ، فتيسر بعدَ مُنصرفه الأمر ، وتسَنّي الفتح . وحمله الجَشعُ الفاضح ، والهوى المتّبع ،على التشطّط لنفسه ، والكَدْح لخويْصّته بما أقطعه الجفْوة ، وعسُر عليه العودة على السلطان بولده ، إلى أن بلغ الخبرُ برجوع أمره ، ودخول البلاد فى طاعته ، فألقى ماتعيّن إليه ، وأهوى به الطمعُ البالغ فى عرْش الدولة ، ويرْتاشُ فى ريق انتقامها . وتحرّك رايةُ الإخفاق خافقةً على رأسه ، قُطبَ مَخْلَصه ، وجُؤجوةَ عَوْده ، من شيخ تدور بين فَتْكه رَحَى جَعْجَعة ، وتثور بين أضْلاعه(١) حَيّة مكيدةٍ ، وينْعَق(٢) فوق مساعيه غرابُ شومٍ وطيرة . وحدّث حرفاؤه صَرْفاً من مداخلة سلطان قشتالة ، أيامهذه المجاورة ، فبلغ أُمنيته من ضربٍ وعدٍ ، واقتناء عهدٍ ، واتخاذ مددٍ ، وترْصيد دار قرارٍ ، موهماً نفسه البقاء والتعميرَ والتملّى ، وانفساح المدةِ والأمرِ ، وقيادةِ الدُجَن(٣) عند تحوّل الموطِن لِملّة(٤) الكُفْرِ ، يسْمح(٥) لذلك ، لنقصان عقله ، وقِلّة حَيائه وضعف غَيْرته . وطَوَى المراحل ، وقيّض حُمّى تزَلزَل(٦) لها فكاكُه ، أضلّها الحسرةُ ، وانتزاء(٧) الخبائث . وتلقّاه بمالقة ، إيعازُ السلطان بالإقامة بها ، لما يتّصل به من سوء تصريفه ، ثم أطْلَع شافع الحياء فى استقامة وطنه طَوْق عَتْبه ، وصَرَفه إلى مَنْزله ، ناظراً فى علاج مَرَضه . ثم لمّا أفاق

---

(١) فى «ج» أغلاطه . والتصويب من الملكية .

(٢) وردت فى «ج» ويلحق . والتصويب من الملكية وهو أرجح .

(٣) الدجن من تدجن أى بقى بأرض الوطن بعد سقوطها فى أيدى النصارى . والمدجنون هم المسلمون الأندلسيون الذين كانوا يبقون فى الأرض التى يفتتحها النصارى .

(٤) وردت فى «ج» الملكة ، وفى «الملكية» لملكة . ونعتقد أنه تحريف . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى الملكية والزيتونة (ينجح) والأولى أرجح .

(٦) وردت فى «ج» تولول . وفى «الملكية» تزلزلول . وهو تحريف .

(٧) وردت فى المخطوطين : انتزام . ونعتقد أن التصويب أرجح .

وَقَفَه دون حدِّه ، ولم يَسْند إليه شيئاً من أُموره ، فشرع فى دَيْدَنه من الفساد عليه، وتَمرّس سلطان قشتالة ، شاكياً إليه بَثّه ، وأُضْجَر لسُكنى باديته بالثغر ، فراب السلطانُ أمرَه ، وأهمّه شأنه ، فتَقَبّض عليه وعلى ولده ، وصُرِفا فى جُملة من دائرة الشّوء ممن ثَقُلت^(١) وَطْأته ، فغُرّبوا إلى تونس ، أوايل شهر رمضان من عام ثلاثة وستين . ثم لما قفَل من الحج ، واستقرّ ببِجاية يُريد المغرب ، حَنّ إلى جوار النّصْرانية ، التى ريمَ سالفُه العبوديّة إليها ، فعبر البحر إلى بَرْجلونه ، ينفُض عناء طريق الحجّ على الصُّلبان ، ويقفو على آثار تَقْبيل الحجر الأَسْوَد ، تقبيلَ أيدى الكُفّار . ثم قصد باب المَغْرب رسولاً عن طاغية^(٢) بَرْجلونه فى سبيل فسادٍ على المسلمين ، فلم ينجح فيه قصدُه ، فتقاعد لمّا خَسر فيه ضمانه ، وصَرَف وكْرَه إلى الاتصال بصاحب قَشْتالة ، وعَنّ على كَتْبٍ إليه بخطِّه ، يتنفّقُ عنده ويُغْريه بالمسلمين ، فتُقُبِّض عليه ، وسُجن بفاس مع أرباب الجرائم . وعلى ذلك استقر حالُه إلى اليوم ، وأبرأُ إلى الله من التّجاوز فى أمره . ومن يُضْلِل الله فما له من هاد .

ولمّا وفَدْتُ على السلطان بولَدِه ، وقَرّت عينى بلقايه ، تحت سَدَادِه وعزِّه ، وفوق أريكةِ مُلْكه ، وأدّيتُ ما يجب من حقّه ، عرضتُ عليه غَرَضى ، ونَفَضْتُ له خِزانة سِرّى ، وكاشفتُه ضميرى بما عقدتُ مع الله عهدى ، وصرفتُ إلى التّشْريق^(٣) وَجْهى ، فعلِقت بى لركُومه علوقُ الكرامة ، ولاطَفنى بما عاملت البرّ بين الدُّعر والضّنانة ، ويضربُ الآماد^(٣) [وخرج لى عن الضرورة ، وأرانى أن مُؤازرته أَبَرّ القُرْب ، وراكننى إلى عَهْدٍ بخطّه ، فَسَح فيه لعامين أمدَ النواء ،

(١) وردت فى «ج» والزيتونة ثقلة . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة : طا — فقط . والتصويب ضرورى لإستقامة السياق .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . والمقصود بها السفر إلى المشرق لقضاء فريضة الحج .

واقتدى بشُعَيب صلوات الله عليه فى طلب الزِّيادة على تلك النِّسْبة ، وأشهَد من حضر من العِلْية ، ثم رمى إلى بعد ذلك بمقاليد رأيه ، وحكَّم عقلى فى اختيار عَقْلِه ، وغَطَّى من جَفائى بحلمِه ، وحَثَا فى وجوه شهواته ترابَ زَجْرى ، وَوَقَف القبولَ على وَعْظى ، وصَرَف هواه فى التحول ثانياً وقصدى ، واعترف بقبول نصحى ، فاستعنتُ بالله ، وعاملتُ وجهه فيه](١). وصادقنى مُقارَضَة الحقِّ بالجهاد ، ورمى إلى بدُنْياه ، وحكَّمنى فيما مَلَكَته يداه ، وغَلَّبنى على أمْره لهذا العهد ، والله غالبٌ على أمره . فأكل المقامُ ببابه إلى هذا التاريخ مُدَّةً أجْرى الله فيها ، من يُمْن النَّقِيبة ، واطِّراد السَّداد ، وطَرْد(٢) الهوى ، ورَفْض الزُّور(٣) ، واستشعار الجِدِّ ، ونُصْح الدِّين ، وسَدِّ الثغور ، وصَون الجِباية ، وإنْصاف المُرْتَزقة ، ومُحاولة العدُوّ ، وقَرْع الأسماع بلسان الصِّدق ، وإيقاظ العُيون من نوم الغَفْلة ، وقَدْح زِناد الرُّجولة ، ما هو معلوم ، يُعضِّد دعواه ، ولله المِنّة ، سجيةُ السَّذاجة ، ورفعُ التَّسَمُّت(٤) ، وتكوُّر المِنْسَأه ، وتَفْويت العَقار فى سبيل القُربة ، والزُّهد فى الزِّبْرِج ، وبثِّ حِبال الآمال ، والتَّعزيز بالله عن الغَنِيمة ، وجعل الثوب غطاء الليل ، ومقعد المطالعة فراش النَّوم ، والشغل لمصلحة الإسلام ، لرَتْم الأنفاس ، فأثمر هذا السكرخ(٥)، وأنْبجَ هذا المسعى مناقب الدولة ، بلغت أعنان(٦) ، وآثاراً خالدة ، مابقيت الخضْراء على الغَبْراء ، وأخباراً تُنقل وتُروى ، إن عانَدها الحاسدُ ، فَضَحه الصَّباح المنيرُ ، وكاثَرَهُ القَطْر المُنْثال ، وأعْياه السَّيل المتدافع :

---

(١) هذه الفقرة التى بين الحاصرتين وردت فى نفح الطيب (ج ٣ ص ٤١) ولم ترد فى «ج» ولا فى «الملكية» والزيتونة .

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة (أطراد) مرة أخرى . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . ووردت محرفة فى «الملكية» (الدور) .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى الزيتونة (التسمية) .

(٥) هكذا وردت فى الملكية والزيتونة ، وفى «ج» (الكرج) .

(٦) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

فما يختص من ذلك بالسلطان ، فخامةُ الرتبة ، ونباهةُ الألقاب ، وتجمُّلُ الرياش ، وتربع(١) الشريعة ، وارتفاعُ التَّشاجُر ببابه ، والمنافسةُ والاغتباطُ منه، بمجالس التنبيه والمذاكرة ، وبِدارُ الدموع فى حال الرِّقة، والإشادةُ باحتقار الدنيا بين الخاصة ، وتعيينُ الصدقات فى الأوقات العديدة ، والقعودُ لمباشرة المظالم ستة عشر يوماً فى كل شهر من شهور الأهِلّةِ ، يصلُ إليه فيها اليتيمُ والأرْمَلة ، فيفرحُ الضعيف ، وينتظر حضورَ(٢) الزمن ، ويتغمّدُ هفوة الجاهل ، ويتأثر لشكوى المصاب ، ويعاقب الوَزَعة على الأغلاط ، إلى إحسان(٣) المِلْكة فى الأسرى ، والإغرابِ فى باب الحِلْم ، والإعياء فى ترك الحظ ، والتبرِّى من سجِيّة الانتقام، والكَلَف بارتباط الخيل ، واقتناء أنواع السلاح ، ومباشرةِ الجهاد ، والوقار فى الهيعات ، وإرسال سجيّة الإيمان ، وكسادِ سوقِ المكيدة ، والتصامُمُ عن السعاية ؛ هذا مع الشباب الغضّ ، والفاحم الجَعْد ، وتعدّد(٤) حبائل الشيطان فى مسالك العُمْر ، ومطاردة قانِص اللّذات فى ظلِّ السِّلْم ، ومغازلةِ عيونِ الشهوات من ثنايا الملوك . وأيْمُ الله الذى [به](٥) تُستخلص الحقوق ، وتُيسر السُّتور ، وتُستوثق العهود [ولا](٥) تطمئن القلوب إلاّ به ، ما كاذَبْتُه ، ولا راضيتُ فى الموادة طَوْله ، ولا سامحتُه فى نقيض هذه الخلال . ولقد كنتُ أعجبُ من نفاق أسواق الذِّكرى لديه ، وانتظام أقْيسة النصح عنده ، وإيقاع نبات الرُّشد فيه نصيحة، وأقول بارك الله فيها من سجيّة ، وهَنّأ المسلمين بها من نَفْس زَكيّة . وسيأتى بيانُ هذه النتائج ، وتفسيرُ مُجمِلِ هذه الفضايل بحول من لا حول إلا به

---

(١) وردت فى «ج» (فسوبع) وفى الملكية (فهوبع) . ونعتقد أن السياق يستقيم بالتصويب .
(٢) وردت فى «ج» (حصوا) وفى «الملكية» والزيتونة (حصو) وهو تحريف .
(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى الملكية (أحسن) . والأولى أرجح .
(٤) وردت فى «ج» التعدد . والتصويب من الملكية والزيتونة .
(٥) ساقطة فى المخطوطين ولازمة للسياق .

سبحانه . والحال متصلة على عهده الوثير من إعانته بالوسوع[١] ، والخروج له عن هذه العُهدة ، والتسليم له فى البقيّة ، إرهافاً لسيف جهاده ، وجلاء لمرآةِ نُصحه ، وتسوية لميزان عدله ، وإهابة [لَمَحْمد رُشده ، شدّ العُقدة ،عقدةً وغيرةً على حُرْمة ماله وعِرْضه][٢]،ورعايةً للسان العِلْمِ المُنْبِىء عن شأنه ، ونيابةً عنه فى مَعْقِل مُلْكه، ومُستودع ماله وذخيرته ، ومحافظة على سِرّه وعلانيته[٣] لحُرَمه وولده ، وعُمراناً للجوانح بِتفضيله وحُبّه ، معاملةً أخلص الله قصدها لوجهه ، وأمْحَضها من أجله ، ترفعه عن جِراية [رحْل هلالُها ، وإقطاع تَنْجَع قدرتُه ، أو فِصلة تعبثُ البنان بنشيرها ، وخُطَّة تشد إليه على منشورها][٤] . والله يُرْجح ميزانى عنده ، ويحظى وسيلتى لديه ، ويحرّك مكافأة سعيى فى خواطر حَجّه ، ويُنَبّه لتبليغ أملى من حَجّ بيت الله ، وزيارة رسول الله ، بمَنّه وكرمه ، فما على استِحْثاث الأَجَل من قرار ، ولا بعد الشّيب من إعذار ، وحسبُنا الله ونعم الوكيل .

أولاده

كُل له فى هذا الوقت من الوَلَد أربعة ، ثلاثتهم ذ كُورٌ ، يوسف بكرهُ ، وأراه يتلوه سعد ، ثم نصر ، غِلمة رُوقَة ، قد أفرغهم الله فى قالب الكمال ، إذا رأيتَهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ، فَسَحَ الله لهم أَمَدَ السعادة ، وجعل مساعيهم جانحةً إلى حُسنى[٥] العُقبى ، سالكاً [بهم][٦] سبيل الاهتداء بفضل الله ورحمته .

---

(١) هكذا فى «الملكية» والزيتونة . وفى «ج» (بالوسع) .

(٢) هذه الفقرة واردة فى «ج» و«الملكية» . وساقطة فى الزيتونة .

(٣) وردت فى «ج» وعناية . والتصويب من «الملكية» والزيتونة .

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط فى الزيتونة .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» نعم . والمؤدى واحد .

(٦) ساقطة فى «ج» . ووردت فى «الملكية» والزيتونة ، على . وبالتصويب يستقيم السياق .

قضـــاتـه

قدّم لأول قدومه ، الفقيه القاضى ، الحسيب ، الخيِّر ، أبا جعفر بن أحمد بن جُزَى ، شاكراً بلاءه بمالَقة ، إذ كان قد ألقاه قاضياً بها للمُتَغَلِّب ، فلم يألُ جهداً فى الإجْلاب على من اعتصم بقَصَبتها ، والتحريض على اسْتِنْزَالهم ، فاتّخذ زُلْفَةً لديه ، فأجرى الأحكام ، وتوخّى السَّداد . ثم قدّم [إليها] (١) الفقيه القاضى الحسيب ، أبا الحسن على بن عبد الله بن الحسن ، عينَ الأعيان ببلده مالقة ، والمخصوص برسم التَجِلَّة ، والقيام بوظيفة العَقْد والحلّ بهـا فى الدولة الأولى ، وأصالة البيت، والانقطاع(٢) إليه ، ومصاحبة رِكابه فى طلب [المُلْك] (٣) ، ومُتَسَوِّر للشاق من أجله ، وأولى الناس باستِدْرار خلفِ دولته ، فسدَّدَ وقارب ، وحَمَل الـكَلّ ، وأحسن فصاحة [الخُطبة] (٤) والخُطة ، وأكرم المَشْيخة وأرضى ، واستشعر النّزاهة ، ولم يَقِف فى حُسْن التأنّي عند غاية ، واشتمل معها لِفْق الخطابة ، فأبرز وأعلم ، تسمِّياً وحِفْظاً وَجَهْوريّةً ، فاتُّفِق فى ذلك على رجاحته(٥) ، واستصحب(٦) نظره على الأحباس . فلم يقف فى النصح عند غاية ، أعانه الله .

كتّـابه

أسند الـكتابة إلى الفقية المُدْرِك ، المبرِّز فى كثير من الخلال(٧) ، ملازمه

---

(١) ساقطة فى «ج» . وواردة فى الملكية والزيتونة .
(٢) وردت فى «ج» والزيتونة (الإقطاع) . وبالتصويب يستقيم السياق .
(٣) ساقطة فى المخطوطين ، وإثباتها لازم السياق .
(٤) هذه الزيادة من الزيتونة .
(٥) هكذا وردت فى «الملكية» والزيتونة . وفى «ج» رجحانه . والأولى أنسب للسياق .
(٦) هكذا فى الملكية والزيتونة ووردت محرفة فى «ج» . واستحب .
(٧) وردت فى «ج» الخلل . والتصويب من «الملكية» والزيتونة .

أيضاً فى طلب المُلْك ، [ومطاردةِ قَنْص الحظِّ](١) أبى عبد الله بن زَمرك ، ويأتى التعريف بجميعهم .

شيخ غزاته

مُتولى ذلك فى الدولة الأولى ، الشيخُ أبو زكريا يحيي بن عمر بن رَحُّو بن عبد الله بن عبد الحق ، قدّمه إليها مُعْتباً إياه ، طاوياً بِساط العدوّ بالجملة ، قدّموها بابنه عثمان [على](٢) الخاصَّة يومئذ ، لمظاهرته فى الوُجهة ، وسعيه فى عَوْدة الدَّولة . واستمرت الحال إلى اليوم الثالث عشر لشهر رمضان من عام أربعة وستين وسبعمائة ، وكان القبضُ على جُمْلتهم ، وأُجلى(٣) هذا البيت من سُفرة السياسة مدّة ، مجتزِياً فيه بنظَره على رسْمه فى الوَزاة من قَبيلِهِ . ثم قدّم إليها موعودَه بها القديمَ الخدمة ، وسالفَ الأذْمَة ، لمّا لجأ إلى وادى آش مفلتاً من وَبْقَة(٤) الحادثة ، الشيخ أبا الحسن على بن بدر الدين بن موسى بن رَحُّو بن عبد الله بن عبد الحق ، حلف السَّداد أيامه(٥) ، والمقاربة والفضل والدَّماثة ، المخصوصَ على اختصار بيُمْن النَّقِيبة ، واستمرت أيامه إلى نُقْبَة القفول عن غزوة جَيّان أخريات محرم من عام تسعة وستين ، وتوفى رحمه الله حَتْفَ أنفه ، فاحتُفل لمواراته ، وإقرابه من تأبِّيه ، واستغفارِه . والاعترافِ بصدق موالاته ، وتَفْجيعه لفقدِهِ ، وما أعربَ به من وفاء نَجْده ، وَقدّم لها عهْداً طُرف اختيارُه ، الأمين(٦) ، الشَّهم ، البُهْمَة ، خِدْن الشُّهرة ، والمشار إليه بالبَسالة ، وفرع المُلْك

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . ووردت مقابلها فى «الملكية» (ومطارحة الحظ) وفى الزيتونة (ومطاردة الحظ) .

(٢) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة . ويقتضيها السياق .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الملكية» والزيتونة وأحلى . والأولى أرجح .

(٤) هكذا وردت فى الزيتونة . ووردت فى «ج» والملكية (وثبة) . والأولى أرجح .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٦) وردت فى «ج» الأمير . والتصويب من «الملكية» والزيتونة .

والأصالة ، عبد الرحمن بن الأمير أبى الحسن على بن السلطان أبى على عمر بن أمير المسلمين أبى سعيد عثمان بن أمير المسلمين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، إذ كان قد لحق به ، بعد ظهور أتيح(١) له بوطنه من المغرب ، استقر مبايعاً بمالة سِجِلْماسة وما إليها ، وطنِ جَدِّه، ومِيراثِ سلفه ، ففَسَح له جانبَ قبوله ، وأحَلَّه من قُرْبه محلّ(٢) مثله ، وأنزله بين ثغر الاغتباط ونَحْره ، ثم استظهر به على هذا الأمر ، فأحسن الاختيار ، وأعزّ الخُطة ، وهو القايم عليها لهذا العهد ، وإلى الله أسباب توفيقه .

ظَرْفُ السلطان وحُسن توقيعه

بَذّ فى هذا الباب من تقدّمه ، وكثرة وقوعه ، بحيث لا[يُعدّ نادرُه](٣) ، وقليلُ الشىء يدُل على كثيره . مرّ بى يوماً ومعى ولدُه ، يروم اتّخاذ حذق القرآن، فقلتُ له أيّدك الله ، الأميرُ يريد كذا ، ولا بدّ له من ذلك، وأنا وكيله عليك فى هذا ، فقال حسبُنا الله ونعم الوكيل . ولا خفاء ببراعة هذا التوقيع . وغرابة مقاصده . ومجالسُه على الأيام معمورة بهذا ومثله(٤) .

الملوك على عهده

بالمغرب السلطان الجليل إبراهيم [بن السلطان] أبى الحسن ، بن السلطان أبى سعيد بن السلطان أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق . تولى مُلك المغرب حسبما تقدم فى اسمه(٥) ، وألقى إليه بالمقاليد ، واستوسَقَت له الطاعة ، وبحسب ما بثّ الله من

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة : (أبيح) . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة (على) . والتصويب أنسب للسياق .

(٣) وردت فى«ج»و «الملكية» (يعد نادك) . وفى الزيتونة (يعددك). وبالتصويب يستقيم المعنى

(٤) وردت فى «ج» ولمثله . والتصويب من «الملكية» والزيتونة .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة (اسم أبيه) . وهو تحريف والصواب ما أثبتناه ، لأن المقصود هنا هو الإشارة إلى اسم السلطان إبراهيم أبى سالم . وقد مرت ترجمته فى المجلد الأول ص٣٠٢ .

إشرباب[١] الخلق إليه ، وتعطشهم إلى لقاية ، ورغبتهم فى إنهاضه إلى ملك أبيه ، كان انقلابهم إلى ضد هذه الخلال ، شرقاً بأيامه وإحصاء لسقطاته ، وولعاً باغتيابه وتربصاً لمكروه به ، إذ أخفقت فيه الآمال ، واستولت الأيدى من خُدامه على مُلكه . وقيّض الله لإبادة أمره، وتغيّر حالة وهدّ ركنه، الخائن الغادر نسمةُ السوء وقَذار ناقةِ الملك ، وصاعقة الوطن [وحَرْد السّيد][٢] عمرُ بن عبد الله بن على مؤتمنة[٣] على البَلَد الجديد ، دارِ ملكه ومستودع ماله وذخيرته، فسدّ الباب دونه ، وجهَرَ بخُلْعانه . وفض فى اتّباع الناعق المشئوم سورَ ماله، وأقام الدّعوة باسم أخيه أبى عمر ، ذى اللّوثة، الميئوس من إفاقته ، وذلك ضحوة اليوم الثامن عشر لشوال من عام اثنين وستين وسبعمائه . وبادر السلطان أبو سالم البيعة من مُتَحول سكناه بقصر البلد القديم[٤] ، وصابر الأمر عامّة اليوم . ولما جنّ الليل ، فرّ لوجهة ، وأسلم وزراءه وخاصّتَه ، وقيّدت خطاه الخيريّة ، فأوى الى بعض البيوت ، وبه تلاحق متبوعُه ، فقيد إلى مصرعه السّوء بظاهر بلده، وحُزّ رأسه، وأوتى به إلى الغادر. وكان ما بين انفصال السلطان عنه مُودعا إلى الأندلس بإعانته ، ومطوّق فضل تلقيه وقفوله وحسن كفالته ، ثمانية أشهر ويوم واحد . واستمرت دعوة أخيه المُمَوَّه به إلى الرابع والعشرين من صفر من عام ثلاثة وستين وسبعمائة ، واستدعى من باب قَشْتالة الأمير محمد أبو زيّان بن الأمير أبى زيد بن عبد الرحمن بن السلطان المعظم أبى الحسن . وقد استقر نازعاً إليه أيام عمه السلطان أبى سالم ، وقع عليه اختيارُ

---

(١) هكذا وردت فى الملكية والزيتونة . وفى «ج» (أشر) وهو تحريف . والاشرباب هو المحبة والميل .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة والملكية . وفى «ج» (جرد السيد) .

(٣) وردت فى «ج» ويتمنه . وهى املاء قديمة .

(٤) أى مدينة فاس القديمة أوفاس البالى حسبما تسمى . وذلك بعكس البلد الجديد ، وهو الضاحية الملوكية التى أنشأها بنو مرين بجوار فاس .

هذا الوزير الغادر ، أذ وافق شنُ تغلّبه طبقَ ضعفه ، وأعمل الحيلة فى استجلابه ، فوصل حسب غرضه ، وأجريت الأمور باسمه ، وأعيد أخوه المعتوه إلى مكانه ، واستمرت أيام هذا الأمير مغلوباً عليه ، مغرىً بالشراب على فيه[وبين الصَّحب][(١)] إلى أن ساءت حاله ، وامتلأت بالموجدة على الوزير نفسه ، فعاجله بحتفه ، وباشر اغتياله ، وأوعز إلى خدامه بخَنْقه ، وطَرْحه بحاله فى بعض سواقى قصره ، مُتْبعاً ببعض أوانى خمره ، يوهمُ بذلك قاتلهُ ، تردّيه سكراً ، وهَوْيه طفوحاً . ووقف عليه بالعدول عند استخراجه ، ونَدَب النّاس إلى مواراته ، وبايع يومه ذلك أبا فارس عبدالعزيز وارث ملك أبيه السلطان أبى الحسن ، المنفرد به ، وخاطب الجهات بدعوته ، وهو صبيٌّ ظاهرُ النبل والإدراك ، مشهورُ الصَّون ، وأعمل الحيلة لأول أمره ، على هذا الوزيرَ مخيف أريكة مُلْكه ، ومظنّة البِدا فى أمره ، فطوقه الحِمام[واستأصل ما زَرَاه][(٢)] من مال وذخيرة ، شكرَ اللهُ على الدولة صنيعهَ وفى ذلك يقول :

لقد كان كالحجاج فى فتكاته   تحاذره البرآء دوماً وتخشاه

تغمدًا به عبد العزيزُ مبادراً   وعاجله من قبل أن يتعشاه

وكان بعده وليه الحق ونصيره لا إلـه إلا هو . وهو اليوم ملكُ المغرب ، مزاحَماً بابن أخيه ، السلطان أبى سالم ، المعقود البيعة بمرّاكش وما إليها ، جمع الله شتات الإسلام ، ورفع عن البلاد والعباد مضرَّة الفِتنَة .

وبتلمسان السلطان أبو حمو موسى بن الأمير أبى يعقوب يوسف بن عبدالرحمن ابن يحيي بن يَغْمُراسن بن زيّان . حسبما كان فى الدولة الأولى ، متقتها[(٣)] منه على خلال الكرم [والحزم][(٤)] مضطلعاً بأمره[(٥)] والقيام على ما بيده .

---

(١) وردت فى المخطوطين (وبين العصب) . وهى ساقطة فى الزيتونة . ونعتقد أن المعنى يستقيم بهذا التصويب .

(٢) وردت فى «ج» (واستأصل ما رناه) . وفى «الملكية» والزيتونة (واستأزر مازراه) . وقد اخترنا الصحيح من العبارتين .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .   (٤) الزيادة من الزيتونة

(٥) وردت فى «ج» (بدجا أمره) . والتصويب من «الملكية» والزيتونة .

وبتونس ، الأمير أبو سالم إبراهيم بن الأمير أبي يحيى بن أبي حفص ، حسبما تقدم ذكره .

ومن ملوك النصارى

فبقَشْتالة سلطانُها المتقدم الذكر في الدولة الأولى ، بِطْرُه بن السلطان ألهَنْشة بن هراندة بن شانجُه بن ألهنشة بن هراندة ، متأكدة بينهما السِّلْم الجمّة ، والهُدنة المُبْرمة ، بما سَلَف من مظاهرته إيَّاه ، والحرص على [ما استْحَانه](١) من المغرب في أسطوله ، وبعثِه إليه برأسِ عدوِّه المتوثِّب على ملكه ، ورؤوس أشياعه الظالمين الغَدَرة، وأتباعه(٢) الفَجَرة ، مستمرةً أيامه إلى وسط شعبان عام سبعة وستين، صارفاً وجْهَه إلى محاربة صاحب برجلونة ، مستولياً على كثير من قواعده الشهيرة، وقلاعه المنيعة ، لما أسلَفه به من إجازته(٣) أخيه أنْدَريق المدعو بالقُنْد(٤) ، ومظاهرته حتى ساءت أحواله وأحوالُ عدوِّه ، وأوْهَنَت الحركات قوى جيشه ، وأضْعَف الاحتشادُ عَمْرة أرضه ، واشرَأبّت القلوبُ إلى الانحراف عن دعوته ، ومالت النفوس إلى أخيه ، وقامت البلاد بدعوته ، وتلاحقت الوجوه بجهته ، ورام التمسُّك بإشبيلية دارِ ملكه ، فثار أهلُها به في عام سبعة وستين . فخرج فارًّا عنها...(٥) به والسلاح يهشُّ إليه ، وبعد أن استظهر بخويصته ، وأحْمَل ماقدَر عليه من ذخيرة ، ورفع من له من ولدِ وحُرمة ، ورأى سُخْنة العين من انتهاب قصوره ،

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة في «الملكية» والزيتونة . ووردت في «ج» محرفة (على اسخاته) . وقد تعني هنا ما وعده به من إجازته في أسطوله .

(٢) هكذا وردت في «الملكية» والزيتونة . ووردت في «ج» (أشياعه) مرة أخرى .

(٣) هكذا في «ج» . وفي الملكية والزيتونة (إجازة) .

(٤) الإشارة هنا إلى الكونت هنرى دى تراستامارا أخى بيدرو غير الشرعى ، ومنافسه في انتزاع العرش . وقد استجار بملك فرنسا فحشد له جيشاً من المرتزقة وحارب أخاه بيدرو وانتصر عليه (سنة ١٣٦٦) .

(٥) هنا بياض في المخطوطات الثلاثة .

وتَشعيث منازله ، وعياث الأيدى فى خزائنه ، وأسمعه الناس من مَحض التأنيب (١) وأعراض الشمات ، مالا مزيد عليه ، ولاذ بصاحب بُرتغال ، فنأى عنه جانبه لما يجنيه أبواه من مخالفة رأى الأمة فيه ، فقصد بلاد غَليسية ، وتلاحق أخوه أنْدَريق بحضرة إشبيلية ، فاستوى على المُلك وطاعت لأمره البلاد ، وعاجله المسلمون لأول أمره ، فاستولوا على كثير من الثغور والحمد لله .

ولما توسّد له الأمر تحول لاستئصال شأفة المخلوع ، فأجلى عن غَليسية فى البحر ، واستقر ببلد بَيُونة(٢) ، مما وراء دُروب قَشْتالة ، وانتبذ عن الخِطّة القشتالية وأمر نفسه ، ولجأ إلى ابن صاحب الأنْتَكيرة(٣) ، وهو المعروف ببرَقسين أبى الأمير ، وبين أول أرضه وبين قَشْتالة ، ثمانية أيام ، فقَبِله ولدُ السلطان المذكور ، الساكن بأول ما تلقاه من تلك الأرض ، وسفَر بينه وبين أبيه . فأنكر الأب استئذانه إياه ، والمراجعة فى نَصْره ، حَمِيّةً له ، وامتعاضاً للواقع . وحالُ هذه الأمة غريبة فى الحماية الممزوجة بالوفاء والرقّة ، والاستهانة بالنفوس فى سبيل الحمد ، وبين يدى العَشَايق ، عادة العرب الأُول . وأخبارهم فى القتال غريبةٌ ، من الاسترجال والزحف على الأقدام ، أميرُهم ومأمورُهم ، والجُثُوّ فى الأرض ، أو دفن ببعض الأرض فى التُّراب ، والاستظهار فى حال المُحاربة ببعض الألحان المُهيِّجة ، ورماتُهم

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة (التأنيث) ، وحكمة التصويب واضحة .

(٢) بيونة Bayonne ، هى ثغر ولاية غسقونية الفرنسية الواقع فى زاوية خليج بسكونية بين حدود فرنسا واسبانيا . والإشارة هنا إلى هـذا القسم من جنوب فرنسا الذى يشمل ولايتى أكوتين وجويين .

(٣) صاحب الأنتكيرة أى ملك انجلترا ، وهو يومئذ الملك إدوارد الثالث . وابنه ولى العهد ، واسمه أيضاً إدوارد (الأمير الأسود) . وقد كان يحكم باسمه ولايتى أكوتين وجويين ، اللذين انتزعهما أبوه من ملك فرنسا ، على أثر هزيمته إياه فى موقعة يواتييه (سنة ١٣٥٥) وذلك ثمناً لتنازله عن دعواه فى عرش فرنسا (بطريق الميراث عن أمه الفرنسية) .

قسيهم غريبة جافيةٌ ، وكلهم [فى](١) دروع ، والإحجامُ عندهم ، والتقهقر مقدار الشبر ذنبٌ عظيم . وعارٌ شنيع ، ورماتهم يتبثون للخيل فى الطراد . وحالهم فى باب التحلى بالجواهر ، وكثرة آلات الفضة ، غريبٌ . وبعد انقضاء سبعة عشر يوماً كان رجوعه ورجوع البرنس(٢) المذكور معه مصاحباً بأمراء كثيرين من خُتْرانه(٣) وقرابته ، وبعد أن أسلفوه مالا كثيرا ، واختص منه صاحب الأنتكيرة ، بمائتى ألف دينار من الذهب إلى ما اختص به غيره ، وارتهنوا فيه ولده وذخيرته . وكان ينفق على نفسه وجيشه بحسب دينار واحد من الذهب للفارس فى ثلاثة أيام . وكان تأليفُ الجيوش فى بَنْبلونة فى أزيد من ثلاثين ألفاً ، وعسُر عليهم المجازُ على فحص أحدونيه ، لبلاد تمسك لطاعة القند أخيه(٤) ، فصالح القومُ صاحب نبارّه(٥) على الإفراج لهم ، ونزلت المحلاتُ فى فحص نبارّة ، ما بين حدود أرض نبارّة وقشتالة ، ونزل للمتصيِّر إليه أمرُ قشتاله ، القند بإزايها فى جموع لم تنتظم لمثله ، إلا أنه لشهامته واغتراره ، أجاز خندقاً كان بين يديه ، وعبر جسراً نشب فيه عند الجولة . وكان اللقاء بين الفريقين يوم السبت سادس إبريل العجمى ، وبموافقة شعبان من عام ثمانية وستين . وكان هذا الجمع الإفرنجى الآتى من الأرض الكبيرة(٦) فى صفوف ثلاثة ، مرتبة بعضها

---

(١) واردة فى «الملكية» والزيتونة . وساقطة فى «ج» .

(٢) نعتقد أنه يقصد هنا بكلمة (البرنس) – وسوف تأتى مرة أخرى – الأمير إدوارد ولى العهد

(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . ومعناها مخادعيه أو الأمراء الذين يتظاهرون بنصرته .

(٤) يقصد الإشارة هنا إلى الكونت هنرى دى تراستمارا أخى الملك بيدرو .

(٥) نبارة – وفى الإستعمال الشائع نبره – هى مملكة Navarra أو بلاد البشكنس الواقعة غربى جبال البرنيه ، وجنوب شرقى خليج بسكونية ، وعاصمتها مدينة بنبلونة .

(٦) الأرض الكبيرة تعنى فى الجغرافية العربية القديمة فرنسا . ويعرف جنوب فرنسا كذلك بغاليس La Gaule .

خلف بعض ، ليس فيهم فارسٌ واحد، إنما هم رجّالة، سواء[١] أميرُهم ومأمورهم ، فى أيديهم عِصِى[٢] جافيةٌ فى غِلظ المعاصِم ؛ يَشْرَعونها أمامهم ، بعد إثبات زجاجها[٣] فيما خلفهم من الأرض ، يستقبلون منها وجوه عدوِّهم ، ونحورَ خَيْله ، ويجعلونها دعايم وتُسكات لبناء مصافِّهم ، فلم تُقْلِقهم[٤] المحلات ، وبين أيديهم من الرُّماه النَّاشبة الدّارعة ، مالا يُحصيهم إلا الله عز وجل . وسايرهم السلطانُ ، مُسْتدعى نَصْرهم راجلاً أميالا برأيهم ؛ إلى أن أعيا بعد ميلين منها فارْكبوه بغلة حَمَلوه بينهم عليها ، إلى موقف اللقاء والقُنْدُ[٥] . وكان على مقدمة القوم الدك[٦] أخو البرنس ، والبرنس[٧] مع السلطان مُسْتَجيره فى القَلْب ، والقُنْد المعروف بقُنْدار مانْيان ، وكثيرٌ من الأمراء ؛ ردا وسيفُه دونهم ، ومن خَلْف الجميع الخيلُ يجَنِّبها ساستهُم وغلمانُهم وخُدّامهم ، ووراءها دوابُّ الظَّهْر وأبغالهُم ، وفى أثناء هذه العَبِيّة من البنود وآلات الحرب والطرب والأبواق ما يطول ذكره . وكان فى مقدمة القُنْد المُسْتأثر بمُلْك قشْتالة ، أخوه شانْجُه فى رَجل قشتالة ، قد ملأ السَّهل والجَبَل ، ومن خلفهم أولو الخيل الجافية القبيلية ، المُسْبَغة الدُّروع ، من رأس إلى حافرٍ ، فى نحو ألف وخمساية ، وفى القلب أخوه الآخر دَنْطية[٨] فى جمهور الزُّعماء والفرسان والدَّرق ، وهو الأكثر من رجال الجيش اليوم ، ومن ورائهم السلطان أنْدَريق[٩] فى لفيف من الناس . ولما حمل بعضهم على بعض أقدم رماةُ الفِرَنْج ، ثقةً

---

(١) وردت فى «ج» سوى ، والتصويب أرجح .

(٢) وردت فى المخطوطين (عصا) وهو تحريف .

(٣) ومفردها (الزج) وهو عبارة عن الحديدة المثبتة أسفل الرمح .

(٤) هكذا وردت فى الملكية والزيتونة . وفى «ج» (تقلقلهم) والأولى أرجح .

(٥) أى الكونت هنرى دى تراستامارا السالف الذكر .

(٦) يقصد هنا أن يشير إلى أخى ولى العهد إدوارد ، دوق لانكستر **Duke of Lancaster** وكان من قواد الحملة المذكورة .

(٧) وردت فى «ج» والزيتونة (والبرق) . وهو تحريف .

(٨) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الزيتونة (أخوه نطية) .

(٩) هو كما تقدم الكونت هنرى دى تراستامارا .

بدروعهم، فعظُم أثرهم فيمن بإزايهم من رماة عدوهم ورجالهم، [لكونهم كشفاء، فكشفوا إياهم][(١)]. وحملت خيل قشتالة الدّارعة، فزحزحت كرَّ المصافِّ الإفرنجى، واتصل الحربُ بالبرنس، وهو مطلٌ عليهم فى رَبْوة، فصاح بهم بحيث أسمع، وتناول شيئاً من التراب فاستَفّه، وكسر ثلاثَ عِصِيٍ[(٢)]، وفعل من معه [مثل][(٣)] فعله، وهى عادتهم عند الغضب، وعلامةُ الإقدام الذى لا نكوصَ بعده. ووجه إلى أخيه فى المقدمة، يقول له، إن وجدت فى نفسك ضعفاً، فاذكر أنك ولدُ صاحب الأنتكيرة. وحمل الكلُّ حملةَ رَجُلٍ واحدٍ، فلم تجد الخيلُ الدّارعة سبيلا، وقامت فى نحورها تلك الأسِنّة، فولوا منهزمين.

ولما رأى القُنْد هزيمة أخيه، تقدَّم بنفسه[(٤)] بمن معه من مَدَد[(٥)] الأمة الرّغُونية[(٦)]، وهو ينادى، ياأهل قَشْتالة، يا مَوَالى، إيا كم والعار، هأنذا، فلم يثبُت أمره[(٧)]، وتراجع فُلُّه. فعند ذلك فرّ فى أربعة من أولى ثقته، واستولى القَتْلُ والأسرُ على خاصّته، وتردى المنهزمون فى الوادى خلفهم، فكان [ذلك][(٨)] أعوَنَ الأسباب على هَلْكهم، فأناف عددُ من هلك فى هذه الوقيعة، حسبما اشتهر، خمسين ألفاً. وامتلأت أيدى هذه الأمة من الأسلحة والأموال والأمتعة والأسرى الذين يُفادونهم [بمال عظيم][(٩)]، واتصل القُنْد المنهزم بأرض رَغُون[(١٠)]،

---

(١) هكذا وردت فى «الملكية». وفى «ج» (لكونهم كشفاء فكشفوهم). وفى الزيتونة (لكونهم كتفا فكشفوا إياهم).

(٢) وردت فى المخطوطين : عصاة – عصات. والتصويب أفضل.

(٣) هذه الزيادة من «الملكية» والزيتونة.

(٤) وردت فى المخطوطات (فى نفسه). والتصويب أنسب للسياق.

(٥) هكذا فى «الملكية» والزيتونة. وفى «ج» (هذه) وهو تحريف.

(٦) أى الأمة الأرجونية.

(٧) وردت بعدها فى المخطوطين كلمة (ولا) ووجودها هنا سهو لا يستقيم معه السياق.

(٨) أثبتنا هذه الكلمة ليستقيم السياق.

(٩) هكذا وردت هذه العبارة فى «الملكية». ومكانها فى «ج» (العظيمة) وهو تحريف.

(١٠) رغون هى مملكة أراجون

ثم نَجَم من البلاد الفرنسية ، ودخل أخوه بهذه الأمة أوايل البلاد معترفاً بحميد(١) مَنْعِهم ، وعزيز نَصْرهم ، وقد رابه استيلاؤُهم ، وأوجَسَه تغلبُهم ، [وساءه فى الأرض الزَّعادة عياثَهم](٢) فاستأذنهم فى اللُّحوق بقواعد أرضه ، وَقَبْض الأموال التى تجبى(٣) منها نفقاتُهم ، وقَبَض منها ديونَهم قِبَله . وحثَّ السَّير ، فوصل طُلَيْطُلة ، لايُصدِّق بالنجاة ، وخاطب السلطان المُتَرجم به ، وقدَر ودّه(٤) ، وحذَّره سَوْرَة هذه الأمة ، التى فاض بحرُها وأعيا أمرُها ، وأنهى إليه شرَّها ، وشَرِه إلى اسْتِيصال المسلمين . وحدّ له مواعِدَها التى جُعلت لذلك . ووصل إشْبِيليَّة ، وانْثَالَت البلاد عليه ، وعادت الإيالة إلى حُكْمه ، ثم شرع فى جعل الضرايب ، وفرض الأموال ، وأخافَ الناس [بالطَّلَب والتَّبعات](٥) فعاد نفورُهم عنه جَزَعاً . وامتنعوا من الغُرْم ، وطردوا(٦) العُمّال . وأحسّ بالشَّرّ ، فتحصَّن بإشبيلية ، وجهاتها على نفسه ، وطال على الأمة الواصلة فى [سبيل](٧) نَصْره الأمرُ . فرجَعت إلى بلادها ، ووقيت نُفْرة الفرسان ، وأولى الأتباع ، وأظهروا الخلاف ، وكَشَفت جيّان وجْهَهَا فى خُلمانه ، والرُّجوع إلى دعوة أخيه المُتَصَرِّف ، فتحرَّك إليها السلطان المترجمُ به ، بعد أن احتَشَد المسلمين ، فكان من دخولها عَنْوةً ، واستباحةِ المسلمين إياها وتخريبها ، ما هو مذكور فى مَوْضعه . ثم ألحقت بها مدينة

---

(١) وردت فى «ج» والزيتونة (بحمد) . والتصويب أرجح .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط فى الملكية والزيتونة .

(٣) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» يجرى . والأولى أنسب للسياق .

(٤) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الملكية (وقرر رده) وفى «ج» (و قر رد ده) والأولى أرجح .

(٥) وردت فى «ج» والزيتونة (والطلب بالتبعات) والتصويب أنسب للسياق .

(٦) هكذا فى «ج» والزيتونة . وفى «الملكية» وطرحوا . والأولى أرجح .

(٧) هذه الزيادة من «الملكية» والزيتونة .

أبَدة ، الذاهبة فى مخالفة مذاهبها والحمد لله . وخالَفَت عليه قرطبةُ ، واستقر بها من الكِبار جُملة ، كانبوا أخاه ، واستعجلوا ، فتعرَّف فى هذه الأيام ، أنه قد بلغ أرض بُرْغُشْ ، ونارُ الفتنة بينهم ، ويدُ الإسلام لهذا العهد ، والمُنْية[1] لله ، وحده غالبة[2] .

وإنما مَدَدنا القول فى ذكر هذه الأحوال الرُّومية ، لغرابة تاريخها ، وليُسْتَشعر الحذرُ ، ويؤخذ من الأمة المذكورة وغيرِها ، والله ولى نصر المؤمنين بفضله[3] .

وبأرض رَغُون سلطانُها السكاين على الدولة الأولى .

بعض مناقب الدولة لهذا العهد

وأولا ما يَرْجِع إلى مناقب الحِلْم والكَظْم من مآزق[4] الجهاد الأكبر ، وهو جهادُ النفس .

فمن ذلك أن السلطان لما جَرَت الحادثة ، وَعَظه[5] التمحيص ، وألجأ إلى وادى آش لايملك إلاّ نفسه فى خبر طويل ، بادر إلى مخاطبة ثقته بقصبة ألمريّة ، قلعة المُلْك ، ومَظِنّة الامتناع ، ومِهاد السَّلامة ، ومَخْزن الجباية والعُدّة ، وقد أصبح محلُّ استقراره ، بينها ، وبين المُنْتَزَى سدًّا ، وبيعة أهلها لم ينسخ الشرعُ منها حُكْماً يناشدُه الله فى رمَقه ، ويتملّقه فى رَعْى ذِمّته ، والوفاء له ، وإبراء غُرْبته ،

(١) كذا فى «ج» والملكية ، وفى الزيتونة (والهيبة) .

(٢) هكذا وردت فى «الملكية» . وفى «ج» عالية . والأولى أنسب للمعنى .

(٣) يبدى ابن الخطيب فى سرد حوادث الحرب الأهلية فى قشتالة ، وما تخللها من تدخل ملك فرنسا ، ثم ولى عهد انجلتر أوصاحب إمارة أكوتين وجوبين لهذا العهد ، كل إلى جانب فريق من الفريقين المتحاربين — يبدى فى ذلك كله دقة واضحة ، وحسن معرفة بأطوار المعارك المختلفة ونتائجها ، وكذلك بالأوضاع الجغرافية لاسبانيا وفرنسا فى ذلك العصر .

(راجع كتابى نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين — الطبعة الثالثة — ص ١٤٣ — ١٤٥) .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى الزيتونة (مداق) .

(٥) هكذا وردت فى «ج» والزيتونة . وفى الملكية (وعظمه) .

وتمسكه من أمانته ، فردّ عليه أسوأ الرد ، وسجن رسوله فى المُطْبق ، وخرج منها لعدُوِّه[(١)] ، وناصح بعد فى البَغْى عليه . فلما ردّ الله الأمر ، وجَبَرَ الحق ، أعتَبَ وأجْرى عليه الرِّزق . ولما ثار فى الدولة الثانية الدليلُ البركى[(٢)] ، هاتفاً بالدعوة لبعض القرابة ، وأكْذَبه الله ، وعقّه الشيطان بعد نَشْر راية الخلاف ، وجَعَل للدولة ، علوَّ اليد ، وحسنَ العاقبة ، وتمكّن من المذكور ، أبقى عليه ، وغلّب حكم المصلحة العامة فى استحيائه ، وهو من مُغْرِبات الحِلْم المبنى على أساس الدين ، وابتِغاء وجه الله .

ولما أجلى عن الترشيح من القرابة ، بعد تَقَرُب[(٣)] التهمة ، وغَمْس الأيدى فى المعصية ، صُرفوا إلى المغرب صَرْف العافية ، وأجْرَى على من تخلّفوه عوايد الأرزاق ، ومرافِق المواسم ، ووَعَد[(٤)] ضعفاءهم بالإرْفاد ، وتجوفى عما يَرْجع للجميع من عقَار ورِباع ، وأُسْعِفت[(٥)] آمالهم فى لحاق [ذويهم][(٦)] من أهلٍ وولد .

ومما يرجع إلى عوايد الرِّفق ، ومرافق العدل من مأزق[(٧)] فى جهاد النفس ، وقوفُ وكيلِ الدولة ، مع من يجاور مُسْتَخلص السلطان[(٨)] من العامرين[(٩)] ومما ولى الفلاحة ، وقد ادّعوا أضراراً ، يجرّه الجوار بين يدى القاضى بالحَضْرة ، حتى بعد مُنْقَطع الحقّ ، على ما يخص السلطان من الأصول التى جرّها الميراث عن كريم السَّلَف . ولا كقضية التاجر المعروف بالحاج اللبّاس ، من أهل مدينة وادى آش ،

---

(١) هكذا وردت فى الملكية والزيتونة . ووردت مكانها فى «ج» (لدرىء لعدوه) .

(٢) سوف نشير إليه فى حاشية قادمة .

(٣) هكذا فى « الملكية ».والزيتونة. وفى «ج» قرب .

(٤) وردت فى المخطوطات الثلاثة (توعد) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة (واستعفت) وهو تحريف .

(٦) هذه الكلمة لم ترد فى المخطوطين . وقد أثبتناها لاستقامة المعنى .

(٧) هكذا فى المخطوطات الثلاثة .

(٨) مستخلص السلطان هوكما سبق شرحه الأملاك السلطانية الخاصة .

(٩) العامرين أى الذين يعمرون الأرض ويفلحونها .

وقد [تحصّلت فى][1] داره ، من قِبَل التاجر المذكور جاريةٌ من بنات الروم ، فى سبيل تفوّت الذمم ، ومُسْتهلك المَتولات[2] ، وتَرَقّت إلى تربية وَلَده ، وأصبحت بعض الآظار لأمرائه ، واتّصل بها كَلَفه ، وزاد هيمانُه ، وغَشِى مدافن[3] الصّالحين من أجلها ، وأُنْهِيَتْ إليه خبره وبثّه ، وقرّرتُ عنده شَجْوَه ، وألمعتُ بما يُنقل فى هذا الباب عن الملوك قبْله ، فبادر إلى إخراجها من القصر بنفسه ، وانتزاعها من أيدى الغِبْطة ، انتزاعَ القَهْر ، بحاله فى جميل الزّى ، فمُكّنت منها يدُ عاشقها الذّاهل ، وقد خفّت[4] نفسُه ، وسكن حِسّه ، وكاد لقاؤه إيّاها أن يَقضى عليه . ونظاير هذا الباب متعددة .

ومن مواقف الصّدْق والإحسان من خارق جهاد النفس ، بناء المارستان الأعظم حسنةُ هذه التخوّم القُصوى ، ومزيّةُ المدينة الفُضْلى . لم يهتد إليه غيرُه [من][5] الفتح الأول ، مع توفّر الضرورة ، وظهور الحاجة ، فأغرى به همّةُ الدّين ، ونفسُ التقوى ، فأبرزه موقفُ الأخدان[6] ، ورحلةُ الأندلس ، وفذلكةَ[7] الحسنات ، فخامةَ بَيْت ، وتعدُّد مساكن ، ورحْبَ ساحة ، ودرُور مياه ، وصحّةَ هواء ، وتعدُّد خزاين ومتوضآت ، وانطلاقَ جراية وحسنَ ترتيب ، أبرّ على مارستان مصر[8] ، بالسّاحة العريضة ، والأهْوية الطّيبة ، وتَدفُّق المياه

---

(١) ورد مكانها فى المخطوطات الثلاثة (تخلصت من) وهو تحريف . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٣) وردت فى «ج» مدفن . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٤) وردت فى «ج» والزيتونة (خافت) وهو تحريف .

(٥) الزيادة من «الملكية» والزيتونة .

(٦) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٧) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٨) يلوح لنا أن ابن الخطيب يشير هنا إلى المارستان المنصورى الكبير ، الذى أنشاه السلطان المنصور بن قلاوون سنة (٦٨٣ هـ) بميدان بين القصرين بالقاهرة ، وهو أقرب المارستانات القاهرية عهداً بعصر ابن الخطيب .

من فورات المرمل ، وأسود الصخر ، وتموج البحر ، وانسدال الأشجار . إلى موافقته إياى ، وتسويغه ما اخترعته[١] بإذنه ، وأجريته[٢] بطيب نفسه ، من اتخاذ المدرسة والزاوية ، وتعيين التربة ، مغيراً [فى ذلك كله][٣] على مقاصد الملوك ، نقشاً عليه ، بطيب اسمه فى المزيد ، وتخليد فى الجدرات للذكر[٤] ، وصوناً للمدافن غير المعتادة ، فى قلب بلده بالمقاصر والأصونة ، وترتيل التلاوة ، آناء الليل ، [وأطراف][٥] النهار . وكل ذلك إنما ينسب إلى صدقاته ، وعلو همته . ويشهد بما ينبه الحس إلى المنقبة العظمى ، فى هذا الباب ، من إمداد جبل الفتح ، مع كونه فى إيالة غيره ، وخارج عن ملكة حكمه ، وما كان من إعانته ، وسد ثغره ، فانهار إليه على خطر السرى ، والظهر البعيد المسعى ، ما ملأ الأهواء ، وقطع طمع العداة ، أنفقت عليه الأموال ، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، بودر بذلك ، بين يدى التفاؤل ، بنزول العدو إياه ، فكان الكرى[٦] على إيصال الطعام إليه ، بحساب درهم واحد وربع درهم للرطل من الطعام ، منفعة فذة ، وحسنة كبرى ، وبدعاً من بدع الفتوى .

وفى موقف الاستعداد لعدو الإسلام ، من خارق جهاد النفس ، اطلاق البنى[٧] ، للمدة القريبة ، والزمان الضيق ، باثنين وعشرين ثغراً من البلاد المجاورة للعدو ، والمشتركة الحدود ، مع أراضيه المترامية النيران لقرب جوابه ، منها ثغر

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة : اخترعه ، والماضى هنا أنسب للسياق .

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة : وأجرات . وقد لزم التصويب لاستقامة السياق .

(٣) هذه الزيادة واردة فى «الملكية» والزيتونة .

(٤) وردت فى «ج» الذكر ، فلزم التصويب .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى «ج» وواردة فى «الملكية» والزيتونة .

(٦) الكرى هنا يقصد بها الكراء أو الأجر .

(٧) البنى هنا جمع بناء .

أرْجِدونة[١] ، المستولى عليه الخراب ، أُنفق فى تجديد قَصَبته ، واتخاذ جُبِّه . ما يناهز عشرين ألفاً من الذهب،فهو اليوم شَجَى العدو ، ومُعْتَصَم المسلمين .وحصن أشِر ، وما كان من تحصين جبله بالأسوار والأبراج ، على بعد أقطاره ، واتخاذ جباب المـاء به ، واحتفار السانية[٢] الهايلة برَبَضِه ، ترك بها من الآثار ما يشهد بالقوة لله ، والعناية بالإسلام . ثم ختم ذلك بنديد حصن الحمراء ، رأس الحضْرة ، ومَعْقِل الإسلام، ومَفْزَع المُلْك،ومَعْقِد[٣] الأيدى،وصِوان المال والذّخيرة ، بعد أن صار قاعاً صفصفاً،وخراباً بَلْقَعا ،فهو اليوم عروسٌ يُجلى المَنْصَب،ويغازل الشهب، سكن لمـكانه الإرْجاف ، وذوت نجوم الأطماع ، ونَقَل إليه مال الجبايه،المُتَفَضَّل لهذا العهد ، بحسب التدبير ، ونفَّد الخراج ، وصوَّن الألقاب ، وقم الخِزانة بما لم يتقدم به عهد ، من ثمانين سنة ، والحمد لله . وتجديدِ أساطيل الإسلام ، وإزاحة علل جيوش المَرْج ، وعسا كر البحر ، فهى لهذا العهد ، مَلَس الأديم ، شارعة الشَّبا ، مُنقضَّة جفانُها إلى مساواة الأعداء، را كبةٌ ظهور المحاسن،قلقة الموافق، قُدُماً إلى الجهاد،قد تعدَّد إغزاؤها، وجاست البحر سوابحُها ، وتُعُرِّفت بركتها والحمد لله ، وأنصاب جيش الجهاد ، استغرق الشهور المستقبلة ، لرود[٤] الصفراء والبيضاء الأهلّة إلى أ كف أهلها ، على الدوام، بعد أن كانت يتحيفها المَطْل ، وينقصها المطال ، والحمد لله .

وفى[*] مواقف الجهاد الحسنى ،وبيع النُّفوس من الله،وهو ثمرة الجهاد الأول ،

---

(١) أرشدونة وأرجدونة Archlidona . هى بلدة حصينة تقع شمالى مالقة على مقربة من حدود قشتالة فى هذا العصر .

(٢) السانية هى الكلمة الأندلسية لآلة الرى المعروفة بالساقية .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة هنا (معقل) مرة أخرى . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» والزيتونة (لدور) .

(*) هنا يبدأ الجزء الثانى من كتاب « الإحاطة » بمخطوطة جامع الزيتونة بتونس . وسوف نوالى المراجعة عليه إلى جانب مخطوطى جاينجوس والخزانة الملكية .وسوف نرمز لهبكلمة (الزيتونة) .

ما لا يحتاج عليه إلى دليل ، من الجوف[١] إلى حصن أشر ، قُبُل الثغر ، والجارحُ المطلُّ على الإسلام ، والعزم على افتتاحه ، وقد غاب الناس من مساورته ، وأعْيي عليهم فتحه ، فلزمه السلطان بنفسه ، بياض يوم القَيْظ ، مُحرضاً[٢] ، للمقاتلة ، مُواسياً لهم[٣] ، خالطاً نفسه بالمُسْتَنفَرة ، يصابر لهيب النار ، ووقع السلاح ، وتعميم الدُّخان ، مُفْديا للسكلمات ، مُحَرِّضاً لذوى الجراح ، [مباشراً الصلاة على الشهداء][٤] إلى أن فتحه الله [على يده][٥] ، بعزمه وصبره ، فباشر رَمّ سوره بيده ، وتحصين عَوْرته بنفسه ، ينقل إليه الصَّخر ، وينال الطِّين ، ويخالط الفَعَلَة ، لقرب محلِّ الطاغية ، وتوقع المفاجأة . ثم كان هذا العمل قانوناً مُطَّرِداً فى غيره ، ودَيْدَناً فى سواه ، حسبما نذكر فى باب الجهاد .

وفى باب النصيحة للمسلمين من مآزق[٦] الجهاد الأكبر . ما صدر فى هذه الدولة ، من مخاطبة الكافة ، بلسان الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، صَدَعَت بذلك الخطباء [من فوق أعواد المنابر ، وأسْمَعَت آذان المحافل ، مالم يتقدم به عهدٌ فى الزمان الغابر][٧] .

نص الكتاب

ولما صَحَّت الأخبار بخروج الأمة الإفرنسية إلى استئصال هذه البَقِيعة[٨] ،

---

(١) وردت فى المخطوطين (الحوف) . ونعتقد أن التصويب أرجح .
(٢) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» متحرضا .
(٣) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (الأولى) . بالتصويب يستقيم السياق .
(٤) وردت هذه الزيادة فقط فى «ج» .
(٥) هذه الزيادة واردة فى «الزيتونة» . وساقطة فى «ج» والملكية .
(٦) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .
(٧) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» و «الملكية» ، وساقط فى «الزيتونة» .
(٨) هكذا وردت فى «الملكية» والزيتونة . ووردت فى «ج» البقعة .

والله متم نوره ، ولو كره الـكافرون ، صدر من مخاطبة الجمهور فى باب التحريض بمـا نصه :

«من أمير المسلمين عبد الله محمد ، بن مولانا أمير المسلمين أبى الحجاج بن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد نصر ، أيده الله و نصره ، وأوى[١] أمره ، وخَلَّد مآثره. إلى أوليائنا الذين نُوقظ من الغفلة أحلامهم ، وندعُوهم لمـا يطهِّر من الارتياب إيمـانهم ، ويُخلص لله أسرارهم وإعلانهم ، يرثى لعدم إحسانهم ، وخيبة قيامهم ، ويغار من استيلاء الغَفَلات على أنواعهم وأجناسهم ، و نسأل الله لهم ولنا إقالة العَثَرات ، وتخفيض الشدائد المُنتَورات ، وكَفَّ أكُفِّ العوادى المُبتَدرات . إلى أهل فلانة ، دافع الله عن فِئتهم الغريبة[٢] ، وعرَّفهم فى الذرارى ، والحُرَم ، عوارف الالطائف التربية[٣] وتدارَكَهم بالصَّنايع العجيبة ، سلام عليكم أجمعين ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذى لا نشرك به أحداً ، ولا نجد من دونه مُلتحداً ، مبتلى قلوب المؤمنين أيها أقوى جلداً ، وأبعدُ فى الصبر مداً ، ليزيد الذين اهتدوا هدًى . والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، الذى أنقذ من الردى ، وتـكفل بالشفاعة [لمن][٤] غداً ضارباً هام العِدا ، ومجاهداً من اتخذ مع الله ولدا ، والرضى عن آله الذين كانوا لسماء ملته عمداً ، فلم ترعهم الـكتايب الوافرة ، وكانوا لهم أقل عدداً ، ولا هالتهم أُممُ الـكفر ، وإن كانت [أظهر جمعاً ، وأكثر عُدداً][٥] صلاة لاتنقطع أبدا ، ورضًى ، لا يبلغ مداً . فإنا كتبنا إليكم ، كتبكم

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الزيتونة (ولوى)

(٢) وردت فى «ج» (الغرى) وفى «الملكية» (الغربى) . والتصويب أنسب للسياق .

(٣) وردت فى المخطوطين (الغريبة) . والتصويب أرجح .

(٤) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة . وساقطة فى المخطوطين .

(٥) هكذا وردت هذه الجملة فى «الزيتونة» . وفى «الملكية» . ووردت فى «ج» (أكثر جمعاً وأظهر عددا) .

الله فيمن امتلأ قلبه غضباً لأعدايه[١] وحَمِيّة ؛ ورمى بفكره غرض السَّداد ، فلم يُخط منه هدفاً ولا رِميّة . وقد اتصل بنا الخبر ، الذى يوجب نصح الإسلام ، ورَعْى الجِوار والذِّمام[٢] ، وما جعل الله للمأموم على الإمام ، فوجب علينا إيقاظكم من مراقدكم المُسْتَغرقة ، وجَمْع أهوايكم المُفْتَرَقة ، وتهيئكم إلى مصادمة الشدايد المُرْعدة المُبْرِقة ، وهو أنّ كبيرَ النصرانية ، الذى أليه يَنْقادون ، وفى مرْضاته يصادقون[٣] ويعادون ، وعند رؤية صَليبه يبكون ويَسْجدون ، لما رأى الفتن قد أكلتهم خَضْماً وقَضْماً . وأوسعتهم هَضْماً فلم تُبْقِ [لهم][٤] عصباً ولا عظماً ، ونَثَرت ما كان نَظْماً ، أعمل نظره فيما يجمع منهم ما افترق ، ويرفع ما طَرَق ، ويرفى[٥] ما مزّق الشَّتات وخَرَق ، فرمى الإسلام بأمة عددُها كالقطر المُنْثال ، والجراد الذى تضرب به الأمثال ، وعاهدهم وقد حضر التّمثال ، وأمرَهم وشأنُهم الامتثال ، أن يدمنوا لمن ارتضاه الطاعة ، ويجمعوا من مِلّتَه الجماعة ، ويطلعُ الكل على هذه الفئة القليلة الغريبة ، بغتةً[٦] كقيام السَّاعة . وأَقْطَعهم ، قطع الله بهم ، [العِباد والبلاد][٧] . والطّارف والتّلاد ، وسوّغهم الحريم المستضعف والأولاد ، وبالله نَسْتَدفع مالا نطيقه ، ومنه نسأل عادة الفَرَج ، فما سُدت لديه طريقهُ ، إلاأنّا رأينا غفلة الناس مع تصميمهم مؤذنةً بالبَوار ، وأشفقنا للذين من وراء البحار ، وقد أصبح معظمهم فى لهواتِ الكفار ، وأردنا أن نهزّهم بالموعظة التى[٨] تكحل البصاير بميل الاسْتبصار . وتلهمُكم الاستنصار بالله ، عند عدم الانتصار ،

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية» . ووردت فى «ج» (لله) وهو تحريف .
(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . وفى «ج» الذمار .
(٣) هكذا فى الزيتونة والملكية . وفى ج (يصافون) .
(٤) هذه الكلمة ساقطة فى «ج» وواردة فى الزيتونة والملكية .
(٥) هكذا فى «ج» و «الملكية» . وفى الزيتونة (يرمى) وهو تحريف .
(٦) وردت فى «ج» و «الملكية» (سقية) . والتصويب أنسب للسياق .
(٧) هكذا فى «ج» و «الملكية» . وفى «الزيتونة» (البلاد والعباد) .
(٨) هكذا فى «الملكية» و «الزيتونة» . وفى «ج» الذى ، وهو تحريف .

فإن جَبَر الله الخواطر بالضراعة إليه، والانكسار ، ونسخ الإعسار بالإيسار ، وأنجد اليمين بانتهاء اليسار ، وإلا فقد تعيّن فى الدنيا والآخرة حظ الخَسار [١] فإن من ظهر عليه عدوُّ دينه، وهو عن الله مَصْروف ، وبالباطل مشغوف، وبغير [٢] العُرْف معروف، وعلى الحطام المَسْلوب ملهوف، فقد تَلَّه [٣] الشيطان للجبين، وخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين . ومن نفذ فيه قَدَرُ الله عن أداء الواجب وبذل المجهود، وآجر بالعُبُودية وجهَ الواحد الأحَد المعبود ، ووطّن النفس عن الشهوات الموبقة [فى] [٤] دار الخلود ، العايدة بالحياة الدّايمة والوجود ، أو الظُّهور على عدوه المحشود إليه صبرا [٥] على المقام المحمود، وبَيْنما تكون الملائكة فيه من الشهود ، حتى تعيث يد الله فى ذلك البناء المهدوم ، بقوة الله المحمود ، والسَّواد الأعظم الممدود، كان على أمر رَبِّه بالحياء المردود «قل هل تربَّصون بنا إلا إحدى الحُسْنيين ونحن نَتَرَبَّصُ بكم أن يصُيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فتربصوا إنَّا معكم متربِّصون» [٦]. فالله اللهُ فى الهمم، فقد خَبَتْ ريحُها . والله اللهُ فى العقايد، فقد خَفَتَت مصابيحُها . والله الله فى الرُّجولة فقد فلَّ حدُّها . والله الله فى الغَيْرة ، فقد نَكَس حدُّها . واللهُ الله فى الدِّين ، فقد طمع العدوُّ فى تحويله . والله الله فى الحريم . فقد مدَّ إلى استرقاقه يدُ تأميله. والله الله فى المساكن التى زَحَف لسُكناها

(١) وردت فى «ج» و «الملكية» (الخسران) . والتصويب أنسب لسياق السجع .

(٢) وردت فى «ج» (ويصير) . ونعتقد أن هذا تحريف . والتصويب أنسب للمعنى .

(٣) تله أى صرعه .

(٤) ساقطة فى «ج» والملكية ، وإثباتها أنسب للمعنى .

(٥) واردة فى «ج» . وساقطة فى الملكية .

(٦) يقول لنا المقرى فى نفح الطيب ، إن هذه الرسالة أو الموعظة التى تبدأ من هنا، وتنتهى فيما بعد بعبارة (والسلام الكريم يخصكم أيها الأولياء ورحمة الله وبركاته) كتبها على بن الخطيب (وليس الدوه لسان الدين) على لسان السلطان ، نداء إلى الأمة ، واستنهاضا لهمتها ، على مثل رسائل عديدة وجهها إليها ابن الخطيب نفسه (راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٤١٥ - ٤١٨) .

والله الله فى المِلة التى يريد إطفاء نورها وسَناها [وقد كَلّ فضلُها وتناهى][1] .
والله الله فى القرآن العظيم . والله الله فى الجيران . والله الله فى الطَّارف والتَّالد .
والله الله فى الوطن الذى توارثه الولدُ عن الوالد . اليوم تَسْتأسد النفوسُ المَهينة.
اليوم يُستَنزل الصبرُ والسكينة . اليوم تحتاج الهِمَمُ [أن][2] ترعى هذه النفوس
الـكريمة الذّمم . [اليوم يُسلك سبيل العزم والحزم والشدة والشّمم][3] اليوم يَرْجع
إلى الله تعالى المصرّون اليوم يفيق من نومه الغافلون والمغترون ، قبل أن يتفاقم
الهَول ، ويحقّ القول ، ويُسد الباب ، ويَحيق[4] العذاب ، ويُسْتَرَق بالـكفر
والرّقاب . [فالنساء تقى بأنفسهن أولادهن الصغار][5] . والطّيور ترفرف لتحمى
الأوكار ، إذا أحست العياث بأفراخها والإضرار . تمر الأيام عليكم مَرَّ السحاب
وذهاب الليالى لـكم ذهاب][6] . فلا خبر يفضى إلى العين ، ولا حديث فى الله[7]
تعالى يُسمع بين اثنين ، ولا كَدّ[8] إلا لزينة يُحلىً بها نحر وجيد ، ولا سَعى إلا
فى[9] متاع لا يغنى فى الشدائد ولا يفيد . وبالأمس نُدبتم إلى التماس [رُحْمى
أو رضى][10] مُسَخِّر السحاب ، واستقالة كاشف العذاب ، وسؤال مرسل الدّيمة ،
ومُحيي البَشَر والبهيمة ، وقد أمسكت عنكم رحمةُ السماء ، واغبرت جوانبكم المخضرة
احتياجا إلى بلالة الماء ، وفى السماء رزقُكم وما توعدون . وإليها الأكفَّ تمدون ،

(١) هذه الزيادة من نفح الطيب .
(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطات الثلاثة ، وإثباتها لازم للسياق .
(٣) هذه الزيادة واردة فى نفح الطيب .
(٤) هكذا فى « ج » والملكية . وفى «الزيتونة» (ويحق) والمؤدى احد .
(٥) هذه الزيادة واردة فى نفح الطيب .
(٦) هذه الجملة ساقطة فى المخطوطات الثلاثة وواردة فى النفح .
(٧) هكذا فى «ج» . وفى الملكية (بالله) .
(٨) وردت فى المخطوطات الثلاثة (تقد . تعد) والتصويب من النفح .
(٩) واردة فى «الزيتونة» ، وساقطة فى المخطوطين .
(١٠) هذه الزيادة من نفح الطيب .

وأبوابها بالدعاء تقصدون ، فلم يَضْحَرْ[١] منكم عددٌ معتبر ، ولا ظَهر للإنابة [ولا للصدقة)[٢] خبَر ، وتتوقّوون[٣] عن إعادة الرغبة إلى الغنى الحميد والولى الذى إن شاء يُذْهبكم ويأت بخلقٍ جديد . وأيم الله لو كان لَهْوا لارتُقبت الساعات [وضاقت المُتّسعات][٤] . وتزاحمت على جماله وغُصّت الجماعات[٥] . أتعزُّزاً على الله وهو القوى العزيز ، وتلبيساً على الله ، وهو الذى يُميز الخبيث من الطيب ، والشَّبِه من الإبريز ، أمُنابذةً والنواصى بيده ، أغروراً فى الشدايد بالأمل [والرجوعُ بعد إليه][٦] . من يبدأ الخلق ثم يعيده ، ثم يُنزل الرزق ويقيده ، من يُرْجع إليه فى المُلمَّات ، من يُرجى فى الشدايد والأزمات ، من يوجد فى المَحْيا والممات ، أفى الله شك يختلج القلوب ، أم غيرُ الله يدفعُ المكروه ، ويُيسّر المطلوب[٧] . تفضلون على الملجأ إليه فى الشدايد ، [بواسمَ الجهل ، وثرّة الأهل][٨] وطايفة منكم قد برزت إلى استسقاء رحمته ، تمدُّ إليه الأيدى والرقاب ، وتستكشف بالخضوع لعزته[٩] العِقاب[١٠] ، وتستعجل إلى مواعد إجابته الارتقاب ، وكأنكم أنتم ، عن كَرَمه قد استغنيتم ، أو على

(١) وردت فى «ج» (يضجر) . وفى الملكية و«الزيتونة » (يحضجر) والتصويب من النفح .

(٢) الزيادة من نفح الطيب .

(٣) وردت فى المخطوطين (وتترفل) والتصويب من النفح .

(٤) وردت فى «ج» و «الملكية» . (المساعات) والتصويب من النفح .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » . ووردت فى النفح كالآتى (وتزاحمت على أنديته الجماعات) .

(٦) هذه الزيادة من النفح .

(٧) واردة فى «ج» والنفح . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٨) هكذا وردت فى «ج» و «الملكية» . وساقطة فى الزيتونة . ووردت فى النفح كالآتى (روائد الفضل وثرة الجهل) .

(٩) كذا فى «ج» والملكية . وفى النفح (لعظمته) .

(١٠) هكذا وردت فى «ج» والنفح . وفى «الزيتونة» و «الملكية» (العذاب) . والأولى أنسب للسياق .

الامتناع من الرجوع إليه بنَبِيِّهِم . أما تعلمون كيف كان نبيكم صلوات الله وسلامه عليه من التبلّغ باليسير ، والاستعداد إلى (دار الرحيل)(١) الحق والمَسير ، ومداومة الجوع ، وهَجْر الهجوع ، والعمل على الإياب إلى الله والرجوع . دَخلت عليه فاطمةُ رضى الله عنها ، وبيدها كسرة شعير ، فقال ما هذه يا فاطمة ، فقالت يا رسول الله ، خَبَزْت(٢) قرصةً ، وأحببت أن تأكل منها ، فقال يافاطمة ، أما أنه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث . وكان صلى الله عليه وسلم ، يستغفر فى اليوم سبعين مرة ، يلتمسُ رُحْماه ، ويقوم وهو المغفور له ما تقدَّم من ذَنْبه وما تأخَّر ، حتى تورَّمت قدماه ، وكان شأنه الجهاد ، ودأبه الجِدُّ والاجتهاد ومواقف صبره تعرفها الربى والوهاد . فإذا لم تقتدوا به فبمن تقتدون وإذا لم تهتدوا بهديه فبمن تهتدون ، وإذا لم تُرضُوه باتباعكم ، فكيف تعتزون إليه وتَنْتسبون ، وإذا لم ترغبوا فى الاتّصاف بصفاته غضباً لله (تعالى)(٣) وجهاداً ، وتقللاً من العَرَض(٤) الأدنى [وسُهادا ففيم ترغبون ، فابتروا حبال الآمال ، فكل آت قريب ، واعتبروا بمُثلات](٥) ما دَهَم من تقدم من أهل البلاد والقواعد ، فنهولكم عنها غريب ، وتفكروا فى منابرها التى كان يعلوها واعظٌ أو خطيب ، ومطيلٌ ومطيب ، ومساجدها المتعددة الصفوف ، والجماعات المعمورة بأنواع الطّاعات ، وكيف أخذ الله فيها بذنب المترفين من دونهم ، وعاقب الجمهور بما أغمضوا عيونهم ، وساءت بالغفلة عن الله عُقْبى جميعهم ، وذهبت النقمات(٦)

---

(١) وردت فى «ج» للرحيل . وما أثبتناه عن النفح .

(٢) هكذا فى «ج» و «الملكية» . وفى «الزيتونة» (اخبزته) .

(٣) الزيادة من نفح الطيب .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى النفح وفى «الملكية» (الفرض) .

(٥) الزيادة من نفح الطيب .

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة (المنقمات) . والتصويب من النفح .

بعاصيهم ، ومن داهن فى أمره من مطيعهم ، وأصبحت مساجدهم [مناصب][١] للصلبان، واستبدلت مآذنهم بالنواقيس من الأذان . هذا والناس ناس ، والزمان زمان. (فما)[٢] هذه الغفلة عن من اليه الرُّجعى وإليه المصير [وإلى متى التّساهل فى حقوقه ، وهو السميع البصير ، وحتى متى مَدّ الأمل فى الزمن القصير][٣] وإلى متى نسيان اللَّجأ إلى الولى النصير . قد تداعت الصلبان مُجلبة عليكم ، وتحركت الطواغيت من [كل][٤] جهة اليكم . أفيَخْذُلكم الشيطان وكتابُ الله قائم فيكم ، وألْسِنة الآيات تناديكم ، لم تمح سطورُها ، ولا احتجب نورُها ، وأنتم بقايا من افتَتَحها من عدد قليل ، وصابرَ فيها كلّ خَطْب جليل ، فوالله لو تمحّض الإيمان ورضى الرحمن ، ما ظهر التَّثليث فى هذه الجزيرة على التوحيد ، ولا عَدِم الإسلام فيها عزمَ التأييد . ولكن شمل الداء، وصَمّ النداء، وعَميت الأبصار، فكيف الاهتداء، والبابُ مفتوح ، والفضلُ ممنوح ، فتعالوا نستغفر الله جميعاً ، فهو الغفور الرحيم ، ونستقبل مُقيل العَثَرات ، فهو الرّؤوف الحليم ، ونصرف الوجوه إلى الاعتراف بما قدّمت أيدينا ، فقَبُول المعاذير من شأن الكريم . سُدّت الأبواب ، وضَعُفَت الأسباب ، وانقطعت الآمال إلا منك يا كريم [يا فتّاح][٥] ، يا وهّاب . يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله يَنْصُركم ، ويُثَبِّت أقدامكم [يا أيها الذين آمنوا][٦] قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غِلْظَةً ، واعلَموا أن الله مع المتّقين . ولا تَهِنوا ولا تحزنوا ، وأنتم الأعْلَوْن إن كنتم مؤمنين . يا أيها الذين آمنوا ، اصْبِروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون . أعدُّوا الخيل

(١) الزيادة من النفح .
(٢) الزيادة من النفح .
(٣) الزيادة من النفح .
(٤) الزيادة من النفح .
(٥) الزيادة من «الزيتونة» والنفح .
(٦) الزيادة من النفح .

وارتبطوها ، ورووضوا النفوس على الشهادة واغبطوها ، فمن خاف الموت رَضِي بالدنِيَّة ، ولابد على كل حال من المَنِيَّة ، والحياة مع الذل ليست من شيم أهل العقول والنفوس السَّنِيَّة ، واقتنوا السلاح والعُدَّة ، وتعرَّفوا إلى الله فى الرَّخاء يعرفكم فى الشدَّة ، واستشعروا القوة بالله [تعالى][1] على أعدايه وأعدايكم ، واستميتوا من دون أبنايكم ، وكونوا كالبُنْيان[2] [المرصوص][3] لحملات العدو النازل بفَنايكم ، وحُطُّوا بالتعويل على الله وحْدَه بلادكم . واشتروا من الله جل جلاله أبناءكم .

ذكروا أن امرأة احتَمَلَ السَّبُعُ ولَدَها ، وشَكَتْ إلى بعض الصالحين ، فأشار عليها بالصدقة [فتصدَّقت][4] ، برغيف ، فأطْلق السبع ولَدها . وسمعت النداء [يا هذه][5] لُقمةٌ بلقمة ، وإنّا لما استَوْدَعناه لحافظون . أهجروا الشهوات ، وَاستَدْرَكوا الباقيات[6] من قبل الفَوات ، وأفْضِلوا لما كينكم من الأقوات ، واخشعوا لما أنزل الله [تعالى][7] من الآيات ، وخذوا نفوسكم[8] بالصَّبر على الأزمات ، والمواساة فى المُهِمَّات ، وأيقظوا جفونكم من السِّنات ، واعلموا أنكم رُضَّع[9] ثَدْى كلمة التوحيد ، وجيران البلد الغريب ، والدِّين الوحيد ، وحزب التمحيص ،

---

(١) الزيادة من نفح الطيب .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية» . ووردت فى «ج» وفى النفح (كالبناء) والأولى أنسب للسياق .

(٣) هكذا فى «ج» . ووردت بالملكية» محرفة (المرسوس) .

(٤) الزيادة من النفح .

(٥) الزيادة من النفح .

(٦) هكذا وردت فى «الملكية» و «الزيتونة» . وفى «ج» والنفح (البقية) .

(٧) الزيادة من النفح .

(٨) وردت فى «ج» و «الملكية» (من لكم) . والتصويب من النفح .

(٩) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية» . ووردت فى «ج» والنفح (رضعاء) .

ونَفَرَ [المرام](١) العَوِيص ، فتفقَّدوا مُعاملتكم مع الله [تعالى](٢) ، فمهما رأيتم الصِّدق غالباً . والقلب للمولى الكريم ، مراقباً(٣) وشهابَ اليقين ثاقباً ، فثقوا بعناية الله التى لا يَغْلِبكم معها(٤) غالب ، ولا ينالكم [من أجلها](٥) عدوٌّ مُطالب ، وأنكم فى السِّتر الكثيف ،وعصمة الخبير اللطيف . ومهما رأيتم الخواطرَ مُتَبَدِّدة ، والظنونَ بالله متردِّدة ، والجهات التى تخاف ، وتُرْجى متعدِّدة ، والغفلة عن الله ملابِسُها مُتجدِّدة ، وعادة [دواعى](٦) الخِذْلان دايمة ، وأسواق الشهوات قايمة ، واعلموا أن الله منَفِّذٌ فيكم [وعدَه](٧) ووعيدَه فى الأُمم الغافلين، وأنكم قد ظلمتم أنفسكم .ولا عدوان إلا على الظَّالمين . والتوبة تَرُدُّ الشارد،والله يحب التَّوَّابين ، ويحب المُتَطَهِّرين ،وهو القائل : «إن الحسناتِ يُذْهِبْن السيِّئات ، ذلك ذكرى للذَّاكرين » . وما أقربُ صلاح الأحوال ، إذا صَلَحت العزايم ، وتوالت على حزب الشيطان الهزايم ، وخُملت الدُّنيا الدنيَّة فى العُيون ، وصدقت فيها عند الله الظُّنون : « ياأيها الناس إنَّ وَعْدَ الله حقٌّ ، فلا تغُرَّنَّكم الحياة الدنيا . ولا يغُرَّنَّكم بالله الغَرُور» . وتوبوا سراعاً إلى طهارة القلوب ، وإزالة الشُّوْب ، واقصدوا أبواب غافر الذنوب(٨) ، وقابل التّوب . واعلموا أن سوء الأدب مع الله ، بفتح أبواب الشدايد ، ويسُدُّ طريق(٩) العوايد ، فلا تَمْطُلوا بالتوبة أزمانكم ، ولا تأمنوا مكر الله ، فتغشوا إيمانكم ، ولاتعلَّقوا

---

(١) و (٢) الزيادة من النفح .

(٣) هكذا وردت فى «ج» والنفح . ووردت فى « الملكية » و الزيتونة (راغبا وراقبا) .

(٤) هكذا فى الزيتونة و «النفح» . و فى «ج» عليها .

(٥) هكذا وردت فى الزيتونة و «الملكية» . وفى «ج» لأجلها .

(٦) الزيادة من النفح .

(٧) الزيادة من النفح .

(٨) هكذا فى الزيتونة . وفى «ج» و النفح (الذنب) والأولى أنسب للسياق .

(٩) هكذا فى «ج» و «الملكية» . وفى النفح (طرق) .

متابكم بالضرائر[١]، فهو علام السرايو، وإنما علينا معاشر الأولياء أن ننصحكم، وإن كنا أولى بالنصيحة. ونعتمدكم بالموعظة الصريحة، الصادرة علم الله عن صدق القريحة، وإن شاركناكم في الغفلة، فقد نادينا كم[٢] إلى الاسترجاع والاستغفار، وإنما لكم الدنيا نفس مبذولة في جهاد الكفار. وتقدم إلى ربكم العزيز الغفار، وتقدم لديكم إلى مواقف الصبر، التى لا ترتضى، بتوفيق الله الفرار، واجتهاد فيما يعود بالحسنى وعقبى الدار. والاختيار لله ولى الاختيار. ومصرف الأقدار. وها نحن نسرع فى الخروج إلي مدافعه هذا العدو. [ونفدى بنفوسنا][٣] البلاد والعباد، والحريم [المستضعف][٤] والأولاد. ونصلى من دونهم [نار][٥] الجلاد، ونستوهب منكم الدعاء إلى من وعد بإجابته، وتقبل من صرف إليه وجه إنابته. اللهم كن لنا فى هذا الانقطاع نصيراً، وعلى أعدائك ظهيراً، ومن انتقام عبدة الأصنام مجيراً، [اللهم][٦] قو من ضعفت حيلته، فأنت القوى المعين، وانصر من لا نصير له إلا أنت، إياك نعبد، وإياك نستعين. اللهم ثبت أقدامنا [وانصرنا][٧] عند تزلزل الأقدام، ولا تسلمنا عند لقاء عدو الإسلام، فقد ألقينا إليك يد الاستسلام، اللهم دافع بملايكتك[٨] المسومين، [عمن ضيقت أرجاؤه، وانقطع إلا منك رجاؤه[٩]. اللهم هيئ لضعفائنا، وكلنا ضعيف فقير

---

(١) هكذا فى الزيتونة و « النفح ». ووردت محرفة فى « الملكية » وفى « ج » (الغرايز الفرايز).

(٢) هكذا فى المخطوطين. وفى النفح (سبقناكم).

(٣) وردت فى « ج » والملكية (ونفدى بنفسنا). وفى الزيتونة (ونفد بنفسنا). والتصويب من النفح.

(٤) الزيادة من النفح.

(٥) الزيادة من النفح.

(٦) الزيادة من النفح.

(٧) الزيادة من النفح.

(٨) وردت فى المخطوطين (بلايتك) والتصويب من النفح.

(٩) وردت فى المخطوطات الثلاثة (رجاؤنا) والتصويب من النفح.

[إليك](١) ، ذليلٌ بين يديك حقيرٌ ، [رحمة تُروى بالأزمة وتشبع ، وقوةً تطّرد وتُستَتبع ، ياغلاب الغُلاّب ، ياهازم الأحزاب ، يا كريم العوايد ، يا مُفرّج الشدايد ، ربّنا أفرغ علينا صبراً ، وثبّت أقدامنا ، وانصُرنا على القوم الكافرين](٢) . اللّهم اجعلنا ممن تيقّظ [فتيقّظ](٣) ، وذَكّر فتذَكّر ، ومن قال لهم الناسُ إن الناسَ قد جمَعُوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبُنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ ، لم يَمْسَسْهم سوء ، واتبعوا رِضوان الله ، والله ذو فضل عظيم . وقد وَرَدَت علينا المخاطبات من قِبَل إخواننا المسلمين ، الذين عرّفنا في القديم والحديث اجتهادَهم ، وشكرنا في ذات الله [تعالى](٤) جِهادَهم ، بني مَرِين ، أولى الامتِعاض الله والحَمِيّة ، والمخصوصين بين القبائل الكريمة بهذه المزِيّة ، بعَزْمهم على الامتعاض لحقّ الجوار ، والمُصارخة التي تليق [بالأحرار](٥) [والنفْرة لانتهاك ذِمار بيتهم المختار ، وحركة سلطانهم](٦) محلّ أخينا بمن له من الأولياء والأنصار ، إلى الإعانة على هؤلاء الكُفّار ، ومدافعة أحزاب الشيطان وأهل النّار ، [فاسألوا الله تعالى](٧) إعانَتهم على هذا المَقْصد الكريم الآثار ، والسعي الضّمِن(٨) للعزّ والأجْر والفَخَار ، والسّلام الكريم يخصّكم أيها الأولياء ورحمة الله وبركاته . في الثاني عشر من شهر رمضان المعظم من عام سبع وستين وسبعمائة . عرّفنا الله خيره . صحَّ هذا . فكان دفاعُ الله أقوى ، وعصمته أكْفَى . والحمد لله على عوايده الحُسْنى .

---

(١) الزيادة من «الزيتونة» .

(٢) ما بين القوسين إبتداء من (عمن ضيقت) ساقط كله في النفح . وما بين القوسين إبتداء من (رحمة تروى) ساقطة في الزيتونة .

(٣) الزيادة من الزيتونة .

(٤) الزيادة من النفح .

(٥) الزيادة من «الزيتونة» والنفح .

(٦) ما بين القوسين ساقط في الزيتونة .

(٧) ما بين الحاصرتين وارد في النفح . ووردت في «ج» و «الملكية » (فاسل . فارسل) .

(٨) هكذا وردت في النفح . ووردت في «ج» و «الزيتونة» (الضامن) .

ومن الغيرة على الدين ، وتغيُّر أحوال الملحدين ، من مآزق جهاد النفس ، ما وقع به العمل من إخماد البِدَع ، وإذهاب الآراء المضلة ، والاشتداد على أهل الزَّيْغ والزَّنْدَقة . وقد أضاقت[1] أرباب هذه الأضاليل الشريعة، وسُدَّت مضرُّهم في الكافّة ، فيُسَلَّط عليهم الحُكّام، واستدعيت الشهادات، وأخذهم التَّشْريد ، فهل تُحِسُّ منهم أحداً ، أو تسمع لهم رِكزاً .

وقُيِّد في ذلك عني مقالات أخرى . منها رسالة « الغَيْرة على أهل الحَيْرة »، ورسالة « حَمْل الجمهور على السَّنَن المشهور » .ورسالة « أَنْشَدتُ على أهل الرِّد » . فارتفع الخوضُ، وكَسَدَت تلك الأسواق الخبيثة، وصُمَّ[2] منها الصَّدا ، ووضُح نار الهُدى، والحمد لله ، ولو تتبعت مناقب الهُدا، لأخرج ذلك عن الغرض .

الأحداث

وفي غرة ذي الحجة كانت الثورة الشَّنعاء، المُجْحفة بالدولة، وقد كان السلطان أُنْذِر بطائفة ، تُداخل بعض القرابة ، فعاجَلَه بالقبض عليه، وهو في محل ولايته، فصُفِّد وأُحْمِل إلى قَصَبة ألمريّة ، وخاف أرباب المكيدة افتضاح الأمر ، فتعجّلوا إبْراز الكامن ، وإظهار الخَبِث ، وتولّى ذلك جُملة من بني غرون ذُنابى بيت الإدبار ، وقد عابهم من بني مطرون ، يدور أمرهم على الدَّليل البَرْكي[3] ، فأكذب الله دَعْوَتهم ، بعد أن أركبوا الشيخ عليًّا بن نصر ، ونصبوه تلقاء القلعة بباب البُنُود[4]، ودَعُوا الناس إلى بيعته . وأخذ السلطان حِذْره، وناصبهم

---

(١) هكذا في «ج» . وفي «الملكية» (أضيقت) .

(٢) هكذا في «الزيتونة» . وفي «ج» وفي «الملكية» وضم .

(٣) الدليل البركي يشير به إلى أحد وزراء الغني بالله ، وهو الذي قام بتدبير تلك الثورة التي نشبت في سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٦ م) .

(٤) باب البنود هو من أبواب حي القصبة الجديدة من غرناطة . وكان يقع قبالة الحمراء وقباله القصبة القديمة ، يفصله عن قصبة الحمراء نهر حدره .

القتال ، وأشاع العّطا ، واستركب الجيش ، وعمّر الأسوار ، فأخفق القصد ، وفرَّ الدليلُ البركى ، وتُقُبِّض على الرئيس المذكور ، وجعل الله العاقبة الحسنة للسلطان .

وكان مما أمليته يومئذ بين يدى السلطان ، من الكلام المُرْسل ، ما هو نصه ، بعد الصَّدر : وإلى هذا فمِمّا أفادته الفِطَر السليمة ، والحِلْم والقضَا بالشريعة ، والنَّقْلِ الشرعى والسُّنَن المَرْعى ، أنَّ مُغالب الحقِّ مغلوب ، ومزاحمَ الله مهزوم ، ومكابرَ البُرْهان بالجهل موسُوم ، ومرتع الغَىِّ مهجور ، وسيفَ العُدوان مفلول ، وحظَّ الشيطان مَوْكوس ، وحزبَ السلطان منصور . ولا خفاء بنعمة الله علينا ، التى اطَّرَدَها[١] فى المواطن العديدة ، والهَضَبات البعيدة ، والشُّبُهات غير المُبِينة ، والظُّلُمات الكثيفة ، معلنٌ بوُفور الحظِّ من رحمته ، وإبراز[٢] القِداح فى مجال كَرامته ، والاختصاص بسيما اختياره ، فجعلَ العصمةَ ليلةَ الحادث علينا من دون مَضْجع أماناً ، ونَهجَ لناَ سبيل النَّجاة بين يدَى كسْبه علينا ، وسخّر لنا ظَهْرى الطَّريف والطريق ، بعد أن فرَّق لنا بحر الليل ، وأوضح لنا خفَّ المسلك ، وعبَّد لنا عاصِى الحَزْم ، ودمَّث غَمْر الشَّعْراء[٣] ، وأوْطأنا صَهْوة المَنَعَة ، وضَرَب وجوه الشَّرذِمة المُتَّبِعة ، بعد أن ركضوا قَنيب[٤] البَراذِن البادِنة ، من خزاين إهدائنا ، المُتَجَمِّلة بحَلْى رَكْبنا ، وتحمَّلوا السلاح والرِّياش المُختار من أثير صِلاتنا ، وأَبْهَروا الأنفاس التى طال ما رفعها إيناسُنا وأبلغَها الريقُ تأمينَنا ، وصبُّوا العَرَق الذى أفضله طعامُنا ، شَرِهين إلى دَمِنا ، المَحْظور بالكتاب والسُّنَّة ، المحوطِ بسِياج البَيْعة ، المحصَّن عنهم بتقديم النِّعمة ، وحُرْمة الأب ومُتَعدِّد الأذمَّة ، فجعل

(١) وردت فى «ج» اطرادها ، وفى «الملكية» اطردها . والتصويب من «الزيتونة» .
(٢) وردت فى «ج» وبراز . وفى «الملكية» (وبواز) . والتصويب من «الزيتونة» .
(٣) الشعراء هى الأرض الكثيرة الشجر .
(٤) قنيب أى الجمع المتكاثف .

الله بيننا وبينهم حاجزاً ، وسَدَّ ليأجُوجِهم [من][١] المَرَدَة[٢] مانعاً ، وانقلبوا يُعضون الأنامل الغَضّة من سُرَيْط جفاننا، ويقلِّبون الأكُفَّ التى أجْدَبها الدَّهر، ترفيعاً من المهن المُترتِّبة[٣] [فى][٤] خدمتنا ، قد حالهم صِغار القَدْر ، وذلّ الخَيْبة ، وكَبَح[٥] الله جماعَهم عن التَّنَفق بتلك الوسيلة . واحتَلْنا قَصَبة وادى آش ، لانملك إلا أنفُسا ، لم يَشُبْها غشُّ المِلَّة ، ولا كيادُ الأمة ، ولا دَنَّسها والحمد لله عارُ الفاحشة ، ولا وَسَمها الشُّوم فى الولاية ، [ولا][٦] أحبط عمل نجابَتِها[٧] دَخْلُ العقيدة ، ولا مرضُ السَّريرة ، مذ سَلَّمنا المَقادة لمن عَطَف علينا القلوب ، وصَيَّر إلينا مُلْكَ أبينا من غير حَوْل ولا حيلة ، نرى أنّها أمْلَكُ لحرمتنا ، وأعْلَمُ بما كنّا[٨] ، وأرحَمُ بنا ، فتشبَّثت بها القَدَم ، وحَميت لنا من أهلها ، رعاهم الله الهِمَم ، وصَدَقت فى الذَّبِّ عنّا العزايم ، وحاصرنا جيشُ العدُو ، وأولياء الشياطين ، وظهر[٩] الباطل ، فبان الظَّفَر والاستقبال ، وظَهَرت الفيةُ القليلة ، والله مع الصابرين ، فَغُلِبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . ومع ما لنا من الضِّيق ، وأهمَّنا من الأمر ، فلم نُطْلق[١٠] به غارة ، ولا شَرِهنا إلى تغيير[١١] نِعْمة ، ولا سرَّحنا عنا اكتساحُ على[١٢] هجمة ، ولا شِعنا لِبْساً فى بيتٍ ولا حُلّة ، وأمْسَكنا الأرْماق

(١) الزيادة من «الزيتونة» .

(٢) وردت فى «ج» (المودة) . والتصويب من «الملكية» .

(٣) هكذا وردت فى «الملكية» . ووردت فى «ج» (المتربة) .

(٤) وضعناها ليستقيم السياق .

(٥) هكذا وردت فى «الملكية» و «الزيتونة» . وفى «ج» (وجمح) . والأولى أنسب للسياق

(٦) الزيادة من «الزيتونة» .

(٧) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (نجاتها) .

(٨) هكذا فى «الزيتونة» . وفى «ج» (بمالنا) .

(٩) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» (وطهر) .

(١٠) وردت فى «ج» (نطق) والتصويب من «الزيتونة» .

(١١) هكذا فى «الزيتونة» . وفى «ج» (تغير) والمؤدى واحد .

(١٢) هكذا فى «الزيتونة» وفى «الملكية» وفى «ج» (إلى) .

بيَسير الحلال[1] الذى اشتملته خزايننا من أعْشار وزَكَوات ، وحظوظ من زِراعات ، وارتقبنا الفَرَج مِمَّن مَحَّص بالشِّدة ، والإقالة ممن نَبَّه من الغفلة ، وألْهَم الإقلاع والتَّوْبة . ثم وفَّقَنا[2] سبحانه ، وألهمنا من أمْرِنا رَشَداً ، وسلك بنا طريقاً فى بَحْر الفِتنة يَبِساً ، فِدْناه بحقن الدماء، وتأمين الأَرْجاء ، وشَكَرْنا على البَلاء ، كشُكْرِنا إيّاه [على][3] الآلاء . وخَرَجْنا عن الأندلس ، ولقد كاد ، لولا عِصْمَتُه ، بأن نذهب [مذاهب الزَّوْراء][4] ، ونَسْتأصل الشّأفة ، ونستأصل العَرْصة ، سبحانه ما أكْمَلَ صُنْعه ، وأجملَ علينا سِتْره ، إلى أن جُزْنا البحر ، ولِحقْنا بجوار سلطان المغرب ، لم تَنْبُ عنّا عيْنُ ، ولا شَمَخَ علينا أنفُ ، ولا حِمل علينا برَكْب[5] ، ولا هَتَفَت[6] حولنا غاشية[7] ، ولا نُزِع عنّا [للتقوى والعَفاف][8] سِتر ، بل كان الناس يُوجبون لنا الحقَّ الذى أغْفَلَه الأوغاد[9] من أبناء دولتنا ، والضَّفادع ببركة نعمتنا ، حتى إذا الناس عافوا الصَّيحة[10] ، وتَملُّوا[11] الحسرة ، وسِيموا الخسار والخيبة ، وسامهم[12] الطَّغام الذين لا يرجون لله وقاراً ، ولا يألون لشعايره المعظَّمة احتقاراً ، كلابُ الأطماع ، وعَبَدَةُ الطاغوت ، ومدبّرو

---

(١) وردت فى «ج» (الحال) والتصويب من الزيتونة .

(٢) هكذا فى «ج» . ووردت محرفة فى «الزيتونة» و «الملكية» (أوقفنا . وقفنا) .

(٣) الزيادة من الزيتونة .

(٤) فى المخطوطين (مذاهب ندمت الزوراء) . ونعتقد أن التصويب أفضل للسياق .

(٥) الركب — الجماعة من عشرة إلى ما فوق .

(٦) وردت فى «ج» (خفت) وفى الملكية (حفت) . وفى الزيتونة (هتف) . والتصويب أرجح .

(٧) وردت فى «ج» غايشة . والتصويب من الملكية .

(٨) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الملكية» (العفاف والتقوى) .

(٩) هكذا فى «ج» . وفى الزيتونة (الأعوان) والأولى أنسب للسياق .

(١٠) هكذا فى «ج» . وفى الملكية (المجية) .

(١١) هكذا فى «الملكية» . وفى «ج» (وملوا) . والأولى أنسب للسياق .

(١٢) هكذا فى «الزيتونة» . وفى «ج» (وسامهم) .

حُجُون الجهل، ومياسِيس أسواق البُعد عن الرَّب، وعرايس مَحْرم الزينة ، وُدود القزّ ، وثِغار النَّهم، الأعزَّة(١) على المؤمنين بالباطل، الأذلَّة(٢) فى أنفسهم بالحق، ممن لا يُحسن المحاولة ، ولا يلازم الصَّهوة ، ولا يحمل السلاح ، ولا يُنزه مجتمع الحِشمة عن الفحشاء ، ولا يُطعم المسكين ، ولا يشعر بوجود الله ، جاروا(٣)من شقيِّهم(٤) [المحروم](٥) ، على مضعوفٍ مُلْتف فى الحَرَم المحصور ، مُحتف بلُطف المهد ، مُعلَّل بالخداع ، مسلوب الجرأة بأيدى انتهازهم ، شؤمٍ على الإسلام، ومعرَّةٍ فى وجه الدين ، أخذ الله منهم حق الشريعة ، وأنصف أيمَّة المِلَّة ، فلم ينشِبوا أن تهارشوا ، فعُضَّ بعضُهم ، واستأصلهم البَغْى ، وأُلحم للسيف ، وتفُنن القتل ، فمن بين مُجدَّل ، يُوارى بأحلاس الدَّواب الوَبِرة(٦) ، وغريقٍ يُزفُ(٧) به إلى سوء المَيْتة ، واستُبيِنت حُرمة الله ، واستُضيم الدِّين، واستُبيحت المحرَّمات ، واستُبْضِعت الفروج فى غير الرَّشْدة ، وساءت فى عدوِّ الدِّين الحيلة، فتحرَّكنا عن اتفاقٍ من أرباب الفُتْيا، وعزمٍ من أولى الحريّة، وتحريض من أولى الحَفِيظة والهمّة ، وتداخُرٍ(٨) من الشوكة ، وتحريك من وراء البحر من الأمة ، فكان ما قد علمتم من تَسْكين الثَّايرة [وإشكا العديم](٩) ، وإصْمات الصارخ ، وشَعْب الثَّأى ، ومعالجة(١٠) البلوى ، وتدارك القَطْر ، وقد أشْفَى ، وكشف الضرّ والبأسا [أما

(١) هكذا فى «ج » . وفى الزيتونة (العزة) . وفى الملكية (الغرة) . والأولى حسب السياق .

(٢) وردت فى «ج» (الأقلة) . والتصويب من «الملكية» .

(٣) هكذا فى «الملكية» . وفى «ج» داروا .

(٤) وردت فى «ج» سقيهم . والتصويب من «الزيتونة» .

(٥) الزيادة من «الزيتونة» .

(٦) وردت فى «ج» الدبرة . والتصويب من «الملكية» و «الزيتونة» .

(٧) هكذا وردت فى «ج » . ووردت فى «الملكية» و «الزيتونه» (يروف) والأولى أنسب للسياق .

(٨) هكذا فى «ج» و «الملكية» . والتداخر تعنى هنا الدفع .

(٩) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الملكية» .

(١٠) وردت فى «ج» (معاجلة) والتصويب من «الزيتونة» .

الْحَبْوة فالتمسها ، وجَلَّ الرَّب ، واستشاط عليها جوُّ السماء][(١)] . وأما مرافق البحر ومرافِدُه، فسَدَّت طرقها أساطيلُ الأعداء . وأما الحِمِيَّة فبدَّدها[(٢)] فسادُ السيرة، وغَمْط الحق، وتفضيل الأذى. وأما المال فاصْطَلم السَّفَه بيضاءه وصفراءه، وكبس خزاينه حتى وقع الإدقاع والإعدام ، وأقوى العامر ، وافتَقَرت المجابى والمغابن ، واغترَبت جفون السيوف من حُلاها. وجردتموه الآلة إلى أعلاها[(٣)]، والدَّغل المُسْتَبْطن [الفاضح][(٤)] ، ويمحض الحين ، وأسلمت للنواء العَرْصة ، وتخرَّبت الثغور من غير مُدافعة ، واكتُسحت الجهات فلم يُترك بها نافخ ، ووقع القول ، وحقَّ البَهْت ، وخُذل الناصر ، وتبرَّأت الأواصر ، لحا كنا العدو إلى النَّصَفة ، ولم نقرَّه على الدَّنيَّة ، وباينّاه أحوجَ ما كنّا إلى كَدْحه ، وأطمعَ ما أصبحنا فى مظاهرته على الكفار مثله ، اعتزازاً بالله، وثقةً به ، ولجأً إليه وتوكلاً عليه ، سبحانه ما أبْهَرَ قدرته ، وأسرع نُصْرته ، وأوْجَى أمره ، وأشدَّ قهره . ورَكِبْنا بحر الخطر ، بجيش [من التجربة][(٥)] ونَهَدنا قُدُماً ، لانهاب[(٦)] الهَوْل ولا نراقبه ، وأطْلَلنا على أحواز رَيَّه[(٧)] فى الجمع القليل، إلا من مدَد الصبْر المفرد ، إلاَّ مِنْ مظاهرة الله الغُفل، إلاَّ مِنْ زينة الحق المُظَلَّل جناحُ عقابه بجناحُ الروح، تَسُد جيادُه بصهيل العزّ،المطالعة غُرَره بطليعةالنصر. فلما أحسَّ بنا المؤمنون المُطَهَّرون[(٨)] بساحتهم انتَزَوْا من عِقال الإيالة الظالمة، والدَّعوة الفاجرة،

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» و «الملكية» . وساقط فى الزيتونة .

(٢) هكذا فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» و «الملكية» (فشدها) . والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى «الزيتونة» . وفى «ج» علاها .

(٤) هذه الزيادة من « الزيتونة » . ولكن قد وردت كلمة (الفاضح) فى «ج» بعد كلمة(الحين) .

(٥) هكذا وردت فى «الملكية» وفى «الزيتونة» . وفى « ج » (من تجاريه) .

(٦) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (نهب) والتصويب أرجح .

(٧) وردت فى «ج» و «الملكية» (احوازأريه) وهو تحريف . وولاية ريه المذكورة هنا هى الولاية الأندلسية التى تقع بها مالقة وأحوازها من الشمال والغرب .

(٨) وردت فى «ج» (المضطهدون) . والتصويب من «الملكية» وهو أرجح .

وتبرأوا من الشرذمة الغاوية ، والطائفة المناصبة لله المحاربة ، وأقبلوا ثُنَيَّات وأفراداً ، وزرافات ووحداناً ، ينظرون بعيون لم تَرْوَ من غيبتنا ، من مُحيًا رحمة ، ولا اكتحلت بمنظر رأفة ، ووجوه عليها قسوة الخَسْف ، وإبشار عليها بؤسُ الجهد ، يتعلقون بأذيالنا تعلق الغريق ، يئنون من الجوع والخوف أنين المرضى ، ويجهشون بالبكاء ، ويُعلنون لله ولنا بالشكوى ، فعرَّفناهم الأمان من الأعداء ، وأول عارفةٍ جعلونا عليهم ، وصرفنا وجه التأمين والتأنيس ، وجميل الوُد إليهم ، وخارَطْناهم[1] الإجْهاش والرَّقْعة ، ووَثَّبْنا[2] لهم من الذِّلة ، واستولينا على دار الملك ببلدهم[3] ، فأنْزَلنا منها أخابيث كان الأشقياء مُخَلِّفوهم بها ، من أخلاف لا يزال تطأ إبشارهم الحدود ، وتأنف من استكفايهم البهود ، وانثالت علينا البلاد ، وشمَّر الطاغية ذيله عن الجهات ، وراجع الإسلام رَمَق[4] الحياة ، وحَثَثْنا السير إلى دار الملك ، وقد فرَّ عنها الشقى الغاصب ، بشوكةِ بغيه ، التى أمدَّته فى الغىّ ، وأجْرَته على حُرمة الله ، وقصد دار قَشْتالة ، بكل ماصانَتْ الحِقاق من ذخيرة ، [وحجبت الأمهاء من خرزَة ثمينة][5] يتوعدون المسلمين بإدالة الكفر من الإيمان ، واقتياد جيوش الصُّلبان ، وشدَّ الحيازِم إلى تبديل الأرض غير الأرض ، وسَوْم الدِّين ، وطمس معالم الحق ، كياداً لرسول الله فى أمته ، ومناصبةً [له][6] فى حنيفيَّته ، وتبديلا لنعمة الله كُفْراً ، ولمعروف الحقِّ نُكراً ، أصبح[7] له الناس على مثل الرَّضْف ، يرتقبون إطلال الكريهة ، وسقوط الظُّلَّة ،

---

(١) وخارطناهم (هكذا فى ج والملكية) معناها وبكينا بكاء شديداً .

(٢) وثبنا بالتشديد معناها ، أكرمناهم وأقلناهم من الذلة .

(٣) هكذا فى «الزيتونة» و«الملكية» . وفى «ج» ببلادهم .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» و «الملكية» (الى) والأولى أرجح للسياق .

(٥) هذه العبارة واردة فى «ج» و «الملكية» . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٦) وردت فى «ج» (لله) ، وفى «الملكية» (لرسول الله) مرة أخرى . والتصويب أنسب للسياق

(٧) وردت فى «ج» (أصح) والتصويب من «الملكية» .

وعودة الـكَرّة ، وعُقبى المَعَرّة ، والله من ورائهم مُحيط ، وبما يعملون محيط ، ولدعاء المستضعفين من المؤمنين مُجيب ، ومنهم وإن قعدوا فى أقصى الأرض قريب . ولم نُقدم [مذ][(١)] حللنا بدار الملك شيئاً على مراسلة صاحب قشتالة فى أمره ، نناشِدُه العَهْد ، ونُطرى له الوفاء ، ونُناجزه إلى الحق ، ونقوده إلى حُسْن التلطُّف ، إلى الذى نشاء من الأمن ، لحسم الداء ، واجتثّ الأعداء ، وناصَح الإسلام وهو أعدا عُدُوه ، وحَزَم الدين ، وهو المعطل[(٢)] من أدْوايه ، وصارت صُغرى عناية الله بنا ، التى كانت العُظمى ، واندرجت أُولاها فى الأخرى ، وأتت رَكايبُ اليُمْن واليَمين ، تترى ، ورأى المؤمنون أن الله لم يخلق هذا الصُّقْع سدًى ولا هباء عبثاً ، وأن له فينا خبيئةُ غيب ، وسرٌّ عناية ، يبلِّغُنا إيّاها ، ويطوِّقنا طوقها ، لامانع لعطايه ، ولا مُعدِّد لآلايه ، له الحمد ملىء أرضه وسمايه .

فمن اضطردت له هذه العجايب ، لحملته[(٣)] عوايق الاستقامة مزيّة جيوب التقوى ، كيف لا يتمنى ، ويدين لله بمناصحته ، ويحذر عناد الله بمخالفته ، ويخشى عاقبة أمره ، إنها لا تعمى الأبصار ، ولـكن تعمى القلوب التى فى الصدور . فقلمنا أظفار للطالبة [وأغضينا عن البقيّة] [(٤)] وسوّغنا من كشف وجهه فى حَرْبنا نعمة الإبقاء ، وأقْطَعنا رَحِم من قطع طاعتنا جانب الصَّفح ، وأدْرَرْنا لـكثير ممن شَحّ عنا ولو بالـكلمة الطيِّبة جورية[(٥)] الرزق ، ووهبنا ما وجب لنا من الحق ، ودنّا له بكظم الغيظ ، وعَمّرنا الرُّتب بأربابها ، وجردنا الألقاب بعد خرابها ، وقَبَضنا

---

(١) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة وبإثباتها يستقيم السياق .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . ووردت محرفة فى «ج» (المعضل) .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (فحملة) . والتصويب أنسب للمعنى .

(٤) وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» (واغضينا على البقية) . وفى «ج» (واغضبنا طرف التبنية) .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة والمقصود بها (الجراية) .

الجباية مُحمّلة كَنَد العادة ، مقودة بزمام الرِّفق ، ممسوحاً عطفُها بكفٍّ[١] الطواعية ، فبلَّنا صدأ الجيش المَطول بالأمانى ، المُعلل بالكذب ، المُستخدم فى الذبّ عن مجاثم الفحشاء ، ومراقد العَهْر ، ودارينا الأعداء ، وحسمنا الداء ، وظَهَر أمر الله وهم كارهون . إلا أن تلك الشِّرذمة الخبيثة ، أبقت جرائيم نِفاق ، رَكبها انحجار الغَدْر ، وبَذَر بها حصيدُ الشرّ ، وأخلطوا الحقايب الآمنة ممن ساء ظنه ، وخبُثَ فكره ، وظن أن العقاب لا يفلتُه ، والحق لا يَذَرُه ، والسياسة لا تحفِزُه ، فدبت عقاربُهم ، وتدارت طَوافاتهم ، وتأبّت[٢] فسادُهم ، فدبَّروا أمراً تبره الله تتبيرا ، وأوْسَعه خِزْياً وبيلا ، وجفلوا يرتادون من أذيال القرابة ، مَن استَخْلَصه الشيطان وأصحبه الخذلان ، من لا يصلح[٣] لِشيء من الوظائف ، ولا يستقلُّ ببعض الكُلف ، فحركوا منهم زاهق[٤] زمانه ، من شر الدوّاب الذين لا يسمعون ، فأجَّرهم رسَنه ، وتوقف[٥] وقفة العين بين الورد والصَّدر ، بخلال ما أطلعنا الله طلع نيّته ، فعاجلناه بالقبض ، واستودعناه مَصْفِداً ببعض الأطباق البعيدة ، والأجباب[٦] العميقة ، فخرج أمرهم ، وخافوا أن تحترش السعايات ، صباب مكرهم ، وتتبع نفاقهم ، فأقدموا إقدام العير على الأُسْد ، استعجالا للحين ، ورجعاً لحكم الخيار ، وإقداما على التى هى أشدُّ ، تولى كِبرها ، وكشف وجهه فى معصيتها الخبيث البركى[٧] حِلف التهور والخُرق ، المموه بالبسالة وهو الكَذوب النَّكوث الفَلول ، تحمانا هفوته ، وتغمدنا

---

(١) وردت فى المخطوطين (الكف) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» و «الملكية» (وتبات) . والأولى أنسب للسياق .

(٣) وردت فى «ج» و «الملكية» (يصح) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٤) هكذا وردت فى «ج» و «الملكية» وفى الزيتونة (زهو) والأولى أرجح .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (ووقف) .

(٦) وردت فى «ج» (والأجبال) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٧) البركى . وقد سبق أن عرفنا بصاحب هذا الاسم .

بالعفو قديماً وحديثاً زلّته ، وأعرضنا فيه عن النّصيحة ، وأبقينا له حكم الولاية ، وأنسنا من نَفْرته ، وتعافقنا عن غِرّته ، وسوّغنا الجرايم التى سبقت ، والجراير التى سلفت ، من إفساد العهد وأسر المسلمين ، والافتيات على الشرع ، والصدوع بدعوى الجاهلية ، فلم يفده ، إلا بَطَراً ، ولم يزده إلا مكراً ، والخير فى غير أهله يستحيل شرًّا ،والنفع ينقلب ضُرّاً . والتفّت عليه طايفة من الخلايق[(١)] بنو غرون قُرعاء الجبل والمَشْأمة ،وأذناب بيت الإدبار ، ونفاية الشُرّار ، عَرّك جرأتهم مكان صِهرهم البائس ، ابن بطرون[(٢)] ، الضعيف المُنّة السّقيط الهِمّة ، الخامل التفصيل والجُملة . وغيرهم ممن يأذن الله بضلال كيدهم وتخييب سَعْيهم ، فاقتحموا البلد صبيحةً يهتفون بالناس أن قد طرق حِمامهم ، وأن العدو قد دَهَمَهم ، مُلتفتين يرون أنهم فى أذيالهم ، وأنّ رماحهم تنهشهم وتنوشُهم ، وسُرعانهم ترهقهم ،كأنهم سقطوا من السماء ، أو ثاروا من بين الحَصْباء . ثم جالوا فى أزقّة البلد يتذفون فى الصّفاح نارَ الُحباحب[(٣)] ركضاً فوق الصّخر المرصوف ، وخوضاً فى الماء غير المرهوف . ثم قصدوا دار الشيخ البايس على بن أحمد بن نصر ، نُفاية البيت ،و دُردى القوم ، ممسوخ[(٤)] الشكل ، قبيح اللثغ ظاهر الكَدَر ، لإدمان المُعاقرة ، مَزْنون[(٥)] بالمعاقرة والرّبت على الكَبْرة ، ساقط الهمة . عديم الدّين والحِشمة ، مُنْتَمِت[(٦)] فى البخل والهلع ، إلى أقصى درجات الخسّة ، مثل فى الكذب والنميمة ، معَيّب[(٧)] المثانة . لا يُرق بَوْله ، ولا يجفّ سَلِسُه[(٨)] ، فاستخرجوه مُبايعاً فى الخلافة ، منصوباً بأعلى كرسى الإمامة ، مدعوماً

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة (الخلاف) . وبالتصويب يستقيم المعنى .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» ابن بطون .
(٣) نار الحباحب ، أعنى ما تطاير من شرر النار فى الهواء من تصادم حجارة أو نحو ذلك .
(٤) هكذا فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية» (من شيوخ) . والأولى أرجح .
(٥) هكذا فى «الزيتونة» . وفى «ج» (موقون) . والمزنون ، المحقون البول .
(٦) وردت فى «ج» وفى «الملكية» (منتجة) . والتصويب من «الزيتونة» .
(٧) وردت فى «ج» (ميب) وفى «الملكية» معيب .
(٨) فى «ج» (سلسلة) والتصويب من «الزيتونة» .

بالأيدى لسكونه قلقاً لا يثبت على الصَّهوة. مختاراً لحماية البَيْضة، والعدل فى الأمة، مفْتيا للذب عن الحنيفية السمْحة، وصعدوا به إلى ربوة بإزاء قلعتنا، مُنْترا باب البنود(١)، مستندا إلى الربض، مطلا على دار الملك، قد أقام له رسْم الوزارة ابن مطرون(٢) السكارى، السكَسِح الدروب برسم المَسُومة، الحَرْدُ، المهينُ الحجة، نحلُ(٣) طاحونة الغَدْر، وقِدْر السُّوق والخيانة، واليهودى الشكل والنِّحل، وقرعت حوله طبول الأعراس، إشادة بخمُول أمره، واستهْجان آلته، ونُشرت عليه رايةٌ فال رأيها، وخاب سعيُها، ودارت به زِعْنِفة من طغام من لا يُملى ولا يزيد المَكا والصَّفير من حيله، وأُبثَّ فى سكك البلد مُنَاديه، وهَتف أولياء باطله باسمه وكُنْيته، وانتجَزوا مواعيد الشيطان فأخْلَفت، ودعوا سماسير الغرور فصمَّت، وقدحوا زناد الفتنة فصلَدت وما أوارت. ولحين شعُرنا بالحادثة، ونظرنا إلى مَرَج الناس، واتصل بنا ريح الخلاف، وجهير الُخلمان، استعنَّا بالله وتوكلنا عليه، وفوَّضنا أمرنا إلى خير الناصرين، وقلنا ربَّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق، وأنت خير الفاتحين، واستركبنا الجند، وأذَعْنا خبرَ العطاء، وأطلقنا بريح الجهاد، ونَفِير الجِلاد، وملأْنا الأكُفَّ بالسلاح، وعَمَرنا الأبراج بالرجال، وقرعنا طبول الملك، ونشرنا ألوية الحق؛ واستظهرنا [بخالصة الأمراء](٤) أولياء الدعوة، وخاطبنا فقيه الرَّبض، نخبر مخبره؛ ونُسبر غوْره، فألفيناه متوارياً فى وكره، مُرعيا على دينه، مُشْفقاً من الإخطار برُمَّه، مشيراً بكُمِّه. وتفقدنا البلد، فلم نَرْتب بأحد من أهله. فلما كَمُلت البيعة، وفَخُمت الجملة، أنْهدنا الجيش، وولى أمرنا،

(١) هو أحد أبواب غرناطة القديمة، وقد سبق التعريف به.

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية». ووردت فى «ج» ابن بكرون.

(٣) هكذا وردت فى «ج». ووردت فى «الزيتونة» و «الملكية» (بل). ونعتقد أن الأولى أرجح.

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج». ووردت فى «الملكة» (بخلاصة الأمر). والأولى أنسب للسياق.

الذى اتخذناه ظهيراً ، واستنبطناه مشيراً ، والتزمناه جليساً وصهيراً[1] ، ولم ندخر عنه محلا أثيرا ، الشيخ الأجل ، أبا سعيد عثمان بن الشيخ أبى زكريا يحيى بن عمر بن رَحّو ، مُمهد الرعب بقدومه ، والسعد فى خدمتنا بخدمه ، فى جيش كثيف الجملة ، سابغ العُدَّة ، مُزاح[2] العلة ، وافر النّاشية ، أخذ بباب الربَض وشُعابه ، ولفّ عليه أطنابه ، وشرع إليه أمله . ولم يكن إلا كلا ولا ، حتى داسه بالسّنابك ، وتخلّله بجرْ العوالى ، ومجرى السوابق ، وهو الحِمى الذى لا يُتوعد ، والمجدُ الذى لا يغرُب ، فلولا تظاهر مشيخته بشعار السِلْم ، واستظلاله بظلال العافية ، لحثّ[3] الفاقِرة ، ووقعت به الرّزيّة[4] . وفر الأعداء لأول وهلة ، وأسلموا شقيّهم أذلّ من وتَد فى قاع ، وسُلَحْفة فى أعلى يَفاع ، فتُقُبِّض عليه ، وأخذت الخيلُ أعقاب الغَدَرة أشياعه ، وقيد إلينا يرسُف فى قيد المُهْزم ، ثُعْلُبان مكيدة ، وشَكيّة ضلال ومَظِنّة فضيحة ، وأضحوكة سمر . فتضرع بين أيدينا ، وأخذَتْه الملامة ، وعلاه[5] الخِزى ، وثُلّ إلى المُطْبق ، حتى نستدعى حكم الله فى جُرمه ، ونقتضى الفتيا فى جريرته ، ونختار فى أقسام ما عرضه الوحى من قتلته . وهدأت الثايرة ، والحمد لله من يومها ، واجتثّت شجرة الخلاف من أصلها ، فالحمد لله الذى أتم نوره ولو كره الكافرون « إن هؤلاء مُتبرٌ ماهُمْ فيه ، وباطلٌ ما كانوا يعملون » . وماذا رابهم منّاً ، أصغر الله مُنْقلبهم ، وأخزى مَردّهم ، واستأصل فُلْكهم . أولا يتبنى أمر وارثه . ثم عوده إلينا طواعية ، ثم رفعنا وطأة العدو وحَرْبه ، ومددنا ظلال

---

(١) هكذا فى «الزيتونة» «والملكية» . ووردت محرفة فى «ج» (وسهيرا) .

(٢) وردت فى «ج» (قداح) والتصويب من «الملكية» .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (المرتبة) وفى «الملكية» (المرينه) . والأولى متفقة مع السياق .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» و «الملكية» (وجلاه) والأولى أنسب السياق .

الأمن دفعة ، وأنفأنا(١) رَمق الثغور، حين لم يجدوا حيلة إلا ما عرفوا من أمنه، وبلوا من حَيْطته(٢) وتسوّغاً من هدْنه ،وانسحبت فوق آمالهم وحريمهم من عِفّة، وأظهر الله علينا من نعمة . ربنا أنك تعلم ما نخفى وما نعلن، وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء . اللهم ألبسْنا سريرتنا، وعاملنا بدَخْلتنا فيهم، وإن كنا أردنا لجماعتهم شرًّا ،وفى دينهم إغماضا ، وعن العدل فيهم عدولا ، فعاملنا بحسب ما تبلوه من عقِيدنا(٣) ، وتستكشفه من خبيئتنا ، وإن كنت تعلم صحة مُناصحتنا لسَوَادهم ؛ واستنفادنا الجَهد فى إتاحة عافيتهم ، ورعى(٤) صلاحهم ، وتكيف(٥) آمالهم ، فصلّ لنا عادة صُنْعك فيهم ، ومَسِّلنا طاعتهم ، واهد بنا جماعتهم ، وارفع بنظرنا إطاعتهم ، يا أرحم الراحمين .

ولما أسفر صبح هذا الصُّنع عن حُسن العفو ، وأستقر على التى هى أزكى ، وظهر لنا لا تخاف بالله دركا ولا تخشى ، وأن سبيل الحق أنْجى ومحجّتة أحْجَى ، خاطبنا كم نجْلو(٦) نعم الله قبلنا(٧) عليكم ، و نُشيد بتقوى الله بناديكم ، وعنايته لدينا ولديكم ، ونهدى طرف صُنْعه الجميل قبلنا إليكم ليكسبكم اعتبارا ، فزجُوا الله وقارا ، وتزيّدوا يقيناً واستِبْصارا ، وتصفّوا العين من اختار لكم اختيارا . وهو حسبنا و نعم الوكيل ،والله يصل سعدكم ،ويحرس مجدكم . كتب فى كذا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . صحّ هذا

(١) هكذا وردت فى «ج» و «الملكية» .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» وفى «الملكية» (حيطه) . والأولى أنسب للسياق .

(٣) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (عقدنا) . والأولى أرجح .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى الزيتونة» (وروم) والمؤدى واحد .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى الزيتونة (تكلف) . والأولى أنسب للسياق .

(٦) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية» (بجلو) وهو تحريف .

(٧) هكذا فى «ج» و«الزيتونة» . وفى «الملكية» (قبلكم) .

الجهاد فى شعبان من عام سبعة وستين وسبعمائة

اقتضى نظر الحزم، ورأى الاجتهاد للإسلام، إطلاق الغارات على بلد الكفرة من جميع جهات المسلمين، فعظم الأثر، وشَهُرُ الذكر، واكتسحت الماشية، وألْحَمَ السيف. وكان ثغر برُغة[١]، الفايزةُ به يدُ الكفرة، لهذه السنين القريبة، قد أهمّ القلوب، وشغل النفوس، وأضاق الصدور، لانبتات[٢] مدينة رُنْدَة، بحيث لا يخلُص الطَّيف، ولا تبلغ الرسالة من الطَّير وغيرها إلى ناحية العدو[٣]. فوقع العمل على قصده، واستعانة الله عليه، واستُنْفِر لمنازلته أهل الجهات الغربية من مالَقة ورندة، وما بينهما، ويَسَّر الله فى فَتْحه، بعد قتال شديد، وحرب عظيمة[٤]، وجهاد شهير، واستولى المسلمون عليه، فامتلأت أيديهم أثاثاً وسلاحاً ورياشاً وآلة، وطُهِّرت للحين مساجدُه، وزُيِّنت بكلمة الله مشاهده [وأنست بالمؤمنين معاهده][٥] ورُتِّبت فيه الحماةُ والرماةُ، والفرسان الكماة، واتّصلت بفتحة الأيدى، وارتفعت العوايق، وأوضحت بين المسلمين وأخوانهم السُبل، والحمد لله. وتوجَّهت بفتحه الرسايل، وعظُمت المنن الجلايل، وفرّ العدو لهذا العهد عن حصن السهلة، من حصون الحفرة اللَّوِيْشيّة، وسُدَّ الطريق المائلة، وذلك كله فى العشر الأوسط[٦] لشعبان من هذا العام. ثم أجْلَبَ[٧] المسلمون فى رُندة فى أخرياته

(١) هكذا فى «ج». وفى الزيتونة» (بغرة). وهو تحريف. وبرغة بالإسبانية Burgo، وهى تقع شرق رندة.

(٢) وردت فى «ج» و «الملكية» (لانتباب). وبالتصويب يستقيم المعنى. والانبتات معناها الانقطاع.

(٣) وردت بعد هذه الكلمة فى المخطوطات الثلاثة هذه العبارة المضطربة (وابه من الاعانة مسلما بها للاستباحة) وقد رأينا الاغضاء منها نظرا لاضطرابها وغموضها.

(٤) وردت فى «ج» و «الملكية» (عظيم). فاقتضى التصويب.

(٥) الزيادة من «الزيتونة».

(٦) هكذا فى «ج» وفى «الملكية» (الأول).

(٧) هكذا فى «ج» و «الزيتونة». ومعناها احتشدوا.

وقصدوا(١) [باغة وجِيرَة](٢) فاستنزلوا أهلها ، وافتتحوها ، فعظُمت النعمة ، واطّرد الفتح ، واتسعت الجهة .

وكانت مما خوطبت به [الجهة المرينيّة](٣) من إملائى :

المقام الذى نُبشره بالفتح ونُحيِّيه ، ونعيد له خبر المسرّة بعد أن نبديه ؛ و نسأل الله أن يضع لنا البركة فيه ، و نشرك مساهمته فيما نهصُره من أغصان [الزهور ونجنيه](٤) و نعلم أن عزة الإسلام وأهله أسنى أمانيه ، وإعانتهم أهمُّ ما يعنيه . مقام محل أخينا الذى نعظم قَدْره ، و نلتزم برّه ، ونعلم سرّه فى مساهمة المسلمين وجهرَه ؛ السلطان الكذا ، الذى أبقاه [الله](٥) فى عمل الجهاد ونيته ، متكفلةً بنشر كلمة الله طويّتُه ، متممةً من ظهور الدين الحنيف أُمنِيتّه ، معظّمٌ جلاله ، ومُجْزَلٌ ثنايه ، ومؤمَّل عادة احتفاله بهذا الوطن الجهادى واعتنايه ، أيّد الله أمره ، وأعزَّ نصره . سلام [كريم](٦) عليكم ، ورحمة الله وبركاته . أما بعد حمد الله ، واصل سبب الفتوح ، ومُجزل مواهب النّصر الممنوح ، ومؤيد الفية القليلة بالملايكة والرُّوح ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبيه ، الآتى بنور الهدى بَيِّن الوضوح ، الداعى من قبوله ورضوانه إلى المنهل المورود والباب المفتوح ، والرِّضا

---

(١) أضفنا هذه الكلمة لاستقامة السياق .

(٢) ورد مكانها فى «ج» (باعة وعارجير) وفى «الملكية» (باعه وعار واجره) وفى «الزيتونة» (باعث وعار وجيره). وهذا كله تحريف شديد . والصحيح ما أثبتناه وهو (باغة وجيرة) . وهما حصنان يقعان بين رندة ومالقة . وقد استولى عليهما المسلمون بقيادة السلطان الغنى بالله فى شعبان سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٦ م) . (راجع كتابى نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (الطبعة الثالثة) ص ١٤٨ .

(٣) المقصود هنا بالجهة المرينية هو بلاط فاس . وكان ملك المغرب يومئذ هو السلطان أبو زيان محمد حفيد السلطان أبى الحسن المرينى ، وقد حكم من سنة ٧٦٢ هـ إلى سنة ٧٦٨ هـ .

(٤) وردت فى «ج» (الظهور ونجنيه) . والتصويب من «الملكية» .

(٥) الزيادة من «الزيتونة» و «الملكية» .

(٦) الزيادة من «الزيتونة» و «الملكية» .

عن آله وأصحابه ، أسود الشُّروج، وحماة[١] الشُّروح ، والمقتفين نهجه فى جهاد عدو الله بالعين القارَّة والصدر المشروح، والدعاء لمقامكم العلى بالعز الرفيع الصُّروح فإنا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم سُبوغ المواهب ، ووضوح المذاهب ، وعزة الجانب ، وظفرة الكتايب . من حمراء غرناطة حرسها الله ، ونعم الله وا كفة السحايب، كفيلةٌ بنيل الرغايب، والله يصل لنا ولكم عوارف اللطايف، ويجعل الشَّهيد دليلاً على الغايب . وإلى هذا وصل الله إعزازكم ، وحرس أحْوازكم وعَمَّرَ بالحقيقة من أمراد مجازنا ومجازكم. فإنا بادرنا تعريفكم بما فتح الله علينا من الثغر العزيز على الإسلام ، العايد رزؤه الفادح على عبادة الأصنام، ركاب الغارات، وممكّن حياة المضَرَّات ، ومخيف الطريق السَّابلة؛ والمسارح الآهلة ، حصن بُرغة[٢] ويسَّر الله فى استرجاعه مع شهرة امتناعه ، وتطَهَّرَ من دنس الكفار [وأنيرت مئذنته][٣] بكلمة الشهادة الساطعة الأنوار ، وعجلنا[٤] ذلك على حين وضعت الحرب فيه أوزارها، ووفت الأوتار أوبارها[٥]، فسار الكتاب إليكم ، وأجير الأجر لم يجف عرقُه ، وعنو الاستعجال لاحبة طرقُه . ولما عُدنا إلى حضرتنا، بعد ماحصَّناه وعَمَّرْناه، وأجزلنا نظر[٦] الحزم له وفرقناه . لم تكد البنود لمسَرَّة فتحه أن تعاد إلى أماكن صونها، مرتقبة عادة الله فى عونها، حتى طرقت الأنباء السارة بتوالى الصُّنع وانفراده بتَشْفيع أفراده، وذلك أن أهل رُندة حرسها الله ، نافسوا جيرانهم من أهل مالقة، كان الله لجميعهم ، وتولى شكر صنيعهم، فيما كان من امتيازهم

---

(١) هكذا فى «ج» و «الملكية» . ووردت فى «الزيتونة» (حملة) .

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة (حصن أشر) . ولكن من الواضح هنا أنه يقصد حصن (برغة) الذى افتتح فى هذه الغزوة . أما حصن أشر فقد افتتح فى الغزوة التالية حسبما يجىء .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (وإنارة مأذنته) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» (وجعلنا) . والأولى أرجح .

(٥) وردت فى «ج» (أوتارها) . والتصويب من «الملكية» .

(٦) وردت فى «ج» (نصر) . والتصويب من «الملكية» .

بحصن برغة، الجار المُصاقب لها، فحميت هممهم السنيَّة، وهانت فى الله موارد المنيَّة، وتضافر العمل والنية، وظهر نُجح المقاصد الدينية فى إتاحة الفتوح الهنيَّة، فوجهوا نحو حصن وحبر[(١)]، وهو الداين صحر[(٢)] المدينة ونحرها، والعدوُّ الذى لا يفتر عن ضرها، والحيَّة الذكر التى هى مروان[(٣)] أمرها، ففتحوه بعون الله وقوته، وتهنّوا بعده سلوك الطريق، وإشاعة الريق، ومراصد الحرس. ومجلوٌّ الجرس، وأنصفوا، وانصرفوا إلى حصن باغة، من مشاهد تلك الحفرة[(٤)]، فناشبوه القتال، وأذاقوه الوبال، وفوقوا إليه النِّبال، ففتحه الله فتحاً هيناً، لم تُفَتْ فيه للمسلمين نفس ولا تطرّق لنصر التيسير لَبْس، فقابلنا بها لشكر هذه النعم المتوالية، والمِنَن المتقدِّمة والتالية وأعدنا الأعلام إلى مراكزها المشرفة[(٥)] المَرَاقب، والطبول إلى قرعها عملا من الإشارة بالواجب، وشكرنا الله على اتصال المواهب، ووضوح المذاهب، وخاطبنا مقامكم الذى نرى الصَّنايع متواترة بنيته الصالحة وقصده ويُعْتد فى الحرب والسِّلم بمجده، علماً بأن هذه المسرات، نصيبكم منها النصيب الأوفى؛ وارتياحكم إلى مثلها لا يخفى. ونحن نرقبُ ما تنجلى عنه هذه النكايات، التى تُفَتِّت كَبِد العدو تناليها، وتروع أحوازه وما يليها، ولابد له من امتعاض يروم به صرع المعَرَّة، ويأبى الله أن ذلك يأتى بالكرَّة، والله يجعلها محركات لحتفه المرقوب، وحينه المجلوب، ويحقق حق[(٦)] القلوب، فى نُصرة المطلوب، عرَّفنا كم بما تريدون عملا[(٧)] بواجب برِّكم، ومعرفةً بقدركم، وما يتزايد نعرفكم به، ويتصل سبب التأكيد والتعجيل بسببه والسلام.

---

(١) هكذا ورد اسمه فى «ج». وفى «الزيتونة» (وصبر).
(٢) هكذا وردت فى «ج». وفى «الملكية» (وحير).
(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية». ووردت فى «ج» (مراوات).
(٤) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة». وفى «الملكية» (الحضرة).
(٥) هكذا فى «ج». وفى «الملكية» (المشرقة) والأولى أرجح.
(٦) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة.
(٧) هكذا وردت فى «ج». ووردت فى «الزيتونة» و «الملكية» (علما) والأولى أرجح.

الغزاة إلى حصن أشر[١]

وفى أوائل شهر رمضان بعده، أعمل السلطان الحركة السعيدة إلى حصن أشِر، وهو قُفل[٢] الثغر الذى فضّه الطاغية، وسورها الذى فرغه[٣] الكفر، وجارحُه المحلّق على البلاد، والمتحكم لولا فضل الله فى الأموال والأولاد، فتأذن الله برد مُغْتَصِبه، والشفا من وَصَبِه، وأحاط به وناصبه الحرب، ففتحه الله على يده عَنْوَة، على سمو ذروته، وبعد صيته وشهرته، واختيار[٤] الطاغية فى حاميته بعد حرب لم يسمع بمثله، فاز بمزية الحمد فيها السلطان، لمباشرته إياها بنفسه، وحمل كَلّها فوق كاهله، واتقاد ما خَمَد من الحَمِيّة بتحريضه. ثم لما كان بعد الفتح من [استخلاص القَصَبة][٥] وسدّ ثُلمها بيده، ومصابرة جو القيظ عامّة يومه، فحاز ذكراً جميلاً وحلّ من القلوب محلا أثيراً، ورحل منها، بعد أن أسكن بها من الفرسان رابطة مُتَخيرة، ومن الرُّماة جُملة، وتخلّف سلاحاً وعُدّة، فكان الفتح على المسلمين، فى هذا المَعقِل العزيز عليهم جليلا، والمنّ من الله جزيلا، والصنع كثيراً، وصدرت المخاطبة للمغرب بذلك، على الأسلوب المرسل الخلى من السجع الغنى.

الغزاة المُعْملة إلى أطريرة

فى شهر شعبان من عام ثمانية وستين وسبعمائة، كانت الحركة إلى مدينة أُطريرة[٦]

---

(١) وردت فى كل من «ج» و «الزيتونة» (آش). وهو تحريف. وحصن أشر يقع على مقربة من أطريرة شرقى إشبيلية. وقد وقع غزو أطريرة عقب ذلك حسبما يجىء. واستولى المسلمون بقيادة السلطان الغنى بالله على حصن أشر فى رمضان سنة ٧٦٧ هـ وقاموا بتحصينه.

(٢) فى الزيتونه (قبل).

(٣) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية».

(٤) وردت فى «ج» وفى «الملكية» (اختبار). ونعتقد أن التصويب أرجح.

(٥) وردت مكان هذه العبارة فى «ج» (مواساة الفعلة). ووردت فى «الزيتونة» و «الملكية» (مواسات الفتح). وهى عبارات لا معنى لها. وبالعبارة الموضوعة يستقيم المعنى والسياق.

(٦) أطريرة وبالإسبانية Utrera هى مدينة صغيرة تقع جنوب شرقى إشبيلية، وشرقى نهر الوادى الكبير.

بنت إشبيلية، و بلدة تلك الناحية الآمنة، مهاد المدنة البعيدة عن الصَّرْمة، حرك إليها بعدُ المدى، وآثرها بمحض الرَّدى، من بين بلاد العدا، ما أسلف به أهلها المسلمين، من قتل أسراهم فى العام قبله. فنازلها السلطان أول رمضان، و ناشبها الحرب واستباح المدينة وَربَضَهَا عنوة، و لجأ أهلها إلى قصبتها المنيعة، ذات الأبراج المشيدة، و أخذ القتال بمُخَنَّقهم، و أعان الزحام على استنزالهم، فاستنزلوا على حكم المسلمين، فيما يناهز خمسة، بما لم يتقدمه عهد؛ ولا اكتحلت به فى هذه المدة عين، ولا تلقته عنها أذن، وامتلأت أيدى المسلمين، بما لم يعلمه إلا الله، من شقىّ الغنايم، وأنواع الفوايد، واقتسم الناس السَّبي رُبما على الأكفال والظهور، وتقديرا بقدر الرجال، وحملا فوق الظهور للفرسان، وعُمرانا للسروج والأعضاد بالصِّبية، وبرز الناس إلى ملاقاة[1] السلطان، فى هول من العزّ شهير من الفَخْر، وبعيد من الصيت، قرّت له أعينهم، وقعد لبيعتهم أياما تباعا، وملأ بهم البلاد هدايا وتحفاً والحمد لله [وصدرت المخاطبة بذلك إلى السلطان بالمغرب بما نصه من الكلام المرسل من إنشائى][2].

الغزاة إلى فتح جيّان

وفى آخر محرم من عام تسعة[3] وستين وسبعمائة، كانت الحركة الكبرى إلى مدينة جيّان، إحدى دور الملك، ومدن المعْمود، وكرسيّة[4] الإماره، ولوان المدن الشهيرة، افتتحها الله عنْوة، ونقل المسلمون ما اشتملت عليه من النِّعم والأقوات والأموال والأنعام والأثواب والدّواب والسِّلاح، ومكنهم من قتل المُقاتلة، وسبْي الذرية، وتخريب الديار، ومحو الآثار، واستنْساف النِّعم، وقطع الأشجار. وهذا الفتح

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة». ووردت فى «ج» (قفول). والأولى أنسب للسياق.
(٢) هذه الجملة واردة فى «الزيتونة» وفى «الملكية». وساقطة فى «ج».
(٣) وردت فى «الزيتونة» (سبعة) وهو تحريف.
(٤) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة.

خارق ، تعالى أن يحيط به النّظْم والنثر ، فذكرُه أطْير ، وفخره أشْهر . وصدرت فى ذلك المخاطبة من إملائى إلى ملك المغرب . وأصاب الخلقَ عقب القفول فى هذه الغزاة ، مرضٌ وافد ، فشا فى الناس كافة ، وكانت عاقبته السَّلامة ؛ وتدارك الله بلطفه ، فلم يتسع المجال لإنشاد الشعراء ، ومواقف الإطراء ، إلى شغْل عن ذلك[1] .

الغَزاة إلى [مدينة][2] أُبّدة

وفى أول ربيع الأول من هذا العام ، كان الغزو إلى مدينة أُبّدَة ، واحتلّ بظاهرها جيش المسلمين ، وأبلى السلطان فى قتالها ، وقد أخذت بعد جارتها جيَّان أقصى أُهبة ، واستعدَّت بما فى الوُسع والقوة ، وكانت[3] الحرب بها مشهورة . وافتتحها المسلمون فانتهبوها ، وأعفَوا مساكنها العظيمة البِناء ، وكنايسها العجيبة المرأى ، وألصقوا أسوارها بالثَّرى ، ورأوا من سَعَة ساحتها ، وبُعد أقطارها ، وضخامة بناها ، مايُكذِّب الخبر فيه المرأى ، ويُبَلِّد الأفكار ، ويُحَيِّر النُّهى . ولله الحمد على آلايه التى لا تحصى . وقفَل المسلمون عنها ، وقد أخربوها ، بحيث لا تَعْمُر رباعها ، ولا تأتلف حجورها وجموعها . وصدرت المخاطبة بذلك إلى صاحب المغرب من إنشائى بما نصه :

وإلى هذا العهد جرت الحادثة على ملك قشتالة ، بِطْرُه بن أذْفونش بن هِراندة بن شانْجُه ، وهو الذى تهيأ به الكثير من الصُّنع للمسلمين ، بمزاحمة أخيه أندريق[4]

(١) وردت بعد ذلك فى «ج» العبارة الآتية (العدو إلى مدينة أبدة) . وهى عبارة لا محل لها هنا .

(٢) الزيادة من «الزيتونة» .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (وكان) وهو تحريف اقتضى التصويب .

(٤) سبق أن أوضحنا أن هذا الاسم يقصد به الدوق هنرى دى تراستامارا الأخ غير الشرعى الملك بيدرو الثالث (بطره) ملك قشتالة .

فى الملك وتضييقه عليه ، [وحِياز سَبْعة](١) من كبار أصحابه ، وأهل ملته إليه ، وافتقار بطره المذكور إلى إعانة المسلمين ، وإجلابهم على من آثر طاعته ضده ، فانهزم بظاهر حصن مُنْتيل ، ومعه عدد من فرسان المسلمين ، ولجأ إلى الحصن على غير أهبة ولا استعداد ، فأخذ أخوه الذى هزمه بمُخَنَّقه ، وأدار على الحصن البنا ، وفرّ جيشُ المحصور ، فاجتمع فلّه بأحواز أُبَّدَة ، وراسلوا المسلمين فى مظاهرتهم على استنقاذهم ، فتوجهت الفُتْيا بوجوب ذلك . ووقع الاستِنْفار والاحتشاد حرصاً على تخليصه ، ليسبِّبَ بقاؤه بقاء الفتنة تستأصل الكفر ، وتشغل(٢) بعض العدو ببعضه .

وفى أثناء هذه المحاولة تَباطَن(٣) الحاينُ المحصور بمن معه ، وبعُد عليه الخلاص من ورطته ، ومساهمة المسلمين إياه فى محنته ، وانقطعت عنه الأنباء بفرج من كربته ، فداخل بعض أمراء أخيه وظُهرايه ، ممن يباشر حصاره ، وكان قومساً شهيراً من المَدَد الذى ظاهره ، من أهل إفْرَنْسية ، ووعده بكل مايطمع من مال ومَهْد ، وتَوْفية عهد . فأظهر له القبول . وأضْمَر الخديعة . ولما نزل إليه ، سَجَنه ومن لحق به من الأدِلَّاء [وأولى الحرّة بالأرض](٤) وأمسكه ، وقد طَيَّر الخبر إلى أخيه ، فأقبل فى شِرذِمة من خواصه وخُدّامه ، فهجم عليه وقتله ، وأوْسَع العفو من [كان](٥) محصوراً معه ، وطير إلى البلاد برأسه ، وأوْغَر التّبْن(٦) فى جُثّته ، ولَبس ثياب

(١) وردت فى الزيتونة (وحياز من السبعة) وفى «الملكية» (وحياز من أسفه) . وفى «ج» (من أسطء) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) وردت محرفة فى المخطوطات الثلاث (واستغل . واشتغل) فاقتضى التصويب .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٤) هذه العبارة واردة فى «ج» وفى «الملكية» وساقطة فى «الزيتونة» .

(٥) ورد مكانها فى «الزيتونة» (وهو) وفى «الملكية» (من هو) . والتصويب أنسب السياق .

(٦) وردت فى «ج» (واوغر تبر) وفى «الزيتونة» (وادعز تبن) وفى «الملكية» (واوغر تبن) وبالتصويب يستقيم السياق .

الحزن من أجله ، وإن كان معترفاً بالصّواب فى قتله ، وخاطب البلاد التى كانت [على][١] مِثْل الجمر من طاعة ، الجاهر[٢] بمظاهرة المسلمين ، وما جَرَّ ذلك من افتتاح بلادهم ، وتخريب كنايسهم ، والإتيان على نِعَمهم ، فأجابته ضَرْبَةً ، واتفقت على طاعته ، فلم يختلف عليه منها اثنان ، إلاّ ما كان من مدينة قَرْمُونة . واجتمعت كلمة النصارى ، ووقع ارتفاع شتاتهم ، وصرفوا وجوههم إلى المسلمين ، وشاع استدعاؤهم جميع من بأرض الشّرق من العَدُوّ الثقيل ببرجلونه[٣] ، وعدوّ الأُشْبونة ، والعدو الثَّقيل الوطأة بإفرانسيّة . وقد كان الله جل جلاله ، ألهم أهل البصاير النظر فى العواقب ، والفكر فيما بعد اليوم أعْمَل . ووقع لى إذنُ السلطان ، المُخْلى بينى وبين النصائح ، فى مخاطبة سلطان النصارى المَنكوب لهذا العهد . فأشرتُ عليه بالاحتراز من قومه ، والتَّفَطُّن لمكايد من يَحْطُب فى حَبْل أخيه ، وأريتُه اتخاذ مَعْقِل يحرز ولده وذخيرته ، ويكون له به الخيار على دهره[٤] ، واستظهرتُ[٥] له على ذلك بالحكايات المتداولة ، والتواريخ المعروفة ، لتتّصل الفتنة بأرضهم . فقبل الإشارة وشكر النصيحة ، واختار لذلك مدينة قَرْمونة ، المختصّة بالجوار المُكْتَنَف ، من دار مُلْكهم إشبيلية ، فشيّد هضابها ، وحصّن أسوارها ، وملأها بالمخازن طعاماً وعُدّة ، واستكثر من الآلات ، واستظهر عليها بالثّقات ، ونقل إليها المال والذخيرة ، وسجن بها رِهان أكابر إشبيلية ، وأسرى المسلمين ، وبالغ فى ذلك ، فيما لاغاية وراءه ولا مطمع ، ولا ينصرف إلى مصرعه الذى دعاه القَدَر إليه ، حتى تركها عُدّة خَلْفه ، وأودع بها ولده وأهله ، ولجأ إليها بعض من خُدّامه ممن لايقبل مَهْدَنة[٦]

(١) هذه الكلمة لازمة لاستقامة السياق .

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة (الجاير) . والتصويب أرجح .

(٣) هى مدينة برشلونة عاصمة مملكة أراجون وقتئذ .

(٤) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية» . وفى «الزيتونة» (ظهره) .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة (استطرت) . والتصويب أنسب للسياق .

(٦) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وردت فى «ج» وفى «الملكية» (مصدنة) والأولى أنسب السياق .

ضده، ولا يُقِر أمان عدوه، والتفوا على صغير من وَلَده كالنَّحْل على شَهْده، ولجأوا إلى المسلمين، فبَغَّض عليهم الكرَّة والفتح بقاء هذا الشَّجَى، المُعترض فى حَلْقه، وأهمَّه تغيير أمره، وجَعْجع به المسلمون لأجله، وأظهروا لمن انحاز بقرمونة: الامتساك بعهده، فعَظُم الخَرْق، وأظهر الله نُجْح الحيلة، وصدَّق [بها][1] المُخَيِّلة، وتفتَّر الأمر، وخَمَدت[2] نار ذلك الإرجاف. واشتغل الطاغية بقَرْمونة، بخِلال ماخوطب به صاحب الأرض الكبيرة[3]، فطَمَّعه فى المظاهرة: وتَخَطَّب له مُلْك قشْتالة، وعقد السِّلْم مع صاحب بُرْطُغال[4] والأُشبونة، ونشأت الفتن بأرضهم، وخرجت عليهم الخوارج. فأوجب إزعاجه إلى تلك الجهة. وإقرار ما بالبلاد المجاورة للمسلمين من الفرسان والحماة تقاتل وتدافع عن أحْوازها، وجعل الحصص مُوَجَّهة قَرْمونة، وانصرف إلى سَدِّ الفتوق التى عليه بلُطْف الحيلة. ببواطن أرضه، وأحشاء عِمالته، وصار فى مُلْكه أشْغَل من ذات النِّحيين، [فساغ الرِّيقُ][5]، وأمكن العُذر، وانتهز الغُرَّة، واستؤنفت الحركة[6]. فكانت إلى حصن مُنْتيل والحوين، ففتحهما الله فى رمضان من عام سبعين وسبعمائة، ثم إلى ثغر رُوطَة، ففتحه الله [عن][7] جَهْد كبير، واتصل به حصن زَمْرَة[8]، فأمّن الإسلام عادية العدوِّ بتلك الناحية، وكبَس أهلُ رُندة. بإيعاز من السلطان إليها، وإلى من بالجَبَل: جبل الفتح، حصن برج الحكيم والقَشْتور، فيسر الله فتحها فى رمضان أيضاً.

---

(١) الزيادة من الزيتونة.

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة (وخمد). وبالتصويب يستقيم السياق.

(٣) الأرض الكبيرة هى فرنسا.

(٤) هكذا وردت فى «ج»، وفى «الملكية» و «الزيتونة» (برتقال).

(٥) واردة فى «ج» و «الملكية»، وساقطة فى «الزيتونة».

(٦) وردت فى «ج» وفى «الملكية» (الحركات) والتصويب أنسب السياق.

(٧) الزيادة من «الزيتونة».

(٨) هكذا وردت فى «ج». وفى «الزيتونة» و «الملكية» (حصن مرة).

ثم كانت الحركة إلى الجزيرة الخضراء ، باب الأندلس ، وبكرُ الفتح الأول ، فكانت الحركة إليها شهر ذى الحجة من العام المذكور . ووقع تحريض الناس بين يدى قصدها فى المساجد بما نصه :

معاشر المسلمين المجاهدين ، وأولى الكفاية عن ذوى الأعذار من القاعدين . أعلى الله بعلوّ أيديكم كلمة الدين ، وجعلكم فى سِوى الأجر والفخر من الزاهدين ، إعلموا رحمكم الله ، أن الإسلام بالأندلس ، ساكِن دار ، والجزيرة الخضراء بابُه ، ومُبعد مغار ، والجزيرة الخضراء رِكابه ، فمن جهتها اتصلت فى القديم والحديث أسبابه ، ونَصَرته على أعدايه وأعداء الله أحبابُه ، ولم يشك العدو الكافر الذى استباحها ، وطَمَس بظُلْمة الكفر صباحها[(١)] ، على أثر اغتصابها ، واسْوِداد الوجوه المؤمنة لمصابها ، وتبديل محاربها ، وعلوق أصله الخبيث فى طيِّب تُرابها ، أن صريع الدين الحنيف بهذا الوطن الشريف ، لاينتعش ولايقوم ، بعد أن فُرِى الحُلْقوم ، وأن الباقى رمقٌ يذهب ، وقد سُدَّ إلى التَّدارك المنهب ، لولا أن الله دفع الفاقِرة وَوَقاها ، وَحَفِظ المَسْكَنة[(٢)] وَاستبقاها ، وإن كان الجبل[(٣)] عصمه الله نِعْم البقية ، وَبمكانه حفَّت التقية ، فحسبُك من مصراع بابٍ نُخِع بثانيه ، ومُضايق جِوارِ حيل بينه وبين أمانيه . والآن ياعباد الله قد أمكنكم الانتهاز ، فلا تُضَيِّعوا الفرصة ، وفترَ المُخَنَّق فلا [تسُوِّغه غصَّة][(٤)] ، وَاعمُروا البواطن بحمِيَّة الأحرار ، وَتعاهدوا مع الله معاهد الأولياء الأبرار ، وَانظروا للعون من الذَّرارى وَالأبكار ، والنشأة الصِّغار ، زُغْب الحواصل فى الأكوار ، والدين المنتشر بهذه الأقطار ،

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاث (صاحبها) وبالتصويب يستقيم المعنى والسياق .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٣) الجبل هنا يقصد بها جبل الفتح أو جبل طارق .

(٤) هكذا . وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» وفى «الملكية» (تسوها) .

واعملوا للعواقب، تحمدوا عملكم، وأخلصوا لله الضماير، يُبَلِّغكم من فضله أملكم، فما عُذْر من سَلَّم فى باب وَكْره. وماذا ينتظر من أذعن لكَيْد عدوّه ومكره. من هذه الفُرْضة، دخل الإسلام تروّع أسوده. ومن هذه الجهة طلع [الفتح الأول][1] تخفق بُنوده، ومنها تقتحم الطاير الغريب، إذا رامت الجواز وفُوده، فيبصر بها صافّات والدليل يقوده. الباب المسدود ياعباد الله فافتحوه، وَجْهُ النّصر تجلّى ياعباد الله فالمَحُوه، الداء العُضال ياعباد الله فاستأصلوه، حَبْلُ الله يارجال الله قد انقطع فصِلوه. فى مثلها تَرْخُص النفوس الغالية، فى مثلها تُخْتَبر الهِمَمُ العالية، فى مثلها تُشهر[2] العقايد الوثيقة، وتُدَسُّ الأحباس العريقة، فنَضَّر الله وجه من نظر إلى قلبه، وقد امتلأته[3] حِمِيَّة الدين، وأصبح لأن تكون كلمة الله هى العليا مُتَهَلِّل الجبين.

اللهم إنا نتوسل إليك بأسرار الكتاب الذى أنزلته، وعناية النبى العربى الذى أَوْفَدَت[4] من خصوص الرّحمات وأجْزَلت، وبكل نَبِي[5] ركع لوجهك الكريم وسجد، وبكل وَلى [سدَّه من إمدادك كما وجد][6]. ألا ما رَدَدْت علينا ضالّتنا الشاردة، وهنّأتنا بفتحها [من][7] نعمك الواردة، يامُسهِل المآرب العسرة، ياجابر القلوب المنكسِرة، ياولى الأمة الغريبة، يامُنْزِل اللطايف القريبة، اجعل لنا من ملايكة نَصْرك مدداً، وانجز لنا من تمام نُورك الحق موعداً. ربنا آتِنا من لدُنك رحمةً، وهيِّء لنا من أمرنا رَشَداً.

(١) هكذا وردت فى «ج». ووردت فى «الملكية» (الفتوح الأولى).
(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة». ووردت فى «ج» و «الملكية» (تشحر) وهو تحريف.
(٣) هكذا فى «ج» و «الزيتونة». ووردت فى الملكية (أملته).
(٤) وردت فى «ج». وفى «الزيتونة» و(فدت). والتصويب أرجح
(٥) هكذا فى «ج». وفى الملكية (ولى).
(٦) هذه العبارة واردة فى «ج». وساقطة فى «الملكية» و «الزيتونة».
(٧) وضعنا هذه الكلمة ليستقيم السياق.

فوقع الانفعال، وانتشرت الحِمِيَّة، وجُهزت الأساطيل. وكانت مُنازلتها يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر المذكور، وعاطاها المسلمون الحرب، فدُخلت البِنْيَة(١) وهى المدينة الملاصقة لها عَنْوة، قتل بها من الفرسان الدّاوعة عِدّة، وصُرفت الغنايم إلى المدينة الكبرى. فرأوا من أمْر الله، ما لا طاقة لهم به، وخذلهم الله جلّ جلاله، على مَنَعة الأسوار [وبُعد مهاوى الأغْوَار، وكثرة العدّ والعُدَد](٢). وطلبوا الأمان لأنفسهم، وكان خروجهم عنها يوم الإثنين الخامس والعشرين من الشهر المذكور، السعيد على المسلمين، فى العيد(٣) والسرور، [برُد الدين](٤). ولله الحمد على آلايه، وتوالى نعمه وإرغام أعدايه.

وفى وسط ربيع الأول من عام أحد وسبعين وسبعمائة، أُعْمِل الحركة إلى أحْواز إشْبِيلية دار الملك، ومحل الشَّوكة الحادَّة، وبها نايبُ سلطان النصارى، فى الجمع الخَشِن من أنجاد فرسانهم، وقد عظُم التضييق ببلدة قَرْمونة، المنفردة بالانتِزاء على مَلِك النصارى، والانحياز إلى خدمة المسلمين، فنازل المسلمون مدينة أُشُونة(٥)، ودخلوا جفْنها عَنْوة، واعتصم أهلها بالقَصَبة، فتعاصَت، واستُعجل الإقلاع منها لعدم الماء المَرْوى والمحلاّت، فكان الانتقال قُدُماً إلى مدينة مُرشانة(٦) [وقد أحدقوا بها](٧)، وبها العُدّة والعديد من الفرسان الصَّناديد، ففتحها الله سبحانه، إلا

(١) البنية وبالإسبانية La Pena هى بلدة صغير تقع على المحيط غربى مدينة الجزيرة الخضراء وشمالى مدينة طريف.

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فقط فى «ج»، وساقط فى «الزيتونة» و«الملكية».

(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية». وفى «ج» (العيدين).

(٤) هاتان الكلمتان واردتان فقط فى «ج».

(٥) أشونة وبالإسبانية Osona بلدة تقع جنوب شرقى إشبيلية، على مقربة من شرقى مدينة مورور.

(٦) مرشانة وبالإسبانية Marchena بلدة تقع جنوب شرقى قرمونة وإشبيلية، وشمال مورور.

(٧) وردت فى «ج» و«الزيتونة» (وقدأحدث إبنها). وهو فيما يبدو تحريف. وبالتصويب يستقيم السياق.

القَصَبة ، واستولى المسلمون فيها، وفى جارتها من الدواب والآلات على ما [لا] (١) يأخذه الحَصْر ، وقُتل الكثير من مُقاتلتها، وعمَّ جميعها الهَدَم والإحراق، ورَفعت ظهور دواب المسلمين من طعامها، ماتُقِلُّه أظْهُر (٢) مراكب البحار . ما أوجب فى بلاد المسلمين التَّوسِعة، وانحطاط الأسعار، وأوْجَب الغلاء فى أرض الكفار، وقفل والحمد لله فى عزٍّ وظهور، وفرح وسرور .

مولده السعيد النَّشيبَة (٣) ، الميمون الطلوع والجبية

المقترن بالعافية، منقولا من تهليل نشأته المباركة ، وحِرْز طفولته السعيدة ، فى نحو ثلث ليلة الإثنين والعشرين من جمادى الآخرة عام تسعة وثلاثين وسبعمائة. قُلتُ ، ووافقه من التاريخ الأعجمى [رابع ينير من عام ألف وثلاثمائة وسبعة وسبعين] (٤) لتاريخ الصُّفر . واقتضت صناعة التعديل بحسب قيمودا وبطليموس، أن يكون الطالع ببرج (٥) القمر ، لاستيلائه على مواضع الاستقبال المتقدم للولادة، ويكون التخمين على ربع ساعة وعشر ساعة، وثلث عشر الساعة السادسة من ليلة الإثنين المذكورة. والطالع من بُرج السُّنبلة، خمس عشرة درجة، وثمان وأربعون دقيقة من درجة . كان الله له فى الدنيا والآخرة، وحسْبُنا الله ونعم الوكيل .

---

(١) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة . وإثباتها لازم لاستقامة السياق .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (ظهور) .

(٣) وردت فى « ج » . و « الملكية » (النشية) ونعتقد أن كلمة (النشيبة) ومعناها النشأة أنسب للتوافق .

(٤) إن هذا التاريخ الميلادى الذى يورده ابن الخطيب (وهو ٤ يناير سنة ١٣٧٧ م مقابل التاريخ الهجرى لمولد السلطان الغنى بالله وهو (٢٢ جمادى الثانية سنة ٧٣٩هـ) ينطوى على خطأ حسابى بين . والحقيقة أن مقابل التاريخ الهجرى المذكور بالميلادى هو ٢١ يناير سنة ١٣٣٨ م .

(٥) هكذا وردت فى «الملكية» . ووردت فى «ج» (بدرج) والأولى أرجح .

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس
ابن نصر بن قيس الخزرجى الأنصارى

من ولد سعد بن عُبادة، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ابن سليمان ابن حارثة [بن خليفة](١) بن ثَعْلبة(٢) بن طريف بن الخَزْرج بن حارثة بن ثعلبة ابن عمر بن يَعْرُب بن يَشْجُب بن قحطان بن هُمَيْسع بن يُمن بن نَبْت بن إسماعيل ابن إبراهيم، صلى الله عليه وعلى محمد الكريم. أمير المسلمين بالأندلس ودايلها [وخدمة النَّصْريين بها](٢)، يكنى أبا عبد الله ويلقب بالغالب بالله.

أوّليـــته

وقد اشتهر عند كثير ممن عُني بالأخبار أن هذا البيت النَّصْرى من ذرِّية سَعْد بن عُبادة سيد الخزرج، وصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وصنَّف الناس فى اتصال نَسَبهم [بقيس بن سعد بن عبادة](٣) غيرَ ما تصنيف. وأقوى ما ذُكر، قولُ الرَّازى: دخل الأندلس [من ذرِّية](٤) سعد بن عُبادة رجلان، نزل أحدهما أرض تاكُرُونّا(٥) [ونزل](٦) الآخر قرية من قرى(٧) سقرسطونة(٨) تعرف بقرية

---

(١) وردت هذه الزيادة فى «ج» وفى «الملكية»، ولم ترد فى «الزيتونة».

(٢) وردت هذه العبارة فى «ج» فقط. (وخدم . . الخ) وهى تؤدى معناها بتصحيح الكلمة الأولى. والخدمة هى الحلقة المحكمة.

(٣) هكذا وردت فى «ج». ووردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية» (بسعد بن عبادة).

(٤) هذه الزيادة من «الزيتونة».

(٥) يطلق هذا الاسم أحياناً على منطقة رندة.

(٦) الزيادة من «الزيتونة».

(٧) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية». وفى «ج» (نظر).

(٨) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية». ووردت فى «ج» (سرقسطة). ونحن نعتقد أنه لا مجال هنا لذكر سرقسطة التى تقع بعيداً فى الشمال، وما يلى يدل على أن سقرسطونة – وإن لم نعثر على مكان بهذا الاسم – إنما يقصد بها مكان يقع فى منطقة جيان.

الخزرج ، وتشأ بأحواز أرْجُونة(١) من كنْبَانيّة(٢) قرطبة ، أطيب البلاد مَدَرَة ، وأوفرها غلّة ، وهو بلدُه ، وبلدُ جَدِّه ، فى ظل نعمةٍ ، وعلاج فلاحةٍ ، وبين يدى نجْدة وشهرة ، بحيث اقتضى ذلك ، أن يفيض شِرْيان الرياسة ، وانطوت أفكاره على نيل الإمارة [ورآه مرتادو أكفاء الدول أهلا ، فقدَحوا رغبته ، وأثاروا طمعه](٣) .

حدث شيخنا الكاتب الشاعر ، محمد بن محمد بن عبد الله اللَّوْشى اليَحْصُبى ، وقد أخبرنى [أنه كان يوجد] بمدينة جيّان [رجل] من أهل الماليَّة(٤) ، وكان له فَرَس أنثى من عِتاق الخيل ، على عادة أولى المالية ، وكان له من أهل الثغور ، من ارتباط الخيل ، والتنافس فى إعداد القوة . وشهُرت هذه الفرس ، فى تلك الناحية ، وبعث الطّاغية ملك الروم فى ابتياعها ، فعَلِقت بها كفُّ هذا الرجل ، وآثر بها نفسه ، وازداد غِبْطة بها لديه ، ورأى فى النوم قايلا يقول له ، سِرْ إلى أرْجُونة ، بفرسك ، وابحث عن رجل اسمه كذا ، وصفتُه(٥) كذا ، فاعطه إياها(٦) ، فإنه سيملك جَيَّاناً وسواها ، ينتفع بها عقِبك . وأُرْجِى الأمر ، فعُرِض عليه ثانية ، وحُثَّ فى ذلك فى الثّالثة ، فسأل ثقةً له خبيراً بتلك الناحية وأهلها ، فقال له المُخْبر ، وكان يُعرف بابن يَعيش ، فوصفه له ، فتوجه الفقيه إلى أرجونة ، ونزل بها ، وتسوّم به ،

---

(١) أرجونة بلدة من بلاد ولاية جيان تقع ، فى جنوب غربى أندوجر ، على مقربة من نهر الوادى الكبير وبالإسبانية Arjona .

(٢) يقصد بكلمة كنبانية هنا ، السهل المنبسط من الأرض ، وهى مأخوذة من كلمة Campo الإسبانية ومعناها الحقل .

(٣) ما بين الخاصرتين وارد فقط فى «ج» .

(٤) هكذا وردت فى «ج» وفى «الزيتونة» و «الملكية» (المانية) والأولى أنسب للسياق . ويبدو أنه قد شطبت من هذه العبارة بعض كلمات . وربما كان تركيب العبارة كلها كالآتى (وقد أخبرنى أنه كان يوجد بمدينة جيان رجل من أهل المالية) .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الملكية» (ونعته) والمؤدى واحد .

(٦) وردت فى «ج» و «الملكية» (إياه) . فلزم التصويب .

وأقبل السلطان وأظهاره . وتكلموا فى شأنه ، فذكر غَرَضه فيه، وأظهر العجز عن الثَّمَن ،وسأل منه تأخير بعضه،فأسْعَفه،واشترى منه الفَرَس ،بمال له خَطَر. فلما كُمل له القصد، طلب منه الخَلْوة به فى المسجد من الحصن،وخرج له عن الأمر ، وأعطاه بَيْعته ، وصرف عليه الثَّمَن ، واستكتمه السلطان خيفةً على نفسه وانصرف إلى بلده .

قال : وفى العام بعده، دعا إلى نفسه بأرْجُونة ، وتملك مدينة جَيَّان . واختُلف فى السبب الذى دعاه إلى ذلك ، فقيل إن بعض العمال ، أساء معاملته فى حقّ مَخْزَنى ، وقيل غير ذلك .

حـــاله

هذا الرجل كان آيةً من آيات الله فى السَّذاجة والسلامة والجُمْهورية ، جنديًّا ، ثَغْرياً شهماً ، أيِّداً ، عظيم التَّجلُّد ، رافضاً للدَّعة والرَّاحة ، مؤثراً للتقشف ، والاجْتِزاء باليسير ، مُتبَلِّغاً بالقليل، بعيداً عن التَّصَنُّع ، جافِى السلاح ،شديد العزم ، مَرْهوب الإقدام ، عظيم التَّشْمير ، [مُقْرياً لضيفه](١) ، مُصْطنعاً لأهل بيته ،فظًّا فى طلب حظِّه ، مُحْمِياً لقرابته وأقرانه وجيرانه، مباشراً للحروب بنفسه، تتغالى الحُكاة فى سلاحه ، وزينة دُبُوره(٢) . يخْصِف النعل ، ويلبس الخشن ، ويؤْثر البداوة ، ويستشعر الجدّ فى أموره . سُعِد بيوم الجمعة،وكان فيه تملُّكه جيّان؛ثم حضرة المُلْك غَرناطة ، وقيل يوم قيامه ، شرع فيه الصَّدَقة الجارية على ضُعفاء الحَضْرة ، ومِنايهم إلى اليوم . وتملك مدينة إشْبِيلية فى أخريات ربيع الأول من عام ظهوره، وهو عام تسعة وعشرين وستماية نحواً من ثلاثين يوماً .وملك قرطبة فى العشر الأول لرجب من العام المذكور، وكلاها عاد إلى مُلْك ابن هود .

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» و «الملكية» .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

ولما تم له القصد من تملُّك البَيْضة ، والحصول على العُمال، مباشراً للحسابات بنفسه ، فتوفر ماله ، وغُصَّت بالصامت خزاينه ، وعقد السِّلم الكبير ، وتهنأ أمره ، وأمكنه الاستعداد . فأنم[١] الأهواء . وملأ[٢] بطن الجَبَل المتصل بالقلعة جُبُوباً مختلفة ، وخزاين دَرّة ، ومالاً وسلاحاً وارية[٣] ظهراً ، وكُراعاً ، فوجد فايدة استعداده ، ولجأ إلى ما ادُّخره من عتاده .

سـيرته

تظاهر لأول أمره بطاعة الملوك بالعُدْوة وإفريقية، يَخْطُب لهم زماناً يسيراً ، وتوصل بسبب ذلك إلى أمدادٍ منهم وإعانة . [ولقبل ما][٤] افتتح أمرَه بالدعاء للمستنصر العباسي ببغداد ، حاذياً حذو سميه ابن هُود، لِلَهج العامة فى وقته بتقلد تلك الدعوة ، إلى أن نزع عن ذلك كله .

وكان يعقِد للناس مجلساً عاماً ، يومين فى كل أسبوع ، فترتفع إليه الظلامات ، ويُشافِهِ طالب الحاجات ، وتنشده الشعراء ، وتدخل إليه الوفود ، ويُشافه أرباب النصايح فى مجلس اختصَّ به أهل الحَضْرة ، وقضاة الجماعة ، وأولى الرتب النَّبيهة فى الخدمة ، بقراءة أحاديث من الصَّحيحين ، ويختم بأعْشار من القرآن . ثم ينتقل إلى مجلس خاص ، ينظر فيه فى أموره[٥] فيصرف كل قصد إلى من يليق به ذلك ، ويؤا كل بالعشِيَّات خاصته من القرابة ، ومن[٦] يليهم من نُبهاء القُوَّاد .

أولاده

أعقب ثلاثة من الذكور : محمداً ولىَّ عهده وأمير المسلمين على أثره ، والأميرين

---

(١) كذا فى «ج» و «الزيتونة» . ومعناها هنا : سكن .
(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة (وملك) وهو تحريف . و بالتصويب يستقيم السياق .
(٣) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (وراية) والتصويب من «الملكية» .
(٤) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . ومعناها هنا ، وقبل ذلك .
(٥) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (أمره) و بالتصويب يستقيم السياق .
(٦) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (وما) . و التصويب أرجح .

أبا سعيد فرج ، وأبا الحجاج يوسف ؛ تُوُفيا على حياته ؛ حسبما يتقرر بعد إن شاء الله .

وزراء دولته

وزر له جماعة : الوزير أبو مروان عبد الملك بن يوسف بن صَنادِيد[١] زعيم قاعدة جيّان ؛ وهو الذى مَكّنه من ناصية جيّان المذكورة ، واستوزر على بن ابراهيم الشَّيباني من وجوه حَضْرته ، وذوى النَّسَب من الفضلاء أولى الدَّماثة والوقار . واستوزر الرئيس أبا عبد الله بن الرئيس أبى عبد الله الرَّميمى . واستوز الوزير أبا يحيي ابن الكاتب من أهل حضرته ، وغيرهم ممن تبلغ به الشهرة مبلغاً فيهم .

كُتَّابه

كتب له من الجلّة جماعة : كالكاتب المحدِّث الشهير أبى الحسن على بن محمد ابن محمد بن سعيد اليحصُبي اللَّوشي . ولما توفى كتب عنه ولده ، أبو بكر بن محمد . هؤلاء مشاهير كُتَّابه ، ومن المرءوسين[٢] أعلام كأبى بكر بن خطاب وغيره .

قضاته

ولى له قضاء[٣] الجماعة ، القاضى العالم الشهير ، أبو عامر يحيي بن عبد الرحمن ابن ربيع الأشعرى ، من جِلّة أهل الأندلس فى كِبَر البيت ، وجلالة المنصب ، وغزارة العلم . ثم ولى بعده الفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الجليل ابن غالب الأنصارى الخَزْرجى . ثم ولى بعده الفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم

---

(١) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (ابن صنادين) وهو تحريف . والصواب ما أثبتناه .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (المدرسين) وهو تحريف .

(٣) وردت فى «ج» (قاضى) والتصويب من «الزيتونة» .

ابن عبد السلام التميمي . وهذا الرجل من أهل الدين والأصالة ، وآخر قضاة العدل . ثم ولى بعده الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن عياض بن موسى اليحصبي . ثم ولى بعده [الفقيه](١) القاضي الحسيب أبو عبد الله بن أضْحَى ، وبيته شهير ، [ولم تطل مدته](٢) . وولى بعده آخر قضاته أبو بكر محمد بن فتح بن على الإشبيلى الملقب بالأشْبرون .

الملوك على عهده

بمرَّا كُش المأمون إدريس ، مأمونُ الموحِّدين ، مُزاحماً بأبى زكريا يحيي ابن الناصر ابن المنصور بن عبد المؤمن بالجَبَل . ولما توفى المأمون ولِي الرشيد ، أبو محمد عبد الواحد فى سنة ثلاثين وستمائة ، ووَلِي بعده أبو حفص عمر بن إسحاق المرتضى ، إلى أن قتله إدريس الواثق أبو دَبُّوس فى عام خمسة وستين . وولى بعده يسيراً بنو عامر بن على بمرا كش(٣) ، وتعاقب منهم على عهده جِلّة ؛ كالأمير عثمان وابنه محمو ، وأخيه أبى يحيي بن عبد الحق . واستمر الملك فى أسنّ أملاكهم ، أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق بن مَحْيُو إلى آخر أيامه .

وبتلمسان ، شبيهه يَغْمُراسن بن زيَّان أول ملوكهم ، وتقدمه أخوه أكبر منه برهة . ويَغْمُراسن [أول من](٤) أثل الملك ، وحاز الذكر ، واستحق الشهرة .

وبتونس ، الأمير أبو زكريا يحيي بن عبد الواحد بن أبى حفص . وَخاطبه السلطان المترجم به ، والتمس رِفْدَه ، وقد حصل على إعانته ، ووَلِي بعد موته ولده المستنصر أبو عبد الله ، ودامت أيامه إلى أول أيام ولد السلطان المترجم له عام أربعة وسبعين .

---

(١) هذه الزيادة من «الزيتونة» .

(٢) واردة فى «ج» ، وساقطة فى «الزيتونة» .

(٣) هكذا فى «الزيتونة» وفى «ج» (مراكش) .

(٤) هذه العبارة ساقطة فى «ج» وفى «الزيتونة» . وبإثباتها يستقيم السياق .

وبقشتالة هِراندة[١] بن ألهنشة بن شانجُه الإنبرَطور . وهراندة هذا هو الذى ملك قرطبة وإشبيلية ، ولما هلك ولى بعده ألفُنش[٢] ولده ثلاثاً وثلاثين سنة ، واستمر ملكه مدة ولايته. وصدْرًا من دولة ولده بعده .

وبرَغُون جايمش ابن بِطْرُه ابن ألفُونش قُمْط بَرْجلونه . وجايمش هذا هو الذى ملك بَلَنْسية[٣] ، وصيّرها دار ملكه[٤] من يد أبى جميل زيّان ابن مَرْدَنيش .

لمع من أخباره

قام ابن أبى خالد بدعوته بغرناطة ، كما ذكر فى اسمه ، ودعاه وهو بجيّان، فبادر إليها فى أُخريات رمضان من عام خمس وثلاثين وستمائة ، بعد أن بعث إليه المَلأ من أهلها ببيعتهم مع رجلين من مَشْيختهم ، أبى بكر الكاتب، وأبى جعفر التُّيز ولى .

قال ابن عَذَارى فى تاريخه ، أقْبَل وما زيُّه بفاخر ، ونزل عشَى اليوم الذى وصل بخارج غَرناطة، على أن يدخلها من الغد ، ثم بدا له فدخلها عند غروب الشمس ، نظراً للحزم .

(١) المقصود بهراندة هنا ، هو فرناندو الثالث ملك قشتالة وليون (١٢١٧ – ١٢٥٢م) ، وهو الذى استولى على قرطبة فى سنة ٦٣٣ ﻫ (١٢٣٦ م) وإشبيلية سنة ٦٤٦ ﻫ (١٢٤٨ م) ، واستولى كذلك على جيان وغيرها من القواعد الأندلسية . وهو يعتبر من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية . وقد أسبغت عليه صفة القداسة ، ولقب بفرناندو المقدس (سان فرناندو) .

(٢) هو ألفونسو العاشر الملقب بالعالم أو الحكيم El Sabio . حكم قشتالة عقب وفاة أبيه فرناندو فى سنة ١٢٥٢ ،واستمر فى حكمها حتى سنة ١٢٨٢م ، ثم ثار عليه ولده سانشو وانتزع منه العرش ، وتوفى مخلوعاً منبوذاً فى سنة ١٢٨٤م .

(٣) جايمش المشار إليه هنا ، هو خايمى الأول ابن بيدرو الثانى ملك أراجون . تولى الملك بعد وفاة أبيه حدثاً فى سنة ١٢١٣ م . وهو الذى افتتح الجزائر الشرقية من أيدى المسلمين (١٢٣٢ م). ثم افتتح ثغر بلنسية فى سنة ٦٣٦ ﻫ (١٢٣٨ م) ومرسية سنة ٦٦٥ ﻫ (١٢٦٦م) . وتوفى بعد حكم طويل سنة ١٢٧٦ م . ويلقب بخايمى الفاتح .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» (سلطانه) . والمعنى واحد .

وحدث أبو محمد البَسْطى قال ، عاينته يوم دخوله وعليه شاشِيَة(١) مِلفٌ مضلعة أكتافُها مُخَرَّقة ، وعند ما نزل بباب جامع القصبة ، كان مؤذن المغرب فى الكَيْعلة ، وإمامه يومئذ أبو المجد المرادى قد غاب ، فدفع الشيخُ السلطانَ إلى المحراب ، وصلى بهم ، على هيئته تلك ، بفاتحة الكتاب . « وإذا جاء نصر الله والفتح » . والثانية بِقُل هو الله أحد . ثم وصل قصر باديس ، والشمع بين يديه .

وفى سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، صالح طاغية الروم ، وعقد معه السِّلْم ، الذى طاحت(٢) فى شروطه جيّان . [وكان](٣) واقع بالعدو الراتب تجاه حَضْرته ، المختص بحصن بليلش(٤) على بريد من الحضرة ، وكان الفتح عظيما ، ثم حالفه الصُّنع بما يضيق المجال عن استيعابه . وفى حدود اثنين وستين وستمائة [صالح طاغية الروم ، وعقد معه السلم](٥) ، وعقد البيعة لولى عهده ، واستدعى القبائل للجهاد .

مولده

فى عام خمسة وتسعين وخمسمائة بأَرْجُونة ، عام الأَرَك(٦) .

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة (شاية) فلزم التصويب .
(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة (طاقت) . والتصويب أنسب لاستقامة السياق .
(٣) وضعنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .
(٤) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» بليش .
(٥) وردت هذه العبارة فى «الملكية» فقط .
(٦) وردت (الأركة) فى «ج» و «الملكية» . وهو تحريف ظاهر . وقد وهم ابن الخطيب فى ذكر تاريخ موقعة الأرك ، إذ ذكر أنه سنة ٥٩٥ هـ . والحقيقة أن معركة الأرك وقعت فى سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥م) بين الجيوش الموحدية بقيادة الخليفة يعقوب المنصور ، والجيوش القشتالية بقيادة ألفونسو الثامن ، وأحرز فيها الموحدون نصرهم الباهر . والأرك بالإسبانية Alarcos . وهى تقع على مقربة من مدينة (ثيوداد ريال) . وسنرى فيما بعد أن هذا التاريخ سوف يصحح وذلك بتصحيح تاريخ مولد ابن الأحمر وهو سنة ٥٩١ هـ .

وفـــاته

فى منتصف جمادى الثانية من عام واحد وسبعين وستمائة ، وَرَدَ عليه وقد سنّ ، جملة من كُتّاب[1] الزّعايم ، يقودون جيشاً من أتباعهم ، فبرز إلى لقايهم بظاهر حَضْرته ، ولما كرّ آيباً إلى قصره ، سقط ببعض طريقه ، وخامره خَصَر ، [وهو][2] راكب ، وأردفه بعض مماليكه ، واسمه صابر الكبير ، وكانت وفاته ليلة الجمعة التاسع والعشرين لجمادى الثانية المذكورة ، ودفن بالمقبرة الجامعة العتيقة بسَنام السّبيكة[3] ، وعلى قبره اليوم منقوش :

« هذا قبر السلطان الأعلى ، عزّ الإسلام ، جمال الأنام ، فخر الليالى والأيام ، غياث الأمة ، غيث الرحمة ، قطب الملة ، نور الشريعة ، حامى السنة ، سيف الحق ، كافل الخلق ، أسد الهيجاء ، حِمام الأعداء ، قوام الأمور ، ضابط الثغور ، كاسر الجيوش ، قامع الطغاة ، قاهر الكفرة والبغاة ، أمير المؤمنين[4] ، علم المهتدين ، قدوة المتقين ، عصمة الدين ، شرف الملوك والسلاطين ، الغالب بالله ، المجاهد فى سبيل الله ، أمير المسلمين ، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر الأنصارى ، رفعه الله إلى أعلى عِلّيين ، وألحقه بالذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين ، والشهداء والصالحين . ولد رضى الله عنه ، وأتاه رحمة من لدنه ، عام أحد وتسعين وخمسمائة[5] ، وبويع له يوم الجمعة السادس والعشرين [من رمضان

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٢) أثبتناها ليستقيم السياق .

(٣) هو السهل المنبسط الذى تشرف عليه الحمراء من الناحية الشرقية .

(٤) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية» . ووردت فى «الزيتونة» (المسلمين) ، وهو لقب يقصد به هنا التكريم فقط . ويلاحظ كذلك أنه يرد لقب (أمير المسلمين) فيما بعد .

(٥) هذا هو التاريخ الحقيقى لمولد محمد بن الأحمر ، وليس ما ذكره ابن الخطيب من قبل وهو سنة ٥٩٥ هـ . وهذا التاريخ الصحيح لمولد ابن الأحمر ، يوافق تاريخ موقعة الأرك .

عام خمسة وثلاثين] [١] وستماية ، وكانت وفاته يوم الجمعة بعد صلاة العصر التاسع والعشرين لجمادى الآخرة عام أحد وسبعين وستماية ، فسبحان من لا يفنى سلطانه ، ولا يَبيد ملكه ، ولا ينقضى زمانه ، لا آله الا هو الرحمن الرحيم» .

ومن جهه أخرى :

هذا محل العُلى والمجد والكرم ... قبر الإمام الهمام الطاهر العلم
لله ما ضمّ هذا اللحد من شرف ... ومن شِيَمَ عُلْوية الشّيم
بالجود والباس ما تحوى صفايحه ... لا بأس عَنْترة ولا ندى هرم
مُغنى الكرامة والرضوان يعهده ... فخر الملوك الكريم الذات والشيم
مقامُه فى كلا يومى ندّى ووغى ... كالغيث فى مجد وكالليث فى أجم
مآثر تُليت آثارها سوراً ... تقر بالحق فيها جملة الأمم
كأنه لم يسر فى محفل لَجِبٍ ... تضيق عنه بلاد العُرْب والعجم
ولم يباد [٢] العدا منه ببادرة ... يفتر منها الهدى عن ثغر مبتسم
ولم يجهز لهم خيلا [٣] مضمرة ... لا تشرب الماء إلا من قُلَيب دَمِ
ولم يقم حكم عدل فى سياسته ... تأوى رعيته منه إلى حَرَم
من كان يجهل ما أولاه [٤] من نعم ... وما حواه لدين الله من حُرَمِ
فتلك آثاره فى كل مَكْرَمة ... أبدى وأوضح من نار على علم
لا زال تهمِى على قبر تضمّنه ... سحايب الرحمة الوكّافة [٥] الدّيم

(١) أضفنا هذه العبارة من عندنا ليستقيم السياق .

(٢) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (يقاد) والتصويب أنسب لاستقامة السياق .

(٣) وردت فى «ج» وفى «الزيتونة» (جيشا) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٤) وردت فى «ج» (لولاه) . وهو تحريف .

(٣) هكذ فى «الزيتونة» و «الملكية» . ووردت فى «ج» الواكفة ، وهو لا يستقيم مع الوزن

محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبى عامر بن محمد بن أبى الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافرى ، المنصور بن أبى عامر

مُعَظَّم الظَّفَر ، وخِدن السَّعد ، وملقى عُديٍّ الجد ، وجوُّ رياح[1] الشهرة ، وديوان فنون السياسة ، وحجاجُ الدولة العَبْشمية[2] ، فى التُّخوم المَغْربية ، المَزِىُّ[3] بالظَّرف وكمال السَّجية ، والجهاد العظيم ، العريق[4] فى بحبوحة بلاد الكفار ، رحمه الله تعالى .

أوليتـــه

دخل جَدُّه عبد الملك الأندلس مع طارق [مولى][5] موسى بن نصير فى أول الداخلين من المغرب ، وكان له فى فتحها أثرا جميلا ، وإلى ذلك أشار مادحه محمد بن حسان :

وكل عدو أنت تهزم[6] عرشه ... وكل فُتوح عنك يُفتح بابها

برأيك عبد المليك الذى له ... حَلا فتحُ قرطبة وانتهابهـا

ونزل عبد الملك الجزيرة الخضراء لأول الفتح ، فساد أهلَها ، وكثُرُ عقِبه بها ، وتـكررت فيهم النَّباهة ، وجاوروا الخلفاء بقرطبة . وكان والد محمد هذا ،

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . ووردت فى «الزيتونة» و «الملكية» (رناج) وهو تحريف .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى «الزيتونة» (الأموية) . والعبشمية من أوصاف الدولة الأموية .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . والمزى أى الفائق اللامع .

(٤) وردت فى « ج » و «الزيتونة» (العريقة) وهو تحريف .

(٥) الزيادة من «الزيتونة» .

(٦) وردت فى « ج » (تهدم) . والتصويب من «الزيتونة» .

من أهل الدين والعفاف والزهد فى [الدنيا][١] والقُعود عن السلطان . سمع الحديث، وأدّى الفريضة، ومات منصرفا عن الحج بإطْرابُلس .

حـــاله

كان هذا الرجل بِــكْرَ الدهر . وفايدة الأيام ، وبَيْضَةَ العمر ، وفرد الخلق فى اضِّطراد السَّعد ، وتَمَلّد العاجل من الحظ ، حازما ، داهية ، مشتملا على أقطار السؤدد ، هويًّا[٢] إلى الأقاصى ، وطموحا ، سوساً تَجِيًّا ، مُصْطنعا للرجال ، جالباً للأشراف ، مستميلا[٣] للقلوب ، مُطْبِقاً المفاصل ، مُزيحا للعِلل ، مستبصرا فى الاستبداد ، خاطباً جميل الذكر ، عظيم الصبر ، رحيب الذَّرْع ، طموح الطرف ، جَشِع السيف ، مُهادى جياد العقاب والمَثُوبة ، مَهِيبا ، جَزْلا ، مُنْــكسف اللون ، مُصْفِر الــكف ، آية الله جل جلاله فى النَّصر على الأعداء ومصاحبة الظفر[٤] ، وتوالى الصُّنع .

نباهته

قال المؤرخ ، سلك سبيل القضاء فى أوَّلِيَّته ، مقتفياً آثار عمومته وخؤولته ، يطلب الحديث فى حداثته ، وكتب منه كثيراً ، ولقى الجلّة من رجاله ، ثم صحب الخليفة الحكم مُتَحزِّباً[٥] فى زُمْرته وولى له الأعمال من القضاء والإمامة . ثم استكفاه، فعدل عن سبيله ، وصار فى أهل الخدمة . ثم اختصه بخدمة أم ولده هشام ، فزاد بخاصّته لولى العهد ، عزا ومكانةً من الدولة فاحتاج الناس إليه وغَشَوا بابه، وبلغ

---

(١) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» و«الملكية» (هديا) والأولى أنسب للسياق .

(٣) وردت فى «ج» (مستليا) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٤) وردت فى «ج» الصفر . وفى «الزيتونة» السفر . والتصويب من «الملكية» .

(٥) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» وفى «الملكية» متخرجا . وهو تحريف .

الغاية من أصحاب السلطان معه[١]، إسعافٌ، وكرم لقاء، وسهولةُ حجاب، وحسن أخلاق. فاستطار ذكره، وعُمّر بابه، وساعده الجَد. ولما صار أمر المسلمين إليه، فبلغ التى لا فوقها عزًا وشهرة.

الثنــــاء عليه

قال، وفى الدولة العامرية، وأعين محمد على أمره، مع قوة سعده، بخصال مُؤلفه[٢] لم تجتمع لمن قبله، منها الجود، والوقار، والجَدُّ والهيبة، والعدل والأمن، وحب العمارة، وتثمير المال، والضبط للرعية، وأخذهم بترك الجدل والخلاف والتَّشْغُب. من [غير][٣] وَهَن فى دينه، وصحة الباطن، وشرح كل فضل، وجَلْب كل ما يوجب عن المنصور فيه.

غزواته وظهوره على أعدايه

واصل رحمه الله الغزو بنفسه، فيما يناهز خمسين غزوة، وفتح فيها البلاد، وخَضَد شوكة الكفر، وأذلَّ الطواغيت [وفضَّ مصاف الكفار][٤]، وبلغ الأعماق، وضرب على العدو الضرايب، إلى أن تلقاه عظيم الروم بنفسه [وأتحفه بإبنته][٥] فى سبيل الرغبة فى صِهْره، فكانت أحظى عقايله، وأبرّت فى الدين والفضل على ساير أزواجه، وعقد اثنى عشر بروزاً إلى تلقى ملوك الروم القادمين عليه [مُصْطَهرين بإلحاح سيفه][٦] منكبِّين على لثم سريره.

(١) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة.

(٢) هكذا فى «ج» وفى «الملكية».

(٣) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم المعنى والسياق.

(٤) هذه العبارة واردة فقط فى «ج». وساقطة فى المخطوطين الآخرين.

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة (وأتحفه بها) وهو تعبير غامض. وبالتصويب يتضح المعنى ويستقيم السياق. والإشارة هنا إلى زوجة المنصور النافارية ابنة سانشو غرسية ملك نافار. وقد أهداها للمنصور زوجة له، فاعتنقت الإسلام، وسميت (عبده)، وأنجب منها المنصور ولده عبد الرحمن الملقب بشنجول أى سانشو الصغير نسبة لجده ملك نافار. وكانت عبده أحظى نساء المنصور وأحبهم لديه.

(٦) هذه العبارة واردة فى «ج». وساقطة فى المخطوطين الآخرين.

شعره

ومما يؤثر من شعره :

رميتُ بنفسى هَوْلَ كل عظيمة ... وخاطرتُ والحر الكريم يخاطر
وما صاحبى إلاَّ جنانٌ مُشَيَّع ... وأسمرُ خطِّى وأبيضُ باتر
ومن شيمتى أنى على طالب ... أجود بمال لا تقيه المعاذر
وإنى لزجّاء الجيوش إلى الوغى ... أسودٌ تلاقيها أسودٌ خوادر
فسدتُ بنفسى أهل كل سيادة ... وكاثرتُ حتى لم أجد من أكاثر[(١)]
وما شدتُ بنيانا ولكن زيادةً ... على ما بنى عبد المليكُ وعامر
رفعنا العلى بالعوالى سياسةً[(٢)] ... وأورثناها فى القديم معافر

وبلغ فى مُلكه أقطار المغرب ، إلى حدود القِبلة[(٣)] ، وبمدينة فاس ، إثر ولده المُقَلَّد فتح تلك الأقطار ، ونَهدْ أوليك الملوك الكبار .

دخوله غرناطة

قال صاحب الديوان فى الدولة العامرية ، وقد مر ذكر المنصور ، قُومس الفِرنجة بمدينة برشلونة : وهذه الأمة أكثر النصرانية جمعاً ، وأوسعها ، وأوفرها من الاستعداد ، وما أوطئ من الممالك والبلاد ، وفتح من القواعد ، وهُزم من الجيوش . وقفل المنصور عنها ، وهو أطمع الناس فى استيصالها ، ثم خصَّهم بصايفة سنة خمس وسبعين ، وهى الثالثة عشر لغزواته ، وقد احتفل لذلك ،

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطات الثلاثة . وفى نص آخر : (وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر) .

(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطات الثلاثة . وفى نص آخر : (رفعنا العوالى بالعوالى مثلها) .

(٣) بلاد القبلة تقع فى جنوب المغرب على مشارف الصحراء الكبرى شمال شرق موريتانيا ، وتسكنها قبائل صنهاجة الكبرى .

واستبلغ فى النفير، واستوفى أتم الأبهة ، وأكمل العدّة ، فجعل طريقه على شرق الأندلس، لاستكمال ما هنالك من الأطعمة . فسلك طريق إلبيرة ، إلى بسطة ، إلى تدمير ؛ وهزم فى هذه الغزوات بريل ملك فرنجة(١) ونازل مدينة برجلونة ؛ فدخلها عنوة يوم الإثنين النصف من صفر ، سنة أربع وسبعين أو خمس بعدها .

قلت وفى دخول المنصور بجيشه بلد إلبيرة ؛ ما يحقق دعوى من ادّعى دخول المعتمدين من(٢) أهل الأندلس(٣) لذلك العهد ؛ إذ كان يصحب المنصور فى هذه الغزوة ، من الشعراء المرتزقين بديوانه من يذكر ؛ فضلا عن ساير الأصناف على ندارة هذا الصنف من الخدام ، بالنسبة للبحر الزاخر من غيرهم .

والذى صح أنه حضر ذلك ، أبو عبد الله محمد بن حسين الطُّبنى(٤) . أبو القاسم حسين بن الوليد ، المعروف بابن العريف . أبو الوضّاح بن شُهَيد . عبد الرحمن بن أحمد . أبو العلا صاعد بن الحسن اللغوى(٥) . أبو بكر زيادة الله بن على بن حسن التميمى . عمر بن المنجم البغدادى . أبو الحسن على بن محمد القرشى العباسى . عبدالعزيز بن الخطيب المحرود . أبو عمر يوسف بن هارون الزيادى . موسى بن أبى طالب . مروان [بن عبد الحكم] (٦) بن عبد الرحمن . يحيى بن هُذَيل بن

(١) هو الكونت بوريل أمير إمارة قطلونية وقت أن غزاها المنصور . ولم تكن قطلونية قد تحولت بعد إلى مملكة أراجون .

(٢) وردت مكانها فى المخطوطات الثلاثة كلمة (هل) . ونعتقد أنه بهذا التصويب يستقيم السياق.

(٣) وردت فى «ج» بعد هذه الكلمة كلمة (إياك) ، وهى كلمة لا محل لها هنا .

(٤) وردت محرفة فى المخطوطات (الطيى) . والصواب ما أثبتناه . وكان الطبنى من آثر شعراء المنصور لديه . والطبنى نسبة إلى طبنة من أرض الزاب بالمغرب .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة ، وإذا كانت الكلمة من الألقاب فهى خطأ وصحتها (البغدادى) . وإن كانت وصفاً فهى صحيحة لأن أبا العلاء صاعد بن الحسن البغدادى، كان شاعراً ولغوياً فى نفس الوقت .

(٦) هذه الزيادة من «الزيتونة» .

عبد الملك بن هذيل المكفوف . سعد بن محمد القاضي . ابن عَمْرون القرشي المرواني . علي النقاش البغدادي . أبو بكر يحيي بن أمية بن وَهَب . محمد بن إسماعيل الزبيدي صاحب المختصر في اللغة . أحمد بن درّاج القَسْطَلِيّ مُتَنَبِّيُّ الأندلس . أبو الفرج مُنِيل بن مُنيل الأشجعي . محمد بن عبد البصير . الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد . محمد بن عبد الملك بن جَهْوَر (١) . محمد بن الحسن القرشي من أهل المشرق . أبو عبيدة حسان بن مالك بن هاني . طاهر بن محمد المعروف بالمُهَنَّد . محمد بن مُطَرَّف بن شُخَيص سعيد بن عبد الله الشَّنْتريني . وليد بن مَسْلَمَة المرادي . أغلب بن سعيد . أبو الفضل أحمد بن عبد الوهاب . أحمد بن أبي غالب الرُّصافي . محمد بن مسعود البَلْخي ، عُبادة بن محمد بن ماء السماء . عبد الرحمن بن أبي الفهد الإلْبِيري . أبو الحسن بن المضيء البَجْلي الكاتب . عبد الملك بن سهل . الوزير عبد الملك بن إدريس الجزيري . قاسم بن محمد الجيّاني .

قال المؤرخ ، هؤلاء [مَنْ] (٢) حفظته منهم . وهم أكثر من أن يحصوا ، فعلى هذا يتبنى القياس في ضخامة هذا الملك ، وانفساح هذا العِز .

وفاته

توفي رحمه الله منصرفا من غَزَاته المسماه بقَنالش والرِّيد ، وقد دوّخ أقطار قَشْتالة ، ليلة الإثنين سبع وعشرين لرمضان عام اثنين وتسعين وثلاثمائة ، وقد عهد أن يُدفن (٣) ببلد وفاته ، بعد وصية شهيرة صدرت عنه ، إلى المُظفَّر ولده ، فدفن بمدينة سالم ، التي بناها في نَحْر العدو من وادي الحجارة ، وبقَصْرها . وقبره

---

(١) وردت في المخطوطات الثلاثة (هجور) وهو تحريف . وآل جهور من بيوت الوزارة المشاهير .

(٢) وضعنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٣) وردت مكانها في المخطوطات كلمة (يعرف) . وحكمة التصويب ظاهرة .

معروف إلى اليوم . وكان قد اتخذ له من غُبار ثيابه الذى علاها فى الجهاد ، وعاء كبيرا بحديه رحمه الله . وكُتب على قبره هذا الشعر :

آثارُه تنبيك عن أخبـاره حتى كأنك بالعيـان تراه
تالله لا يأتى الزمان بمـثله أبداً ولا يحمى الثغور سواه

محمد بن عباد بن [محمد بن][١] إسماعيل [بن محمد بن إسماعيل][١] بن قريش ابن عباد بن عمرو بن أسْلَم بن عمرو بن عِطاف بن نعيم ، لخمى النسب

أوليتـه

دخل الأندلس جَدُّه عِطاف مع بَلْج بن بشر القشيرى ، من أشراف الطّالعة البلجية ، وهم من عرب حُمص من أرض الشأم ، وموضعه بها يعرف بالعَريش فى آخر الجفار بين مصر والشأم . ونْزل عِطاف بقريه تعرف بيومين من إقليم طُشَّانة[٢] على ضفة النهر الأعظم[٣] من أرض إشْبِيلية . ولما هلك قريش ، ورث[٤] السيادة إسماعيل بن قريش ، وهو القاضى المشهور بالفضل والدهاء[٥] ، يكنى أبا الوليد . وُلىِّ الشرطة الوسطى لهشام بن الحكم ، وخُطَّة الإمامة إلى صلاة الجمعة . ثم خلفه أبو القاسم المنفرد برياسة إشبيلية ، المُتْحف فيها بخُطَط الوزارتين القضاء والمظالم . وعز جاهه ، وكثرت حاشيته ، وتعدَّدت[٦] غلمانه ، وأذعنت

(١) نقلنا هذه الزيادة فى النسبة من «الحلة السيراء» لابن الأبار (القاهرة ١٩٦٥) ج ٢ ص ٣٤

(٢) إقليم ، أو بلدة طشانة ، وبالإسبانية Tucina ، تقع شمال شرق إشبيلية ، وشمال غربى قرمونة ، على مقربة من جنوبى نهر الوادى الكبير .

(٣) النهر الأعظم هو نهر الوادى الكبير .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» ،ملك ، والمؤدى واحد .

(٥) وردت فى «ج» و «الزيتونة» كلمة (والده) . ونعتقد أنها تحريف لكلمة (الدهاء) .

(٦) هكذا فى «الزيتونة» وفى «ج».(وتقدمت) . والأولى أرجح .

له عُداته . ثم خلفه الأمير المعتضد ولده ، وكان خيِّراً حازما ، سديد الرأى ، مَصْنُوعاً له فى الأعداء ، فلما توفى ، تصيَّر الأمر إلى ولده المترجم به ، المكنى أبا القاسم إلى حين خلعه .

حـاله

قالوا كلُّهم ، كان المعتمد ، رحمه الله ، فارسا شجاعاً ، بطلا مِقْداما ، شاعرا ماضياً ، مشكور السيرة فى رعيته . وقال أبو نصر فى قلائده[١] « وكان المعتمد على الله ملكا قمع العدا ، وجمع بين البأس والنَّدا ، وطلع على الدنيا بَدْرَ هُدًى ، لم يتعطل يوماً كفُّه ، ولا بنانه ، آونة يراعه ، وآونة سنانُه . وكانت أيامه مواسم ، وثغوره برَّة بواسم » . لقبه أولا الظَّافر ، ثم تلقب بالمعتمد ، كَلَفاً بجاريته اعتماد ، لمّا ملّكها ، لتتَّفق حروف لقبه بحروف اسمها ، لشدة ولوعه بها .

وزراؤه

ابن زَيْدون[٢] . وابن عمَّار ، وغيرهم .

أولاده المَلَّكون

عبيد الله ، يكنى أبا الحسن ، وهو الرَّشيد ، وهو الذى لم يوافق أباه على استِصْراخ المرابطين ، وعرَّض بزوال الملك عنهم ، فقال : أحبُّ إلىّ أن [أكون راعى][٣] إبل بالعُدْوة من أن ألقى الله ، وقد حُوِّلت الأندلس دار كفر ، وكان قد ولاه عهده ، وبويع له بإشبيلية ، وهو المحمول معه إلى العدوة . ثم الفَتْح ، وهو الملقب بالمأمون ، كان قد بويع له بقرطبة ، وهو المقتول بها ، المُحْمَل رأسه الى

---

(١) هو كتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان .

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة بعد ابن زيدون كلمة (ابن خلدون) وهو خطأ تاريخى بين

(٣) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (يكون لراعى) . وبالتصويب يستقيم السياق .

محلّة العدوّ المرابطين ، المحاصرة لأبيه بإشبيلية ؛ ثم يزيد الراضى ، وكان قد ولاه رُنْدَة ، فقتل لما مَلَكها اللمتونيُون[١] . ثم عبد الله ، ويكنى أبا بكر. هؤلاء الأربعة من جاريته اعتماد، السيدة الكبرى ؛ والمدعوة بالرُميكيّة ، منسوبة إلى مولاها رُمَيْك بن حجاج الذى ابتاعها منه المعتمد .

مُلمَّة

لما تكالب أذْفونش[٢] بن فردِلاند على الأندلس بعد أخذه مدينة طُلَيْطلة[٣] ضيق بالمعتمد ، وأجحف فى الجزية ، التى كان يتّقى بها على المسلمين عاديتَه ، وعلى ذلك أقسم[٤] أخذها وتجنّي عليه ، وطمع فى البلاد ، فحكى بعض الإخباريين أنه وجه إليه رسله فى آخر أمره لقبض تلك الضريبة ، مع قوم من رؤساء النصارى ، ونزلوا خارج باب إشبيلية ، فوجه إليهم المال ، [مع بعض الوزراء ، فدخلوا على اليهودى المذكور فى خبايه ، وأخرجوا المال][٥] ، فقال لهم ، لا أخذتُ منه هذا العيار ولا أخذت منه إلا ذهباً مشجّراً[٦] ، ولا يؤخذ منه فى هذا العام إلا أجفان البلاد ونُقل كلامه إلى المعتمد ، فبادر بالقبض عليه وعلى النصارى ، ونكّل بهم ، وقُتل اليهودى بعد أن بذل فى نفسه زنة جسمه ذهباً ، فلم يقُبل منه ، واحتبس النصارى ، وراسله الطاغية فى إطلاقهم ، فأبى إلا أن يُخلى منه حصن الحدود ، فكان ذلك .

---

(١) اللمتونيون هم المرابطون ، نسبة إلى قبيلتهم البربرية المغربية «لمتونة» .

(٢) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (أذفنوش) والتصويب من «الملكية» . وهو ألفونسو السادس ملك قشتالة .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (قرطبة) وهو سهو تاريخى . والصواب ما أثبتناه . وقد استولى ألفونسو السادس على طليطلة من ملكها القادر بن ذى النون فى سنة ٤٨٧ ﻫ (١٠٨٥ م) . وكانت أول قاعدة أندلسية كبرى تسقط فى أيدى النصارى .

(٤) وردت فى «ج» . وفى «الملكية» (قسم) . ولم ترد فى «الزيتونة» .

(٥) ما بين الحاصرتين ساقط فى «الملكية» .

(٦) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وربما كانت (مشهراً) .

واستصرخ اللَّمتُونيِّين، وأجاز البحر بنفسه، وأقسم الطاغية بأيمانه المغلّظة ألا يرفع عنه يده. وهاجت حفيظة المعتمد، واجتهد فى جواز المرابطين، وكان مما هو معلوم من الإيقاع بالطاغية [فى] وقْعَة الزَّلاّقة(١) فإنه الذى أصلى نارها بنفسه، فعظم بلاؤه، وشَهُر صبره، وأصابته الجراح فى وجهه ويده، رحمه الله. وفى ذلك يقول أبو بكر بن عُبادة المرِّى:

وقالوا كَفُّهُ جُرحت فقلنا ... أعاديه تُواقعها الجراح
وما لمرتد(٢) الجراحة ما رأيتم ... فتوهِنُها المناصل والرِّماح
ولكن فاض سيلُ البأس منها ... ففيها من [مجاريه انْسِياح](٣)
[وقد صحَّت، وسحَّت بالأمانى ... وفاض الجود منها والسَّماح
رأى منه أبويعقوب فيها ... عُقاباً لا يُهاض له جناح
فقال له لك القِدْحُ المُعلَّى ... إذا ضُربت بمشهدك القِداح](٤)

ولما اتصلت به الصَّيحة، بين يدى دخول المدينة، ركب فى أفراد من عبيده، وعليه قميص يَشِفُّ عن(٥) بدنه، والسيف مُنتضًى بيده. ويمم باب الفَرَج(٦)، فتقدَّم الداخلين، فردهم على أعقابهم، وقتل فارساً منهم، فانزعجوا أمامه، وخلَّفوا الباب، فأمر بإغلاقه، وسكنت الحال، وعاد إلى قصره. وفى ذلك يقول:

---

(١) وقعة الزلاقة هى الموقعة الكبرى التى نشبت بين الجيوش المرابطية والأندلسية المتحدة بقيادة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المرابطى عاهل المغرب والمعتمد بن عباد، والجيوش النصرانية المتحدة بقيادة ألفونسو السادس ملك قشتالة. وانتهت بنصر المسلمين الباهر، وسحق الجيوش النصرانية وذلك فى يوم ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م). ويقع مكان الموقعة وهو سهل الزلاقة على مقربة من شمال شرق مدينة بطليوس.

(٢) هكذا وردت فى «ج» وفى «الزيتونة». ووردت فى «القلائد» (وما أثر).

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (مجاريته انتياح). والتصويب من «القلائد».

(٤) نقلنا هذه الأبيات الثلاثة من «القلائد» تكملة للقصيدة (ص ١٣).

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة (على). والتصويب أرجح.

(٦) هو أحد أبواب إشبيلية الإسلامية، وقد كان يقع جنوب المدينة على مقربة من القصر

[إن يسلب القوم العِدا مُلْكى وتُسْلمنى الجموع
فالقلبُ بين ضــــلوعه لم تُسْلِم القلبَ الضلوع] (١)
قــد رُمْت يوم نزالهم ألا تحصِّنُنى الــدروع
وبرزتُ ليس سوى القميـــــص عن الحَشا شيء دفوع
أجلى تأخـــر لم يكن بهواى ذلِّى والخضـــوع
ماسرتُ قط إلى القتـال وكان من أملى الرجـــوع
شيمُ الأولى أنا منهـــم والأصل تتبعه الفروع (٢)

جــــوده

وأخبار جُوده شهيرة، ومما يُؤثر من ذلك، على استصحاب حال العزِّ، ووفور (٣) ذات اليد، وأدوات (٤) الملك؛ غريب. والشاهد المقبول بقاء السجيَّة ومصاحبة الخُلُق المالكية؛ مع الإقتار والإيسار، وتقلب الأطوار. وتعرَّض له الحصرى القرمونى (٥) الضرير بخارج طنجة، وهو يجتاز عليها فى السواحل من قَهْر واعتقال؛ بأشعار ظاهرة المَقْت، غير لايقة بالوقت، ولم يكن بيده، زعموا؛ غير ثلاثين ديناراً كانت بخُفِّه، معدَّة لضرورة ضَرَر وأزمة، وأطبع عليها دمه، وأدرج قطعة شعر طيَّها اعتذار عن نَزْرها، راغباً فى قبول أمرها، فلم يراجعه الحصرى بشيء عن ذلك، فكتب إليه:

---

(١) نقلنا هذين البيتين، وهما فاتحة القصيدة من الحلة السيراء (ج ٢ ص ٦٥).

(٢) هذا الشعر فى المخطوطات الثلاثة ملىء بالتحريف والتصحيف. وقد اكتفينا بنقل النص السليم عن الحلة السيراء.

(٣) هكذا وردت فى «ج». ووردت فى «الزيتونة» و «الملكية» (ووفود).

(٤) هكذا وردت فى «ج». وفى «الزيتونة» (وأداة). وفى الملكية (وأداوة).

(٥) هكذا وردت فى «ج». وفى «الملكية». ووردت محرفة فى «الزيتونة» (القيرموانى) والقرمونى نسبة إلى مدينة قرمونة الواقعة شمال شرق إشبيلية.

قل لمن جمع العلم ... وما أحصى صوابه
كان فى الثمرة شِعْرٌ ... فانتظرنا جوابه
قد أتيناك فهلاَّ ... جَلَب الشِّعر جوابه

حلمه

رُفع إليه صَدْرَ دولته شعر، أُغرى فيه، بأبى الوليد بن زيدون، وهو شهير، وتُخُيِّر (١) له موقع وتُرُصِّد حين، وانتظر به مُؤْجره، وهو:

يا أيها الملك [الأعزّ] (٢) الأعظم ... أقطع وريدَىْ كل باغ يُسْلِم (٣)
واحسم بسيفك (٤) كل منافق ... يُبدى الجميل وضدّ ذلك يكتُم
لا تتركَنْ للناس موضع شُبهة ... وأحزم فمثلك [فى العظائم] (٥) يحزم
قد قال شاعر كِنْدة فيما مضى ... قولا على مرّ الليالى يُعلم
لا يسلم الشرف الرفيع (٦) من الأذى ... حتى يُراق على جوانبه الدّم (٧)

فوقّع على الرقعة:

كَذبت مُنا كم صرِّحوا أو جمْجموا ... الدّينُ أمتن والسجيّةُ أكرم
خُنْتم ورُمْتم أن أخُون وإنما ... حاولتم أن يستخف يلملم
وأردتم تضييق صَدْرٍ لم يَضِق ... والسُّمر فى صَدْر (٨) النُّحور تُحطّم

(١) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة.
(٢) ساقطة فى «ج» وواردة فى الزيتونة. ووردت مكانها فى «القلائد» (العلى).
(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة». ووردت فى «ج» (يلثم)، وفى «القلائد» (ينمّ).
(٤) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (بنفسك). والتصويب من «القلائد».
(٥) هذا ما ورد فى «الزيتونة» وفى «القلائد»: وهو ساقط فى «ج».
(٦) وردت فى «ج» وفى «الزيتونة» (الشريف). وهو ما يخالف النص المعروف المتداول.
(٧) أورد ابن الخطيب هذه الأبيات الخمسة فقط من القصيدة: وهى تقع فى سبعة وعشرين بيتاً، وقد نشرت كاملة فى «القلائد» (ص ١٤ و ١٥).
(٨) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة. ووردت مكانها فى «القلائد» (ثغر).

وزحفتم بمحالكم لمجرب ... مازال يثبت للمحال فيهزم
أنى رجوتم غدر من جربتم ... منه الوفاء وظلم من لا يظلم
أنا ذا كم لا السعى (١) يثمر غرسه ... عندى ولا مبنى الصنيعة يهدم
كفوا وإلا فارقبوا لى بطشة ... يبقى (٢) السفيه بمثلها يتحلم

توقيعه ونثره فى البديهة

كتب مع الحمايم إلى ولده الرشيد عقب الفراغ من وقعة (٣) الزلاقة (٤).

يابنى، ومن أبقاه الله وسلمه، ووقاه الأسواء وعصمه، وأسبغ عليه آلاءه وأنعمه كتبته، وقد أعز الله الدين، وأظهر المسلمين، وفتح لهم على يدى مستدعيات الفتح المبين، بما يسره الله فى أمسه وسناه، وقدره سبحانه وقضاه: من هزيمة أذفونش ابن فردلند لعنه الله وأصلاه، وإن كان طاح للجحيم، ولا أعدمه وإن كان أهل العيش الذميم، كما قنعه الخزىُ العظيم. وأتى القتل على أكثر رجاله وحماته، واتصل النهب ساير اليوم، والليلة المتصلة به، جميع محلاته، وجمع من رؤوسهم بين يدى، من مشهورى رجالهم، ومذكورى أبطالهم، ولم يختر منهم إلا من شهر وقرب، وامتلأت الأيدى مما سلب ونهب. والذى لامرية فيه، أن الناجى منهم قليل، والمفلت من سيوف الجزع والبعد قتيل (٥)، ولم يصبنى بفضل الله إلا جرح أشوى، وحسن الحال عندنا والله وزكى، ولا يشغل بذلك بال، ولا يتوهم غير الحال التى أشرت إليها حال، والأدفونش بن فردلاند، إن لم يصبح تحت السيوف.

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة. ووردت مكانها فى «القلائد» (البغى).

(٢) وردت فى «ج» وفى «الزيتونة» و «القلائد» (يلق). ونعتقد أن التصويب أرجح وأنسب للسياق.

(٣) هكذا فى «ج». وفى «الزيتونة» (غزوة).

(٤) سبق أن قدمنا تعريفاً موجزاً بموقعة الزلاقة (أنظر الهامش فى ص ١١١).

(٥) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة». ووردت فى «الملكية» (قليل).

فسيموت لامحالة كمداً ، وإن كان لم تعلقه أسراد الحمام [ففداً ، فإن برأسه طمرة ولحام][١] . فإذا ورد كتابى هذا ، فمُر بجمع الخاص والعام ، من أهل إشبيلية ، وجيرانها الأقربين ، وأصفيائنا المحبين ، فى المسجد الجامع ، أعزهم الله ، وليُقرأ عليهم فيه ، ليأخذوا من المسَرَّة بأنصبايهم ، ويضيفوا شكراً لله إلى صالح دُعايهم [والحمد لله على ماصنع حقّ حَمْده ، جلَّ المزيد لأمرحين ، إلاّ من عِنده . والسلام][٢] .

تلطفه وظرفه

قال أبو بكر الدانى[٣] : سألنى فى بعض الأيام عند قدومى عليه بأغمات ، قاضياً حق نعمته ، مُستكثراً[٤] من زيارته ، مُستمتعاً[٥] برايق أدبه ، على حال محنته ، عن كُتُبى ، فأعلمته بذهابها فى نَهْب حضرته . وكنت قد جَلبتُ فى سَفَرتى تلك ، الأشعار الستة ، بشرح الأستاذ أبى الحجاج الشَّنْتَمرى الأعلم ، وكانت مستعارة ، فكتمتها عنه . ووَشى إليه أحد الأصحاب ، فخجل بكرمه وحُسن شِيمته ، من الأخذ معى فى ذكر ما كتمتُه ، فاستطرد إلى ذلك بغرض نبيل ، ونحا فيه نحواً ، يعرُب عن الشَّرف الأصيل ، وأملى علىَّ ، فى جملة ما كان يُمليه :

وكواكب لم أدْرِ قبل وجوهها ... أنّ البدور تدور فى الأزرار
نادمتُها فى جَنْح ليل دامس ... فأعَرْنه مثلا من الأنوار

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (ففد برأس طرة ولجام) . وكلتاهما يشوبها الغموض .

(٢) مابين الحاصرتين وارد فقط فى «ج» ، فى هامش الصفحة . وساقط فى المخطوطين الآخرين .

(٣) هو أبو بكر محمد بن عيسى الدانى المعروف بابن اللبانة ، من شعراء عصر الطوائف ، اتصل ببلاط إشبيلية وغدا شاعر المعتمد الأثير لديه ، وقد نظم الكثير فى مديحه . ولما ذهبت دولة المعتمد ، ونفى أسيراً إلى المغرب ، زاره أبو بكر فى أغمات . وله فى دولة المعتمد وأيامه ، وفى محنته وأسره قصائد كثيرة . وله فى تاريخ الدولة العبادية كتاب عنوانه «نظم السلوك فى مواعظ الملوك» .

(٤) وردت فى المخطوطات الثلاثة (مستكراً) والتصويب أنسب للسياق .

(٥) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . وفى «ج» (متمتعاً) .

فى وَسَط رَوضة نرجس كعيونها ما أشبه النُّوار بالنُّــــوار
فإذا تواصفْنــا الحديث حسبتنى ألهـــو بمُلْتقط لدرٍّ نثــار
فإذا اكتحلتُ برقٍ(١) ثغرٍ باسم سَــكَبَت جُفونى أغزر الأمطار
حذر الملام وخيفةً من جفـــوة تذر الصدور على شفير هار
ترك الجوارى الآنسات مذاهبى وسولها ظَفَر بريشة الأشمار

فلم أتمالك عند ذلك ضحكاً ، وعلمت أن الأمر قد سُرِّى إليه ، فأعلمته قصتها ، فبسط العُذر بفضله، وتأول الأمر، وقسم الأشعار، على ثلاثة من بَنيه ، ذوى خطٍّ رائع ، ونقل حَسَن، وأدب بارع أخذوا فى نسخها. وصرفوا الأصل لأجل قريب .

محنتـــه

ولم يلبث أمير اللمتونيين بعد جوازه إلى الأندلس ، وظهوره على طايفة(٢) الروم، أن فَسَد ما بينه وبين رؤساء الطوائف بالأندلس ، وعزم على خلعهم، فأجاز من سَبْتة العساكر ، وسرب الأمداد . وأخذ المعتمد بالعزم يحصِّن حصونه ، وأودع المعاقل عدُتَّه ، وقسَّم على مظان الامتناع ولده ، وصَمَدت الجموع صَمْدة بنيه ، ونازل الأمير سِير إشبيلية ، دار المعتمد ، وحَضْرة ملكه ، ونازل الأمير محمد بن الحاج قرطبة ، وبها المأمون ، ونزل جَرُور(٣) من قواده رُنْدة ، وبها الرَّاضى ابن المعتمد . واستمر الأمر ، واتصلت المحاصرة ، ووقعت أمور يضيق الكِتاب عن استقصايها . فدُخلت قرطبة فى جمادى الآخرة عام أربع وثمانين وأربعمائة ، وقُتل الراضى ،

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . وفى «ج» ببرق .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وربما كانت أيضاً تحريفاً لكلمة (طاغية) . والمؤدى واحد .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (قرور) . والصواب ما أثبتناه .

وجُلب رأسه فِطيف به بمرأى من أبيه . وكان دخول إشبيلية على المعتمد، دخول القَهْر والغَلبة، يوم الأحد لعشر بقين من رجب(١)، وشملت الغارة، وافتُحمت الدُّور، وخرج ابن عباد فى شِكَّته(٢)، وابنه مالك فى أُمّته معهما، فقُتل مالك الملقب بفخر الدولة ورَهِقت الخيل، وكَثُر، فدخل القصر مُلْقياً بيده. ولما جَنّ الليل، وجّه ابنه الأكبر الرشيد إلى الأمير، فحُجب عنه، وَوَكّل بعض خدمه به، وعاد إلى المعتمد فأخبره بالإعراض عنه، فأيقن بالهَلَكة، وودع أهله، وعلا البكاء، وكثُر الصُّراخ، وخرج هو وابنه، فأُنزلا فى خِباء حصين، ورُقبا بالحرس، وأُخرج الحُرَم من قصره، وضُم ماأشتمل عليه، وأُمر بالكَتْب إلى ولده برُنْدة ففعل. ولما نزل، واستُوصلت ذخيرته، سلا(٣)، وأُجيز المعتمد البحر، ومن معه إلى طنجة، فاستقرّ بها فى شعبان من العام، وفى هول(٤) البحر عليه فى هذا الحال، يقول رحمه الله

لم أنسَ والموت يدنِى ويُقْصينى ... والموت كأنّ المُنَى يأتينى
أبصرتُ هولاً لو أنّ الدهر أبصَره ... لما خُوّفا لأمر ليس بالدُّون
قد كنت ضانًّا بنفس لا أجود بها ... فبعتُها باضْطرار بَيْعَ مَغْبون
كم ليلة بتُّ مطوياً على حَرَق ... فى عَسَرٍ من عيون الدبر(٥) فى العين
فتلك أحسنُ أم ظلتُ به ... فى ظلٍّ عزّة سلطان وتمكين
ولم يكن والذى تعنو الوجوه له ... عِرْضى مُهاناً ولا مالى بمخزون
وكم خلوتُ من الهيجا بمعترك ... والحربُ تَرْفُل فى أثوابها الجُون
يارب إن لم تدع حالا أسَرُّ به ... فهب لعبدك أجراً غير ممنون

(١) وردت فى «ج» بعد هذه الكلمة، كلمة (النهب)، ولا مكان لها فى السياق.
(٢) فى شكته أى فى سلاحه وعدته.
(٣) هكذا فى «الزيتونة» و «الملكية». ووردت فى «ج» (سل).
(٤) وردت فى «ج» و «الملكية» (هو — هوا). وبالتصويب يستقيم المعنى.
(٥) وردت فى «ج» (الدير). والتصويب من «الزيتونة».

وجرى على بناته شيء يوم خروجهن، واضطرتهن الضيعة إلى معيشتهن من غزل أيديهن، وجرت عليه محن طال لها شجنه[١] وأقعده قيده، إلى [أن][٢] نقل إلى أغمات وريكة[٣]، وحل عنه الاعتقال. وأجرى عليه رزقه، تبلغ به لمدة من أعوام أربعة، واستنقذه حمامه، رحمة الله عليه.

وصوله إلى غرناطة

قال ابن الصيرفي، وقد أجرى ذكر تملك يوسف بن تاشفين غرناطة، وخلع أميرها عبد الله بن بلقين حفيد باديس، يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من رجب عام ثلاثة وثمانين: ولحق ابن عباد [وحليفه ابن مسلمة][٤] بخيل ورجل ورماة وعدد، وحل ذلك من [ابن] عباد تضمناً لمسرة أمير المسلمين. وتحققا[٥] بموالاته، فدخلا عليه، وهنياه، وقد تحكمت في نفس ابن عباد الداعية في إسلام غرناطة إلى ابنه، بعد استصفاء نعمة صاحبها، عوضاً عن الجزيرة الخضراء، وكان قد أشخصه معه، [فعرض بغرضه][٦]، فأعرض أمير المسلمين عن الجميع إعراضاً، كانت منية [كل منهما][٧] التخلص من يده، والرجوع إلى بلده. فأعمل ابن عباد

---

(١) وردت في «ج» (سجنه). والتصويب من «الملكية».

(٢) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق.

(٣) اغمات أو أغمات وريكة، هي بلدة قديمة حصينة تقع على قيد نحو أربعين كيلو مترا من جنوب شرقي مراكش؛ وكانت قبل إنشاء مراكش عاصمة للدولة المرابطية.

(٤) وردت هذه العبارة في المخطوطات الثلاثة (وخليفة بن مسلمة). وهو تحريف. والصواب ما أثبتناه. وابن مسلمة هو المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس. ويعرف بنو الأفطس أيضا ببني مسلمة باسم جدهم ومؤسس دولتهم عبد الله بن محمد بن مسلمة.

(٥) وردت في «ج» و «الزيتونة» (وتحققوا). وبالتصويب يستقيم السياق.

(٦) وردت مكان هذه العبارة في المخطوطات الثلاثة عبارة مضطربة مكررة (فعرض به فأعرض عنه بغرضه: فأعرض به ما عرض عنه غرضه .. الخ). وبهذا التصويب الموجز يستقيم المعنى والسياق.

(٧) هكذا وردت في «ج». وفي «الزيتونة» (كل واحد منهما).

الحياة . فكتب ،يزعم[١] أنه وردت عليه تحثّه من إشبيلية فى اللحاق، أنباء[٢] مهمة طَرَقت بتحرك العدو ،واستأذن بها فى الصّدور ، فأخذ له ولحليفه ابن مسلمة ، فانتهزا[٣] الفرصة ،وابْتَدرا الرجعة. ولحق كل بموضعه يظن أنه مَلَك رياسة أمره .

مــولده

ولد المعتمد على الله بمدينة باجة سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة . ووُلِّى سنة إحدى وستين . وخُلع سنة أربع وثمانين .

وفاتــه

كانت وفاة المعتمد [على الله][٤] بأغمات فى ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، بعد أن تقدمت وفاته وفاةَ الحرة اعتماد،وجزع عليها جزعاً ،أقرب[٥] سرعةَ لحاقه بها . ولما أحسّ بالمنية: رثى نفسه بهذه الأبيات. وأمر أن تُكتب على قبره :

قبرُ الغريب سقاك الرّائح الغادى ... حقًّا ظَفِرت بأشلاء ابن عباد
[بالحِلم بالعِلم بالنُّعمى إذا اتصلت ... بالخِصب أن أجدبوا بالرّى للصادى]
بالطّاعن الضّارب الرّامى إذا اقتتلوا ... بالموت أحمر بالضّرغامة العادى
[بالدهــر فى نقم بالبحــر فى نِعم ... بالبدر فى ظُلُم بالصّدر فى النادى]
نعم هو الحق [فاجأنى على][٦] قدر ... من السماء ووافانى لميعاد

(١) فى «ج» (زعم) . والتصويب أنسب للسياق .
(٢) وردت فى «ج» (لأنباء) . فاقتضى التصويب .
(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (فاستهزا) . والتصويب أفضل .
(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . وفى «ج» (رحمه الله) .
(٥) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» و «الملكية» (أقر) .
(٦) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . ووردت فى «المعجب» . وفى مصادر اخرى (حاباني به) .

ولم أكن قبــل ذاك النّعش أعلمُهُ ... أنَّ الجبال تُهادى فوق أعــواد

[كفاك فارفق بما استَوْدَعت من كرم ... روّاك كلُّ قطوب البرق رعاد]

[يبكى أخاه الذى غيَّبتَ وابــله ... تحت الصَّفيــح بدمع رائح غادى]

[حتى يجودُك دمعُ الطَّل منهمــراً ... من أعين الزَّهر لم تبخل بإسعاد](١)

فلا تزل صــلوات الله نازلةً ... على دِفينك لا تُحصى بتَعــداد

بعض مارثى به

قال ابن الصَّيرفى، وخالف فى وفاة المعتمد، فقال: كانت فى ذى حجة. فلما انفصل الناس من صلاة العيد، حفَّ بقبره ملأٌ، يتوجعون ويترحمون عليه، وأقبل ابن عبد الصمد، فوقف على قبره وأنشد:

ملكُ الملــوك أسامعٌ فأنادى ... أم قد عَدَتك عن السَّماع عوادى

لما خَلَت منك القصورُ فلم تكن ... فيهــا كما قد كنتَ فى الأعْياد

أقبلتُ(٢) فى هذا الثرى لك خاضعاً ... وتخِذْتُ قبرك موضعَ الإنشاد(٣)

ثم خرّ يبكى، [ويُقَبِّل القبر](٤) ويعفُر وجهه فى التُّراب، فبكى ذلك الملأ حتى أخْضَلوا ملابسهم، وارتفع نشيجهم(٥) فللّه درُّ ابن عبد الصمد، وملاذ ذلك البلد.

---

(١) وردت هذه القصيدة ناقصة فى المخطوطات الثلاثة. وقد أكملناها بالأبيات التى بين الحواصر. وأوردها المراكشى فى «المعجب» (١٣٢٢ هـ) ص ٨٧.

(٢) وردت فى «ج» وفى «الزيتونة» (قبلت). وفى «الملكية» (مثلت).

(٣) أورد ابن الخطيب مطلع هذه القصيدة فقط. وقد أوردها الفتح فى «القلائد» كاملة (قلائد العقيان ص ٣١).

(٤) وردت فى المخطوطات الثلاثة (ويقبل فى القبر).

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة بعد هذه الكلمة عبارة (دمع البار). ولا مكان لها فى السياق.

محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مَرْدَنيش الُجذامى

قال بعضهم ينتمى فى تُجيب ، الأمير أبو عبد الله .

أوَّليتـــــه

معروفة . وعلى يد أبيه جَرَت الوقيعة الكبرى بظاهر إفراغة ، على ابن رُذْمير الطاغية ، فجلّت الشُّهرة ، وعظُمت الأَثَرة . قال بعضهم ، تولى أبوه سعد قيادة إفراغة وما إليها ، وضبطها . ونازلها[1] ابن رذمير ، فشهر غناؤه بها فى دفاعه ، وصبره على حصاره ، إلى أن هزمه الله [عزّ وجلّ][2] ، على يدى ابن غانية[3] . وظهر بعد ذلك فحسُن بلاؤه ، وبعُد صيته . ورأس ابنه محمد ، ونفَق فى ألْفَته . وكان بينه وبين ابن عِياض المتأمِّر بمُرْسية صِهر ، ولاّه لأجله بَلَنْسية . فلما توفى ابن عياض ، بادرها ابن سعد ، وبلغه أثناء طريقه ، غدر العدوٌ بحصن جَلال ، فكرّ [وقاد له][4] وفتحه . وعاد فملك بلنسية ، وقد ارتفع له صيتٌ شهير ، ثم دخلت مُرْسية فى أمره ، واستقام له الشَّرْق ؛ وعظُمت حاله .

---

(١) هكذا وردت فى «ج» وفى «الزيتونة» . وفى «الملكية» (ونازله) .

(٢) هذه الزيادة من «الزيتونة» .

(٣) موقعة إفراغة المشار إليها هنا ، هى الموقعة الحاسمة التى نشبت بين ألفونسو المحارب (ابن رذمير) ملك أراجون وبين المرابطين تحت أسوار مدينة إفراغة الواقعة على نهر سنكا أحد أفرع نهر إيبرو بالثغر الأعلى ، بقيادة يحيى بن غانية اللمتونى . وكان الأرجونيون قد ضربوا عليها الحصار وقاومتهم حاميتها الإسلامية بقيادة واليها سعد بن محمد بن مردنيش أشد مقاومة ، وصمدت حتى وافت القوات المرابطية . ومنى الأرجونيون فى الموقعة بهزيمة ساحقة ، وكان ذلك فى يوم ٢٣ رمضان سنة ٥٢٨ هـ (٧ يوليه ١١٣٤ م) . وقتل ألفونسو المحارب خلال الموقعة أو توفى بعدها بأيام قلائل غما ويأسا .

(٤) هكذا فى المخطوطات الثلاثة .

حاله

قال ابن حمامة، ساد من صغره بشجاعته ونجابته[١]، وصيت أبيه، فآل بذلك إلى القيادة. وسنة أحدى وعشرون سنة. ثم ارتقى[٢] إلى المُلْك الراسخ، والسلطان الشامخ، بباهر شجاعته وشهامته، فسما قدره، وعظم أمره، وفشى فى كل أمة ذكره.

وقال غيره، كان بعيد الغُور، قوىّ السّاعد، أصيل الرأى، شديد العزم، بعيد العفو، مؤثراً للانتقام، مرهوب العقوبة.

وقال فى مختصر « ثورة المُريدين »[٣] كان عظيم القوة فى جِسْمه، ذا أيد فى عظمته، [جزّارة فى لحمه][٤]، وكان له فروسيّة، وشجاعة، وشهامة، ورياسة.

بطالته وجوده

قال وكان له يومان فى كل جمعة. الإثنين والخميس، يشرب مع ندمايه فيهما، ويجود على قُوّاده، وخاصته وأجْناده، ويذبح البقر فيهما[٥]، ويفرق لحومها على الأجناد، [ويحضر القِيان بمزاميرهن وأعْوادهن][٦]، ويتخلل ذلك لهو كثير، حتى مَلَكَ القلوب من الجند، وعاملوه بغاية النُصح، وربما وَهَب المال فى مجالس أُنْسه.

ذكر أنه استدعى يوماً ابن الأزرق أحد قُوّاده، فشرب معه ومع القرابة،

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة». وفى «ج» (ونجدته) والأولى أرجح.

(٢) هكذا فى «ج». وفى «الزيتونة» (ارتفع).

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (ثور المريدين). والصواب ما أثبتناه. وثورة المريدين كتاب من تأليف ابن صاحب الصلاة الباجى مؤرخ الموحدين وصاحب كتاب (المن بالإمامة). ولكن هذا الكتاب لم يصل إلينا.

(٤) وردت هذه العبارة فقط فى «ج». وهى ساقطة فى «الزيتونة» و «الملكية».

(٥) هكذا وردت فى «ج». وفى «الزيتونة» (فى المواسم) والأولى أرجح وأكثر اتفاقا مع السياق.

(٦) هذه العبارة واردة فى «ج» وساقطة فى «الزيتونة».

فى مجلس قد كساه بأحمر الوشى والوطىء[١] والآنية من الفضة وغيرها، وتمادى فى لهو وشراب عامة اليوم . فلما كمل نهاره معهم،وهبهم الآنية ، وكلّ ما كان فى المجلس من الوشى[٢]وغير ذلك .

ما نقم عليه ووصم به

قالوا ، كان عظيم الانهماك فى ميدان البطالة ،واتخذ جُمْلة من الجوارى، فصار يُراقد منهن جملة تحت لحاف واحد . وانهمك فى حُب القِيان ، والزُمر والرقص . قالوا ،وكان له فتى اسمه حسن، ذو رقبة سمينة ، وقفاً عريض ، فإذا شرب ، كان يرزه ، ويعطيه بعد ذلك عطاء جزيلا . وفى ذلك يقول كاتبه المعروف بالسّالمى ، وكان يحضر شرابه .ويخمرُ[٣] .

أدر كؤوس المدام والرّز ... فقد ظَفِرنا بدولة العـــزّ
ونِعم الـكفّ من قفا حسن ... فإنها فى ليانة الخـــزّ
وصاحبٌ إن طلبتُ أخدعه ... فلم يكن فى بَذْله بمعتزّ
انحنى على أخداعى فاطّرَبنى ... وهزّ عَطفىّ أيما هـــزّ

وأجزل صلة السّالمى حين أنشدها إياه ، واشتهرت هذه الأبيات بالشرق ، واستظرفها الناس. [فردّ مُرسية دار مجونه ، وبلغ فى زمانه ألفا وأربعين] [٤] . وآثر زىّ النصارى من الملابس ، والسلاح ، واللّجم ، والسّروج . وكَلَف بلسانهم يتكلم مُباهتة[٥] ، وألجأه الخروج عن الجماعة، والانفرادُ بنفسه (إلى الاحتماء)[٦]

(١) هذه الكلمة واردة فقط فى «ج» وساقطة فى المخطوطين الآخرين .

(٢) هكذا وردت فى «الملكية» و «الزيتونة» . ووردت مكررة فى «ج» (فرش وآنية)

(٣) وردت فى «ج» وفى «الملكية» (ويخف – يخفه) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى المخطوطات الثلاثة . ولم تتضح حكمة وجوده هنا . والظاهر أنه قد سقطت منه بعض كلمات .

(٥) هذه الكلمة واردة فى «ج» وفى «الملكية» وساقطة فى «الزيتونة» .

(٦) أضفنا هذه الزيادة ليستقيم المعنى والسياق .

بالنصارى ، ومُصانعتهم ، والاستعانة بطواغيتهم . فصالح صاحب بَرْشِلونة لأول أمره على ضريبة . وصالح ملك قَشْتالة على أخرى . فكان يبذل لهم فى السنة [خمسين ألف مثقال][1] . وابتنى لجيشه من النصارى منازل معلومات وحانات للخمور ، وأجْحف برعيّته ، لأرزاق من استعان به منهم ، فعظُمت فى بلاده المغارم وثُقلت ، واتخذ حوانيت بيع الأدْم والمرافق ، تختنق[2] بجانبه ، وجعل على الأغنام وعروض البقر ، مُؤناً غريبة . وأما رسوم الأعراس والملاهى ؛ فكانت قبالاتها غريبة . حدّث بعض المؤرخين عن الثقة ، قال كنت بجيّان مع الوزير أبى جعفر الوَقّشى ، فوصل إليه رجل من أهل مرسية ، كان يعرفه ، فسأله الوزير عن أحوال ابن مرْدَنيش وعن سيره فقال الرجل ، أخبرك بما رأيته من جَوْر عُمّاله وظلمهم . وذلك أن أحد الرعية بشاطبة واسمه محمد بن عبد الرحمن ، كان له بنظر شاطبة ، ضُويعة يعيش بها ، وكان لازمُها أكثر من فايدها ، فأعطى لازمَها حتى افتقر ، وفرّ إلى مُرْسية . وكان أمر ابن مردنيش ، أنه مَنْ فرّ من الرعيّة أمام الغزو[3] ، أخذ ماله للمخزن . قال الرجل الشّاطبى ، فلما وصلت إلى مرسية فارّا عن وطنى ، خدمتُ الناس فى البُنْيان ، فاجتمع لى مثقالان سَعْديّان ، فبينما أنا أمشى فى السوق ، وإذا بقوم من أهل بلدى شاطبة ، ومن قرابتى ، فسألتهم عن أولادى وزوجتى ، فقالوا إنهم فى عافية ، ففرحت فرحا عظيما ، وسألتهم عن الضُّويعة ، فقالوا إنها باقية بيد[4] أولادك ، فقلت لهم عسى تَبِيتوا عندى الليلة ، فاشتريت لحما وشرابا ، وضَرَبنا دفًّا . فلما كان عند الصباح ، وإذا بنقر عنيف

---

(١) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» و «الملكية» (خمسين ألفا من المثاقيل) .

(٢) هكذا وردت هذه الكلمة فى المخطوطات الثلاثة . وربما كان القصد أنها تزدحم .

(٣) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (العدو) .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (عند) .

بالباب . فقلت من أنت ، فقال أنا الطُّرقون الذى بيده قَبالة اللهو، وهى متقّقة بيدى ، وأنتم ضربتم البارحة الدّف فأعطنا حق العُرْس الذى عَمِلت . فقلت له والله ما كانت لى [عُرْس](١). فأُخذت وسُجنت . حتى افتديت بمثقال واحد من الذى خدمت به ، وجئت إلى الدار ،فقيل لى أن فلاناً وصل من شاطبة السّاعة ، فمشيت لأسأله [عن أولادى، فقال تركتهم فى السِّجن . وأُخذت الضُّويعة من أيديهم فى رسم الَجبالى ، فرجعت](٢) إلى الدار إلى قرابتى. وعرّفتهم بالذى طرأ على ،وبكيت طول ليلتى، وبكوا معى. فلما كان من الغد، وإذا بناقر بالباب. فخرجت ،فقال أنا رجل صاحب المواريث ، أُعلمنا أنكم بكيتم البارحة . وأنه قد مات لكم ميت من قرابتكم [غنى](٣) ، وأخذتم كلَّ ما ترك . فقلت والله ما بكيتُ إلا نفسى ، فكذبنى وحملنى إلى السجن ، فدفعت المثقال الثانى. ورجعت إلى الدار [وقلت أخرج إلى الوادى ، الى باب القنطرة ، أغسل ثيابى من دَرَن السجن ، وأفرُّ إلى العدوة](٤) فقلب لامرأة تغسل الثياب ، إغسلى مما علىّ ، وجرّدتها ، ودفعَت لى زناراً ألبسه . فبينا أنا كذلك ،واذا بالخدِىٍّ قائد [ابن](٥) مردنيش ، يسوق ستين رجلا من أهل الجبل ، لابسى الزنانير ، فرآنى على شكلهم ، فأمر بحملى إلى السُّخرة والخدمة بحصن مسقوط عشرة أيام. فلبثت أخدم وأحضُر مدة عشرة أيام ، وأنا أبكى واشتكى للقايد المذكور، حتى أشفق على وسرّحنى . فرجعتُ أريد مرسية ، فقيل لى عند باب البلد. كيف أسمك فقلت محمد بن عبد الرحمن، فأخذنى الشرطى ، وحُملت [الى] القابض بباب القنطرة . فقالوا هذا مَنْ كتبتُه من

---

(١) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٣) الزيادة من «الزيتونة» .

(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٥) أضفنا هذه الكلمة تصحيحاً للاسم .

أوباب الحالى بكذا وكذا دينار ، فقلت والله ما أنا إلاّ من شاطبة ، وإنما إسمى وافق ذلك الاسم، ووصفتُ له ما جرى على ، فأشفق وضحك منى ؛ وأمر بتسريحى فسرت على وجهى الى هنا .

بعض الأحداث فى أيامه ، و نبذ من أخباره

استولى على بلاد الشّرق ، مُرْسية وبَلَنْسية وشاطبة ودانية ، ثم اتسع نطاق ملكة ، فوُلىّ جيّان [وأُبدّة وبيّاسة](١) . وبَسْطة ووادى آش ، وملك . قَرْمونة . ونازل قرطبة وإشبيلية ، وكاد يستولى على جميع بلاد الأندلس . فولّى صِهره ابن هَمُشْك ، وقد [مر](٢) فى باب إبراهيم ، مدينة جيّان [وأُبدّة ويَيّاسة](١) ، وضيّق منها على قرطبة ، واستولى على إستجة ، ودخل غَرناطة سنة سبع وخمسين وخمسماية وثار عليه(٣) يوسف بن هلال من أصهاره بحصن مطرنيش(٤) وما إليه . ثم تفاسد ما بينه وبين صهره [الآخر ابن هَمُشْك](٥) . فكان سبب إدْبار أمره ، واستولى العدو فى مدة ابن سعد على مدينة طُرْطُوشة عام ثلاثة وأربعين وخمساية . وعلى حصن إقليج . وحصن شرانية .

دخوله غرناطة

ولما دخل ابن هَمُشْك مدينة غرناطة ، وامتنعت عليه قصبتُها ، وهزم

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» وساقط فى «الزيتونة» و «الملكية» .

(٢) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق . وقد مرت ترجمة ابن همشك فى المجلد الأول ص٢٩٦ .

(٣) وردت (على) فى «ج» و «الزيتونة» ؛ فلزم التصويب لاستقامة المعنى .

(٤) وردت فى المخطوطات الثلاثة (حصن بطرقش) . وهو تحريف . والصحيح ما أثبتناه . وحصن مطرنيش يقع على مقربة من بلنسية .

(٥) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» و «الملكية» .

الجيش المُصْرَخ لمن حُصر بها من الموحدين بمرج الرّقاد(١) وثاب أثناء ذلك أمرُ الموحدين ، فتجهز لنصرهم السيد أبو يعقوب ، وأجاز البحر ، واجتمعوا بالسيد أبي سعيد بمالقة ، استمد(٢) ابن هَمُشْك صهره الأسعد . أبا عبد الله محمد بن سعد ، فخرج بنفسه فى العسكر الكبير من أهل الشرق والنصارى . فوصل إلى غرناطة ، واضطربت محلته بالربوة السامية المتصلة بربض البَيّازين . وتُعرف إلى اليوم بكُدية مردنيش [وتلاحق جيش الموحدين بأحواز غرناطة . فأبينوا جيش عدوهم ، فكانت عليه الدَّبرة ، وفر ابن مردنيش](٣) فلحق بجيان ، واتصلت عليه الغلبة من لدُن منتصف عام ستين فلم يكن له بعده ظهور .

وفاتـه

وظهر عليه أمر الموحدين ، فاستخلصوا معظم ما بيده ، وأوقعوا بجنده الوقايع العظيمة ، وحُصر بمدينة مرسية ، واتصل حصاره ، فمات أثناء الحصار فى عاشر رجب من عام [سبعة](٤) وستين وخمساية وله ثمانية وأربعون عاما ، ووصل(٥) أمره أبو القمر هلال(٦) ، وألقى باليدين إلى الموحدين ، فنزل على عهد ورسوم حسبما يأتى فى موضعه .

(١) موقعة مرج الرقاد ، نشبت بين الموحدين وبين قوات ابن همشك صهر ابن مردنيش على أثر استيلائه غرناطة فى جمادى الأولى سنة ٥٥٦ هـ ، فى الموضع المسمى مرج الرقاد ، ويقع على مقربة من غرناطة على سفح جبل إلبيرة ومقابله مكان يسمى اليوم Majorracal وقد هزم الموحدون فى تلك المرقعة هزيمة شديدة

(٢) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (استمر) . وهو تحريف .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» ، وساقط فى «الزيتونة» وفى «الملكية» .

(٤) هذه الكلمة ساقطة فى «ج » وواردة فى «الزيتونة» وفى «الملكية» (عام احد وستين وخمسمائة) . وهو خطأ . والصحيح ما أثبتناه .

(٥) وردت فى ج (وهم) وفى «الملكية» (وضم) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٦) هلال ، أبو القمر ، هو ولد محمد بن سعد بن مردنيش . وقد أقنعه القادة والأشياخ على أثر وفاة أبيه بالتسليم للموحدين . فصدع برأيهم وأعلن طاعته للموحدين . وسار إلى إشبيلية يؤكد ذلك بنفسه لخليفة الموحدين أبى يعقوب يوسف ، وتوثقت فيما بعد أواصر المودة بين الخليفة الموحدى وبين آل مردنيش ، ولاسيما حين تزوج الخليفة إبنة محمد بن سعد .

محمد بن يوسف بن هود الجذامى ، أمير المسلمين

بالأندلس ، يكنى أبا عبد الله ، ويلقب من الألقاب السلطانية بالمتوكل على الله .

أوليته

من ولد المستعين بن هود . وأوّليتهم معروفة ، ودولتهم مشهورة ، وأمراؤهم مذكورون . خرج من مرسية تاسع رجب عام خمسة وعشرين وستماية إلى « الصُّخور »[١] من جهاتها فى نفر يسير من الجنود [معه][٢] وكان الناس يستشعرون ذلك ،ويرتقبون ظهور مسمّى باسمه واسم أبيه ، ويندّدون[٣]. بإمْرته وسلطانه ، وجرى عليه بسبب ذلك امتحان فى زمن الموحِّدين مرات ، إذ كان بعض الهاتفين بالأمور الـكاينة ، والقضايا المستَقْبلة ، يقول لهم ، يقوم عليكم قايم من صنف الجند ، اسمه محمد بن يوسف . فقتلوا بسبب ذلك شخصاً من من أهل جيّان . ويقال [إن][٤] شخصاً ممن ينتحل ذلك ، لقى ابن هود ، فأمعن النظر إليه ، ثم قال له [أنت سلطان الأندلس][٥] ، فانظر لنفسك ، وأنا أدلُّك على من يقيم مُلْـكك ، فاذهب إلى المُقَدَّم الغَشّى[٦] فهو القايم بأمرك .

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة (الحضور) . والصواب ما أثبتناه . وهو «الصخور» أو «الصخيرات» حسب يأتى بعد .

(٢) الزيادة من «الزيتونة» و «الملكية» .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الملكية» و «الزيتونة» (يندرون) والأولى أرجح

(٤) أضفنا هذه الكلمة لاستقامة السياق .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» و «الملكية» (أنت السلطان بالأندلس) .

(٦) وردت فى المخطوطات (الغشى) وهو تحريف .

وكان الغَشتى رجلا صُعلوكا يقطع الطريق، وتحت يده جماعة من أنجاد الرجال، وسباع الشرّار، قد اشتهر أمرهم، فنهض إلى المقدم، وعرض عليه الأمر، وقال نستفتح بمُغاوَرَة إلى أرض العدو، على اسمك وعلى سعدك، ففعلوا، فجلبوا كثيرا من الغنايم(١) والأسرى، وانضاف إلى ابن هود طوايفُ مثل هؤلاء، وبايعوه «بالصُّخَيرات»(٢) كما ذكر، من ظاهر مرسية(٣)، وتحرّك إليه السيد أبو العباس بعسكر مرسية، فأوقع به وشرَّدَه، ثم ثاب إليه ناسه، وعدل إلى الدّعاء للعباسيين، فتبرِمه اللفيف، ووصل تقليد الخليفة المستنصر بالله ببغداد، فاستنصر(٤) الناس فى دعوته، وشاع ذكرهُ، وملك القواعد، وجيّش الجيوش، وقهر الأعداء، ووفّى للغَشتى بوعده، فولاّه أسطول إشبيلية، ثم أسطول سَبْتة، مضافا إلى أمرها، وما يرجع إليه، فثار به أهلها بعد وخلعوه، وفرّ أمامهم فى البحر، وخفى أثره إلى أن تحقق استقراره أسيراً فى البحر بغرب الأندلس، ودام زماناً، ثم تخلص فى سن الشيخوخة، ومات برباط آسِفى.

حاله

كان شجاعاً، ثَبْتاً، كريماً حييا، فاضلاً، وفيًّا. متوكّلاً عليه(٥)، سليم الصدر، قليل المبالاة. فاستَعْلى لذلك عليه ولاتُه بالقواعد، كأبى عبد الله بن الرّميمى بالمريّة، وأبى عبد الله بن زُنون بمالقَة، وأبى يحيى عُتْبَة بن يحيى الجَزُولى بغرناطة. وكان مَجْدُوداً، لم ينهض له جيش. ولا وُفّق لرأى. لغَلَبة الخِفَّة عليه، واستعجاله الحركات. ونشاطه إلى اللقاء، من غير كمال استعداد.

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة (الغنم). والتصويب أرجح.

(٢) هى الصخور أو الصخيرات كما سبق شرحه.

(٣) وردت فى «الزيتونة» (غرناطة) وهو خطأ ظاهر.

(٤) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية». ووردت فى «الزيتونة» (فانتصر).

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى «الزيتونة» و «الملكية»، ووردت محرفة فى «ج» (كقلبه). والتصويب من «أعمال الأعلام».

بعض الأحداث فى أيامه

جرت عليه هزائم، منها هزيمة السلطان الغالب بالله إيَّاه مرّتين، إحداها بظاهر إشبيلية، وركب البحر فنجا[1] بنفسه، ثم هزمه بإلْبيرة من أحواز غرناطة، زعموا كل ذلك فى سنة أربع وثلاثين وستماية أو نحوها .

وفى سنة خمس وثلاثين، كان اللقاء بينه وبين المأمون إدريس أمير الموحدين بإشبيلية، فهزمه المأمون أقبح هزيمة، واستولى على محلّته، ولاذ منه بمدينة مُرْسية.

ثم شغل المأمون الأمر، وأهمّته الفِتْنة الواقعة بمرّاكُش، فصرف وجهه إليها. وثاب الأمر للمتوكل، فدخلت فى طاعته المريَّة، ثم غرناطة، ثم مالَقة . وفى سبع وعشرين وستماية، تحرك بفضل شهامته بجيوش عظيمة، لإصْراخ[2] مدينة ماردِة، وقد نازلها العدوُّ وحاصر، ولقى الطّاغية بظاهرها، فلم يتأنّ زعموا، حتى دفع بنفسه العدوَّ، ودخل فى مَصافّه[3]. ثم لما كرّ إلى ساقَتِه، وجد الناس منهزمين لما غاب عنهم، فاستولت عليه هزيمةٌ شنيعة. واستولى العدو على ماردة بعد ذلك .

وفُتح عليه فى أمور، منها تملُّكه إشْبيلية سنة تسع وعشرين وستماية، وولى عليها أخاه الأمير أبا النجاة سالمًا الملقب بعماد الدولة. وفى سنة إحدى وثلاثين، رَجَعت قرطبة إلى طاعته، واستَوْسَق أمره . وتملّك غرناطة ومالقة عام خمسة وعشرين وستمائة، ودانت له البلاد . وفى العشر الأول من شوال، دخل فى طاعته الريِّسان أبو زكريا، وأبو عبد الله، إبنا الرئيس أبى سلطان [عزيز][4] بن

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» و«الملكية» (ثم نجا) والمؤدى واحد .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وفى «أعمال الأعلام» .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطات الثلاثة (مصابه – مصارفه – مصامه) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٤) الزيادة من «أعمال الأعلام» .

أبى الحجاج بن سعد ،وخرجا عن طاعة الأمير أبى جميل ، وأخذا البيعة لابن هود على ما فى أيديهما . وفى سنة ست وعشرين وستمائة، تملك الجزيرة الخضراء عَنْوة ، يوم الجمعة التاسع لشعبان من العام. وفى العشر الوسط من شوال ورد عليه الخبر ليلا بقصد العدوّ وُجهة مدينة وادى آش. فأسرى ليله مسرجاً[(١)] بقية[(٢)] يومه، ولحق بالعدو على ثمانين ميلا، فأتى على آخرهم، ولم ينج منه أحد .

أخـــوته

الرئيس أبو النجاة سالم، [وعلامته وثِقْتُ بالله][(٣)] ، ولقبُه عماد الدولة، والأمير أبو الحسن عضد الدولة، وأسره العدو فى غارة[(٤)] ، وافتكّه بمال كثير، والأمير أبو إسحاق شرفُ الدولة . وكلهم يُكتَب عنه: من الأمير فلان .

ولـــده

أبو بكر الملقب بالواثق بالله : أخَذَ له البَيْعة على أهل الأندلس ، فى كذا، ووُلِّى بعده ولىّ عهده، واستقلّ بملك مرسية ، ثم لم يَنْشِب أن هلك .

دخوله غرناطة

[دخل غَرْناطة][(٥)] مرّات عديدة، إحداها فى سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وقد وردت عليه الرّاية والتقليد من الخليفة العباسى ببغداد . وبمصلَّى غرناطة، قرىء على الناس كتابه، وهو قايم، وزيّه السّواد ، ورايته السوداء بين يديه ،

---

(١) وردت فى «ج» (مضرجا) والتصويب من «الزيتونة» .

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة (بجاية) وهو تحريف ظاهر . وبالتصويب يستقيم المعنى والسياق .

(٣) هذه العبارة واردة فى «ج» ، وساقطة فى «الزيتونة» .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» و «الملكية» (غزوة) .

(٥) هذه العبارة واردة فى «الزيتونة» و «الملكية» ، وساقطة فى «ج» .

وكان يوم استسقاء ، فلم يستتم على الناس قراءة الكتاب يومئذ ، إلاّ وقد جادت السماء بالمطر ، وكان يوماً مشهوداً ، وصُنْعاً غريباً ، وأمر [بعد انصرافه][١] ، أن يُكتب عنه بتلك الألقاب التي تضمنها الكتاب المذكور إلى البلاد .

وفـــاته

اختلف الناس في سبب وفاته ، فذُكر أنه قد عاهد زَوْجَه ألاّ يتخذ عليها امرأة طول عمره، فلما تصَيّر إليه الأمر ، أعجبته روميّة [حصلت له بسبب السَّبي][٢] من أبناء زعمائهم ، من أجمل الناس ، فستَرها عند ابن الرَّميمي خليفته ، فزعموا أن ابن الرميمي عَلِق بها . ولما ظهر حَمْلُها . خاف افتضاح القصة . فدبَّر عليه الحيلة ، فلما حلّ بظاهر المريَة ، عرض عليه الدخول إليها، فاغتاله ليلاً ، بأن أقعد له أربعة رجال ، قضوا عليه خَنْقاً بالوسايد . ومن الغد ادَّعى أنه مات فجأة ، ووقف عليه العُدُول ، والله أعلم بحقيقة الأمر[٣] سبحانه . وكانت وفاته ليلة الرابع والعشرين من جمادى الآخرة عام خمسة وثلاثين وستماية . وفي إرجاف الناس بولاية ابن هود ، والأمر قبل وقوعه ، يقول الشاعر :

همـــامٌ به زاد الزمان طَلاقة ... ولذّت لنـا فيه الأماني مَوْرِدَا
فقُلْ لبني العباس ها هي دولةٌ ... أغار بها الحـــقُّ المبين وأنجدا
فإن الذي قد جاء في الـكُتْب وصفُه ... بتمهيد هَذِي الأرض قد جاء فاهتدا[٤]
فإن بَشَّرتنـا بابن هُود محمـــد ... فقد أظهر الله ابنَ هودٍ محمـــدا

---

(١) هكذا وردت في «ج» . وفي «الزيتونة» (بعد أن انصرف) .
(٢) هكذا وردت هذه العبارة في «الزيتونة» و «الملكية» . ووردت في «ج» (في سبي الروم)
(٣) هكذا وردت في «ج» . ووردت في الزيتونة والملكية (ذلك) .
(٤) هكذا وردت في «ج» . و «الزيتونة» . وفي« الملكية» (فابتدا) .

محمد بن أحمد بن زيد بن أحمد بن زيد بن الحسن بن أيوب ابن حامد بن زيد بن منخل الغافقى

يكنى أبا بكر من أهل غرناطة . وسكن وادى آش .

أوّليتـــــه

أصل هذا البيت من إشبيلية ، وذكره الرّازى فى الاستيعاب ، فقال ، وبإشبيلية بيتُ زيد الغافقى ، وهم هناك جماعة كبيرة، فرسانٌ ولهم شرف قديم ، وقد تصرفوا فى الخدمة . بلديّون[١]، ثم انتقلوا إلى طُلَيْطلة ، ثم قُرْطبة ، ثم غَرناطة . وذكر الملاّحى فى كتابه[٢] ، الحسن بن أيوب بن حامد بن أيوب [بن زيد][٣]، وعدّه من أهل الشّورى ، وقُضاة الجماعة بغرناطة . وأحمد بن زيد ابن الحسن هو المقْتول يوم قيام بنى خالد ، بدعوة السلطان أبى عبد الله الغالب بالله بن نصر ، وكان عاملَ المتوكل على الله بن هود بها ، وعمّن جُمع له بين الدّين والفضل والماليّة .

حاله ونباهته ومحنته ووفاته

كان هذا الرجل عَيْناً من أعيان الأندلس ، وصدراً من صدورها . نشأ عفًّا

(١) البلديون تطلق على العرب الأوائل، الذين دخلوا الأندلس واستقروا بها قبل قدوم الشاميين مع بلج بن بشر القشيرى أو الطالعة البلجية .

(٢) الملاحى ، هو محمد بن عبد الواحد الغافقى ، وأصله من الملاحة وهى قرية من أعمال إلبيرة . وقد برع فى الأدب والرواية والسير وألف عدة كتب تاريخية ، أشهرها كتابه « تاريخ علماء إلبيرة وأنسابهم وأبنائهم» وهو المشار إليه هنا . وعنه ينقل الكتاب المتأخرون ، ولاسيما ابن الخطيب وقد ذكره ضمن مصادره فى مقدمة «الإحاطة» . وتوفى الملاحى سنة ٦١٩ هـ .

(٣) الزيادة من «الزيتونة» .

مُتَصاوناً عَزُوفاً ، وطِلاوةً[١] نزيهاً [أبيّا كريم الخؤولة][٢] ، طيِّب الطُّعمة ، حُرّ الأصالة ، نبيه القَّهر[٣] . ثم استُعمل فى الوزارة ببلده ، ثم قُدِّم على من به من الفرسان ، فأوْرَدَهم الموارد الصفيَّة بإقدامه ، واستباح من العدُوِّ الفرصة،وأ كسبهم الذكر والشهرة ، وأنفق فى سبيل الله ، إلى غضاضة الإيمان ، وصحة العقد ، وحُسن الشِّيمة ، والاسترسال فى ذكر التواريخ ، والأشعار الجاهليَّة ، والأمثال ،والتمسك بأسباب الدين ، وسَحْب أذيال الطَّهارة ، وهجر الخبايث ، وإيثار الجِدّ ،والانحطاط فى هوى الجماعة .

مشيختـــــه[٤]

قرأ بغرناطة على شيخ الجماعة أبى عبد الله بن الفَخَّار ،وببلده على الأستاذ أبى عبد الله الطُرْسونى ، وبه انتفاعُه .وكان جَهْوَرى الصَّوت ، متفاضلا ، قليل التَّهَيُّب فى الحفل . ولما حدث بالسلطان أبى عبد الله من كِياد دولته ، وتلاحق بوادى آش مُفْلتاً ، قام بأمره ، وضبط البلد على دعوته ، ولمَّ المُداهنة[٥] فى أمره، وجعل حِيَل عدوه دُبُر أذنه ، إلى أن خرج عنها إلى العُدْوة ، فكان زمان طريقه مُفْدياً له بنفسه ، حتى لحق بمَأْمَنه ، فتركها مغربة .

خبر فى وفاته ومَغْرَجه[٦]

وكانت الحمد لله على مَحْمده ، واستأثر [به الدَّاخل][٧] ، فشدَّ عليه يدَ

---

(١) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة» .
(٢) وردت فى «ج» (أبيا كريم الحولة) والتصويب أرجح . وساقطة فى «الزيتونة» «الملكية» .
(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الملكية» وفى «الزيتونة» (الظهر) .
(٤) ساقطة فى «ج» . وواردة فى «الزيتونة» .
(٥) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (المراهنة) .
(٦) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة» .
(٧) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (بالداخل) .

اغتباطه، وأغرى به عقد ضَنانَته، وخلطه بنفسه، ثم أغرى به لمكانته من الشهامة والرياسة، فتُقُبِّض عليه، وعلى ولده، لُباب بنى وقته، وغُرَّة أبناء جنسه، فأودعهما مُطْبِق أرباب الجرايم، وهَمَّ باغتيالهما[1]، ثم نقلهما إلى مدينة المُنَكَّب ليلة المنتصف لمحرم من عام اثنين وستين وسبعمائة فى جُمْلة من النُّبهاء، مأخوذين بمثل تلك الجريرة. ثم صُرف الجميع فى البحر إلى بجاية، فى العشر الأول لربيع الأول مُصَفَّدين. ولما حلّوا بها؛ أقاموا تحت برٍّ وتَجِلَّة؛ ثم ركبوا البحر إلى تونس، فقطع[2] بهم أسطول العدو بأحواز تكَرْنت، ووقعت [بينه و][3] بين المسلمين حرب. فكرُم مقام المترجم يومئذ، وحُسن بلاؤه. قال المُخْبِر، عهدى به، وقد سلَّ سيفاً؛ وهو يضرب العدو ويقول: اللهم اكتُبْها لى شهادة. واستولى العدو على من كان معه من المسلمين، ومنهم ولده؛ وكُتب[4] افتُكَّ الجميع ببلد العنّاب[5]، وانصرف ابنه إلى الحج، وآب لهذا العهد بخلال حميدة كريمة، من سُكون وفضل ودين وحياء، وتلاوة، إلى ما كان يجده من الرّكض ويعانيه من فروسية، فمضى على هذا السبيل من الشهادة. نفعه الله، فى ليلة الجمعة الثامن لرجب من عام اثنين وستين وسبعمائة.

شعره

أنشدنى قاضى الجماعة أبو الحسن بن الحسن [له][6]:

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة (باغتياله). وبالتصويب يستقيم السياق.
(٢) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة.
(٣) أضفنا هذه العبارة ليستقيم السياق.
(٤) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة.
(٥) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية». ووردت فى «ج» (القبلة). والأولى أرجح. والعناب هى ثغر بونة.
(٦) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق.

يأيها المرتجى لُطْفَ خالقــه   وفضلَه فى صلاح الحال والمـال
لو كنتَ توقن حقاً لُطْفَ قُدْرته   فاشْمَخ بأنفك عن قيلٍ وقال
فإن لله لطفا عزَّ خالقنــا   عن أن يُقاس بتَشْبيه وتمثـال
وكل أمْرٍ وإن أعياك ظاهرُه   فالصُّنع فى ذاك لايجرى على بال

محمد بن أحمد بن محمد(١) الأشعرى

من أهل غَرناطة ،يكنى أبا عبد الله . ويعرف بابن المحروق ، الوكيل بالدار السلطانية ،القَهْرمان بها ، المُسْتَوْزر آخر عمره. سداد من عَوْن .

حاله وأوليته وظهوره

كان رحمه الله من أهل العفاف والتَّصاوُن،جانحاً إلى الخير . مُحبًا فى أهل الإصلاح، مغضُوض الطَّرف عن الحُرَم(٢)، عفيفاً عن الدماء، مستمسكاً(٣) بالعدالة، من أهل الخصوصِيَّة ، كتب الشروط ، وبرَّز فى عُدول الحضرة ، وكان له خط حسن ، ومشاركة فى الطلب. وخصوصاً فى الفرايض ،وحظُّه تافه(٤) من الأدب . امتدح الأمراء، فترقى إلى الـكتابة [مرؤوساً مع الجملة](٥) . وعند الإيقاع بالوزير ابن الحـكيم ،تَعَيّن لحصر ما استرفع من مُنْتَهب ماله،وتحصَّل بالدار السلطانية من آثاثه وخُرْثِيِّه(٦) ، لحزم واضطلع بمـا كان داعية ترقيه إلى الوكالة ، فساعده

(١) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (أحمد) .
(٢) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية» ، وفى «الزيتونة» (الحرام) .
(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . ووردت فى «ج» (متمسكا) .
(٤) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .
(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة (مرورسا مع الجملة) ونعتقد أن تصويب الكلمة الأولى يعطى العبارة معنى مناسبا .
(٦) الخرث أى أثاث البيت .

الوقت ، وطَلَع له جاه كبير ، وتملَّك أموالاً عريضة، وأرضاً واسعة(١) ، فجمع الدنيا بحزمه ومثابرته على تَنْمية داخِله. [وترقى](٢) إلى سماء الوزارة فى الدَّولة السادسة من الدول النَّصْرية ، بتدبير شيخ الغُزَاة ، وزعيم الطايفة عثمان بن أبى العلاء، فوصله إلى إدْوار دنياه ، والله قد خبَّأ له المكروه فى المحبوب،وتأذَّن الله سبحانه بنفاد أجله على يده ، فاستولى وحَجَب السلطان . ثم وقعت بينه وبين مُرَشِّحه، الوَحْشَة الشهيرة ،عام سبع وعشرين وسبعمائة ، مارساً(٣) لمكان الفتنة ، صِلَة فارط فى حَجْب السلطان ، وأجلى جُمْهور ما كان ببابه ، ومنع من الدخول إليه . فاضطربت حاله ، وأعمل التدبير عليه ، فهجم عليه بدار الحُرَّة الكبيرة جدَّة السلطان،وكان يعارضها فى الأمور ، ويجعلها [تسكأة لغرضه] (٤) ، فتَيان من أحداث المماليك ، المُسْتبقين مع محجوبه ، تناولاه سَطًّا بالخناجر ، ورمى نفسه فى صِهْريج الدار،وما زالا يتَمَاورانه من كل جانب [حتى فارق الحياة](٥) رحمه الله تعالى .

مشيختـــه

قرأ على الأستاذ أبى جعفر بن الزُّبير،وكانت له فيه فراسة صادقة .

---

(١) وردت بعد هذه الكلمة فى المخطوطات الثلاثة هذه العبارة المضطربة (إلى ضاف طريقتها التى لو كان له) وقد آثرنا الإغضاء عنها .

(٢) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم المعنى والسياق .

(٣) هكذا وردت فى «ج » . ووردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية» (ماوسا) والأولى أرجح .

(٤) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» و «الملكية» .

(٥) أضفنا هذه العبارة ليستقيم السياق .

محمد بن فتح بن على الأنصارى

يكنى أبا بكر [ويشهر بالأشبرون][1]، قاضى الجماعة .

حاله

كان طرفاً فى الدهاء والتخلق والمعرفة بمقاطع الحقوق، ومغامز الريب، وعلل الشهادات، فذاً فى الجزالة، والصرامة، مقداماً[2]، بصيراً بالأمور، حسن السيرة، عذب الفكاهة، ظاهر الحظوة، على الرتبة . خرج من إشبيلية عند تغلب العدو عليها، وولى القضاء بمالقة وبسطة . ثم ولى الحسبة[3] بغرناطة، ثم جمعت له إليها الشرطة . ثم قدم قاضياً، واستمرت ولايته نحواً[4] من ثلاثين سنة .

وفاته

توفى ليلة الحادى عشر من شهر ربيع الأول عام ثمانية وتسعين وستمائة .

محمد بن أحمد بن على بن حسن بن على بن الزيات الكلاعى

ولد الشيخ الخطيب أبى جعفر بن الزيات، من أهل بلش يكنى أبا بكر .

---

(١) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» وفى «الملكية» .

(٢) وردت فى «ج» بعد هذه الكلمة (صارما) . وهى ساقطة فى «الزيتونة» و «الملكية» . وقد أغضينا عنها لأنها تكرار لا محل له .

(٣) وردت فى « الزيتونة » (الخدمة) وفى «ج» و «الملكية» (الجذعة – الخدعة) . ونعتقد أن التصويب أرجح ، وهو يستقيم مع المعنى والسياق .

(٤) هكذا فى «ج» وفى «الملكية» (مدة) .

حالـــه

من « عائد الصلة » من تأليفنا(١) . كان رحمه الله شبيهاً بأبيه، فى هَدْيه، وحُسن سَمْته ووقاره، إلا أنه كان حافظاً للرتبة، مقيماً للأُبَّهة، مُستدعياً بأبيه ونفسه للتجلَّة، بقية من أبناء المشايخ، ظَرفاً وأدباً ومروءة وحشمة، إلى خطٍّ بديع قيد البصر، ورواية عالية، ومشاركة فى فنون، وقراءة، وفِقْه، وعربية. وأدب وفريضة، ومعرفة بالوثاق والأحكام. تولى القضاء ببلده. وخاف أباه على الخطابة والإمامة، فأقام الرَّسم، واستُعمل فى السِّفارة، فسدَّ مسدَّ مِثله. وأقرأ ببلده، فانتُفع به .

مشيختـــه

قرأ على الأستاذ الخطيب أبى محمد بن أبى السَّداد الباهلى، وبغَرناطة، على شيخ الجماعة الأُستاذ [أبى جعفر](٢) بن الزبير . ومن أعلام مشيخته، جَدُّه للأُم خال أبيه، الحكيم العارف أبو جعفر ابن الخطيب [أبى الحسن بن الحسن المَذْحِجى الحمى](٣) ، والخطيب الربَّانى أبو الحسن فضل بن فضيلة، والوزير أبو عبد الله ابن رُشيد .

محمد بن على بن عبد الله بن محمد بن الحاج

يكنى أبا عبد الله، ويُعرف بابن الحاج .

---

(١) «عائد الصلة» هو حسبما بينا فى مقدمة «المجلد الأول» مجموع صغير من التراجم كتبه ابن الخطيب ليكون ذيلا على كتاب «صلة الصلة» لابن الزبير . وجمع فيه طائفة من تراجم الأعلام اللاحقين . وهو يقتبس منه فى كثير من تراجم الإحاطة .

(٢) ساقطة فى «ج» وواردة فى «الزيتونة» .

(٣) هذه الزيادة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة » و «الملكية» .

أوَّليَّتــــه وحاله

[كان أبوه نجَّاراً من مُدَجَّنى مدينة إشْبِيلية][1] من العارفين بالحِيَل الهندسية ، بصيراً باتخاذ الآلات الحربية الجافية ، والعمل بها ، وانتقل إلى مدينة فاس على عهد أبي يوسف المنصور بن عبد الحق ، واتخذ له الدُّولاب ، المنفسح القُطر [البعيد المدى][2] ، مُليّن المركز والمحيط ، المتعدِّد الأكواب ، الخفىّ الحركة ، حسبما هو اليوم ماثل[3] بالبلد الجديد ، دارِ الملك بمدينة فاس ، أحد الآثار التى تحدو إلى مشاهدتها الرُّكاب ، وبناء دار الصَّنعة بسلا . وانتقل بعد مهلك أبيه إلى باب السلطان ثانى الملوك من بنى نصر ، ومتّ إليه بوسيلة ؛ أدْنَت محلَّه ، وأسْنَت جراياته ، إلى أن تولى وزارة ولده أمير المسلمين ، أبي الجيوش نصر ، واضطلع بتدبيره ؛ ونقم الناس عليه إيثاره لمقالات الرُّوم ، وانحطاطَه فى مَهْوى[4] لهم ، والتشبُّه بهم فى الأكل والحديث ، وكثير من الأحوال والهيئات والاستحسان ؛ وتَطْريز المجالس بأمثالهم وحِكَمهم ، سِمَةٌ وسمت منه عقلاً ، لنشأته بين ظَهْرانيهم ، وسبقت إلى قوى عقله المكتسب فى بيوتهم ، فلم تفارقه بحال ، وإن كان آية فى الدهاء ، والنظر فى رجُلٍ بعيد الغور ، عميق الفكر ، قايم على الدِّمْنَة ، مُنْطوٍ على الرَّضْف ، لين الجانب ، مبذول البشر[5] ، وحيد زمانه فى المعرفة بلسان الروم

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» وساقط فى «الملكية» . وورد مكانه فى الزيتونة الجملة الآتية (كان جده من مدينة إشبيليه) . وما ورد فى «ج» أدق وأرجح ، يؤيد ما ورد بعد من وصف الأب بالمعرفة بالحيل الهندسية . والمدجنون فى تاريخ الأندلس كما سبق هم المسلمون الذين بقوا فى القواعد الأندلسية المغلوبة تحت حكم النصارى . وبالإسبانية Mudejares

(٢) هكذا وردت فى «ج» ووردت فى «الملكية» (البعيد المدار المحيط) .

(٣) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (مؤثل) .

(٤) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية» (قهرى) . وفى «الزيتونة» (مهم) .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» و «الزيتونة» (البشرة) .

وسيرهم ، مُحْكم الأوضاع [فى] أدب الخـــدمة ، ذَرِب(١) بالتصرف فى أبواب الملوك .

وكان من ثورة العامة بسلطانه ما تقدم ، وجَهرُوا بإسلامه إليهم ، وقد ولوه بسبب الثورة ، وطوّقوه كياد الأزمة ، فضَنّ به السلطان ضَنانة ، أعْرَبَت عن وفايه ، وصان مُهْجتة. واستمر الأمر إلى أن خُلع الملك عن الملك . وكان نْزول [الوزير(٢) المذكور تحت خفارة شيخ الغزّاة، وكبير الطايفة ، عثمان بن أبى العلى ، فانتقل محفوظ الجملة ، محُوط الوفر ، ولم يَنْشِب إلى أن لجأ إلى العُدْوة ، واتصل بالأمير أبى على عمر بن السلطان الـكبير أبى سعيد ، فحرّكه ، زعموا ، على مُحادّة أبيه ، وحمله على الانْـتِزاء ، فـكان ما هو معلوم من دُعايه إلى نفسه ، ومنازعة أبيه](٣) ، ولقايه إياه بالمُقَرمِدة(٤) وفُلّ جيشه ، وفى أثنايه هلك المترجم به .

وفاتـه

توفى بفاس الجديد فى العشر الأول من شعبان عام أربع عشرة وسبعماية .

محمد بن رضوان بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أرقم [النّميرى](٥)
من أهل وادى آش ، يكنى أبا يحيى .

حالـه

كان صَدْرًا شهيرا ، عالما علَما ، حَسِيبا ، أصيلا ، جَمّ التحصيل ، قوى

(١) وردت فى «ج» (دربا) . وبالتصويب من «الملكية» .
(٢) واردة فى «ج» وفى «الملكية» . وساقطة فى «الزيتونة» .
(٣) هذه الفقرة الطويلة المحصورة بين الحاصرتين كلها ساقطة فى «الزيتونة» .
(٤) المقرمدة هى بلدة صغيرة تقع على مقربة من جنوب شرق فاس .
(٥) هذه الزيادة واردة فى «الملكية» .

الإدراك ، مضطلعاً بالعربية واللغة ، إماما فى ذلك ، مشاركاً فى علوم من حساب وهيئة وهندسة . قال الشيخ ، كان فى هذا كله أبرعَ من لقيته ، إلى سَرَاوة وفضل وتواضع ودين ، جارياً فى ذلك على سُنن سلفه ، وعلو مَحْتِده . جالسته ، رحمه الله ، كثيراً عند [عِلْية][1] من أدركته بغرناطة ، لإقامته بها [وتكرر لقائى إياه بها][2] وبغيرها ، فرأيت أصيلا جليلا ، قد جمع علما وفضلا ، وحُسْن خلق ، وكان حَسِن التقييد ، لخطِّه رونق يمتاز به ، ويبعد عن غيره ، وُلِّى القضاء ببلده ، ثم ولى بعد مدة بِبُرْشانة[3] فحُمدت سيرته .

مشيخته

أخذ القراءات السبع عن أبي كرم جودى بن عبد الرحمن ، وقرأ عليه الغريب[4] واللغة ، ولازمه فى ذلك ، وأجاز له [إجازة][5] عامة ، وأخذ من غيره ببلده ، وصحب بغَرناطة جُملة[6] من العلماء بها ، أيام اختلافه إليها ، وإقامته بها .

تواليفه

ألف كتابا سماه « الاحتفال فى استيفاء ما للخَيْل من الأحوال » ، وهو كتاب ضخم وقَفْتُ عليه من قبله وأفَدْتُه . واختصر الغريب المُصَنَّف . وله تقاييد

---

(١) ساقطة فى «الزيتونة» و«الملكية» .

(٢) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية» (وتقرر لقائى إياه بها) .

(٣) برشانة وبالإسبانية Purchena بلدة أندلسية تقع على نهر المنصورة غربى مدينة المنصورة وشمالى ثغر المرية .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٥) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٦) هكذا فى المخطوطات الثلاثة . وقد تكون (جلة) .

منثور ومنظوم فى علم النجوم، ورسالة فى الإسْطُرْلاب الخطى والعمل به ، وشجرة فى أنساب العرب .

وفاتــه

توفى ليلة السبت السابع عشر لشهر ربيع الآخر عام سبع وخمسين وسبعماية ،

محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد [بن إبراهيم بن محمد][١] بن خلف بن محمد بن سليمان بن سوار بن أحمد بن حزب الله بن عامر بن سعد الخير[٢] بن عيَّاش

المكنى بأبى عَيْشون بن حُمُّود ، الداخل إلى الأندلس صحبة موسى بن نصير ، ابن عَنْبَسة بن حارثة بن العباس بن المرداس ، يكنى أبا البركات ، بلفيقى[٣] الأصل ، مَرْوِى[٤] النشأة والولادة والسلف ، يعرف بابن الحاج ، وشهُرَ الآن فى غير بلده بالبِلفيقى ، وفى بلده بالمعرفة القديمة .

أوليتــه

قد تقدم اتصال نسبه بحارثة بن العباس بن مِرْداس ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحد خطبايه وشعرايه ، رييس فى الإسلام ، ورييس فى الجاهليه . وكان لسلفه ، وخصوصاً لإبراهيم من الشهرة بولاية الله ، وإيجاب الحقِّ من خُلُقه

(١) الزيادة بين الحاصرتين من «الزيتونة» .

(٢) فى «الزيتونة» (سعد) فقط .

(٣) بلفيقى نسبة إلى بلفيق Belfiq وهى بلدة من بلاد ولاية ألمرية ، تقع جنوبى برشانة على مقربة من نهر المنصورة وشمالى ثغر ألمرية .

(٤) مروى هنا نسبة إلى «ألمرية» .

ما هو مشهور ، حسبما تنطق به الفهارس ، يعضد هذا المجد من جهة الأمومة ، كأبي بكر بن صُهيب ، وابن عمه أبي إسحاق ، وغيرهم ، الكثير ممن صنّف في رجال الأندلس ، كأبي عبد المجيد المالقي ، وابن الأبار ، وابن طلحة ، وابن فُرتُون ، وابن صاحب الصلاة ، وابن الزُّبير ، وابن عبد الملك ، فلينظر هناك .

حاله

نشأة ببلده ألمَرِيّة عمود[١] العفة ، فضفاض جِلْباب الصيّانة ، غَضيض طرف الحياء ، نائي جَنبَ السَّلام ، حليف الانقباض والازْوِرار ، آوياً إلى خالص النَّشَب وبحْت[٢] الطُّعمة ، لا يُرى إلا في منزل من سأله ، وفي حَلَق الأسانيد ، أو في مسجد من المساجد خارج المدينة المعدّة للتعبُّد . لا يجيء سوقاً ، ولا مجمعا ، ولا وليمة ، ولا مجلس حاكم [أو وال][٣] ، ولا يلابس أمراً من الأمور ، التي جرت عادته أن يلابسها بوجه من الوجوه . ثم ترامى إلى رحلة[٤] ، فجاس خلال القطر الغربي إلى بجاية . نافضاً إياه من العلماء والصلحاء والأدباء والآثار بتقييده ، وأخذه قيام ذكر ، وإغفال شهرة . ثم صرف عِنانه إلى الأندلس ، فتصرف في الإقراء والقضاء ، والخطابة . وهو الآن نسيجُ وحْدِه في أصالة عريقة ، وسجيّة على السلامة مفطورة [فما شئت من صدر سليم ، وعقْدٍ وثيق ، وغُور قريب ، ونُصح مَبْذول ، وتصنّعٍ مرفوض][٥] ونفس ساذجة ، وباطن مساو للظاهر ،

---

(١) هكذا في المخطوطات الثلاثة .

(٢) هكذا وردت في «ج» . ووردت في «الزيتونة» و «الملكية» (وتحت) وهو تحريف .

(٣) هذه الزيادة من «الملكية» .

(٤) وردت في «ج» (حلة) والتصويب من «الزيتونة» و «الملكية» .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد في «ج» و «الملكية» . وساقط في «الزيتونة» .

ودمعة سريعة ، وهزل يُثْمر تجلّة . وانبساطٍ يفيد حُسْن نيّة ، إلى حُسْن العهد ، وفضل المشاركة ، ورقّة الحاشية ، وصلابة العود ، وصدق المزيعة ، وقوة الحامية ، وبلاغة الموعظة ، وجلّة الوقت . وفايدة العصر ، تفنناً وإمتاعاً ، فارس المنابر غير الهَيَّابة ، ولا الجَزُوع ، طيِّب النَّغْمة بالقرآن ، مُجْهِشاً فى مجال الرِّقة ، كثير الشفقة لصالح العامة ، متأسفاً لضياع الأوقات ، [مُدْمعا على الفيئة](١) ، مُجِمًّا ، مُحَوَّلا فى رياسة الدين والدنيا . هذا ما يُسامح فيه الإيجاز ، ويتَجافى عنه الاختصار ، ويكفى فيه الإلماع والإشارة ، أبقى الله شيخنا أبا البركات .

مشيخته . ولايته

تقدم قاضياً بقَنَالش(٢) ، فى جمادى الثانية عام خمسة عشر وسبع مايةْ(٣) ثم وُلّىَ مَرْبَلّة ، وإسْتِبُونة(٤) ثم كانت رحلته(٥) إلى بجاية . ثم عاد فقعد بمجلس الإقراء من مالقة للكلام على صحيح مُسْلم ، مُتَّفقا على اضطّلاعه بذلك . ثم رحل إلى فاس . ثم آب إلى الأندلس ، واستقر ببلده ألَمرية ، فقعد بمسجدها الجامع للإقراء [ثم قُدِّم قاضياً ببَرْجة ودَلاّية ، والبِنيُول(٦) وفِنْيانَة(٧) ، ثم نقل

(١) هذه العبارة واردة فى «ج» ، وساقطة فى «الزيتونة» و «الملكية» .

(٢) قنالش من بلاد وادى المنصورة فى شمال ولاية ألمرية، وتقع على مقربة من بلفيق بلد ابن الحاج .

(٣) هكذا فى «ج» وفى «الزيتونة» (خمسة وسبعماية) .

(٤) وردت فى المخطوطات الثلاثة (مرية) وهو تحريف . ومربلة وبالإسبانية Marbella هى ثغر أندلسى صغير يقع على البحر المتوسط جنوب غربى مالقة . وإستبونة أو إشتبونة تقع بعدها على الشاطىء وقد سبق التعريف بها .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (ولايته ورحلته) .

(٦) برجة Berja من بلاد ولاية ألمرية وتقع غربى ثغر المرية . ودلاية Dalias تقع جنوب شرقى برجة . والبينول Albinol من بلاد ولاية مالقة ، وتقع غربى النهر الأحمر وشمال شرقى متريل .

(٧) فنيانة هى بلدة صغيرة من بلاد ولاية ألمرية تقع جنوب شرقى وادى آش .

عنها إلى بيرة(١) ، ثم غربى ألمرية](٢) . ثم قُدِّم قاضياً بمالقة ، ثم قُدِّم بغربها مضافاً إلى الخطابة ، ثم أعيد إلى قضاء ألمرية ، بعد وفاة القاضى أبى محمد بن الصايغ. ومن كتاب «طُرْفة العصر»(٣) من تأليفنا فى خبر ولايته ما نصه :

فتقلد الحكم فى الثالث والعشرين لشعبان من عام سبع وأربعين وسبعمائة ثالث يوم وصوله مُسْتَدْعَى ، وانتابه(٤) الطَّلبة ، ووجوهُ الحضرة والدولة ، مهنئين بمثواه من دار الصيانة ، ومحل التَّجلّة ، إحدى دور الملوك بالحمراء . فطَفِقوا يَغْشُونه [بها](٥) زَرَافات ووُحداناً ، فى إتاحة الخير ، وإلهام السَّداد ، وتسَوْيغ الموهبة. وكان وصوله ، والأفق قد اغْبَرَّ ، والأرض قد اقشَعَرَّت لانصرام حظٍّ من أيام الشتاء الموافق لشهر ولايته ، لم يَسِح فيه الغمام بقطرة ، ولا لمعت السماء بنزعة . حتى أضرَّت(٦) الأنفس الشح ، وحَسَر العُسر عن ساقه ، وتوقفت البُذور ، فساعده الجَدُّ بنزول الرَّحمة عند نزوله من مِرْقاة المنبر ، مُجابة دعوة استسقايه ، ظاهرةً بَرَكة خشوعه ، ولذلك ما أنشدته فى تلك الحال :

ظمِئَتْ إلى السُّقيا الأباطح والرُّبا　　حتى دعونا العام عاما مجدباً
والغيث مسدول الحجاب وإنما　　علِمَ الغمامُ قدومَكم فتأدَّبا

وتولى النظر فى الأحكام فأجال قداحها ، مضطَّلعا بأصالة النظر ، وإرجاء المُشْتَبِهات ، وسلك فى الخطابة طريقةً مُثْلى ، يفرغ فى قوالب البيان أغراضها ،

---

(١) بيره بلدة صغيرة تقع شمال شرقى المرية على مقربة من مصب نهر المنصورة .

(٢) ما بين الخاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٣) قد تم التعريف به فى مقدمة المجلد الأول . وعنوانه الكامل «طرفة العصر فى تاريخ دولة بنى نصر» . ولم تصلنا منه أية نسخة مخطوطة .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (وانتبه) و «الملكية» (وانتباه) وهو تحريف .

(٥) هذه الزيادة من «الملكية» .

(٦) هكذا فى المخطوطات الثلاثة .

ويَصْرف على الأحكام السكواين والبساطات أساليبها، من المحاكاة(١)، باختلاف القبض والبَسْط، والوعد والوعيد. حظوظها على مُتَّبض العدل، وسبب الصواب يقوم على كثير(٢) مما يَصْدع به، من ذلك شاهدُ البديهة. ودليلُ الاستيعاب. قال شيخنا أبو البركات: ثم صُرِفت عنها للسبب المتقدم، وبقيتُ مقيما بها، لما اشتهر من وقوع الوباء بالمرِيَّة، ثم أعدت إلى القضاء والخطابة بالمرية، وكتب بذلك فى أوايل رجب عام تسعة(٣) وأربعين. وبقيت على ذلك إلى أن صُرِفت بسبب ما ذكر. ثم أعدت اليها فى أواخر رجب سنة ست وخمسين، عسى أن يكون الانقطاع لله سبحانه. فأنا الآن أتمثل بما قاله، أبو مُطَرِّف(٤) بن عَميرة رحمه الله:

قد نُسبنا إلى الكتابة يوماً(٥) [ثم جاءت](٦) خُطَّة القضاء تليها
وبكلٍّ لم نُطق للمجد إلاَّ(٧) منزلاً نابياً وعيشاً كريها
نِسْبَةٌ بُدِّلت فلم تتغير مِثْلُ ما يزعم المهندس فيها

بَدَّل من لفظ الكتابة إلى الخطَابة. وأغرب ما رأيت ما أحكى لك، وأنت أعلم ببعض ذلك، أن أفضل ما صَدَر عنى فى ذلك، الخطة من العمل الذى أخلصتُ لله فيه، ورجوت منه المَثوبة عليه، وفيه مع ذلك مفتَخر

(١) هكذا فى «ج» و «الملكية». وفى «الزيتونة» (المحاكمات).
(٢) هكذا وردت فى «الملكية» وفى «الزيتونة». وفى «ج» (الكثير).
(٣) هكذا فى «ج». وفى «الملكية» و «الزيتونة» (سبعة).
(٤) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة. وهى ترسم عادة (أبو المطرف).
(٥) وردت هذه الشطرة فى ترجمة ابن عميرة فى المجلد الأول من الإحاطة (ص ١٧٧) كالآتى: (قد عكفنا على الكتابة حينا).
(٦) هكذا فى «الزيتونة». وفى «ج» (واتصلت).
(٧) وردت هذه الشطرة فى ترجمة ابن عميرة كالآتى (وبكل لم يبق للجهد إلا) (المجلد الأول ص ١٧٧).

لمن أراد أن يفتخر [غير](1) مُلْتَفِت للدنيا ، فعليه عوّلت سبحانه . انتهى كلامه .

تصانيفه

كتب إلىّ بخطّه [ما نصه] : وهو فصل من فصول : وأما تواليفى فأكثرها، أو كلها غير مُتَمَّمة ، فى مُبَيَّضات . منها كتاب « قد يَكْبُو الجواد فى أربعين غلطة [عن أربعين من النقّاد » وهو نوع من تَصْحيف الحُفّاظ للدّارقُطْنى ، منها سَلْوةُ الخاطر](2)(3) فيما أُشكل من نِسْبة النَّسب الرُّتب إلى الذّاكر». ومنها كتاب «قَدْرُ جَمْ فى نظم الجمل » . ومنها كتاب «خطر فَبَطَر ، ونَظَر فَحَظَر» على تنبيهات على وثائق ابن فَتُّوح» . ومنها كتاب «الإفصاح فيمن عُرِف بالأندلس بالصلاح» . ومنها «حركة الدُّخولية فى المسألة المالقية» . ومنها خَطْرة المجلس فى كلمة وقعت فى شعر استنصر به أهلُ الأندلس » جزء صغير . ومنها « تاريخ المَرِيَّة » غير تام . ومنها ديوان شعره المسمى « بالعَذْب والأُجاج فى شعر أبى البركات ابن الحاج » . ومختصرة سمّاه القاضى الشريف « اللؤلؤ والمُرْجان اللذان من العذب والأُجاج يُسْتَخرجان»(4) . ومنها «عرايس بنات الخواطر المجلُوّة على مِنَصّات المنابر» يحتوى على فصول الخطب التى أنشئت بطول بنى والخطابة . ومنها « المُؤْتَمَن على أنباء أبناء الزمن »(5) . ومنها تأليف [فى](6) أسماء الكتب ، والتّعريف بمؤلفيها ،

---

(١) الزيادة من «الملكية» .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى «الملكية» وفى «الزيتونة» . وساقط فى «ج» .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» و «الملكية» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٤) هذا العنوان هو كما ورد فى «ج» وفى «الزيتونة» . ولكن المقرى يورده لنا فى «نفح الطيب» كالآتى : (اللؤلؤ والمرجان من بحر أبى البركات الحاج يستخرجان» .

(٥) ورد هذا العنوان فى «الملكية» كالآتى : (المستومان على أبناء الزمان) .

(٦) الزيادة من «الزيتونة» .

على حروف المعجم . ومنها « ما اتفق لأبى البركات فيما يُشبه الكرامات » ومنها كتاب « ما رأيتُ وما رُءِى لى من المقامات » . ومنها كتاب «المرجع بالدَّرك على من أنكر وقوع المشترك» ومنها «مُشَبَّهات اصطلاح العلوم» . ومنها « ما كثر وروده فى مجلس القضاء »[١] . ومنها « الغَلَسِيَّات » ، وهو ما صدر عنى من الكلام على صحيح مُسْلم أيام التكلُّم عليه فى التَّغْليس . ومنها «الفصول والأبواب ، فى ذكر من أخذ عنى من الشيوخ والأتباع والأصحاب » .

ثم قال ، وقد ذهب شَرْخُ الشباب ونشاطُه ، وتقطَّعت أوصاله ، ورَحل رِباطه ، وأصبحت النفس تنظر لهذا كله بعين الإمهال والإغفال ، وقلَّة المبالاة التى لا يصل أحد بها إلى مَنال . وهذه الأعمال لا يُنشِّط [إليها إلا][٢] الحَرَكات التى هى مفقودة عندى ، أحدها طلبةٌ مجتمعون متعطِّشون إلى ما عندى ، متشوِّفون غاية التشوُّف ، وأين هذه بالمرية . الثانى ، طلبُ رياسة على هذا ، ومتى يرأس أحد بهذا اليوم ، وعلى تقدير أن يرأس به وهو محالٌ فى عادة هذا الوقت ، فالتشوُّف لهذه الرياسة مفقود عندى . الثالث ، سلطانٌ يملأ يد من يُظهر مثل هذا ، على يده غبطة ، وما تم هذا . الرابع ، نيَّةٌ خالصة لوجه الله تعالى فى الإفادة . وهذا أيضاً مفقود عندى ، ولابد من الإنصاف . الخامس ، قَصْدُ بقاء الذِّكر . وهذا خيال ضعيف بعيد[٣] عنى . السادس ، الشفقة على شىء ابتدى ، [وسعى فى][٤] تحصيل مباديه ، أن يضيع على قَطْعِ ما سوى هذا الإشفاق ، وهذا السادس ، هو الذى فى نفسى منه شىء ، وبه أنا أقيد أسماء من لَقِيت ، وما أخذتُ ، ويكون إن شاء الله

---

(١) هذا العنوان وارد فقط فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» و «الملكية» .

(٢) أضفنا هاتين الكلمتين ليستقيم السياق . ووردت مكانهما فى المخطوطات الثلاثة (الى) وهى لا تكفى لربط المعنى .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (بعد) . والتصويب أرجح .

(٤) وردت فى «ج» (ونغوبى) وفى «الزيتونة» (ونعى فى) . وبالتصويب يستقيم السياق .

إبرازٌ [إذا](١) الصُّحف نُشرت . وأكثر زمانى يذهب فى كيفية الخروج عما أنا فيه ، فإذا يَنْظُر إلىَّ العاقل فى هذا الوقت بعين البصيرة ، لا يسعه إلا الشفقة علىَّ ، والرَّحمة لى ، فإنه يرى رَجُلا مُطْرِقاً أكثر نهاره ، ينظر إلى مآله ، فلا ينشطُ إلى إصلاحه ، وهو سابع(٢) ولا يَلْبس بالعبادة ، وهو فى زمانها المُقارب للفَوْت ، ولا ينهضُ إلى إقامة حق كما ينبغى لعدم المُعين ، ولا يجْنَح إلى شيء من راحات الدنيا ، ويشاهدُ من علوم الباطل(٣) الذى لا طاقة له على رَفْعه ما يُضَيِّق صدر الحرِّ [يقضى](٤) نصف النهار ، مُحْتلا(٥) فى مكان غير حَسَن ، تارةً يُفكر ، وتارةً يكتُب ما هو على يقين منه أنه كذا لا يُنْتَفَع به ، ونِصْفَ النهار يقعد للناس ، تارةً يرى ما يكره ، وتارة يسمع ما يكره ، لا صديق يُذَكِّره بأمر الآخرة ، ولا صديق يُسْليه بأمر الدنيا ، يكفينى من هذه الغزارة(٦) . اللهم إليك المشتكى يا من بيده الخلق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

شعـــره

من مُطَوَّلاته فى النزعة الغربية [التى](٧) انفرد بها ، منقولا من ديوانه . قال ، ومما نظمته بِسَبْتة فى ذى الحجة من عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، فى وصف حالى ، وأخَذَها عنّى الأستاذ بسبتة ، أبو عبد الله بن هانى ، والأديب البارع أبو القاسم الحسينى ، وأبو القاسم بن حزب الله ، وسواهم . ولما انفصلت من

---

(١) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم المعنى والسياق .
(٢) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وربما كانت هنا للترقيم ، أى سابع الأمور .
(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .
(٤) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .
(٥) وردت (محتل) فى المخطوطات الثلاثة . فلزم التصويب .
(٦) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة وربما كانت (القذارة) .
(٧) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

سبتة إلى بلاد الريف[١] زدْت عليها إبياتا فى أولها، وكثر ذلك بوادى لو[٢] من بلاد الريف وهى :

تأسفتُ لا كن حين عزَّ التأسُّف ... وكفكفتُ دمْعاً حين لا عينَ تذرفُ
ورام سكوناً وهو فى رِجْل طاير ... ونادى بأُنْسٍ والمنازل تعنف
أراقب قلبى مرَّةً بعد مرة ... فألفيه ذيَّاك الذى أنا أعْرِفُ
سقيمٌ ولا كن لا يحُسُّ بدايه ... سوى مَنْ له فى مأزق الموت مَوْقف
وجاذب[٣] قَلْباً ليس يأوى لمَألَفٍ ... وعالج نَفْساً داؤُها يتضاعف
وأعْجَبُ ما فيه استواء صفاته ... إذ الهَمُّ يُشْقيه أو السرُّ يَنْزِف[٤]
إذا حَلَّت الضَّرَّاء لم ينفعل لها ... وإن حلَّت السَّرّاء لم يتَكَيَّف
مذاهبُه لم تبْدُ غاية أمْرِه ... فؤادٌ لعمرى لا يُرى منه أطْرُفُ
فما أنا من قوم قُصارى هُمُومهم ... بنُوهم وأهلُهم وثوْبٌ وأرْغُفُ
ولا لىَ بالإسراف فكرٌ محدثٌ ... سيغدو حَبِيبى أو سيَشْمُر مُطْرف
ولا أنا مِمَّن لَهْوُه جلَّ شأنُه ... بروضٍ أنيق أو غزال مُهَفْهف
ولا أنا مِمَّن أنْسُه غايةَ المُنَى ... بصوتٍ رخيمٍ أو نديم وقرْقَف
ولا أنا مِمَّن تَزْدَهيه مصانعٌ ... ويُسْبيه بُستان ويُلهيه مُخَرَّف
ولا أنا ممن همُّه جمْعَها فإن ... تراءت يَثِبُ[٥] بسَعْىٍ لها وهو مُرْجِف
على أنْ دهرى لم تَدَع لى صُروفه ... من المال إلا مَسْحة أو مجلف

(١) بلاد الريف هى المنطقة التى تقع بالمغرب الأقصى جنوبى الطرف الأخير من البحر المتوسط قبل امتداده شمالا إلى ثغر سبتة ، وتسكنها قبائل غمارة .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» و «الملكية» (وادى آش) وهو تحريف اضح لأن وادى آش من مدن الأندلس .

(٣) فى «الزيتونة» (وجاوب) .

(٤) وردت فى «ج» يترف . والتصويب من «الملكية» .

(٥) وردت فى «ج» (ثبت) . والتصويب من «الملكية» .

ولا أنا ممن هــــذه الدار همه ... وقد غرَّه منها جمالٌ وزُخْـــرف
ولا أنا ممن للسُّـــؤال قد انْبَرَى ... ولا أنا ممن صان عنه التَّعَطف
ولا أنا ممن نجَّح الله سَعْيهـــم ... فهمَّتهم فيهـــا مُصَـــلًّى ومُصْحف
فلا فى هَوًى أضحى إلى اللهـــو قايداً ... ولا فى تُقًى أمْسَى إلى الله يزْلِف
أحارب دهرى فى نقيض طبـاعه ... وحَرْبُك من يقضى عليك تَعَجْرف
وأنظره شَزْراً بأصْلَف ناظـــر ... فيعرِض عنِّي وهو أزْهى وأصْلَفُ
وأضُبطه ضَبْط المحدِّث صُحْفـــه ... فيخرج فى التَّوْقيع أنت المُصْحِفُ
ويأخذ منى كلَّ ماعزَّ نيـــلُهُ ... ويبدو بجهلى منه فى الأخذ مُحْنف(١)
أدور له فى كل وَجْه لعلَّـــنى ... سأُثْبته وهو الذى ظَلَّ يحـــذف
ولمـــا يئسنا منـــه تَهنّا ضرورة ... فلم تَبْقَ لى فيها عليه(٢) تشوُّف
تـكلَّفتُ قطع الأرض أطلب سَلْوَةً ... لنفسى فما أجـــدى بتلك التكلُّف
وخاطرتُ بالنفس العـــزيزة مُقْدماً ... إذا ما تخطَّى النَّصْلُ قصد مُرْهف
وصرَّفت نفسى فى شـــئون كثيرة ... لحظِّى فلم يظفر بذاك التَّصرُّف
وخُضت لأنواع المعـــارف أبْحُراً ... ففى الحين ما استجرتُها وهى تَـتْرَف(٣)
ولم أحُلْ من تلك المعـــانى بطايل ... وإن كان أهـــلوها أطالوا وأسْرَفوا
وقد مرَّ من عمـــرى الألذ وها أنا ... على مامضى من عَهْـــده أتلهَّف
وإنى على ما قد بَقِى منه إن بقى ... لحرمةِ ما قد ضاع لى أتخوُّف
أعُدّ ليالى العمر والفرض صَوْمها(٤) ... وحسْبُك من فَرْض المُحال تعسُّف

---

(١) هكذا فى «الملكية». وفى «ج» (بحتف) . وفى «الزيتونة» (مختف) والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» و «الملكية» (عليها) .

(٣) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة» . وفى «الملكية» (تنزف) .

(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «الملكية» و «ج» (طولها) .

على أنها إن سلمت جَدَلِيَّـــةٌ(١) تعارض آمالاً عليهـــا يُنيِّف(٢)
تُحدثنى الآمال وهى كَذِيبهـــا(٣) تُبدِّل فى تحديثهـــا وتُحـــرِّف
بأنِّىَ فى الدُّنيـــا سأقضى مآربى وبعدُ يجئ الزهـــدُ لى والتقشُّف
وتلك أمانٍ [لا حقيقة](٤) عندها أفى قَرْنى الضِّـــدَّين يبقى التكلُّف
وربَّ أخِلَّاء(٥) شكوتُ إليهـــم ولـكن لفهم الحـــال إذ ذاك لم يَفُ
فبعضهـــم يُزرى علىَّ وبعضهـــم يغضُّ وبعضٌ يُرثى ثم يَصْـــدِف
وبعضهـــم يومى إلىَّ تعجُّباً وبعضٌ بما قد رأيته(٦) يتـــوقف
[وبعضهـــم يُلقى جوابه على مُقْتَضى العقل الذى عنه يتوقَّف](٧)
يسىء استماعاً ثم يعُـــدُّ إجابة على غير ماتحذوه يحنو ويخصف
[ولا هو يبدى لى علىَّ تعقُّلا](٨) ولا هو يُرثى لى ولا هـــو يَعْنِفُ
وما أمْـــرُنا إلا ســـواء وإنما عرفنـــا وكلٌّ منهم ليس يعرف
فلو قد فرَغنـــا من علاج نفوسنـــا [وحطُّوا الدنيَّة من عليل وأنْصَفُ](٩)
أما لهم من عـــلَّة أزمَت بهـــم ولم يعرفـــوا أغوارها وهى تَتْلَف
وخُضنا لهم فى الكُتب(١٠) عن كُنْه أمرهم ومثلى عن تلك الحقائق يكشِفُ

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة». وفى «ج» و «الملكية» (جد ليلة).
(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية». وفى «ج» (تنيف).
(٣) وردت فى «ج» و «الملكية» (كرينها).
(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية». وفى «ج» (حقيقة).
(٥) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (الخلا). والتصويب من «الملكية».
(٦) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة. وربما كانت (رأيه).
(٧) هذا البيت وارد فى «ج» و «الزيتونة» ساقط فى الملكية.
(٨) هكذا وردت هذه الشطرة فى «الملكية». ووردت فى «ج» و «الزيتونة» (فلا هو يبدى من تعقل على).
(٩) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطات الثلاثة مع تحريفات يسيرة فى كل منها..
(١٠) هكذا وردت فى «ج» و «الملكية». وفى «الزيتونة» (الكتاب).

وصنَّفْتُ فى الآفات كلَّ غريبــة ... فجــاء كما يهْوى الغريبُ المُصَنِّف
وليس عجيباً من تركُّب جهلهـم ... فإن يحْجبوا عن مثل ذاك وصرَّفُ (١)
إذا جاءنا بالسُّخف من نَزْو عقله ... إذا ما مَثَلْناه أزْهَى وأسْخَف
فمــا جاءنا إلا بأمــرٍ مناسب ... أينهض عن كفٍّ الجبــان المثقَّف
ولا كن عجيبُ الأمر على وغفلتى ... فديتكم أىُّ المحاسن(٢) أكشف
إلا أنها الأقدار يظهــرُ سُّرها ... إذا ما وقى المقدور فالرأى يخلف
أيا ربِّ إن اللُّب طاش بمــا جرى ... به قلمُ الأقــدار والقلبُ يرْجُف
وإنّا لندعوهم ونخشى وإنمــا ... على رسْمِك الشرعى من لك يعكُف
أقول وفى أثنــاء ما أنا قايلٌ ... رأيتُ المنــايا وهى لى تتخطَّف
وإنى مع السَّاعات كيف تقلّبت ... لأسْهمِها إن فوَّقت مُتهدَّف
وما جرَّ ذا التَّسويف إلاّ شَبيبتى ... تُخيِّل لى طولَ المــدى فأسوِّف
إذا جاء يومٌ قلتُ هــو الذى يلى ... ووقتُك فى الدنيا جليسٌ مُخفَّف
أقدِّم رِجْلاً عنــد تأخير أختها ... إذا لاح شمسٌ فالنَّفس تَكْسف
[كأنِّى لدانى المراقد منهــم](٣) ... ولم أودعهم والخضُّ ريّان يَنْسِف
وهَبْنى أعيش هل إذا شاب مَفْرِق ... وولّى شبابى هل يُباح التشوُّف
وكيف ويستدْعى الطريق رياضةً ... وتلك على عصر الشَّباب تُوظَّف
متى يقبــل التَّقويم غير عطوفة ... وبى بعدُ حِبًّا فالنَّــار تَنْسِف
ولو لم يكن إلاّ ظُهورة(٤) سره ... إذا ما دنا التَّدليس هان التنطُّف

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٢) هكذا فى «ج» و «الزيتونة» . وفى «الملكية» (الحجابين) .

(٣) هكذا وردت فى «الملكية» «الزيتونة» . وردت فى «الملكية» (كان لذاتى لمراقد منهم) وهذا لا يستقيم مع الوزن .

(٤) هكذا وردت فى «الملكية» . وردت فى «ج» (ظهره) .

أمَوْلى الأسارى أنت أوْلى بعـذرهم | وأنت على الملوك أحقُّ وأعْطف
قَذَفْنا بلجّ البحر والقيـدُ آخذٌ | بأرْجُلنا والرِّيح بالمـوج تعصف
وفى السكَوْن من سرّ الوجود عجايب | أطلَّ عليها العارفـون وأشْرَفُ
وَكَعت(١) عليهم نـكتةٌ(٢)فتأخَّروا | ودَدْتُ بأن القوم بالـكل أسْعَفُ
فليس لنا إلاَّ أن نحطَّ رقابنـا | بأبواب الاسْتِسـلام والله يَلْطف
فهذا سبيلٌ ليس للعبـد غيرها | وإلاَّ فماذا يستطيع المُكلَّف

وقال ، وضمنها محاورة بينه وبين نفسه ، وقيدتُها عنه زوال يوم الثلاثاء التاسع والعشرين لمحرم خمس وخمسين(٣) وسبعمائة ، برابطة العُقاب(٤) ، متعبد الشيخ ولى الله أبى إسحاق الإلبيرى ، رحمه الله ، فمنها :

يأبى شجونُ حديثى الإفصاح | إذ لا تقـوم بشرحه الألواح
قالت صفيةُ [إذ مررت](٥)بها | أفلا تَنْزِل ساعـة ترتاح
[فأجبتُها لولا الرقيبُ لـكان(٦) لى] | ما تَبْتَغى بعد الغُدُوِّ رواح(٧)

---

(١) هكذا فى «ج» وفى «الملكية» (ركعت) .

(٢) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة» . وفى «الملكية» (نكتة) .

(٣) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (خمس وسبعين) ، وهو تحريف ظاهر ، لأن هذا التاريخ المتأخر يوافق أواخر أيام ابن الخطيب بالمغرب قبيل مصرعه بوقت يسير .

(٤) رابطة العقاب كانت إحدى الروابط التى تخصص للعبادة ، وكانت تقع على مقربة من غرناطة . وأبو إسحق الإلبيرى هو أبو اسحق إبراهيم بن سعيد التجيبى الإلبيرى ، وهو فقيه ورع وشاعر غرناطى توفى فى أواخر سنة ٤٥٩ هـ واشتهر بقصيدته فى التحريض على البطش باليهود أيام باديس بن حيوس ملك غرناطة بعد أن اشتد طغيانهم ، وكان من أثرها أن قام الشعب الغرناطى وفتك باليهود وذلك فى صفر سنة ٤٥٩ (راجع كتابى دول الطوائف (الطبعة الثانية) ص ١٣٥ و ١٣٦) .

(٥) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (عند ما مرت) ، وهو لا يستقيم مع وزن الشعر . فلزم التصويب .

(٦) هكذا وردت هذه الشطرة فى «الملكية» . مع إضافة كلمة إلى . ووردت محرفة فى «ج» (فاجبت لولا أن الرقيب لكان لى) .

(٧) هكذا فى «ج» و «الملكية» . وفى «الزيتونة» (رباح) .

قالت وهل فى الحىِّ حىٌّ غيْرنا ... فاسمح فديتُك فالسماح رياح
فأجبتها إن الرقيب هو الذى ... بيَدَيْه منّا هـــذه الأرواح
وهو الشهيدُ على موارد عَبْده ... سيّان ما الإخْفـاء والإفصاح
قالت وأين يكون وجُود الله إذ ... تخشى ومِنه هذه الأفراح
فافرح بإذن الله جلَّ جلاله ... واشْطَح فنَشْوان الهوى شطّاح
وانهج على ذِمَم الرجال ولا تخف ... فالُحكْم رحْبٌ والنَّوال مباح
وانزل على حكم السُّرور ولا تُبِل ... فالوقت صافٍ ما عليك جُنَاح
واخلع عِذارك فى الخلاعة يا أخى ... باسم الذى دارَتْ به الأقداح
وانظر إلى هذا النهار فـإنه ... ضَحِـكت ونور جبينه وضّاح
أنواره ضَحِكت وأتْرِع كأسه ... فقـد استوى ريحانُه والرّاح
وانظر إلى الدنيـا بنظرة رحمة ... فجفاؤها بوفائهـــا يَنْزاح
فأجبتُها لو كنت تعلم ما الذى ... يبدو لتاركها وما يَلْتـــاح
ما كان معنًى غامضٌ من أجله ... قد ساح قوم فى الجبال وتاحُ(١)
حتى لقد سَكِروا من الأمر الذى ... هاموا به عند العِيان وساحُ
لعَذَرْتنى وعلمتَ أنى طالب ... ما الزهد فى الدنيـا له مِفتاح
فاترك صفيّك(٢) قارعاً باب الرضى ... والله جل جـــلاله الفتّاح
يا حىُّ حىَّ على الفلاح وخَلِّنى ... فجماعتى حثُّوا المَطِى وراحُ(٣)

وقيدتُ من خطه فى جملة ما كتب إلي مانصه :

ومما نظمته بغرناطة ، وبعضه ببَرْجة(٤) ، وهو مما يعجبنى ، وأظنه كتبه لك ، وهو غريب المنزع ، وإنه لـكما قال :

(١) هكذا فى «ج» و«الزيتونة» .
(٢) هكذا فى «ج» و«الزيتونة» .
(٣) هكذا فى «ج» و «الزيتونة» .
(٤) سبق التعريف بها .

خُذْها على رغم الفقيه سُلافة ... تجَلَّى بها(١) الأقمار فى شمس الضُّحى
أبدى أطبــاء القلوب لأهلها ... منها شراباً للنفوس مُبَرِّحا
وإذا امرؤٌ(٢) قال فى نَشْوانها ... [قل أنت](٣) بالإخلاص فيمن قد صحا
ياقوتة(٤) دارت على أربابها ... فاهتَزَّت الأقــدام منها واللِّحا
مُزِجت فغار الشيخ من تَرْكيبها ... فلذاك جرَّدها وصاح وسرَّحا
فبدت فغار الشيخ من إظهارها ... فاشتدَّ يَبْتَدر الحجاب مُلَوِّحا
لا تعترض أبداً على مُسْتَرْفد ... قد غار من أسرارها(٥) أن يُفْضَحا
وكذاك لا تَعْتَب على مُسْتَهْتَر ... لم يدر ما الإيضاح لمَّا أوضحا
سكرانُ(٦) يعثرُ فى ذيول لسانه ... كُفْراً ويحسَبُ أنه قد سبَّحا
كَمْ الهوى حربُ بعضٍ وبعض ... ضاق ذَرْعاً بالغــرام فبرَّحا
لاتخشينَّ على العــدالة هاتفاً ... ثغر(٧) ارتياح العاشقين فجرَّحا
الحبُّ خمرُ العارفين وقد صَفَتْ ... حتماً على من ذاقها أن يَشْطَحا
فاشطح على هذا الوجود وأهله ... عجباً فليس براجح من رَجَّحا
كبرُ عليهم أنهم موتى على ... غير الشَّهادة ما أغرَّ وأقبحا
واهزأ بهم فتى يَقُل نُصَحاؤهم ... أهِجْ فقُلْ حتى ألاقى مُفْلحا
وإذا أريبُهم(٨) استخفَّ فقُلْ له ... بالله يا يحي بن يحي دَعْ جِحا

(١) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية». وفى «الزيتونة (به).
(٢) وردت فى «ج» (المرأى). وفى «الزيتونة» و «الملكية (المرء). والتصويب أرجح.
(٣) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية» (ما أنت).
(٤) وردت فى «ج» وفى «الملكية» (يا قوة). وبالتصويب يستقيم الوزن والمعنى اللاحق.
(٥) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية». وفى الزيتونه (استارها).
(٦) هكذا وردت فى «الملكية». وفى «ج» (بسكران).
(٧) هكذا وردت فى «الملكية». وفى «ج» (نقر).
(٨) وردت فى «ج» وفى «الملكية» (زرهم).

أَبَنِي سُليم قد نجا مجنونكم ... مجنونُ ليلى العارفين به قد محا

هل يستوى من لم يَبُح بحبيبه ... مع من بِذِكر حبيبه قد أفْصَحا

فافرحْ وطِبْ وابهَجْ وقل ما شئت ما أملحَ الفقراء ياما[1] أمْلَحا

ومن مقطوعاته التى هى آيات العجايب ، وطرزُ حُلل البدايع فى شتى الأغراض والمقاصد ، قوله يعتذر لبعض الطلبة ، وقد استدبره[2] ببعض حُلَق العلم بسَبْتة :

إن كنتُ أبصرتُك لا أبْصَرَت ... بصيرتى فى الحق بُرْهَانَهـا

لا غَرْو أنى لم أشاهدكم ... فالعين لا تُبْصر إنسانها

ومنها قوله فى غرض التورية ، وهو بديع فى معناه :

يلومونى بعد العِذار على[3] الهوى ... ومثلى فى وَجْدى له[4] لا يُفَنَّد

يقولون لى أمسك عنه قد ذهب الصِّبا ... وكيف يُرى الإمساك والخيط أسود

ومنها قوله فى المُجَبَّنات[5] ، وهو من الغريب البديع :

ومُصْفَرَّة الخدين مطويَّة الحشا ... على الجُبن والمُصْفَرُّ يؤذن بالخوف

لها هيئة[6] كالشمس عند طلوعها ... ولكنها فى الحين تَغْرُب فى الجَوْف

ومنها قوله فى النُّصح ، ولها حكاية تقتضى ذلك :

لا تَبْذُلَنَّ نصيحةً إلا لمن ... تَلْقى لبَذْل النُّصح منه قَبُولا

فالنصحُ إن وجَدَ القبولَ فضيلةٌ ... ويكون إن عَدِم القبولُ فضولا

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» و «الملكية» (ما) .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الملكية» و «الزيتونة» (استدركه) .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وفى النفح .

(٤) هكذا وردت فى النفح . ووردت فى «ج» (به) .

(٥) هكذا وردت فى النفح . وفى المخطوطات الثلاثة (المجنبات) . والأولى أرجح حسبما يبدو من سياق البيت التالى .

(٦) هكذا وردت فى «ج» و «الملكية» . ووردت فى النفح (بهجة) .

ومنها فى الحكم :

ما رأيت الهموم تدْخل الا ... من دروب العُيون والآذان
غُضّ طَرْفاً وسُدّ سمعاً ومهما ... تَلْق همّاً فلا تثق بضمان

ومنها قوله ، وهو من المعانى المبتكرات :

حزُنت عليك العينُ يامُغْنى الهوى ... فالدمع منها بعد بُعدك ما رَقا
ولذاك [قد صُبِغت][1] بلون أزرق ... أو ما ترى ثَوْب المآتم أزرقا

ومنها قوله فى المعانى الغريبة . قال، ومما نظمته فى عام أربعة وأربعين فى التفكر فى المعانى ، مُغْلق العينين :

أبحث فيما أنـا حصَّلتُه ... عند انغماض العين فى جَفْنها
أحسبُنى كالشـاة مجترّة ... تمضغ ما يخرج من بطنها

وقال ،ومما نظمته بين أنْدَرش وبرْجة[2] عام أربعة وأربعين ، وأنا راكب مسافر ، وهو مما يُعجبنى ، إذ ليس كل ما يصدر عنى يُعجبنى . قلتُ وبحقٌ أن يعجبه :

تطالبنى نفسى بما ليس لى به ... يَدَان فأعطيها الأمان[3] فتقبل
عجبتُ لخَصْم لجّ فى طلباته ... يصالح عنها بالمحال فيفصل

[قال ومما نظمته فى السنة المذكورة من ذم النساء :

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . وفى النفح (ما ظهرت) .

(٢) نعود هنا إلى الإشارة إلى برجة لورودها مع أندرش . فبرجة وأندرش كلتاهما من مقاطعة ألمرية ، تقع الأولى شرق النهر الأخضر ، وتقع الثانية غربية على مقربة من مصبه . ومما هو جدير بالذكر أن أندرش هى البلد التى أقام فيها أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس بعد سقوط غرناطة فى سنة ١٤٩٢ ، ومكث بها نحو عامين ، ثم غادرها إلى منفاه فى المغرب .

(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (الأمانى) .

ما رأيت النِّساء يَصْلُحن إلا للذى يَصْلح الكنيف من أجله
فعلى هذه الشريطة صالحـــهن لا تَمُدُّ بأمرئ عن محلِّه][(١)]

قال ، ومما نظمته فى السنة المذكورة :

قد هجرتُ النساء دهرا فلم أبلِّــغ آذانى[(٢)] صفهاتهن الذميمة
ما عسى أن يُقال فى هجو من قد خصَّه المصطفى بأقبح شيمة
أو يبقى لنا قِصَر العقل والديـــن إذا عُدَّت المثـالب قيمة

وقال ، ومما نظمته فى تاريخ لا أذكره الآن . هذان البيتان ، ولم أر معناها لمن مضى . ولو رحل رجل إلى خراسان ، ولم يأت إلا بهما ، كان ممن لم يخفق مسعاه . ولا أجدب مرعاه ، ينفَتح بهما للقلب باب من الراحة فسيحٌ ، إذا أجهده ما يكابد من المَضاضة ، ونَقْض العهود ، واختلاف الوعود . وهذه المحنة من شرٍّ ما ابتُلى به بنو آدم ، شَنْشَنة نعرفها من أمرهم . ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنَسى :

رعى الله إخوان الخيانة إنهم كفَونا مؤونات البقَا على العهد
فلو قد وفَوا كنا أسارى[(٣)] حقوقهم نراوح بين النسِّيئة والنقد

وقال يُداعبنى ، وعلى سبيل الكناية يخاطبنى ، ولقد لقيت[(٤)] ، رجلا ببلاد الهند يعرف بأبى البركات ابن الحاج ، وكان بَرِد[(٥)] فى بستان كان له ، فقلت أهجوه عام أربعة وأربعين وسبعمائة :

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» وساقط فى «الزيتونة» .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» «الملكية» (أذنى) .
(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (أسرى) . ونعتقد أن الوزن يستقيم بالتصويب .
(٤) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (رأيت) .
(٥) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» و «الملكية» (بردا) .

قالوا أبو البركات جمٌّ(١) ماؤه   فغدا أبو البِركات لا أبا البركات
قلنا لأن يُكنى بموجوداته   أولى من أن يكنى بمعْدُومات

ومما نظمته عام خمس وأربعين وسبعمائة :

قد كنتُ معذورا بعلمى وما   أبثُّ من وعظى بين البشر
من حيث قد أمَّلْت إصلاحهم   بالوعظ والعلم فخان النَّظر
فلم أجد أوْعَظَ للناس من   أصوات وُعَّاظ جلود البقر

ومما نظمته بمرسى تلهى ، من بلد هُنَين(٢) ، عام ثلاثة وخمسين ، وقد أصابنى هَوَسٌ فى البحر وخاطبت به بعض الأصحاب :

رأسى به هَوَس جديد لا الذى   تَدْريه من هوس قديم فيه
قد حلَّ ما أُبديه من هنا كما   قد حلَّ من ذاك الذى أُخفيه

ومن الملح قوله ، قال ، وبِتُّ بحمام الخندق من داخل ألمرِية ليلة الجمعة الثامن من شهر محرم عام اثنين وثلاثين منفرداً ، فطُفِى [المصباح](٣) ، وبقيت مُفكرا ، فخطر ببالى ما يقول الناس من تخُّيل الجنّ [فى](٤)الأرحاء والحمامات ، وعدم إقدام كافة الناس إلاّ ما شذَّ عند دخولها مُنفردين بالليل . لا سيما فى الظلام ، واستشعرتُ قوة فى نفسى عند ذلك ، أعراضٌ وأوهام ، فقلت مرتجلا ، رافعاً بذلك صوتى :

زعم الذين عقولهم قدرُها   إن عُرِضت للبيع غير ثمين

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى«ج» (هم) . وفى «الملكية» (ضم). وهو تحريف
(٢) هنين أو مرسى هنين هو ثغر صغير يقع غربى وهران ، وشمال تلمسان على شاطىء البحر المتوسط .
(٣) هذه الكلمة ساقطة فى «ج» . وواردة فى «الزيتونة» وفى «الملكية» .
(٤) الزيادة من «الزيتونة» و «الملكية» .

أن الرّحا معمورة بالجن والحمّــــام عندهم [كذا][١] بيقين
إن كان ماقالوه حقاً فاحضروا للحرب هذا اليوم من صِفّين
فلئن حضرتم فاعلموا بحقيقة بأنى مُصارع قيسِ المجنون

قال ، ودخلت رياضا يوما ، فوجدتُ كِساء منشوراً للشمس لم أعرفه من حوايجى ، ولا من حوايج حارسة البستان ، فسألتها فقالت ، هو لجارّنى فقلت :

مَنْ مُنْصِفى من جارّتى[٢] جارت علىّ مالى كأنى كنتُ من أعدائها
عمدتُ إلى الشمس التي انتشرت[٣] على أرضى وأمّت فيه [بيس كسائها][٤]
لولا غُيوم يوم تَيَبّس الكسا سرتُ لحجب السُّحب جل ضياءها
لقضيتُ منهم الخسار لأننى أصبحتُ مُزوَرّاً على بُخلائها

قلت ، وصرت إلى مَغْنًى[٥] بحَمّة بجّانة[٦] وسار معى كلبٌ كان يحرس رياضى اسمه قَطْمير ، وهو فيما يُذْكر كلب أهل الكهف ، فى بعض الأقوال ، فتَبِعنى من ألمرّية إلى الحمة ، ثم من الحمة إلى ألمرية ، فقلت :

رحلتُ وقطميرُ كلبى رفيقى يونس قلبى بطُول الطريق
فلما أنختُ أناخ حذائى يلاحظنى لحظ خلٍّ شفيق
ويرعى أذمَّة رفقى كما يتغَنّى الصديقُ الصدوق

(١) أضيفت هذه الكلمة ليستقيم وزن الشعر .
(٢) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية» . ووردت فى «الزيتونة» (جاريتى) .
(٣) هكذاو ردت فى «ج» و «الزيتونة» . وفى «الملكية» (انتثرت) .
(٤) هكذ وردت فى «ج» . وفى «الملكية» .
(٥) وردت فى «ج» (مالى) . والتصويب من «الزيتونة» .
(٦) بجانة ، وبالإسبانية Pechina بلدة تقع على نهر أندرش ، على مقربة من شمال شرق ألمرية .

على حين قومى بنى آدم بلُؤمهم لم يوفُوا حقوقِ
ولا فرق بين الأباعِدِ منهم وبين أخ مُسْتَحب شفيق
أو ابن متى تلقاه تَلْقه هوىً اشتياق بقلب خفُوق
فما منهم من ولىٌّ حميم ولا ذى إخاءٍ صحيح حقيق
وناهيك ممن يفُضِّل كلباً عليهم فيلويلهم من رفيق
ألا من يرقّ لشيخ غريب أبى البركات الفتى البلْفيق

وقال ، ومما نظمته بتاريخ لا أذكره هذان البيتان :

وأين الخير من[1] زمانى وأهله على أننى للشَّر أوَّلُ سابق
لحا الله دهراً قد تقدَّمْتُ أهلَه فتلك لعَمْر الله إحدى البَوايق

ومن النزعات الشاذة الأغراض :

لا بارك الله فى الزُّهاد إنهم لم يتركوا عرَض الدنيا لفضلهم
بل أثقلتهم تـكاليف الحياه فلم يُصابروها فملُّوا ثقل حملهم
وعظَّم الناس منهم تركها فغدوا من غبطة التَّرك[2] فى حرص لأجلهم
نعم أُسَلِّم أن القوم إذ زهدوا زاداً وأعلَى الناس طرًّا فضل تركهم
من حيث قد أحرَزوا التَّرجيح دونهم لاشيء أبين[3] من ترجيح فضلهم
فالمالُ والجود والراحات[4] غايةُ ما يحكى لنا الزهد فى ذا عن[5] أجَلِّهم

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . ووردت فى «ج» (عن) .
(٢) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة ..
(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وفى نص (أحسن) .
(٤) وردت فى «ج» (الراحة) . وبالتعديل يستقيم السياق .
(٥) وردت فى «الملكية» (فى ذاك) وفى «ج» (فيه) وفى «الزيتونة» (فى) . وبالتصويب يستقيم السياق .

والزاهدون براحات(١) القلوب مع الأبــــدان سُرُّوا وعزُّوا بعد ذلِّهم
فكل ما فرَّقوا قد حصَّلوا غرضاً(٢) منه وزادوا ثناء الناس كلِّهم

قال ، ومما نظمته عام أربعين فى ذم الخمر من جهة الدنيا ، لا من جهة الدين ، إذ ليس بغريب :

لقد ذمَّ بعضَ الخمر قومٌ لأنها تُسكِرُ على دين الفتى بفساد
وقد سلَّموا قول الذى قال إنها تَحلُّ من الدنيا بأعظم ناد
وتذهب بالمال العظيم فلن ترى لمُدْمنها من طارفٍ وتلاد
فيُمْسى كريماً سيِّداً ثم يَغْتدى سفيهاً حليفَ الغىِّ بعد رشاد
وقالوا تسلِّى وهو عاريةٌ لها وإلاَّ فلم يأتوا لذاك بشــــاد
وصلةٌ ونور(٣) وحسناء طفلة ومَرْأى به للَّطريف سير جواد
وهل يُداوَى من مرارتها التى أواخرها مقرونةٌ بمهـــاد
ولو أُشْرب الإنسان مَهْلاً بهنه لأُصبح مسروراً بأطْيَب زاد
ومن حُسْن حال الشَّاربين يقيُّونها(٤) بالرغم [من] برقٍ وساد
ومن حُسْن ذا المحروم أنَّ مُدامَه إذا غَلَبت تــكسوه ثوبَ رُقاد
فيختلف النُّدمان طرًّا لروحه ويحدوهم نحو المروءة حادى
ومن حُسْنه بين الورى ضربُ ظهره فيُمسى بلا حرب رهين جِلاد
مجانين فى الأُوهام قد ضلَّ سعيهم يخففون بيعاً بحسن غَواد(٥)

(١) وردت فى «ج» (براحة) . وبالتعديل يستقيم السياق .
(٢) هكذا وردت فى « الزيتونة » و « الملكية » . ووردت فى « ج » (عوضا) والأولى أرجح .
(٣) هكذا فى «الملكية» . وفى «ج» (نوار) .
(٤) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .
(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الملكية» (وغاد) .

ومن نظمه فى الإنحاء على نفسه ، واستبعاد وجوه المطالب فى جنسه ، مما نظمته يوم عرفة عام خمسين [وأنا مُنْزَوٍ فى غارٍ] (١) ببعض جبال المرية :

زعموا أن فى الجبال قوماً(٢) صالحين قالوا من الأبدال
وادَّعوا أن كل من ساح فيها فسَيَلقـاهم على كل حال
فاخترقنا تلك الجبال مراراً بنعال طَوْراً ودون نعال
ما رأينا فيها سوى الأفاعى وشَبا عقرب كمثل النبال
وسباعاً(٣) يخترون بالليل عَدْواً لا تسلنى [عنهم] بتلك الفيال(٤)
ولو كُنَّا لدى العُدْوة الأخرى رأينا نواجـذ الرِّيبال
وإذا أظلم الدجى جاء إبليس إلينا يزور طَيْف الخيال
هو كان الأنيس فيها ولولا ه أصيبت عقولنا بالخبال
خلِّ عنك المحال يامن تعنَّي ليس تلقى الرِّجال غيرُ الرجال

قال ، ومن المنازع الغريبة ذمُّ الأصحاب [ومدحُ](٥) الأعداء ، فمن ذلك قولى :

جزى الله بالخير [أعداءنا](٦) فموردهم أنْقَى(٧) المصدر
هم حَملونا على العُرف كَرْهاً وهم صَرَفونا عن المُنكر
وهم أقعدونا بمجلس حُكمٍ وهم بَوَّؤونا ذُرى المِنبر

---

(١) هذه الزيادة من النفح .
(٢) فى النفح (رجالا) .
(٣) هكذا وردت فى «الملكية» . وفى «ج» و «الزيتونة» (وسباع) . والأولى أرجح .
(٤) هكذا وردت فى «ج» و «الملكية» . وفى النفح (الليالى) .
(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة (وذم) . والتصويب يقتضيه السياق ، ويؤيده معنى الأبيات .
(٦) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة . وإثباتها لازم لضبط المعنى والسياق .
(٧) كذا فى « ج » و«الزيتونة» . وفى الملكية (أنى)

وهم صيّرونا أئمة عــلم وديـــن . وحسبُك من مَفْخَر
عدُوِّى بأول فِــدى مَأْثم وإن جِيتُ بالإثم لم يعْـذُر
وأنت ترى تمحيص من يَعْـدِل[بين المسِئ وبين البَرِ](١)
ولا زوّد الله أصحابنـا بــزاد تــقِىٍّ ولا خــيِّر
هم جَـرّؤونا على كل إثم وما كنتُ لولاهم بِالْمُخبر(٢)
وعدوا من إكبار آثامنـا فـكانوا أضرَّ من الفاتر(٣)
أعارنى القــوم ثوب التــقى وإنى ممــا أعارونى بَرى
إذا خدعــونى ولم ينْصحوا وإنى بالنُّصح منهم حَـرِ
فمن كان يَكْذِب حال الرِّضى يَصْدُق فى غضبٍ يَفْتَرِ(٤)
بَلَى سوف تلقى لدى الحالتين يحْكُمُ النَّفس هــوى الفَر
فيارِبٌّ أبق علينا عقولنا(٥) نَبِيع بها وبها نَشْـتَرِ

قال ، وما رأيتُ هذا المعنى قط لأحد ، ثم رأيت بعد ذلك لبعضهم ما معناه :

عُداتى لهم فضــلٌ على ومِنَّة فلا أذْهَبَ الرحمن عنِّى الأعاديا
هم بَحَثوا عن زلَّتى فاجتنبتها وهم نافَسُونى فاكتسبتُ(٦) المعاليا

فوقع حافرى(٧) على ساق هذا . [قال] وممـا نظمته ، متخيِّلا(٨) أنى سابقٌ معناه :

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى «الزيتونة» و «الملكية» . ووردت فى «ج» (يعادل بين المسىء والبر) .
(٢) وردت فى «ج» (بالخبر) والتصويب من «الملكية» .
(٣) هكذا وردت فى «الملكية» . وفى «ج» (الفتر) . والأولى أصلح للسياق .
(٤) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . والمقصود بها هنا (يفترى) .
(٥) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى الملكية (عقولا) .
(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (فارتكبت) .
(٧) هكذا فى «ج» و «الملكية» . وفى «الزيتونة» (حافى) .
(٨) وردت فى «ج» (مختلا) . والتصويب من «الزيتونة» .

خَلَسْنا ليلة من كفِّ دهرٍ ضَنِين(١) بالليالى الطيِّبات
سَلكنا للهوى والعقل فيها مسالكَ قد جُلين عن الشَّتات
قَضَينا بعض حقِّ النفس فيها وحقُّ الله مرعىٌّ الثَّبات(٢)
فلم نر قَبْله فى الدهر وقتاً بَدَت حسناتُه فى السيِّئات

ثم رأيت بعد ذلك [على هذا](٣) .

لا وليالٍ على المُصَلَّى تسرق فى نُسكها الذنوب

فوقعت ساقى على حافر هذا المحروم ، إلا أنى جَرَّدت ذلك فى المعنى ، وأوضحتُه ، وجَلَوته على كرسى التَّقْعيد والتَّنْجيد ، فلولا التاريخ لعاد سارق البرق .

نــثره

وأما نثره فنمطٌ مرتفع عن مُعتاد عصره ، استِنْفاراً وبلاغة ، واسترسالا وحلاوة ، قلما يُعَرِّج على السَّجع ، أو يأمر على التَّكايف ، وهو كثير بحيث لا يَتَعين عيونُه ، ولكن نُلمع منه نُبْذة ، ونَجلب منه يسيراً . كتب إلىَّ عند إيابى من الرِّسالة إلى ملك المغرب ، متمثِّلا ببيتين لمن قبله ، صدَّر بهما :

ياأيتها النفس إليه اذهبى فحُبُّه المشهور من مذهبى
إيأسى التَّوْبَةَ من حُبِّه طلوعُه شمساً من المغرب

بل محلُّك(٤) ، أمْثَلُ من التمثيل بالشمس ، فلو كان طلوعك على هذه الأقطار

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (ظنين) وهو تحريف .
(٢) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (الأمهات) .
(٣) هذه الزيادة من «الزيتونة» .
(٤) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (نجلك) . والتصويب من «الملكية» .

شمساً ، لأصبح [جُلُّها لك] (١) عُبَّاد . ولو كان نزولك مطراً لتكيَّفَتْ الصُّخور تُراباً دَمِثاً . ولولا معرفتُنا مَعْشر إخوان(٢) الصَّفا ، بأقْرار(٣) أنفسنا ، لحكمنا بأن قلوبَنا تمائِمُ لأصدقائنا ، ولكن سبقت عيون السعادة ، بالكلآت(٤) فلو تُصادف بالرضى محلاً ، لأن تحصيل الحاصل مُحال ، لا زلتَ محروساً ، بعين الذى لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم [مَكْنُوفةً ببَرَكَة الذى يرومه رايم](٥) والسلام .

وكتب إلىَّ عندما تقلَّدتُ من رياسة الإنشاء ماتقلدت : تخصكم يا محلَّ الإبن الأرْضَى ولادة ، والأخَ الصادق إخلاصاً ووُدًّا ، خصَّكم الله من السعادة بأعلاها مَرْقى ، وأفضلِها عقْبى ، وأحمدها غِنيً ، وأكرمها مسعى ، تحيَّة اللَّهفان(٦) إلى أيام لقائك ، المُسْلى(٧) عنها بتأميل العود إليها ، المُزْجى أوقاتَه بترداد الفِكر فيها ، محمد بن الحاج ، أبقاه الله ، عن شوق ، والذى لا إله إلا هو ، لم أجد قط مثلَه إلى ولىٍّ حميم . والله على ما نقول وكيل ، معرِّفاً أننى بعَلاقه(٨) ، وتُضْنينى أعن كسره مجامعُه(٩) ، لما اعتنى به من توقُّلِكم بالرُّتبة ، التى ما زال أحبَّاؤكم(١٠) بها تمْطولى بِرّه . على أنك لم تَزِد بذلك رُتْبة على ما كنت باعتبار الأهليَّة ، والمكانة

---

(١) هكذا فى «الزيتونة» . ومكانها فى «ج» (للقايك) . وفى «الملكية» (حلها بك) .

(٢) وردت فى المخطوطات الثلاثة (إخواننا) . وبالتصويب يستقيم المعنى والسياق .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وهى جمع قرارة . ومعناها هنا الأعماق . وقد تكون تحريفا لكلمة (بأسرار) والمؤدى واحد .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» و «الملكية» .

(٦) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية» . ووردت فى «الزيتونة» (إسعاد) ونعتقد أن الأولى أرجح .

(٧) هكذا وردت فى «الملكية» . ووردت فى «ج» (المتسلى) .

(٨) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٩) وردت فى «ج» و «الملكية» (مجاحه) . والتصويب من «الزيتونة» .

(١٠) وردت فى «ج» (أحباؤها) والتصويب من «الزيتونة» وهو أكثر تمشياً مع السياق .

العليَّة ، إلا عند الأطفال والأغفال ، والمُحلَّقين من النساء والرجال ، لا كن أفزعتنا هذه المخاطبة المحظيَّة(١) فى قالب الجمهور ، ولم نسر فيها ، على الأصح ، لا كن على الجمهور . ولو كانت مَصَارِف الوجود بيدى ، لوافَتْك من الوجود ، منازلُ أسمايه منازل ، وأوطأتك أفلاكه مَرا كب ، وأوْرَدتك كوثره مَشْرباً ، وأحللتك أرفعه مَعْقِلا، وأقْبَسْتك بُدرّه(٢) مصباحاً ، وأهدتك(٣) أسرارُه تحفاً . وقد تبلغ المقاصدُ مبالغَ لا تنتهى أقاصيها الأعمال ، فنحن وما نُضْمره لتلك الجملة الجليلة الفاضلة ، مما الله رقيبٌ عليه ، ومحيطٌ بدقايقه . ولو كانت لهذا العَبْد الغافل ، المأسور فى قيد نفسه ، المحزُون على انتهاب الأيام ، رأس(٤) عمره فى غير شيء ، دعوةٌ يساعدها الوَجْدُ حتى يغلبَ على ظنّه ، أن العَليم بذات الصدور ، ولاّها من قبوله بارقةً تخصك بها ، والله شهيد على ما تُكِنُّه الأفئدة ، وهو حسبُنا ونعم الوكيل .

والفضلُ جمٌّ ، والمحاسنُ عديدة ، فلنقصر اضطِّراراً ، ولنكُفَّ(٥) امتثالاً للرسم ، وانقياداً ، أمتع الله به .

(١) هكذا وردت فى «ج» وفى «الزيتونة» . وفى «الملكية» (المخطية) .

(٢) وردت فى «ج» (بلوره) . والتصويب من «الملكية» .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (وأهديتك) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية» .

(٥) هكذا وردت فى «الملكية» . وفى «ج» و «الزيتونة» (ونكف) .

محمد بن عبد الله[١] بن منظور القيسى

من أهل مالقة ، يكنى أبا بكر

أوليته

أصله من إشبيلية ، من البيت المشهور بالتعيين والتقدم ، والأصالة ، تشهد بذلك جملة أوضاع ، منها « الروض المحظور[٢] فى أوصاف بنى منظور » . وغيره

حالـه

من كتاب « عائد الصلة » . كان جم التواضع والتخلق ، كثير البر ، مفرط[٣] الهشة ، مبذول البشر ، عظيم المشاركة ، سريع اللسان إلى الثناء ، مسترسلا فى باب الإطراء ، دربا على الحكم ، كثير الحنكة ، قديم العالة ، بصيرا بالشروط . ولى القضاء بجهات كثيرة ، وتقدم بمالقة ، بلده[٤] فشكرت سيرته ، وحمدت مداراته ، وكان سريع العبرة ، كثير الخشية ، حسن الاعتقاد ، معروف الإيثار والصدقة ، شايع الإقراء[٥] لمن ألم بصقعه ، واجتاز على محل ولايته ، جاريا على سنن سلفه ، ينظم وينثر ، فلا يقصر .

مشيختـه

قرأ على الأستاذ أبى محمد بن أبى السداد الباهلى ، ولازمه وانتفع به ، وسمع

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . ووردت فى «ج» (عبيد الله) .
(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . ووردت فى «ج» (المنظور) .
(٣) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» و «الملكية» (مفوض) والأولى أرجح .
(٤) وردت فى المخطوطات الثلاثة (ببلده) . والتصويب أكثر تمشيا مع السياق .
(٥) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . ووردت فى «ج» (القراء) وهو تحرف .

على غيره من الأعلام ، كالخطيب الولى أبى عبد الله الطّنجالى ، والعَدْل الراوية المُسنّ أبى عبد الله بن الأديب ، والمسن أبى الحكم مالك بن المُرَحَّل ، وعلى الشيخ الصوفى أبى عبد الله محمد بن أحمد[١] الأقشرى الفاسى ، ولبس عنه خِرْقة التّصوف ، وعلى الخطيب أبى عبد الله بن رُشيد ، وعن الشيخ القاضى أبى المجد بن الأحوص ، وعلى ابن مجاهد الرُّندى المعروف بالسّمار ، والخطيب أبى العباس بن خميس بالجزيرة الخضراء ، وعلى الخطيب الزاهد أبى عبد الله السلاّل . وكتب إليه بالإجازة ، أبو عبد الله بن الزبير ، والفقيه أبو الحسن ابن عَقيل الرُّندى ، والوزير المُعمَّر أبو عمر[٢] الطَّنجى ، وأبو الحكم بن منظور ابن عم أبيه ، والأستاذ أبو عبد الله بن الكماد . نقلت ذلك من خطه .

تواليفه

أخبرنى أنه ألف « نفحات المُسُوك ، وعيون التِّبر المَسْبُوك[٣] فى أشعار الخلفاء والوزراء والملوك » . وكتاب « السُّحُب الواكفة والظلال الوارفة فى الرد على ما تضمنه المضنون[٤] به على غير أهله من اعتقاد[٥] الفلاسفة » . وكتاب الصَّيِّب الهتّان الواكف بغايات الإحسان المشتمل على أدعية مستخرجة من الأحاديث الصحيحة النبوية وسُوَر القرآن » . وكتاب « البرهان والدليل فى خواص سور التّنزيل ، [وما فى قراءتها فى النوم من بديع التأويل] »[٦] . وكتاب يشتمل

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة بعد هذا الاسم كلمة (أمين) وهو اسم آخر لم تجر العادة بوروده على هذا النحو .

(٢) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية» . ووردت فى «الزيتونة» (أبو على) .

(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (المسكوك) . وفى «الملكية» (المسوك) . والأولى أرجح .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الملكية» (المظنون) .

(٥) وردت فى «ج» (الاعتقاد) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٦) ما بين الحاصرتين ساقط فى «الزيتونة» .

على أربعين حديثاً فى الرقايق ، موصولة الأسانيد . وكتاب « تحفة الأبرار فى مسألة النبوة والرسالة ، وما اشتملت(١) [عليه](٢) من الأسرار » . وكتاب « الفعل المبرور ، والسعى المشكور ، فيما وصل إليه ، أو تحصل لديه من نوازل القاضى أبى عمر بن منظور »

شعره

ومن شعره قوله :

ما لِلمُطاس [ولا](٣) لِلفال من أثرٍ ... فتق فديتُك بالرحمن واصطبرِ
وسلِّم الأمر فالأحكامُ ماضيةٌ ... تجرى على السُّنَّ المربوط بالقدرِ

محمد بن على بن الخضر بن هارون الغسانى

من أهل مالقة يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن عَسْكر

حاله

من كتاب « الذيل والتكملة »(٤) . كان مُغْرِباً(٥) مُجَوِّدا ، نحوياً ، متوقّد

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة (اشتمل) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) الزيادة من «الزيتونة» .

(٣) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم الوزن والسياق .

(٤) هو كتاب «الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة» للعلامة المغربى الثقة ابن عبد الملك المراكشى المتوفى فى سنة ٧٠٣ هـ . وهو معجم نفيس للتراجم ، يتضمن تراجم جمهرة كبيرة من أعلام المغرب والأندلس حتى القرن السابع الهجرى . ويقع فى أربعة مجلدات كبيرة . ومنه أجزاء مخطوطة بمكتبة باريس الوطنية والمتحف البريطانى ومكتبة الإسكوريال ودار الكتب المصرية . وقد نشرت منه الأسفار الأول والثانى والرابع والخامس ببيروت (سنة ١٩٦٤ — ١٩٦٥) .

(٥) هكذا وردت فى «الملكية» . ووردت فى «ج» (مغريا) وفى «الزيتونة» (معربا) . والأولى أرجح .

الذهن ، متفنناً فى جملة معارف ، ذا حظ صالح من رواية الحديث ، تاريخياً ، حافظاً ، فهيماً ، مشاوراً ، دؤوباً فى الفتوى ، متيناً فى الدين ، تام المروءة ، سنياً فاضلا ، معظماً عند الخاصة والعامة ، حسن الخلق ، جميل العشرة ، رحيب الصدر ، مسارعا إلى قضاء الحوايج ، شديد الإجمال ، محسنا إلى من أساء إليه ، نفاعا بجاهه ، سمحاً بذات يده ، متقدما فى عقد الوثائق ، بصيرا بمعانيها ، سريع البديهة فى النظم والنثر ، مع البلاغة ، والإحسان فى الفنين

وُلى قضاء مالقة نايباً عن القاضى أبى عبد الله بن الحسن مدة ، ثم وُلى مستبداً بتقديم الأمير أبى عبد الله بن نصر(١) ، يوم السبت لليلتين بقيتا من من رمضان [عام](٢) خمس وثلاثين . وأشفق من ذلك وامتنع منه [وخاطبه مُسْتَعفياً ، وذكر أنه لا يصلح للقيام بما قلده من تلك الخُطّة تورّعاً منه](٣) فلم يُسْعفه . فتقلدها ، وسار فيها أحسن سيرة ، وأظهر الحقوق التى كان الباطل قد غَمرها ، ونفّذ الأحكام .

وكان ماضى العزيمة ، مِقداما ، مهيباً ، جزْلا فى قضائه ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، واستمر على ذلك بقية عمره

مشيخته

روى عن أبى إسحاق الزّوالى(٤) ، وأبى بكر بن عتيق بن منزول ، وأبى جعفر الجيان ، وأبى حسن الشقُورى ، وأبى الحجاج بن الشيخ ، وأبى الخطاب بن واجب ، وأبى زكريا الإصبهانى مُقيم(٥) غرناطة

(١) هو الأمير محمد بن الأحمر الكبير مؤسس مملكة غرناطة . وقد حكم من سنة ٦٣٥-٦٧١ ه

(٢) هذه الزيادة من «الملكية» .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» وساقط فى «الزيتونة» و «الملكية» .

(٤) هكذا فى «الملكية» . ووردت فى «ج» (الزرالى) . ومكانها بياض فى «الزيتونة» .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . والمعنى المقصود هنا هو (المقيم بغرناطة) .

من روى عنه

روى عنه أبو بكر بن خميس ابن أخته، وأبو العون، وأبو عبد الله ابن بكر الإلبيرى. وحدّث عنه بالإجازة، أبو عبد الله الأبّار، وأبو القاسم ابن عُمْران، وكتب بالإجازة للعراقيين من أهل بغداد الذين استدعوها من أهل الأندلس. حسبما تقدم فى رسم أبى بكر بن هشام، وضمنها نظماً ونثراً اعترف له بالإجادة فيهما.

تصانيفه

صنّف كتباً كثيرة، أجاد فيها وأفاد. منها المُشْرِع الروّى فى الزيادة على المَرْوى. ومنها أربعون حديثاً التزم فيها موافقة اسم شيخه، اسم الصابى، وما أراه سبق إلى ذلك، وهو شاهدٌ بكثرة شيوخه، وسعة روايته. ومنها نُزْهة الناظر فى مناقب عمّار بن ياسر. ومنها الخبر المختصر، فى السلْوى عن ذهاب البَصَر، ألفه لأبى محمد بن أبى الأحوص الضرير الواعظ. ومنها رسالة فى ادِّخار الصبر، وافتخار القَصْر والفَقْر. ومنها الإكمال والإتمام فى صلة الإعلام بمجالس الأعلام من أهل مالقة الكرام. وله اسم آخر، وهو مطلعُ الأنوار ونُزهة الأبصار، فيما احتوت عليه مالقَة من الرؤساء والأعلام والأخيار، وتقيّد من المناقب والآثار. واختَرَمته المنيَّة عن إتمامه فتولى إتمامَه ابن أخته أبو بكر محمد بن خميس المذكور، وقد نقلتُ منه فى هذا الكتاب.

شعره

ومن شعره. وقد نُعيت إليه[1] نفسه [قبل][2] أن تَغْرُب من سماء معارفه شمسه:

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة». وفى «ج» (إلى).

(٢) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق.

ولما انقضى إحدى وخمسون حجة كأنىَ منها بعد كَرْب(١) أحلم
ترقَّيت أعلاها لأنظر فوقها مدى الحَتْف منى علّىَ منه أسلم
إذا هو قد أدنت إليه كأنما ترقَّيت [فيه نَجْوة](٢) وهو سُلَّمَ

وقال فى أحدب :

وأحدبُ تحسب فى ظهره جابِهٌ فى نهر عايمة
مُثَلّث الخِلْقة لا كنّه فى ظهره زاوية قايمة

ومن أمثال نظمه قوله ، وقد استُدْعِيت منه إجازة :

أجبتك لأنى لما رُمتَه أهلٌ ولا كنْ ما أجبت مُحتمل سهل
[وما العلم إلاّ بحرٌ طال مدانه](٣) ومالى مَحمٌ(٤) فى الورود ولا نَهل
فكيف أوانى أهل ذاك وقد أتى على المحتيان(٥) البطالةُ والجهلُ
وأسأل ربى العفو عنى فإنه لما يَرتجيه العَبْدُ من فضلٍ أهلُ

مولده : [تخميناً](٦) فى نحو أربع وثمانين وخمساية .

وفاته : ظهر يوم الأربعاء لأربع خلون من جمادى الآخرة ، عام ستة وثلاثين وستماية .

---

(١) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (بكر) .

(٢) وردت محرفة فى المخطوطات الثلاثة . «ج» (فيها نحوه) . وفى «الزيتونة» و «الملكية» (فيه نحوه) .

(٣) هكذا وردت هذه الشطرة فى «الملكية» . ووردت فى «ج» (وما العلم البحر طاب مذاقه) .

(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «الملكية» . وفى «ج» (محمل) .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

(٦) هذا الكلمة واردة فى «ج» وساقطة فى « الزيتونة» .

محمد بن يحيي بن محمد بن يحيي بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن سعد الأشعرى المالقي

يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن بكر ، من ذرية بَلْج بن يحيي بن خالد بن عبد الرحمن بن يزيد بن أبي بُردة . واسمه عامر بن أبي عامر بن أبي موسى . واسمه عبد الله بن قيس صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ذكره ابن حزم[١] في جملة من دخل الأندلس من العرب[٢] .

حـــاله

من « عائد الصلة » . كان من صدور العلماء ، وأعلام الفضلاء ، سذاجةً ونزاهة ومعرفة وتفنناً . فَسِيحَ الدرس ، أصيل النظر ، واضح المذهب ، مؤثراً للإنصاف ، عارفاً بالأحكام والقراءات ، مبرِّزاً في الحديث ، تاريخاً وإسناداً ، وتعديلاً وتجريحاً ، حافظاً للأنساب والأسماء والكُنى ، قايماً على العربية ، مشاركاً في الأصول والفروع ، واللغة والعَرُوض والفرايض والحساب مخفوض الجناح ، حسن التخلق ، عطُوفاً على الطلبة ، مُحباً في العلم والعلماء ، مجلاً لأهله ، مطَّرح التصنع ، عديم المبالاة بالملبس ، بادى الظاهر ، عزيز النفس ، نافذ الحكم ، صوَّالة ، معروف بنُصرة [من أزَرَ إليه][٣] . تقدم للشياخة ببلده مالقَة ، ناظراً في أمور العَقْد والحل ، ومصالح السكافة . ثم وُلِّى القضاء بها ، فأعزَّ الخطة ، وترك

---

(١) في كتابه (جمهرة أنساب العرب) .

(٢) وردت في «ج» و «الملكية» (المغرب) والتصويب من «الزيتونة» .

(٣) هذه العبارة واردة في «ج» . وساقطة في «الزيتونة» .

المودة ، [وإنفاد الحق][1] ملازماً للقراءة والإقراء ، محافظاً للأوقات ، حريصاً على الإفادة .

ثم ولِّي القضاء والخطابة بغرناطة فى العشر الأول لمحرم سبعة وثلاثين وسبعماية ، فقام بالوظايف ، وصدع بالحق ، وجرَّح الشهود فزيَّف منهم ما ينيف على السبعين عدداً ، واستهدف بذلك إلى معاداةٍ ومناضلة ، خاض ثبَجها،وصادم تيَّارها ، غير مبال بالمغبَّة ، ولا حافل بالتَّبِعة ، فناله لذلك من المشقة ، والكيد العظيم ، ما نال مثله . حتى كان يمشى إلى الصلاة ليلا فى مِسَلَّة . لا يطمئن على حاله . جرت فى هذا الباب حكايات إلى أن استمرت الحال على ما أراده الله ، وعزم عليه الأمير فى بعض من الخطَّة ، ليردَّه إلى العدالة ، فلم يجد فى قناته مَغْمَزاً ،ولا فى عوده مَعْجَما ، وتصدَّر لبَثِّ العلم بالحضرة ، يقرى[2] فنوناً منه جمَّة ، فنفع وخرَّج ، ودرَّس العربية والفقه والأصول ، وأقرأ القرآن ، وعلم الفرايض والحساب ، وعقد مجالس الحديث ، شرحاً وسماعا ، على سبيل[3] من انشراح الصَّدر ، وحُسْن التحمُّل ، وخَفْض الجناح .

وذكره القاضى المؤرخ أبو الحسن بن الحسن ، فقال ، وأما شيخنا ، وقريبنا مصاهرةً ، أبو عبد الله بن أبى بكر ، فصاحب عزم ومَضاء ، وحُكْمٍ صادع وقضاء . كان له رحمه الله ، مع كل قَوْلة ، صَوْلة ، وعلى كل رابع لا يعرف ذرَّة ، فأحرق قلوب الحَسَدة والضُّب،وأعزَّ الخطة ، بما أزال عنها من الشَّوائب،وذهَّب وفضَّض[4]

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . والمقصود بها ترك أهدار الحق ، أو بعبارة أخرى الحرص على إقامته .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (يقرأ) .

(٣) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (سبل) .

(٤) ذهب وفضض ، أى جعلها ناصعة كالذهب والفضة .

كواكب الحق بمعارفه ، ونَفَذَ فى المشكلات ، وثَبَت فى المنهلات ، واحتج وبكَّت ، وتفقَّه ونسكَّت[١] .

توقيعه

قال ، وحدثنا صاحبنا ، أبو جعفر الشُّقُورى ، قال كنت قاعداً فى مجلس حُكمِه ، فرفعَت إليه امرأة رُقعة ، مضمونها أنها مُحبَّة فى مُطلِّقها. وتبتغى من يَسْتَشْفع[٢] لها فى رَدِّها ، فتناول الرُّقعة ، ووقع فى ظهرها الحين من [غير][٣] مُهْلة : الحمد لله ، من وقف على ما بالمقلوب[٤] ، فليصغ لسماعه إصاغَة مُغيث ، وليَشْفَع للمرأة عند زوجها ، تأسِّياً بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لبَرْبرَة فى مُغيث . والله يُسْلِم لنا العقل والدين ، ويسلُكُ بنا مسالك المُهْتَدين . والسلام يعتمد على من وقف على هذه الأحرف من كاتبها ، ورحمة الله . قال صاحبنا ، فقال لى بعض الأصحاب ، هلاَّ كان هو الشفيع لها . فقلت الصحيح أنّ الحاكم لا ينبغى أن يباشر ذلك بنفسه على النصوص .

شعره

ولم يُسْمع له شعر إلاَّ بيتين فى وصف قوس عربى انْتَسَب فى شعر من لا شعر له ، وهما :

عام الفؤاد فى بنت النَّبع والنَّشم [زوراً تُزْرى بعطف البان والصَّنَم][٥]
قَوامُ قامتها تمامُ معطفها من يلق مقتلها تُصميه أو تُصم

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة مرة أخرى (وبكت) . ونعتقد أن التعديل أرجح وأكثر تمشياً مع مقتضيات البيان والسجع .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» «والملكية» ، وفى «ج» (يشفع) والأولى أرجح .

(٣) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٤) بالمقلوب هنا يقصد بها ما بظهر الورقة .

(٥) هكذا وردت هذه الشطرة فى «ج» و «الزيتونة» . ووردت فى «الملكية» (زورا ترى بعطف البان والصنم) .

مشيختــه

قرأ على الأستاذ المتَفَنِّن الخطيب أبي محمد بن أبي السداد الباهلي القرآن العظيم جَمْعاً وإفراداً ، وأخذ عنه العربية [والفقه](١) والحديث، ولازمه ، وتأدب به . وعلى الشيخ [الراوية](٢) الصالح أبي عبد الله محمد بن عيَّاش الخَزْرجي القرطبي ، قرأ عليه كثيراً من كُتُب الحديث ، منها كتاب صحيح مُسلم ، وسمع عليه جميعه إلا دولة واحدة . ومن أشياخه القاضي أبو القاسم قاسم بن أحمد بن حسن بن السَّكوت . والفقيه [المُشاور](٣) ، الصَّدر الكبير ، أبوعبد الله بن ربيع ، والخطيب(٤) القُدْوة الولي أبو عبد الله بن أحمد الدَّمجالي ؛ والشيخ القاضي أبو الحسن ابن الأستاذ العلامة أبي الحجاج بن مصامد، والأستاذ خاتمة المُقْرِيين أبو جعفر بن الزُّبير ، والخطيب المحدِّث أبو عبد الله بن رُشَيد . والخطيب الولي الصالح أبو الحسن بن فضيلة ، والأستاذ أبو الحسن بن اللَّباد المشرفي(٥) . والشيخ الأستاذ أبو عبد الله بن الكماد السَّطِّي اللَّبليسي . وأجازه من أهل سبتة شيخ الشُّرَفا أبو علي بن أبي التُّقى طاهر بن ربيع ، والعدل الراوية أبو فارس عبد العزيز بن المواري ، وأبو إسحاق التلمساني . والحاج [العدل](٦) الراوية أبو عبد الله بن الحصّار ، والأستاذ المقرى ابن أبي القاسم بن عبد الرحيم القيسي ، والأستاذ أبو بكر ابن عُبيدة ، والشيخ المعمر أبو عبد الله بن أبي القاسم بن عبيد الله الأنصاري . ومن أهل إفريقية الأديب المعمر أبو عبد الله محمد بن هارون ، وأبو العباس أحمد

(١) هذه الكلمة واردة فى «ج» . وساقطة فى المخطوطين الآخرين .

(٢) واردة فى «ج» وساقطة فى المخطوطين الآخرين .

(٣) واردة فى «ج» وساقطة فى المخطوطين الآخرين .

(٤) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة» . وفى «الملكية» (والفقيه) .

(٥) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة» . وفى «الملكية» (المسرفى) .

(٦) الزيادة من «الزيتونة» .

ابن محمد الأشعرى المالقى [نزيل تونس](١) ومحمد بن محمد بن سيِّد الناس اليَعْمُرى، وعثمان بن عبد القوى البَلوى. ومن أهل مصر النسَّابة شرف الدين عبد المؤمن ابن خلف الدِّمياطى. والمحدِّث الراوية أبو المعالى أحمد بن إسحاق، وجماعة غيرهم من المصريين والشاميين والحجازيين.

مــــولده

فى أواخر ذى حجة من عام أربعة وسبعين وستماية.

وفــــاته

فُقِد فى مصاب المسلمين يوم المناجزة بطريف(٢) شهيداً [مُحَرِّضاً](٣)، زعموا أن بَغْلة كان عليها [كَبَتْ به](٤)، وأملق رابط الجأش، مجتمع القُوى. وأشار عليه بعض المنهزمين بالركوب فلم يكن عنده قوة عليه. وقال انصرف هذا يوم الفرج، إشارة إلى قوله تعالى فى الشهداء «فرحين بما آتاهم الله من فضله»، وذلك ضحى يوم الإثنين السابع من جمادى الأولى عام أحد وأربعين وسبعمائة.

---

(١) واردة فى «ج». وساقطة فى «الزيتونة» و«الملكية».

(٢) موقعة طريف هى الموقعة العظيمة التى نشبت بين الجيوش الإسبانية المتحدة بقيادة ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة، وبين الجيوش المغربية بقيادة السلطان أبى الحسن المرينى ومعها قوات الأندلس بقيادة السلطان يوسف أبى الحجاج ملك غرناطة، على مقربة من ثغر طريف، وعلى ضفاف نهر سالادو الصغير، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ (أكتوبر سنة ١٣٤٠ م) وهزم فيها المسلمون هزيمة شديدة. وكانت محنة عظيمة بالنسبة للمغرب والأندلس.

(٣) واردة فى «ج». وساقطة فى «الزيتونة» و«الملكية».

(٤) واردة فى «ج». وساقطة فى «الزيتونة».

محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن محمد
ابن على بن موسى بن إبراهيم بن محمد بن ناصر بن حيُّون بن القاسم
ابن الحسن بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب
[رضى الله تعالى عنه][(١)]

حسبما نقل من خطه:

أوَّليَّته معروفة [كان وليتَه مثله][(٢)] .

حالــه

هذا الفاضل جُملة من جُمل الكمال ، غريب فى الوقار والحصافة ، وبلوغ المدى، واستولى على الأمر حِلْماً وأناة ، وبُعْداً عن الريب[(٣)] ، وتمسكاً بعُرى النزاهة ، واستمساكاً مع الاسترسال، وانقباضاً مع المُداخلة ، معتدلُ الطريقة ، حسن المداراة ، مالكاً أزمَّة الهوى ، شديد الشفقة ، كثير المواساة ، مَغَار حَبْل الصبر ، جميل العشرة ، كثيف سِتْر الحيا ، قوى النفس ، رابط الجأش ، رقيق الحاشية ، مُمتع المجالسة ، متوقد الذهن[(٤)]، أصيل الإدراك ، بارعاً بأعمال[(٥)] المشيخة، إلى جلال المُنْتَمى ، وكرم المَنْصِب، ونزاهة النفس، وملاحة الشَّيْبة[(٦)] . وحمل راية البلاغة، والإعلام فى ميادين البيان، رُحْلة الوقت فى التبريز بعلوم اللسان. حايه

(١) هذه العبارة واردة فى «الزيتونة» و «الملكية» . وساقطة فى «ج» .

(٢) هذه العبارة واردة فى «ج» وساقطة فى «الزيتونة» . و «الملكية» .

(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى «الملكية» . ووردت فى «ج» (المريب) .

(٤) هكذا فى «الزيتونة» وفى «الملكية» . وفى «ج» (الزهد) وهو تحريف .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة (باغفال) ، ونعتقد أن التصويب يتمشى مع السياق

(٦) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة .

الخصْل [والفضل](١) فى ميدانها، غريبةُ غَريزة الحِفْظ، مُقْنِعة الشّاهد، مُسْتبحرة النظر، أصيلةُ التوجية، برية عن النَّوكَ والغفلة، مرهفةٌ باللغة والغريب، والخَبَر والتاريخ والبيان، وصناعة البديع وميزان العَرُوض، وعلم القافية وتقدُّماً فى الفقه، ودرماً له، وبراعةً فى الأحكام، وإتقان التَّدريس، والصبر، والدُّؤوب عليه، بارعُ التصنيف، حاضر الذهن، فصيحُ اللسان [مَفْخَرة من مفاخر أهل بيته](٢).

ولايتـــــه

قَدِم على الحَضْرة فى دولة الخامس من ملوك بنى نصر(٣)، كما استجمع شبابه، يَفْهَق عِلْماً باللسان، ومعرفةً بمواقع البيان، وينطق بالعَذْب الزُّلال من الشعر. فسَهُل له كَنَف البر، ونُظِم فى قلادة كتاب الإنشاء، وهو إذ ذاك ثمينةُ(٤) الخَرَزات، محكمةُ الرَّصف(٥) [فشاع](٦) فضله، وذاع رجله(٧). [ثم تقدم](٨)، فنقل من طور الحكم، إلى أن قُلّد [الكتابة](٩) والقضاء والخطابة بالحاضرة، بعد ولاية غيرها [التى أعقبها ولاية مالقة](١٠) فى الرابع من شهر ربيع الآخر

---

(١) واردة فى «الزيتونة» و «الملكية». وساقطة فى «ج».

(٢) هكذا وردت هذه الجملة فى «ج»، وفى «الملكية». ووردت فى «الزيتونة» (مفخر أهل بيته).

(٣) الخامس من ملوك بنى نصر، ملوك غرناطة، هو السلطان أبو الوليد إسماعيل، وقد حكم من سنة ٧١٣ إلى سنة ٧٢٥ هـ (١٣١٤ – ١٣٢٥ م).

(٤) وردت محرفة فى المخطوطات الثلاثة (ج – ثمنية. الزيتونة – تمية. الملكية – تمنية).

(٥) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة». وفى الملكية (وصف). والأولى أرجح.

(٦) أضيفت هذه الكلمة ليستقيم السياق.

(٧) وردت فى «ج» و «الملكية» (أرجله).

(٨) واردة فى «ج». وساقطة فى «الزيتونة».

(٩) الزيادة من «الزيتونة».

(١٠) هذه العبارة واردة فى «ج». وساقطة فى «الزيتونة» و «الملكية».

عام سبع وثلاثين وسبعماية . فاضطلع بالأحكام ، وطبّق مفصل الفضل [ماضى الصريمة ، وحيّ الإجهاز][١] ، نافذ الأمر ، عظيم الهيبة ، قليل الناقد ، مُطعم التوفيق ، يصدع فى مواقف الخطب ، بكل بليغ من القول ، مما يُريق ديباجته ، ويشف صقاله ، وتبرأ من كلال الخطباء جوانبه وأطرافه . واستعمل فى السفارة للعدوّ ناجح المسعى ، ميمون النقيبة ، جزيل الحياء والكرامة . إلى أن عُزل عن القضاء فى شعبان من عام سبعة وأربعين وسبع ماية ، من غير زلّة تخفض[٢] ، ولا هنة تؤثر ، فتحيزّ إلى التحليق لتدريس العلم ، وتفرّغ لإقراء العربية والفقه . ولم ينشب أميره المنطوى على الماجس ، المغرى بمثله ، أن قدّمه قاضياً بوادى آش ، بنت حضرته ، معززة بسندها الكبير الخطة . فانتقل إليه بجملته ، وكانت بينه وبين شيخنا أبى الحسن بن الجيّاب ، صداقة صادقة ، ومودة مستحكمة ، فجرت بينهما أثناء هذه النقلة بدايع ، منها قوله ، يوسى عنه خطّة القضاء التى اخترمها ، ويوليها خطة الملامة :

لا مرحباً بالناشز الفارك ... إن جهلت رفعة مقدارك

لو أنها قد أوتيت رشدها ... ما برحت تعشو إلى نارك

أقسمت بالنور المبين الذى ... منه بدت مشكاة أنوارك

ومظهر الحكم الحكيم الذى ... يتلو عليه طيّب أخبارك

ما لقيت مثلك كفواً لها ... ولا أوت أكرم[٣] من دارك

ثم أعيد إلى القضاء بالحضرة ، فوليها ، واستمرت حاله وولايته على متقدّم سمته من الفضل والنزاهة والمراجعة فيما يأنف فيه من الخروج عن الجادّة ، إلى أن

---

(١) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٢) هكذا وردت فى «الملكية» . ووردت فى «ج» (تحفظ) . والأولى أنسب لاستقامة السياق .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة (الكريم) . وبالتصويب يستقيم الشعر والمعنى .

هلك السلطان مُستَقضية مأموماً به، مُقتدياً بسجدته، يوم عيد الفطر، خمسة وخمسين وسبعماية. وولى الأمر ولده الأسعد. فجدَّد ولايته، وأكَّد تجلّته، ورفع رتبته. واستدعى لمجالسته

مشيخته

قرأ ببلده سَبْتة على أبيه الشريف الطاهر، نسيج وحده [في القيام] (١). وعلى أبي عبد الله بن هانى [وبه جلّ] (٢) انتفاعه، وعليه جلّ استفادته. وأخذ عن الإمام شيخ المشيخة أبي إسحاق الغافقي. وروى عن الخطيب أبي عبد الله الغُمارى، والخطيب المحدث أبي عبد الله بن رُشَيد. والقاضي أبي عبد الله القرطبي، والفقيه الصالح أبي عبد الله بن حُريث. وأخذ عن الأستاذ النظار أبي القاسم بن الشاط وغيره.

محنته

دارت عليه يوم مَهلك السلطان المذكور [رَحى الوَقيعة] (٣)، فَمَركته بالثِّقال. وتخلّص من شِرارها هَوْلاً (٤): لتَطارح الأمير المتوَثّب (٥) أمام المَرِيَّة عليه، خاتماً في السَّجدة، ودَرْس الحُماة إياه عند الدَّجاة، من غير التفات لمحل الوَطْأة، ولا افتقاد (٦) لمحل (*) صلاة تلك الأُمَّة. فغشيه من الأَرْجُل، رَجْلُ الربى كثيرة.

(١) هذه العبارة واردة في «ج». وساقطة في «الزيتونة» و «الملكية».
(٢) الزيادة من «الزيتونة».
(٣) هذه العبارة واردة في «ج». وساقطة في «الزيتونة» و «الملكية».
(٤) كذا في «ج». وفي «الزيتونة».
(٥) وردت في «ج» (المتبث) والتصويب من «الزيتونة».
(٦) هكذا وردت في «الملكية». وفي «ج» (إبتغاء).
(*) إلى هنا تمت المراجعة على مخطوط «الإحاطة» المحفوظ بخزانة الرباط الملكية، إلى جانب مخطوط الزيتونة. وهو ينتهي حسبما ذكرنا في المقدمة بالترجمة الحالية. وستجرى المراجعة منذ الآن فصاعدا على مخطوط «الزيتونة» وحده.

والتفَّ عليه مُرسل طيلسانه، ساداً مجرى النَّفَس إلى قلبه ، فعالج الحِمام وقتاً ، إلى أن نفَّس الله عنه. فاستقلَّ من الرَّدَى، وانتبذ من مُطَّرح ذلك الوَغَى، وبُودِر بالفَصاد، وقد أشْفَى. فكانت عثرة لقيت لَماً ومتاعاً. فسح له المدى آخر من يوثق به، من محل البَث، ومودعات السِّرِّ من حظِيَّات المَلِك، أن السلطان عرض عليه قبل وفاته فى عالم الحلم، كونُه فى محراب مسجده. مع قاضيه المُتَرجم به. وقد أقدم عليه كَلبٌ. أصابه بثوبه، ولطَّخ ثوبه بدمه، فأهمَّته رؤياه. وطَرَقت به الظنون مطارقها، وهمَّ بعزل القاضى، انقياداً لبواعث الفكر ، وسدّاً لأبواب التوقيعات، وقد تأذن الله بإرجاء العزم، وتصديق الحلم ، وإمضاء الحكم، جلّ وجهه. وعزَّت قدرتُه . فكان من الأمر ما تقرر فى محله .

تصانيفه

وتصانيفه بارعةٌ. منها. رَفْعُ الحُجُب المستورة فى محاسن المَقْصُورة(١). شرح فيها مقصورة الأديب أبى الحسن حازم بما تتطلع الأطماع فيه. ومنها رياضة الأبى فى قصيدة الخزرجى. أبدع فى ذلك بما يدل على الاطلاع وسَداد الفهم . وقيَّد على كتاب التَّسْهيل لأبى عبد الله بن مالك تَقْييداً جليلاً، وشرحاً بديعاً ، قارب التمام. وشرع فى تَقْييدٍ على الخبر المسمى، بدُرَر السِّمْط فى خبر السِّبْط . ومحاسنه جمة، وأغراضه بديعة .

شعــــره

وإما الشعر فله فيه القِدْح والمُعَلَّى، والحظُّ الأوفى، والدُّرجة العليا، طبقة وقته ،

---

(١) «المقصورة» المشار إليها هنا هى القصيدة الطويلة التى وضعها أديب المغرب الكبير الإمام أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجنى الأندلسى فى مدح الخليفة الحفصى أبى عبد الله محمد المستنصر بالله ، والشرح الذى وضعه لها أبو القاسم محمد بن أحمد الحسنى السبتى هو شرح كبير يقع فى مجلدين ومنه نسخ مخطوطة فى الخزائن المغربية وغيرها . وقد طبعت المقصورة وشرحها بالقاهرة (سنة ١٣٤٤هـ)

ودرجة عصره، وحجة زمانه، كلامه متكافئ فى اللفظ والمعنى، صريح الدلالة، كريم الخيم، متحصد الجبل، خالص السبك. وأنا أثبت منه جزءاً، خصنى(١) به، سماه جهد المقل. اشتمل من حر الكلام على مالا كفاء(٢) له.

الحمد لله ترددُه أخرى الليالى، فهو المسئول أن يعصمنا من الزلل(٣)، زلل القول، وزلل الأعمال. والصلاة على سيدنا محمد خاتم الإرسال. هذه أوراق ضمنتها جملة من بنات فكرى، وقطعاً مما يجيش به فى بعض الأحيان صدرى. ولو حزمت(٤) لأضربت عن كتبها كل الإضراب، ولزمت فى دفنها وإخفائها دين الأعراب، لا كنى(٥) آثرت على المحو الإثبات، وتمثلت بقولهم(٦) [إن خير ما] (٧) أوتيته العرب الأبيات. وإذا هى عرضت على ذلك المجد، وسألها كيف نجت من الوأد، فقد أوتيتها من حرمكم(٨) إلى ظل ظليل، وأحللتها من بنايكم معرساً ومقيل، وأهديتها علماً بأن كرمكم، بالإغضاء عن عيوبها جد كفيل، فاغتنم قلة التهدية منى، إن جهد المقل غير قليل، فحسبها شرفاً أن تبوأت فى جنابك كنفاً، وكفاها مجداً وفخراً، أن عقدت بينها وبين فكرك عقداً وجواراً، [ومما قلت فى حرف الهمزة] (٩).

مـــــولده

بسبتة فى السادس لشهر ربيع الأول من عام سبعة وتسعين وثمانية.

---

(١) وردت فى «ج» (أخصنى). والتصويب من «الزيتونة».

(٢) هكذا وردت فى «ج». وفى «الزيتونة» (كفو).

(٣) وردت هذه الكلمة فى «الزيتونة» وحده، ووردت محرفة (الزلال).

(٤) هكذا فى «ج». وفى «الزيتونة» (حرمت).

(٥) هكذا فى «ج» وفى «الزيتونة» (لاكنى).

(٦) وردت فى «ج» (بقوله). والتعديل أنسب للسياق.

(٧) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج». ووردت فى «الزيتونة» (إن من أحسن ما).

(٨) وردت فى «ج» (كرمكم). والتصويب من «الزيتونة».

(٩) وردت هذه العبارة هكذا فى المخطوطين. ولم يليها شىء.

وفـــاته

وفى قاضياً بغَرناطة فى أوايل شعبان من عام ستين وسبعماية .

محمد بن أحمد بن عبد الملك الفشتالى[١]

قاضى الجماعة ببَيضَة الإسلام فاس، يكنى أبا عبد الله .

حالـه

هذا الرجل له أبُوَّة صالحة، وأصالة زاكية، قديم الطلب، ظاهر التخصُّص، مفرط فى الوقار [نابه البزَّة والركبة، كثير التَّهمة، يُوهم به الفارّ][٢]، وصدرُ الصُّدُور فى الوثيقة والأدب، فاضل النفس، مَمْحُوض النصح، جميل العشرة لإخوانه، مُجرى الصَّداقة [نُصحاً، ومشاركة، وتَنَفيقا، على سجيَّة الأشراف وسُنَن الحُسباء][٣]، مديدُ[٤] الباع فى فن الأدب، شاعر مجيد، كاتب بليغ، عارف بالتَّحسين والتَّقبيح، مَنْ أدركه، أدرك عَلَماً من أعلام المشيخة. قدَّمه السلطان الكبير العالم أبو عنان فارس، قاضياً بحضرته، واختصَّه، واشتمل عليه، فاتصل بعده سعدُهُ[٥]، وعُرف حقه. وتردد إلى الأندلس فى سبيل الرسالة عنه، فذاع فضله، وعُلم قدره. ولما كان الإزعاج من الأندلس نحو النَّبْوَة[٦] التى أصابت

---

(١) نسبة إلى فشتالة وهى إحدى القبائل الجبلية التى تقطن فى شمالى مدينة فاس .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٣) هذا أيضا وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٤) وردت فى المخطوطين (مديع) ، وبالتصويب يستقيم السياق .

(٥) وردت فى «ج» وكذا فى «الزيتونة» (استعاله) . ونعتقد أن بهذا التصويب يستقيم السياق .

(٦) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (بحو النبوة) . والنبوة هنا تعنى السقطة أو النكسة .

الدولة ، بَلَوْتُ من فضله ونصحه وتأنيسه ، ما أكدَّ الغبطة ، وأوجب الثناء ، وخاطبته بما نصه :

من ذا يَعُدُّ فضائل الفِشْتالى ... والدهر كاتب آيِها والتّالى
عَلَمٌ إذا التمسوا الفنون بعلمه ... مرعى المُشيح[١] ونُجعة المُكتال
نال الذى لا فوقها من رفعة ... ما أمَّلتها حيلةُ المحتال
وقفى قياس تراثه عن جدِّه ... إن للمُقدّم فيه عين التالى

قاضى الجماعة ، بماذا أثنى على خلالك المُرْتَضاة[٢] ، أبِقَديمك الموجب لتَقْديمك ، أم بحديثك الداعى لتحمُّل حديثك ، وكلاهما غاية بَعُدَ مرماها ، وتحامى المُتَصور حماها ، والضالع لا يسام سَبْقاً ، وللمُنْبَتُّ لا أرضا قطع ، ولا ظهراً أبقى . وما الظن بأصالة تعترف [بها][٣] الآثار وتشهد ، وأُبُوة صالحة ؛ كانت فى غير ذات الحق تزهد ، وفى نيل الاتصال به تجهد ، ومعارف تقرر قواعد الحق وتمهد ، وتهزم الشُّبه إذا تشهد . وقد علم الله أن جوارك لم يُبق للدهر على جوار ، ولا حتَّ من غصنى ورقاً ولا نوَّارا[٤] . هذا وقد زأر على أسَدٍ وحمل نوراً[٥] . فقد أصبحتُ فى ظل الدولة التى وقف على سيدى اختيارها ، وأظهر خلوصُ إبريزه معيارَها ، تحت كنف وعزٌ مؤتنف ، وجوار أبى دلف ، وعلى ثقة من الله بحسن[٦] خلف . وما منع من انتساب ما لديه من الفضائل إلا رحلة ،

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (المهم) .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (المرضاة) والأولى أرجح .
(٣) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .
(٤) وردت فى المخطوطين (نورا) ونعتقد أنه بالتصويب يستقيم السياق .
(٥) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (نورا) وهو تحريف .
(٦) وردت فى «ج» (بجس) . وفى «الزيتونة» (بجس) . وبالتصويب يستقيم السياق .

لم يَبْرُك بعد حِمْلها ، ولا قرّ عملها ، وأوحال حال بيني وبين مُسوُر البلد القديم[١] مَهْلها . ولولا ذلك لاغتبطت الزّايد[٢] ، واقتنيت الفوايد ، والله يطيل بقاه ، حتى تتأكد القربة ، التي تُنسي[٣] بها الغُرْبة ، وتمظم الوسيلة ، التي لا تُذْكَر معها الفضيلة . وأما ما أشار به من تقييد القصيدة التي نَفِق سوقها استحسانه ، وأنس باستظرافها إحسانه ، فقد أعمل وما أهمل ، والقصور باد إذا تأمّل ، والإغضاء أولى ما أمّل ، فإنما هي فكرة ، قد أخمدت نارها الأيام ، وغيرت آثارها اللّيام . وقد كان الحق إجلال مطالعة سيدى من خَلَلها ، وتنزيه رجله عن تقبيل مُرتجلها . لاكنّ أمرَه مُمتثل ، وأتى من المجد أمراً لا مرد له مَثَل . والسلام على سيدى من مُعظم قدره ، ومُلتزم برّه ، ابن الخطيب ، ورحمة الله .

فكتب إلىّ مراجعاً ، وهو المليءُ بالإحسان :

وافت يجرُّ الزهو فضلة بُردها ... حسناء قد أضحَت نَسيجة وحدها
لله أى قصيــــدة أهديت لو ... يهتدى المُعارض نحو غاية قصدها
لابن الخطيب بها محاسنُ جَمّةُ ... قلوعت عنه الخطوب فَفَلّت من حدّها
سِرُّ البــلاغة عنه أودع حافظاً ... قد صانه حتى فَشَى من عنـــدها
فى غير عقـــد نفثته[٤] بسحرها ... فإذا أتى سَلِساً منظّم عقــــدها
لم أدرِ ما فيهـــا وقت معاوناً[٥] ... من طرسها أو مُعْلماً من بُردها

---

(١) يقصد مدينة فاس القديمة أو فاس البالى ، وذلك تمييزا لها عن «البلد الجديد» وهو ضاحيتها الذى به مقر الملك والبلاط .

(٢) وردت فى «ج» (الرايد) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٣) وردت فى المخطوطين (تنسى) . وهو تحريف اقتضى التصويب .

(٤) وردت فى «ج» (نفثت) . وفى «الزيتونة» (نبشت) . والتصويب زجج .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطين .

حتى دفعتُ بها لأبعـــد غاية ... باعاً نَقْصُر فى البلوغ بحدِّها
حدان(١) من نظم ونثر إنَّ من ... يلقاها منها بذِلَّة عبْــدها
أولى يداً(٢) بيضاء موليها فما ... لى مزيَّة أن أقوم بحمــدها
ورفضت تكذيب المُنى متشيِّعاً ... لَعَلىَّ مرآها يُصادق وعدَها
فبذلتُ شعرى وافعاً من بِرِّها ... وهززتُ عِطْفى رافلا من بُرْدها

خُذْها أعزَّ الله جنابك، وأدال للأُنْس على الوَحْشة اغترابك، كغبَّة(٣) الطائر المتجهد، ونُهبة الثائر المُسْتوفز، ومِقَة(٤) اللَّحظ، قليلةُ اللَّفظ، قد جُمعت من سُوامها واقتحامها، بين نَظَم قيد، وصُلود زَنْد، ونَوَّعت، فعلى إقدامها وانحجامها(٥) إلى قاصر ومُمْتد، وليتنى إذا جادت سحابةُ ذلك الخاطر الماطر الوَدْق، وانجاب(٦) العانى عن مُزْنة فكرتى، بتقاضى الجواب، انجياب(٧) الطَّوْق، وأيقنتُ أنى قد سُدَّ على باب القول وأُرْتِج، وقلت هذه السَّالفة الكلية فسمحت لها الدَّاعِة من تكلُّم الإمرة [ولم أفه إذ أعوزت المُرَّة بالحُلْوة](٨)، لا كنى قلتُ، وجَدُّ المُكثر كجُهْد المُقِلِّ، والواجب قد يقلُّ الامتثال فيه بالأقلِّ. فبعثت بها على علاَّتها، وأبلغتها عذرها. فى أن كتبَت عن شوقها بِلِغاتها، وهى لا تعْدَم من سيدى فى إغضاء كريم، وإرضاء سليم. والله عزَّ وجل يَصِل بالتأنيس الحَبْل، ويجمع الشَّمْل.

---

(١) وردت فى «ج» (خوان). والتصويب من «الزيتونة».
(٢) وردت فى المخطوطين (يد). ولزم التصويب.
(٣) وردت فى المخطوطين (كتفة). وبالتصويب يستقيم السياق. والغبة هى البلغة اليسيرة.
(٤) هكذا فى المخطوطين. ويقصد بها هنا اللحظ الضعيف أو الفاتر.
(٥) هكذا وردت فى «ج». وفى «الزيتونة» (وانجامها).
(٦) وردت فى المخطوطين (وانجابة). وبالتصويب يستقيم السياق.
(٧) وردت فى «ج» (انجاب) فلزم التصويب.
(٨) هذه العبارة واردة فى «ج». وساقطة فى «الزيتونة».

والسلام الكريم يخص تلك السيادة ورحمة الله وبركاته . من محمد بن أحمد الفشتالى .

وهو الآن قاض بفاس المذكورة محمود السيرة، أبقاه وأمتع به .

محمد بن محمد بن أحمد بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبى بكر بن على [بن داود] (١) القرشى المقرى

يكنى أبا عبد الله . قاضى الجماعة بفاس وتلمسان .

أوليتـــــه

نقلت من خطه، قال . وكان الذى اتخذها من سلفنا قراراً بعد أن كانت لمن قبله مراراً، عبد الرحمن بن أبى بكر بن على المقرى، صاحب أبى مدين (٢) . الذى دعا له ولذريته. بما ظهر فيهم من قبول وتبين . وهو أبى الخامس [فأنا محمد بن محمد بن أحمد بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الرحمن] (٣) ، وكان هذا الشيخ عزوى الصلاة ، حتى أنه [ربما] (٤) امتحن بغير شيء فلم يؤنس منه التفات ،

(١) الزيادة من «الزيتونة» . وهى غير واردة فى نفح الطيب .

(٢) الشيخ أبو مدين هو ولى المغرب الكبير . وضريحه بضاحية تلمسان المسماه «العباد» . وهو فى الأصل العلامة الأندلسى شعيب بن الحسين الأنصارى ، ويكنى أبا مدين . ولد سنة ٥٢٠ ﻫ بقنطلانة من أعمال إشبيلية ودرس حينا بالأندلس ، ثم عبر البحر إلى المغرب . ودرس فى سبتة وفاس ومراكش . ثم مال إلى التصوف، واعتنق طرائقه ،وسافر إلى المشرق وأدى فريضة الحج . ثم عاد إلى المغرب ، ونزل بثغر بجاية . وكان حجة لا يبارى فى الشريعة والحديث وعلوم الدين . واشتهر أبو مدين أثناء حياته بكراماته . وسمع به الخليفة الوحدى يعقوب المنصور ، وبما يتمتع به من واسع الشهرة والنفوذ ، فأمر باستدعائه إلى مراكش ، فأخذ إلى الخليفة ، ولكنه توفى فى طريقه على مقربة من تلمسان وذلك فى ربيع الأول سنة ٥٩٩ ﻫ . ودفن برابطة العباد ضاحيتها . وما زال ضريحه إلى اليوم مزاراً يقصده الألوف من الزوار من سائر أنحاء المغرب .

(٣) الزيادة من نفح الطيب (ج ٣ ص ١١٢) . (٤) الزيادة من نفح الطيب .

ولا استُشْعر منه شعور(١) . ويقال إن هذا الحضور، مما أدركه من مقامات شيخه أبى مدين . ثم اشتهرت ذريّتُهُ على ما ذُكر من طبقاتهم بالتجارة فمهّدوا طريق الصحراء بحفر الآبار، وتأمين التُّجار. واتخذوا طَبْل الرَّحيل وراية التَّقَدم عند المسير. وكان ولد(٢) يحيى، الذى كان أحدهم أبو بكر، خمسة رجال، فعقدوا الشَّركة بينهم فيما مَلَكوه وفيما يملكونه على السواء بينهم والاعتدال ، وكان أبو بكر ومحمد، وهما أرومتنا نسبى من جميع جهات [الأم والأب](٣) بتِلمسان ، وعبد الرحمن وهو شقيقهما الأكبر بسِجِلْماسة ، وعبد الواحد(٤) وعلى ، وهما شقيقاهُم الصغيران ، بأى والاتن(٥) فاتخذوا هذه الأقطار والحوايط والدّيار ، فتزوجوا [النساء](٦)، واستولدوا الإماء . وكان التلمسانى يبعث إلى الصَّحراوى(٧) [بما يُرسم له من السلع . ويبعث إليه الصحراوى بالجِلد والعاج والجَوْز والتّبر ، والسِّجلماسى كلِسان الميزان](٨) يعرّفهما بقدر الرُّجحان والخُسْران ، ويكاتبهما بأحوال التُّجار، وأخبار البُلدان، حتى اتسعت أموالُهم ، وارتفعت فى الفخامة أحوالُهم ، ولما افتتح التَّكْرُور [كورَة](٩) أى والاتن وأعمالها ، أُصِيبت أموالُهم . فيما أُصيب من أموالها. بعد أن جَمَع من كان بها منهم إلى نفسه الرِّجال، ونَصَب [دون ماله](١٠) القتال . ثم اتصل بملكهم فأكرم مَثْواه ، ومكَّنه

---

(١) وردت فى المخطوطين (شهور) والتصويب من النفح .

(٢) هكذا فى «ج» والنفح . وفى «الزيتونة» (أولاد) .

(٣) فى النفح (أبى وأمى) .

(٤) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (عبد الرحمن) والتصويب من النفح .

(٥) هذه الكلمة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» . وأى والاتن موضع بالصحراء .

(٦) الزيادة من النفح.

(٧) فى «ج» (الصحراء) . والتصويب من النفح .

(٨) ما ورد بين الحاصرتين كله ساقط فى «ج» و «الزيتونة» ووارد فى النفح .

(٩) الزيادة من النفح .

(١٠) هكذا وردت فى «ج» . وفى النفح (دونها دف مالهم) .

من التجارة بجميع بلاده ، وخاطبه بالصديق الأحبّ ، والخلاصة الأقرب . ثم صار يكاتب مَنْ بتلمسان ، يَسْتَقْضى منهم مآربه ، فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة ، وعندى من [كُتُبه](١) وكُتُب الملوك بالمغرب ، ما ينبيء عن ذلك . فلما استَوثقوا(٢) من الملوك ، تذلّلت(٣) لهم الأرض للسّلوك ، فخرجت أموالهم عن الحدّ ، وكادت تفوق الحصر والعَدّ ، لأن بلاد الصحراء ، قبل أن يدخلها أهل مصر(٤) [كانت تجلب لها من المغرب](٥) ما لا بال له من السِّلع ، فيعُاوض عنه [بما له بالٌ من الثمن](٦) . [ثم قال أبو مدين](٧) « الدنيا ضمّ جنبِ أبى حمو ، وشمل ثوباه . كان يقول لولا الشناعة لم أزل فى بلادى تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السِّلع ، ويأتون بالتِّبر الذى كل أمْرِ الدنيا له تَبع ، ومن سواهم يحمل منها الذّهب ، ويأتى إليها بما يضمحل عن قريب ويذهب ، إلى ما يُغير من العوايد ، ويجرُّ السفهاء إلى المفاسد »(٨) .

ولما هلك هؤلاء الأشياخ ، جعل أبناؤهم ينفقون مما تركوا لهم [ولم يقوموا](٩)

---

(١) الزيادة من النفح .

(٢) وردت فى «ج» (است تقوى) وفى «الزيتونة» (استانتوى) والتصويب من النفح .

(٣) هكذ فى «ج» والنفح . وفى «الزيتونة» (ذلت) .

(٤) إن الإشارة إلى أهل مصر هنا ما يستوقف النظر ، ويحمل على الاعتقاد بأن التجار المصريين ، كانوا فى ذلك العصر (القرن الرابع عشر الميلادى) يؤمون هذه الأقطار (ممالك السودان الغربى) بكثرة .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » و «الزيتونة» .ووردت فى النفح (كان يجلب إليها من المغرب) .

(٦) وردت هذه العبارة فى «ج» (بمال ومال من الثمن) . وفى «الزيتونة» (بمال من التبر) . والتصويب من النفح .

(٧) هذه العبارة واردة فى المخطوطين ، وساقطة فى النفح .

(٨) وردت هذه الفقرة التى بين الشولتين فى المخطوطين وفى نفح الطيب ، مع تغيير يسير فى بعض الألفاظ . ولم نفهم حكمة نسبتها هنا إلى الشيخ أبى مدين . وهى على العموم ظاهرة الإضطراب .

(٩) وردت فى المخطوطين (ويقولوا) . والتصويب من النفح .

بأمر التنمير قيامهم ، وصادفوا توالى الفتن ، ولم يَسْلموا من جور السلطان[1] ، فلم تزل حالهم فى نقصان إلى هذا الزمان [فها أنا ذا لم أُدْرِك فى ذلك إلا أَثْر نعمة اتخذنا فصولَه عَيْشاً ، وأصوله حُرْمة . ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب ، وأسبابٌ كثيرة تعين على الطلب ، فتفرَّغتُ بحول الله عز وجل للقراءة ، فاستوعبتُ أهل البلد لقاءً ، وأخذت عن بعضهم عَرَضا وإلقاءً ، سواء المقيم القاطن والوارد والظاعن][2]

حـاله

هذا الرجل مشارٌ إليه بالعُدوة المغربية[3] اجتهادا ، ودُؤوبا ، وحفظاً وعناية ، واطلاعا[4] ، ونَقْلاً ونزاهة ، سليمُ الصدر ، قريب الغور ، صادق القول ، مسلوب التَّصنُّع ، كثير الهَشَّة ، مفرط الخفَّة ، ظاهر السذاجة ، ذاهبٌ أقصى ، مذاهب التخلُّق ، محافظٌ على العمل ، مثابر على الانقطاع ، حريص على العبادة ، مضايق فى العَقْد والتوجُّه ، يكابد من تحصيل النيَّة بالوجه واليدين مشقَّة ، ثم يُغافِض الوقت فيها ، ويوقعها دُفْعة متْبعاً إياها زعْقَةَ التكبير ، برَجْفة ، يَنْبو عنها سمعُ من لم يكن تأنَّس بها عادة ، بما هو دليل على [حُسْن][5] المعاملة ، وإرسال السَّجية ، قديمُ النِّعمة ، مُتصل الخَيْريَّة ، مكبٌّ على النظر والدرس والقراءة ، معلوم الصِّيانة والعدالة ، منصفٌ فى المذاكرة ، حاسرُ الذراع عند المباحثة ، راحبٌ عن الصَّدر فى وَطيس المناقشة ، غيرُ [مختار][6] للقَرْن ، ولا ضانٌ

(١) فى النفح (السلاطين) .

(٢) هذه الفقرة التى بين الحاصرتين لم ترد فى المخطوطين ، ونقلناها عن النفح .

(٣) وردت فى المخطوطين (الغربية) .

(٤) هكذ فى «ج» . وفى «الزيتونة» (اضطلاعا) .

(٥) هذه الزيادة من النفح .

(٦) هذه الزيادة من النفح .

بالفايدة ، كثير الالتفاف ، متقلِّب الحدقة(١) ، جهيرٌ بالحُجَّة ، بعيد عن المُراء والمُباهتة ، قايل(٢) بفضل أولى الفضل من الطَّلبة ، يقوم أتم القيام على العَرَبيّة والفقه والتفسير ، ويحفظ الحديث ، ويتهَجَّرُ(٣) بحفظ الأخبار والتاريخ والآداب ، ويشارك مشاركة فاضلة فى الأصلين والجَدل والمَنْطق ، ويكتب ويُشْعر مصيباً فى ذلك [غرض الإجادة](٤) ، ويتكلم فى طريقة الصُّوفية كلام أرباب المقال ، ويعتنى بالتَّدوين(٥) فيها . شَرَّق وحجَّ ، ولقى جِلَّة ، واضطَّبن(٦) رحلةً مفيدة ، ثم آب إلى بلده ، فأقرأ به ، وانقطع إلى خدمة العلم . فلما وَلى ملك المغرب السلطان ، محالفُ الصُّنع ونشيدةُ الملك ، [وأثير الله من بين القرابة والإخوة](٧) أمير المسلمين أبو عنان فارس ، اجْتَذبه وخَلطه بنفسه ، واشتمل عليه ، وولاّه قضاء الجماعة بمدينة فاس ، فاستقلَّ بذلك أعظم الاستقلال ، وأنفَذَ الحكم(٨) ، وألان [الكلمة ، وآثر التَّشْديد ، وحَمَل الكَلَّ ، وخفض الجناح ، فحسُنت عنه القالة ، وأحبَّته](٩) الخاصَّة والعامة . حضرتُ بعض مجالسه للحكم ، فرأيت من صبره [على اللَّدد ، وتأتِّيه للحجج](١٠) ورِفْقه بالخصوم ، ما قضيتُ منه العجب .

---

(١) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (الحداقة) ، والتصويب من النفح .
(٢) وردت فى «ج» (قايد) . والتصويب من «الزيتونة» .
(٣) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (يتحين) . والتصويب من النفح .
(٤) هذه الزيادة من النفح .
(٥) وردت فى «ج» (بالزميق) . والتصويب من «الزيتونة» والنفح .
(٦) وردت فى «ج» (واضطر) . والتصويب من «الزيتونة» والنفح .
(٧) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» وساقط فى «الزيتونة» .
(٨) هكذ فى «ج و «الزيتونة» . وفى النفح (الحق) .
(٩) ما بين الحاصرتين ساقط فى «ج» و «الزيتونة» . ووارد فى النفح .
(١٠) هذا وارد فى «ج» والنفح ، وساقط فى «الزيتونة» .

دخوله غرناطة

ثم لمّا أُخّرَ عن القضاء ، استُعمل بعد لأْى فى الرِّسالة ، فوصل الأندلس ، أوايل جمادى الثانية من عام ست وخمسين وسبعمائة . فلما قَضَى غرض الرسالة ، وأبْرَم عَقْد وُجهته ، واحتلَّ مالقة فى مُنْصَرفه ، بَدَا له فى نَبْذِ الـكُلْفة ، واضطِّراح وظيفة الخدمة ، وحلِّ التَّقيّد ، إلى ملازمة الإمْرة ، فتقاعد ، وشهر غرضه ، وبتَّ فى الانتقال ، طمع من كان صحبته ، وأقبل على شأنه ، فَخُلِّيَ بينه وبين همّه . وتُرِك وما انتحله[١] من الانقطاع إلى ربِّه . وطار الخبر إلى مُرسله ، فأنف من تخصيص إيالته بالهجرة ، والعدول عنها ، بقَصْد التَّخَلى والعبادة ، وأنـكر ما نَحله[٢] غاية الإنكار ، من إبطال عمل الرسالة ، والانقباض قبل الخروج عن العُهْدة ، فوَغُر صدره على صاحب الأمر . ولم يُبْعد حَمْله على الظِّنَّة والمواطأة على النَّفرة ، وتجهزتْ[٣] جملةٌ من الخدَّام المُجْلين[٤] فى مأزق الشُّبهة ؛ المضطَّلعين بإقامة[٥] الحجة ، مُولين خِطةَّ الملام [مُخَيَّرين بين سحايب عاد من الإسلام][٦] ، ظَنَّة إغلاق النعمة[٧] ، وإيقاع المُثْلة ، والإساءة[٨] بسبب القطيعة والمُنابذة . وقد كان المترجمُ به لحق بغرناطة فتذَمَّم بمسجدها ، وجار بالانقطاع إلى الله ، وتوعَّد من يجُيرُه ، بنـكير من يُجير ولا يُجارعليه [سبحانه][٩] فأهَمَّ أمره ، وشغلت القلوب آبدته ، وأمسك

---

(١) هكذ وردت فى النفح . ووردت فى «ج» و «الزيتونة» (انتحل) .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . و«الزيتونة» . وفى النفح (ما حقه) .

(٣) وردت فى «ج» (تجهز) . والتصوب من النفح .

(٤) هكذ وردت فى «ج» والنفح . وفى «الزيتونة» (المجلين) .

(٥) وردت فى «ج» و «الزيتونة» (لاقالة) . والتصويب من النفح .

(٦) هذه العبارة وردت محرفة فى «ج» و «الزيتونة» . واتبعنا فيها نص النفح .

(٧) هكذ وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» والنفح (النقمة) والأولى أرجح .

(٨) هكذ وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» والنفح (الإشادة) والأولى أرجح .

(٩) الزيادة من النفح .

الرسل بخلال ما صدرت شفاعةٌ [اقتضت له رفع التَّبِعة][(١)] ، وتَرْكه إلى تلك الوجهة .

ولما تحصَّل ما تيسَّر من ذلك ، انصرف محفوفاً بعالِمَى[(٢)] القطر ، قاضى الجماعة أبى القاسم الحسنى المترجمُ به قَبْله ، والشيخ الخطيب أبى البركات بن الحاج ، مُسْتهلين[(٣)] لوروده ، مُشافِهين للشفاعة فى غرضه ، فأقشعت الغُمَّة ، وتنفَّست الكُرْبة . [وجرى أثناء هذا من المراسلة والمراجعة ، ما تضمَّنه الكتاب المسمى « بكُناسة الدُّكان بعد انتقال السُّكان » المجموع بسلا][(٤)] ما صورته[(٥)] :

« المقامُ الذى يحبُّ الشَّفاعة ، ويَرْعى الوسيلة . ويُنجز العِدَّة ، ويتمم الفضيلة ، ويُضْفى بجدِه المنَنَ الجزيلة ، ويُعْي حمدُه المادح العريضة الطَّويلة . مقام محلٍّ والدنا الذى كرمُ مجدُه ، ووضح سعدُه ، وصحَّ فى الله تعالى عقدُه ، وخلُص فى الأعمال الصالحة قصدُه ، وأعجز الألسنةَ حمدُه ، السلطان الكذا[(٦)] ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا . أبقاه الله سبحانه لوسيلةٍ يرعاها ، وشفاعة يكْرُم مسعاها ، وأخلاق جميلة تجيب دعوة الطَّبع الكريم إذا دعاها ،

---

(١) هكذ وردت هذه العبارة فى «ج» و «الزيتونة» . وفى النفح (اقتضى فيها رفع التبعة) .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» و النفح . ووردت فى «ج» (بعلمى) .

(٣) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة» . وفى النفح (مسلمين) والأولى أرجح .

(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٥) إن الرسالة التالية لم ترد فى المخطوطين . وقد أوردها المقرى فى نفح الطيب مباشرة ضمن ترجمة جده ، وهى التى نقلها بلا ريب من مخطوط أكمل من «الإحاطة» . ومن ثم فقد رأينا من الواجب إكمال الترجمة بإيراد هذه الرسالة ، معتمدين فى ذلك على نصها الذى أورده المقرى ، وكذلك على نصها الأصلى الوارد بكتاب (كناسة الدكان بعد انتقال السكان) . (راجع نفح الطيب ج ٣ ص ١١٣ و ١١٤ وكناسة الدكان – القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٥٤ – ١٥٧) .

(٦) المقصود بالسلطان الكذا هنا ، هو السلطان فارس أبو عنان المرينى ابن السلطان أبى الحسن الكبير ، ملك المغرب المتوفى فى أواخر سنة ٧٥٩ ﻫ .

مُعَظِّم سلطانُه الكبير ، وممَجِّد مقامُه الشهير ، المُتَشَيِّع لأبوّته الرفيعة ، قولا باللّسان ، واعتقادا بالضمير ، المعتمد منه بعد الله على الملجأ الأحمى ، والولىّ النَّصير . فلان(١) . سلام كريم ، طيب برّ عميم ، يخص مقامكم الأعلى ، وأبوّتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله ، الذى جعل الخُلُق الحميدة دليلا على عنايته بمن حلاّه حُلاها ، وميّز بها النفوس النفيسة ، التى اختصها بكرامته وتولاّها ، حمداً يكون كُفْواً للنعم التى أولاها ، وأعادها ووالاها ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله ، المترَقّى من درجات الاختصاص أرْفعها وأعلاها ، الممتاز من أنوار الهداية بأوْضَحها وأجْلاها ، مُطْلع آيات السعادة يروق مُجتَلاها . والرضا عن آله وصحبه الذين خَبَر صدق ضمائرهم لمّا ابتلاها ، وعَسُل ذكرهم فى الأفواه فما أعْذَب أوصافهم على الألْسُن وأحلاها . والدعاء لمقام أبوّتكم ، حرَس الله تعالى عُلاها ، بالسعادة التى يقول الفتحُ أنا طلاّع الثّنايا وابن جلَاها ، والصّنائع التى تخترق المفاوز بركائبها المُبَشّرات فتفْلى فَلاها . فإنا كتبنا إليكم ، كتَبَ الله تعالى لكم عزّةً مشيَّدة البناء ، وحشد على أعلام صنائعكم الكرام جيوش الثناء ، وقلّدكم قلائد مكارم الأخلاق ، ما يشهد لذاتكم منه بسابقة الاعتناء . من حمْراء غَرناطة حرسها الله ، والوُدُّ باهر السَّناء ، مُجِدٌّ على الأناء ، والتَشَيُّع رَحْب الدَّسِيعة والفناء .

وإلى هذا ، وصل الله تعالى سعْدَكم ، وحرس مجدَكم ، فإننا خاطبنا مقامكم الكريم ، فى شأن الشيخ الفقيه الحافظ الصالح أبى عبد الله المقَّرى ، خار الله تعالى لنا وله . وبلّغ الجميع من فضله العميم أمَله ، جواباً عمّا صدر من مثابتكم فيه ، من الإشارة المُتمثَّلة ، والمآرب المُعْمَلة ، والقضايا غير المهملة . نُصادركم بالشفاعة التى

(١) هو السلطان محمد الغنى بالله ملك غرناطة (الأندلس) الذى حكم منذ سنة ٧٥٥ هـ ، وتوفى سنة ٧٩٣ هـ ، والذى يخصه ابن الخطيب فى بداية هذا المجلد بترجمة مستفيضة .

مِثْلُها بأبوابكم لا يُردُّ ، وظمآها عن مَنْهل قبولكم لا تُجلى ولا تُصَدُّ ، حسبما سنَّه الأب الكريم والجدُّ ، والقبيلُ الذى وضُح منه فى المكارم ، الرسمُ والحدُّ . ولم نصدر الخطاب حتى ظهر لنا من أحواله صدقُ المُخَيَّلةَ ، وتَبَلَّج صُبح الزَّهادة والفضيلة ، وجُود النفس الشَّحيحة بالعَرَض الأدنى البَخيلة ، وظهر تَخَلِّيه عن هذه الدار ، واختلاطَه باللفيف والغُمار ، وإقباله على ما يُعنى مثله من صلة الأوراد ، ومداومة الاستغفار . وكُنّا لما تعرّفنا إقامته بمالقة لهذا الغرض الذى شَهَرَه ، والفضل الذى أبْرَزه للعيان وأظهره ، أمَرْنا أن يُعتنى بأحواله . ويُعان على فراغ باله ، ويُجرى عليه سَيْبٌ من ديوان الأعشار الشرعية وصريح ماله ، وقلنا أما أتاك من غير مسألة مستندٌ صحيح لاستدلاله ، ففرَّ من مالقة على ما تعرَّفنا لهذا السبب ، وقعد بحضرتنا مستُورَ المُنتمى والمُنتَسب ، وسكن بالمدرسة بعض الأماكن المعدَّة لسكنى المُتَسَمِّين بالخير ، والمحترفين ببضاعة الطَّلب ، بحيث لم يُتَعَرَّف وروده ووصوله إلا ممن لا يؤبَه بتعريفه ، ولم تتحقق زوائده وأصوله لقلة تَصْريفه . ثم تلاحق إرسالكم الجِلَّة ، فوجبت حينئذ الشفاعة ، وعُرِضت على سوق الحلم والفضل من الاستِلْطاف والاستِعْطاف البضاعة ، وقرنا ما تحققناه من أمره ، وانقباضه عن زَيْد الخلق وعُمَره ، واستقباله الوُجهة التى من ولىَّ وجهه شَطْرَها فقد آثر أثيراً ، ومن ابتاعها بمتاع الدنيا ، فقد نال فضلا كبيراً ، وخيراً كثيراً ، وسألنا منكم أن تبيحوه ذلك الغرض الذى رماه بعزمه ، وقصر عليه أقصى همِّه . فما أخْلَق مقامكم أن يفوز منه طالب الدُّنيا بسَهْمِهِ ، ويحصل منه طالب الآخرة على حظِّه الباقى وقَسْمه ، ويتوسل الزاهد بزهده والعالمُ بِعلمه ، ويعوِّل البرىء على فضله ، ويثق المذنب بحِلْمه . فوصل الجواب الكريم بمجرد الأمان ، وهو أرَبٌ من آراب ، وفائدة من جِراب ، ووجْهٌ من وجوه إعراب ، فرأينا أن المَطْل بعد جفاء ، والإعادة ليس يثقلها خفاء ، ولمجدكم بما ضَمِنَّا عنه وفاء ،

وبادرنا الآن إلى العزم عليه في ارتحاله ، وأن يكون الانتقال عن رضاً منه من صفة حاله . وأن يُقْتَضى له ثمرة المَقْصِد ، ويبلغ طِيَّة الإسعاف في الطريق إن قصد، إذ كان الأمان لمثله ممن تعلّق بجناب الله من مثلكم حاصلاً ، والدِّين المتين بين نفسه وبين المخافة فاصلا ، وطالبنا كيمياء السَّعادة بإعانتكم واصلا . ولما مُدَّت اليد في تسويغ حالة هَدْيكم عليها أبداً يُحرِّض ، وعلمكم يُصرِّح بمزيتها ولا يُعرِّض ، فكلّوا أبقاكم الله ما لم تَسِمْنا فيه مشاحةُ الكتاب ، وألحقوا بالأصل حديث هذه الإباحة ، فهو أصحُّ حديث في الباب ، ووفُّوا غرضنا من مجدكم ، وخلُّوا بينه وبين مراده من تَرْك الأسباب ، وقَصْد غافر الذنب وقابل التَّوب بإخلاص المتاب ، والتَّشمير ليوم العَرْض وموقف الحساب ، وأظْهروا عليه عناية الجناب ، الذي تَعَلَّق به . أعلق الله به يدكم من جَنَاب ، ومعاذ الله أن تعود شفاعتُنا من لَدُنكم غير مُكْمَلة الآراب . وقد بعثنا من ينوب عنا في مشافهتكم بها أحمد المناب ، ويقتضى خلاصها بالرَّغْبَة لا بالغلاب ، وهما فلان وفلان . ولولا الأعذار لكان في هذا الغرض إعمال الرِّكاب بسَبْق إعلام الكتاب ، وأنتم تُولُون هذا القَصْد من مكارمكم ما يوفر الثناء الجميل ، ويُرْبى على التَّأميل ، ويكتُب على الودِّ الصريح العقد وثيقة التَّسْجيل . وهو سبحانه يُبقيكم لتأييد المجد الأثيل ، وإنالة الرِّفْد الجزيل . والسلام الكريم يخص مقامكم الأعلى ، ومثابتكم الفضلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته . في الحادى والعشرين لجمادى الآخرة من عام سبعة وخمسين وسبعمائة [والله ينفع بقَصْده ، وييسر علينا الرجعة إلى وَجْهه وفضله»][1]

مشيخته

قال : فممَّن أخذتُ عنه ، واستفدت منه علماها[2] [يعنى تلمسان][3]

(١) هذه الخاتمة واردة في المخطوطين دون الرسالة .

(٢) وردت في «ج» (علماؤها) . وفي «الزيتونة» (عالميها) . والتصويب من نفح الطيب .

(٣) الزيادة من نفح الطيب . وهي لازمة لاستقامة السياق .

الشامخان ، وعالماها الراسخان ، أبو زيد عبد الرحمن ، وأبو موسى عيسى ، إبنا محمد بن عبد الله بن الإمام ، وحافظها ومُدرِّسها ومُفتيها أبو موسى عمران بن موسى بن يوسف المِشْذالى ، صهر شيخ المتأخرين ، أبي على ناصر الدين على إبنته ، ومشكاةُ الأنوار التي [يكاد زيتها](١) يضيء ولو لم تمسسه نارٌ ، الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن حكيم الكِنانى السَّلوى رحمه الله . ومنهم القاضى أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور ، والشيخ أبو عبد الله محمد بن الحسن(٢) البَرُّونى ، وأبو عمران موسى بومِن المَصْمودى الشهير بالبخارى . قال سمعت البرُّونى يقول : كان الشيخ أبو عمران يُدرِّس البُخارى ، ورفيق له يدرِّس صحيحَ مُسْلم ، وكانا يُعرفان بالبُخارى ومُسلم ، فشهدا عند قاض ، فطلب المشهودُ عليه بالإعذار فيهما ، فقال له أبو عمران أتمكِّنُهُ من الإعذار فى الصَّحيحين ، البُخارى ومسلم ، فضحك القاضى ، وأصلح بين الخصمين . ثم قال ، ومن شيوخى الصلحاء الذين لقيت بها ، خطيبها الشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن على الخياط ، أدرك أبا إسحاق الطيَّار . ومنهم أبو عبد الله بن محمد الكرمونى ، وكان بصيراً بتفسير الرُّؤيا ، فمن عجايب شأنه ، أنه كان فى سجن أبي يعقوب يوسف ابن عبد الحق [مع من](٣) كان فيه ، من أهل تلمسان أيام محاصرته لها ، فرأى أبا جمعة على التلالسى الجرايحى منهم ، كأنه قايم على ساقيةٍ دايرةٍ ، وجميع أقداحها وأقواسها تصب [فى](٤) نقير فى وسطها ، فجاء ليشرب ، فاغترف الماء ، فإذا فيه فرْثٌ ودَم ، فأرسله ، واغترف فإذا هو كذلك ، ثلاثاً أو أكثر ، ثم عَدَل إلى خاصَّة ماء ، فجاءها وشرب منها . ثم استيقظ ، [وهو النهار](٥) ، فأخبره ، فقال

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (زيتها يكاد) .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (الحسين) .

(٣) وردت فى المخطوطين (من) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٤) وردت فى المخطوطين (من) والتصويب أرجح .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطين .

إن صَدَقت الرؤيا ، فنحن عن قليل خارجون من هذا السجن . قال كيف ، قال الساقية الزمان ، والنَّقير السلطان ، وأنت جرايحى ، تدخل يدك فى جوفه فينالها الفَرْث والدَّم ، وهذا ما لا يحتاج معه [إلى دليل][(١)]، فأُخْرج ، فوجد السلطان مطعونا بخنجر ، فأدخل يده فى جوفه . فناله الفرث والدّم ، فخاط جراحته وخرج ، فرأى خاصّة ماء ، فغسل يده وشرب . ولم يلبث السلطان أن توفى ، وسَرَّحوا من كان فى سجنه . ومن أشياخه الإمام نسيجُ وحده ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن أحمد الآبلى التلمسانى ، وهو رُحْلَة الوقت فى القيام على الفنون العقلية ، وإدراكه وصحّة نظره .

حدَّث قال : قَدِم على مدينة فاس ، شيخُنا أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلى ، عُرف بن المُسَفِّر . رسولا من صاحب بجاية . وزاره الطلبة ، فكان مما[(٢)] حدّثهم أنهم [كانوا][(٣)] على زمان ناصر الدين ، يَسْتَشْكلون كلاماً وقع [فى][(٤)] تفسير سورة الفاتحة من كتب فخر الدين ، واستشكله الشيخ معهم . وهذا نصه : ثَبَت فى بعض العلوم العقلية ، ان المُرَكَّب مِثْل البسيط فى الجنس ، والبسيطُ مثل المُرَكَّب فى الفصل ، وأن الجنس أقوى من الفصل . فأخبروا بذلك الشيخ الآبلى لما رجعوا إليه ، فتأمله ثم قال ، هذا كلام مُصَحَّف ، وأصله أن المركَّب قَبْل البسيط فى الحِسِّ ، والبسيط قبل المركَّب فى العَقْل ، وان الحِسَّ أقوى من العقل ، فأخبروا ابن المُسَفِّر ، فلجّ : فقال لهم الشيخ ، التمسوا النسَخ ، فوجدوا فى لَفْظ بعضها كما قال الشيخ .

---

(١) أضفنا هذه العبارة لاستقامة المعنى والسياق .

(٢) وردت فى «ج» (ممن) والتصويب من «الزيتونة» .

(٣) أضفنا هذه الكلمة لاستقامة السياق .

(٤) أضفنا هذه الكلمة لاستقامة السياق .

رحلته

رحل إلى بجاية مُشَرِّقاً ، فلقى بها جلّة ، منهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن يحيي الباهلى، ابن المُسَفِّر. ومنهم قاضيها أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي يوسف يعقوب الزّواوى ، فقيه ابن فقيه . ومنهم أبو على حسن بن حسن إمام المَعْقولات بعد ناصر الدين . وبتونس قاضى الجماعة وفقيهها أبو عبد الله بن عبد السلام ، وحضر دروسه ، وقاضى المَناكح أبو محمد اللخمى ، وهو حافظُ فقهائها فى وقته ، والفقيه أبو عبد الله بن هارون شارح ابن الحاجِب فى الفقه والأصول . ثم حجّ فلقى بمكة إمام الوقت(١) أبا عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن التَّوْزَرى المعروف بخليل ، وإمام المقام أبا العباس رضىّ الدين الشافعى ، وغير واحد من الزايرين والمجاورين وأهل البلد . ثم دخل الشام ، فلقى بدمشق ، شمس الدين بن قيِّم الجَوْزية صاحب ابن تَيْمِيَّة ، وصدر الدين الغُمارى(٢) المالكى ، وأبا القاسم بن محمد اليمانى الشافعى وغيرهم . وببيت القدس أبا عبد الله بن مُثْبت(٣) ، والقاضى شمس الدين ابن سالم ، والفقيه أبا عبد الله بن عثمان ، وغيرهم .

تصـــانيفه

أَلَّف كتاباً يشتمل على أزيد من مائة مسألة فقهية ، ضمَّنها كل أصيل من الرأى والمباحثة . ودوّن فى التَّصوّف ، إقامة المُريد ، ورِحْلة المُتَبتِّل ، وكتاب الحقايق والرّقايق ، وغير ذلك .

شـــعره

نقلتُ من ذلك قوله. هذه لمحةُ العارض لتكملة [أَلْفِيَّة](٤) ابن الفارِض،

(١) وردت هذه الكلمة فى «ج» (الموقف) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) وردت فى المخطوطين (الغازى) والتصويب من النفح .

(٣) وردت هكذا فى «ج» والنفح . ووردت محرفة فى «الزيتونة» (منبت) .

(٤) الزيادة من النفح .

سلَب الدهر من فرايدها[١] مائة وسبعة وسبعين ، فاستعنت على ردّها بحول الله المعين .

من فصل الإقبال

رفضتُ السّوى[٢] وهو الطهارة عندما … تلفعتُ فى مرط الهوى وهو زينتى[٣]

وجئتُ الحمَى وهو المُصَلّى مُيمماً … بوُجهة قلبى وجهها وهو قِبلتى

وقمتُ وما استفتحت إلاّ بذكرها … وأحْرَمْتُ إحراماً لغير تحِلَّة

فدينى إن لاحَتْ ركوعٌ وإن دَنَت … سجُودٌ وإن لاهت قيامٌ بحسْرة

على أننا فى القُرْب والبُعْد واحدٌ … تألّفنا بالوصل عين التّشتُّت

وكم من هَجِير خُضت ظمآن طاوياً … إليها وديجُورٍ طويتُ برحلةِ

وفيها لقيتُ الموت أحْمَرَ والعِدا … مُزَرّقةٌ أسنان الرّماح وحدّةِ

وبينى وبين العَذْل فيها منازلٌ … تُنسيك أيام الفُجّار ومؤنة

ولما اقْتَسَمنا خطّتَينا فحامل … فجارٌ بلا أجـــر وحاملُ بَرّة

خلا مَسْمعى من ذكرها فاستعدتُه … فعاد ختامُ الأمر أصلَ القضيَّة

وكم لى على حُكم الهوى من تجلُّدٍ … دليلٌ على أن الهوى من سَجيّتى

يقول تَحيرى والأسا سالم الأسى … ولا تُوضع الأوْزار إلاّ لمحْنة

لو أنّ مجوساً بَتَّ موقدَ نارِها … لما ظلَّ إلا مَنْهلًا ذا شريعة

ولو كنتُ بحْرًا لم يكن فيه نَضْحة … لعين إذا نارُ الغرام استحرّت

---

(١) هكذا فى النفح . وفى « ج »(فوايدها) .

(٢) هكذا وردت فى النفح . وفى المخطوطين (الهوى) .

(٣) ورد فى المخطوطين هذا البيت فقط من القصيدة ، وهى فى خمسة وثلاثين بيتاً . وقد أوردها المقرى كاملة فى نفح الطيب ، وذكر خلال حديثه عن جده ، أنه نقلها عن «الإحاطة» . وكذا نقل بعدها من «الإحاطة» أربع قصائد طويلة أخرى من نظم جده . وقد رأينا نحن تكلة للنص الأصلى ، أن ننقل هذه القصائد كلها (نفح الطيب ج ٣ ص ١٦٧ — ١٧٣) .

فلا رَدْم من نَقيب المعاول آمنٌ ولا هَدْم إلاّك شُيِّد بقـــوة
فم تقول الأسْفِطسات منك أو علام مزاجٌ ركِّبت أو طبيعة
فإن قام لم يَثْبُت له منك قاعدٌ وإلاّ فأنت الدهرُ صاحب قِعْدة
فما أنت يا هذا الهوى ماء أو هوا أم النار أم دمّاس عِرْق الأمومة
وإنى على صبرى كما أنت واصفٌ وحالى أقوى القائمين بحُجّة
أقل الضَّنى إن عجّ من جسمى الضنى وما شاكه مِعْشار بعضِ شَكِيَّتى
وأيسرُ شوقى أننى ما ذكرتُها ولم أنسَها إلا احترقتُ بلَوْعة
وأخفى الجوى قرْعُ الصواعق منك فى جَواى وأخفى الوَجْد صبر المودة
وأسهل ما ألقى من العَذْل أننى أحبُّ أفلى ذكرها وفضيحَتى
وأوَجُ حظوظى اليوم منها حضيضُها بالأمس وَسْلُ حرِّ الجُفون الغزيرة
وأوجز أمرى إنّ دهـــرى كلّه كما شاءت الحسناء يوم الهزيمة
أرُوحُ وما يلقى التأسُّفُ راحتى وأغدُو وما يعدُو التفجُّع خِطّتى
وكالبيضِ بيضُ الدهر والسُّمر سوده مساءتُها فى طىِّ طيبِ المسرة
وشأنُ الهوى ماقد عرَفت ولا تسل وحسْبُك أن لم يخْبر الخب رؤيتى
سقامٌ بلا بُرء ضلالٌ بلا هَدْى أُوام بلا رىٍّ دمٌ لا بقيمـــةٍ
ولا عَتْبَ فالأيام ليس لها رضاً وإن تَرْض منها الصَّبْرَ فهو بغُيتى
ألا أيها اللُّوَّام عنى قَوِّضـــوا رِكاب ملامى فهو أولُ محنتى
ولا تَعْذِلونى فى البكاء ولا البُكى وخلُّوا سَبيلى ما استطعتم ولوْعتى
فما سَلْسَلَت بالدمع عينى إن جَنَت ولـكن رَأت ذاك الجمال فَجُنَّتِ
تجلَّى وأرجاء الرَّجاء حَوالِكٌ ورُشدى غاوٍ والعمايات عَمَّت
فلم يَسْتَبن حتى كأنى كاسفٌ وراجعتُ أبصارى له وبَصِيرتى

ومن فصل الاتصال

وكم موقف لى فى الهوى خُضت دونه ... عُباب الرّدى بين الظُّبا والأسنة
فجاوزت فى حدّى مُجاهدتى له ... مُشاهــدتى لما سمَت بى همتى
وحلّ جمالى فى الجلال فلا أرى ... سوى صورةَ التَّنزيه فى كل صورة
وغِبت عن الأغيار فى تِيه حالتى ... فلم أنتبه حتى امْتَحى اسمى وكنيتى
وكاتبتُ ناسُوتى بأمارة الهوى ... وعدت إلى اللاهوت بالمطمئنة
وعلمُ يقينى صار عيناً حقيقة ... ولم يبق دونى حاجبٌ غير هَيْبَتى
وبدّلت بالتَّلوين تمكين عزَّة ... ومن كل أحوالى مقامات رِفعَة
وقد غبت بعد الفرق والجمع موقفى ... مع المحو والإثبات عند تثبتى
وكم جُلت فى سَمِّ الخياط وضاق بى ... لبَسْطى وقَبْضى بسطوجه البسيطة
وما اخترت إلا دنَّ بقراط زاهدا ... وفى مَلَكوت النفس أكبر عبرة
وفقرى مع الصَّبر اصطفيت على الغنى ... مع الشكر إذ لم يحظ فيه مَثُوبتى
وأكتم حبى ما كَنى عنه أهله ... وأكنى إذا هُم صرَّحوا بالخبيّة
وإنى فى جنسى ومنه لواحــد ... كنوع فَفَصْل النوع علَّةُ حصَّتى
تسبَّبت فى دعوى التوكل ذاهباً ... إلى أنَّ أجْدَى حيلتى ترك حيلتى
وآخــر حَرْفٍ صار منى أولا ... مريداً وحَرْف فى مقام العُبودة
تعرَّفت يوم اوقف منزلَ قومها ... فبتُّ بجمع سدَّ خرق التشتُّت
فأصبحت أقضى النفس منها مُنى الهوى ... وأقضى على قلبى برعى الرعية
فبايعتُها بالنفس داراً سكنتُها ... وبالقلب منه منْزِلا فيه حَلَّت
فخلّص الاستحقاق نفسى من الهوى ... وأوجب الاسترقاق تسليمَ شُفْعة
فيا نَفَسُ لا ترجع تقطَّع بيننا ... ويا قلبُ لاتجزع ظَفِرت بوحدة

ومن فصل الإدلال

تبدَّب لعينى من جمالك لمحة أبادت فؤادى من سناها بلفْعَةِ
ومرَّت بسمعى من حديثك مُلحة تبدَّت لها فيك القِران وقرَّتِ
ملامى أبن عذرى استَبن وجدِّى استعن سماعى أعِن حالى أبِن قائلى أصمتِ
فمن شاهِدَىْ سُخط ومن قارِئَى رضا وتلوين أحوالى وتمكين رُتبتى
مَرَامى إشاوات مَراعى تعكر مَراقى نهايات مَراسى تَثَبُّتِ
وفى موقفى والدّار أقوت رسومها تُقَرِّب أشواقى تُبَعِّد حسرتى
مَعانى إمارات مغانى تَذَكُّر مَبانى بِدايات مثانى تلفت
وبُثٌّ غرامٌ والحبيب بحضرة وردُّ سلام والرقيب بغفلة
ومطلعُ بَدْرٍ فى قضيب على نقا فُوَيق محلٍّ عاطل دون دجية
ومَكْمَنُ سِحْرٍ بابِلى له بما حوَت أضْلُعى فعلُ القَنا السَّمهريَّة
ومنبتُ مِسْك من شقيق ابن منذر على سوسن غض بجُنَّة وجَنَّة
ورصفُ اللآلى فى اليواقيت كلما تعل بصرف الرَّاح فى كل سَحْرةِ
سلَّ السلسبيل العذب عن طعم ريقه ونُكهتُه يخبرك عن عِلْمٍ خبرة
ورُمّان كافور عليه طوابع من الندِّ لم تحمل به بنتُ مُزْنة
ولُطف هواء بين خَفق وبانَةٍ ورِقَّة ماء فى قوارير فِضَّةِ
لقد عزَّ عنك الصَّبر حتى كأنَّه سُراقة لحظ منك للمتلفِّت
وأنت وإن لم تبق منى صُبابة مُنى النفس لم تقصد سواك بوُجهة
وكلٌّ فصيح منك يُسرى لمسمعى وكل مليح منك يَبْدو لمُقْلتى
تهون علىَّ النَّفسُ فيك وإنها لتكرُم أن تَغْشى سواك بنظرة
فإن تنظرينى بالرِّضا تُشْفَ علَّتى وإن تُظْفِرينى باللقا تُطف غُلَّتى

وإن تذكريني والحيـاة بقيدها ... عدلتُ لأُمنى مُنْيتى بمنيّتى
وإن تذكريني بعد ما أسكنُ الثرى ... تجلّت دُجاه عند ذاك وولّتِ
صِليني وإلاّ جدّدي الوعد تُدركى ... صُبابة نفس أيقنت بتَفَلُّت
فما أم بَوّها لك بتنــوفة ... أقيم لها خلف الحِلاب فدرّت
فلما رأته لا ينـازع خلفها ... إذا هى لم ترسل عليه وضَنّت
بَكَتْ كلما راحت عليه وأنّها ... إذا ذكرته آخر الليل حَنّتِ
بأكثر منى لَوْعَةً غير أننى ... رأيت وقار الصّبر أحسن حِلْية
فرحتُ كما أغدو إذا ما ذكرتها ... أُطامن أحشائى على ما أجَنّت
أهوّن ما ألقاه إلاّ من القِلَى ... هوًى ونوًى نيلُ الرِّضا منك بغيتى
أخوض الصِّلَى أطفي العُلا والعلوّ لا ... أصل السّلا أرعى الخَلَى بين عَبْرتى
ألا قاتل الله الحمامة غَـدْوة ... لقد أصْلَت الأحشاء نيران لَوْعةِ
وقاتل مَغْناها وموقفَ شَجْوِها ... على الغُصن ماذا هيّجت حين غَنّتِ
فغَنّت غِناءً أعجمياً فهيّجت ... غرامى من ذكرى عهود تولّت
فأرسَلَتْ الأجفان سُحُباً وأوقدت ... جَوَاى الذى كانت ضُلوعى أكَنّتِ
نظرت بصحراء البريقين نظرة ... وصلتُ بها قلبى فَصَلّ وصَلّت
فيالها قلباً شجِيًا ونظــرة ... حجازِيّةً لوجُنّ طرف لَجُنّت
وواعجباً للقلب كيف اعترافُه ... وكيف بَدَت أسراره خَلْفَ سِترة
وللعين لما سُوئلت كيف أخْبرَت ... وللنفس لما وُطّنت كيف ذَلّتِ
وكنا سَلَكنا فى صعود من الهوى ... يُسامى بأعلام العُلا كلّ رُتْبة
إلى مستوًى ما فوقه مستــوى ... فلما توافَيْنــا ثبتُّ وزلّتِ
وكنا عقدنا عُقْدة الوصل بيننا ... على نحْر قُربان لدى قَبْر شِيبة
مؤكدةً بالنُّذُر أيام عهــده ... فلما تواثَقْنا اشتَدَدْتُ وحلّت

ومن فصل الاحتفال

أزورُ اعتماراً أرضها بتنسُّكٍ ... وأقصد حِجا بيتها بتحلَّة
وفى نشأتى الأخرى ظهرتُ بما علَتْ ... له نشأتى الأولى على كل فِطرة
ولولا خفاء الرَّمز لا ولن ولم ... تجدها لشملى مَسْلَكا بتشتُّتِ
ولو لم يجدِّد عهدَنا عقد خِلَّة ... قضيتُ ولم يَقْضِ المُنى صِدْقُ توبة
بعثتُ إلى قلبى بشيراً بما رأت ... على قدم عَيْناى منه فكفَّتِ
فلم يعد أن شام البشارة شامُ ما ... جفا الشَّام من نُور الصفات الكريمة
فيالك من نورٍ لو أنَّ التفاتةً ... تُعارَض منه بالنفوس النَّفيسة
تحدِّث أنْفاسَ الصَّبا أن طيبَها ... بما حَمَلته من حُراقة حُرْقة
وتنبئ آصالُ الربيع عن الرُّبا ... وأشجاره إن قد تجلَّت فجلَّت
وتخبر أصوات البلابل أنها ... تَغَنَّت بترجيعى على كل أيكة
فهذا جمالى منك فى بُعْد حَسْرتى ... فكيف به إن قرَّبتنى بخلة
تبدَّى وما زال الحجاب ولادنا ... وغاب ولم يُفقده شاهد حضرتى
له كل غَيْر فى تجلِّية مظهرٌ ... ولا غَيْر إلا ما مَحَت كفُّ غيرةِ
تجلِّى دليلٍ واحتجابُ تنزهٍ ... وإثباتُ عرفانٍ ومحوُ تَثَبُّت
فما شِئت من شيء وآليتُ أنه ... هو الشيء لم تَحْمد فجار أليَّتى
وفى كل خَلْقٍ منه كلُّ عجيبة ... وفى كلِّ خلق منه كل لطيفةِ
وفى كل خافٍ منه مَكمن حِكْمة ... وفى كل بادٍ منه مظهرُ جَلْوة
أراه يقلِّب القَلْب واللُّغز كامناً ... وفى الزَّجر والفَال الصحيح الأدلَّة
وفى طيِّ أوفاق الحساب وسرِّ ما ... يتم من الأعداد فابدأ بستَّةِ
وفى نَفَثات السِّحر فى العُقْد التى ... تُطَوِّع لها كلُّ الطِّباع الأبيَّةِ

يصور شكلا مِثل شَكل ويَعْتَلى عليه بأوهام النفوس الخبيثة
وفى كل تَصْحيف وعضو بذاته اخْتِلاج وفى التَقْويم مَجْلى لرؤية
وفى خُضْرة الكون تُزْجى شرابه مواعيدُ عرْقوب على أثر صُفْرة
وفى شجر قد خُوِّفت قَطْع أصلها فبان بها حَمل لأقْرَب مدة
وفى النَّخل فى تَلْقيحه واعتبر بما أتى فيه عن خير البَرِيَّة واسكت
وفى الطابع السُّبْتى فى الأحرف التى يُبين منها النَّظْم كل خفية
وفى صَنْعة الطِّلَّسْم والكيمياء والكنوز وتَغْوير المياه المَعِينة
وفى حِرز أقسام المؤدب مُحْرز وحزب أصيل الشاذلى وبكرة
وفى سِيمياء الحاتمىٌ ومذهب ابن سَبْعين إذ يُعزى إلى شرٍّ بِدْعة
وفى المَثَل الأولى وفى النَّحل الألى بها أوهموا لما تَساموا بسنة
وفى كل مافى الكَوْن من عجب وما حَوَى الكون إلاّ ناطقاً بعجيبة
فلا سرَّ إلاّ وهو فيه سريرةٌ ولا جَهْر إلا وهو فيه كحِلْية
سلْ الذِّكر عن إنصاف أصناف ما بنى عليه الكلامُ من حُروف سليمة
وعن وَضْعها فى بعضها وبلوغ ما أتَتْ فيه أمضى عَدِّها وتَثَبِّت
فلا بُدَّ من رَمْز الكنوز لذى الحجا ولا ظُلم إلا ظُلم صاحب حِكمة
ولولا سلامٌ ساق للأَمْن خِيفتى لعاجل مسَّ البرد خوفى لمَيْتتى
ولو لم تَدَاركنى ولكن بعطفها دَرَجت رجائى أن نَعَتْنى خَيبتى
ولو لم تؤانسنى عنا قبل لم ولم قضى العَتْبُ منى بُغية بعد وَحْشتى
ونعم أقامت أمر مِلكى بشكرها كما هوَّنت بالصبر كلَّ بليَّة

ومن فصل الاعتقال

سَرَت بفؤادى إذ سرت فيه نظرتى وسارت ولم تُثْن العِنان بعطفة

وذلك لما أطْلَعَ الشمس فى الدُّجى ... مُحَيَّا إبنةِ الحيِّين فى خَير ليلة
يمانيَّة لو أنْجَدت حين أنجدت ... لما أبصَرت عيناك حيًّا كَحيّت
لأصحمة فى نُصْحها قــدم نبى ... لـكل نجاشِى بهـا حِصْن ذمّة
ألِمَت فحطت رَحْلها ثم لم يكن ... سوى وقفة التَّوديع حتى استقلَّتِ
فلو سَمَحت لى بالتفات وَحَل من ... مهاوى الهوى والهُون جدٌّ تفلّتى
ولـكنها همّت بنـا فتذكَّرتْ ... قضاء قُضاة الحُسْن قِدَما فصَدّتِ
أجَلّت خيالا إننى لا أجِــلُّه ... ولم أنتَسب منه لغير تَعِــلّة
على أننى كلّى وبعضى حقيقة ... وباطِلُ أوصافى وحقّ حقيقتى
وجِنسى وفَصْلى والعوارض كلها ... ونوعى وشخصى والهواء وصورتى
وجسمى ونفسى والحشا وغرامُه ... وعقلى وروحانيّتى القُدْسيّة
وفى كل لفظ عنه مَيْلٌ لمسمى ... وفى كل معنًى منه معنى لِلَوْعتى
ودهرى به عيــدٌ ليوم عُرُوبة ... وأمرى أمرى والوَرَى تحت قبضتى
ووقتى شهود فى فِناء شَهدته ... ولا وقت لى إلا مَشاهد غَيْبة
أراه معى حِسًّا ووهمًا وأنه ... مناطُ الثريا من مدارك رؤيتى
وأسمعُه من غير نُطْق كأنه ... يُلَقِّن سمعى ما تُوَسْوس مُهجتى
ملأتُ بأنوار المحبَّــة باطنى ... كأنّك نورٌ فى سِرار سَريرتى
وجَلّيت بالإجلال أرجاء ظاهرى ... كأنك فى أفْقى كواكبُ زينةِ
فأنت الذى أُخفيه عند تستّرى ... وأنت الذى أبْديه فى حين شُهرتى
فتِه أحتمل واقطع أصِل وأعْلِ استَفِل ... ومُرْ أمتثل وأمْلِل أمِل وارْم أثْبُت
فقلبى إن عاتَبْته فيك لم أجد ... لعَتْبى فيه الدهر موقعَ نُكْتة
ونفسى تَنْبُو عن سواك نَفاسةً ... فلا تنتمى إلا إليك بِمنّةِ
تَعَلَّقت الآمال منك بفوق ما ... أرى دُونه ما لا ينال بحيلة

وحامَتْ حواليها وما وافقَت حِمَى | سحائبُ يَأْسٍ أمطرت ماءَ عَبْرتى
فلو فاتنى منك الرِّضى ولحقتنى | بعفو بكيتُ الدهر فَوْت فضيلة
ولو كنتُ فى أهل اليمين مُنَعَّماً | بكيتُ على ما كان من سَبْقِيَّةٍ
وكم من مقام قمتُ عنك مسائلا | أرى كل حىّ كلَّ حىٍّ وميِّت
أتيتُ بفاراب أبا نَصْرِها فلم | أجد عنده عِلماً يُبَرِّد غُلّتى
ولم يدرِ ما قولى ابنُ سيناء سائلاً | فقُلْ كيف أرجو عنده بُرْءَ عِلّتى
فهل فى ابن رُشْد بعد هذين مُرتجى | وفى ابن طُفيل لاحْتِثاث مَطِيَّتى
لقد ضاع لولا أن تدارَكنى حِمَى | من الله سعى بينهم طول مُدَّتى
فقيَّض لى نَهْجاً إلى الحقِّ سالكاً | وأيقظنى من نوم جهلى وغَفْلتى
فخصَّنْتُ أنظار الجُنْد جُنَيْدها | بترك فُلَى من رغبةٍ ريح رهبةٍ
وكَسَّرت عن رَجْل ابن أدهم أدْهَمَاً | وأنقذتُه من أسْر حُبِّ الأسْرة
وعُلّقت على حلاج سُكْرى بصَلْبه | وألقيتُ بلمام التَّفانى بهُوَّة
فقَوْلى مشكورٌ ورأيى ناجح | وفِعلى مَحْمود بكلِّ مَحَلَّةِ
رضيتُ بعِرْفانى فأعْلَيْت للعلا | وأجْلَسنى بعد الرِّضا فيه جُلّتى
فعشتُ ولا ضيراً أخاف ولا قِلًى | وصرتُ حبيباً فى ديار أحِبَّتى
فها أنا ذا أُمسى وأُصبح بينهم | مُبَلِّغٌ نفسى منهم ما تمنَّتِ (١)

وأنشدنى قوله فى حال قبض وقيَّدتُها عنه:

إليك بسطتُ الكفَّ أستنزل الفَضْلا | ومنك قبضتُ الطَّرف أستشعرُ الذُّلاّ
وها أنا ذا قد قَدِمت يُقدمنى الرَّجا | ويُحجمنى (٢) الخوفُ الذى خامر العَقْلا

---

(١) وإلى هنا انتهى ما نقلناه عن نفح الطيب من شعر جد المقرى الذى ورد فى «الإحاطة» وأغفله المخطوطان.

(٢) هكذا وردت هذه الكلمة فى «ج» وفى «الزيتونة» (يحجبنى) وفى نفح الطيب (ويحجم بى).

أُقدِّم رِجْلا إن يضِئ[1] برقُ مطمع[2] وتظلُّم أرجائى فلا أُنْقِل الرِّجْلا
ولى عَثَرات لست آمل أن هوَت بنفسى ألاّ أستقلُّ وأن أُصلَّى[3]
[فإن تُذْركنى رحمةٌ أنتعش بها وإن تكُن الأخرى فأولى بى الأَوْلى][4]

قال ، ومما نظمته من الشعر :

وجْدٌ[5] تسعِّره الضلو ع وما تُبرِّده المدامع
همٌّ تحركه الصبــــــا بة والمهابةُ لا تُطاوع[6]
أملى إذا وَصَلَ الرَّجا أسبابَه فالموت[7] قاطع
بالله ياهذا الهــــــوى ما أنت بالعُشّاق صانِع

قال ومما كتبت به لمن بلغنى عنه بعض الشىء :

نحن إن تسأل بناس معشر أهل ماء فجَّرته الهمم
عربٌ من بيضهم أرزاقُهم ومن السُّمر الطوال الخيم
عرّضت أحسابهم أرواحهم دون نَيلَ العِرض وهى الكرم
أورثونا المجد حتى أننا نَرْتضى الموت ولا نَزْدحم
ما لنا فى الناس من ذنب سوى أننا نَلْوى إذا ما اقتحموا[8]

قال ، ومما قلته مذيّلا به قول القاضى أبى بكر بن العربى :

---

(١) وردت فى المخطوطين (يقضى) والتصويب من النفح .
(٢) وردت فى المخطوطين (مظهر) والتصويب من النفح .
(٣) وردت فى المخطوطين (أصلا) والتصويب من النفح .
(٤) هذا البيت وارد فى النفح وساقط فى المخطوطين .
(٥) وردت فى «ج» (وحوت) . وفى «الزيتونة» (وحرة) . والتصويب من النفح .
(٦) وردت فى «ج» (تطلع) وفى «الزيتونة» (تطامع) . والتصويب من النفح .
(٧) وردت فى «ج» (خوف) . والتصويب من النفح .
(٨) هذه الأبيات وردت فى النفح نقلا عن «الإحاطة» . وهى ساقطة فى المخطوطين .

أما والمسجدُ الأقصى ... وما يَتلى به نصًّا
لقد رقَصت بنات الشو ... ق بين جوانحى رقصا

قولى :

فأقلع بى إليه هوًى ... جناحا عَزْمه قُصَّا
أقِلِّ القلبَ واستعدى ... على الجُثمان فاستعصى
فقمتُ أجول بينهما ... فلا أدنى ولا أقصى(١)

قال ، ومما قلته فى التورية بشأن راوى المدوّنة :

لا تعجبن لظبي(٢) قد دَها أسدًا ... فقد دها أسداً من قبل سُحنون

قال ، ومما قلته من الشعر :

أنبتُ عوداً بنعماء بدأتُ بها ... فضلا وألبَسْتُها بعد اللَّحى الورقا
فظلّ مُستشعراً مُستدثرا أرِجا ... ريّان ذا بهجة يستَوْقف الحَدَقا
فلا تُشِنه بمكروه الجنَى فلِكم ... عوّدتُه من جميل من لَدُن خُلقا
وأنف القَذَى عنه وأَبِر الدهر منبته ... وغذّه برجاء واسقه غَدَقا
واحفَظْه من حادثات الدهر أجمعها ... ما جاء منها على ضوءٍ وما طرَقا(٣)

ومما قيدتُ عنه أيام مجالسته ومقامه بغرناطة ، وقد أجرى ذكر أبى زيد ابن الإمام : أنه شهد مجلساً بين يدى السلطان أبى تاشفين عبد الرحمن ابن أبى حمُّو ، ذكر فيه أبو زيد المذكور ، أن ابن القاسم مُقَيد بالنظر بأصول مالك ، ونازعه أبو موسى عُمران بن موسى المِشْذالى : وادّعى أنه مُطْلق الاجتهاد ، واحتج له بمخالفته لبعض ما يرويه أو يبلغه عنه

(١) هذه الأبيات وردت فى النفح نقلا عن «الإحاطة» . وهى ساقطة فى المخطوطين .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى النفح . وفى «الزيتونة» (لصبى) .
(٣) هذه الأبيات وردت فى النفح نقلا عن الإحاطة . وهى ساقطة فى المخطوطين .

لما ليس من قوله ، وأتى من ذلك بنظائر كثيرة . قال فلو تقيد بمذهبه ، لم يخالفه لغيره . فاستظهر أبو زيد بنص لشرف الدين بن التلمسانى ، ومثل فيه الاجتهاد المخصوص باجتهاد ابن القاسم ، بالنظر إلى مذهب مالك ، والمزنى إلى الشافعى . فقال أبو موسى عمران ، هذا مثال ، والمثال لا يلزم صحته ، فصاح به أبو زيد [ابن الإمام][(١)] وقال لأبى عبد الله بن أبى عمر تكلم [فقال][(٢)] لا أعرف ما قال هذا الفقيه ، والذى أذكره من كلام أهل العلم [أنه][(٣)] لا يلزم من فساد المثال فساد المُمثَّل به ، فقال أبو موسى للسلطان ، هذا كلام أصولى محقق ، فقلت لهما يومئذ ، وأنا حديث السن ، ما أنصفهما الرجل ، فإن المثل كما يؤخذ على على جهة التحقيق ، كذلك يؤخذ على جهة التقريب ، ومن ثم جاء ما قال هذا الشيخ ، أعنى ابن أبى عمران . وكيف لا وهذا سيبويه يقول ، وهذا مثال ولا يُتكلم به ، فإذا صح أن المثال قد يكون تقريباً ، فلا يلزم صحة المثال ولا فساد الممثل [لفساده][(٤)] فهذان القولان من أصل واحد .

وقال ، شهدتُ مجلساً آخر عند هذا السلطان ، قُرِئ فيه على أبى زيد [ابن الإمام][(٥)] حديث : لقنوا موتاكم لا إله إلا الله ، من صحيح مُسْلِم . فقال له الأستاذ أبو إسحاق [بن حكم السلوى][(٦)] هذا المُلَقَّن مُحْتَضر حقيقة ، ميت مجازاً فما وجه [ترك][(٧)] مُحْتَضِريكم إلى موتاكم ، والأصل الحقيقة ، فأجابه أبو زيد بجواب لم يقنعه . وكنت قد قرأت على الأستاذ بعض التنقيح ، فقلت

---

(١) واردة فى «ج». وساقطة فى «الزيتونة» .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين وواردة فى النفح .

(٣) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين وواردة فى النفح .

(٤) الزيادة من النفح .

(٥) هذا وارد فى «ج». وساقط فى «الزيتونة» .

(٦) هذا وارد فى «ج» وساقط فى الزيتونة .

(٧) الزيادة من النفح .

زعم القرافى أن المُشْتق [إنما][(١)] يكون حقيقة فى الحال ، مجازاً فى الاستقبال ، مختلفاً فيه فى الماضى ، إذا كان محكوما به . وأما إذا كان متعلق الحكم كما هنا ، فهو حقيقةٌ مُطْلقاً إجماعا ، وعلى هذا التقرير ، لا مجاز ولا سؤال . ولا يقال إنه احتج على ذلك بما فيه نظر ، لأنا نقول إنه نقل الإجماع ، وهو أحد الأربعة ، التى لا يُطالب عنها[(٢)] بالدليل ، كما ذكر أيضاً . بل نقول إنه أساء حيث احتج فى موضع الوفاق ، كما أساء اللخمى وغيره فى الاحتجاج على وجوب الطهارة ونحوها . بل هذا أشنع لكونه مما علم كونه من الدين ضرورة . ثم إنا لو سَلَّمنا نفى الإجماع ، فلنا أن نقول إن ذلك [إشارة إلى][(٣)] ظهور العلامات التى يعقبها الموت عادة ، لأن تلقينه قبل ذلك ، إن لم يدهش ، فقد يُوحش ، فهو تنبيه على وقت التلقين ، أى لقِّنوا [من][(٤)] تحكمون بأنه ميت . أو يقال إنما عدل عن الاحتضار لما فيه من الإبهام[(٥)] . ألا ترى اختلافهم فيه ، هل هو أخذ من حضور الملايكة [أو حضور الأجل ، أو حضور الجُلَّاس][(٦)] . ولا شك أن هذه حالة خفِيَّة[(٧)] يُحتاج [فى نصبها إلى دليل الحكمة][(٨)] أو[(٩)] إلى وصفٍ ظاهر يضبطها ، وهو ما ذكرناه ، أو من حضور الموت ، وهو

---

(١) وردت فى المخطوطين (لا) . والتصويب من النفح .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (مدعيها) .

(٣) الزيادة من النفح .

(٤) ساقطة فى «ج» . وواردة فى الزيتونة .

(٥) هكذا فى «ج» والنفح . وفى «الزيتونة» (الأفهام) .

(٦) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين ووارد فى النفح .

(٧) وردت فى «ج» (خفيفة) . وفى «**الزيتونة**» (حقيقة) والتصويب من النفح .

(٨) هكذا وردت هذه العبارة فى **المخطوطين** . وورد مقابلها فى النفح ما يأتى (فى نصبها دليلا على الحكم) .

(٩) ساقطة فى «ج» . وواردة فى «**الزيتونة**» .

[أيضاً][١] مما لا يُعرَف بنفسه، بل بالعلامات . فلما وجب اعتبارها[٢] ، وجب كون تلك التسمية إشارة إليها ، والله أعلم .

وقال، وكان أبو زيد يقول[٣] ، فيما جاء من الأحاديث ، ما معنى قول ، ابن أبي زيد ، وإذا سلَّم الإمام[٤] ، فلا يلبث بعد سلامه ولينصرف ، وذلك بعد أن ينتظر من يُسلِّم من خلفه لئلا يمر بين يدى أحد ، وقد ارتفع عنه حكمه، فيكون كالداخل مع المسبوق جمعاً بين الأدلة .

وقلت ، وهذا من مُلَح الفقيه[٥] . وقال كان أبو زيد يعنى الإمام ، يُصَحِّف قول الخونْجى فى الجمل والمقارنات التى يمكن اجتماعه معها ، فيقول ، والمفارقات[٦] ، ولعله فى هــذا كما قال أبو عمرو بن العلاء للأصمعى لما قرأ عليه :

وغرَّرْتنى[٧] وزعمتَ أنك لابن فى الصَّيف تَأمُرُ

فقال :

وغرَّرْتنى وزعمتَ أنك لا تَنِى بالضَّيف تأمر

فقال ، أنت فى تصحيفك أشهر من الحُطيئة ، أو كما يُحكى عن الشافعى أنه لما صلى فى رمضان بالخليفة ، لم يكن يومئذ يحفظ القرآن ، فكان ينظر فى المصحف ، وقرأ الآية « صنعة الله أصيب بها من أساء . إنما المشركون نحس .

(١) ساقطة فى المخطوطين وواردة فى النفح .

(٢) وردت فى المخطوطين (اعتمارها) . والتصويب من النفح .

(٣) هذه الكلمة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٤) واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٥) وردت فى «ج» (الفقه) والتصويب من «الزيتونة» .

(٦) وردت فى المخطوطين (والمقاربات) والتصويب من النفح .

(٧) وردت فى المخطوطين (وعورتنى . وعوزتنى) والتصويب من النفح .

وعدها إياه ، تقية لـكم خير لـكم . هذا أن دعوا للرحمان ولدا . لـكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » .

وقال ، ذكر أبو زيد بن الإمام فى مجلسه يوماً، أنه سُئل بالمشرق عن هاتين الشرطيتين : «ولو علم الله فيهم خَيْرًا لأسمعهم، ولو أسمعهم لتوَلَّوْا وهم مُعرضون» فإنهما يستلزمان بحكم الإنتاج « ولو علم الله فيهم خيراً لتولوا وهم معرضون » [وهو][1] محال . ثم أراد أن يرى ما عند الحاضرين ، فقال ابن حكم[2] ؛ قال الخونجى، والإهمال بإطلاق لفظه . لو وأن فى المتَّصلة ؛ فهاتان القضيتان على هذا مُهْملتان ، والمهملة فى قوة الجُزْئية[3] ، ولا قياس على جُزْئيَّتين . فلما اجتمعت ببجاية بأبى على حسين بن حسين ، أخبرته بهذا ، وبما أجاب به الزَّمخشرى وغيره ، مما يرجع إلى انتفاء أمر تـكرار[4] الوسط . [فقال لى الجوابان فى المعنى سواء ، لأن القياس على الجزئيَّتين إنما امتنع لانتفاء أمر تـكرار الوسط][5]. وأخبرت بذلك [شيخنا][6] أبا عبد الله الآبلى ، فقال إنما يقوم القياس على الوَسط ، ثم يشترط فيه بعد ذلك أن [لا][7] يكون من جُزْئيتين ولا سالبتين ، إلى سائر ما يُشترط . فقلت ما المانع [من كون هذه الشروط تفصيلاً لمُجمل ما ينبنى عليه الوسط وغيره، وإلا فلا مانع][8] لما قاله ابن حسين . قال الآبلى ؛ وأجبتُ بجواب السَّلوى ، ثم رجعت إلى ما قاله الناس ،

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين وواردة فى النفح .

(٢) هكذا وردت فى «ج» والنفح . وفى الزيتونة (ابن الحكم) .

(٣) وردت فى «ج» (الخيرية) وفى «الزيتونة» (الخبرية) . والتصويب من النفح .

(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (تكرير) . والأولى أفضل .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» والنفح . وساقط فى الزيتونة .

(٦) هذه الكلمة ساقطة فى «ج» . وواردة فى «الزيتونة» والنفح .

(٧) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى النفح .

(٨) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» والنفح . وساقط فى «الزيتونة» .

لوجوب كون مُهملات القرآن كلّية ، لأن الشّرطية لا تنتج جزئيّة . فقلت هذا فيما يُساق منها للحجة مثل « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفَسَدتا » . أما فى مثل هذا فلا قلت . وكان يلزم السؤال الأول لو لم يكن للمتولى سبب تأخر ، حسبما تبين فى مسألة ، لو لم يطع الله ، فلينظر ذلك فى اسم شيخنا أبى بكر يحيى بن هُذيل رحمه الله .

وقال ، لما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن بن فَرْحون ، نزيل طيبة ، على تربتها السلام سأل ابن حكم عن معنى هذين البيتين :

رأت قمر السماء فأذكرتنى ليالى وصالِنا بالرَّقمتين
كلانا ناظرٌ قمراً ولكن رأيت بعينها ورأت بعينى

[ففكّر ثم قال](١) لعل هذا الرجل كان ينظر إليها ، وهى تنظر إلى قمر السماء ، فهى تنظر إلى القمر حقيقة ، وهو لفَرْط الاستحسان يرى أنها الحقيقة . فقد رأى بعينها لأنها ناظرة الحقيقة . وأيضاً وهو ينظر إلى قمر مجازا ، وهو لإفراطه استحسانها(٢) يرى أن قمرَ السماء هو المجاز ، فقد رأت بعينه لأنها ناظرةُ المجاز . قلت ، ومن هذا يُعلم وجه الفاء فى قوله تعالى «فاذكرونى أذكركم» والفاء فأذْكَرتنى [بمثابة قولك أذكرتنى](٣) ، فتأمله ، فإن بعض من لا يفهم كلام الأستاذ كل الفهم ، ينشده « وأذكرتنى » . فالفاء فى البيت الأول ، مُنبِّهة على الثانى ، وهذا النحو يسمى « الإيذان فى علم البيان »

وقال ، سألنى ابن حكم عن نسب هذا المُجيب فى هذا البيت :

ومهفهفُ الأعطاف قلتُ له انتسب فأجاب ما قَتْلُ المُحب حرام .

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . ومكانها فى المخطوطين (فقال) .
(٢) هكذا وردت هذه الكلمة فى «ج» . وفى «الزيتونة» (استحسانه إياها) .
(٣) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين . ووارد فى النفح .

ففكرت ثم قلت له ، أراه تميمياً لإلغائه « ما » النافية . فاستحسنه منى [لصغر سنى يؤمئذ][(١)] . وسأل [ابن فرحون][(٢)] ابن حكم يوماً ، هل تجد فى التنزيل ستّ فاءات مرتبة ترتيبها فى هذا البيت :

رأى[(٣)] فحب فرام الوصل فامتنعت   فسام صبراً فأعيا نيله فقضى

ففكر ابن حكم ، ثم قال نعم قوله عز وجل « فطاف عليها طائفٌ من ربِّك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فتنادوا إلى آخرها » ، فمنعت له البناء فى [فتنادوا] . فقال لابن فرحون ، فهل عندك غيره ، فقال نعم ، قوله عز وجل « فقال لهم رسول الله ، ناقةَ الله وسُقْياها إلى آخرها » فمنع لهم بناء الآخرة لقراءة الواو . فقلت له امنع [ولا تُسند][(٤)] ، فيقال إن المعانى قد تختلف باختلاف الحروف ، وإن كان السّند لا يسمع [الكلام][(٥)] عليه . وأكثر ما وجدت الفاء تنتهى فى كلامهم إلى هذا العدد ، سواء بهذا الشرط وبدونه ، كقول نوح عليه السلام « فعلى الله توكلتُ فاجمعوا أمركم وشركاءكم» . وكقول امرئ القيس « غشيت ديار الحى بالبكرات ، البيتين » لا يقال قوله ، فالحبُّ سابع ، لأنا نقول إنه عطف على عاقل المجرد منها ، ولعل حكمة السّتة أنها أول الأعداد التامة ، كما قيل فى حكمة خلق السموات والأرض فيها . وشأن اللسان عجيب .

---

(١) هذه الإضافة من النفح .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . والإضافة من النفح .

(٣) وردت فى «ج» (وانى) . والتصويب من النفح .

(٤) هذه العبارة واردة فى «ج» وساقطة فى «الزيتونة» .

(٥) الزيادة من النفح .

وقال ، سمعت ابن حكم يقول ، كتب(١) [بعض](٢) أدباء [فاس](٣) إلى صاحب له :

إبعث إلى بشيء مدارُ فاس عليه
وليس عندك شيء مما أشيرُ إليه

فبعث [إليه](٤) ببطّة من مَرى شُرب [يشير بذلك إلى](٥) الرِّياء

وحُدِّثت أن قاضيها(٦) أبا محمد عبد الله [بن أحمد بن المَلْجوم دعى](٧) إلى وليمة ، وكان كثير البَلْغم ، فوضع بين يديه صِهره أبو العباس بن الأشقر غُضارا من الأَّوز المطبوخ بالمَرى ، لمناسبته لمزاجه ، فخاف أن يكون قد عَرّض له بالرياء . وكان ابن الأشقر يُذكر بالوقوع فى الناس ، فقدّم له القاضى غُضار المَقْروض ، فاستحسن الحاضرون فِطْنته .

وقال عند ذكر شيخه أبى محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاصى [دخلت عليه بالفقيه أبى عبد الله السّطى فى أيام عيد ، فقدّم لنا طعاما ، فقلت لو أكلت معنا ، فرجونا بذلك ما يُرفع من حديث ، « من أكل مع مغفور له ، غُفر له » فتبسم ، وقال لى ، دخلت على سيدى أبى عبد الله الفاسى بالأسكندرية ، فقدّم لنا طعاما ، فسألته عن هذا الحديث ، فقال وقع فى نفسى شيء ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فسألته عنه ، فقال لم أقُله ، وأرجو أن يكون كذلك ،

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى النفح (بعث) .
(٢) الزيادة من النفح .
(٣) الزيادة من النفح .
(٤) الزيادة من النفح .
(٥) الزيادة من النفح .
(٦) وردت فى المخطوطين (قاضينا . والتصويب من النفح) .
(٧) ما بين الحاصرتين وارد فى النفح . وساقط فى المخطوطين .

وصافحته بمصافحته الشيخ أبا عبد الله زيان ، بمصافحته أبا سعيد عثمان بن عطية الصعيدى ، بمصافحته أبا العباس أحمد المُلَثَّم ، بمصافحته المُعَمَّر ، بمصافحته رسول الله صلى الله عليه وسلم](١) .

وحدث عن شيخه أبى محمد الدَّلاصى ، أنه كان للملك العادل مملوك اسمه محمد ، فكان يخصه لدينه وعقله ، بالنداء باسمه ، وإنما كان يَنْعَق بمماليكه [ياساقى](٢) ، يا طبَّاخ ، يا مُزَيِّن . فناداه ذات يوم ، يافرّاش ، فظن أن ذلك لموجدة عليه . فلم ير أثر ذلك ، وتصوَّرت له به خَلْوة . فسأله عن مخالفته لعادته ، فقال له لا عليك ، كنتُ يومئذ جُنُباً ، فكرهت أن أذكر اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على تلك الحالة . وقال أنشدنى المجاصى : قال أنشدنى [الإمام](٣) نجم الدين الواسطى ، قال أنشدنى شرف الدين الدمياطى ، قال أنشدنى تاج الدين الآمدى ، مُؤلف الحاصل ، قال أنشدنى الإمام فخر الدين لنفسه :

نهايةُ إقدام العقول عِقــال ... وأكثرُ سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وَحْشة من جسومنا ... وحاصلُ دنيـانا أذىً ودبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قِيلٌ وقال
وكم مِن رجال قد رأينـا ودولة ... فبادوا جميعاً مُسرعين وزالوا
وكم مِن جبال قدعلت شُرُفاتها(٤) ... رجالٌ فماتوا والجبال جبـال

وقال ، وقد مرَّ من ذكر الشريف القاضى أبى على حسين بن يوسف [بن يحيى](٤) الحسنى فى عِداد شيوخه [وقال](٥) حدثنى أبو العباس الرُّندى ، عن القاضى أبى العباس

---

(١) هذه الفقرة المحصورة بين الحاصرتين كلها ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى نفح الطيب .
(٢) الزيادة من النفح .   (٣) الزيادة من «الزيتونة» .
(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» والنفح . وفى «ج» (شروفها) .
(٤) الزيادة من النفح .   (٥) أضفنا هذه الكلمة لاستقامة السياق

ابن الغمَّاز ، [قال لما قدم القاضى أبو العباس بن الغماز من بلنسية ، نزل بِجاية ، فجلس بها فى الشهود مع عبد الحق بن ربيع ، فجاء عبد الحق يوماً ، وعليه بُرْنس أبيض ، وقد حَسُنت شارته ، وكُمُلت هيئته ، فلما نظر إليه ابن الغماز أنشده :

لبس البُرْنس الفقيهُ فباهى ... ورأى أنه المليح فتَاها

لو زُلَيخا رأته حين تَبَدَّى ... لتمنَّته أن يكون فتاها

وقال أيضاً إن ابن الغمّاز][1] جلس لارتقاب الهلال بجامع الزَّيْتُونة[2] ، فنزل الشهود من المئذنة وأخبروا أنهم لم يَرُوه . وجاء حفيد له صغير ، فأخبره أنه أهَلَّه ، فردهم معه ، فأراهم إياه ، فقال ما أشبه الليلة بالبارحة ، وقد وقع لنا مثل هذا مع أبى الربيع بن سالم[3] ، فأنشدنا فيه :

توارى هلال الأفق عن أعين الورَى ... وأرْخَى حجاب الغَيْم دون محيَّاه

فلما تصدَّى لارتقاب شقيقه ... تبدَّى له دون الأنام فحيَّاه

وجرى فى ذكر أبى عبد الله بن النجار ، الشيخ التعالِى[4] من أهل تلمسا ، فقال ذكرتُ يوماً قول ابن الحاجب فيما يُحرَّم من النساء بالقرابة ، وهى [أصول

---

(١) ما بين الحاصرتين كله ساقط فى المخطوطين ووارد فى النفح.

(٢) جامع الزيتونة ، هو جامع تونس الأعظم ، ومن أقدم الجوامع فى العالم الإسلامى. أنشأه حسان بن النعمان فى أواخر القرن الأول من الهجرة ، وأعيد بناؤه مراراً . وما زالت توجد به أجزاء من بناء القرنين الثالث والرابع .

(٣) هو الحافظ أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الحميرى الكلاعى من أهل بلنسية . ولد سنة ٥٦٥ هـ . وكان عمدة المحدثين والرواة فى عصره . وله مؤلفات كثيرة منها كتاب «الإكتفاء» فى مغازى رسول الله ومغازى الثلاثة الخلفاء ، وكتاب فى تاريخ الصحابة والتابعين . وقد توفى مجاهداً شهيداً فى موقعة أنيشة التى نشبت بين المسلمين والنصارى على مقربة من بلنسية فى شهر ذى الحجة سنة ٦٣٤ هـ . وسوف يترجم له ابن الخطيب فى الإحاطة فيما بعد .

(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» ، وفى «ج» (التعاليمى) .

وفصول](١) ، أول أصوله ، وأول فصل من كل [أصل](٢) وإن علا ، فقال إن تُركب لفظ التّسمية العُرْفية(٣) من الطّرفين حلّت وإلا حَرُمت ، فتأملته ، فوجدته كما قال ، لأن أقسام هذا الضابط أربعة ، التّركيب من الطرفين ، كابن العم [وابنة العم](٤) مقابِلُه كالأب والبنت ، والتركيب من قِبَل الرجل ، كابنة الأخ والعم مقابِلُه كابن الأخت والخالة .

وذكر الشيخ الرئيس أبا محمد [عبد المهيمن بن محمد] الحَضْرمى . وقال ، كان يُنكر إضافة الحَوْل إلى الله [عزَّ وجلَّ](٥) ، فلا يجيز أن يقال «بحَوْل الله وقُوّته» ، قال ، لأنه لم يُرد إطلاقه ، والمعني يقتضى امتناعهُ لأن الحَول كالحيلة ، أو قريبٌ منها .

وحَكِى عن شيخه أبى زيد عبد الرحمن الصّنْهاجى ، عن القاضى أبى زيد [عبد الرحمن بن على](٦) الدُّكالى ، أنه اختصم عنده رُجُلان فى شاة ، ادّعى أحدهما أنه أودعها الآخر ، وادّعَى الآخر أنها ضاعت منه [فأوْجَب اليمين على المُودع أنها ضاعت](٧) من غير تضييع ، فقال كيف أُضَيِّع ، وقد شغلتنى حراستُها عن الصلاة ، حتى خرج وقتها ، فحكم عليه بالغرْم ، فقيل له فى ذلك ، فقال تأوّلتُ قول عُمر [ومن ضَيّعها](٨) فهو لما سواها أضْيَع .

وحكى عن الشيخ الفقيه رُحْلة الوقت أبى عبد الله الآبِلى ، حكاية فى باب الضَّرب ،

(١) وردت فى المخطوطين (أصوله وفصوله) . والتصويب من النفح .
(٢) وردت فى المخطوطين (فصل) . والتصويب من النفح .
(٣) هكذا وردت فى «ج» والنفح . وفى «الزيتونة» (العربية) وهو تحريف .
(٤) الزيادة من النفح .
(٥) الزيادة من النفح .
(٦) الزيادة من النفح .
(٧) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين ووارد فى النفح .
(٨) ساقطة فى المخطوطين وواردة فى النفح .

وقوة الإدراك، قال، كنت [يوماً][١] مع القاسم بن محمد الصَّنهاجى، فوردت عليه. طُومارَة من قبل القاضى أبى الحجاج الطرطوشى فيها:

خيراتُ ما تحويه مبذولةٌ ومطلبى تَصْحيف مَقْلُوبِها

فقال لى ما مطلبُه، فقلت «نارنج». ودخل عليه وأنا عنده بتلمسان الشيخ الطبيب أبو عبدالله الدبّاغ المالقى، فأخبرنا أن أديباً استجدى وزيراً بهذا الشَّطْر: «نَمَّ حبيبٌ قلَّما يَنْصِف» فأخذته وكتبته، ثم قلبته وصحَّفته فإذا به قَصَبتا مِلَفٍّ شحمى.

وقال، قال شيخنا الآبلى، لما نزلتُ تازة[٢] مع أبى الحسن بن برِّى، وأبى عبد الله التَّرْجالى[٣]، فاحتجت إلى النوم، وكرهت قطعهما إلى الكلام، فاستَكْشَفْتُ منهما عن [معنى][٤] هذا البيت للمعرى:

أقول لعبد الله لما سقاؤنا ونحن بوادى عبد شمس وهاشم

فجعلا يفكران فيه، فنمتُ حتى أصبحا ولم يجداه، وسألونى عنه، فقلت معناه «أقول لعبد الله لِما، وهى سقاؤنا، ونحن بوادى عبد شمس، شِمْ لنا بَرْقا».

قلت، [وفيه نظر][٥]، وإن استَقْصَينا مثل هذا، خرجنا عن الغرض.

---

(١) هذه الكلمة واردة فى المخطوط بعد عبارة (فوردت عليه). وهذا مكانها وفقاً للنفح، وهو أنسب.

(٢) وردت فى المخطوطين (تازا – تاز). والأصح أنها تازة أو تازى، وهى من مدن المغرب الأوسط.

(٣) نسبة إلى «ترجاله» وبالإسبانية Trujillo. وهى مدينة أندلسية تقع على مقربة من جنوبى نهر التاجه، وشمال شرقى بطليوس.

(٤) الزيادة من النفح.

(٥) هكذا وردت فى المخطوطين. ووردت فى النفح كالآتى (وفى جواز مثل هذا نظر).

مــــولده

نقلت من خطه ، كان مولدى بتلمسان ، أيام أبى حمّو موسى بن عثمان بن يَغْمِراسِن بن زيّان . وقد وقفتُ على تاريخ ذلك ، ورأيت الصَّفح عنه ، لأن أبا الحسن بن موسى ، سأل أبا الطاهر السِّلَفى عن سِنِّه ، فقال ، أقبل على شأنك ، فإنى سألتُ أبا الفتح بن زيّان بن مَسْعَدة عن سنه ، فقال ، أقبل على شأنك ، فإنى سألت محمد بن على بن محمد اللبّان عن سنه فقال ، أقبل على شأنك ، فإنى سألت [حمزة بن يوسف السَّهمى عن سنه ، فقال ، أقبل على شأنك ، فإنى سألت أبا بكر محمد بن على النُّفزى عن سنه ، فقال ، أقبل على شأنك][1] ، فإنى سألت بعض أصحاب الشافعى عن سنه ، فقال ، أقبل على شأنك ، فإنى سألت أبا إسماعيل التِّرمِذى عن سنه ، فقال ، أقبل على شأنك ، فإنى سألت الشافعى عن سنه ، فقال أقبل على شأنك ، فإنى سألت مالك[2] بن أنس عن سنه ، فقال ، أقبل على شأنك ، ليس من المروءة إخبار الرجل عن سنه .

وفاتـــه

توفى بمدينة فاس فى أخريات محرم من عام تسعة وخمسين وسبعمائة[3] وأراه توفى فى ذى حجة من العام قبله . ونقل إلى تُربة سلفه بمدينة تِلِمسان حرسها الله .

محمد بن عِياض بن محمد بن عياض بن موسى اليحصبى

من أهل سَبْتة ، حفيد القاضى الإمام أبى الفضل [عِياض][4] ، يكنى أبا عبد الله .

---

(١) هذا كله ساقط فى الزيتونة .

(٢) وردت فى «ج» (السايب) وهو تحريف ، وحكمة التصويب واضحة .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى الزيتونة (عام تسعة وسبعمائة) وهو تحريف .

(٤) ساقطة فى «ج» . وواردة فى «الزيتونة» .

حـــاله

قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير : كان من عُدُول القضاة ، وجلّة سراتهم ، وأهل النزاهة فيهم، شديدَ التحرى فى الأحكام ، والاحتياط ، صابراً على الضعيف فيهم والملهوف ، شديد الوطأة على أهل الجاه وذَوى السَّطوة . فاضلا . وقوراً ، حسن السَّمت [١] . يُعرِّفُه كلامه أبداً . ويزينه ذلك لكثرة وقاره ، محبّا فى العلم وأهله ، مُقرِّباً لأصاغر الطلبة ، ومكرِّماً لهم ، ومُعتنياً بهم ، مُعْمِلا جَهْده فى الدَّفع عنهم، لما عسى أن يسوءهم . ليحبِّبَ إليهم العِلْمَ [وأهلَه][٢] . ما رأينا بعده [فى هذا مِثله][٣]. سكن مالقَة مع أبيه ، عند انتقال أبيه إليها، إلى أن مات أبوه سنة خمس وخمسين وستماية.

حدثنى شيخنا أبو الحسن بن الجيّاب، [وجرى ذكر إعرابه لفظٍ من حديثه عن شيوخه][٤] . قال دخلت على القاضى المذكور ، فسأل أحدُنا عن أبيه ، فقال ابن فلان ، وذكر معرفةً مشتركة بين تجّار فاس . فقال أيهما الذى ينحت فى الخشب، والذى يعمل فى السلاح ، فما فَطِن لقصده لسذاجته وحدثنى عن ذكر جَزالته، أنها كانت تقع له مع السلطان مُستَقضيه، مع كونه مرهوباً ، شديدَ السَّطوة، وقايع تُنْبي عن تصميمه ، وبُعْده عن الهوادة . منها أن السلطان أمر بإطلاق محبوس، كان قد سجنه : فأنفَذ بين يدى السلطان الأمر للسَّجان [بحبسه][٥] ، وتوعَّده إن أطلقه . ومنها إذاعة ثبوتِ العيد ، فى أُخْريات يوم ، كان قد أمل السلطان البُرُوز إلى العيد فى صباحه ، فنزل عن القلمة ينادى ، عبد الله يا ميمون، إخبر الناس عن عِيدهم اليوم ، وأمثال ذلك .

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (السمة) . والأولى أنسب للسياق .
(٢) الزيادة من «الزيتونة» .
(٣) هذه العبارة وارد فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .
(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .
(٥) الزيادة من «الزيتونة» .

مشيخته

قرأ بسَبْتة، وأسْنَد بها، فأخذ عن أبي الصبر أيوب بن عبد الله الفِهرى وغيره، ورحل إلى الجزيرة الخضراء. فأخذ بها كِتاب سيبويه وغيره تفقيهاً[١] على النحويّ الجليل أبي القاسم عبد الرحمن، ابن القاسم القاضى المُتَفَنّن . وأخذ بها أيضاً [كتاب][٢] « إيضاح الفارسى » عن الأستاذ أبي الحجاج بن مَغْرور، وأخذ بإشْبيليةَ وغيرها عن آخرين . وقرأ على القاضى أبي القاسم بن بَقِيٍّ بن نافخة . وأجاز له . وكتب له من أهل المشرق جماعة كثيرة. منهم أبو جعفر محمد ابن أحمد بن نصر بن أبي الفتح الصَّيْدلانى، وأجاز له بإصْبَهان[٣]، وهو سِبْط حسن ابن مَنْدة، أجاز له فى شوال سنة ثمان وتسعين وخمسمائة . وتحمل عن أبي على الحداد، شيخ السِّلَفى الحافظ عن محمود الصيرفى ونظائرها، وجماعة من إصبهان كثيرة كتبوا [له][٤] بالإجازة . وكتب له من غيرها من البلاد [نيفٌ وثمانون][٥] رجلا، منهم أحد وستون رجلا كتبوا له مع الشيخ المحدث أبي العباس الغربى، والقاضى أبي عبد الله الأَزْدى، [وقد نصح على جميعهم فى برنامجيهما، واستوفى أبو العباس الغربى نصوص الإسْتِرْعات، وفيها اسم القاضى أبو عبد الله بن عِياض][٦] .

من روى عنه

قال الأستاذ أبو جعفر رحمه الله، أجاز لى مرتين اثنين . وقال حدثنى

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وربما كانت (تفقها) .

(٢) أضيفت هذه الكلمة إيضاحاً للسياق .

(٣) وردت فى المخطوطين (أصبهان) . وبالتصويب يستقيم المعنى والسياق .

(٤) أضيفت هذه الكلمة لاستقامة السياق .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (ما ينيف على الثمانين) والمؤدى واحد .

(٦) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج وساقط فى «الزيتونة» .

أبو عبد الله مشافهة بالإذن ، أنبأنا أبو الطاهر بركات بن إبراهيم الُخشُوعى كتابةً من دمشق ،أنبأنا أبو عبد الله محمد بن أحمد الرَّازى المعروف بابن الحطَّاب بالحاء المهملة ، أخبرنا محمد بن أحمد بن عبد الوهاب البغدادى بالفسطاط ، أخبرنا موسى ابن محمد بن عرَفة السمسار ببغداد ، قال أبو عمرو بن أحمد بن الفضل النِّفَزِى ، أخبرنا إسماعيل بن موسى ، أخبرنا[1] عمر بن شاكر عن أنَس بن مالك ، قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأتى عَلَى الناس زمان ، الصَّابر[2] منهم عَلَى دينه ، كالقابض على الجمْر .

هذا الإسناد قريب يعزُّ مثله فى القرب لأمثالنا ، ممن مولده بعد الستمائة ، وإسماعيل بن موسى من شيوخ التِّرمِذى ، قد خرَّج عنه الحديث المذكور ، لم يقع له فى مُصَنَّفه ثلاثى غيره .

مولده

بسبتة سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

وفـــاته

توفى بغرناطة يوم الخميس الثامن والعشرين لجمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة .

محمد بن عياض بن موسى بن عياض بن عمر ابن موسى بن عياض اليحصبى

من أهل سَبتة ولد الإمام أبى الفضل ، يكنى أبا عبد الله .

---

(١) واردة فى المخطوطين (نا) نقط .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى نص (القابض) .

حـــاله

كان فقيهاً جليلا ، أديباً ، كاملاً . دخل الأندلس ، وقرأ على ابن بَشْكُوال كتاب الصِّلة ، ووُلى قضاء غرناطة ، قال ابن الزُّبير ، وقفت على جزء أُلِّفه [في شيء][1] من أخبار أبيه ، وحاله فى أخذه وعلمه ، وما يرجع إلى هذا ، أَوْقَفَنى عليه حفدتُه بمالقة .

وفـــاته

توفى سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير [بن محمد][2] بن سعيد ابن جبير بن محمد [بن مروان][3] بن عبد السلام [بن مروان ابن عبد السلام بن جبير][3] الـكِنانى

الواصل إلى الأندلس .

أوّليـــته

دخل جَدُّه عبد السلام بن جُبير فى طالِعة بَلْج بن بِشْر بن عِياض القُشَيرى فى محرم ثلاث وعشرين ومائة . وكان نزوله بكورة شَذُونَة . وهو من ولد ضَمْرة

---

(١) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٢) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٣) هذه الزيادات فى النسبة من كتاب «الذيل والتكملة» لابن عبد الملك (السفر الرابع – مخطوط المتحف البريطانى لوحة ١٣٠) .

ابن كِنانة بن بكر بن عبدمناف بن كنانة بن خُزَيمة بن مُدْركة بن إلياس [بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان][١] . بلَنْسى الأصل ، ثم غَرْناطى الاستيطان . شَرَّق ، وغَرَّب ، وعاد إلى غرناطة .

حـــاله

كان أديباً بارعاً[٢] ، شاعراً مجيداً ، سَنِيًّا فاضلا ، نزيه الهمة ، سَرِىّ النفس، كريم الأخلاق ، أنيق الطريقة [فى الخط][٣]. كتَب بسَبتة عن أبى سعيد عثمان ابن عبد المؤمن ، وبغرناطة عن غيره من ذوى قرابته، وله فيهم أمداح كثيرة . ثم نزع عن ذلك ، وتوجَّه إلى المشرق ،وجرت بينه وبين طايفة من أدباء عصره، مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته . ونَظْمه فايق ، ونثره بديع . وكلامه المُرْسل، سهل حسن ، وأغراضه جليلة ، ومحاسنه ضخمة،وذِكْره شهير ، ورحلته نسيجة وحْدِها ، طارت كل مطار ، رحمه الله .

رحلتـــــه

قال من عُنى بخبره ، رحل ثلاثاً من الأندلس إلى المشرق ، وحجّ فى كل واحدة منها . فَصَل [عن غرناطة][٤] أول ساعة من يوم الخميس لثمان خلون من شوال ، ثمان وسبعين وخمسماية ، صحبة أبى جعفر بن حسان ، ثم عاد إلى وطنه غَرناطة لثمان بقين من محرم واحد وثمانين . ولقى بها أعلاما يأتى التعريف[٥] بهم فى مشيخته، وصنّف الرحلة المشهورة ، وذكر [مناقله][٦] فيها [وما شاهده][٧]

(١) هذه الزيادة من «الذيل والتكملة» — المخطوط السابق الذكر .

(٢) هذه الكلمة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٣) الزيادة من «الذيل والتكملة» .

(٤) هذه الزيادة من «الزيتونة» .

(٥) وردت فى «ج» (التعرف) والتصويب من «الزيتونة» .

(٦) هكذا وردت فى «ج» وفى «الذيل والتكملة» . وفى الزيتونة (ما نقله) .

(٧) وردت فى «ج» (مشاهده) والتصويب من الزيتونة والذيل والتكملة .

من عجايب البُلدان، وغرايب المشاهد ، وبدايع الصَّنايع، وهو كتاب مُؤنس ممتع ، مُثير سَوَاكن النفوس إلى [الرِّفادة على](١) تلك المعالم [المكرمة والمشاهد العظيمة](١)

ولما شاع الخبرُ المُبْهِج بفتح [بيت](٢) المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى(٣) ، قَوِى عزمُه على عمل(٤) الرحلة الثانية ، فتحرك إليها من غرناطة ، يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة خمس وثمانين وخمساية ، ثم آبَ إلى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشر خلت من شعبان سبع وثمانين . وسكن غرناطة ، ثم مالقَة، ثم سَبْتة ، ثم فاس ، منقطعاً إلى إسْماع الحديث والتصوُّف ، وتَرْوِية ما عنده . وفَضْلُه بديع ، ووَرَعُه يتحقق ، وأعماله الصالحة تَزْكُو(٥) . ثم رحل الثالثة من سبتة، بعد موت زوجته عاتِكة أم المجد بنت الوزير أبى جعفر الوَقَّشِى، وكان كَلِفاً بها ، فعظُم وجْدُه عليها . فوصل مكة ، وجاور بها طويلا ، ثم بيت المقدس ، ثم تجوّل بمصر والإسكندرية ، فأقام يُحدِّث ويُؤخذ عنه إلى أن لحق بربه .

مشيخته

روى بالأندلس عن أبيه ، وأبى الحسن بن محمد بن أبى العَيْش ، وأبى عبد الله بن أحمد بن عروس، وابن الأصِيلى . وأخذ العربية عن أبى الحجاج بن يَسْعون . وبسبتة عن أبى عبد الله بن عيسى التميمى السَّبتى . وأجاز له أبو الوليد ابن سبكة ، وإبراهيم بن إسحاق بن عبدالله الغَسَّانى التونسى ، وأبو حفص عمر بن

(١) الزيادة من «الذيل والتكملة» .

(٢) أضفنا هذه الكلمة تكلة لاسم المدينة .

(٣) وردت (ابن بورى) فى «ج» ، وفى «الذيل والتكملة» . ووردت فى «الزيتونة» (ابن برى) .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (إعمال) .

(٥) وردت فى المخطوطين (تذكر) . والتصويب من «الذيل والتكملة» .

عبد المجيد بن عمر القرشي المَيَّانجى[1] ، نزيلا مكة ، وأبو جعفر أحمد بن على القرطبي الفَنْكى ، وأبو الحجاج يوسف بن أحمد بن على بن إبراهيم بن محمد البغدادى ، وصَدْر الدين أبو محمد عبد اللطيف الخَجَرى ربيس الشَّافعية بإصبهان . وببغداد العالم الحافظ[2] المُتَبحر [نادرة الفَلَك][3] أبو الفرج ، وكناه أبو الفضل ابن الجَوْزى . وحضر بعض مجالسه الوَعْظية [وقال فيه][4] « فشاهدنا رجلا ليس بعمرو ولا زيد[5] ، وفى جوف الفِرا كلُّ الصَّيد » . وبدمشق أبو الحسن أحمد بن حمزة بن على بن عبد الله بن عباس السَّلمى الجِوارى . وأبو سعيد عبد الله بن محمد ابن أبى عَصْرون ، وأبوالطاهر بركات الخُشُوعى . وسمع عليه ، وعمادالدين أبوعبدالله محمد بن محمد بن حامد الإصْبَهانى من أئمة الكتاب ، وأخذ عنه بعض كلامه ، وغيره ، وأبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الأخضر بن على بن عساكر ، وسمع عليه ، وأبو الوليد إسماعيل [بن على][6] بن إبراهيم [والحسين بن هِبَة الله بن محفوظ بن نصر الرَّبْعى . وعبد الرحمن بن إسماعيل بن أبى سعيد الصوفى ، وأجازوا له ، وبحَرَّان الصُّوفى العارف أبو البركات حيَّان بن عبدالعزيز ، وابنه الحاذى حذوَه][7] .

من أخذ عنه

قال ابن عبد الملك ، أخذ عنه أبو إسحاق بن مُهيب ، وابن الواعظ ، وأبو تمام

---

(١) وردت فى «ج» (المبايجى) . والتصويب من «الزيتونة» .
(٢) وردت هكذا فى «الزيتونة» . وفى «ج» (الواعظ) . والأولى أرجح حسبما يبدو بعد فى السياق .
(٣) ما بين الحاصرتين ساقط فى «الزيتونة» .
(٤) الزيادة من «الذيل و التكملة» .
(٥) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (ليس من عمرو ولا زيد) .
(٦) الزيادة من «الزيتونة» .
(٧) ما بين الحاصرتين ساقط كله فى «الزيتونة» .

ابن إسماعيل، وأبو الحسن بن نصر بن فاتح بن عبد الله البجّائى ، وأبو الحسن [بن على][(١)] الشّادى ، وأبو سليمان بن حَوْط الله ، وأبو زكريا ، وأبو بكر يحيي بن محمد بن أبى الغُصْن[(٢)] ، وأبو عبد الله بن حسن بن مُجير ؛ وابو العباس بن عبد المؤمن البنّانى ، وأبو محمد بن حسن اللّواتى[(٣)] وابن تامتيت ، وابن محمد المورُورِى ، وأبو عمر بن سالم، وعثمان بن سفيان بن أشقر التّميمى التونسى .

وممن [أخذ عنه][(٤)] بالإسكندرية ، وشيد الدين أبو محمد عبد الكريم بن عطاء الله ؛ وبمصر رشيد الدين بن العطّار[(٥)] . وفخرُ القضاة بن الجبّاب ، وابنه جمال القضاة .

تصانيفــه

منها نظمُه . قال ابن عبد الملك : « وقفت منه على مجلد [متوسط][(٦)] يكون على قدر ديوان أبى تمام حبيب بن أوس . ومنه جزء سماه « نتيجة وَجْدِ الجوانح فى تأبين القَرِين الصالح » فى مراثى زوجه أم المجد . ومنه جزء سماه « نظم الجُمان فى التشكى من إخوان الزمان » . « وله ترسيل بديع ؛ وحِكَمٌ مُستجادة »[(٧)] ، وكتابُ رحلته . « وكان أبو الحسن الشّادى ، يقول إنها ليست من تصانيفه وإنما قيّد معانى ما تضمنته ؛ فتولى ترتيبها ، وتنضيد معانيها بعض الآخذين عنه ، على ما تلقاه منه »[(٧)] . والله أعلم .

---

(١) هذه الزيادة من «الزيتونة» .
(٢) هكذا وردت فى المخطوطين .
(٣) وردت فى المخطوطين (اللوابى) . والتصويب من « الذيل والتكملة » .
(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (روى عنه) .
(٥) وردت فى المخطوطين (عطار) . والتصويب أرجح .
(٦) هذه الزيادة من «الذيل والتكملة» .
(٧) هاتان الفقرتان نقلهما ابن الخطيب عن «الذيل والتكملة» مع تغييرات يسيرة .

شعره

من ذلك القصيدة الشهيرة التى نظمها ، وقد شارف المدينة المكرّمة طِيبة ، على ساكنها من الله أفضل الصلوات ، وأزكى التسليم :

اقول وآنستُ بالليل نارا ... لعل سِراج الهدى قد أنارا
وإلاّ فما بالُ أفق الدُّجى ... كأنّ سَنا البرق فيه استَطارا
ونحن من الليل فى حِندِس ... فما باله قد تجلّى نهارا
وهذا النَّسيم شذا المِسْك قد ... أُعير أم المسك منه استعارا
وكانت رواحِلُنا تشتكى ... وَجاها فقد سابَقَتْنا ابْتِدارا
وكنا شكونا عناء السُّرى ... فعِدنا نُبارى سِراع المهارا
أظن النفوس قد استَشْعرت ... بلوغَ هوًى تَخِذته شِعارا
بشاير صبح السُّرى آذنت ... بأنّ الحبيب تدانى مَزارا
جرى ذكرُ طيبَة ما بيننا ... فلا قَلْبَ فى الركب إلاّ وطارا
حنيناً إلى أحمد المصطفى ... وشوقاً يُهيج الضلوع استِعارا
ولاح لنا أُحُدٌ مُشرِقاً ... بنور من الشُّهداء استعارا
فمن أجل ذلك ظلّ الدُّجى ... يحل عقُود النجوم انتثارا
ومن طَرَب الرَّكْب حثّ[(١)] الخطا ... إليها ونادى البِدار البدارا
ولما حلَلْنا فِناء الرسول ... نزَلنا بأكرم مجدٍ جوارا
وحين دنونا لفرض السلام ... قَصَرنا الخُطا ولزِمنا الوقارا
فما نُرْسل اللَّحظ إلا اختِلاساً ... ولا نُرجع الطَّرف إلاّ انكِسارا
ولا نُظهر الوجد إلاّ اكتتاماً ... ولا نلفُظ القول إلاّ سِرارا

(١) وردت فى المخطوطين (حط) . والتصويب من الذيل والتكملة .

سوى أننا لم نُطق أعيُناً ... بأدمعها غلبَتْنا انفِجارا
وقفنا بروضة دار السلام ... نُعيد السلام عليها مرارا
[ولولا مهابته](1)في النفوس لثمنا ... الثَّرى والتزمنا الجِدارا
قضينا بزَوْرَته حجَّنا ... وبالعُمْرتين ختمنا اعتِماراً
إليك إليك نبيَّ الهُدَى ... ركبتُ البحار وجُبْت القفارا
وفارقتُ أهلي ولا منَّةٌ ... وربَّ كلام يجرُّ اعتذارا
وكيف نمُنُّ على من به ... نُؤمل للسيئات اغتفاراً
دعاني إليك هوىً كامنٌ ... أثار من الشوق ما قد أثارا
فناديتك لبَّيك داعي الهوى ... وما كنت عنك أطيق اصطباراً
[ووطنت نفسي بحكم الهوى ... عليَّ وقلتُ رضيتُ اختيارا](2)
أخوض الدُّجى وأروض السُّرى ... ولا أُطعِم(3) النوم إلاَّ غِرارا
ولو كنت لا أستطيع السبيل ... لطرتُ ولو لم أُصادف مطارا
[وأجدَرُ من نال منك الرضى ... محبٌ ثراك على البُعد زارا](4)
عسى لحظةٌ منك لى فى غدٍ ... تُمهد لى فى الجِنان القرارا
فما ضلَّ من بسُراك(5) اهتدى ... ولا ذلَّ من بذَراك استجارا

وفى غبطةِ مِنْ منَّ الله عليه لحج بيته ، وزيارة قبره صلى الله عليه وسلم يقول :

هنيئاً لمن حجَّ بيتَ الهُدى ... وحطَّ عن النفس أوزارها

---

(١) هكذا فى «ج» و«الذيل و التكملة» . وفى الزيتونة (ومن إيمانه) .

(٢) فى «الزيتونة» أدمج هذا البيت والذى قبله فى بيت واحد :

فناديت لبيك داعى الهوى ... على وقلت رضيت اختيارا

(٣) هكذا وردت فى «ج» و«الذيل و التكملة» . وفى «الزيتونة» (أطمع) .

(٤) هذا البيت ساقط فى «الزيتونة» . (٥) فى «الذيل و التكملة» (بهداك) .

وإن السعـــادة مضمونة لمن حجَّ طيبةَ أو زَارهـــا

وفى مثل ذلك يقول :

إذا بلغ المرء أرض الحجاز فقد نال أفضلَ ما أمَّله
وإن زار قبر نبىِّ الهُدى فقد أكمل الله ما أمَّـــله

وفى تفضيل المَشْرق :

لا يستوى شرقُ البلاد وغربُها الشرقُ حاز الفضل باستحقاق
أنظر [إلى جمال الشمس] (١) عند طلوعها زَهْراء تُعجب بهجة الإشراق
وانظر إليها عند الغروب كئيبة صفراء تعقب ظُلمة الآفاق
وكفى بيوم طلوعها من غَرْبها أن تؤذن الدنيا بعزم (٢) فراق

وقال فى الوصايا :

عليك بكتمان المصايب واصْطَبر عليها فما أبقى الزمان شَفِيقا
كفاك بالشكوى إلى الناس أنها تَسُرُّ عدواً أو تُسيء صديقا

وقال :

وصانِعُ (٣) المعروف فلتَةُ عاقل إن لم تَضَعْها فى محلٍّ عاقل
كالنفس فى شهواتها إن لم تـكن وقفاً لها عادت بضرٍّ عاجل

نـثره

من حـكمه قوله : إنْ شرُف الإنسان ، فشرفُه (٤) وإحسان . وإن فاق

(١) هكذا وردت فى «ج» وفى «الزيتونة» . وفى نص (ترى الشمس) .
(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (بشوك) .
(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (فصانع) .
(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى «الذيل والتكملة» (فضل) .

فتفضلٌ وإرفاق[(١)] . ينبغى أن يحفظَ الإنسان لسانه ؛ كما يحفظ الجفنُ إنسانه . فربَّ كلمة تقال ، تُحدث عثرة لا تُقال . كم كَسَت فَلَتات الألسنة الحِداد ، من ورائها ملابس حِداد[(٢)]. نحن فى زمن لا يَحْظَى[(٣)] فيه بنفاق إلا من عامل بنفاق . شغُل الناس عن [طريق الآخرة][(٤)] بزخارف الأغراض ، [فلجئوا فى][(٥)] الصُّدود عنها والإعراض . آثروا دنيا هى أضغاث أحلام ، وكم هفَت فى حبها من أحلام ، أطالوا فيها آمالهم[(٦)] ، وقصَّروا أعمالهم ، ما بالهُم ، لم يتفرغ لغيرها بالهُم ، ما لهَم فى غير ميدانها اسْتِبَاق ، ولا (بِسوَى هواها)[(٧)] اشتياق . تالله لو كُشِفت الأسرار ، لما كان هذا الإصْرار ، ولسَهرت العُيون[(٨)] ، وتفجَّرت من شئونها الجُفُون[(٨)] . فلو أن عينَ البصيرة من سِنَتها هابَّة ، لرأت جميع ما فى الدنيا ريحا هابَّة [ولـكن استولى العَمَى على البَصَاير][(٩)] ولا يعلم الإنسان ما إليه صاير . أسأل الله هدايةَ سبيله ، ورحمةً تورد نسيم الفردوس وسَلْسَبيله ، إنه الحنَّان المنَّان لا رب سواه[(١٠)] .

ومنها : فَلَتات الهِبات ، أشبه شيء بفلتات الشَّهوات . منها نافعٌ لا يعقبُ ندما ، ومنها ضارٌ يبقى فى النفس ألمَّا . فضررُ الهبة وقوعُها عند من لا يعتقد

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (وإغراق) . وفى «التكملة» (واتفاق) .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى «التكملة» (الحداد) .

(٣) وردت فى المخطوطين (يحصى) . والتصويب من «التكملة» .

(٤) وردت فى المخطوطين (الطريق) . والتصويب والزيادة من «التكملة» .

(٥) وردت فى المخطوطين (فمجوا) . والتصويب والزيادة من «التكملة» .

(٦) وردت فى المخطوطين (إلمامهم) . والتصويب من «التكملة» .

(٧) وردت فى «ج» (سوى هداها) والتصويب من «التكملة» .

(٨) هكذا وردت فى «ج» . ولكن وردت فى «الزيتونة» (العين . الجفن) .

(٩) هكذا وردت هذه العبارة فى «الزيتونة» . ووردت محرفة فى «ج» كالآتى : (ولكن استولى على العمى ريح البصاير) وكلمة ريح هنا حشو لا معنى له .

(١٠) رجعنا إلى نص «التكملة» فى تصويب كثير من عبارات هذه الفقرة .

لحقِّها أداء ، وربما أثرت عنده اعتداء . وضررُ الشهوة أن لا توافق ابتداء ، فتَصير لمتبَّعِها[١] داء ، مثلُها كمَثَل السُّكر يلتذُّ صاحبه[٢] بحلاوة جِناه ، فإذا صحا يعرف قدر ما جَناه . عكسُ هذه القضية هي الحالة المرضية .

مولده

بمَلَنْسِيَة سنة تسع وثلاثين [وخمسماية][٣] وقيل بشاطبة [سنة أربعين وخمسماية][٤]

وفاتـه

توفى بالإسكندرية ليلة الأربعاء التاسع والعشرين لشعبان أربع عشرة وستماية

محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد ابن محمد بن عبد الرحمن بن على بن شِبْرين[٥]

يكنى أبا بكر ، شيخنا الفقيه القاضى المؤرخ الكاتب البارع رحمة الله عليه

أوّليتـه

أصله من إشْبيلِيَة ، من حصن شانْب من كورة باجَة ، من غربى صُقْعها ، يعرفون فيها ببنى شبْرين[٥] ، معرفة قديمة . وُلّى جدُّه القضاء بإشبيلية ، وكان من

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (لمستعمها) . وفى الذيل والتكلة (لمستعملها) .

(٢) وردت فى المخطوطين (صاحبها) وبالتصويب يستقيم السياق .

(٣) الزيادة من الزيتونة .

(٤) هكذا فى «ج» . ووردت مكان هذا التاريخ فى «الزيتونة» (فى هذا التاريخ) .

(٥) وردت فى «ج» فى الموضعين (ابن شيرين) . والتصويب فى الموضعين من «الزيتونة» .—

كبار أهل العلم (تشهد بذلك الصلاة)[١] . وانتقل أبوه منها عند تغلُّب العدو عليها عام ستة وأربعين وسمّاية ، فاحتل رُنْدة ثم غَرناطة ، ثم انتقل إلى سُكنى سَبْتة ، وبها وُلد شيخنا أبو بكر ، وانتقل عند الحادثة إلى غرناطة ، فارتَسَم بالكتابة السلطانية ، وولى القضاء بعدة جهات ، وتأثل مالاً وشهرة ، حتى جرَى مجرى الأعيان من أهلها .

حالــه

كان فريد دهره ، ونسيج وحده فى حُسْن السَّمْت[٢] والرُّواء ، وكمال الظَّرف وجمال الشَّارة ، وبراعة الخطّ ، وطيب المجالسة . خاصِّيا ، وقورا ، تام الخُلُق ، عظيم الأبهَّة ، عذب التِّلاوة لكتاب الله ، من أهل الدين والفضل والعدالة ، تاريخيًّا ، مقيِّدا ، طُلَعَة اختيار [أصحابه][٣] محققا لما ينقله ، فَكِها مع وقاره ، غَزِلاً ، لوْذَعيًّا ، علىّ شأن الكتابة ، جميل العشرة ، أشد الناس على الشِّعر ، ثم على المحافظة ، ما يحفظه من الأبيات من غير اعتيام ولا تنقيح ، يُناغى الملكين فى إثباتها ، مقرَّرة التواريخ ، حتى عظم حجم ديوانه ، [تفرَّدت أشعاره بما أبرَّ على المكثرين][٤] مليحَ الكتابة ، سهلها ، صانعاً ، سابقاً فى ميدانها ، راجحا كفَّة المنثور . وكانت له رحلةٌ إلى تونس ، اتّسع بها نِطاق روايته . وتقلَّب بين الكتابة والقضاء ، منحوسّ الحظ فى الاستعمال ، مُضَيَّقا فيه ، وإن كان وافر الجَدّ ، مُوسَّعا عليه .

=وهو الاسم الصحيح . وابن شيرين من شيوخ ابن الخطيب الأثيرين ، وقد ذكره فضلا عن هذه الترجمة فى مواضع كثيرة من الإحاطة ، راجع المجلد الأول من الإحاطة (١٩٧٣) ص ٩٧ ، و ٤٤٣ ، و ٥٤١ ، ٥٤٩ .

(١) وردت هذه العبارة فى «ج» دون حكمة واضحة من إيرادها فى هذا المكان .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (السمة) .

(٣) هذه الكلمة واردة فى «الزيتونة» وساقطة فى «ج» .

(٤) هذه العبارة واردة فى «ج» وساقطة فى «الزيتونة» .

وجرى ذكره فى كتاب « التاج المحلّى »[١] بما نصه :

خاتمةُ المحسنين ، وبقية الفُصحاء اللَّسِنين ، ملأ العيون هَدْياً وسَمْتاً ، وسلك من الوقار طريقة ؛ لا تَرى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً ، ماشئت من فضل ذات ، وبراعة أدوات . إن خطَّ ، نزل ابن مُقلة عن دَرَجته [وإن خطَّ][٢] . وإن نظم أو نثر ، تَيمت البلغاء ذلك الأثر . وإن تـكلم أَنْصتَ الحفلُ لاستماعه ، وشرع[٣] لدُرَره النفيسة صِدْق أسماعه . وفد على الأندلس عند كاينة سَبتة ، وقد طرحت النَّوى برحاله ، وظَعَنَ عن رَبْعه بتوالى إمْحاله ، [ومُصَرِّف بلاده][٤] ، والمستولى على طارِفِها وتالِدِها ، أبو عبد الله بن الحكيم ، قدَّس الله صداه ، وسقى مُنْتداه ، فاهتزّ لقدومه اهتزاز الصَّارم وتلقاه تلقى الأكارم ، وانْهض إلى لقايه آماله ، وألق[٥] له قبل الوسادة ماله ، ونَظَمه فى سِمْط الـكُتاب ، وأسْلاه عن أعمال الاقتاد ، ونزل ذمامه تأكُّداً فى هذه الدول ، ووُفى له الآتية منها على الأول ، فتصرَّف فى القضاء بجهاتها ، ونادته السيادة هاك وهاتها ، فجدَّد عهد حُكامه العدول من سَلَفه وقضاتها . وله الأدب الذى تحلّت بقلايده اللَّبات والنُّحور ، وقَصَرت عن جواهره البحُور . وسيمر من ذلك فى تضاعيف هذا المجموع ما يشهد بسِمَة ذَرْعه، ويخبر بكرم عُنْصره ، وطيب نبغه[٦] .

---

(١) هو كتاب «التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى» ، وهو أحد كتب ابن الخطيب التاريخية ، ويتضمن مختصراً لتاريخ مملكة غرناطة وتراجم أعيانها فى القرن الثامن الهجرى . وقد سبق التعريف به فى مقدمة المجلد الأول .

(٢) واردة فى «ج» وساقطة فى «الزيتونة» .

(٣) هكذا فى «ج» وفى «الزيتونة» (وسمع) والأولى أرجح .

(٤) هذه العبارة وارده فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (وأمنى) .

(٦) كذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (نعمه) والأولى أرجح .

مشيخـتـــه

قرأ على جدّه لأمّه الأستاذ الإمام ، أبى بكر بن عُبيدة الإشبيلى ، وسمع على الرييس أبى حاتم ، وعلى أخيه أبى عبد الله الحسين ، وعلى الأستاذ أبى إسحاق الغافقى،وعلى الشريف أبى على بن أبى الشرف ، وعلى الإمام أبى عبد الله بن حُريث. وسمع على العَدْل أبى فارس عبد العزيز الجزيرى . وسمع بحضرة غرناطة على الأستاذ أبى جعفر بن الزبير ، [وعلى العدل أبى الحسن بن مستقور] (١) وعلى الوزير أبى محمد بن المُؤذن ، وعلى الخطيب أبى عبد الله بن رُشيد . وبمالقة على الخطيب ولى الله تعالى ، أبى عبد الله الطَّنجالى ، وعلى الوزير الصَّدر أبى عبد الله ابن ربيع ، وعلى القاضى العدل أبى عبد الله بن بُرطال . وببجاية على الإمام أبى على ناصر الدين المِشْدالى ، وعلى أبى العباس الغَبْرِينى . وبتونس على أبي على بن عُلوان ، وعلى قاضى الجماعة أبى إسحاق بن عبد الرَّفيع ، وسمع على الخطيب الصُّوفى ولىّ الله تعالى ، أبي جعفر الزيات ، والصوفى أبى عبد الله بن بُرطال ، وعلى الصدر أبى القاسم محمد بن قايد الكَلاعى . [وأجازه عالم] (٢) كثير من أهل المشرق والمغرب .

شعـــره

وشعره متعدِّدُ الأسفار، كثير الأغراض . وفى الإكثار مُجالَل الإختيار ، [فمنه قوله] (٣) :

---

(١) هذا الاسم ساقط فى «الزيتونة» . وقد ورد اللقب محرفاً فى «ج» (مغمسور) . والتصويب من كتاب قضاة الأندلس للنباهى .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (وأجازوه علماء) .

(٣) أضفنا هذه العبارة تكملة للسياق .

أخَذْتِ بكظم الرُّوح يا ساعة النوى ... وأضرمتِ فى طىّ الحشى لاعجَ الجوى
فمَن مُخبرى يا ليت شعرى متى اللِّقا ... وهل تَحْسُن الدنيا وهل يرجع الهوى
سلا كلُّ مشتاق وأكثر وجـده ... وعند النَّوى وجدى وفيما كنا الهوى
ولى نيَّة ما عشت فى حِفظ عهـدهم ... إلى يوم ألْقاهم وللمرء ما نوى

وقال :

بانُوا فمـن كان باكياً يَبكِ ... هذى رِكاب السُّرى بلا شكٍّ
[فمن ظهور الرِّكاب معمـلة ... إلى بطون الرُّبى إلى الفُلك
تصدّع الشملُ مثلما انحـدرت ... إلى صبوب جواهر السِّلك][1]
كُنْ بالذى حدَّثوا على ثقـــة ... ما فى حِديث الفراق من إفْكِ
من النّوى قبلُ لم أزل حَذِراً ... هذا النوى جلَّ من مالك المُلك

وقال :

يا أيها المُعْرِض اللاهى ... يسوءنى هَجْــرُك والله
[فياليت شِعرى كم أرى فيك ... لا أقفك عن ويْه وعزاه
ويحي مغيرى إلى باخل واه ... مَنْ ذا الذى رآه][2]
من يُرِد الله فيه فتنـةً ... يُشْغــله فى الدنيا بتيَّاه
يا غصن البان ألاَ عَطْفَةً ... على مُعنًّي جسمُــه واه
أوْسَعنى بعدك ذُلاًّ وقدراً ... يُثنى عنـدك ذا جاه[3]

---

(١) أكملنا هذه المقطوعة بهذين البيتين . وقد أوردها ابن الخطيب ضمن خطاب الوداع الذى وجهه إلى مليكه الغنى بالله حينما غادر الأندلس إلى المغرب لآخر مرة (راجع المجلد الأول من «الإحاطة» ص ٣٣) .

(٢) أورد كل من المخطوطين نصوصاً مضطربة لهذين البيتين . وقد حاولنا جهد الاستطاعة أن نخرج من هذه النصوص المضطربة أفضل صيغة ممكنة . بيد أن هذه الصيغة ليست واضحة كل الوضوح .

(٣) هذا البيت وارد فى «ج» وساقط فى «الزيتونة» .

ذِكْرُكَ لا ينفكُّ عن خاطري ... وأنت عنّي غافلٌ ساه
يكفيك يا عثمان من جفوني ... لو كان ذَنْبي ذنب جِهجاه
هيهات لا مُعترض[1] لي على ... حُكْمِك أنت الآمر النّاه

قلت جِهجاه المشار إليه رجل من غُفّار [قيل][2] إنه تناول عصا الخُطْبة من يد عثمان رضى الله عنه ، فكسرها على ركبته ، فوقعت فيها الأَكِلة فهلك .

وقال :

يا من أعاد صباحي فقده حَلَكا ... قَتَلْت[3] عبدك لكن لم تخف دركا
مصيبتي ليست كالمصائب لا ... ولا بُكائي عليها مثل كلّ بُكا
فمن أُطالب في شَرْع الهوى بدمي ... لحظي ولحظُك في قتلي قد اشتركا

وقال ، وقد سبقه إليه الرُّصافي ، وهو ظريف :

أشكو إلى الله فَرْطَ بلبالي ... ولوْعَةً لا تزال تُذْكي لي
بمهجتي حايكٌ شُغلت به ... حُلو المعاني طِرازه عالي
سألته لَثْم خالِه فأبي ... ومَنْ ذا نَخْوة وإذلال
وقال حالي يصُون خالي ... يُدنى فَوَيحي بالخال والحال
يقرِّبُني الآل من مواعده ... وأتقي منه سَطوة الآل
لكن على ظُلْمه وقسوته ... فلستُ عنه الزَّمانَ بالسّالي

وقال أيضاً مضمناً :

لي همة كلما حاولت أمسكها ... على المذلّة في أرجاء[4] أرضيها

---

(١) هكذا وردت في «ج» . وفي «الزيتونة» (متعرض) .
(٢) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم المعنى والسياق .
(٣) هكذا وردت في «الزيتونة» . ووردت في «ج» (أملت) .
(٤) هكذا وردت في «ج» . وفي «الزيتونة» (أرجال) .

قالت ألم تكنْ أرض الله واسعةً حتى يهاجر عبدٌ مؤمن فيها

وقال مُسْترجعاً من ذنبه ، ومُسْتوحشاً من شَيْبه :

قدكان عيبي من قبل في غَيْبِ فمذ بدا شَيْبي بدا عَيْبي
لا عُذْر اليوم ولا حُجة فَضَحْتَني والله يا شَيْبي

وقال :

أثْقَلَتْني الذنوب ويحي وويْسي ليتني كنت زاهداً كأوَيس

وجَرَت بينه وبين السلطان ثالث الأمراء من بني نصر[(١)] ، بعد خلعه من مُلْكه ، وانْتِثار سِلْكه ، واستقراره بقصبة المُنكَّب ، غريباً من قومه ، مُعَوَّضاً بالسهاد من نومه ؛ قد فلَّ الدهر سباته ، وتركه يندب مافاته ؛ والقاضي المترجم به يومئذ ، مُدَبِّرُ أحكامها ، وعَلَمَ أعلامها ، ومتولى نَقْضها وإبرامها ، فارتاح يوماً إلى إيناسه ، واجتلاب أدبه والتماسه ، وطلب منه أن يعبر عن حاله ببَيانه ، وينوب في بثه عن لسانه . فكتب إليه :

قفا نَفَساً فالخَطْب فيها يهون ولا تَعْجلا إن الحديث شجون
عَلِمنا الذي قد كان من صَرْف دهرنا ولسنا [على][(٢)] علم بما سيكون
ذكرنا نعيماً قد تقضى نعيمُه فأقْلَقَنا شوقٌ له وحنين
وبالأمس كُنا كيف شِئنا وللدُّنا[(٣)] حِراك على أحكامنا وسكون

---

(١) هو أبو عبد الله محمد المخلوع ، محمد بن محمد بن الأحمر ، وقد حكم مملكة غرناطة من سنة ٧٠١ إلى سنة ٧٠٨ هـ . ثار عليه أخوه أبو الجيوش نصر ، واضطرمت ضده الثورة في عيد الفطر سنة ٧٠٨ هـ ، وأرغم على التنازل عن العرش ، ثم اعتقل بحصن المنكب ، ولبث فيه حتى توفى في سنة ٧١٣ هـ .

(٢) أضفنا هذه الكلمة لاستقامة الوزن والمعنى . وهكذا وردت هذه الشطرة في «ج» . وفي الزيتونة» (ولا نعلموا بذا الذى سيكون) .

(٣) هكذا وردت في «ج» . وفي «الزيتونة» (وللدنيا) .

وإذا بابَنا مَثْوى الفؤاد ونحونا تُمَدُّ رقاب أو تُشير عيون
فنَغَّصَ من ذاك السرور مَهْنأ وكَدَّرُ من ذاك النعيم مَعين
ونبا عن الأوطان بين ضرورة وقد يَقْرُب[1] الإنسان ثم يَبين
أيا معهد الإسعاد[2] حُيِّيت معهداً وجادَك من سَكْب الغمام هَتُون
تريد الليالى أن تُهين مكاننا رُويدك إن الخير ليس يُهون
فإن تكن الأيام قد لَعِبت بنا ودارت علينا للخطوب فنون
فمن عادة الأيام ذلُّ كِرامها ولكنّ سَبيل الصابرين مُبين
لئن خاننا الدهر الذى كان عَبْدنا فلا عجب إنّ العَبيد تخون
وما غضَّ منا مَخْبَرى غير أنه تضاعف إيمانٌ وزاد يقين

وكتب إلى الحكم بن مسعود ، وهو شاهد المواريث بهذه الدُّعابة التى تستخفُّ الوقور ، وتَلج السَّمع المَوْقور :

أطال الله بقاء أخى وسيدى ، لأهل الفَرايض ، يُحسِن الاحتيال فى مُداراتهم ، وللمنتقلين إلى الدار الآخرة يأمر بالاحتياط فى أمواتهم ، ودامت أقلامه مُشْرعة لصَرْم الأجل المُنَسَّأ . مُعدَّة لتحليل هذا الصِّنف المُنشَّأ من الصِّلصال والحمأ . فمن ميِّتٍ يُغسل وآخر يُقبر ، ومن أجَلٍ يُطوى ، وكَفَنٍ يُنشر ، ومن رَمْس يُفتح ، وباب يُغلق . ومن عاصبٍ يُحْبَس ، ونَعْشٍ يُطلق . فكلما خَرُبت ساحة ، نشأت فى الحانوت راحة . وكلما قامت فى شَعْبٍ مناحة ، اتّسعت للرزق مِساحة . فيبا كر سيدى الحانوت ، وقد اختَسى مَرَقته ، وسهَّل عَنْفَقته ، فيرى الصَّعْبة بالمناصب شَطْراً . فيلحظ هذا برفْق ، وينظر إلى هذا شَزْراً . ويأمر بشقِّ الجيوب تارة ، والبحثِ عن الأوساط أخرى . ثم يأخذ القَلَم أخذاً رفيقاً ، ويقول وقد خامَرَه

(١) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (يغرب) .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (الإسناد) وهو تحريف .

السرور، رَحِم الله فلانا ، لقد كان لنا صديقاً ، وربما أَدْبَره(١) بالانزعاج الحَثيثُ ، وقال مستريحٌ منه كما جاء في الحديث . وتختلف عند ذلك المراتب ، وتَتَبين الأصدقاء والأجانب ، فيَنْصرف هذا ، وحظه التهريب ، والنظر الحديد، وينفَصِل هذا ، وبين يديه المُنْذر الصَّيت ، والنعش الجديد . ثم يَغْشى دار الميت ويسَلُ عن السكَيْت والسكيت ، ويقول عليّ بما في البَيْت. أين دعاء الثَّاغية والرَّاغية . أين عقود الأملاد بالبادية . وقد كانت لهذا الرجل حالاً في حال . وقد ذُكر في الأسماء(٢) الخمسة [فقيل](٣) ذو مال . وعيون الأعوان تَرْنو من عَلٍ(٤)، وأعناقهم تَشْريبٌ إلى خلف الكِلَل ، وأرْجلهم تدبُّ إلى الأسفاط دَبيب الصقُور(٥) إلى الحَجَل . والموتى قد وجبت منهم الجنوب ، وحضر المَوْروث والمَكْسوب . وقُيِّد المَطْموم والمشروب . وعدَّت الصحاح . ووُزِنت(٦) الأرْطال ، وكِيلت الأقْداح . والشُّهود يغلظون على الورثة في الألية [ويصونهم بالبنات](٧) في النشأة الأوّلية . والروائح حين تُفعم الأرض طيباً ، وتُهدى الأرواح شذاً يفعل في إزعاجها على الأبدان فِعلا عجيباً . والدلاّل يقول هذا مِفتاح الباب . والسِّمسار يصيح قام النِّدا فما تنتظرون بالثبات . والشّاهد يصيح فتَعْلو صيحته ، والمُشْرف يَشْرب فتسقط سِبْحته . والمحتضر يهِسُّ ألا حيّ فلا تسمعون [ويباهى لون العباء عليه](٨) الجواب رب أرْجعون . ما هذا النَّشِيج والضَّجيج . مُتّ كلا لم أُمت.

---

(١) هكذا في «الزيتونة» . وفي «ج» (أدره) .
(٢) وردت في «ج» (أسماء) والتصويب من الزيتونة .
(٣) وردت في المخطوطين (فقال) . وبالتصويب يستقيم السياق .
(٤) وردت في «ج» (من خل) . والتصويب أرجح .
(٥) وردت هكذا في «ج» . وفي «الزيتونة» (الصقر) .
(٦) وردت محرفة في «ج» . و «الزيتونة» (وزيت . وزينت) .
(٧) هكذا وردت هذه العبارة في المخطوطين . وهي بحالتها لا تدل بمعنى واضح .
(٨) هذه العبارة واردة في «ج» ، وساقطة في «الزيتونة» .

ومن حجَّ له الحجيج . فترتفع له الأصوات ، كي لا يُفسح فيه المهات . ويُبقر بطنه برَغمه ، ويُحفر له بجانب أبيه وبحذا أمِّه. ثم يشرع في نفسه الفَرْض، ولو أُكفئت السموات على الأرض . ويقال لأهل السّهام ، أحْسِنوا ، فالإحسان ثالث مراتب الإسلام . وقد نصَّ ابن القاسم على أجرة القَسّام . وسوّغه أصْبَغ وسُحنون ، ولم يختلف فيه مطرِّف وابن الماجِشون . إن قِيل إيصال الحقائق إلى أرْجابها،حَسَن لجزاء الإحسان إحسان . وقيل إخراج النِّسَب والكسور كِفايه ، [فللكاهنين حُلْوان](١). اللهم غُفْراً ، ونَستقيل الله من انْبِساط يجرُّ غَدْراً ، ونَسْلُ الله حَمْداً يوجب المزيد من نَعْمايه وشكراً . ولولا أن أُغفل(٢) عن الخصْم ، وأُثقل رَحْل الفقيه أبي النجم ، لأَستَغِلَّن المجلس شَرْحا(٣)، ولكان لنا في بَحْر المُباسطة سبْح ، ولأفَضْنا في ذكر الوارث والوُرّاث(٤). وبيَّنّا العِلّة في أقسام الشهود ، مع المُشْتغل بنسبة الذكور مع الأناث . والله يَصِل عزَّ أخي ومجده ، ويَهِب له قوة تخصُّه بالفايدة ، وجدّه(٥) ، ويَزيده بصيرة يتَّبع بها الحقوق إلى أقصاها ، وبَصَراً لايُغادر صغيرة ولا كبيرةً إلا أحصاها ، ودام يُحصِى الخراريب والفَلوس والأطيار ، ويملأ الطَّوامر بأقلامه البديعة الصَّنعة ، [ويصل](٦) الطُّومار بالطُّومار والسلام .

والشيء بالشيء يذكر ، قلتُ ، ومن أظرف ما وقعتُ عليه في هذا المعنى .

---

(١) وردت هذه العبارة في «ج» . ولم ترد في «الزيتونة» . ولم تتضح لنا حكمة إيرادها على هذا النحو .

(٢) وردت في «ج» (انخفل) . وقد آثرنا نص «الزيتونة» .

(٣) هكذا وردت في «الزيتونة» . ووردت في «ج» (شرح) .

(٤) واردة في «ج» وساقطة في «الزيتونة» .

(٥) هذه الكلمة واردة في «ج» وساقطة في «الزيتونة» .

(٦) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم المعنى والسياق.

قال بعض كتاب الدولة الحكمية(١) بمنورقة ، وقد ولاه خُطّة المواريث ، وكتب إليه راغباً فى الإعفاء :

وما نلتُ من شغل المواريث رُقعة [سوى شرح](٢) نَعْش كلما مات ميت
وأكتُب للأموات صَكًّا كأنهم يُخاف عليهم فى الجِراب التفلّت
كأنى لعزرائيل صرتُ مُناقضاً بما هو يمحو كلَّ يوم وأُثبت(٣)

وقال ، فاستظرفها الرئيس أبو عثمان بن حكم(٤) وأعفاه .

مولده : فى أواخر أربعة وسبعين وستماية .

وفاته

قال فى العايد(٥) ، ومضى لسبيله ، شهاباً من شُهُب هذا الأفق ، وبقيّة من بقايا حَلْبة السَّبْق ، رحمه الله ، فى ليلة السبت الثانى من شهر شعبان المكرم عام سبعة وأربعين وسبعماية ، وتخلّف وفْراً لم يشتمل على شيء من الكُتُب ، لإيثاره اقتناء النقْدين ، وعيّن جراية لمن يتلو كتاب الله على قبره [على حدٍّ من التعْزرة والمحافظة على الإتقان](٦) . ودفن بباب إلبيرة(٧) فى دار اتخذها لذلك .

(١) الدولة الحكمية هى دولة سعيد بن حكم الأموى حاكم منورقة . وسيجرى التعريف به أدناه .

(٢) ورد مكان هاتين الكلمتين فى «ج» (غير أن أشرح) . وفى «الزيتونة» (سوى أن أشرح) فلزم التصويب لاستقامة الشعر .

(٣) هذا البيت وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٤) هو أبو عثمان سعيد بن حكم الأموى ، وقد حكم جزيرة «منورقة» ثانية الجزائر الشرقية وقتاً ، بعد سقوط جزيرة ميورقة فى أيدى الأرجونيين . واستمر على حكمها حتى توفى سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) . وخلفه فى حكمها لبضعة أعوام أخرى ، ولده أبو عمر حكم بن سعيد (راجع كتابى عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس (القسم الثانى) ص ٤٠٨ و ٤٠٩) .

(٥) المرجح أنه يشير إلى كتاب «عايد الصلة» الذى سبق التعريف به .

(٦) ما بين الخاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٧) باب إلبيرة هو أحد الأبواب الباقية من أبواب غرناطة الإسلامية . وهو يقع شمال غربى المدينة على مقربة من ساحة الثيران الحديثة . وما يزال يحتفظ بهيكله الإسلامى كاملا . وإلى جانبه قطعة من سور غرناطة القديم .

محمد بن أحمد بن قُطبة الدَّوسى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا القاسم .

حـــاله

مجموع خِلال بارعة ، وأوصاف كاملة ، حسن الخَطّ ، ذاكرٌ للتاريخ والأخبار، مستولٍ على خصال حميدة من(١) [حُسْن رواء](٢) وسلامة صدر ، إلى نزاهة الهِمَّة ، وإرسال السَّجية ، والبُعد عن المُصانعة ، والتحلِّى بالوقار والحِشْمة ، شاعر ، كاتب . ومناقِبُه يقْصُر عنها الكثير من أبناء جنسه ، كالفروسيَّة ، والتجنُّد(٣) ، والبسالة(٤) ، والرِّماية ، والسِّباحة ، والشطرنج ، [متحَمِّد بحَمْل القَنا](٥) ، مع البراعة ، مديم(٦) على المروءة ، مُواس للمحاويج من معارفه . ارتسم فى الديوان فظهر غِناؤه ، وانتقل إلى الكتابة ، معزَّزَة بالخُطط التَّنبيهة العِلْمية ، وحاله الموصوفة متَّصلة إلى هذا العهد ، وهو معدود من حَسَنات قطره .

وثُبت فى « التاج المحلى » بما نصه : « سابقٌ رَكْض المُحَلَّى ، أتى من أدواته بالعجايب ، وأصبح صدراً فى الكُتّاب ، وشَهْماً فى الكتايب . وكان أبوه رحمه الله ، بهذه البلدة ، قُطْبَ أفلاكها ، وواسطَة أسْلاكها ، ومُؤْتمن روسايها وأملاكها ، وصدرَ رجالها ، ووَلِىّ أرباب مجالها ؛ قد نَشَل ابنه(٧)

---

(١) هذه الكلمة واردة فى «الزيتونة» . وساقطة فى «ج» .

(٢) هذه العبارة ساقطة فى «الزيتونة» .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . والمقصود بها الانخراط فى سلك الجندية .

(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ومكانها فى «ج» (الثقافة) ، والأولى أرجح وأكثر اتفاقاً مع السياق .

(٥) هذه العبارة ساقطة فى «الزيتونة» .

(٦) وردت فى «ج» (مدع) والتصويب من «الزيتونة» .

(٧) وردت فى «ج» (بينه) والتصويب من «الزيتونة» .

سهامها ، فخبر عدالةً وبراعةً وفهماً ، وألقاه[1] بينهم قاضياً شهماً ، فظهر منه نجيباً ، ودعاه إلى الجهاد سميعاً مجيباً[2] ، فصَحِب السَّرايا الغَريبة المُغيرة ، وحضر على هذا العهد من الوقايع الصغيرة والكبيرة ، وعلى مُصاحبة البعوث ، وجَوْب السُّهول والوعوث ، فما رفض اليراعة الباترِ ، ولا ترك الدَّفاتر للزمان الفاترِ .

شعـــره

وله أدب بارع المقاصد قاعدٌ للإجادة بالمراصد ، وقال من الرَّوْضيات وما فى معناها :

دعينى ومَطْلول الرِّياض فإننى ... أنادم فى بَطْحايها[3] الآسَ والوَرْدا

أعلل هذا بخُضْرة شارب ... وأحْكى بهذا فى توردِه الخدَّا

وأزهر غَضٌّ البان رايدُ نسمة ... ذكرتُ به لينَ المعاطف والقدّا

وقال :

وليـلٌ أدرناها سُلافاً كأنها ... على كفٍّ ساقيها تُضْرِمُ ناراً

غُنينا[4] عن المصباح فى جُنْح ليلها ... بخَدٍّ مدير لا بكأس عقار

وقال :

يومُنا يوم سرور فلتَقُم ... تَصْدَعِ الهمّ بكاسات المدام

إنما الدُّنيا منام فلتكن ... مغرماً فيها بأحلى المنام

---

(١) وردت فى المخطوطين (وألقاهم) . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) هذه الكلمة واردة فى «الزيتونة» ، وساقطة فى «ج» .

(٣) وردت فى المخطوطين (بطحايه) . والتصويب أنسب للسياق .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (وغنينا) .

وقال :

وبى منك ما لو كان للشرب ماصِحاً وبالهَيْم ماروّت صداها المناهلُ
أحبك ما هبَّت من الروض نَسْمة وما اهتز غصنٌ فى الحديقة مايل
فإن شئت أن تهجر وإن شئت فلتُقْبِل فإنى لمـــا حمَّلتنى اليوم حامل

وقال :

كم قلتُ للبدر المنير إذا بدا هيهات وجهُ فلانة تحكىّ لنا
فأجابنى بلسان حال واعتنى لا الشمس تحكيها فأحكيها أنا
وصرفت وجهى نحو غُصْن أمْلدَ قد رام يُشْبه قدّها لما انثنا
فضحكت هُزءاً عند هزّ قوامها إذا رام أن يُحكى قواماً كالقنا[١]

وكتبت إليه فى غرض يظهر من الأبيات :

جوانحنا نحو اللقاء جوانحُ ومقدار ما بين الدّيار قريب
وتمضى الليالى والتزاوُر مُعوز على الرغم منّا وإنّ ذا لغريب
فديتك عجّلها لعينى زيارة ولو مثل ما رد اللّحاظ مريب
وإنّ لقائى جل عن ضرب موعد لأكرمَ ما يُهدى الأريب أريب

فراجعنى بقوله ، والتجنّى شيمةٌ :

لعمرك ما يومى إذا كنت حاضراً سوى [يوم صبّ][٢] من عداه يغيب
أزور فلا ألقى لديك بشاشةً فيبعد منى[٣] الخطْوُ وهو قريب
فلا ذنب للأيام فى البعد بيننا فإنى لداعى القُرب منك مجيب
وإنّ لقاءً جاء من غير موعد ليحسنَ لا كن مرَّة ويَطيب

(١) وردت فى المخطوطين (كالعنا) . وبالتصويب يستقيم المعنى .
(٢) وردت مكانها فى المخطوطين (منه) .
(٣) وردت مكانها فى «ج» (منه) .

وإحسانه كثير ، وفيما ثبت كفاية ليلا نخرج [عن غرض الاختصار][1].

محمد بن محمد بن أحمد بن قُطبة الدَّوسى

يكنى محمد أبا بكر ، أخو الذى قبله .

حـــــاله

تِلْوُه فى الفضل والسَّراوة ، وحُسن الصورة [ونصاعة الطَّرف][2] مُرْبٍ عليه بمزيد من البشاشة والتنزُّل ، وبَذْل التودُّد ، والتبريز فى ميدان الانقطاع ؛ متأخر عنه فى بعض خلال غير هذا . ذَكِىُّ الذهن ، مليح الكتابة ، سهلها ، جيِّد العبارة [متأتِّى اليراع][3] ، مطلق اليد ، حسن الخطِّ ، سريع بديهة المنثور ، معمٌّ ، مخول فى التخصُّص والعدالة . كتب الشُّروط بين يدى أبيه ، ونسخ كثيرا من أمَّهات الفقه ، واستظهر كتباً ، من ذلك « المقامات الحريرية » . وكتب بالدار السلطانية ، واختص بالمراجعة عمَّن بها ، وللمفاتحة أيام حركات السلطان عنها إلى غيرها . حميد السيرة ، حسن الوساطة ، نَجْدِىُّ الجاه ، مشكور التصرُّف ، خفيف الوطأة . ووُلِّى الخطابة العليّة ، مع الاستمساك بالكتابة . ولم يُؤْثَر عنه الشعر ، ولا عوَّل عليه .

محمد بن محمد بن محمد بن قطبة الدَّوسى

يكنى أبا بكر ، وقد ذكرنا أباه وعمه ، ويأتى ذكر جَدِّه

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . ومكانها فى «الزيتونة» (عن الغرض) .

(٢) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٣) واردة فى «ج» وساقطة فى «الزيتونة» .

حاله

نبيل المقاصد فى الفن الأدبى ، مشغول به ، مفتوح من الله عليه فيه [شاعر مَطْبوع مُكثر][1] انقاد له مَرْكِب النظم ، فى سن المراهقة ، واشتهر بالإجادة ، وأنشد السلطان ، وأخذ الصِّلة ، وارتسم لهذا العهد فى الكتابة . وشرع فى تأليف يشتمل على أدباء عصره .

شعره

ومما خاطب به أحد[2] أصحابه :

إذا شمتُ من نحو الحِمى فى الدُّجا بَرْقا ... أبى الدَّمعُ إلا أن يسيل ولا يرقى
ومهما تذكرتُ الزمان الذى مضى ... تقطَّعت الأحْشاء من حرِّ ما ألقى
خليلَىَّ لا تجزع لَمحْل فأدمعى ... تبادر سَقْياً فى الهوى لمن استَسْقى
وما ضرَّهُ من أصبحتُ ملك يمينه ... إذا رقَّ[3] لى يوما وقد حازنى رِقّا
فنيتُ به عشقا وإن قال حاسدٌ ... أضلُّ الورى من مات فى هاجر شقّا
تلهَّب قلبى من تلهُّب خدّه ... فيا نِعم[4] ذاك الخدُّ قاض بأن أشقى

ومنها

وكم من صديق كنت أحْسَبُ أنه ... إذا كذبَت أوهامُنا رفع الصِّدقا

[محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدَّوسى

ابن عم المذكورين قبله ، يكنى أبا القاسم .

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (شاعراً مطبوعاً مكثراً) .
(٢) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (بعض) .
(٣) وردت فى المخطوطين (راق) . والتصويب أنسب للمعنى والسياق .
(٤) وردت فى «ج» (فنعم) . والتصويب من «الزيتونة» .

حـاله

حسن الصورة ، لازَم القراءة على شيوخ بلده ، ونظم الشعر على الحَداثة ، وترشح للـكَتْبِ بالدار السلطانية مع الجماعة ، ممن هو فى نظامه .

ومن شعره . كتب إلىّ بما نصه :

أحْسَب وحده يوم رأسك ربما تُعطى السَّلامة فى الصراع سُلَّما][1]

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدَّوسى

أخو الفقيه أبى بكر بن القاسم بن محمد المذكور

حـاله

شاب حسن فاضل ، دَمِث ، متخلِّق ، جميل الصورة ، حسن الشكل ، أحمر الوجنَتين[2] . حفِظ كتُبا من المبادى النحوية ، وكتب خطًّا حسنا ، وارتسم فى ديوان الُجنْد مثل والده ، وهو الآن بحاله الموصوفة .

شعره

قيد أخوه لى من الشعر الذى زعم أنه من نظامه ، قوله :

حلفت بمن[3] ذاد عنى الـكَرَى وأسهر جَفْنى ليـلاً طويلا
وألْبَس جسمى ثياب النُّحول وعذَّب بالهجر قَلْبى العليلا
ما[4] حُلْت عن وُدِّه ساعة ولا اعتضُت منه سواه بديلا

---

(١) هذه الترجمة الموجزة واردة فى «ج» ، وساقطة فى «الزيتونة» .
(٢) وردت فى «ج» (الوجنة) والتصويب من «الزيتونة» .
(٣) وردت فى «ج» (لمن) والتصويب من «الزيتونة» .
(٤) وردت فى المخطوطين (لما) . وحكمة التصويب واضحة .

محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحي بن عبد الرحمن بن يوسف بن جُزَىّ الـكَلْبي

من أهل غرناطة وأعيانها ، يكنى أبا عبد الله .

أوّليّتـه

تُنظر(١) فى اسم أبيه فى ترجمة المُقْريين والعلماء .

حـاله

من أعلام الشهرة على الفَتاوة(٢) . وانتشار الذكر على الحَداثة ، تبريزاً فى الأدب ، واضطلاعا بمعاناة الشعر ، وإتقان الخطّ ، وإيضاحا للأحاجى والمُلْغزات . نشأ بغرناطة فى كنَف والده رحمه الله . مقصُور التّدريب عليه ، مشاراً إليه فى ثُقُوب الذهن ، وسَعَة الحفظ ، ينطوى على نُبل لا يظهر أثرُه [على التفاتة ، وإدراك ، تَغَطّى شَمْلتَه مخيِّلة غير صادقة ، من تغافله . ثم جاش طبعُه ، وفَهق حوضُه ، وتفجّرت ينابيعه ، وتوقد إحسانه](٣) .

ولما فقد والده ، رحمه الله ، ارتسم فى الكتابة ، فبذّ جلة الشعراء ، إكثارا واقتدارا ، ووفور مادة ، مجيدا فى الأمْداح ، عجيباً فى الأوْضاع ، صدِّيقا(٤) فى النّسيب ، مطبوعا فى المقطوعات ، معتدلا فى الكتابة ، نشيط البنان ، جَلدًا على العمل ، سيَّال المجاز(٥) ، جَمُوح عنان الدُّعابة ، غَزْلا ، مُؤْثرا للفكاهة ،

(١) وردت فى المخطوطين (تنظم) ، فلزم التصويب .
(٢) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (الفتاوى) وهو تحريف ، والمقصود بها هنا (الفتوة) .
(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .
(٤) هكذا وردت فى المخطوطين .
(٥) هكذا فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (المزاح) . والأولى أرجح .

انتقل إلى المغرب لشُفُوف خَصْله ، على ما قد قسَّم(١) الحظوظ . سبحانه من رَزَقه بهذه البلاد ؛ فاستقرَّ بباب ملِكه ، مرْعِى الجناح ، أثير الرتبة ، مطلق الجِراية ، مقرَّر(٢) السِّهام ، مُغْتبا وطنه [راضيا عن جيرته ، دَيْدَنُ من يستند إلى قديم ، ويتحيَّزُ إلى أصالة](٣) .

تواليفـه

أخبرنى عند لقايه أياى بمدينة فاس فى غرض الرسالة ، عام خمس وخمسين وسبعماية ، أنه شرع فى تأليف تاريخ غرناطة ، ذاهبا هذا المذهب ، الذى انتُدبت إليه ، ووقفت على أجزاء منه تشهد باضطِّلاعه ، وقيَّد بخطِّه من الأجزاء الحديثة(٤) والفوايد والأشعار ما يفوت الوَصْف ، ويفوق الحد . وجرى ذكره فى « التاج » بما نصه :

« شمسٌ فى البلاغة بازغة(٥) ، وحجَّة على بقاء الفِطرة الغريزية(٦) فى هذه البلاد المغربية بالغة ، وفريدةُ وقت أصاب من فيها نادرة أو نابغة ، من جِذْع ابن على القادح ، وجرَى من المعرفة كل بارح ، لو تعلَّقت الغوامض بالثُرَيَّا لنالها ، وقال أنا لها . وربما غَلَبت(٧) الغَفْلة على ظاهره ، وتنطَفِق أكمامُها على أزاهره ، حتى إذا قدح فى الأدب زَنْده ، تقدَّم المواكب بَنْدَه ، إلى خطٍّ(٨)

---

(١) وردت فى المخطوطين (قاسم) والتصويب أنسب للسياق .

(٢) وردت فى المخطوطين هكذا (مقدر مقرر) . وقد آثرنا الكلمة الثانية .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٤) هكذا فى المخطوطين . والمقصود بها فيما يبدو ، الحديثة وقت كتابة هذا التاريخ .

(٥) وردت فى المخطوطين (بارعة) . والتصويب أنسب للمعنى والسياق .

(٦) وردت فى المخطوطين (الغربية) . والتصويب أنسب لصفة الفطرة .

(٧) وردت فى «ج» (وبلغت) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٨) وردت فى المخطوطين (حظ) . والتصويب أرجح .

بارع[١] ، يعنو[٢] طوال الطويل منه [إلى سرٍّ وبراعة ، كما ترضى المِسْك والكافور عن طِرْس وحبر][٣] .

شعره

فمن غرامياته وما فى معناها [قوله][٤]

متى يتلاقى شايق ومشُــوق ويُصبح عيرُ الحُبِّ وهو طليق
أما أنها أُمنية عزّ نيلُها ومَرْمى لعمرى فى الرّجا سحيق
ولكنى خدعتُ قلبى تعلّة أخافُ انصداع القلب فهو رقيق
وقد يُرزق الإنسان من بعد يأسه وروضُ الرُّبى بعد الذبول يروق
تباعدتُ لما زادنى القربُ لوعةً لعل فؤادى من جَواه يَفيق
ورمتُ شفاء الداء بالداء مِثله وإنى بألاّ أشتَفى لحَقيق
وتالله ما للصَّب فى الحب راحةٌ على كل حال إنه لمَشُوق
ويارِبٌّ قد ضاقت علىّ مَسالكى فها أنا فى بَحْر الغرام غريق
ولا سلوةٌ ترجى ولا صبرٌ ممكن وليس إلى وصْل الحبيب طريق
ولا الحبُّ عن تعذيب قلبى يَنْثَنى ولا القلبُ للتّعذيب[٥] منه يُطيق
شجونٌ يضيق الصّدر عن زَفَراتها وشوقٌ نِطاق الصبر عنه يضيق
نثرتُ عقود الدّمع ثم نظمتُها [قريضاً فذا دُرٌّ وذاك عَقيق][٦]

(١) وردت فى «ج» (براعة) . والتصويب من الزيتونة .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (يرنو) .
(٣) ما بين الحاصرتين ساقط فى «الزيتونة» .
(٤) هذه الزيادة من «الزيتونة» .
(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (بالتعذيب) والأولى أكثر تمشياً مع المعنى .
(٦) هكذا وردت هذه الشطرة فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» كالآتى : (قريضا فصار لون ذاك عقيق) .

بكيتُ أسىً[١] حتى بكى حاسِد[ى معى][٢] كأنّ عَذُولى عاد وهو صديق
ولو أن عند الناس بعض محبّتى لما[٣] كان يُلقى فى الأنام مُفيق
أياعينُ كفى الدمع ما بقى الـكرَى إذا منعوك النّوم سوف تذوق
ويانايماً عن ناظرى أما ترى لشمسِك من[٤] بعد الغُروب شروق
رويدُك رِفقاً بالفؤاد فإنه عليك وإن عاديتَه لشفيق
نقضتَ عهودى ظالما بعد عَقْدها إلا إن عَهْدى كيف كنتُ وثيق
كتمتُك حُبى يعلم الله مدّة وبين ضلوعى من هواك حريق
فمازلتَ بى حتى فُضحت فإن أكن صبرتُ بعد اليوم لستُ أطيق

وقال :

ومُوَرَّد الوَجَنات معسول اللّمى فتّاكُ بلحْظ العين فى عشّاقه
الخمر بين لِثاته والزَّهر فى وجناته والسِّحر فى أحداقه
ينادى غصنُ البان فى أثوابه ويلوحُ بدرُ التّم فى أطواقه
من لِلهلاك بثغْره أو خَدِّه هَبْ أنه يُحكيه فى إشراقه
ولقد تشَبَّهت الظِّبا بشُبْهةٍ من خلقه وعَجَزْن عن أخلاقه
نادمته وسِناً محيَّا الشمس قد ألقى على الآفاق فَضْل رِواقه
فى روضة ضحكت ثغورُ أقاحِها وأمال فيها المُزْن من آماقه
أسقيه كأس سُلافة كالمِسْك فى نَفَحاته والشهْد عند مذاقه
صفراء لم يُدرِ الفتى أكْواسها إلاّ تداعى همُّه لفراقه

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى «الزيتونة» .
(٢) ما بين الحاصرتين ساقط فى «ج» ووراد فى «الزيتونة» .
(٣) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (ما) .
(٤) هذه الكلمة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

ولقد تَلين الصَّخر[1] من سَطَواته | فيعود للمعهود من إشفاقه
وأظلُّ أرشف من سُلافة[2] ثغره | خمراً تُداوى القلب من إحراقه
ولربما عَطَفَته عـــندى نشوةٌ | فشَفَى الخيالُ بضمةٍ وعناقه
أرجو نِداه إذا تبسّم ضاحكا | وأخاف منه العَتْب فى إطراقه
أشكو القساوة من هواى وقلبه | والضَّعْف من جَلَدى ومن ميثاقه
ياهل لعَهْدٍ قد مضى من عودة | أم لا سبيل بحـــالةٍ لِلحاقه
ياليت شعرى لوكانت لذلك حيلةٌ | أو كان يُعطى المرء باستحقاقه
فلقد يروق الغُصن بعد ذُبوله | ويَتِم بدرُ التِّم بعد مُحاقه

ومما اشتهر عنه فى هذا الغرض :

ذهَبت حشاشةُ قلبى الصَّدوع | بين السّلام ووقفة التوديع
ما أنصف الأحبابُ يوم وداعهم | صَبّاً يحـــدِّث نفسه برجوع
أنجِد بغَيْثك ياغمام فإننى | لم أرْضَ يوم البَيْن قلّ[3] دموع
من كان يبكى الظّاعنين بأدمع | فأنا الذى أبكيهم بنجيع
إيه وبين الصَّدر منى والحشا | شَجَنٌ طُوِيَت على شَجاه ضلوع
هات الحديثَ عن الذين تحمَّلوا | واقدح بزَنْد الذِّكر نار وُلوع
عندى شجون فى التى جَنَت النوى | أشكو الغَداة وهنّ فى توديع
من وَصْلى الموقوف أو من سُهدى الموصول[4] أو من نَومى المقطوع
ليت الذى بينى وبين صَبابتى | بعد الذى بينى وبين هُجوع

(١) وردت فى المخطوطين (الخمر) . وبالتصويب يستقيم المعنى .
(٢) وردت فى المخطوطين (أقاح) . وبهذا التعديل يستقيم المعنى والسياق .
(٣) وردت فى المخطوطين (فعل) . وبالتصويب يستقيم المعنى .
(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» الموصوف . والأولى أنسب للمعنى والسياق .

يا قلب لا تجزع لما فعل النّوى فالحرُّ ليس لحادث بجزُوع
أبعد ما غُودِرت فى أشراكه تَبْغى النُّزوع ولات حين نُزُوع
ومهفهفٌ مهما هبت ريح الصَّبا أبْدت له عطفاه عطف مُطيع
جمع المحاسن وهو منفرد بها فاعْجَب لحسنٍ مفُردٍ مجموع
والشمس لولا إذنه ما آذَنَتْ خجلا وإجـلالاً له مطْلوع
ما زلتُ أسقى خدَّه من أدمعى حتى تفتَّح عن رياض ربيع
إن كان يرنُو عن(١) نواظر شَادِنٍ فلربَّ ضِرغام بهنّ صريع
عجبا لذاك الشعر زاد بفُرْقه حُسْنا كحسن الشِّعر بالتّصريع
منع الكرَى ظلما وقد منع الضَّنا فشقَيت بالممنوح والممنوع
جرّدت ثوب العزِّ عنى طائعاً [أتراه يَعْطِفه علىّ خضوع](٢)
لم أنتفع لِبْسا من الملبوس فى حُبِّى ولا بِعذارى المخـلوع
بجماله استَشْفَعت فى إجماله ليحوز أجْرَ مُنَعَّم(٣) وشفيع
يا خادعى عن سَلْوتى وتصبُّرى لولا الهوى ما كنتُ بالمخدوع
أوْسَعتنى بعـد الوصال تفرُّقا وأثْبَتَّنى سوءاً لحُسْن صنيع
أسرعتَ فيما ترتقى(٤) فجزيتَني بطويل هُجران إلىّ سريع
أشْرَعت رُمحا من قوامك دايلا فمنعتَ من ماء الرُّضاب شروعى
خُذ من حديثِ تولعى وتولُّهى خبراً صحيحاً ليس بالمصنوع
يَرْويه(٥) خدِّى مُسْنِدا عن أدمعى عن مقْلتى عن قلبى المصدوع

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (على) .
(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطين . وفى نص آخر : (أتراه يولى عطفه لخضوعى)
(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى نص (مشفع) .
(٤) وردت فى «ج» (يرتقى) . والتصويب أنسب للسياق .
(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (برو) وهو تحريف .

كم من ليالٍ فى هواك قطعتُها ... وأنا لذكراهنّ فى تقطيع
لا والذى طبَعَ الكرِام على الهوى ... وبرَ(١) سوا أنّ الهوى المطبوع
ما غيَّرتْنى الحادثات ولم أكن ... بمذيع سرٍّ للعهــــود مُضِيع
لا خَيْر فى الدنيا وساكِنِها معا ... إن كان قلبى منك غير جميع

وقال فى غير ذلك [فى غرض](٢) يظهر من الأبيات :

وقالوا عداك البختُ والحزم عندما ... غدوتَ غريبَ الدّار ومنزلُك الفنتُ
ألم يعلموا أن اغترابى حزامة ... وأن ارتحالى عن دارِهم هو البَخْت
نعم لستُ أرضى عن زمانى أو أرى ... تَهادى السفنِ المواخرِ والبُخْتِ
لقد سئِمتْ نفسى المقام ببلدة بها العيشةُ النَّكراء(٣) والمكسب السُّحت
يُذل بها الحرُّ الشريف لعبْده ... ويجفوه بين السَّمت(٤) من سنةٍ ستٌ
إذا اصطافها المرءاشتكى من سَمُومها ... أذى ويرى فيه أذًّا يَبْتُ
ولستُ كقوم فى تعصبهم عنوًا ... يقولون بغدادُ لغرناطة أختُ
رغبتُ بنفسى أن أساكن مَعْشراً ... مقالُهم زورٌ وودُّهم مَقْت
يدسّون فى لين الكلام دَواهياً ... هى السم بالآل المشود لها لتُ
فلا دَرَّ دُرُّ القوم إلاّ عصيبة ... إلىّ بإخلاص المودة قد متّوا
وآثرتُ أقواماً حمدتُ جوارهم ... مقالُهم صدقٌ وودُّهم بحْت
لهم عن عِيان الفاحشات إذا بدت ... تَعامٍ وعن ما ليس يعينهم صَمْتُ
فما ألِفوا لهوا ولا عرَفوا خَنىً ... ولا علموا أن الكرُوم لها بِنْت
به كل مُرتاحٍ إلى الضّيف والوَغى ... إذا ما أتاه منهما النبأ البَغْتُ

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (ومن) .
(٢) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .
(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (النكداء) .
(٤) وردت فى «ج» (الستين) . والتصويب من «الزيتونة» .

وأشعثُ ذى طِمْرين أغناه زُهده فلم ينشوِّف للذى ضمَّه التَّخت
صبورٌ على الإيذاء بغيضٌ على العدا معينٌ على ما يتَّقى جاشه الشَّت
ولى صاحبٌ مثلى يمانٍ جعلته جليسى نهاراً أو ضجيعى إذا بتُّ
وأجْرَدُ جرار الأعنة قارح كُمَيْتٌ وخيرُ الخَيْل قداحُها الكُمْت
تسامَتْ به الأعراق(١) فى آل أعوج ولا عِوَج فى الخلق منه ولا أمْتُ
وحسْبى لعضات النوائب مُنْجدا عليها الكُمَيت المنهد والصَّارم الصَّلت
قطعتُ زمانى خبرةً وبلوتُه فبالغَدر والتَّخفيف عندى له نَعْت
ومارستُ أبناء الزمان مُباحثا فأصبح حَبْلى منهم وهو مُنْبَتُّ
وذى صَلَفٍ يمشى الهُوينا ترفقًا على نفسه كيلا يزايلها السَّمت
إذا غبتُ فهو المَرْوة القوم عندهم له الصَّدر من ناديهم وله الدَّسْت
وإن ضمَّنى يوما وإياه مَشْهد هو المُعْجم السُّكيت والعمّة الشَّخْتُ
فحسبى عُداتى أن طويتُ مآربى على عزمهم حتى صفَا لهم الوقت
وقلتُ لدنياهم إذا شئت فاغربى وكنت متى أعزم فقلبى هو البَتُّ
وأغْضيتُ عن زلاَّتهم غير عاجز فماذا الذى يبغُونه لهم الكَبْتُ

وقال :

لا تُعد ضَيْفك إن ذهبت لصاحب تعتده لكن تخيَّر وانْتَق(٢)
أو ما ترى الأشجار مهما رُكِّبت إن خُولِفت أصنافها لم تفاق

ومنه فى المقطوعات :

وشادن تَيَّمنى حبُّه حَظِّى منه الدهر هجرانُه
مورَّد الخدين حُلو اللَّمى أحمر مُضْنى الطرف وسْنانه

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (الأعذار) .
(٢) وردت فى «ج» (وأنفق) ، والتصويب أرجح .

لم تنطوِ الأغصان فى الروض بل ضلّت له تسجد أغصانه
يا أيها الظَّبي الذى قلبُه تُضرَم فى القلب[١] نيرانُه
هل عَطْفةٌ ترجى لصبٍّ شبح ليس يرجى عنك سُلوانه
يود أن لو زُرْته فى الكَرَى لو متِّعَت بالنوم أجفانُهُ
قد رام أن يكتُبَ ما نابَه والحبُّ لا يمكن كتْمانه
فأفضيتُ أسراره واستوى إسراره الآن وإعلانُه

وقال :

نهار وَجهْ وليلُ شِعر بينهما الشَّوق يُسْتثار
قد طلَبا بالهوى فؤادى فأين لى عنهما الفرار
وكيف يُبْغى النجاة شيء يطلُبه الليل والنهار

وقال فى الدُّوبيت :

زارَتْ ليلا وأطْلَعت فجرها صبْحاً جمَعَت بين صبح وظلام
لما بَصُرت بالشمس قالت يافتى [جَمْعُ الإنسان بين][٢] الأختين حَرام

وقال فى غرض التَّورية :

أبِح لى [فى][٣] رياض المحاسن نظرةً إلى ورد ذاك الخدِّ أُروى به الصَّدى
وبالله لا تَبْخَل علىّ بعَطْفَةٍ فإنى رأيت الرَّوض يوصف بالنَّدا

وقال :

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (قلبى) .
(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (الجمع بين الأختين) .
(٣) الزيادة من «الزيتونة» .

وعاشقٌ صلى ومحـــرابُه وجْهُ غزال ظلّ يهـــواه
قالوا تعبّــد فقلت[1] نعم تعبُّداً يفهـــــم معناه

وقال وهو مليح جداً :

وصديق شــكى بمــا حمَّـــلوه من قضاء[2] يقْضى بطول العَناء
قلتُ فارْدُدْ ماحمَّـــلوك عليهم قال من يستطع رَدَّ القضـــاء
لسانان هَجَيا[3] مــن خاصماه لسان الفتى ولسان القضـــاء
[إذا لم تحُزْ واحـــداً منهما فلست أرى لك أن تنطقا][4]

وقال :

تلك الذُّوابه ذُبْت من شوق لها واللّحظ يحميها بأىِّ ســلاح
يا قلبُ فانجح لا إخالك ناجياً[5] من فِتْنة الجَعْـــدى والسفّاح

[وإحسانه كثير . ويدل بعضُ الشىء على كلّه . ويجْجُر طلُّ الغيث على وبْله][6] .

وفاتـــه

اتصل بنا خبر وفاته بفاس مَبْطوناً فى أوايل ثمانية وخمسين وسبعماية . ثم تحقّقْتُ [أن ذلك][7] [فى آخر شوال من العام قبله][8]

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (قلنا) .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (قضى) .
(٣) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (يهجيا) .
(٤) هذا البيت وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .
(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (ناجحا) . والأولى أرجح لاستقامة المعنى .
(٦) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .
(٧) أضفنا هاتين الكلمتين ليستقيم السياق .
(٨) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . وورد مكانها فى «الزيتونة» العبارة الآتية (ثم تحققت أن ذلك فى أوائل ربيع الأول من ذلك العام) . والكلام عليه علامة الشطب ابتداء من كلمة (فى أوائل) .

محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم ابن يحي بن محمد بن الحكيم اللخمى

يكنى أبا القاسم .

حـــاله

من كتاب « عائد الصلة » : فرعُ دوحة الأصالة والخصوصيّة ، والعلم والدين، وللسكانة والجلالة ، [مُجْلى بيته](١) ، ومجدِّد مآثره[برًّا ، ومجاملة،وخيريّةً](١) . نشأ بأطراف جُمْلته من الفنون ، من حساب وفريضة وأدب وقراءة ووثيقة ، إلى خطٍّ حسن ، وأدب تكفّله(٢) ، حتى انقاد له أوكاد . أُعْبِط(٣) فى وقيعة الطاعون قاضياً ببعض الجهات، وكاتباً للدار السلطانية ، فكانت فيه الفجيعة عظيمة .

وجرى ذكره فى « التاج المحلّى » بما نصه : « من فروع مجدٍ وجلالة، ورث الفضل لاعن كلالة . أشرف(٤) ، مجيدٌ، معظّمٌ ، مُخوَّل فى العشيرة(٥) ، وصل لُباب المجد بفرايد الخلال الأثيرة ، وأصبح طِرْفاً(٦) فى الخير والعفاف ، واتّصف من العدالة بأحسن اتّصاف ، وسلك من سُنَن سَلَفه ، أثَرَ هذا ، لا يزال يُرشده ويدلُّه ، ويسدِّدُه فيما يعقده أو يحُله ، واتّسم بميسم الحيا ، والحيا خيرٌ كله ، إلى نزاهة لاترضى بالدُّون ، ونجابة تتهالك فى صون(٧) الفنون . وطمح فى هذا العهد

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (تكلفه) .
(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت محرفة فى «ج» (اغتبط) . وأعبط أى هلك .
(٤) وردت فى «ج» (يشرب) . والتصويب من «الزيتونة» .
(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (العشرة) .
(٦) هكذا وردت فى المخطوطين . والطرف ، أى القوى .
(٧) وردت فى المخطوطين (هون) . وبالتصويب يستقيم المعنى .

إلى نَمَط فى البلاغة رفيع ، وجَنَح إلى مساجلة [ما يستحسنه][1] من مُخْترع وبديع، وصدرت منه طُرَف تُسْتَملح ، وتُسْتَحلى إذا استحلى . ونحن نورد ما أمكن من آياته، ونجلى بعض غُرَرِه وشيَّاته .

شـــعره

ومن مقطوعات آياته :

وهبّت فهزّت عنده ما رأتْ به | الطّلا مثل الطفل يرضع فى المهد
والرّوض حياه المُزْن خامة برقة | وباتت رُباه من حِباه على وعد
يحدثنا عن كَرْمها[2] ما من مُزْنها[2] | فتُبْدى ابتسام الزّهر فى لَثمة الخدّ
عَجِبنا لما رأينــــا من برّها | بدور حُباب الكأس تلعب بالنرد

وقال :

شَرِبنا وزَنْجى الدّياجى مُوقدٌ | مصابيحَ من زهر النجوم الطّوالع
عقاراً رأته حين أقبل حالكاً | فجاءت بمُصْفَرٍّ من اللون فاقِع
عجبتُ[3] لها ترتاع منه وإنها | لفى الفَرْقد قرّت لِدَم المدامع[4]

وقال :

لاح فى الدُّرِّ العقيق مُحَيّـــا | أم مزاجٌ[5] أدّاه صرف المُحَيّا

---

(١) وردت فى «الزيتونة» (من يستحسنه) . ووردت فى «ج» (من يقتبسه) والأولى أنسب للمعنى والسياق .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . ووردتا فى «الزيتونة» (كرمه . قربه) .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (عجبا) .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (المراضع) ، والأولى أرجح .

(٥) وردت فى «ج» (زجاج) . والتصويب من «الزيتونة» .

من بنات الكروم والرّوم بكرا أقبلت ترتدى حياً يُهيَّا
خلتُها والحباب يطفو عليها شفقاً فوقه نجومُ الثّريا
قهوةٌ كالعروس فى الكأس تجلّى صاغ من لؤلئها المزج حَلْيا

وقال :

ويوم أُنْس صَقيل الجوِّ ذى نظر كأنه من وَميض البرق[1] قد خُلقا
مازلتُ فيه لشمس الطّست[2] مُصْطحباً وبالنجوم وبالأكواس مُغْتَبِقا
صفراء كالعَسْجد المسبُوك إن شَرِبت تبدى احمراراً على الخدّين مؤتلقا
[كذلك الشمس فى أخرى عَشِيَّتها إذا توارت أثارت بعدها شَفَقا][3]

وقال :

بنَفْسى حبيبٌ صال[4] عامل قدّه علىّ ولمّا يَنْعطف وهو كالغُصن
ويا عَجَباً منه متى صار ذابلا ونُضْرته تُنار عن حَوْطة اللّدُن
وأعجبُ مِن ذا أن سَيْف لِحاظه يمزّق أفلاذ الحشَى وهو فى الجفْن

وقال :

بأبى وغير أبى غزال نافر بين الجوانح يَغْتَدى ويرُوح
قمرٌ تلألأ واستنار حبيبُه غارَت[5] به بين الكواكب بُوح
لم يرض غير القلب منزلةً فهل يا ليت شِعْرى بالذّراع يلوح

ومما نسب لنفسه وأنشدنيه :

---

(١) هكذا فى «الزيتونة». ووردت فى «ج» (الروض) والأولى أنسب للمعنى.
(٢) وردت فى «ج» (الطسب). والتصويب من «الزيتونة».
(٣) هذا البيت وارد فى «الزيتونة» وساقط فى «ج».
(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة». وفى «ج» (حال) والأولى أنسب للمعنى.
(٥) هكذا فى «الزيتونة». وفى «ج» (عادت).

ليلُ الشباب انجاب أول وهلة ... عن صُبح شَيْبٍ لست عنه براض

إن سرّنى يوماً سوادُ خِضـــابه ... فنُصُوله عن ساق ببيـاض

هلاّ اختفى فهو الذى سرق الصِّبا ... والقَطْع فى السُّرقات [أمرماض][(1)]

فعليه ما استطاع الظهور بلَمَّتى ... وعلىّ أن ألقـــاه بالمِقْراض

وفاتـــــه

توفى رحمه الله بغرناطة فى السابع عشر شهر ربيع الآخر عام خمسين وسبعمائة ، فى وقيعة الطاعون ، ودفن بباب إلبيرة [رحمة الله عليه][(2)] .

محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد [بن على][(3)] ابن محمد اللَّوشى اليحصُبى

يكنى أبا عبد الله ويعرف باللوشى

أوّليته

من لوْشَة . وقرأ العلم بها ، وتعرف بالسلطان الغالب بالله محمد قبل تَصَيُّر الملك [له][(4)] وتقدم عنده . تضمن ذكرَه الكتاب المسمى « بطُرْفة العصر

(١) وردت فى المخطوطين (أرماض) . وهو تحريف . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى «الزيتونة» .

(٣) هذه الزيادة فى النسبة واردة فى «الزيتونة» .

(٤) الزيادة من «الزيتونة» .

فى أخبار بنى نصر »[١] ، وتقرر ذلك فى حرف الحاء فى اسم أبى عمر اللوشى ، كاتب الدولة النَّصرية رحمه الله .

حـاله

من كتاب « عايد الصلة » . كان رحمه الله من أهل الحسب والأصالة ، شاعراً ، مدّاحا . نشأ مُدللاً فى حُجور الدولة النصرية ، خفيفاً على أبوابها ، مُفَضَّلا على مُدّاحها . ثم تجنّى بآخرة ، ولزم طوْرًا من الخمول فى غير تَشَكٍّ ، أعرض به عن أرباب الدُّنيا ، وأُعْرِض عنه ، واقتصر على تبلُّغ من عُلالة مُؤمَّل كان له خارج [غرناطة][٢] غيرُ مُساد من ثَلْمه ، ولا مُصْلح فى خَلَله ، أخذ نفسه بالتَّقشُّف ، وسوء المسكن ، والتهاون بالملْبَس ، حملا عليها فى غير أبواب الرياضة ، مجانباً أرباب الخُطَط ، وفياً لمن لحقته من السلطان مَوْجِدة ، تختلف معاملته لمن يعرفه فى اليوم مرّات ، من إعراض عنه ، وقَبُول عليه ، ولصوق به ، كل ذلك عن سلامة ، وتهيُّب نفس . مليح الدُّعابة ، ذا كرا لفنون من الأناشيد ، حسن الجِدّ ، متجافياً عن الأعراض .

وجرى ذكره فى « التاج » بما نصه : « شاعر مُفْلق ، وشهابٌ فى أفق البلاغة متألِّق ، طبَّق مفاصل الكلام بحُسام لسانه ، وقلَّد نُحُور الكلام ، ما يُزْرى بجواهر الملوك من إحسانه . ونشأ فى حُجور الدولة النصرية مُدَلَّلاً بمتاته ، متقلبا من العزِّ فى أفانينه وأشتاته ، إذ لسلَفه الذِّمام الذى صفَت[٣] منه الحياض

---

(١) هو مؤلف وضعه ابن الخطيب فى تاريخ الدولة النصرية منذ قيامها حتى عصره ، وهو غير كتاب «اللمحة البدرية» الذى يتناول نفس الموضوع . ولم يصل إلينا هذا الكتاب ضمن مؤلفات ابن الخطيب التاريخية (راجع كتابنا لسان الدين بن الخطيب ص ٢٥٠ ، والمجلد الأول من الإحاطة (الطبعة الثانية — ص ٥٨) .

(٢) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٣) وردت فى «ج» (بعث) . والتصويب من «الزيتونة» .

والحمام، والوِداد الذى قصُرت عنه الأَنْداد ، والسابقة التى أَزْرَى بخبرها العِيان، وشهدت بها أَرْجُونة[١] وجيّان ، محرِّز ثمرة الطيب ، وله همّة [عالية][٢] ، بعيدة المرمى ، كريمة المنتمى ، حَمَلته بآخرة على الانقباض والازدراء ، والزهد فى الازدياد والاستكثار، والاقتصاد والاقتصار، فعَكَف على انتجاع غلَّته، والتزام محلَّته ، ومُباشرة فلاحة صان بها وجْهَه ، ووفّاه الدهر حقَّه ونجمه ، واحتجبت عقايلُ بيانه لهذا العهد وتقنّعت، وراودتها النفس فتمنّعت ، وله فكاهة، وأُنْس الزمان ، مناجاة القِينات ، عند البَيات ، وأعذبُ من معاطاة[٣] الرَّاح فى الأقداح ».

شــعره

قال ، [وله أدبٌ بلغ فى الإجادة الغاية][٤] ، ورفع للجبين من السُّنن الرّاية . ومن مقطوعاته يودع[٥] شيخنا الفقيه القاضى أبا البركات بن الحجاج :

رأونى وقد أغرقت فى عَبَراتى ... وأحرقتُ فى نارى لدى زَفَراتى
فقالوا سلُوه تعلموا كُنه حاله ... فقلتُ سَلُوا عنى أبا البركات
فمن قال إنى بالرَّحيل مُحْدث ... روت عنه أجفانى غريبَ ثبات
ونادى فؤادى رَكْبه فأجابه ... ترحَّل وكُن فى القوم بعض عُدات

ومن مقطوعاته البديعة من قصيدة مجازيّة :

سيخطب قُسُّ العزم فى مِنْبر السُّرى ... وهل فى الدُّنا[٦] يوم المسير أطيق

(١) هى موطن بنى نصر ملوك غرناطة، وقد سبق التعريف بها . (٢) الزيادة من «الزيتونة» .
(٣) وردت فى «ج» (معاطب) . والتصويب من «الزيتونة» .
(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» كالآتى : (وله أدب بليغ فى الإجادة بلغ الغاية) .
(٥) وردت فى المخطوطين (يردد) والتصويب أنسب للمعنى والسياق .
(٦) وردت فى المخطوطين (الدنيا) . وبالتصويب يستقيم الوزن .

وأقطع زَند الهَجْر والقَطْع حقُّه　　　فما زال طيبُ العمر عنى يسترِقُّ

مولده : فى حدود ثمانية وسبعين وستمايه

وفاتـه

فى الموفى عشرين من شهر ربيع الثانى من عام اثنين وخمسين وسبعماية

محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن الحـكيم اللخمى

يكنى أبا بكر

أوّليتـه

[مرت][1] فى اسم ذى الوزارتين .

حـاله

من كتاب « عائد الصلة » : « كان صَدْر أبناء أصحاب النِّعم ، وبقيَّة أعلام البيوت ، ترَفَ نشأة ، وعزَّ تربية ، وكرَم نفس ، وطيبَ مجالسة ، وإمتاع محاضرة ، وصحة وفاء ، وشياعٍ مشاركة فى جملة فاضلة ، محدِّثا تاريخيا ، كاتباً بليغا ، حسن الخطّ ، مليح الدُّعابة ، ظريف التوقيع ، متقدم الحيلة[2] فى باب التحسين والتنقيح ، يقْرض الشعر ، ويَفُك للمُعَمَّى ، ويقوم على جُمل الـكتاب العزيز ، حفظاً وتجويداً ، وإتقانا ، ويسرُد نِتَف التاريخ ، وعيون الأخبار ، إلى حُسْن الخلق ، وكمال الأُبهة ، وحلاوة البساطة ، واحتمال المُنابَشة ،

---

(١) الزيادة من «الزيتونة» .

(٢) وردت فى «ج» (الحبلة) . وفى «الزيتونة» (الحملة) . وبالتصويب يستقيم المعنى .

والمثابرة على حفظ المودة، والاستقالة من الهفْوة . والتمسُّك بالاستِعْتاب والمعذِرة. كتب بالدار السلطانية أكثر عُمره ، وتصدَّر بعد فى قيادة المواضع النبيهة ، [محارباً ذا قدرة فى ذلك][1] . ومع ذلك فشايعُ المعروف، ذايع المشاركة . قيّد الكثير ، ودون وصنَّف ، وحمل عن الجلّة ممن يَشُق إحصاؤهم ، وكان غرّة من غرر هذا القطر ، وموكبا من مواكب هذا الأفق ، لم يتخلف بعده مثلُه .

وجرى ذكره فى « التاج المحلّى » بما نصه : « ماجدٌ أقام رسْم المجد بعد عفَايه ، ووفّى الفضل حق وفايه . بيتُه فى رُندة ، أشهر فى الأصالة من بيت امرئ القَيْس ، وأرْسى فى بحْبُوحة الفخر[2] ، من قواعد الرَّضوى وأبى قَيْس . استولى على الجود [البديع][3] البعيد المَدا ، وحجّت إليه من كل فج طُلَّاب النَّدا ، وعَشَت إلى ضوء ناره ، فوجدت على النار التُّقى والهُدى . وُلِّى الوزارة النَّصرية ، التى اعتصر منها طريفاً بتالد ، فأحييت مآثرها الخالدة مآثر يحى بن خالد[4] . ولما أدار عليها الدهر كأس النَّوايب ، وخَلُص إليها سهمه [الصَّايب][5] بين صحايف الكُتب وصفايح الكتايب ، تطلَّعت من خلالها الرايقة لُباب الوجود ، وبَكَتها بسَيْل أجفانها عينُ الباس والجود ، وطَلَع على أعقاب هذه الفضايل

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» كالآتى : (خاربا مقدورا عليه) . والأولى أكثر تمشياً مع المعنى والسياق .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (الفضل)

(٣) الزيادة من «الزيتونة» .

(٤) هو يحيى بن خالد البرمكى وزير هارون الرشيد . واحد أعلام أسرة البرامكة الشهيرة ، التى استولت على السلطة فى الدولة العباسية ، واضطر الرشيد إلى نكبتها (سنة ١٨٧ هـ) حرصاً على سلطانه ، وتحررا من قبضتها .

(٥) هذه الكلمة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

[مُحَلَّى من صفحاتها](١)، وأعاد لو ساعده الدهر من أمحاتها، وارتقى من الكتابة إلى المحلِّ النبيه. واستحقها من بعض ميراث أبيه، [و بنى](٢) وشيَّد، ودوَّن فيها وقيَّد وشهر في كتب الحديث وروايته، وجَنَى ثمرة رحلة أبيه، وهو في حِجْر ذُؤابته(٣). وأنشأ الفهارس، وأحيي الأثر الدّارس، وألّف كتابه المسمى «بالموارد المُسْتَعذبة والمقاصد المُنْتخبة» فَسرَح(٤) الطَّرْف، وروضُه طيِّب الجنى والعَرْف، وله شعرٌ أنيق الحلية، حاز في نمط الحِلْية. وبيني وبين هذا الفاضل وِداد صافي الحِياض(٥)، وفكاهة كقِطَع الرِّياض، ودُعابة سَحبت الدَّالة أذيالها، وأدارت الثقة والمقة جريالها. وسيمر في هذا الديوان كل رايق المحيا، عاطر الريّا.

مشيخته

قرأ على [الأستاذ](٦) أبي جعفر الحريري، والأستاذ أبي الحسن القيجاطي، والأستاذ إسحق بن أبي العاصي. وأخذ عن الطّم والرّم، من مشايخ المشرق والمغرب. فمنهم الولى الصالح فضل بن فضيلة المعافري، إلى العدد الكثير من أهل الأندلس، كالخطباء الصلحاء أبي عبد الله الطنجالي، وأبي جعفر الزيّاتي، وأبي عبد الله بن الكمّاد، وغيرهم من الرُّنديين والمالقيين والغرناطيين، حسبما تضمنه برنامجه.

تواليفه

ألف الكتاب المسمى، «الفوائد المُنْتَخبة والموارد المُسْتعذبة»(٧). وكمَّل

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة في «الزيتونة». ووردت محرفة في «ج» كالآتي: (يحلى من صباحها).

(٢) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق.

(٣) وردت في «ج» (دابته). والتصويب من «الزيتونة».

(٤) هكذا وردت في «ج». ووردت في «الزيتونة» (فسمع) وهو تحريف.

(٥) هكذا وردت في «ج». وفي «الزيتونة» (الحياطة).

(٦) الزيادة من «الزيتونة».

(٧) سبق أن ورد عنوان هذا الكتاب فيما تقدم كالآتي: «الموارد المستعذبة والمقاصد المنتخبة».

التاريخ المسمى « بميزان العمل » لابن رَشيق . ودوّن كتاباً فى عبارة الرؤيا سماه « بشارة القلوب بما تخبره الرؤيا من الغُيوب » و « الأخبار المُذَهَّبة » و « الإشارة الصُّوفية ، والنُّكت الأدبية » . والهَوْدج فى الكتب . والإشارة فى ألف إنشاده .

شعره وكتابته

قال فى التاريخ مانصه : « وتهادته إلى هذا العهد رُتَب السِّيادة ، واستُعْمل فى نبيهات القيادة ، فوُجِّه إلى معقل قرطمة[1] من كورة ريُّه وهو واليه ، وبطاحُه فى مجرى جِياده وصَحرٌ عواليه . وقد حلتُ مالَقة صُحبة الرَّكب[2] السلطانى فى بعض التَّوجُّهات ، إلى تلك الجهات ، فى بعض ما أتحف [من مقعده][3] ، المتصل المستمر ، بهدِّية مشتملة على ضروب من البَرِّ . فخاطبته مقيما لسوق[4] الانبساط ، وغير حايدٍ عن الوِداد والاغتباط ، على ما عوَّل [عليه][5] من حمل الإفراط ، والانتظام فى هذا المعنى والانخراط :

ألامُ على أخذ القليل وإنما ... أُعامل أقواماً أقلَّ من الذَّر

فإن أنا لم آخــذه منهم فقدتُه ... ولا بد من شىء يُعين على الدهر

سيدى أطلق الله يدك بمـا تَمْلك ، وفَتَر عن منحك البُخل لِيلاّ تهلك .

---

(١) وردت فى المخطوطين (قرطبة) وهو تحريف ظاهر ، لأن قرطبة كانت قد سقطت فى أيدى النصارى قبل ذلك بنحو قرن ، ولأنها من جهة أخرى ليست واقعة فى كورة ريه او كورة مالقة . والصواب هو «معقل قرطمة» Cartama . وقرطمة هى بلدة حصينة تقع غربى ثغر مالقة وسط كورة ريه .

(٢) هكذا وردت فى « ج » ، وفى «الزيتونة» (الركاب) .

(٣) وردت فى « ج »(ما تفقده) ، والتصويب من «الزيتونة» .

(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (سوق) .

(٥) أضفنا هذه الكلمة لاستقامة السياق .

كنت قد هوّمت(١) ، وحذرني القلق فتلوّمت . ولَومى(٢) كما علمتَ سيء الخصال ، عزيز الوِصال . يمَلُّ دَيْني،ويعاف طيره وِرْد عيني . فإذا الباب يدقّ بحجر ، فأنبأني عن ضَجَر ، وجارُ الجنب يُؤخذ بالذَّنب . فقمت مُبادراً وجَزِعت . وإن كان الجزَع مني نادراً . واستفهمتُ من وراء(٣) الغَلق ، عن سبب هذا القَلَق . فقالت امرأة من سكان البوادي . وابدأة الفؤاد يا قوم ، رسول خَيْر ، وناعق طَيْر ، وقرعُ إذلال لا فرعُ إدلال . حُطوا شعار الحَرْب والحَرَب ، فقد ظفرتم ببلوغ الأَرَب، فتأخرتُ عن الإقدام. وأَنْهَدْتُ إليه ، يَحِنُّ(٤) عمر بن أبي ربيعة عمن كان بالدّار من الخُدّام . فأسفَرت الوقيعة عن سلام وسُلم ، ولم يَزِن أحد منا بكِلم . ونظرتُ إلى رجل قرطبي الطّلعة والأخلاق ، خاوٍ على الإطلاق . تنهّد قبل أن يُسلِّم ، وارتمض(٥) لما ذهب من الشَّبيبة وتألّم . شَنْشنة معروفة . وعينُ(٦) تلك الجهات معاذ الله مصرُوفة . وقد حمّلته سيادتكم من المبرّة ضروباً شتّى . وتجاوَزْتَ في المسرّات غاية حتى . ولم تَضع عضواً من جَسَده :فضلا عن مَنْكِبه ويده ، إلاّ علَّقته وعاءً ثقيلا ، وناطَتْ به زَنْبِيلا . واستلقى كالمَنِيِّ إذا ترك المُعْترك . وعَاثَت حوله تلك الأثقال . وتعاورها الانتقال(٧)[وكثُر بالزُّقاق القيلُ والقال . فلما تخلَّصتْ إلى الدار(٨) : وسترتْ معرقتها بالجدار ، وتناولها

---

(١) وردت في «ج» (هرمت) والتصويب من «الزيتونة» .

(٢) هكذا وردت في «الزيتونة» . وفي «ج» (قومى) والأولى أنسب للمعنى والسياق .

(٣) وردت في «ج» (دار) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٤) وردت في «ج» (يحن) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٥) وردت في «ج» (وارتمط) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٦) وردت في «ج» (وعن) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٧) ما سيأتي منذ بداية هذه الحاصرة حتى نهايته عند الحاصرة الختامية – كله ساقط في «ج» . ووارد في «الزيتونة» وقد اعتمدنا في نقله على مخطوط «الزيتونة» دون سواه .

(٨) وردت في «الزيتونة» (بالدار) والتصويب أنسب للسياق .

الاختبار الفاضح ، وبان قصورُها الواضح ، فتلاشت ، بعد ما جاشَتْ ، ونظرت إلى قَعْب من اللَّبن المزوق الذى لا يُستعمل فى البيوت ، ولا يباع فى السُّوق ، فأذكرتني قول الشاعر :

فى تلك المكارم لا قُعبان من لبن ... شِيبَت بماء فعادت بعدُ أبْوالا

أما زُبْده فرُفع ، وأما جُبْنه فاقتِيت به وانتُفع . وأما من بعثه من فضلاء الخُدَّام فدُفع ، وكأنى به قد ألحّ وصُفع ، والتفت إلى قُفَّة قد خِيطت ، وبعُنق ذاك البايس قد نِيطت ، رَمَس[1] فيها أفراخ الحمائم . وقُلِّدت بجيده[2] كما يُتقلد بالتمائم ، وشُدَّ حبلُها بمخنقه ، وأُلزم منها فى العاجل طائرُه فى عنقه . هذا بعد ما ذُبحت ، وأما حشوها فرُبحت . ولو سلكتم الطريقة المُثلى ، لحفِظتم جثتها من العَفَن ، كما تُحفظ جُثة القتلى ، وأظنكم لم تغفلوا هذا الغرض الأدنى ، ولا أهملتم هذه الهمم الذى غريزة فى المَبْنى . فإنى رميتُ منها اللَّهو رمى المُختبر ، فكلح من مرارة الصبر ، ولما أخرجتُها من كَفَن القفَّة ، واستدعيت لمواراتها أهل الصُّفة ، تمثلت تمثّل اللبيب بقول أبى تمام حبيب :

هُنّ الحمام فإن كَسَرَت عِيافَةً ... من حائهنّ فإنهن حِمام

ولو أن إحدى الدَّجاجتين لاحت عليها مُخَيِّلة سِمَر . لكانت من بقايا مواطئ ديوك بنى مُرّ ، وبعث بها حلالُك حلالَه . وأهدى منها اجتهاد من أحْسَن . ولم يكن بالهديّة ما يُذكر . ولا كانت مما يُنكر . أستغفر الله ، فلو لم تكن التُّحفة ، إلا تلك الفكاهة العاطرة والغمامة الماطرة . التى أحسبُها الأمل الأقصى ، وتجاوزت إلاّ من التى لا تُعد ولا تُحصى ، للزم الشكر ووجب ، وبرز من حُرّ المدح ما تيسّر

---

(١) وردت فى «الزيتونة» (ومس) ، وهو تحريف اقتضى التصويب .

(٢) وردت فى «الزيتونة» (بلبسه) . وبالتصويب يستقيم المعنى والسياق .

واحتجب . فالمكارم وإن تغيّرت أنسابُها ، وجُهل انتسابُها . وادّعى إرثُها واكتسابُها ، إليكم تنشر يدها ، وتَسمى لأقدامها ، وابْنيتكم تميل بهواديها ، وبساحتكم بسيل واديها ، وعلى أرضكم تسحّ غواديها . ومِثلى أعزكم الله ، لا يُغضى من قدر تُحفكم الحافلة ، ولا يَقْدر من شكرها على فريضة ولا نافلة ، ولكنها دُعابة معتادة ، وفكاهة أصدرتها وِدادة . ولا شك أنكم بما جُبلتم عليه قديماً وحديثاً ، تغتفرون(١) جفائى ، الذى سيَّرتموه مُمَّراً وحديثاً ، فى جنب وفائى ، وتُغضون وتتحملون ، وبقول الشاعر تتمثّلون ، وأسمع من الألفاظ اللغوية التى يُسر بها تَمنّى ، وإن ضمنت شَتْمى ووصفى :

بعثت بشىء كالجفاء وإنما … بعثت بعُذْرى كالمُدلِّ إلى غدر
وقلت لنفسى لا تَرْدعى(٢) فإنه … كما قيل شيء قد يُعين على الدهر
وما كان قدر الوُدِّ والمجد مثله … فخذه على قدر الحوادث أو قَدْرى
وإن كنت لم أحسن صنيعى فإننى … سأحسن فى حُسن القبول له شكرى
وقَدْرُك قدر النيل عندى وإننى … لدى قدرك العالى أدقُّ من الذَّر
قَنَعتُ وحظّى من زمانى وودِّ كم … هباءٌ ومثلى ليس يقنع بالنَّزْر
أتانى كتاب منك باءٍ مبارك … لقيتُ به الآمال باهتة(٣) الثَّغر
جلا من بَنات الفِكر بكْراً وزفَّها … إلى ناظرى تختال فى حَبْر الحبر
فألفاظها كالزَّهر والزهر يانع … وقَدْرُ المعانى فى الأصالة كالزهر
نجوم معانٍ فى سماء صحيفة … ولكنها تُسرى النجوم ولا تسرى
تضمّن من نوع الدعابة ما به … رجوتُ الذى قد قيل فى نَشْوة الخمر

(١) وردت فى «الزيتونة» (تعدون) . والتصويب أكثر تمشياً مع السياق .
(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» .
(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» .

رعى الله مَسْراها الكريم فجلَّ ما | جَلّته من البُشْرى وأبْدَت من البِشر
لعمرى لقد أذْكرتنى دوله الصِّبا | وأهديت لى نوع الجلال من السِّحر
ولما أتَتْ تلك الفكاهة غَدْوةً | وجدتُ نشاطاً سائراليوم فى بِشرى
ولا سيما إن كان مُلحِم بُرْدها | عميدُ أولى الألباب نادرةُ العصر
نشرتُ بها ماقد طويتُ بِساطَه | زماناً وبى طىٌّ بالأمور مع النشْر
ونعم خليل الخير أنت محافظاً | على سُنَن الإخلاص فى السِّر والجهر
ودونَكَها تلهو بها وتدُيرها | سُحَيْريّةَ الأنفاس طيِّبة النَّشر] (١)

فراجعنى بقوله :

وقد منّ سيدى الجواب ، محتوياً على العجب العُجاب ، فيالكِ من فكاهة كَوْثَرية المناهل ، عَنْبرية المسايل ، ولو لم يكن إلّا وصْفُ القرطِو، المستوى(٢) الطَّلعة ، الشُّرَطى الصنعة . وأما وصف اللبن وفراخ الحمام ، فقد بَسَطتم فى المزاح القول . وامتنعتم فى الكلام الفَصْل . وذلك شىء يعجز عن مُساجلتكم فيه فيه أربابُ البلاغة والبيان ، فكيف بمثلى ممن له القول المُهَلهل النَّسيج ، الواهى البيان . ولابد من عَرْض ذلك على سيدى(٣) القُطْب الكبير الإمام ، وأستاذنا عَلَم الأعلام ، وكبير أيمة الإسلام . فيحكم بيننا بحكم الفَصْل . ويُنصف بما لديه من الحق والعدل . وقد كنت أحيد عن مراجعتكم حِيدَة الجبان . وأميل عن ذلك ميلة الكَوْدَن(٤) عن مجاراة السُّمْر الهِجان . وأعدل عن مساجلة أدبكم الهتّان . عدول الأعزَل عن مبارزة جيِّد السِّنان . إلى أن وثقت بالصفح .

---

(١) إلى هنا انتهى ما نقلناه منذ المحاصرة الفاتحة من مخطوط «الزيتونة» . وهو ساقط كله فى «ج».

(٢) وردت فى «ج» (المشوى) . والتصويب أرجح .

(٣) وردت فى «ج» (سبيل) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٤) هكذا فى المخطوطين . والكودن . هو البطىء المتثاقل فى مشيته

وعوّلت على ما لديكم من الإغضاء والسَّمْح ، ووجّهتُ حاملة السّر والظروف ، كي تتصل الهدايا ولا ينقطع المعروف . وأستقيل من انبساط يجرُّ عُذْراً . وأسأله سبحانه وتعالى حمداً يوجب المزيد من إنعامه وشكراً . دام سيدى وآماله مساعدة. والكلمة على فضله واحدة .

ومن شعره فى النُّسك واللّجأ إلى الله تعالى :

أيامن له الْحكم فى خَلْقه ومن بِكَرْبى له أشتكى
تولّ أمــــورى ولا تُسْلمنى وإن أنت أسْلمتنى أهلك
تعاليتَ من مُفْضل(١) منعم ونُزِّهت من طالب مُدْرك

ومن ذلك وقلته من خطّه :

تصبّر إذا ما أدركتك مُلمّة فصُنْعُ إلــه العالمين عجيب
وما يدْرك الإنسان عارٌ بنَكْبَة يُنْكب فيها صاحب وحبيب
فنى مَنْ مضى للمرء ذى العقل أُسوة وعيش كرام الناس ليس يَطيب
ويوشك أن تَهْمى سحايب نعمةٍ فيخصبُ [من](٢) ربع السّرور جَديب
إلــهك يا هذا مجيبٌ لمن دعا وكلُّ الذى عند القريب قريب

مولده : عام خمسة وستين وستماية .

وفـــــاته

من « عائد الصلة » . قال ، وختم الله عمره بخير العمل من الإنابة والتهجُّد ، والتزام الورد ، وإن كان مُسْتصحب الخيرية . وحلّ ببلد ولاينهم رُنْدة ، فكانت بها تُرْبته فى الثالث والعشرين لربيع الآخر عام خمسين وسبعماية .

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (فاضل) والأول أرجح .
(٢) أضيفت هذه الكلمة لاستقامة الشعر والمعنى .

محمد بن محمد بن على بن العابد الأنصارى

ولد المذكور بعد، الكاتب بالدار السلطانية .

حاله

من كتاب طُرْفة العصر وغيره، قال، [كان][١] كاتباً مشهوراً، بليغاً، ذا معرفة، بارع الخطّ، أوْحَد زمانه فى ذلك، وقوراً، معُذَب[٢] اللفظ، منحطاً فى هوى نفسه، مُحارفاً[٣] بحرفة الأدب على جلالة قدره. وكتابته نقيّة، جانحة إلى الاختصار.

شعره

وثيق تقلّ فيه أرواح المعانى، كشعر أبيه، وتوشيحه فائق. تولى كتابة الإنشاء لثانى الملوك النصريين[٤]، واستمر قيامه[٥] بها على حَجْر شديد من السلطان وتَحمل، لملازمته المُعاقرة وانهماكه فى البطالة، واستعمال الخمر، حتى زعموا أنه قاء يوما بين يديه، فأخَّره عنها، وقدّم الوزير أبا عبد الله بن الحكيم. وفى ذلك يقول:

أمن عادة الإنصاف والعدل أن أُجفا[٦] لأن زعموا أنى تحسَّيْتُها صِرْفا

وأقام بقية عمره تحت رِفْدٍ وبرٍّ.

---

(١) ساقطة فى المخطوطين. وإضافتها لازمة لاستقامة السياق.

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين، والمقصود بها (عذب).

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين والمقصود بها (محترفا).

(٤) ثانى ملوك بنى نصر هو السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن الأحمر. وقد حكم مملكة غرناطة من سنة ٦٧١ هـ حتى سنة ٧٠١ هـ (١٢٧٢ – ١٣٠٢ م).

(٥) وردت فى «ج» (قيامة). والتصويب من «الزيتونة».

(٦) وردت فى المخطوطين (جفا). وبالتصويب يستقيم السياق.

وفاته

توفى فى حدود التسعين وستمائة. وكان شيخنا ابن الجيّاب [قد آثره](١) بكُتُبِه. وكانت نفيسة أعلاها بخط أبيه رحمه الله.

محمد بن مالكِ المُرِّى الطِّغْنَرى (٢)

من أهل غرناطة، من ذوى البيتية(٣) والحسب فيها. ذكره الأستاذ(٤)، فى الكتاب المسمى بالصلة، والغافقى(٥)، وغيرهما.

حاله

أديب نبيل، شاعر، على عهد الأمير عبد الله بن بُلُقّين بن باديس صاحب غرناطة. قال وكان أولا يميل إلى البطالة والراحة. ثم إنه استيقظ من غفلته، وأقلع عن راحته، وأجبَّ فى تَوْبته. وكان من أهل الفضل والخير والعلم.

من تواليفه كتابه الشهير فى الفلاحة، وهو بديع، سمّاه « زهرة البستان، ونُزْهة الأذهان »، عبرة فى الظَّرف. قال، وجرى له مع سَماجة(٦)، خليفة

(١) وردت فى المخطوطين (فآثره). وبالتصويب يستقيم السياق.

(٢) ورد هذا الاسم محرفاً كله فى «ج» كالآتى : (محمد بن ملك الميرى الصمرى). وكذا فى الزيتونة» (محمد بن ملك المرى الصمرى) والإسم الصحيح هو ما أثبتناه. والطغنرى نسبة إلى (طغنر). هى قرية من قرى غرناطة، وقد سبق التعريف بها.

(٣) وردت فى «ج» (البيتمة). والتصويب من «الزيتونة».

(٤) الأستاذ هنا يقصد بها الأستاذ أبو جعفر بن الزبير صاحب كتاب (صلة الصلة). وقد سبق التعريف به.

(٥) الغافقى يقصد بها هنا، محمد بن عبد الواحد الغافقى الشهير بالملاحى. وقد سبق التعريف به

(٦) هو من شيوخ قبيلة صنهاجة البربرية. وقد تولى الوزارة لعبد الله بن بلقين أمير غرناطة وكان وزيراً حازما قوى العزم، شديد السطوة، فبرم به عبد الله، وصرفه بالحسنى، فسار فى أهله وأمواله إلى ألمرية، وعاش فى كنف صاحبها ابن صمادح.

عبد الله بن بلقين قصة . إذ فاجأه سماجة مع إخوان له ، ولم يَشْعروا به ، فأنشده ابن مالك ارتجالا ، وقد أُخذ بِلجام دابته :

بينا نحن فى المُصَلَّى نساق(١) وجناح العِشْقِ فيه جُنوح
إذا أتانا سماجـــةُ يتلألأ رَدّى الشمس من تجليله يوح
فطفِقْنا يقول بعضٌ لبعض أغُبوقٌ شرابُنا أم صَبُوح

قال ، فتكلم الوزير سماجة [باللسان البربرى](٢) مع عبيده ، فرجموا مسرعين ، ووقف سماجة مع الوزير ابن مالك ، إلى أن أتاه عبيدُه ، بوعاء فيه جملة كبيرة من الدراهم ، تنيف على الثلاثمائة دينار . فقال ادفعوها إليه،وانصرف. وأتاهم العبيد مع الدراهم ، بطعام وشراب . قال ابن مالك ، وذلك(٣) أوّل مال (٤) تأثَّلتُه(٥) .

شعـــره

[ومنه](٦)

صبٌّ على قلبي هوى لاعج ودبَّ فى جسمى ضناً دارج
فى شادِن أحمر مُسْتأنـــس لسانُ تَذْكارى(٧) به لاهج
قدٌ نُعمان إذا ما مشى وما عسى يفعـــله عالج

(١) وردت فى المخطوطين (نسق) . وبالتصويب يستقيم الوزن والسياق .
(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (باللسان الغربى) .
(٣) وردت فى «ج» (بذلك) والتصويب من «الزيتونة» .
(٤) وردت فى «ج» (ما) . والتصويب من «الزيتونة» .
(٥) وردت فى المخطوطين (تأثله) . وبالتصويب يستقيم السياق .
(٦) هذه الكلمة واردة فى «الزيتونة» . وساقطة فى «ج» .
(٧) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (تذاكرى) .

فقدُّه من رقَّـــةٍ مايسٌ ... وردْفه من ثقله مـــايج(١)
عنوان ما فى ثوبه وجهه(٢) ... تَشَابه الداخل والخـارج
فلا تَقِيسوه ببدْرِ الدجـى ... ذا مُظْلِم الوجه وذا سـاذج
وقد نسبها بعض الناس لغيره

وفاتـه

قال الأستاذ ، كان حيًّا [سنة] ثمانين وأربعمائة . وأمر أن يكتب على قبره :

ياخليلى عرِّج على قبرى تجد ... من أكلة التُّرب بين جنبى ضريح
خافتُ الصوت إن نطقتُ ولكن ... أى نطق إن اعتبرت فصيح
أبصَرَت عينى العجايب لكن ... لما فرّق الموت بين جسمى وروح(٣)

محمد بن على بن محمد [بن عبد الله](٤) بن عبدالملك الأوسى(٥) المدعو بالمُقَرَّب : من إقليم الآش(٦)

حـاله

كان حسن النظم والنثر ، ذكيًّا من أهل المعرفة بالعربية والأدب ، موصوفا بجودة القريحة ، والنبل والفطنة .

---

(١) هكذا فى «ج» وفى «الزيتونة» (مارج) والأولى انسب السياق .
(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (جسمه) والأولى أنسب للسياق .
(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (الروح) .
(٤) الزيادة فى النسبة من «الزيتونة» .
(٥) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (الأسدى) .
(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (لاش) . ولا يوجد فى الجغرافية الأندلسية إقليم بهذا الاسم . ولعل المقصود هنا هو إقليم وادى آش . وقد أورد اسمه على سبيل الإختصار .

أدبه وشعره

ذكره الملاحي، وقال حدثني قاضي الأحكام بغرناطة، أبو القاسم الحسن بن قاسم، الهلالي صاحبنا. قال، كان الأستاذ أبو عبد الله العقرب جارنا: قد وقع بينه وبين زوجه، زهرة بنت صاحب الأحكام أبي الحسن على بن محمد تنازع: فرفعته إلى القاضي بغرناطة، أبي عبد الله بن السماك العاملي، وكنت يومئذ كاتباً له، فرأى القاضي قوته وقدرته على الكلام وضعفها. وإخفاق(١) نظمها، وشفق لحالها. وكان يرى أن النساء ضعاف، وأن الأغلب من الرجال يكون ظالمهن. وكان كثيرا ما يقول في مجلسه: رويدك، رفقا بالقوارير. وحين رأى، [ما صدر عن القاضي من الجمل](٢)، فقلت له وأين حلاوة شعرك، والقاضي أديب، يهتز إليه ويرتاح، فطلب مني قرطاساً، وجلس غير بعيد، ثم كتب على البديهة بما نصه:

لله حيٌّ يا أميم حواك وحمائمٌ فوق الغصون حواكِ
غنّين حتى خِلتُهن عَنَيْنَنِي بغنائهن فنُحت [في](٣) مغناك
ذكّرتني ما كنت قد أنسيته بخطوب هذا الدهر من ذكراك
أشكو الزمان إلى الزمان ومن شكى صرفَ الزمان إلى الزمان فشاكي
يا ابن السماك المُستظل(٤) برمحه والعزّل ترهب ذا السلاح الشاكي
راعِ الجوار فبيننا في جوّنا حق السُّرى والسير في الأفلاك

---

(١) وردت في المخطوطين (اتفاق). وبالتصويب يستقيم المعنى.

(٢) هكذا وردت هذه الجملة في «الزيتونة». ووردت محرفة في «ج» كالآتي: (ان القاضي من الحمل).

(٣) هذه الكلمة واردة في «ج». وساقطة في «الزيتونة».

(٤) هكذا وردت في «الزيتونة». وفي «ج» (المستقل). والأولى أرجح.

وابسط إلى الخلق المنُوب ببسطة ... طَرْفَ الكرام بعفّة النُّساك
وأنا ذاكر إن لم يفُتْ من لم يَمُتْ ... فدارُك ثم دارُك ثم[1] ذاك

ثم دفعها إلى القاضى ، فكتب القاضى بخطه فى ظهر الرقعة : لَبيّك ، لبيك . [ثم أرسلنى][2] أصلح بين العَقْرب وزوجه ، فإن وصل صلحهما إلى خمسين دينارا ، فأنا أؤديها عنه من مالى ، فجمعت بينهما ، وأصلحت بينهما عن تراض منهما ، رحمهما الله تعالى .

محمد بن على بن عبد الله بن على القيسى العرادى[3]

من أهل غرناطة

حاله

كان فتى حسن السَّمت ، ظاهر السكون ، بادى التَّصَوُّن والعفَّة ، دمِث الأخلاق ، قليل الكلام ، كثير الحياء ، مليح الخط ، ظريفه ، بادى النَّجابة . أبوه وجَدُّه من تجار سوق العِطر ، نُبهاء السوق . نظم الشعر ، فجاء منه بعجب ، استرسالا وسهولة ، واقتدارا ، ونفوذا فى المُطَوَّلات ، فأنِفَتْ[4] له من الإغفال ، وجذبتْهُ إلى الدار السلطانية ، واشتدَّت براعته ، فكاد يستولى على الأمر . لولا أن المَنِية اخترمته شابا ، فتشكَّل منه الشعر ، قريعُ إجادة ، وبارع ثَنَيَّة شهرة ، لو انفسح له الأمد .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى « الزيتونة » .

(٢) وردت فى « ج » (ثم أرسل عنى) . و بالتصويب يستقيم المعنى والسياق .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين وقد تكون من عرد عرودا أى قوى واشتد .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين .

مولده : فى ذى الحجة عام أحد وثلاثين وسبعمائة .

وفـــاته

توفى مبدأونا على أيام قريبة من إسراءه بغرناطة ،عن سن قريبة من العشرين، فى عام خمسة وخمسين وسبعمائة . وأبوه أمين العطارين .

محمد بن على بن العابد الأنصارى

يكنى أبا عبد الله ، أصله من مدينة فاس .

حـــاله

من خطِّ القاضى أبى جعفر بن مَسْعدة ، عَلَم كتّاب دار الإمارة النّصرية الغالِبيّة ، الذى بِنُوره يسْتَصْبحون ، وسراجُهم الذى بإشراقه وبهجته ، ونَهْج مَحْدِتْه يهتدون . رفع لواء الحمد ، وارتدى[1] بالفهم والعلم والحلم . كان رحمه الله إماماً فى الكتابة ، والأدب ، واللغة ، والإعراب ، والتاريخ والفرايض والحساب ، والبرهان عليه [عارفاً بالسِّجلات والتَّوثيق][2] أرْبَى على الموثّقين من الفحول ، المبرِّزين فى حِفْظ الشعر ونظمه ، ونسبته إلى قائله حافظاً مبرِّزاً . درس الحديث ، وحفظ الأحكام لعبد الحق الإشبيلى ، ونسخ الدواوين الكبار ، وضبط كتب اللغة . وقيّد على كتب الحديث ، واختصر التّفسير للزمخشرى ، وأزال عنه الاعتزال ، لم يفْتَر[3] قط من قراءة أو درس أو نسخ أو مطالعة ، ليله ونهاره .

(١) وردت فى المخطوطين (وارتد) . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٢) هذه العبارة واردة فى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» . وقد وردت فى «ج» محرفة كالآتى (عارف والسجلات والتوثيق) .

(٣) وردت فى «ج» (يفتن) . والتصويب من «الزيتونة» .

لم يكن في وقته[1] مثله .

مشيخته

أخذ بفاس عن أبي العباس أحمد بن قاسم بن البقّال الأصولي ، وأبي عبد الله بن البيوت المقرّى ، وعن الزاهد أبي الحسن بن أبي الموالي ، وغيرهم .

شعره

ومنه قوله :

طرقَت تَتيه على الصَّباح الأبْلج حسناء تختال اختيال تَبرُّج
في ليلة قد ألْبَسَت بظلامها [نِضْفاض بُردٍ بالنجوم مُدَبَّج][2]

وشعره مدون كثير .

وفاته

توفى بحضرة غرناطة عام اثنين وستين وسبعمائة [في ذي القعدة منه][3].

محمد بن هانى بن محمد بن سعدون الأزدى الإلبيرى الغرناطى

من أهل قرية سُكون ، يكنى أبا القاسم ، ويعرف بالأندلسى ، وكأنها تفرقة بينه وبين الحكمى أبي نواس .

---

(١) وردت في « ج »(وقتله) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٢) هكذا وردت هذه الشطرة في « ج ». ووردت في «الزيتونة» كالآتى : (نضفاض البجوم مدبج) .

(٣) هذه العبارة واردة في « ج » وساقطة في «الزيتونة» .

أوّليتـــــه

قال غير واحد من المؤرخين ، هو من ذرية يزيد بن حاتم بن قَبِيصة[١] بن المُهَلَّب بن أبي صُفرة ، وقيل من ولد [أخيه][٢] رُوح بن حاتم .

حـــــاله

كان من فحول الشعراء ، وأمثال[٣] النظم ، وبرهان البلاغة ، لا يُدرك شأوه ، ولا يُشَقّ غُباره ، مع المشاركة فى العلوم ، والنفوذ فى فلكَ المعنّى . خرج من الأندلس ابن سبع وعشرين سنة ، فلقى جوهراً [المعروف بالكاتب مولى المعزّ بن المنصور العُبَيدى صاحب المغرب][٤] وامتدحه ، وكان لئيما ، فأعطاه مائتى درهم ، فوجَد لذلك ، وقال أهاهنا كريمٌ يُقصد ، فقيل بلى ، جعفر بن يحيى بن على بن فلاح بن أبى مروان ، وأبو على بن حمدون ، فامتدحهما[٥] ، ثم اختصّ بجعفر بن يحيى وأبى على ، فبالغا[٦] فى إكرامه ، وأفاضا عليه من [النعم و][٧] الإحسان مالم يمرّ بباله ، وسارت أشعاره فيهما ، حتى أُنشدت للمعزّ العبيدى ، فوجهه جعفر بن على إليه فى جُملة طُرف وتُحف بعث بها إليه ، كان أبو القاسم أفضلَها عنده ، فامتدح [المعز لدين الله][٨] ، وبلغ المعزّ من من إكرامه الغاية . ثم عاد إلى إفريقية ، ثم توجه إلى مصر ، فتوفى ببَرْقَة .

(١) وردت محرفة فى المخطوطين (فيضة . قبطة) . والصواب ما أثبتناه (عن الوفيات) .
(٢) الزيادة من (الوفيات) .
(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وهى هنا جمع (مثيل) . ومعناها الفاضل .
(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .
(٥) وردت فى المخطوطين (فامتدحهم) ، فاقتضى التصويب .
(٦) وردت فى «ج» (فبلغا) . والتصويب من «الزيتونة» .
(٧) الزيادة من «الزيتونة» .
(٨) وردت فى المخطوطين (المعز بالله) . والصواب ما أثبتناه .

وجرى ذكره فى « تخليص الذهب »(١) من تأليفنا بما نصه : « العُقاب الكاسرة ، والصَّمصامة الباترة ، والشَّوارد التى تهادتها الآفاق ، والغايات التى أعجز عنها(٢) السُّباق » .

«وصمته»: وذكره ابن شَرَف فى مقاماته ، قال : وأما ابن هانى محمد ، فهو نَجْدِى الكلام ، سَرْدِى النظام ، إلا أنه إذا ظهرت معانيه ، فى جزالة مبانيه ، رَمى عن(٣) منجنيق لا يؤثر فى النَّيق . وله غَزَل مَعَرِّى(٤) ، لا عُذْرى ، لا يقنع بالطَّيف ، ولا يُصفع بغير السيف [وقد قدّه به الذات ، وعُظم شأنه فاحتمل الثواب](٥) ، وكان يَقِف دولته فى أعلى منزلته [ناهيك](٦) من رجل يستعين على صلاح دنياه ، بفساد أُخْراه(٧) ، لرداءة دِينه ، وضَعْف يقينه . ولو عَقِل ما ضاقت عليه معانى الشِّعر ، حتى يستعين عليه بالكفر .

شـــعره

كان أول ما مدح به جعفر بن على قوله :

أحْبِب بتيّاك القبـــاب قبابا ... لا بالحُداة ولا الرَّكاب ركابا

فيها قلوب العاشقين تخالُها ... عَنَماً بأيدى البِيض والعنّابا

وقال يمدح جعفر بن على من القصيدة الشهيرة :

أليلتُنا إذ أرْسلت وارداً وحِفاً ... وبانَتْ لنا الجوزاء فى أُذنها شَنَفاً

---

(١) هو كتاب «تخليص الذهب فى اختيار عيون الكتب الأدبيات» . وهو من مؤلفات ابن الخطيب التى لم تصل إلينا .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (عندها) .

(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (على) .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٦) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٧) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (آخرته) .

وبات لنا ساقٌ يقوم على الدُّجى | بشمعةِ صُبْحٍ لا تقطُ(١) ولا تُطفا
أغنُّ غضيضٌ جَفَّف اللين قدَّه | وأثقلَت الصهباء أجفانه الوُطْفا
ولم يُبقِ إرعاش المُدام له يداً | ولم يُبقِ إعناتُ(٢) التثني له عِطْفاً
نزيفٌ قضاه السكر إلا ارتجاجَه | إذا كلَّ عنها الخصر حَمّلها الرِّدفا
يقولون حِقْف(٣) فوق خيزُرانة | أما يعرفون الخيزُرانة والحِقْفا
جعلنا حَشايانا ثيابَ مُدامنـــا | وقدَّت لنا الظَّلماء من جِلْدها لحفا
فمن كبدٍ تُدنى إلى كبدٍ هوًى | ومن شَفَةٍ تُوحى(٤) إلى شَفَة رَشْفا
بِعَيْشك نبِّه كأسه وجفـــونه | فقد نبَّه الإبريقُ من بعد ما أغفا
وقد فكَّت الظلماء بعض قيودنا | وقد قام جيش الليل للصبح فاصْطَفّا
وولّت نجـــوم للثُّريا كأنها | خواتيم(٥) تبدو فى بَنان يدٍ تَخفْى
ومــــرّ على آثارها دُبرانها | كصاحبِ ردىءٍ كُمِّنَت(٦) خيلُه خَلْفا
وأقبلت الشِّعرى العبور مُلِمَّة(٧) | بمرزَمها(٨) اليعسُوب تجنُبُه طرفا
وقد قَبَّلتها أختُهـــا من ورائها | لتخرق من ثُنْيَا مَجَرَّتها سِجْفا
تخاف(٩) زئير الليث قدَّم نثْرةَ | وبربر فى الظَّلماء يَنْسِفها نسفا
كأن مُعَــلّا قُطْبها فارسٌ له | لواءان مَرْكوزان قد كَرِه الزّحفا

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (تغط) . والأولى أنسب للسياق .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (أعبات) وهو تحريف .
(٣) وردت فى المخطوطين (خفف) . وبالتصويب يستقيم السياق .
(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (ترى) والأولى أنسب للسياق .
(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (خواتم) .
(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (أكت) .
(٧) هكذا فى «ج» . وفى «الزيتونة» (مبلة) .
(٨) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (بمرزامها) .
(٩) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (تخال) .

كأن السماكين اللذين تظاهرا ... على لُبْتَيه ضامنان له الحَتْفا
فذا رامحٌ يَهْوى إليه سِنانُه ... وذا أعزلٌ قد عضَّ أنمله لَهْفا
[كأنّ قُدامى النَّسر والنَّسر واقع ... قُصِصْن فلم تَسم الخَوافى له ضَعْفا](١)
كأن أخاه حين دَوَّم طايرا ... أتى دون نِصْف البَدْر فاختطف النِّصفا
كأن رقيب الليل أجْدَل مَرقب ... يُقَلِّب تحت الليل فى ريشه طَرْفا
كأن بنى نَعْش ونَعْش مُطافل ... بوَجْرة قد أضْلَلْن فى مُهْمَه خَشْفا
كأن سُهاها عاشقٌ بين عُوَّد ... فآونةً يبدو وآونة يخفا
كأن سُهَيلا فى مطالع [أُفقه](٢) ... مفارق إلفٍ لم يجد بعده إلْفا
كأن الهَزيع الأبنوسىَّ مُوهِنا ... سَرى بالنسيج الخُسْروانى مُلْتفا
كأن ظلام الليل إذ مال ميلة ... صريعُ مُدام بات يَشْرب بها صِرْفا
كأن نجوم الصُّبح خاقان مَعْشر(٣) ... من التُّرك نادى بالنجاشى فاستخفا
كأن لواء الشمس غُرَّة جعفر ... رأى القِرْن فازدادت طلاقتُه ضِعْفا
[وقد جاشت الظلماء بيضاً صَوَارماً](٤) ... ومركوزةً سمرا وفضفاضة زَغْفا
وجاءت عِتاق الخيل تَرْدى كأنها ... تخط لنا أقلام آذانها صُحُفا
هنالك تَلْقى جعفراً خَيْر جعفر ... وقد بُدِّلت يُمناه من لينها عنفا
فكاينْ(٥) تراه فى الكريهة عاجلا ... عزيمتُه بَرْقاً وصَوْلته خَطْفاً

---

(١) هذا البيت ساقط فى «ج» . ووارد فى «الزيتونة» ، وفى شطرته الثانية بعض التحريف والنقص كالآتى (قصص فلم يستطع ضعفا) .

(٢) هذه الكلمة واردة فى «الزيتونة» . وساقطة فى «ج» .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (مشعر) وهو تحريف .

(٤) هكذا وردت هذه الشطرة فى «الزيتونة» . وقد وردت فى «ج» كالآتى (وقد جاشت الدنيا بيضا صوارما) .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (كباين) .

وشعره كثير مدوّن ، ومقامُه شهير . وفيما أوردناه كفاية . وهو من إلبيرة[١] الأصيلة[٢] .

وفـــاته

قالوا ، لمـا توجّه إلى مصر ، شرب بِبَرقة وسَكِر ونام عُريانا ، وكان البرد شديداً فأفْلج[٣] ، وتوفى فى سنة إحدى وستين وثلاثمائة ؛ وهو [ابن][٤] اثنين وأربعين سنة . ولمـا بَلَغت المعز وفاته ، تأسَّف عليه وقال ، هذا رجل كنـا نطمع[٥] أن نفاخر به أهل المشرق .

محمد بن يحيي بن محمد بن يحيي بن على بن إبراهيم [بن على][٦] الغسّانى البرجي [الغرناطى][٦]

يكنى أبا القاسم من أهل غرناطة .

حـــاله

فاضل مُجمع على فضله ، صالح الأبوة ، طاهر النشأة ، بادى الصِّيانة والعفَّة ،

---

(١) إن رواية ابن الخطيب عن كون ابن هانى من «إلبيرة الأصيلة» (وكان موقعها بجوار غرناطة) تخالف الرواية الجارية من كونه قد ولد ، وفقالا ابن خلكان ، بمدينة إشبيلية (الوفيات ج ٢ ص ٥) . ويلوح لنا أن رواية ابن خلكان هى الأرجح . لأنها أقدم بكثير من رواية ابن الخطيب ، وأقرب لعصر الشاعر .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (الأصلية) والمؤدى واحد .

(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (ففلج) . والأولى أفضل .

(٤) ساقطة فى «ج» . وواردة فى «الزيتونة» .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (نريد) .

(٦) هذه الزيادة فى النسبة واردة فى «الزيتونة» . ووردت فى هامش «ج» عبارة (ابن يحيى البرجى) .

طِرْف فى الخير والحشمة ، صدْرٌ فى الأدب ، جمٌّ للمشاركة ، ثاقب الذهن ، جميل العشرة(١) ، مُمتع المجالسة ، حسن الخطّ والشعر والكتابة ، فذٌّ فى الانطباع ، صَنيع(٢) اليدين، يحكم على الكثير من الآلات العِلمية، ويجيد تفسير الكتاب. رحل إلى العُدْوة ، [وتوسّل إلى ملكها](٣)، مُجدّد الرسم، ومقام الجلّة ، وعلَمُ دَسْت الشعر والكتابة [أمير المسلمين](٤) أبى عنان فارس ، فاشتمل عليه ، ونوّه به ، وملأ بالخير يَدَه ، فاقتنى جِدةً وحَظوة وشُهرة ، وذ كراً ؛ وانقبض مع استرسال المُلك ، وآثر الراحة ، وجَهَد فى التماس الرُّحلة(٥) الحجازية ، ونبذ الكلّ ، وسلا الخُطة ، فأسعفه سلطانه بغرضه ، وجعل حَبْله على غاربه ، وأصحبه رسالة إلى النبيّ الكريم من إنشائه ، متصلة بقصيدة من نظمه ، وكلاهما تُعْلِن(٦) فى الخلفاء بُعْدَ شأوه ، ورسوخَ قدم عِلْمه ، وعراقة البلاغة ، فى نَسَب خَصْله ، حسبما تضمّنه الكتاب المسمى « بمُساجلة البَيان » . ولما هلك ووُلّى ابنه ، قدّمه قاضياً بمدينة مُلْكه(٧) ، وضاعف التّنويه به ، فأجرى الخُطّة ، على سبيل من السّداد والنزاهة. ثم لمّا وُلّى السلطان أبو سالم عمُّه ، أجراه على الرسم المذكور ، وهو الآن بحاله الموصوفة ، مَفْخر من مفاخر [ذلك الباب السلطانى على تعدُّدِ

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (المعاشرة) .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (صبغ) وهو تحريف . وصنيع أى ماهر فى الصنعة .

(٣) وردت مكانها فى المخطوطين هذه العبارة المحرفة (وترسل إلى ملطف) . والتصويب من نفح الطيب .

(٤) الزيادة من النفح .

(٥) وردت فى المخطوطين (الراحة) وهو تحريف . والتصويب من النفح .

(٦) هكذا فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (تعل) .

(٧) مدينة ملكة ، أى المدينة التى بها مقر ملكه ، وهى مدينة فاس .

مفاخره](١) [يحظى](٢) بكل اعتبار .

شعـــره

[(٣) ثبتَ في كتاب « نفاضة الجراب » من تأليفنا ، عند ذكر المَدْعَى السكبير بباب ملك المغرب ، ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذِكر من أُنشد ليلتئذ من الشُّعَراء مانصه :

وتلاه الفقيه الكاتب الحاج القاضي ، جُملة السَّذاجة ، وكرم الخلق ، وطيب النفس ، وخِدْن العافيه ، وابن الصَّلاح والعبادة ، ونشأة القرآن ، المُتحيز إلى حِزب السلامة ، المنقبض عن الغمار ، العَزُوف عن فضول القول والعمل ، جامع المحاسن ، من عقل رصين ، وطَلَب ممتع ، وأدب نقّادة ، ويدٍ صَناع ، أبو القاسم ابن أبي زكريا البُرْجي ، فأنشدت له على الرسم المذكور هذه القصيدة الفريدة :

أصغى إلى الوَجْد لما جدّ عاتبُه ... صبٌّ له شغل عمّن يعاتبـــه

لم يُعط للصبر من بعد الفراق يدا ... فضَلّ مَن ظلّ إرشاداً يخاطبه

لولا النَّوى لم يَبِت حيران مكتئبا ... يُغالب الوجد كتْماً وهو غالبه

يستودعُ الليلَ أسرار الغرام وما ... تُمليه أشجـــانه فالدمع كاتبه

لله عصرٌ بشَرْقيّ الحِمى سَمَحت ... بالوصل أوقاته لو عاد ذاهـــبه

يا جيرة أوْدَعوا إذ ودَّعوا حَرَقا ... يُصلى بها من صميم القلب ذائبُه

---

(١) ما بين الحاصرتين منقول من نفح الطيب . وقد ورد مكانه في المخطوطين (ذلك السلطان) .

(٢) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٣) أورد لنا المقرى في «نفح الطيب» ترجمة أبي القاسم البرجي نقلا عن كتاب «الإحاطة» . وقد وردت بها بعد كلمة «شعره» النبذة المسطورة ، ثم القصيدة الكبيرة التي نظمها البرجي في مديح الرسول ، وهي تحتوي على اثنين وثمانين بيتاً . وهذا كله ساقط في المخطوطين . ومن ثم فقد اعتمدنا في نقلهما على «نفح الطيب» (ج ٣ ص ٤٤٢ — ٤٤٥) .

يا هل ترى تجمع الأيّام فُرْقتنا ... كعهدنا أو يردُّ القلبُ ساكبَه
ويا أُهَيل وِدادى والنوى قذفٌ ... والقربُ قد أُبهمت دونى مذاهبُه
هل ناقض العهدَ بعد البُعْد حافظُه ... وصادع الشمل يوم الشعب شاعِبُه
ويا ربوع الحِمَى لازلت ناعمةً ... يبكى عهودَكِ مُضْنَى الجسم شاحبُه
يا مَن لقلبٍ مع الأهواء مُنعطفٌ ... فى كل أوْبٍ له شوقٌ يُجاذبه
يسمو إلى طَلَب الباقى بهمَّته ... والنفس بالمَيْل للفانى تطالبُه
وفتنة المرء بالمألوف مُعْضِلة ... والأُنس بالإلف نحو الإلف جاذبُه
أبكى لعهد الصِّبا والشَّيب يضحك بى ... يا للرجال شَبَت جَدّى ملاعبه
ولن ترى كالهوى أشجاه سالفُه ... ولا كوعد المُنى أحلاه كاذبُه
وهِمّةُ المرء تُغليه وتُرخِصه ... من عزَّ نَفْساً لقد عزَّت مطالبه
ما هان كسبُ المعالى أو تناوُلُها ... بل هان فى ذاك ما يلقاه طالبُه
لولا سُرى الفَلَك السَّامى لما ظهرت ... آثارُه ولما لاحت كواكبه
فى ذمَّة الله رَكبٌ للعلا رَكِبوا ... ظَهْر السُّرى فأجابتهم نجائبُه
يرمون عَرْض الفلا بالسَّير عن غرض ... طَىَّ السِّجل إذا ما جدَّ كاتبه
كأنهم فى فؤاد الليل سرُّ هوًى ... لولا الضِّرام لما خفَّت جوانبه
شدُّوا على لهبِ الرَّمضاء وطْأتَهم ... فغاص فى لُجّة الظَّلماء راسبُه
وكلَّفوا الليل من طول السُّرى شططاً ... فخلَّفوه وقد شابَتْ ذوائبه
حتى إذا أبْصَرُوا الأعلام ماثلة ... بجانب الحُرَم المحمىُّ جانبه
بحيث يأمن من مَوْلاه خائفُه ... من ذنبه وينال القصدَ راغبه
فيها وفى طِيبة الغرَّاء لى أمل ... يصاحب القلبَ منه ما يصاحبه
لم أنس لا أنس أياماً بظلّهما ... سَقَى ثراه عميمُ الغيث ساكبُه
شوقى إليها وإن شطَّ المزار بها ... شوقُ المقيم وقد سارت حبائبه

إن ردّها الدهر يوماً بعد ما عبِثت ... فى الشّمل منا يداه لا نعاتبه
معاهدٌ شرُفت بالمصطفى فلها ... من فضله شرفٌ تعلو مراتبه
محمد المجتبَى الهادى الشَّفيع إلى ... ربٍّ العباد أمين الوحى عاقبُه
أوْفى الورى ذمماً أسماهم هِمماً ... أعلاهم كرماً جلّت مناقبه
هو المُكمّل فى خَلْق وفى خُلُق ... زَكَت حُلاه كما طابت مناسبه
عنايةٌ قبل بدء الخلق سابقة ... من أجلها كان آتيه وذاهبه
جاءت تُبَشّر نا الرُّسُلُ الكرام به ... كالصبح تبدو تباشيراً كواكبه
أخباره سرُّ عِلْمِ الأوّلين وسل ... بدَيْرِ تَيْماء ما أبداه راهبُه
تطابق الكونُ فى البُشْرى بمولده ... وطبّق الأرض أعلاماً تجاوبه
فالجنُّ تهتف إعلاناً هواتفه ... والجنُّ تقذف إحراقاً ثواقبُه
ولم تزل عصمة التأييد تكنِفُه ... حتى انجلى الحقُّ وانزاحت شوائبه
سرى وجنح ظلام الليل مُنْسدل ... والنَّجم لا يهتدى فى الأفق ساربُه
يسمو لكل سماء منه منفرد ... عن الأنام وجبرائيل صاحبه
لمُنْتهى وَقَفَ الرُّوح الأمين به ... وامتاز قُرباً فلا خَلْقٌ يُقاربه
لقابَ قوسين أو أدنى فما علمت ... نَفْسٌ بمقدار ما أولاه واهبه
أراه أسرار ما قد كان أوْدعه ... فى الخَلْق والأمرِ باديه وغائبه
وآب والبدرُ فى بحر الدُّجى غرِقٌ ... والصبح لمّا يؤب للشرق آيبُه
فأشرقت بسَناه الارضُ واتّبعت ... سُبُل النجاة بما أبدت مذاهبه
وأقبل الرُّشد والتاحت زواهره ... وأدْبَر الغىُّ فانجابت غياهبه
وجاء بالذكر آياتٍ مفصلةً ... يهدى بها من صراط الله لاحبُه
نورٌ من الحِكَم لا تخبو سواطعه ... بَحْرٌ من العلم لا تفْنى عجائبُه
له مقام الرِّضا المحمود شاهده ... فى موقف الحَشْر إذ نابت نوائبه

والرُّسل تحت لواء الحمد يقدُمُها   محمدٌ أحمد السامى مراتبه
له الشفَّاعات مقبولاً وسائلها   إذا دهى الأمر واشتدت مصاعبه
والحوض يروى الصَّدى من عَذْب مورده   لا يشتكى غُلَّة الظمآن شاربه
محامد المصطفى لا ينتهى أبدا   تَعْدادُها هل يعُدُّ القَطْر حاسبه
فضلٌ تكفل بالدَّارين يوسِعُها   نُعْمى ورُحْمى فلا فضلٌ يناسبه
حسبى التوسُّل منها بالذى سَمَحت   به القوافى وجلَّتها غرائبه
حيَّاه من صلوات الله صَوْبُ حياً   تُحْدِى إلى قبره الزَّاكى نجائبه
وخلَّد الله مُلْك المستعين به   مؤيد الأمر منصوراً كتائبهُ
إمام عدل بتقوى الله مشتمل   فى الأمر والنهى يُرضيه يُراقبه
مسدَّدُ الحُكْم ميمونٌ نقيبتهُ   مُظَفَّر العزم صِدْق الرأى صائبه
مشمِّرٌ للتُّقى أذيال مجتهد   جرَّارُ أذيال سحب الجود ساحبه
قد أوسعَت أمل الرَّاجى مكارمُه   وأحسَبت رغبة العافى رغائبه
وفاز بالأمن مجبوراً مسالمه   وباء بالخزى مقهوراً مُحاربه
كم وافدِ آملٍ معهودَ نائله   أثنى وأثنَت بما أولى حقائبهُ
ومستجير بعزٍّ من مَثابته   عزَّت مراميه وانقادت مآربه
وجاءه الدهر يَسْترضيه مُعتذراً   مُستغفراً من وقوع الذنب تائبه
لولا الخليفةُ إبراهيم لانبهمت   طرق المعالى ونال الملك غاصبهُ
سَمَتْ لنيل تراث المجد همَّتُه   والملكُ ميراث مجدٍ وهو عاصبه
يُنميه للعزِّ والعَلْيا أبو حسن   سَمْح الخلائق محمودٌ ضرائبه
من آل يعقوب حَسْبُ الملك مفتخراً   بباب عزِّهم السامى تعاقُبه
أطواد حِلْمٍ رسا بالأرض مُحتِدُه   وزاحت مَنْكِب الجوزا مناكبُه
تحفها من مَرِين أبحرٌ زَخَرَت   أمواجها وغمامٌ ثار صائبه

بكل نجم لدى الهيجاء ملتهبٌ ينقضُّ وسط سماء النقع ثاقبه
أكُفُّهم فى دياجيها مطالعُهُ وفى نُحُور أعاديهم مغاربُهُ
يا خير من خَلَصت لله نيَّتُه فى المُلْك أو خَطَب العلياء خاطبه
جرّدت والفتنةُ الشَّعواء مُلْبِسة سيفاً من العزم لا تنبو مضاربه
وخُضْتَها غير هيّاب ولا وَكِلٍ وقلما أدرك المطلوب هائبه
صبَّرت نفساً لعُقْبي الصبر حامدةً والصبر مذ كان محمودٌ عواقبه
فليَهْنِ دينُ الهدى إذ كنت ناصِرهُ أمنٌ يواليه أو خوفٌ يجانبه
لا زال ملكك والتأييد يخدمه تقضى بخفض مُناويه قواضبُهُ
ودمتَ فى نِعَم تضفوا ملابسُها فى ظلّ عزٍّ علاً تصفو مشاربه
ثم الصلاة على خـــير البرية ما سارت إليه بمشتاق ركائبه][(١)]

ومن شعره ما قيّده لى بخطه صاحب قلم الإنشاء بالحضرة المَرينية[(٢)]، الفقيه الرئيس الصدر المتفنن [أبو زيد بن خلدون][(٣)].

صحا القلب عما تعلمين فأقْلَعا[(٤)] وعطّل من تلك المعاهد أرْبُعا
وأصبح لا يلوى على حدِّ منزل ولا يَتْبع الطّرف الخِليّ المُودِّعا
وأضحى من السُّلوان فى حِرز مَعْقِل بعيدٌ على الأيام أن يتَضَعضعا
[يرد الجفان النُّجْل عن شُرُفاته وإن لحظت عن كل أجْيَد أتْلَعا][(٥)]

---

(١) إلى هنا تم ما نقلناه عن «نفح الطيب» مما نقله بدوره عن «الإحاطة» فى ترجمة أبى القاسم البرجى خاصاً بشعره ، وهو كذلك مما دونه ابن الخطيب بكتابه «نفاضة الجراب» . وكل ذلك حسبما قدمنا ساقط فى مخطوطى «ج» و«الزيتونة» . ونعود بعد ذلك لاستئناف النقل عن المخطوطين .

(٢) الحضرة المرينية أو حاضرة بنى مرين ، هى ضاحية مدينة فاس المسماة «بالبلد الجديد» .

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط فى «ج» . ووارد فى «الزيتونة» والنفح .

(٤) هكذا فى «ج» والنفح . وفى «الزيتونة» (فأقنعا)

(٥) هكذا ورد هذا البيت فى « النفح » . وقد ورد محرفا فى المخطوطين على النحو الآتى :
(يرى الحيوان الحل من شرفاته وإن لحظت عن كل أجيد املعا — ملعد)

عزيز على داعي الغرام انقيادُه ... وكان إذا ناداه[1] للوَجْد أهْطَعا
أهاب به للشَّيب أنصحَ واعظٍ ... أصاخ له قلباً مُنيباً ومَسْمعا
وسافر فى أفق التفكر والحِجا ... زواهرُه لا تبرح[2] الدهر طُلَّعا
لعمرى لقد انضَيْتُ[3] عزمى تطلُّباً ... وقضيت[4] عُمْرى رُقْبة وتطلعا
وخُضْت عُباب البحر أخضرمُزْبدا ... ودُسْت أديم الأرض أغْبرَ أسْفعا

ومن شعره حسبما قيده المذكور :

نهاه النُّهَى بعد طول التجارب ... ولاح له منهج الرُّشد لاحِب
وخاطبه دهْره ناصحاً ... بألسنة الوعظ من كل جانب
فأضحى إلى نصحه واعياً ... وألغَى حديث الأمانى الكواذب
وأصبح لا تَسْتبيه الغوانى ... ولا تَزْدريه حظوظُ المناصب

وإحسانه كثير فى النظم والنثر ، والقُصار والمطولات . واستعمل فى السفارة إلى ملك مصر [وملك][5] قَشْتالة ، وهو الآن قاضى مدينة فاس ، نسيجُ وحده ، فى السلامة والتّخصيص ، واجتناب فضول القول والعمل ، كان الله له .

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد ابن يوسف [بن محمد][6] الصَّريحى

يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن زَمْرك . أصله من شرق الأندلس ، وسكن سلفهُ رَبَض البَيّازين من غرناطة ، وبه[7] وُلد ونشأ ، وهو من مفاخره[8] .

(١) وردت فى «ج» أنداه . والتصويب من «الزيتونة» والنفح .
(٢) هكذا وردت فى «ج» و «النفح» . وفى «الزيتونة» (يرتجى) .
(٣) هكذا فى «الزيتونة» والنفح وفى «ج» أمضيت (٤) هكذا فى «ج» و «النفح» وفى «الزيتونة» وقطعت
(٥) الزيادة من النفح . (٦) هذه الزيادة فى النسبة واردة فى «الزيتونة» .
(٧) هكذا فى «ج» والنفح . وفى «الزيتونة» (وبها) .. والظاهر أن الإحالة هنا على غرناطة .
(٨) هكذا فى «ج» والنفح . وفى «الزيتونة» (مفاخرها) . والإحالة هنا على غرناطة .

حاله

هذا الفاضل صدر من صدور طلبة الأندلس وأفراد نُجبائها ، مختصٌ ، مقبول، هشٌ ، خَلوب، عذب الفكاهة، حلو المجالسة حَسن التوقيع ، خفيف الروح، عظيم الانطباع ، شَرِه المذاكرة، فَطِن بالمعاريض ، حاضر الجواب، شُعْلة من شعل الذكاء ، تكاد تَحْتَدم(١) جوانبه ، كثير الرقة، فكِه ، غَزِل ، مع حياء وحشمة ، جوادٌ بما فى يده ، مشارك لإخوانه . نشأ عفّاً ، طاهراً ، كَلِفا بالقراءة ، عظيم الدُّؤوب ، ثاقب الذهن ، أصيل الحفظ ، ظاهر النبل ، بعيدٌ مدى الإدراك، جيِّد الفهم ، فاشتهر فضله ، وذاع أرَجُه(٢)، وفشا خبره ، واضطّلع بكثير من الأغراض، وشارك فى جُملة(٣) من الفنون ، وأصبح [مُتَلَقِّف كُرَة](٤) البحث، وصارخ الحَلْقة(٥) وسابق الحَلْبة ، ومظنّة الكمال . ثم ترقى [فى](٦) دَرَج(٧) المعرفة والاضطّلاع ، وخاض لجّة الحفظ ، وركض قلم التّقييد والتّسويد والتعليق، ونصب نفسه للناس ، متكلماً فوق الكرسى [المنصوب](٨) وبين الحَفْل المجموع ، مُستظهِرا بالفنون التى بُعد فيها شأوُه ، من العربية والبيان واللغة ، وما يقذف به [فى] لُج النقل ، من الأخبار والتفسير . متشوِّفاً مع ذلك ، إلى السُّلوك ، مصاحباً للصُّوفية ، آخذاً نفسه بارتياضٍ ومجاهدة ، [ثم عانى الأدب ، فكان أمْلَك به ، وأعمل الرِّحلة

(١) هكذا فى «ج» والنفح . وفى «الزيتونة» (تنحرم) وهو تحريف .

(٢) وردت فى المخطوطين (رجله) والتصويب من النفح .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى النفح (كثير) .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . وقد وردت محرفة فى المخطوطين كالآتى (متقلب من كثرة)

(٥) هكذا وردت فى «ج» وفى النفح . ووردت فى «الزيتونة» (الحلقة) .

(٦) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٧) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» والنفح (درجة) والأولى أرجح .

(٨) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى النفح .

فى طلب العلم](١) والازدياد ، وترقّى إلى الكتابة ، عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب ، أبى سالم إبراهيم ابن أمير المسلمين أبى الحسن على بن عثمان ابن يعقوب ، ثم عن السلطان ، وعرف [فى] باب الإجادة . ولما جرت الحادثة على [السلطان](٢) صاحب الأمر بالأندلس ، واستقرّ بالمغرب ، أُنس به ، وانقطع إليه ، وكرَّ صحبة رِكابه ، إلى استرجاع حقه ، فَلُطف منه محلُّه ، وخصَّه بكتابة سرِّه . وثابت الحال ، ودالت الدولة ، وكانت له الطايلة (٣)، فأقرَّه(٤) على رسْمِه، معروف الانقطاع والصّاغية ، كثير الدالة ، مضطّلعا بالخُطَّة ، خطًّا وإنشاءً ولسْناً ونقْداً ، فحسُن منابُه ، واشتهر فضله، وظهرت مشاركته ، وحسُنت وساطته(٥) ووَسِع الناس تخلُّقه ، وأرضى السلطان حُمْله(٦) ، وامتد فى ميدان النثر والنظم باعُه ، فصدر عنه [من المنظوم](٧) فى أمداحه ، قصائد [بعيدة الشَّأو](٨) فى مَدَى الإجادة ، حسبما يشهد بذلك ، ما تضمَّنه اسم السلطان أيّده الله فى أول حرف الميم ، فى الأغراض المتعددة من القصائد والميلاديّات ، وغيرها . وهو بحاله الموصوفة [إلى الآن](٩) . أعانه الله وسدده .

شيوخه

قرأ العربية على الأستاذ رُحلة الوقت (١٠) فى فنّها أبى عبدالله بن الفخّار [ثم](١١)

---

(١) ما ورد بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين . ووارد فى النفح .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين وواردة فى النفح .

(٣) وردت فى المخطوطين (طايلة) . والتصويب من النفح .

(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى «النفح» . ووردت فى «ج» (فأقر له) وهو تحريف .

(٥) هكذا فى «ج» والنفح . ووردت فى «الزيتونة» (واسطته) .

(٦) هكذا وردت فى «الزيتونة» والنفح . ووردت فى «ج» (جملة) .

(٧) هذه العبارة واردة فى النفح . وساقطة فى المخطوطين .

(٨) هذه العبارة واردة فى «ج» وفى النفح . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٩) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى النفح (إلى هذا العهد) .

(١٠) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» . وفى النفح (المغرب) .

(١١) الزيادة من النفح .

على إمامها القاضي الشريف ، إمام الفنون اللِّسانية ، أبي القاسم محمد بن أحمد الحسني ، والفقهَ والعربية على الأستاذ المفتي[1] أبي سعيد بن لُب ، واختص بالفقيه الخطيب الصَّدر المحدِّث أبي عبد الله بن مرزوق ، فأخذ عنه كثيراً من الرِّواية ، ولقي القاضي الحافظ أبا عبد الله المقَّري عندما قدم رسولا إلى الأندلس وذاكره ، وقرأ الأصول [الفقهية][2] على أبي على منصور الزَّواوي ، وروى عن جملة ، منهم القاضي أبو البركات بن الحاج ، والمحدِّث أبو الحسن بن التلمساني ، والخطيب أبو عبد الله بن اللوشي ، والمقرىء أبو عبد الله بن بيبش . وقرأ بعض الفنون [العقلية][3] بمدينة فاس على الشَّريف الرُّحلة الشهير أبي عبد الله [العَلَوى][4] التِّلمساني [واختص به اختصاصاً لم يخلُ فيه من إفادة مران ، وحُنكة في الصِّناعة][5] .

شـــــعره

وشعره مترام إلى نمَط[6] الإجادة ، خفاجي[7] النَّزعة ، كَلِف بالمعاني البديعة ، والألفاظ الصَّقيلة ، غزير المادة . فمنه في غرض النَّسيب :

رضيتُ بما تَقْضي عليَّ وتحكُم ⁂ أُهان فأقصى أم أُصافى فأُكرَم
إذا كان قلبي في يديك قيادُه ⁂ فمالي عليك في الهوى أتحكَّم
على أن رُوحي في يديك بقاؤُه ⁂ بوَصْلك يحيي أو بهجرك يُعدم

---

(١) هكذا وردت في المخطوطين وفي النفح .
(٢) هذه الكلمة ساقطة في المخطوطين . وواردة في النفح .
(٣) الزيادة من النفح . .
(٤) الزيادة من النفح .
(٥) ما بين الحاصرتين وارد في «ج» وفي «النفح» وساقط في «الزيتونة» .
(٦) هكذا وردت في المخطوطين . وفي «النفح» (هدف) .
(٧) وردت في المخطوطين (خفاجيد) . والتصويب من النفح .

وأنت إلى المُشْتاق نارٌ وجنَّة ... ببُعدك يَشْقى أو بقُربك ينْعم
ولى كَبِد تَنْدى إذا ما ذُكِرتم ... وقلبٌ بنيران الشوق[1] يتَضَرَّم
ولوكان مابى منك بالبرق ما سَرى ... ولا استصحب الأنواء تبكى وتبْسم
أراعى نجوم الأُفْق فى اللَّيل مادَجَى ... وأقْرب [من عينىّ للنوم][2] أنجم
ومازلت أخفى الحب عن كل عادل ... وتُشْفى دموع الصَّب ما هو يَكتم
كَسَانى الهوى ثوب السِّقام وإنه ... متى صحَّ حبٌّ المرء لا شىء يسْقم
فيامَنْ له العقل الجميل سجيَّة ... ومن جُود يمناه الحيا يتعلم
وعنه يُروّى الناس كلَّ غريبة ... تُخَطُّ على صفح الزمان وتُرسم
إذا أنت لم تَرحم خضوعى فى الهوى ... فمن ذا الذى يحْنى[3] علىّ ويرحم
وحلمك حِلْمٌ لا يليق بمذنب ... فما بال ذنبى عند حِلْمك يعظُم
ووالله ما فى الحىّ حىٌّ ولم ينل ... رضاك وعمَّته أياد وأنعم
ومن قبل ما طوَّقتنى كل نعمة ... كأنىٍّ وإياها سِوار ومِعْصَم
وفتّحتَ لى باب القَبول مع الرضى ... [يغضُّ الحىُّ طرفى كأنى مُجرم][4]
ولو كان لى نفس تخونك فى الهوى ... لفارقتُها طوعاً وما كنت أندم
وأترك أهْلِى فى رضاك إلى الأسى ... وأُسلم نفسى فى يديك وأسلم
أما والذى أشْقَى فؤادى فى الهوى ... وإن كان فى تلك الشَّقاوة يَنْعُم

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (التشوق) .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (من نوى للعين) . والأولى أنسب للوزن والسياق .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (يحنو) .

(٤) هكذا وردت هذه الشطرة فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» كالآتى : (فابال ذاك الباب دونى مبهم) .

لأنت من قلبي ونزهةُ خاطري ومورد آمالي وإن كنتُ أُحْرَم (١)

[ومن ذلك ماخاطبنى به ، وهى من أول نظمه : قصيدةٌ مطلعها : «أما وانصداع النُّور فى مطلع الفجر » وهى طويلة(٢) . ومن بدائعه التى عَقُم عن مثلها قياسُ قيس ، واشتهرت بالإحسان اشتهار الزُّهد بأُوَيس ، ولم يحل مُجاريه ومُباريه إلا بويح وويس ، قوله فى إعذار الأمير ولدِ سلطانه المنوَّه بمكانه ، وهى من الكلام الذى عُنيت الإجادة بتَذْهيبه وتهذيبه ، وناسب الحسن بين مديحه ونَسيبه :

معاذ الهوى أن أصحبَ القلب ساليا وأن يُشْغل اللوّام بالعذل باليا
دعانى أعْطِ الحبَّ فضل مقادتى ويقضى علىَّ الوجدُ ما كان قاضيا
ودون الذى رام العواذلُ صَبْوَةٌ رَمَتْ بى فى شُعب الغرام المراميا
وقلبٌ إذا ما البرق أوْمض موهِناً قدحتُ به زَنداً من الشوق وارياً
خليلىَّ إنى يوم طارقة النَّوى شَقِيت بمن لو شاء أنعم باليا
وبالخيف يوم النَّفر يا أمْ مالك تخلفت قلبى فى حِبالك عانيا
وذى أشر عَذْب الثَّنايا مخصر يَسْقى به ماء النعيم الأقاحيا
أحُوم عليه ما دَجى الليل ساهرا وأصبح دون لِوِرْد ظمآنَ ضاريا
يضيء ظلام الليل ما بين أضْلُعى إذا البارق النَّجدى وهِنا بدا لِيا

(١) وردت هذه القصيدة فى «ج» ولم ترد فى «نفح الطيب» . ومن جهة أخرى فإن ترجمة ابن زمرك التى ينقلها إلينا المقرى فى نفح «الطيب» من «الإحاطة» تتضمن عدة قصائد طويلة لم ترد فى «المخطوطين» . وقد رأينا أن نتتبع نص الترجمة فى «نفح الطيب» ، وأن نورد من هذه القصائد أجزاء فقط لأنها من المطولات . ثم نعود بعد ذلك فنتتبع نص المخطوطين .

(٢) يقول فى هذه القصيدة بعد أبيات :

لك الله فذ الجلالة أوحد تطاوعه الآمال فى النهى والأمر

أجيرتَنا بالرَّمل والرَّمل منزل ... مضى العيش فيه بالشبيبة حاليا
ولم أر ربعًا منه أقضَى لبانة ... وأشْجَى حمَاماتٍ وأحلى مجانيا
سقت طلَّه الغر الغوادي ونظَّمت ... من القَطْر في جيد الغصون لآليا
أبشكم أنى على النَّأى حافظٌ ... ذِمام الهوى لو تحفظون ذماميا
أناشدكم والحرُّ أوفى بعهده ... ولن يَعْدَم الخير والأحسان جازيا(١)

وورد على السلطان أبي سالم ملك المغرب رحمة الله تعالى عليه وفدُ الأحابيش بهدية من ملك السودان . ومن جملتها الحيوان الغريب المسمى بالزَّرافة ، فأمر من يعاني الشعر من الكُتَّاب بالنظم في ذلك الغرض ، فقال وهي من بدائعه :

لولا تألُّق بارق التِّذكار ... ما صاب واكف دمعي المِدْرار
لكنه مهما تعرَّض خافقاً ... قَدَحت يد الأشواق زَنْد أُواري
وعلى المَشُوق إذا تذكر معهدا ... أن يُغرى الأجفان باستعْبار
أمذكرى غرناطة حلَّت بها ... أيدى السحاب أزِرَّة النُّوار
كيف التخلُّص للحديث وبيننا ... عَرْض الفلاة وطافح زخَّار
وغريبةٌ قطعت إليك على الونى ... بيداً تبيدُ بها همومُ السَّاري
تُنسيه طِيَّته التي قد أمَّها ... والرَّكب فيها ميِّت الأخبار
يقتادُها من كل مُشتمل الدُّجى ... وكأنما عيناه جذوةُ نار
خاضوا بها لُجَج الفَلا فتخلَّصت ... منها خلوص البَدْر بعد سَرار
سَلِمت بسعدك من غوائل مثلها ... وكفى بسعدك حامياً لذمار
وأتتك ياملك الزمان غريبةً ... قَيْد النَّواظر نزهة الأبصار
مُوَشِّيَّة الأعطاف رائقة الحُلى ... رقَمت بدائعها يد الأقدار

(١) تتبع هذه القصيدة في أربعة وثمانين بيتا . وقد وردت في نفح الطيب ج ٤ ص ٢٧٥
. ٢٧٨

راق العيون أديمها فكأنه روض تفتّح عن شقيق بهـــار
ما بين مُبْيَضّ وأصفر فاقع سال اللُّجين به خلال نُضار
يُحكى حدائق نرجس فى شاهق تَنْساب فيه أراقم الأنهار(١)

وأنشد السلطان فى ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب ما فرغ من البنْية الشهيرة ببابه رحمه الله تعالى .

تأمّلَ أطلال الهوى فتألّمــا وسِيما الجوَى والسُّقم منها تعلّما
أخُو زَفْرة هاجت له منه ذكرةٌ فأنجَد فى شُعب العزام وأتْهَما

وأنشد السلطان فى وجهة للصَّيد أعملها ، وأطلق أعنّة الجياد فى ميادين ذلك الطِّراد وأرسلها قوله :

حيّاك يا دار الهوى من دار نوء السِّماك بديمة مِـــدرار
وأعاد وجْـــه رُباك طَلْقاً مشرقاً مُتَضاحكاً بمباسم النُّـــوار
أمذكّرى دار الصَّبابة والهوى حيث الشباب يُرف غُصن نُضار
عاطيّتنى عنها الحديث كأنمـا عاطيتنى عنها كؤوس عُقــار
إيهِ وإن أذكيت نار صَبابتى وقَدَحت زَند الشوق بالتَّذكار
يا زاجر الأظعـــان وهى مشُوقة أشبهتُها فى زَفـــــرة وأُوار
حنَّت إلى نجـد وليست دارها وصَبَت إلى هندِيَّة والقــــار
شاقت به بَرْق الحِمى واعتادها طيفُ الكَرَى بزارها المِزْوار(٢)

ومن شعره فى غير المطولات :

---

(١) تقع هذه القصيدة فى نحو تسعين بيتاً . وقد وردت مع الاختصار فى نفح الطيب ج ٤ ص ٢٧٨ — ٢٨٠ .

(٢) تقع هذه القصيدة فى أربعة وسبعين بيتاً . وقد وردت فى نفح الطيب ج ٤ ص ٢٨٠ — ٢٨٣ . وإلى هنا ينتهى ما أورده نفح الطيب من مطولات ابن زمرك . ومن بعدها نستأنف تدوين نص المخطوطين .

لقد زادني وجداً وأغرى بي الجوى ذبالٌ بأذيال الظلام قد التفّا
تُشير وراء الليل منه [بنانةٌ](١) مُخضَّبة والليل قد حجب الكفّا(٢)
تلوح سناناً حين لا تنفح(٣) الصَّبا وتبدو سواراً حين تُثنى له العَطفا
تطعنُ به ليلا يُطارحني الجوى فآونةً يبـدو وآونة يَخفى
إذا قلت لا يبدو أشال لسانَه وإن قلت [لا يخبو الصَّبابة إذ لفّا](٤)
إلى أن أفاق الصبح من غَمْرة الدجى وأهدى نسيم الروض من طيبة عرفا(٥)
لك الله يا مصباح أشْبَهت مُهجتي وقد شفَّها من لوعة الحب ما شفّا

[ومما ثبت له في صدر رسالة :

أزور بقلبي معهد الأُنْس والهوى وأنهبُ من أيدي النسيم رسائلا
ومهما سألتُ البرق يهفو من الحِمَى يبادره دمعي مجيباً وسائلا
فياليت شعري والأماني تَعَلُّلٌ أيرعى لي الحيُّ الكرام الوسائلا
وهل جِيرَتي الأولى كما قد عَهِدتهم يوالون بالإحسان من جاء سائلا](٦)

ومن أبياته الغراميات(٧) :

فؤادي(٨) قد تملَّكه الغرام ووَجْدي لا يطاق ولا يُرام

---

(١) الزيادة من النفح .
(٢) هذا البيت وارد في «ج» وفي النفح . وساقط في الزيتونة .
(٣) هكذا وردت في «ج» والنفح . ووردت في «الزيتونة» (تنفى) .
(٤) هكذا وردت هذه العبارة في «ج» و «الزيتونة» . ووردت في النفح كالآتي (لا يخفى الضياء به كفا) .
(٥) هذا البيت وارد في «الزيتونة» وفي النفح . وساقط في «ج» .
(٦) لم يرد هذا الشعر في المخطوطين ، ونقلناه عن نفح الطيب .
(٧) هكذا وردت هذه العبارة في «ج» وفي النفح . ووردت في «الزيتونة» كالآتي (ومنه مثل ذلك) .
(٨) هكذا وردت في «ج» والنفح وفي «الزيتونة» (فؤادي) .

ودمعى دونه صوب الغَوادى	وشَجْوى فوق ما يَشْدو الحمام
إذا ما الوَجْد(١) لم يَبْرح فؤادى	على الدُّنيا وساكنها السّلام

وفى غرض يظهر من الأبيات :

ومُشْتمل بالحسن أحْوى مهفهف	قضى رجعُ طَرْفى من محاسنه الوَطر
فأبصرت(٢) أشباه الرياض محاسناً	وفى خدِّه جُرح(٣) بدا منه لى أثر
فقلت لجلاّسى خذوا الحَذَر إنما	به وَصَبٌ من أسهم الغنج والحَوَر
ويا وجنةً قد جاورت سيف لحظه	ومن شأنها تُدمى من [اللاّمح بالبَصَر](٤)
تُخَيل للعينين جُـــرحاً وإنمـا	بدا كَلَف منه على صفحة القمر

ومما يرجع إلى باب الفخر ، ولعمرى لقد صدق فى ذلك :

يا لايمى(٥) فى الجود والجودُ شيمتى	جُبلت على آثارها يوم مولدى(٦)
ذَرينى فلو أنّى أخْـــلَد بالغنى	لـكنتُ ضَنيناً بالذى مَلَكت يدى

ومن مقطوعاته :

لقد علم الله أنّي امـــرؤ	أجرِّر ثوب العفاف القَشيب
فـكم غَمض الدهر أجفـــانه	وفازت قِداحى بوصل الحبيب
وقيل رقيبُك فى غفـــلة	فقلت أخاف الإلـه الرّقيب

---

(١) وردت فى المخطوطين (المجد) . والتصويب من النفح .
(٢) وردت فى المخطوطين (فأبصر) والتصويب من النفح .
(٣) هكذا وردت فى «النفح» . ووردت فى المخطوطين (حسن) والأولى أرجح .
(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى «النفح» ووردت فى المخطوطين (اللحظ و البصر) والأولى أرجح
(٥) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى «النفح» (ألائمة) .
(٦) هكذا وردت فى «الزيتونة» و «النفح» . ووردت فى «ج» (مولود) وهو تحريف .

[وفى مدح كتاب الشِّفا(١) طلبه الفقيه أبو عبد الله بن مرزوق عندما شرع فى شرحه :

ومَسْرَى رِكاب للصَّبا قد وَنَت به ... نجائبُ سُحْب للتراب نزوعها
تسِلُّ سيوف البرق أيدى حُداتها ... فتنهل خوفاً من سَطاها دموعُها

ومنها :

ولا مثل تعريف الشِّفاء حقوقه ... فقد بان فيه للعقول جميعهـــا
بمرآة حُسْن قد جَلَتها يد النهى ... فأوصافه يَلْتاح فيه بديعُهـــا
نجوم اهتداء وللمـداد يُجِنُّهـا ... وأسرار غَيْب واليراع تُذيعها
لقد حُزت فضلا ياأبا الفضل شاملا ... فيُجزيك عن نصح البرايا شفيعُها
ولله ممن قد تصـــدَّى لشرحه ... فلبّاه من غُرِّ المعانى مطيعهـــا
فـكم مُجمل فصَّلت منه وحكمة ... إذا كتَمَ الإدماج منه تُشيعهـــا
محاسن والإحسان يبـدو خلالها ... كما افترَّ عن زَهر البِطاح ربيعها
إذا ما أصُول المرء طابت أرُومةً ... فلا عجب أن أشْبَهتهـا فروعُها
بقَيت لأعلام الزمان تُنيلهـــا ... هُدًى ولأحداث الخطوب تَرُوعها](٢)

ومما امتزج فيه نثره ونظمه ، وظهر فيه أدبه وعلمه ، قوله يخاطبنى جواباً عن رسالة خاطبت بها الأولاد ، وهم مع مولانا أيده الله بالمُنَكَّب :

مالى بحمل الهوى يدان(٣) ... من بعد ما أعوز التَّدانى
أصبحت أشكو من زمان ... ما بتُّ منه على أمان

(١) هو كتاب «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» وهو أشهر كتب الحافظ الفقيه القاضى عياض بن موسى السبتى المتوفى بمراكش سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) .

(٢) تقع هذه القصيدة فى عشرين بيتاً . وهى غير واردة فى المخطوطين ، وقد وردت فى النفح (ج ٤ ص ٣٨٤) .

(٣) هكذا وردت فى . «الزيتونة» وفى «ج» (يدانى) .

ما بال عينيــك تسجُمان والدمع يرفضُ كالجمان
ناداك والإلفُ عنك وانٍ والبعد من بعده كوان
يا شُقّة النفس من هوان لُجج(١) فى أبْحُر الهوان
لم يُثن عن هــواك ثان يا بغية القلوب قد كفانِ

يا جانحة الأصيل ، أين يذهب قرصُك المذهّب ، وقد ضاق بالشوق المَذْهب . أمْسَت شموس [الأنس](٢) محجوبة عن عينى ، وقد ضرب البُعد الحجاب بينها وبينى . وعلى كل حال . من إقامة وارتحال . فما تحَلك من قلبى محلا بينها . وما كنت لأقنع من وجهك تخيُّلا وشبيهاً . ومن أين انتظمت لك عقول التَّشبيه واتَّسقت ، ومن بعض للواقع والشمس لو قطعت(٣) . صادك مَنْذور ، وأنت تتجمل بثَوْبى زُور ، وجيبُ الظلام على دينارك حتى الصباح مَزرور ، ووراءك من الغُروب غريمٌ لا يرحم ، ومُطالب تُتقلب منه فى كفه المطالب . ويا برْق الغمام من أى حجاب تبتسم ، وبأى صبح تَرْتسم ، وأى غفُل من السحاب تَسِم . ألبَسَت مباسم الثغور لا تُنجد بأفق ولا تغور . هذا وإن كانت مباسمُك مُساعدة ، والجوُّ مُلبس لها من الوُجوم شعاراً ، فلطالما ضحكت فأبكت الغوادى ، وعقَت الرايح والغادى . أعوذ بواشِم البروق ، بنواسم الطَّفَل والشروق ، ذوات الزايرات المتعددة الطُّروق ، فهى التى قطعت وهاداً ونجادا ، واهتدت بسيف الصباح من السحاب قُرابا . ومن البروق نجادا ، واهتدت خير الذين أحبُّهم مُسْتَطرفاً مُستَجاداً ، فعالها ولعلها . والله يَصِل فى أرض الوجود نَهْلها وعلَّها ، وأن يُبل ظَمِين الشوق بنسيمها البليل ، وأن نعوضه من نار الغَليل بنار الخليل ، وخير طبيب يداوى الناس وهو عليل . فشكواى إلى الله لا أشكو

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» ، (يحج) وهو تحريف .
(٢) أضيفت هذه الكلمة ليستقيم المعنى والسياق .
(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (نطقت) والأولى أرجح .

إلى أحد . هل هو إلا فرد تَسْطو رياح الأشواق على ذُبالته ، وعُمر الشوق قد شبَّ على الطَّوْق ، ووهب الجمع للفرق ، ولم يقنع بالمشاهدة بالوصف دون الذَّوق . وقاب تُقسم أحشاؤه الوَجْد ، وقَسَمُ بالَه الغَوْر والنَّجْد . وهوم متى وردت قُلَيْب القاب، لم تَبْرح ولم تُعَد ، فلله الأمر من قبل ومن بعد .

أستغفر الله ياسيدى الذى يوقد(١) أفكارى حلوُ لقائه ، وأتنسَّم أرواح القبول من تلقايه . وأسأل الله أن يُديم لى آمالى(٢) بدوام بقايه . إن بعُد مداه ، قربت منَّا يَداه ، وإن أخطأنا رِفْدُه أصبْنا نَداه . فثمرات آدابه الزُّهر تجيء إلينا ، وسحايب بَنانه الغُرّ تُصوِّب دوالينا أو علينا ، على شَحَط هواه ، وبُعد منتواه . ولا كرسالة سيدى الذى عمَّت فضايله وخصَّت ، وتلت على أولياء نعمته أنباء الكمال وقصَّت ، وآى(٣) قضى كل منها عجبا ، ونال من التماح غُرَّتها واجْتِلاء صفحتها أرَباً . فلقد [كرُمت عنه](٤) بالاشتراك فى بُنوَّته الكريمة نَسَباً ، ووصلتُ لي بالعناية [منه](٥) سبباً . تولى سيدى خيرك من يتولى خير المحسنين ، ويُجزل شكر المُنْعِمين . أما ما تحدَّث به من الأغراض البعيدة العَذِيبة ، وأخبر عنه من المعانى الفريدة العجيبة ، والأساليب المُطيلة ، فيعجز عن وصفه ، وإحكام رَصْفه ، القلمُ واللسان ، ويعترف لها بالإبْداع المستولى على أمد الإحسان البديع وحسَّان . ولقد أجهدت جِياد الارتجال ، فى مجال الاستعجال ، فما سمحت القريحة إلا بتوقُّع الآجال ، وعادت من الإقدام إلى الكلال . فعلمت أن تلك الرسالة الكريمة : من الحق الواجب على مَنْ قرأها وتأملها ، أن لا يجرى فى لُجة من

---

(١) وردت فى «ج» (ترقدن) . وفى «الزيتونة» (توقدون) . وبالتصويب يستقيم المعنى .
(٢) وردت فى المخطوطين (مالى) . وهو تحريف ظاهر .
(٣) وردت فى «ج» (وألوان) . والتصويب من «الزيتونة» .
(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى «الزيتونة» . ووردت فى «ج» (لابت عني) .
(٥) إضافة يقتضيها السياق .

ميادينها ، ويديم يراع سيدى الإحسان كرينها . لا كن على أن يفسح الرياض للقَصِى مدى ويقتدى بأخلاق سيدى التى هى نُور وهُدى . فإنه والله يبقيه ، ويقيه مما يتَّقيه ، بعد ما أعاد فى شكوى البَيْن وأبدى ، وتظلم من البعد واستَعْدى[1] ، ورفع حكم العِتاب عن ذوات النّسيم والانتِعاب ، ورعى وسيلة ذكرها فى مُحْكم الكتاب . وولّى فضله ما تولّى ، وصرف هواه إلى هوى المولى أن صُور[2] السعادة على رأيه ، أيده الله تُجلّى ، وثمرة فكره المقدس ، أيده الله تتَحلّى . شكر الله له عن جميع نِعمه التى أولى ، وحفظ عليه مراتب الكمال التى هو الأحق بها والأولى . وقد طال الكلام ، وجَمحت الأقلام . ولسيدى وبركتى الفضل ، أبقى الله بركته ، وأعلى فى الدارين درجته ، والسلام الكريم يخصكم ، من مملوككم ابن زَمرك ، ورحمة الله وبركاته ، فى الخامس عشر لجمادى الأولى عام تسعة وستين[3] .

وخاطبنى كذلك ، وهو من الكلام المرسل : أبو ممار فى ، وولىُّ نعمتى ، ومعيد جاهى ، ومقوِّمُ كالى ، ومَوْرد آمالى ، ممن توالى نعمه علىّ ، ويتوفر قسمه لدى ؛ وأبوء له بالعجز عن شكر أياديه التى أحيت الأمل ، وملأت أكُفَّ الرغبة ، وأنطقت الحدايق ، فضلا عن اللسان ، وأياديه البيض وإن تعددت ومِنَنُه العميمة ، وإن تجدَّدت ، تقصر عن إقطاع أسمى شرف المجلس فى الروض المطاور بيانه . فماذا أقول ، فيمن صار مؤثراً إلى بالتقديم ، [جالياً صورة][4] تشريفى ،

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (استدعا) . والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (سور) .

(٣) وردت فى المخطوطين (وسبعين) ، وهو تحريف ظاهر ، متى ذكرنا أن ابن الخطيب قد توفى سنة ٧٧٦ هـ .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . ووردت محرفة فى «الزيتونة» (جانبا سورة) .

بالانتساب إليه فى أحْسَن التقويم . . . [١] وإنى ثالث اثنين أتشرف بخدمتها ، وأسحب فى أذيال نعمتها .

خليلىَّ هل أبصرتما أو سمعتما بأكرم من تمشّى إليه عبيده

اللهم أوْزِعنى شكر هذا المُنعم ، الذى أثقَلَت نعمه ظهر الشكر ، وأنهضت كمال[٢] الحمد ، اللهم أدم بجميع حياته ، وأمتع بدوام بقايه الإسلام والعباد ،وأمسك بيُمن آرائه رَمَق ثغر الجهاد . يا أكرم مسئول ، وأعزّ ناصر . تفضل سيدى ، والفضل عادته ، بالتعريف بما يقرُّ عين التطلّع[٣] ويقنع غُلّة التشوُّف . ولقد كان المماليك لما مَثُلنا بين يدى مولانا ، أيده الله ، لم يقدم عملا عن السؤال [ولا][٤] عن الحال ، إقامةً لرسم الزيارة ، وعملا بالواجب ، فإننى أرى الديار بطرفى ، فعلى أن أرى الديار بعينى ، وعلى ذلك يكون العمل إن شاء الله . وإن سأل سيدى شَكَرَ الله احتفاءه ، وأبقى اهتمامه ، عن حال المماليك ، من تعب السفر ، وكدّ الطريق ، فهى بحمد الله دون ما يظن . فقد وصلنا المُنسكَب تحت الحفظ والكلاءة ، مُحْرزين شرف المساوقة ، لمواكب[٥] المولى ، يمَّن الله وُجْهته ، وكتب عِصْمته ، واستقرَّ جميعنا بمحل القَصَبة ، وتاج أهبتها ، ومهبّ رياح أجرايها ، تحت النعم الثرّة ، والأُنس الكامل الشامل . قرّب الله أمد لقايكم ، وطلع على ما يسرُّ من تلقايكم . ولما بلغنا هذه الطّيّة ، وأنخنا المطيَّة ، قمنا بواجب تعريفكم على الفور بالأدوار ، ورفعنا مخاطبة المالك على الابتدا . والسلام .

مولده : فى الرابع عشر من شوال ثلاث وثلاثين وسبعمائة .

[انتهى السفر السادس هنا . والحمد لله ربّ العالمين]

---

(١) كلمة غير مقروءة .
(٢) هكذا فى «الزيتونة» . وفى «ج» (كامل) .
(٣) هكذا فى «الزيتونة» . وفى «ج» (المتطلع) . والأولى أرجح وأكثر تمشياً مع السياق .
(٤) ساقطة فى «ج» . وواردة فى «الزيتونة» .
(٥) هكذا فى «ج» . و«الزيتونة» (لمراكب) . والأولى أرجح .

ومن السفر السابع المفتتح بقوله

ومن الطّارئين منهم فى هذا الباب *

محمد بن أحمد بن محمد بن أبى خيثمة الجبّانُى

سكن غرناطة يكنى أبا الحسن

حـــاله

كان مبرّزاً فى علوم اللسان نحواً ولغةً وأدباً، متقدما فى الكتابة والفصاحة، جامعاً فنون الفضائل، على غَفْلة كانت فيه .

مشيختــه

روى عن أبى الحسن بن سهل، وأبى بكر بن سابق، وأبى الحسن بن الباذِش، وأبى على الغسانى وغيرهم . وصحب أبا الحسن بن سِراج صحبة مُواخاة .

تواليفه

صنّف فى شرح غريب البخارى مصنّفا مفيداً .

توفى ليلة الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة أربعين وخمس ماية .

محمد بن أحمد بن عبد الله بن أحمد الإستجّى الحميرى

من أهل مالقَة، وأصله من إسْتِجّة(1)، انتقل سلفه إلى مالقة، يكنى أبا عبد الله .

(*) هنا يبدأ مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ ديرنبور .

(١) هى بلدة أندلسية متوسطة تقع على ضفة نهر شنيل فرع الوادى الكبير، جنوب بحرى غربى قرطبة وبالإسبانية Ecila .

حـــاله

كان من جملة[١] حَمَلة العلم، والغالب عليه الأدب، وكان من أهل الجلالة، [ومن بيت علم ودين][٢]. أقرأ ببلده، وقعد بالجامع الكبير منه، يتكلم على صحيح البخارى، وانتقل فى آخر عمره إلى غرناطة.

وقال الأستاذ[٣]، كان من أبرع أهل زمانه فى الأدب [نظما ونثرا][٤].

شعـــره

منقولا من خط الوزير الرّاوية أبى محمد عبد المنم بن سماك، وقد ذكر أشياخه فقال: الشيخ المتفنن الأديب، البارع، الشاعر المُفْلق، قرأ على أشياخها، وأقْرَأ وهو دون[٥] العشرين سنة. وكانت بينه وبين الأستاذ المقرى الشهير أبى العباس الملقب بالوَزَعى قرابة، وله قصيدة أولها:

« ما للنسيم لدى الأصيل عليلا »

ومنها:

حتى النسيم إذا ألمّ بأرضهم   خلعوا عليه رقّةً ونُحولا

[وكان يقول: كان الأستاذ أبو العباس، يستعيدنى هذا البيت، ويقول نعم أنت قريبى، وقَدِم على غرناطة أظن سنة تسع وثلاثين وستمائة][٦].

---

(١) هذه الكلمة واردة فى مخطوط الإسكوريال، وساقطة فى المخطوطين.

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال، ووردت فى المخطوطين (من بيت أهل العلم والدين). والأولى أرجح.

(٣) يقصد بها الأستاذ أبو جعفر أحمد بن الزبير، صاحب كتاب «صلة الصلة»، المتوفى سنة ٧٠٨ هـ.

(٤) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال، وفى «ج». وساقطة فى «الزيتونة».

(٥) هكذ وردت فى الإسكوريال. وفى المخطوطين (بن).

(٦) الفقرة الواردة بين الحاصرتين مطموسة وممحاة فى الإسكوريال، وقد نقلناها عن «ج».

محنتـــــه

قال الأستاذ جرى له قصة ، نُقل بعض كلامه فيها ، على بعض أحاديث الكُتّاب من جهة استشهاد أُدبى عليه فيها ؛ غالب أدبه ؛ فأطلق عِنان الكلام ، [وما أكثر مما يضاق فيما يأنفُه ، إدراكات](١) تلك الأفهام . ولكل مَقام مقال . ومن الذى يَسْلم من قيل وقال . وكان ذلك سبب الانقطاع ، ولم يُؤت من قصر باع ، وانتقل إلى غرناطة ، فتوفى فى أثر انقطاعه(٢) وانتقاله .

شعره

من ذلك قوله فى غرض يظهر من الأبيات :

قضوا فى رُبى نَجْد [فنى القلب مرساه](٣) وغَنُّوا إن أبصرتم ثَمَّ مغناه
أما هذه نجـــد أما ذلك الحِمَى فهل عَمِيت عيناه أم صُمت(٤) أذناه
دعوه يُوفى ذِكـــره بانثامه ديون هواه قبل أن يتـــوفاه
ولا تسألوه سَلْوةً فن العَنــا رياضة من قد شاب فى الحب فَوْداه
أيحسَب من أصْلَى(٥) فؤادى بحبه أنى أسْلُو عنــــه حاشاه حاشاه
متى غَدَر الصَّبُّ الكريم(٦) وفَّى له وإن أتلف القلبَ الحزين تلافاه
وإن حَجَروا معنـاه وصَرَّحوا به فإنَّ معناه أحقُّ بمعنـــــاه
وياسابقاً عِيس الغرام سيــوفه وكلٌّ إذا يخشاه فى الحب يخشاه
أرِحْهافقدذابت من الوَجْدوالسُّرى ولم يبق إلا عَظْمها أو بقـــاياه

(١) ما بين الحاصرتين مكانه بياض فى الإسكوريال .
(٢) واردة فى المخطوطين وساقطة فى الإسكوريال .
(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (وفى الحى مرباه) . والأولى أبلغ .
(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى الإسكوريال و«ج» (صم) .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» و«الزيتونة» (أبلى) .
(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (الكئيب) .

ويا صاحبي عُجْ بي على الخيف من مُنًى | وما التعنّي لى من بأنى ألقــاه
وعرِّج على وادى العقيق لعلّنى(١) | أُسايل عمّن كان بالأمس مأواه(٢)
وقل لّليالى قد سَلَفن بعَيْشــه | وعُمْرُ على رغم العذول قطعناه
هل العود أرجوه أم العُمْر ينقضى | فأقضى ولا يُقْضَى الذى أتمنــاه

[ومن شعره أيضاً ، قوله ، رحمه الله :

سَرَت من رُبى نجد مُعطَّرة الرَّيّا | يموت لها قلبى وآونة يحيـــا
تمسح أعطاف الأراك بليـــلة | وتنثر كافوراً على التربة اللّميـا
ومرتد فى حِجْر الرياض مريضـة | فتُحيي بطيب العُرْف من لم يكن يحيا(٣)
وبشّرت بأنفاس الأحِبَّة سحرة | فيسرع دمعُ العين فى إثْرِها جَرْيا
سقى الله دهراً ذِكْره بنعيمــه | فكم لجفونى عند ذِكْراه من سُقْيَا
ملنى مُحيّــاه الأنيق وحُسْنُه | ومن خُلُقٍ قد كنت لا أحمل النأيا
وبى رَشَأ من أهل غرناطة غدا | يجود بتعذيبى ويبخل باللُّقيــا
رمانى فأصابنى بأول نظـــرة | فياعجباً من عِلْم الرَّشَأ الرَّميـا
وبدَّد جســـمى نوره وكأنه | أشمة شمس قابلت جسدى مليًّا
تصوَّر لى من عالم الحُسْن خالصاً | فمَن عجب أن كان من عالم الدنيا
وهمَّ بأن يرقى إلى الحُور جسمه | فثقّلته كُتُباً وحمّلته حَلْيــا
إذا ما انثنى أولاح أوجاح أوْ رنا | سبا القُضْب والأقمار والمِسْك والضيا
رعى الله دهراً كان ينشر وصله | برود طواها البين فى صدره طيّا](٤)

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى المخطوطين (فإننى) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (سكناه) .

(٣) وردت فى المخطوط (فتحيا) وبالتصويب يستقيم السياق .

(٤) هذا الشعر المحصور بين الحاصرتين وارد فقط فى الإسكوريال . وساقط فى المخطوطين .

مشيخته

ومما يشتمل على أسماء شيوخه ، ويدل على تبحُّره فى الأدب ورسوخه ، إجازته أبا الوليد إسماعيل بن تبر الأيادى ، وعندها يقال ، أتى الوادى .

إن لى عند كل نفحة بستان ... من الورد أو من الياسمينا
نظرةٌ والتفاتة أتمنَّى ... أن تكونى حلَلْت فيما تَلِينا

ما هذه الأنوار اللايحة ، والنُّوار الفايحة ، إنى لأجد ريح الحكمة ، ولا مُفَنَّد ، وأرد مورد النعمة ولا مُنْكد(١) ، أمِسْكٌ دارين يُنهب ، أم المَنْدل الرطب فى الغرام المُلْهِب ، أم نَفَحت أبواب الجنة ففاح نسيمها ، وتوضحت أسباب المِنَّة ، فلاح وسِيمُها .

مُحَيَّاك أم نور الصباح تبسَّما ... وريَّاك أم نور الأقاح تنسَّما
فمن شمَّ من ذا نفحة رق شيمةً ... ومن شام من ذا لمحة راق مَبْسِما

أجل خُلق الإنسان من عَجَل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتفهموا أسرار الحِكَم وتعوا ، وإذا رأيتم رياض الجنة فارتَعُوا ، يعنى مجالس الذِّكر ، ومأنَس النظر والفكر ، ومطالع المناظرة ، ومواضع المحاضرة ، فهذه بتلك ، وقد انتظمت الجواهر النبوية فى سِلْك ، ولهان حِمِىَ للعطارة(٢) وطيس ، بين مِسْك المداد ، وكافور القراطيس . فيا أيها المعلم(٣) الأوحد ، والعالم الذى لا تنكر أمامته ولا تُجحد ، حوَّمت على علم الملوك ، ولزمْت بحلم طريق الحكم المسلوك ، فلم تعد أملَ الحكماء ، ولم تَعُد إلا بعمل العلماء ، وقد قال حكيمهم الفاضل

---

(١) هكذ وردت فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (يكند) .
(٢) هكذ وردت فى الإسكوريال وفى «ج» . وفى «الزيتونة» (للمعاطرة) .
(٣) هكذ وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (العلم) والأولى أرجح .

وعظيمهم [الذى لا مُناظر له ولا مُفاضل](١) ، إذا خدمتَ الأمراء ، فكن بين [استلطاف واستعطاف](٢) ، تجْنِ المعارف والعوارف ، دانية القِطاف . فتعلّمهم وكأنك تتعلّم منهم ، وتُرويهم(٣) ، وكأنك تروى عنهم ، فأجريتَ الباب ، وامترَيتَ من العلم اللُّباب ، ثم لم تُبعد ، فقد فعل النحويون ذلك فى يَكرُم ، ويَعِد ، ويَعِزُّ(٤) ، ولا غرو أن تقرأ على من هو دونك . وتَستجيز الإجازة [عن القوم العظام](٥) ، يقصدونك . فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أمره الله بأن يقرأ على أُبيّ [بن كعب](٦) ، [فهل فى حيٍّ الخواطر الذكية من حيّ](٧) ، فقال له رضى الله عنه ، [الله أمرك](٨) أن تقرأ علىّ ، والعناية الرّبانية ، تُنادى إليّ إلىّ ، وإذا قال لى من أحبُّ مولاى ، واستعار لزينته حُـــلاى :

فما على الحبيب من اعتراض — وللطّبيب تصرُّفٌ فى المرُاض
قـــد يَرحل المرء لمطلوبه — والسبب المطلوب فى الرّاحل

عجتَ متواضعاً ، فما أبرمتَ فى معاجك ، ولا ظلمت فى السؤال ، نعجته إلى نعاجك ، فإنه سرُّ الله ، لا يحلُّ فيه الإفشاء ، وحكمةُ الله البالغة ، والله يؤتى

---

(١) هكذ وردت هذه العبارة فى لمخطوطين (ج ، والزيتونة) . ووردت فى الإسكوريال كالآتى (الذى لا يناظر ولا يناضل) . و الأولى أرجح .

(٢) هكذ وردت هذه العبارة فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (استعطاف واستلطاف) . و الأولى أرجح .

(٣) واردة فى الإسكوريال وساقطة فى المخطوطين .

(٤) ساقطة فى الإسكوريال . وواردة فى المخطوطين .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . وفى الإسكوريال مكانها (للاعلام) .

(٦) الزيادة عن المخطوطين .

(٧) هذه الزيادة واردة فى الإسكوريال وفى «ج» . وساقطة فى «الزيتونة» .

(٨) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى المخطوطين (آمرك) . والأولى أرجح .

الحكمة من يشاء ، وإن لبست من التواضع شماراً ، ولبست عن الترفع تنبيهاً[١] على السِّر المكتوم وإشعاراً . فهذه الثريّا من العجايب إذا ارتفعت فى أعلى صعودها ، وأسمى راياتها الخافقه وبنودها . نهايةُ وجودها الحسِّى عدم ، وغاية وصفها الشَّبهى ، أن تُشَبَّه بقدم ، فإذا همَّت بالركوع ، وشمَّت فى المغرب ريح الوقوع ، كان لها من السُّمو القِدْح المُمَلَّى ، وعادت قرطاً تتزين به الآذان وتتحلَّى .

وفى الشرق كأسٌ وفى مغاربها قِرطٌ وفى وسط السماء قـــدم

هذه آثار التواضع متلُوَّة السُّور ، مجلُوَّة الصُّور ، وكان بعضهم إذا أعطى الصَّدقة ، يعطيها ويده تحت يد السَّايل ، وهكذا تُفْهم المسايل . فإنه لما سمِع النبوة تقول ، اليد العليا خير من اليد السُّفلى ، أراد أن يؤثر المقام[٢] الأعلى . ولمـا أعطى أبو بكر ، رضى الله عنه ، ماله كله ، أعطى عُمر رضى الله عنه النصف [من المال] [٣] لا احتياطاً على ماله ، ولـكن ليقِف لأبى بكر فى مقام القصور عن كماله ، تفويضاً وتسليماً ، وتنبيهاً لمن كان له قَلْب وتعليما . ورؤى الدَّارقطنى[٤] [رحمة الله عليه][٥] يحبس أباه[٦] بركابه ، فلا يُنكر عليه ، فقيل له فى ذلك ، فقال رأيته يبادر إلى فضيلة فـكرهت مخالفته .

فوق السماء وفوق الزُّهْر ما طلبوا وإذا ما أرادوا غايـــة نزلوا

وإلى هذا وصل الله حِفْظك ، وأجزل من الخيرات حظَّك ، فإنه وصلتنى الـكرَّاسة المباركة ، الدَّالة على التفنن فى العلوم والمشاركة ، فبينما أنا أتلو الإجازة ،

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى «ج» . وفى «الزيتونة» (شبها) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (بالمقام) . والتصويب من «ج» .

(٣) هذه الزيادة من «ج» .

(٤) هو الحافظ الإمام أبو الحسن على الدارقطنى ، نسبة إلى دار القطن أو دارقطن هى محلة كانت ببغداد ، وكان من أقطاب الفقه الشافعى ، وتوفى سنة ٣٨٥ هـ .

(٥) هذه الزيادة واردة فى الإسكوريال .

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة (أبوه) ، وبالتصويب يستقيم السياق .

وأريق صدور البيان وإعجازه ، أُلقى إلى كتاب كريم ، إنه من أبى الوليد ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، فخِرْت ، ووقفت كأننى سُحِرت ، وقلت ساحران تظاهرا معاً ، وأحدهما قاتلى ، فكيف إذا اجتمعا .

فلو كان رُمحاً واحداً لاتَّقيته[١] ولاكنه رمحٌ وثان وثالث

[ومن لَعِبت بشيمته للثــانى فأحْرَى أن تطير به للثالث][٢]

وطار بى الشوق كل مطار ، وقرأت سماء فكرتى سورة الانفطار ، وكِدْت أصعد إلى السماء توقُّداً ، واختلط بالهواء تودُّدا .

كانت جواهرنا أوايل قبل ذان[٣] فالآن صارت بالتحول ثوان[٤]

وُجدت وراء الحسن وهى كثيفة فوجودهن[٥] الآن فى الأذهان

ولم يكف أن بهُرت بالحُسْن الخلوب ، حتى أُمرت أن أنظم على ذاك الأسلوب ، وبالحرىّ لذلك النثر البديع ، الحريرىّ أو البديع ، ولذلك النَّظم العجيب ، للمُتنبى أو حبيب ، ولذلك التصوف الرقيق ، الحارث بن أسد ذى التحقيق . وأما الحديث ، فما لك تقطع تلك المسالك ، إلا أن العربية[٦] ليس لأحد معه فيها دليل ، أستغفر الله إلا للخليل ، لاكن أصول الدين مجربة ، تركت تلك الميادين . هنّاك

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى «ج» (لاستنيته) . وفى «الزيتونة» (لما التقيته) .

(٢) هذا البيت وارد بمكانه فى «ج» و« الزيتونة » . ولكنه وارد فى الإسكوريال بعد كلمة (الإنفطار) الواردة فى الجملة التالية .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (ذا) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (تبيدان) .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى «ج» . وفى «الزيتونة» (فوجودها) .

(٦) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى المخطوطين .

الله بجمع كل مَنْقَبة جليلة ، فترى الفضيلة لا ترد فضيلة ، فمر الرديف وقد رَكِب غضنفرا ، أو المُدّعى صفة فضل ، وكلُّ الصيد فى جوف الفِرا . من يُزحم[1] البحر يغرق، ومن يُطعم الشجر يَشْرَق . وهل يُبارى التوحيد بمل ، أو يُجارى البُراق بجمل . ذلك انتهى إلى سِدْرة المنتهى . وهل[2] انبرى ليلطم خدَّه فى الثرى . لا تقاس الملايكة[3] بالحدَّادين ، ولا حُكماء يونان بالفدادين . أفى طريق الكواكب يُسلك ، وعلى الفَلَك الأثير يُستملك[4]. أين الغَدُ من الأمس ، وظُلمة الغَسَق من وضَح الشمس . ولولا ثقتى بغمام فضلك الصَّيِّب لتمثلت لنفسى[5] بقول أبى الطيب :

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غُبارى ثم قال له الحق

فإن رضيت أيها العلم ، فما لجرح إذا أرضاكم ألم . [تر][6] كيف أُجارى أعوج بغرب أهْوج وأُجارى ذا العِقال بجحش فى عِقال . ظهر بهذه الظُّلمة ، ذلك الضياء ، وبضدِّها تتبين الأشياء . وما يزكو بياض العاج حتى يُضاف إلى سواد الأبنوس . ألفاظ تذوب رقَّة ، وأغراض تملك حُبَّ الكريم ورِقَّة الزَّهر ، والزَّهر بين بَنان وبيان ، والدرُّ طَوْع[7] لسان وإحسان .

وقالوا ذاك سحرٌ بأهـلى فقلت وفى مكان الهـاء باء

(١) وردت فى الإسكوريال (يرحم) . ووردت فى المخطوطين (يحزم) . ونعتقد أن التصويب أنسب للمعنى .

(٢) وردت فى الإسكوريال (وهذا) . والتصويب من «ج» .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال و«ج» . وفى «الزيتونة» (الملوك) .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . ووردت فى الإسكوريال (يستغلب) . والأولى أنسب للسياق .

(٥) هذه الكلمة واردة فقط فى الإسكوريال .

(٦) هذه الكلمة واردة فى المخطوطين ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٧) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (بين) .

وأما محاسن أبى الوليد ، فيقصر عنها أبو تمام وابن الوليد .

معان لبِسْن ثياب الجمــــال وهزّت لها الغانيات القُــدُودا
كَسَوْن عَبِيداً ثياب عَبِيـــــد وأضحى لبيدُ لديها بليـــداً

وكيف أعجب من إجرايك لهذه الجياد ، وأياديك[1] من إياد . أورِثْت هذه البراعة[2] المساعدة ، عن قسٍّ بن ساعدة . أجدُّك أنت الذى وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ، كأنى أنظر إليه فى سوق عكاظ على جَمَل أوْرَق ، وهو يقول أيها الناس : مطرٌ ونبات ، وآباء وأمهات، إلى قوله :

فى الذاهبـــين الأوَّلين من القرون لنا بصـــائر
لما رأيت موارد للمـــوت ليس لهـــا مصــادر
أيقنت أنِّى لا محـــالة حيث صار القـــوم صائر

إيه بغير تمويه . رجَع الحديث الأول إلى ماعليه المُعوَّل . سألْتَنى أيها السيد الذى يجب إسعافه ، أن أُرغِم[3] أنْفَ القلم حتى يجرى رُعافه ، وأن أُكْحِل جُفون الأوراق بمداد الأقلام ، وأن أجمع الطُّروس والأمِدَّة ، بين إصباحٍ وإظلام ، وأطرِّز بياض النُّوشْن بخضرة الآس ، وأبرز العلم الأبيض تحت راية بنى العباس ، فقلت مبادراً مُمْتَثِلاً ، وجُلْت فى ميدان للموافقة متمثّلاً :

لَبَّيك لَبَّيك أضعافاً مضاعفة إنى أجَبْتُ ولـكن داعىَ الـكرم
آتى من المجد أمرٌ لامَرَدَّ له أمشى على الرأس فيه لا على القَدَم[4]

دعاء والله مُجاب ، ونداء ليس دونه حِجاب

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطات الثلاثة (وإنه أيك — وإذايك) . وبالتصويب يستقيم السياق .
(٢) هكذا الكلمة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى المخطوطين .
(٣) هكذا وردت فى «ج» . ووردت محرفة فى الإسكوريال (أرعك) .
(٤) وردت فى المخطوطين (تقدم) . والتصويب من الإسكوريال .

[كتبت ولو أنى أستطيع لإجلال قدرك بين البشر
قددتُ اليَرَاعة من أنملى وكأنّ المداد سواد البَصَر] [١]

نعم أجزتُ سيدى الفقيه الأجل، الخطيب الأكرم، العالم العَلَم، الأوحد الأكمل، الحسيب الأحفل الأطول، أبا الوليد بن الفقيه الأجل، المعظم[٢] الموقر، المكرم المبارك الأظهر، المرحوم أبى زكريا يحيى بن سعيد[٣] بن قترى الأيادى القَرْمونى[٤]، وبنيه السّادات، النجباء المباركين، أبا القاسم أحمد، وأبا إسحق إبراهيم، وأبا الحسين بتريا[٥]. ونعمت الأغصان والشجرة، والأفنان والثمرة، أقرّ الله بهم أعيُن المجد، ولازالوا بدورا فى مطالع السّعد، ولا برحوا فى مكارم يجنون نُوّارها، ويجْتَلون أنوارها، وتُفيض عليهم [يد][٦] العناية الالاهية نهرها الكَوْثرى ونهارها، جميع مارويتُه، قراءة وسماعا، وإجازة ومناولة من العلوم على اختلافها، وتباين أصنافها، بأى وجه رويته، وعلى أى وصف تقلّدتُه ودريتُه، وكذلك أجزتهم جميع ما قلته وأقوله، من مَسْطور[٧] ومَرْسوم، ومنثور ومنظوم، وتصرّفت فيه من منقول ومفهوم، وقصايدى المسماة بالرّوحانيات، ومُعَشّراتى الحبيبات، وما نظمته من الوَتَريات، وشرحى لشعر أبى الطيب المسمى[٨] «بظهور الإعجاز بين الصدور والأعجاز»،

---

(١) هكذا ورد هذان البيتان فى الإسكوريال. ووردا فى المخطوطين مرسلين على صفة المنثور.

(٢) واردة فقط فى الإسكوريال.

(٣) هكذا وردت فى «ج». وفى الإسكوريال (إسماعيل).

(٤) هكذا وردت فى «الزيتونة». وفى الإسكوريال (القزموفى) وفى «ج» (الفزموفى) والأولى أرجح.

(٥) هكذا وردت فى «ج» والإسكوريال. وهى ساقطة فى «الزيتونة».

(٦) واردة فى الإسكوريال، وساقطة فى المخطوطين.

(٧) واردة فى الإسكوريال، وساقطة فى المخطوطين.

(٨) واردة فى الإسكوريال، و«الزيتونة»، وساقطة فى «ج».

وكتابى المسمى « شمس البيان فى لَمْس البنَان » ، والزهرة الفايحة فى الزُّهرة اللايحة ، ونفَح الكمامات فى شرح المقامات ، واقتراح المتعلمين فى اصطلاح المُتكلمين ، وكتاب التَّصَوُّر والتصديق فى التوطية لعلم التحقيق ، ورَقْم الحُلل في نظم الجل[1] ، [ومفتاح الإحسان فى إصلاح اللسان][2] . وما أنشأته من السلطانيات نظماً ونثرا ، وخطابة وشعراً . والله تعالى يجعل أعمالنا خالصة لوجهه بمنّه وكرمه . فليقل الفقيه الأجل ، وبنوه الأكرمون[3] رضى الله عنهم ، [أنبأنا وأخبرنا وحدّثنا][4] أو ما شاءوا من ألفاظ الرواية ، بعد تحرى الشروط المرعيّة ، فى الإجازات الشرعية ، وإن ذهبوا حفظ الله كمالهم ، وأراهم فى الدارين آمالهم ، إلى تَسْمية من لى من المشايخ قدّس الله أرواحهم ، وزحزح عن النار أشباحهم :

فمنهم الأستاذ الخطيب الكبير ، العالم الفاضل الجليل ، البَقيّة الصالحة ، آخر الأدبا ، وخاتمة الفضلاء ، أبو جعفر أحمد بن يحي بن إبراهيم الحميرى القرطبى الدّار ، رضى الله عنه . قرأت عليه بقرطبة ، شعر أبى الطيب ، قراءة فهم لمعانيه ، وأعراب لألفاظه ، وتحقيق للغته . وتنقير عن بديعه . وكذلك قرأت عليه أكثر شعر أبى تمام . وسمعتُ عليه كتاب الكامل لأبى العباس [المبرد][5] ، ومقامات التميمى ، كان يرويها عن مُنْشيها ، وكانت عنده بخط أبى الطاهر . وتفقهت عليه « تبْصِرة الضمرى » . وكان على شياخته[6] رحمه الله ، ثابت الذهن ، مُقبل الخاطر ، حافظا للعُيا .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى «ج» (الدول) وهو تحريف لأن (رقم الحلل فى نظم الدول) هو اسم كتاب لابن الخطيب .

(٢) هكذا ورد اسم هذا الكتاب فى الإسكوريال ، وورد فى «ج» (مفتاح الإحسان فى اصطلاح الإحسان) .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وردت فى الإسكوريال (المباركون) .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . ووردت فى الإسكوريال (أخبرنا أو أنبأنا) .

(٥) أضفنا هذه الكلمة زيادة فى الإيضاح .

يروع رَكَانةً ويذوب ظَرْفا   فما تدرى أشيخ أم غـــلام

نأتيه بمقاطيع[١] الشعر فيصلحها لنا ، ويقف على ما نستحسنه[٢] منها ، فنجده أثْبَتَ منا ، ولقد أنشدته يوماً ، فى فتىً مفقود العين اليسرى :

لم تزو إحدى زهرتيه ولا انثنت   عن نورها وبديع ما تحويه
لـكنه قد رام يُغلق جَفْنــــه   ليصيبَ بالسَّهم الذى يرميه

فاستفادها وحفظهما . ولم يزل رحمه الله ، يعيدها مستحسناً لها ، متى وقع ذكرى . وكان يروى عن الإمام المازَرِى بالإجازة ، وعن القاضى أبى مروان بن مَسَرَّة ، وعن الأستاذ عباس ، وعن أبى عبد الله بن أبى الخصال .

ومنهم الفقيه الأجل [العالم العَدْل][٣] ، المحدِّث الأكمل : المتفنن ، الخطيب ، القاضى أبو محمد بن حَوْط الله . سمعت عليه كتباً كثيرة بمالقة ، بقراءة الفقيه الأستاذ أبى العباس بن غالب ، ولقيته بقرطبة أيضاً ، وهو قاضيها . وحدَّثنى عن جَدِّى ، وعن جملة[٤] شيوخ ، وله برنامج كبير : وأخوه القاضى الفاضل : أبو سليمان أيضاً منهم .

ومنهم الفقيه الأجل ، العالم العَلَم ، الأوحد . النحوى ، الأديب المتفنن : أبو على عمر بن عبد المجيد الأزدى ، قرأت عليه القرآن العزيز مفردات ، وكتاب الجمل ، والإيضاح وسيبويه تفقهاً ، وكذلك الأشعار السِّتة تفقهاً ، ومازلت مواظباً له إلى أن توفى رحمه الله . وكان فريد عصره فى الذكاء [والزكا][٥] ، ولم يكن فى حَلْبة الأستاذ

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» . ووردت فى الإسكوريال (بمقطعات) . وفى «ج» (بمقاطع والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى المخطوطين (نسخناه) وهو تحريف .

(٣) هذه العبارة واردة فى المخطوطين ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (جلة) والأولى أرجح .

(٥) واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى المخطوطين .

أبي زيد السُّهيلي أنجب منه [على كثرتهم][1] . وقد قال الأستاذ أبو القاسم السهيلي للإمام المنصور رضي الله ،هو أقْعَدُ بكتاب سيبويه منا . وقال لي يوما ، وقد نظر إلى طالب يُصغي بكليته إلى ثان ، فقلت ماذا ، فقال إنَّ حُبَّ الشيء يعمي ويَصم[2] ، فقلت له ، ويعيد الصُّبح [ليلا][3] مُدْلَهم ، فاستحسنه .

ومنهم الفقيه الأجل ، الأديب الأريب الكامل ، اللغوى الشهير ، أبو على ابن كسرى المَوْرى ، قريبى ومُمَلِّى . وكان من طلبة أبي القاسم السُّهيلي ، وممن نبغ صغيراً . وهو الذى أنشد فى طفولته السيد أبا أسحق الكبير بإشبيلية :

قسما بحُمْص وإنه لعظيم فهى المقام وأنت إبراهيم

وكان بالَحضْرة[4] الأستاذ أبو القاسم السهيلي ، فقام عند إتمامه القصيدة ، فقال لمثل هذا كنت أُحْسِيك الحسا ، [ولمثل هذا][5] كنت أواصل فى تعليمك الإصباح والإمسا . وقد أنشد هذا لأمير المؤمنين أبي يعقوب رضي الله عنه :

أمعشر أهل الأرض بالطُّول والعَرْض بهذا أنادى فى القيامة والعرض
فقد قال الله فيك ما أنت أهلُه فيقضى بحكم الله فيك بلا نَقْض
فإياك يُعنى ذو الجلال بقوله كذلك مكَّنا ليوسف فى الأرض

ومنهم الفقيه الأجل ، العالم المحدث ، الحافظ الفاضل المؤثر ، السيد أبو محمد القرطبي . قرأت عليه القرآن بالروايات مفردات ، وتفقهت فى الجمل والأشعار ،

---

(١) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى المخطوطين .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (ويصمى) .
(٣) واردة فى الإسكوريال وساقطة فى المخطوطين .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (بالحاضرة) .
(٥) واردة فى الإسكوريال وساقطة فى المخطوطين .

وأجازنى [جميع][١] ما رواه . وكذلك فعل كل واحد ممن تقدم ذكره . وكان رحمه الله آخر الناس علماً ونزاهة وحسن خلق ، وجمال سَمْت [وأبهة][٢] ووقار ، وإتقان وضبط ، وجودة وحفظ .

ومنهم الفقيه الأجل ، الحاج الفاضل ، الشهيد فى كاينة العِقاب[٣] ، المحدّث الورع ، الزاهد الطاهر ، أبو عبد الله بن حسين بن صاحب الصلاة الأنصارى ، وعليه كان ابتداى للقراءة ، وكان مبارك التعليم . حسن التفهيم ، شديد التواضع .

ومنهم الفقيه الأجل الفاضل الورع ، المحدث ، الحاج المُلْهم ، المجاب الدعوة ، الميمون النقيبة الأوّاب . أبو الحجاج بن الشيخ . رضى الله عنه . وهذا الكتاب[٤] على الإطالة منى . ولكن القرطاس فَنِى ، والسلام الاتمّ عليكم ، ورحمة الله وبركاته . قال ذلك ، وكتبه ، العبد المعترف بذنبه ، الراجى رحمة ربه . محمد بن عبد الله الحميرى ثم الإستِجى ، فى أواسط شعبان المكرم من عام أحد وأربعين وستمائة .

وفاتـــه

من خطّ الوزير أبى محمد عبد المنعم بن سماك . قال ، قَدِم غرناطه ، أظن سنة تسع وثلاثين وستمائة ، وشكى علّة البطن مدة ثمانية أشهر بدار أبى [رحمه الله][٥] ، مرّضناه الثلاثة الأخوة ، إلى أن توفى رحمه الله ، ودفن بمدفنه ، مَغْنى الأدب ، بروضة الفقيه أبى الحسن سهل بن مالك .

---

(١) واردة فى المخطوطين . وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) واردة فى الإسكوريال وساقطة فى المخطوطين .

(٣) كاينة العقاب هى الموقعة الكبرى التى نشبت بين الجيوش الموحدية بقيادة الخليفة الموحدى الناصر لدين الله ، والجيوش الإسبانية المتحدة بقيادة ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، فى هضبة سانتا إيلينا شمال غربى مدينة أبدة ، وهزم فيها الموحدون هزيمة ساحقة ، وذلك فى صفر سنة ٦٠٩ ﻫ (يوليه ١٢١٢ م) . وتسمى بالإسبانية Las Navas de Tolosa

(٤) وردت هكذا فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (الكتب) . (٥) الزيادة من الإسكوريال .

محمد بن أحمد بن على الهوّارى(١)

يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن جابر من أهل ألمريّة .

حـــاله

رجل كفيف البصر ، مدلٌّ على الشعر ، عظيم الكفاية واللِّيِنّة ، على زَمانَتِهِ. رحل إلى المشرق ، وتظافر برجل من أصحابنا يعرف بأبى جعفر الإلبيرى ، صارا رَوْحين فى جسد ، ووقع الشِّعر منهما بين لَحْيَي أسد ، وشمَّرا للكُدْية ، فكان وظيف الكفيف النَّظم ، ووظيف البصير الكَتْب، وانقطع الآن خبرهما . وجرى ذكره فى الإكليل بما نصه : محسوبٌ ، من طلبتّها الجلّة ، ومعدود فيمن طلع بأفقها من الأهِلَّة ، رحل إلى المشرق ، وقد أُصيب ببصره ، واستهان فى جنب الاستفادة بمشقَّة سفره ، على بيان عذره ، ووضوح ضُرِّه .

شعره

وشعره كثير ، فمنه قوله :

سلوا مَسَرَّ ذاك الخال فى صفحة الخدِّ ... متى رقموا بالمسك فى ناعم الورد

ومن هو غصن القدِّ منها لِفَنْتَقى ... وأودعه رُمَّانتى ذلك النَّهد

ومزمتى القُضُب اللُّدان بوصلها ... إلى أن أعزد الحسن من ذلك القد

فتاة تَفُتُّ القلب منى بمقلة ... له رقَّةُ الغُزْلان فى سَطْوة الأُسْد

تمنيت أن تُهدى إلى نُهودها ... فقالت رأيتَ البَدْر يُهْداه أو يُهْدِ

فقلت وللرُّمان بدٌ من الجنا ... فتاهت وقالت باللَّواحظ لا الأيْدِ

فقلت ليس للقلب عندك حاصلٌ ... وقالت قلوب الناس كلُّهم عندى

---

(١) لم ترد هذه الترجمة فى «ج» ، ولا فى «الزيتونة» . ووردت فقط فى الإسكوريال .

وقلت اجعليني من عَبِيدك في الهوى ... فقالت كفاني كم مُحِبٍّ من عَبْد
إذا شئت أن أرضاك عَبْداً فمُتْ ... هوًى ولا تشكي واصبر على ألم الصدّ
ألم تر أن النَّحل يُحمل ضُرُّها ... لأجل الذي تجْنيه من خالص الشهد
كذلك بذْلُ النفيس سهلٌ لذي النُّهى ... لما يكسِبُ الإنسان من شرف الحمد
ألست ترى أزجاته طالما أضاع ... كريمُ المال في طلب المجد

ومن شعره أيضاً قوله :

عرِّج على بان العُذَيب ونـاد ... وأنشد فَدَيْتُك إن حلَّ فؤادى
وإذا مررت على المنازل بالِحما ... فاشرح هنالك لَوْعتى وسُهادى
إيه فديتُك يا نُسَيْمة خبِّرى ... أرب الأحبَّة والِحمى والوادى
ياسعد قد بان العُذَيب وبانُه ... فانزل فديتُك قد بدا إسعادى
خُذْ في البِشارة مهجتى يوما إذا ... بان العُذيب ونوَّر حُسْنُه سعادى
قد صحَّ عيدي يوم أُبْصِر حسنها ... وكذا الهلال علامة الأعياد

ومما نقلناه من خبر قيّده لصاحبنا الفقيه الأستاذ أبي على منصور الزواوى ، ومما أدعاه لنفسه :

علىَّ لـكل ذى كـرم ذِمام ... ولى بمدارك المجـد اهتمام
وأحسن ما لدى لقاء حرٍّ ... وصحبته مَعْشَرٌ بالمجد هـام
ولِى حين أُنسب من أُناس ... على قِمَم النجوم لها مقـام
يميل بهم إلى المجد ارتياح ... كما مالت بشارَتُها المـرام
هم لبسوا أديم القيـل بُرْداً ... ليسفر من مرادهم الظـلام
هم جعلوا مُتون العيش أرضا ... فمذ عزموا الرَّحيل فقد أقامُ

فمن كلُّ البلاد لنا ارتحال ... وفى كل البلاد لنا مقام
وحَوْل موارد العلياء منها ... لنا مع كل ذى شرف زِحام
تصيب سهامُنا غَرَض المعالى ... إذا ضلَّت عن الغَوْص السِّهام
وليس لنا من المجد اقتناع ... ولو أن النجوم لنا قيام
نُنزّه عرضَنا عن كل لَوْم ... فليس يَشين سُؤدَدَنا ملام
ونبذل لا نقول العام ماذا ... سواء كان خِصب أو حُطام
إذا ما المحْلُ عمَّ بلاد قوم ... أثبناها فجاد بنا الغمام
وإن حضر الكرام ففى يدينا ... مَلاك أمورهم ولنا الكلام
وفِينا المُسْتشار بكل عِلْم ... ومنَّا اللَّيث والبطل الهمام
فميدان الكلام لنا مداه ... وميدان الحروب بنا يُقام
كلا الأمرين ليس له بِقَوم ... سوانا يوم نازلة تمام
يُريق دم المداد بكل طِرس ... وليس سوى اليراع لنا سهام
ونكتب بالمثقفة العوالى ... بحيث الطِّرس لبّات وهام
إذا عَبَست وجوه الدهر منا ... إليها فانثنت ولها انتقام
لقد عَلِمت قلوب الرّوم أنا ... أناس ليس يُعوزنا مرام
وليس يُضيرنا أنا قليل ... لَعَمْرُ أبيك ما كثُر الكرام
إذا ما الرّاية الحمراء هُزَّت ... نعم فهناك للحرب ازدحام
وما أحمرَّت سدًى بل من دِماً ... ليس على جوانبها انسجام
تُظَلِّل من بنى نصر ملوكا ... حلال النّوم عندهم حرام
فكم قطعوا الدُّجى فى وصل مجد ... وكم سَهِروا إذا ما الناس نامُ
أبا الحجاج لم تأت الليالى ... بأكرم منك إن عُدَّ الكرام
ولا حَمَلت ظهور الخيل أمضى ... وأشجع منه إن هُزَّ الحسام

وأنّى جئت من شرقٍ لغربٍ ورُمْت بى الزمان كما تُرام
وجُرِّبت الملوك وكل شخص تحدَّث عن مكارمه الأنام
فلم أرْ مثلكم يا آل نصر جمال الخَلْق والخُلُق العظام

ومنها:

لأندلس بكم شرفٌ وذكرٌ تودُّ بلوغ أدناه الشـآم
سقى صوبُ الغمام بلاد قوم هم فى كل مُجْدبة غمـام
إليك بها مهذَّبةُ المعـانى يزيّنها ابتسام وانتظـام
لهـا لجناب مجدكم انتظام طَواف وفى أركان إسلام

نجزت وما كادت، وقد وطِئ الإيطاء صروحكم، وأعيا الإكثار حاوِيها وسروجها، والله ولىُّ التجاوز بفضله.

محمد بن أحمد بن الحدّاد الوادى آشى

يكنى أبا عبد الله

حـــاله

شاعر مُفْلِق، وأديب شهير، مُشار إليه فى التعاليم، منقطع القرين منها، فى الموسيقى، مضطلع بفكِّ المُعَمَّى. سكن ألمرية، واشتهر بمدح رؤسائها من بنى صُمادح. وقال ابن بسّام، كان أبو عبد الله هذا، شمسُ ظَهيرة، وبحر خَبَر وسيرة، وديوان تعاليم مشهورة، وضُح فى طريق المعارف، وضوح الصبح المتهلل، وضرب فيها بقدح ابن مُقْبل، إلى جلالة مَقْطع، وأصالة مَنْزع، ترى العلم ينمُّ على أشعاره، ويتبين فى منازعه وآثاره.

تواليفه

ديوان شعر كبير معروف . وله فى العَروض تصنيف، مزج فيه بين الأنحاء[١] الموسيقية[٢] . والآراء الجليلة .

بعض أخباره

حدّث بعض المؤرخين ، مما يدل على ظَرْفه ، أنه فقد سَكَناً[٣] عزيزاً عليه ، وأحوجت[٤] الحال إلى تكلُّف سَلْوة، فلما حضر الندماء، وكان قد رَصَد الخسوف بالقمر[٥] ، فلما حقّق أنه قد ابتدأ ، أخذ العُود وغنّى :

شقيقك غُيِّبَ فى لحده   وتَشرُق يا بَدْرُ من بعده
فهلاّ خُسِفت وكان الخسوف   حداداً لَبِست على فَقْده

وجعل يردِّدُها ، ويخاطب البَدْر ، فلم يتم ذلك ، إلا واعترضه[٦] الخسوف ، وعَظُم من الحاضرين التعجُّب . قال ، وكان مُنى فى صباه بصبية من الرُّوم ، نصرانية ، ذهبت بلُبِّه وهواه ، تسمى نُوَيرة ، افتضح[٧] بها ، وكثر نَسِيبُه .

شعـــره

قال فى الغرض المذكور :

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الألحان) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الذخيرة . وفى المخطوطين (الوصفية) وهو تحريف .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى «ج» . وفى «الزيتونة» (مسكنا) .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح ووردت فى المخطوطين (واحتاج) .
(٥) هكذا وردت فى المخطوطين . ووردت فى الإسكوريال (القمرى.)
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (واستعرضه) .
(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (فنعم) .

حديثك ما أحلى [فزيِّدى وحدِّثى](1) عن الرَّشا الفردِ الجمال المثلَّث

[ولا تسأمى](2) ذِكْراه فالذكر مؤنسى وإن بعَثَ الأشواق من كل مَبْعث

وبالله فارقى خَبْل نفسى بقوله وفى عقد [وَجْدى](3) بالإعادة فابعث

أحقًّا وقد صرَّحْتُ ما بىَ أنه تبسّم [كاللاهى بنا المُتَعبِّث](4)

وأقسِم بالإنجيل أنّىَ شابق(5) وناهيك دمعى(6) من مُحِق ومُحنث

ولا بدّ من قصّ على القسّ قصتى عساه مُغيث للمُدْنَف المُتَغَوِّث

ولم يأتهم عيسى بدين قساوة فيقسو على بَثّى ويلهو بمكرث

وقلبي من حُلَى التجلُّد عاطل هوًى فى غزال الواديين المرعَّث

سيصبح(7) سرِّى كالصبح مُشْهراً ويُمسى حديثى عُرْضة المتحدِّث(8)

ويُغْرى بذكرى بين كأس وروضة ويَشْدو بشعرى فوق مَثْنى ومَثْلَث

ومن شعره فى الأمداح الصُّمادِحية :

لعلك بالوادى المقدس شاطىء وكالعَنْبر المندى ما أنت واطىء

وإنىَ فى ريّاك واجد عَرْف ريحهم فروح الجَوَى بين الجوانح ناشىء

ولى فى السُّرى من نارهم ومَنارهم هداةٌ حداةٌ والنجوم طوافىء

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين وفى الذخيرة . وفى الإسكوريال (فزيدى وحدث) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والذخيرة . ووردت محرفة فى المخطوطين (ولا تنسى من) .

(٣) الزيادة من الذخيرة .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والذخيرة ومكانها بياض فى «ج» . وهذا البيت ساقط فى « الزيتونة » .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطين وفى الإسكوريال . وفى الذخيرة (لمائن) .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال والذخيرة . ووردت فى المخطوطين (دمى) والأولى أرجح .

(٧) هكذا فى الإسكوريال والذخيرة . وفى المخطوطين (فيصبح) والأولى أكثر تمشياً مع السياق .

(٨) هكذا فى المخطوطين والذخيرة . وفى الإسكوريال (للتحدث) .

لذلك ما حَنَّتْ ركابي وحَمْحمت ... عِرابي وأوحى سيرُها المتباطىء
فهل هاجها ما هاجني أو لعلّها ... إلى الوَخْد من نيران وَجْدى لواجىء
رُويداً فذا وادى لُبَيْنى وإنه ... لَوِرْد لُباناتى وإنى لظامىء
ميادين تَهيامى ومسرح ناظرى ... فللشَّوق غايات لها ومبادىء
ولا تحسبوا غِيداً حمَتْها مقاصر ... فتلك قلوبٌ ضُمِّنَتْها جآجىء

ومنها :

محا مِلّة السُّلوان مبعثُ حسنه ... فكلٌّ إلى دين الصَّبابة صابىء
فكيف أُرَقّى كَلْمَ طرفكِ فى الحشا ... وليس لتمزيق المهنّد رافىء
ومالى لا أسمو مراداً وهمّةً ... وقد كرُمت نفسٌ وطابت ضآضىءُ
وما أخرتنى عن تَناهٍ مبادىءٌ ... ولا قصّرت بى عن تَباهٍ(١) مناشىءُ
ولكنه الدَّهر المناقض فعله ... فذو الفضل منحطٌّ وذو النقص نامىء
كأنَّ زمانى إذ رآنى جُذَيله ... [يلابسُنى منه](٢) عدوٌّ ممالىء
فداريتُ إعتابا وداراتُ عاتباً ... ولم يغْنِنى أنى مُدارٍ مدارىء
فألقيت أعباء الزمان وأهلَه ... فما أنا إلاَّ بالحقائق عابىءُ
ولازمتُ سَمْتَ الصمت لاعن فَدامةٍ ... فلى منطق للسَّمع والقلب صابىء
ولولا علا المَلْك ابنِ مَعْن محمد ... لما برِحت أصدافهنّ اللآلىء
لآلىء إلاّ أنّ فكرى غائص ... وعلى [ذُوماء](٣) ونطقى شاطىء
تجاوز حدَّ الوهم واللحظ والمُنَى ... وأعشَى الحِجا لألاؤه المتلألىء

(١) هكذا وردت فى الذخيرة . ووردت فى الإسكوريال (تناه) مرة أخرى .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى الذخيرة (قلانى فلى) والأولى أرجح .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الذخيرة (دأماء) .

فتنعكسُ الأبصار وهى حَواسرٌ وتنقلبُ الأفكار[١] وهى خواسِىء[٢]

وقال من أخرى :

أقبلن فى الحَبَرات يَقْصرن الخُطا ويُرين حُلل الوارشين القَطا
سربُ الجوى لا الجوُّ عُوِّد حُسْنه أن يَرْتَعى حَبَّ القلوب ويلقُطا
مالت معاطِفُهن من سكر الصبَّا ميلا يخيف قُدودها أن تسقطا
وبمَسْقِط العَلَمين أوضح مَعْلَمَ لمُهَفْهف سَكَن الحشا والمَسْقِطا
ما أخجل البَدْر المنير إذا مشى يختال والخُوط النضير إذا خطا

ومنها فى المدح .

يا وافدى شرق البلاد وغربِها أكرمتما خَيل الوفادة فاربطا
ورأيتما مَلِك البرِيَّة فاهنآ ووردتما أرض المريّة فاحطُطا
يدمى نُحور الدَّارعين إذا ارتأى ويُذِلُّ عزَّ العالمين إذا سطا[٣]

وإحسانه كثير . دخل غرناطة ، ومن بنات عملها وطنه[٤] رحمه الله .

محمد بن إبراهيم بن خيرة[٥]

يكنى أبا القاسم . ويعرف بابن المَوَاعينى ، حرفة أبيه ، من أهل قرطبة .

(١) هكذا وردت فى الذخيرة . ووردت فى الإسكوريال (الأبصار) مرة أخرى .
(٢) لم ترد من هذه القصيدة ، التى وردت كلها فى الإسكوريال وفى الذخيرة ، فى «ج» وفى «الزيتونة» سوى البيتين الأولين .
(٣) ورد هذا الشعر فى الإسكوريال . ولم يرد فى «ج» ولا «الزيتونة» .
(٤) يقصد بها مدينة وادى آش ، وهى من أعمال ولاية غرناطة .
(٥) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى «ج» ولا «الزيتونة» .

واستدعاه السيد أبو سعيد الوالى بغرناطة إليه ، فأقام عنده مدة من عامين فى جملة من الفضلاء مثله .

حـاله

قال ابن عبد الملك ، كان كاتباً بليغاً ، شاعراً مجيداً ، إسْتَكتبه أبو حفص ابن عبد المؤمن ، وحَظِى عنده حُظوة عظيمة ، لصهر كان بينهما بوجه ما ، ونال فيه جاهاً عظيما ، وثروة واسعة . وكان حَسِن الخطّ ، رايقه ، سلك فيه فى ابتدايه مَسْلك المتقن أبى بكر بن خيرة .

مشيخته

روى عن أبى بكر بن عبد العزيز ، وابن العربى ، وأبى الحسن شُريح ، ويونس بن مُغيث ، وأبى عبد الله حفيد مَكّى ، وابن أبى الخِصال ، وابن بقىّ .

تواليفه

له تصانيف تاريخية وأدبية منها « ريحان الآداب ، وريْعان الشباب » لانظير له . والوِشاح المُفَصَّل . وكتاب فى الأمثال السايرة . وكتاب فى الأدب ، نحا فيه منحى أبى عمر بن عبد البَرّ فى « بهجة المجالس » .

توفى بمرّاكُش سنة أربع وستين وخمسمائة .

محمد بن إبراهيم بن على بن باق الأموى (١)

مُرْسى الأصل ، غَرناطى النشأة ، ما لَقِى الإمكان ، يكنى أبا عبد الله .

---

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال . ولم ترد فى «ج» ولا «الزيتونة» .

حـاله

من عايد الصلة : كان رحمه الله ، كاتباً أديباً ذكيا ، لَوْذعيا ، يجيد الخطّ ، ويرسل النادرة ، ويقوم على العمل ، ويشارك فى الفَرِيضة . وبذّ السباق فى الأدب الهزلى للستعمل بالأندلس . عَمَرَ زمانا من عُمْره ، محارفاً للفاقة ، يعالج بالأدب الـكُدية ، ثم استقام له المِيْسم ، وأمـكنه البَخْت من امتطاء غاربه ، فأنشبت الحُظوة فيه أناملها بين كاتب وشاهد ومحاسب ومدير تَجْر ، فأثرى ونما ماله ، وعظُمت حاله ؛ وعهد عند ما شارف الرحيل ، بجملة تناهز الألف من العين ، لتُصْرف فى وجوه من البِرّ ، فتوهم أنها [كانت][1] زكاة امتـك بها .

وجرى ذكره فى التاج بما نصه : مديرُ أكْواس البيان المعتَّق ، ولعوبٌ بأطراف الـكلام المُشَقَّق ، انتحل لأول أمره الهَزْل من أصنافه ، فأبرز دُرّ معانيه من أصدافه ، وجَنى ثمرة الإبداع لحين قِطافه . ثم تجاوزه إلى المُعَرَّب وتخطّاه ، فأدار كأسه المُترع وعاطاه ، فأصبح لفنّيه جامعاً ، وفى فَلَـكيه شهاباً لامعاً ، وله ذكاء يطير شررُه ، وإدراك تتبلجْ غُرره ، وذهن يكشف الغوامض ، ويَسْبق البارق الوامِض ، وعلى ذلاقَة لسانه ، وانفساح أمَد إحسانه ، فشديدُ الضّنانة بشعره . مُغْلٍ لسِعْره .

شعره

أخبرنى الـكاتب أبو عبد الله بن سلمة ، أنه خاطبه بشعر أجابه عنه بقوله ، فى رَوِيِّه :

أحْرَزَ الخَصْل من بنى سلمة ... كاتبٌ تخـــدم الظُّبا قَلَمه
يحمل الطِّرسَ عن أنامله ... إثر الطِّرْس[2] كلما رقَّه

(١) هذه الكلمة زائدة فى النفح .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (الحسن) والأولى أرجح .

ويمدُّ البيان بفكرته مُرْسلاً حيث يمّمت دِيَمُه
خَصَّنَ مُتْحفاً بخمس إذا بَسَم الرَّوض فقنّ مُبْتَسَمة
قلت أُهدى زهر الرُّبا خَضِلا فإذا كل زهرة كَلِمة
أقسم الحُسْن لا يفارقُها فأبَرّ انتقاؤها قسَمه
خَطَّ أسطارها ونمّقها فأتت كالعقود منتظمة
كاسياً من حلاه لى حُلَلاً رَسَمها من بديع ما رَسَمه
طالباً عند عاطشٍ نَهَلاً ولديه الغيوث مُنْسَجمة
يبتغى الشِّعر من أخى بَلَه أخرَس العىُّ والقُصور فَمَه
أيها الفاضل الذى حَمِدت(١) ألسنٌ للمدح والثَّنا شيمه
لا تُكلِّف أخاك مقترحا نشر عارٍ لديه قد كتمه
وابق فى عزةٍ وفى دَعَة صافى العَيْش وارداً شِبمه
ما ثنى الغصن عطفه طرباً وشَدا الطير فوق نغمه

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبى جعفر الزُّبير ، والخطيب أبى عثمن بن عيسى .

توفى بمالقة فى اليوم الثامن والعشرين لمحرم عام أثنين وخمسين وستمائة ، وأوصى بعد أن حُفر قبره ، بين شيخيه الخطيبين أبى عبد الله الطَّنجالى ، وأبى عثمن بن عيسى ، أن يدفن ، وأن يكتب على قبره هذه الأبيات :

ترحّم على قبر ابن باقٍ وحيِّه فمن حَقٍّ مَيْت الحىّ تسليم حيِّه
وقل آمن الرحمن رَوْعة خائف لتفريطه فى الواجبات وَغيِّه

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (حفظت) .

قداختارهذاالقبر فى الأرض راجياً من الله تخفيفاً بقرب[1] وليــه
فقد يشفع الجار الـكريم لجاره ويشمل بالمعروف أهل نَديه
وإنى بفضل الله أوثق واثق وحَسْبِي وإن أذنَبْتُ حبّ نبيه

محمد بن إبراهيم بن سالم بن فضيلة المعافرى[2]

من أهل ألمرية يدعى بالبيوّ، ويكنى أبا عبد الله

حـــاله

من الإكليل الزاهر[3]، شيخٌ أخلاقُه ليِّنة، ونفسه كما قيل هيِّنة، ينظم الشعر سهلا مساقه، مُحكما اتِّساقه، على فاقة مالها من إفاقة. أنشد السلطان بظاهر بلده قوله:

سَرَت ريح نَجْد من رُبى أرض بابل فهاجت إلى مَسْرى سراها بلابِل
وذكَّرنى عَرْفُ النَّسيم الذى سرى معاهدَ أحباب سُراة أفاضل
فأصبحت مشغوفاً بذكرى منازل ألفت فواشوقى لتلك المنازل
فياريح هُبِّي بالبطاح وبالرُّبا ومُرِّى على أغصان زهر الخمائل
وسيرى بجسمى للتى الروح عندها فروحى لديها من أجلّ الوسائل
وقولى لها عنى مُعَنَّاك بالهوى[4] له شوق معمودٍ وعَبْرة ثاكل

---

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (بقدر).

(٢) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال، ولم ترد فى «ج» ولا «الزيتونة».

(٣) وعنوانه الكامل«الإكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم التاج من الجواهر» من كتب ابن الخطيب الصغيرة. وفيه يترجم لبعض أعلام معاصرية، وذلك بإيجاز وبأسلوب مسجع. وقد سبق التعريف به عند استعراض كتب ابن الخطيب فى مقدمة المجلد الأول من الإحاطة.

(٤) هكذا فى الإسكوريال. وفى النفح (بالنوى).

فيا بأبي هيفاء كالغصن تَثَنَّى ... بقدٍّ يَقُدُّ كاد يَنْقَدُّ مايل
فتاة براها الله من فِتْنة ... فمن رآها ولم يُفتن فليس بعاقل
لها مَنْظرَ كالشمس فى رَوْنق الضُّحا ... ولحظُ كحيلُ ساحر الطَّرْف بابل
بطيب شذاها عطَّرت كل عاطر ... كما بحلاها زيَّنت كل عاطل
رمَتنى بسهم من سهام جفُونها ... فصادف ذاك السَّهم منى مقاتل
فظلْت غريقاً فى بحار من الهوى ... وما الحب إلا لُجَّةٌ دون ساحل
فيامَنْ سَبَت عقلى وأفْنت تجلُّدى ... صِلِينى فإن البُعْد لا شك قاتل
فلى كبد شَوْقَ إليك تفطَّرت ... وقلب بنيران الجَوَى فى مشاعل
ولى أدمع تحكى ندا كفُ يوسف ... أمير العلى الأرْضَي الجميلُ الفضايل
إذا مدَّ بالجود الأنامل لم تزل ... بحور النَّدى تَهْمى بتلك الأنامل

ومن شعره قوله من قصيدة :

بَهَرت كشمس فى غُلالة عَسْجد ... وكبَدْرٍ تِمٍ فى قضيب زَبَرجد
ثم انثنَت كالغصن هزَّته الصَّبا ... طرباً فتزرى بالغصون الميَّد
حَوْراء بارعة الجمال غَرِيدة تزهى ... فتزرى بالقضيب الأمْلَد
إن أدْبَرت لم تُبق عقل مدبرٍ ... أو أقبلت قتلت ولكن لا تَدِ

تواليفـــــه

قال شيخنا أبو البركات ، وابتُلى باختصار كتُب الناس ، فمن ذلك مختصره المسمى « بالدُّرر المنظومة الموسومة فى اشتقاق حروف الهجا المرسومة » ، وكتاب فى حكايات تسمى روضة الجِنان ، وغير ذلك .

توفى فى أواخر رمضان من عام تسعة وأربعين وسبع ماية ، ودخل غرناطة غير مرة .

محمد بن إدريس بن على بن إبراهيم بن القاسم

من أهل جزيرة شُقْر[١] ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن مَرْج الكُحْل

حاله

كان شاعراً مُفْلقا غزلا[٢]، بارع التَّوليد ، رقيق الغزل . وقال الأستاذ أبو جعفر : كان شاعراً مطبوعاً ، حسن الكفاية ، ذا كراً للأدب ، متصرِّفاً فيه . قال ابن عبد الملك : وكانت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ، ظهرت فيها إجادته . وكان مُبْتَذل اللباس ، على هيئة[٣] أهل البادية ، ويقال إنه كان أمِّيًّا .

من أخذ عنه

روى عنه أبو جعفر بن عثمان الورّاد ، وأبو الربيع بن سالم ، وأبو عبد الله بن الأبّار ، وابن عسكر ، وابن أبى البقاء ، وأبو محمد بن عبد الرحمن بن بَرْطلة ، وأبو الحسن الرعينى.

شعره ودخوله غرناطة

قال فى عُشيَّةٍ بنهر الغُنداق ، خارج بلدنا لَوْشة بنت الحضْرة ، والمحبوب

---

(١) هى بلدة من أعمال شرقى الأندلس» تقع شمال شاطبة بينها وبين بلنسية ، على نهر شقر El Jucar ، وعلى مقربة من مصبه فى بقعة فى منتهى الخصب والنضرة ، وقد كان إلى جانبها داخل مصب النهر الجزيرة الشهيرة فى الشعر الأندلسى – جزيرة شقر – وهى التى اشتهرت بإنجابها رهطا كبيرا من العلماء . وبالاسبانية Alcira

(٢) هذه الكلمة واردة فى «ج» والإسكوريال ، وساقطة فى «الزيتونة» .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين وفى النفح . وفى الإسكوريال (أهل) وهو سهو ظاهر فى تكرار نفس الكلمة .

من دخلها فقد دخل إلبيرة ، وقد قيل إن هذا النهر من أحواز بَرْجة ، وهذا الخلاف داع إلى ذكره .

عَرِّج بمُنْعَرَج الكثيب الأعْفر ... بين الفُرات وبين شطّ الكوثر
ولنغْتَبِقها قهوةً ذهبيَّةً ... من راحَتَيْ أحْوى المراشِف أحور
وعُشَيَّةٌ قد[1] كنت أرقب وقتها ... سَمَحت بها الأيام بعد تعذُّر
[نلنا بها آمالنا][2] فى روضة ... تُهدى لنا بشِقِّها شميم العنبر
والدهر من ندم يسَفِّه رأيه ... فيما مضى منه بغير تكدُّر
والوُرْق تشدو والأراكة تنثنى ... والشمس تَرْفُل فى قميص أصفر
والرَّوض بين [مُفَضَّضٍ ومُذَهَّب][3] ... والزهر بين مُدَرْهَم ومُدَنَّر
والنهر مَرْقوم الأباطح والرُّبى ... بمُصَنْدَل من زَهْره ومُعَصْفر
وكأنّه وكأنّ خضرة شطِّه ... سيفٌ يسل على بساط أخضر
وكأنما[4] ذاك الحَباب فِرنْدُه ... مهما طفا فى صَفحة كالجوهر[5]
وكأنّه وجهاته محفوفةٌ ... بالآس والنُّعمان خدٌّ مُعَذَّر
نهر يهيم بحُسْنه من لم يهم ... ويُجيد فيه الشِّعر من لم يَشْعر
ما اصفرَّ وجه الشمس عند غروبها ... إلا لفُرْقة حُسْن ذاك المنظر

ولا خفاء ببراعة هذا النظم . وقال أيضا :

---

(١) هكذا وردت فى «ج» و «الزيتونة» . ووردت فى الإسكوريال والنفح (كم) والأولى أنسب للسياق .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال و«ج» . ووردت فى النفح (قلنا بهذا مالنا) ، وهو تحريف .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى المخطوطين (مذهب ومفضض) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى «ج» (وكأن من) .

(٥) هذا البيت ساقط فى « الزيتونة » .

أرأت جفونك مِثْله من مَنْظر[(١)] ظِلٌّ وشمس مثل خدٍّ مُعْذَر

وهذا تتميم عجيب لم يُسبق إليه . ثم قال منها :

وقرارة[(٢)] كالعَنْبر بين خميلة سالت مذانبُها بهـا كالأسطُر
فـكأنها مَشْكولة بمُصَنْدل من يانع الأزهار أو بمُعَصْفر
أملٌ بلغناه بهَضْب حديقة قد طرَّزته يدُ الغمام المُمْطر
فـكأنه والزَّهر تاجٌ فوقه مَلْكٌ تجلَّى فى بِساط أخضر[(٣)]
زاق النَّواظر منه وايقُ مَنْظر يصف النَّضارة عن جِنان الـكوثر
كم قاد [خاطر خاطر][(٤)] مُسْتَوْفز وكم استفزَّ جماله من مُبْصر
[لولاح لى][(٥)] فيما تقدَّم لم أقل عرِّج بمُنْعَرج الـكثيب الأعْفَر

قال ابو الحسن الرُّعينى ، وانشدنى لنفسه :

وعُشَيَّةٌ كانت قنيصة فِتْية ألفوا من الأدب الصَّريح شيوخا
فـكأنما العنقاء قد نَصَبوا لها من الانحناء إلى الوقوع فخوخاً
شَمِلتهم آدابهم فتجـاذبوا سرَّ السُّرور محدِّثاً ومُصِيخا
والوَرْق تقرأ سيرة الطَّرب التى يُنْسيك منها ناسخاً منسوخا
والنهر قد صَفَحت به نارنجةٌ فتيمَّمت من كان فيه مُنيخا
فتَخالُهم حُلَل السَّماء كوا كبا قد قارنت بسعودها المرِّيخا

---

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال والنفح . وفى المخطوطين (إذا أجفانك مثله منظر) . وهو تحريف

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح ، وفى المخطوطين (وقراءة) .

(٣) هذا البيت ساقط فى المخطوطين ، «ج» و «الزيتونة» .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى «ج» و «الزيتونة» (كم قاد خاصر مستوفر) .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال و«الزيتونة» والنفح . وفى «ج» (لولا ذلتى) .

خرق العوائد فى السُّرور نهارُهم   فجَعَلْتُ أبياتى لهم[١] تاريخا[٢]

ومن أبياته فى البديهة :

وعندى من مَراشِفها حديث   يُخبِّر أن ريقَتها مُــــدام
وفى أجفانها السَّكْرى دليل   وما ذُقْنا ولا زَعَم الهُمام
تعالى الله ما أجْرَى دموعى   إذا عنَّت لمُقْلتى الخيـــام
وأشجانى إذا لاحت بروق   وأطْربنى إذا غنَّت حَمام

ومن قصيدة .

[عذيرى من الآمال خابت قُصودها[٣]   ونالت جزيل الحظِّ منها الأخابث
وقالوا ذكَرْنا بالغنى فأجبتُهم   خمولاً وماذكرٌ مع البُخْل ماكث
يهون علينا أن يبيد أثاثُنا   وتبقى علينا المَكْرَمات الأثابت
وما ضَرَّ أصلا طيِّبا عدمُ الغِنى   إذا لم يغيره من الدهر حادث][٤]

وله يتشوق إلى أبى عمرو بن أبى غياث :

أبا عمرو متى تُقْضى الليالى   بلقياكم وهُنَّ قَصَصْنَ ريشى
أبَتْ نفسى هوًى إلاّ شريشاً   وما بعد الجزيرة من شَرِيش

وله من قصيدة :

طَفَل المساء وللنسيم تضوُّع   والأُنْسُ يَنْظِمُ[٥] شملنا ويجمع

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (له) . والأولى أنسب للسياق .
(٢) هذه القصيدة واردة فى الإسكوريال والنفح ، وساقطة فى المخطوطين .
(٣) هكذا وردت فى المخطوطين وفى النفح . ووردت فى الإسكوريال (قصورها) .
(٤) هذه الأبيات واردة فى الإسكوريال والنفح . وساقطة فى المخطوطين .
(٥) هكذا وردت فى المخطوطين وفى الإسكوريال . ووردت فى النفح (يجمع) .

والزهر يضحك من بكاء غمامة ... ريعت لِشيمَ سيوف برق تلمع
والنَّهر من طَرَب يصفِّق مَوْجه ... والغصن يرقص والحَمامة تَسْجَع
فانعم أبا عمران واللّه بروضةٍ ... حَسُن المصيف بها وطاب للمَرْبع
يا شادن البان الذى دون النقا ... حيث التقى وادى الحِمى والأجرع
[الشمس يغرب نورُها ولربما ... كَسَفت ونورك كل حين يَسْطَع][1]
إن غاب نورالشمس بِتنا[2] نتقى ... بِسَناك ليلَ تفرّقٍ يتطــلَّع]
أفُلَت فناب سناك عن إشراقها ... وَجلا من الظلماء ما يتـــوقع
فأمنتُ يا موسى الغروب ولم أقُلْ ... فَوَددتُ يا موسى لو انَّك يوشع

وقال :

ألا بشِّروا بالصبح منى باكياً ... أضرَّ به الليل الطويل مع البكا
ففى الصبح للصَّب المُتَيَّم راحة ... إذا الليل أجْرَى [دمعه][3] وإذا شكا[4]
ولا عجب أن يُمسك الصبح عَبرتى ... فلم يزل الكافور للدَّم مُمْسكا

ومن بديع مقطوعاته قوله :

مَثَلُ الرِّزق الذى تطلبه ... مَثَلُ الظِّل الذى يمشى معك
أنت لا تدركه مُتْبِعـــا ... فإذا ولَّيت عنه أتْبَعَـــك

وقال :

دخلتم فأفسدتم قلوباً بمُلْـكِـكم[5] ... فأنتم على ما جاء فى سورة النَّمْل

(١) هذا البيت ساقط فى المخطوطين وفى الإسكوريال . ووارد فى النفح .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى الإسكوريال والنفح (لسنا) . والأولى أرجح وأكثر تمشياً مع السياق .
(٣) هذه الكلمة واردة فى المخطوطين وفى النفح ، وساقطة فى الإسكوريال .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . ووردت فى المخطوطين (بكا) .
(٥) هكذا وردت فى المخطوطين والإسكوريال . وفى النفح (بملكها) .

وبالعدل[1] والإحسان لم تتخلقوا   فأنتم على ما جاء فى سورة النحل

وقال أبو بكر محمد بن محمد بن جَهْور : رأيت لابن مرج الكحل مَرْجاً أحمر قد أجهد نفسه فى خدمته فلم يُنْجب ، فقلت :

يا مَرْج كُحْل وَمنْ هذى المروج له   ما كان أحوج هذا المرج للكَحَل
يا حُمرة الأرض من طيب ومن كَرَم   فلا تكن طَمِعاً فى رزقها العَجِل
فإنّ من شأنها إخلاف آمِلها[2]   فما تفارقها كيفيَّة الخجل

فقال مجيباً بما نصه :

يا قائلا إذ رأى مَرْجى وحُمْرته   ما كان أحوج هذا المرج للكحل
هو احمرارُ دماء الرُّوم سَيَّلها   بالبيض من مَرّ من آبائى الأول
أحببتُه إنّ مَنْ فُتنت به   فى حُمْرة الخدّ أو إخلافه أملى

وفاته

توفى ببلده يوم الإثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وستماية ، ودفن فى اليوم بعده .

محمد بن محمد بن أحمد الأنصارى

من أهل مرسية ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن الجنّان

حاله

كان محدّثا راوية ، ضابطا ، كاتباً بليغا ، شاعراً بارعا ، رايق الخطّ ،

---

(١) هكذا فى المخطوطين والإسكوريال . وفى النفح (وبالجود).
(٢) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى المخطوطين (آمالها) .

دينًا فاضلا ، خيِّرا ، ز كيًّا . استُكْتِبَه بعض أمراء الأندلس ، فكان يتبرَّم من ذلك ، ويَقْلَق[١] منه . ثم خلَّصه الله منه . وكان من أعاجيب الزمان فى إفراط القَماءة[٢] ، حتى يظن رائيه إذا استَدْبره ، أنه طفلٌ إبن ثمانية أعوام أو نحوها . متناسب الخِلْقة ، لطيف الشمايل ، وقورا . خرج من بلده ، حين تمكّن العدو من بَيْضَته عام أربعين وستماية ، فاستقرَّ بأوْرُيولة[٣] ، إلى أن استدعاه إلى سَبْتة ، الرييس بها ، أبو على بن خلاص ، فوفد عليه ، فأجَلَّ وفادته ، وأجزل إفادته ، وحَظِى عنده حُظْوة تامة . ثم توجه إلى إفريقية ، فاستقرَّ ببجاية . وكانت بينه وبين كُتَّاب عصره مكاتبات ، ظهرت فيها براعته .

مشيخته

روى ببلده وغيرها عن أبى بكر عزيز بن خطّاب[٤] ، وأبى الحسن بن سهل ابن مالك ، وابن قَطْرال ، وأبى الرَّبيع بن سالم ، وأبى عيسى بن أبى السَّداد ، وأبى على الشَّلوبين ، وغيرهم .

من روى عنه

روى عنه صهره أبو القاسم بن نبيل ، وأبو الحسن محمد بن رُزَبق .

شعره

[قال القاضى أبو عبد الله بن عبد الملك ، وكان له فى الزُّهد ، ومدح النبى

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال و «ج» . وفى «الزيتونة» (بضيق) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (القامة) وهو تحريف .

(٣) أوريوله وبالإسبانية Orihuela من بلاد شرقى الأندلس . تقع على نهر شقورة شمال شرق مرسية . وقد لعبت فى تاريخ شرق الأندلس دورا هاما ، وسقطت فى أيدى الأرجونيين فى سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى المخطوطين (ابن خاطب) وهو تحريف .

صلى الله عليه وسلم بدايع، و نظم فى المواعظ للمذكّرين كثيرا][1]. فمن ذلك قوله فى توديع رمضان وليلة القدر :

مضى رمضان وكأنْ بك قد مضى ... وغاب سَناه بعد ما كان أوْمَضا
فيا عهدَه ما كان أكرَم مَعْهدا ... ويا عمْرَه أعْزِز علىّ أن انقضا
ألمَّ بنا كالطيف فى الصيف زائرا ... فخيَّم فينا ساعة ثم قوَّضا
فياليت شعرى إذ نوى غرْبة النَّوى ... أبالسُّخط عنا قد تولىّ أم الرضا
قضى الحقَّ فينا بالفضيلة جاهداً ... فأى فتًى فينا له الحق قد قضا[2]
وكم من يدٍ بيضاء أسدى لذى تُقًى ... بتَوْبته فيه الصحايفَ بيَّضا
وكم حُسْنٍ قد زاده حُسْناً وسَنًى ... محاه وبالإحسان والحُسْن عوَّضا
فلله من شهرٍ كريم تعـرَّضت ... مكارمه إلاّ ان كان أعرضا
نفى بينه وبين شجونك مَعْلَما ... وفى إثره ارسل جفونك فَيَّضا
وقِفْ بثُنيَّات[3] الوداع فإنهـا ... تُمحِّص مشتاقاً إليها وتُمْحِضا
وإن قَضَيْتَ قبل التفرّق وقفَةً ... فمُقْضيها من ليلة القدر ما قضا
فيا حُسْنُها من ليلة جلَّ قدرها ... وحضّ عليها الهاشمىُّ وحرَّضا
لعل بقايا الشهر وهى كريمـةٌ ... تُبَيِّن سراً للأواخر[4] أغْمَضا
وقد كان أضْفَى وِرْدَه كى يفيضه ... ولا كن تلاحى [من تلاحى][5] فقيَّضا
وقال اطلبُوها تَسْعَدوا بِطلابِها ... فحرَّك أرباب القلوب وأنْهَضـا
جزى الله عنـا أحمد الجزا على ... كَرَمٍ أضفـاه بُرْداً وفَضْفَضـا

---

(١) وردت هذه الفقرة التى بين الحاصرتين فى المخطوطين . ولم ترد فى الإسكوريال .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (مضى) والأولى أنسب للسياق .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (بثنايات) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (فى الاواخر) .

(٥) هكذا وردت الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (إثبات فيها) . وهى ساقطة فى «ج»

وصلّى عليه من نبيّ مبـــارك ... رؤوف رحيم للرسالة مُرْتضـا
له عِزَّةٌ أعلى من الشمس منزلا ... وعَزْمَته(١) أمضى من السَّيف مُنْتَضا
له الذّكر يهمى فضَّ مِسْك ختامه ... تأرّج من ريّا فضايله الفَضـا
عليه سلام الله ما انهل ساكِبٌ ... وذهَّب مُوشّي الرياض وفَضَّضا

ومن ذلك قصيدة فى الحج :

[تذاكرِ الذّكر وتُهيج اللّواعجا ... فعالَجْن أشجاناً يُكاثرن عالجا
وركاباً سَرَت بين العُذَيْت وبارق ... نوابيج فى تلك الشّعاب نواعِجا
تيمّمْن من وادى الأراك منازلا ... يطرنها إلا فى الأراك سَجاسجا
لهن من الأشواق حادٍ فإن ... وَنَت حُداه يُرجّعن الحنين أهازجا
ألا بأبى تلك الركاب إذا سرت ... هَوادى يملأن الفلاة هوادجا
بَراهم سَواع أو مُراهم فأصبحوا ... رسوماً على تلك الرسوم عَوَالجا
لهم فى مُنًى أسنى المُنا ولدى الصّفا ... يرجون من أهل الصّفا المناهجا
سماهـــم طَوْفٌ ببيتٍ طامح ... أراهم قبـاباً للعُـلى ومعـارجا
فأبدوا من اللّوعات ما كان كامنا ... وأذْرَوا دموعاً بل قلوباً مناضجا
ولمـا دنوا نودوا هُنَيّا وأقبـلوا ... إلى الرُّكن من كل الفجاج أدارجا
وقَضوا بتقبيل الجـدار ولَثْمه ... حقوقاً تُقَضِّى للنفوس حوايجا
إذا اعتنقوا تلك المعـالم خِلْتَهم ... أساور فى إيمانهـا وجهالجـا
فلله ركبٌ يمّموا نحو مكة لقد ... كَرُموا قصداً وحلّوا منـاسجا
أناخوا بأرجاء الرّجاء وعرّسوا ... فأصبح كلٌ ما بزّ القِدْح فالجا
فبشروا لهم كم خوّلوا من كرامة ... فـكانت لما قدّموه نتايجـا

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (وعزمتنا) والأولى أنسب للسياق .

بفتح بابٍ للقبول وللرِّضا ... ووَفْدُهم أضحى على الباب والجا
تميَّزَ أهلُ السَّبق لا كن غيرهم ... غدا همَجاً بين الخليقة هائجا
أيلحق جِلسٌ للبيوت مَداهُم ... ولم يَلْعب فى تلك المدارج دارجا
ألا ليت شعرى للضرورة هل أرى ... إلى الله والبيت المحجَّب خارجا
له الله من ذى كُرْبَة ليس يُرْتَجى ... لمرتجيها يوما سوى الله فارجا
قد أُشْهمَت شتىٌّ المسالك دونه ... فلا نَهْجَ يَلْقى فيه لله ناهجاً
يخوض بحار الذَّنب ليس يهابُها ... ويُضْعَق ذُعْراً إن يرى البحر هائجا
جبانٌ إذاعنَّ الهُدى وإذا الهوى ... يَعِنُّ له كان الجرىء المُهارجا
يتيه ضلالا فى غَيابة همّة ... فلا حجر تهديه لرُشْدٍ ولاحِجا
فواحَرَبا لاح الصباح لمُبصرٍ ... وقلبيَ لم يُبْصِر سوى الليل إذ سَجا
لعلَّ شفيعى أن يكون معاجلا ... لداء ذنوب بالشِّفاء مُعالجا
فيُنْشِقُنى بيتُ الإله نوافحاً ... ويُعبق لى قبر النَّبي نوافجا
فمالى لإمالتى سوى حُبِّ أحمد ... وصِلت له من قرب قلبي وشايجا
عليه سلام الله من ذى صَبابة ... حليفِ شَجاً يكنى من البعد ناشجا
ولو أنصفت أجفانه حقَّ وجده ... سفَكْت دما للدموع موازجا](١)

كتابتـه

وكتابته شهيرة، تُضرب بذكره فيها الأمثال، وتُطوى عليه الخناصر. قالوا، لما عقد(٢) أمير المسلمين؛ أبو عبد الله محمد بن يوسف [بن هود](٣) البَيْعة لابنه الواثق بالإمارة من بعده، تولى إنشاءها، وجعل الحاء المهملة

(١) وردت هذه القصيدة فى الإسكوريال فقط؛ ولم ترد فى المخطوطين «ج» و «الزيتونة».
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال. وفى المخطوطين (جعل).
(٣) الزيادة من الاسكوريال.

سَجْعها مُرْدفا إياها بالألف ، نحو صباحا وصلاحا[١] ، وما أشبه ذلك ، طال مجموعها فناهزت الأربعين ، وطاب مَسْمَعُها[٢] ، فأحرزت بُغْية المُسْتمعين : فكتب إليه أبو المُطَرِّف بن عَمِيرة ، رسالته الشهيرة ، يداعبه فى ذلك ، وهى التى أولها :

« تحييك الأقلام تحيّة كِسْرى ، وتقف دون مداك حَسْرى » . ومنها فى الغرض : « ومالك أمِنْت تغيُّر الحالات[٣] ، فشَنَنْت غارتك على الحاءات ، ونَفَضت عنها المهارق ، وبعثت فى طلبها السَّوابق ، ولَفَظْتَها من الأفواه ، وطَلَبْتَها بين الشِّفاه ، حتى شهد أهل اللسان[٤] ، بتزحزحها عن ذلك المكان ، وتوَارت بالُحلوق . ولو تَغَلْغَلت إلى العُروق ، لآثرتْها جياذك ، واقْتَنَصها قلمك ومِدادك » [وهى طويلة][٥]

فراجعه[٦] بقوله : « ما هذه التحية الكِسْرَويّة ، وما هذا الرأى وما هذه الرويّة ، [أتَنْكيت من الأقلام ، أم تَبْكيت من الأعلام ، أم كلا الأمرين تُوجه القصد إليه][٧] وهو الحقْ مُصَدِّقا لما بين يديه . والاّ فعهدى بالقَلَم ، يتسامى عن عكسه ، ويترامى إلى الغاية البعيدة بنفسه ، فمتى لانَتْ أنابيبه للعاجم ، ودانت أعارُبه[٨] بدين الأعاجم . واعجبا لقد اسْتَنْوق الجَمَل ، واختلف القول

(١) هكذا فى المخطوطين . و فى الإسكوريال (وفلاحا) .

(٢) هكذا فى المخطوطين . و فى الإسكوريال (مسموعها) .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (الحارات) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (الشان) .

(٥) الزيادة من الإسكوريال .

(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (فأجابه) .

(٧) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» والإسكوريال . وساقط فى «الزيتونة» .

(٨) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى «ح» . وفى «الزيتونة» (إعرابه) .

والعمل . لأمر ما جَدَع أنفَه قَصِير ، وارتد على عقبه الأعمى[١] أبو بَصير . أمسُ استَسْقى من سحابه ، فلا يسْتقينى ؛ واستشفى بأسمايه فلا يُشفينى . واليوم يُحلُّنى محلّ أنو شروان ، ويشكو منى شكوى الزَّيدية من بنى مروان ، ويزعم أنى أبطَلَت سحره ، كما أُبطل سِحرُ بردوران . ويخفى فى نفسه ما الله مُبْديه ، ويستجدى بالأثر[٢] ما عند مُسْتَجْديه . فمن أين جاءت هذه الطريقة المُتَّبعة ، والطَّريقة المُبْتَدعة ، أيظن أن مُعمَّاه لا يفُك ، وأنه لا يتجلّى هذا الشَّك . هل هذا[٣] منه إلا إمحاض النيِّة ، وإحماض تَفَنِية ، ونَشْوةٌ من خَمْرة الهَزْل ، ونخوة من ذى ولاية آمِن العَزْل . تالله لولا محلُّه من القَسَم ، وفضله فى تعليم النَّسم ، لأسمعته ما ينْقَطع به صلَفَه ، وأودعته ما ينْصَدع به صدَفه ، وأشَدْتُ بشرف للمَشْرِق ومجده ، وأشَرْتُ إلى تعاليه عن اللّعب بجدّه . ولكن هو القلم الأول ، فقوله على أحسن الوجوه يتأول[٤] ، ومَمْدُود فى تهذيبه ، كلُّ ما لسانه يهذى به . وما أنْسانيه[٥] إلاّ الشيطان أياديه أن أذكرها[٦] . وأنا أقول ليت التحيةً كانت لى فأشكرها ، ولا عتْبَ إلا على الحاء ؛ المُبرّحة بالبَرحاء ، فهى التى قَيَّمت قيامتى فى الأندية ، وقامت علىّ قيام المُعْتَدية ، يتظلّم وهو عَيْنُ الظالم ، ويُلين القول ، وتحته سُمُّ الأراقم ، ولعَمْر البراعة وما نَصَعت ، واليراعة وما صَنَعت ، ما خامرنى هواها ، ولا كَلِفْت بها دون سواها . ولقد عَرَضَت نفسها علىّ مرارا ، فأعرَضت عنها أزوراراً ، ودفعتها عنى بكل وجه ، تارة بلُطف ،

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى المخطوطين .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (بالأسد) .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (ذلك) .

(٤) وردت فى المخطوطين (يتأمل) والتصويب من الإسكوريال .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (أنسانى) .

(٦) وردت فى المخطوطين (أذكره) والتصويب من الإسكوريال .

وأخرى بنجه، وخفتُ منها السآمة، وقلت انكحي أُسامة. فرضيت منها بأبي جَهْم وسوء سَلْكته، وابن أبي سفيان وصَعْلَكته، وكانت أسرع من أمُّ خارجة للخطبة، وأسمج من سِجاح في استنجاح تلك الخُطبة. ولقد كنت أخاف من انتقال الطباع في عِتْرتها، واستثقال الاجتماع من عشرتها[1]. وأرى من الغَبْن والسَّفاه[2] [أخذها، وترك بنات الأفواه والشِّفاه][3] إذ هي أيسر مؤونة، وأكثر معونة. فغلطي فيها، أن كانت بمنزل تتوارى صَوْناً عن الشمس، ومن نِسْوة خَفِرات لا ينطقن إلا بالهَمْس، ووجدتها أطْوَع من البَنان للكَفّ، والعِنان للوَكْف، والمعنى للإسم، والمَغْنى للرَّسم، والظِّل للشخص، والمُستبدل للنص. فما عرفت منها إلا خبرا[4] أرضاه [حتى حَسِبْتها][5] من الحافظات للغَيْب بما حفظ الله؛ فعجبت لها الآن كيف زلّت نعلُها، ونَشَزَت فنشرت ما استكْتَمها بَعْلُها، واضطربت [في رأيها][6] اضطراب المختار أبي عبيد، وضربت في الأرض تسعى عليّ بكل مَكْر وكيد، وزعمت أنّ حرف الجيم خدعها، والآن أخْدَعُها، وأخبرها أن سيُبلِّغ بخبرها الخابور، وأحضرها لصاحبها كما أُحضر بين يدي قيصر سابُور؛ فقد جاءت إفكاً وزورا، وكثرت من أمرها شُزورا، وكانت كالقَوْس أرْنتَ وقد أصْمَت القَنيص والمراودة، قالت ما جزاء، وهي التي قدّت القميص، وربما يُظن بها الصدق، وظنٌّ الغيب

---

(١) هكذا ورد ترتيب هاتين الكلمتين في المخطوطين. وفي الإسكوريال (عشرتها ... عترتها).

(٢) هكذا وردت في «ج». وفي «الزيتونة» (والسافة). وفي الإسكوريال (السفه) والأولى أكثر تمشيا مع السياق.

(٣) ما بين الحاصرتين وارد في الإسكوريال. وساقط في المخطوطين.

(٤) هكذا وردت في «ج». ووردت في «الزيتونة» والإسكوريال (خيرا). والأولى أنسب للسياق.

(٥) هكذا وردت في «الزيتونة» والإسكوريال. وفي «ج» (وحسبتها).

(٦) هذه العبارة وردة في المخطوطين. وساقطة في الإسكوريال.

ترْجيم ، ويقال [لقد خُفضت الحاء ، بالمجاورة لهذا الأمر الجسيم][1] ، وتنتصر لها أختها[2] التي خيّمت بين النرجسة والرّيحانة ، وختمت السورة باسم جعلت ثانيه أكرم [نبيٌّ على الله سبحانه][3] ، فإن امتعَضَتْ لهذه المتظَلِّمة ، تلك التي سبقت بكلمتها بشارة المتكلّمة ، فأنا ألوذ بعدلها ، وأعوذ بفضلها ، وأسألها أن تقضى قضاء مِثلها ، وتعمل بمقتضى: فابعثوا حَكَماً من أهله ، وحكما من أهلها . على أنّ هذه التي قد أبدَت مَيْنها ، و نَسِيت الفضل بيني وبينها ، أن قال الحَكَمَان منها كان النشوز ، عادت حَرُورية العجوز ، وقالت التحكّم في دين الله لا يجوز ، فعند ذلك يُحَصْحِص الحق ، ويعلم من الأوْلى بالحُكم والأحقّ ، ويصيبها ما أصاب أروَى ، من دعوةٍ سعيدةٍ حين الدّعوى ؛ وياوَيحها أن أرادت [أن تجنى عليّ فجنت لى ، وأناخَتْ][4] لى مَرْكَب[5] السعادة ، وما ابتَغَت إلاّ خَتْلى ، فأتى شرُّها بالخير ، وجاء النفع من طريق ذلك الضّير . أتراها علمت بما يثيرُه اعوجاجُها ، وينجلى عنه عَجاجُها . فقد أفادت عظيم الفوايد ، ونظيم الفرايد ، ونفْس الفَخْر ، ونَفِيس الذّخر[6] ، وهي لا تنكر[7] أن كانت من الأسباب ، ولا تذكر إلا يوم المُلاحاة والسِّباب . وإنما يستوجب الشكر جسيماً ، والثناء الذى يتضوّع نسيماً ، الذى شرّف إذ أهدى أشرف السّحاءات[8] ، وعرّف بما كان من انتحاء تلك

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» (لقد خفضت الحوار بالحوار) . وفى الإسكوريال (لقد خفضت بالجوار هذا الجيم) .

(٢) هذه الكلمة واردة فى «الزيتونة» والإسكوريال . وساقطة فى «ج» .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» و الإسكوريال .

(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال و «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٥) هكذا وردت فى «ج» والإسكوريال . وفى «الزيتونة» (موكب) .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال و «الزيتونة» . وفى «ج» (الذر) .

(٧) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (تشكر) .

(٨) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (السجلات) .

الحاء المذمومة فى الحاءات ، فإنه وإن ألمّ بالفكاهة ، فما أملى من البداهة ، وسمِّىٌّ باسم السابق السُّكيت ، وكان من أمر مداعبته كَيْت وكيت ، [وتلاعب بالصِّفات](١) ، تلاعُب السَّيل(٢) بالصفاة ، والصَّبا بالبانة ، والصِّبا بالعاشق ذى اللُّبانة ، فقد أغْرَب بفنونه ، وأغرى القلوب(٣) بفُتُونه ، ونفث بجَفْنه(٤) الأطراف ، وعَبث من الكلام المُشَقَّق الأطراف ، وعلم كيف يُلخِّص البيان ، ويُخلِّص العِقْيان . فمن الحق أن أشكره على أياديه البيض ، وأن آخذ لفظه من معناه فى طَرَف النقيض . تالله أيها الإمام الأكبر ، والغمام المُسْتَمطر ، والخبر الذى يُشْفى سايله ، والبحر الذى لا يُرى ساحله ، ما أنا المراد بهذا المَسْلك ، ومن أين حَصَل النور لهذا الحَلَك ، وصحَّ أن يُقاس ، بين الحدَّاد والملاك . إنه لتواضُع الأعِزَّة : [وما يكون للأكارم عند المكارم من العِزَّة(٥)](٦) ، وتحريض الشيخ للتلميذ ؛ فى إجازة الوضوء بالنَّبِيذ . ولو حضر الذى قُضى له بجانب الغربى أمرُ البلاغة ، وارتضى ماله فى هذه الصناعة ، من حُسْن السَّبك لِحلْيتها والصِّياغة ، وأطاعته فيما أطلعته طاعة القوافى الحسان ، وأتْبَعَته فيما جمعته لكن بغير إحسان لأذعن كما أذْعَنْت ، وظَعَن عن محل دعوى(٧) الإجادة ، كما ظَعَنْتُ . وأنَّى يُضاهى الفُرات المَعِين(٨) بالنُّغْبَة ، ويُباهى بالفلوس من أوتى من الكنوز ما أنَّ مفاتحه لتنوء بالعُصبة ، وأى

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» والإسكوريال . وفى «الزيتونة» (وتلاعبت الصفات) .

(٢) واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى المخطوطين .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (القلب) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (بجفنيه) .

(٥) وردت فى الإسكوريال «ج» (المزة) . والتصويب من «الزيتونة» .

(٦) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال و « الزيتونة » . وفى «ج» (وما يكون عند الكرام من المزة)

(٧) واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى المخطوطين .

(٨) واردة فى الإسكوريال و «الزيتونة» ، وساقطة فى « ج » .

حظٌّ للكَلالة فى النَّشب ، وقد اتصل للورثة عمود النَّسَب. هيهات والله بَعُدَ (١) المَطْلب . وشتّان الدُّر والخَشْلب ، وقد سِيمَ الغَلَب ، ورجع إلى قيادة السَّلَب ، وإن كنا ممن تقدم لشدة الظمأ إلى المَنهل ، وكن أقْدَم إلى عين تَبوك بعد النَّهى للعل والنَّهل (٢) . فقد ظهرت بذلك المعجزة عِياناً ، وملء ما هناك جِناناً ، وما تعرَّضْنا بإساءة الأدب واللَّوم ، ولكن علمنا أن آخر الشُّرَّاب ساقى القوم ، وإن أسْهَبْنا فما نِلْنا رتبة ذلك الإيجاز ، وإن اعْرَقنا فهوانا فى الحجاز ، فلكم قَصِيرات الِحجال ، ولنا قصيرات الخطا فى هذا المجال ، وإكثارنا فى قِلّة ، وجاورنا من الفقر فى فتر (٣) وذلّة . ومن لنا بواحدة يُشرق ضياؤها ، ويَخْفى للنجوم خجلُها منها وحياؤها ، إن لم تُطل فلأنها للفروع كالأصل ، وفى المجموع كليلة الوصل . فلو سطع (٤) نورها الزاهر ، ونورها الذى تطيب منه الأنوار الأزاهر ، لسَجَدت النِّيران ليوسف ذلك الجمال ، ووجدت نَفَحات ريّاها فى أعطاف الجنوب والشمال ، وأسرعت نحوها النفوس إسراع الحجيج يوم النَّفْر ، وسار خبرها (٥) وسَرَى ، فصار حديث المُقيمين والسَّفْر . وما أظن تلك السَّاخرة فى تَدلّيها ، إلا السَّاحرة بتجنّيها ، إذ كانت ربيبَتُها ، بل ربيبتها : هذه التى سبقَتْنى لمّا سَقَتْني بسينها ، ووجدْتُ ريحَها ، لما فَصَلتْ من مصرها غيرها . وحين وصلت ، لم يدلنى على سابقها (٦) إلا عَبِيرُها ، وكم رامت أن تَسْتَتِر عنى بلَيْل حَبَرها فى هذه المغانى . فأغرانى بهاؤها (٧) ، وكل مُغْرَم مُغْرى ببياض صُبْح الألفاظ والمعانى . وهل كان ينفعها

---

(١) واردة فى «الزيتونة» . وساقطة فى الإسكوريال و«ج» .

(٢) واردة فى المخطوطين . وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى المخطوطين .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (قطع) والأولى أنسب للسياق .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال و «ج» . وفى «الزيتونة» (حديثا) .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال و «الزيتونة» . وفى «ج» (سارها) .

(٧) هكذا وردت فى «ج» . وفى الإسكوريال (بها) . وساقطة فى «الزيتونة» .

تلفُّحُها بمِرْطِها وتلفُّعها ، إذ نادتها المودة ، فقد عرَفناك يا سَوْدة . فأقبلتُ على شمِّ نَشْرها ، وعرْفها ولثم سَطْرها وحرْفها ، وقَرَيْتُها[١] الثناء الحافل ، وقرأتُها فزُيِّنَت بها المحاضر والمحافل . ورُمْتُ أمر الجواب ، فَغرَّتني فى الخطاب ، لكن رسمتُ هذه الرُّقعة التى هى لديكم بعَجْزى واشية ، وإليكم منِّى على استحياء ماشِية ، وإن رقّ وجهها فما رَقّت لها حاشية ، فمُنوا بقبولها على عِلاَّتها[٢] ، وانقعُوا بماء سماحتكم حرَّ غُللِها ، فإنها وافِدةُ من استَقرَّ قلبُه عندكم وثَوَى ، وأقرَّ بأنه يَلْقُط فى هذه الصناعة ما يُلْقَى للمساكين من النَّوى . بقيتُم ، سيدى الأعلى للفضل والإغضاء ، ودمتم غرَّة فى جبين السَّمْحة البيضاء ، واقْتَضَيْتم السعادة المتصلة مدَّة الاقتِضاء ، بيُمْن الله سبحانه . انتهى .

ومحاسنه عديدة ، وآماده بعيدة .

دخوله غرناطة

دخلها مع المتوكل مخدومه ، أو وَجَده بها .

من روى عنه : روى عن أبى الحسن سهل بن مالك

وفاتـه

قال الأستاذ فى الصلة : انتقل إلى بجاية فتوفى بها فى عَشْر [الخمسين][٣] وستمائة .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (وزودتها) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (عللها) .

(٣) الزيادة من الإسكوريال .

محمد بن محمد بن أحمد بن شلبطور الهاشمى [١]

من أهل ألمريّة ، يكنى أبا عبد الله . من وجوه بلده وأعيانه ، نشأ نَبيه البيت، ساحباً بنفسه وبماله ذَيْل الحُظوة ، متحلّياً بخَصْل من خطٍّ وأدب. وزيراً ، متجنداً ، ظَريفاً ، دَرِباً على ركوب البحر وقيادة الأساطيل . ثم انحطَّ فى هواه انحطاطاً ، أضاع مروءته ، واستهلك عَقاره ، وهدّ بَيْته ، وألجأه أخيراً إلى اللّحاق بالعُدْوة فهلك بها .

وجرى ذكره فى الإكليل بما نصه : مجموع شعر وخطٍّ ، وذكاء عن درجة الظُّرفاء ، غير مُنْحط إلى مَجادة أثيلة البيت ، شهيرة الحىِّ والمَيْت . نشأ فى حِجْر الترف والنعمة ، محفوفاً بالماليّة الجمّة ، فلما غَفَل عن ذاته ، وترعرع بين لِدَاته ، أجرى خيول لذّاته ، فلم يَدَعْ منها ربْعاً إلا أقفَره ، ولا عَقاراً إلا عَقَره ، حتى حطَّ بساحلها ، واستولى بسِعْر [٢] الإنفاق على جميع مراحلها ، إلا أنه خَلَص بنفسٍ طيِّبة ، وسَرَاوة سماؤها صيِّبة ، وتمتع ما شاء من زِيرٍ وبَمْ ، وتأنَّس لا يعطى القياد لهم . وفى عفو الله سِعَة ، وليس مع التوكل على الله ضِعَة .

شعــــره

من شعره [قوله] [٣] يمدح السلطان ، وأنشدها إياه بالمضارب من وادى الغَيْران عند قدومه من ألمرية

---

(١) وردت هذه الترجمة فقط فى الإسكوريال ، ولم ترد فى «ج» ، ولا «الزيتونة» . ويبدو من لقب هذا الشاعر وهو شلبطور — وبالإسبانية Salvador — أنه ينتمى إلى أصل من المولدين ، أعنى الإسبان الذين دخلوا فى الإسلام ، منذ فتح الأندلس . وينتمى إلى هؤلاء المولدين كثير من أعلام الأدب والتفكير الأندلسى .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى نفح الطيب (بسفر) .

(٣) الزيادة من النفح .

أثغرُك أم سمطٌ من الدُّر يُنظم ... وريقُك أم مِسْك به الرَّاح تُختم
ووجهُك أم بادٍ من الصُّبح نيِّر ... وفرعُك أم داجٍ من الليل مُظْلِم
[أعلِّل منك النفس والوَجْدُ مُتلِفي](١) ... وهل ينفع التَّعليل والخَطْب أعظم(٢)
وأقنع من طَيْف الخيال يَزورني(٣) ... لو ان جُفوني بالمنام تَنْعَم
حَمَلتُ الهوى حيناً فلمّا علمته ... سلوتُ لأنى بالمكارم مُغْرم
ولى فى أمير المسلمين محبَّة ... فؤادى مَشْغوف بها ومُتَيَّم
بلغتُ المُنى لما لَثَمْتُ يمينه ... فها أننا فى جنَّة الخلد أنْعَم
يصوغ قومى الشِّعر فى طيب ذكره ... ويُحْسِن فيه النَّظم من ليس يَنْظِم
فاستمْسك الدِّين الحنيف زمانه ... وقام منارُ الحقِّ والشِّرك مُرغم
له نظرٌ فى المشكلات مُؤيدٌ ... والله مُهدٍ إلى الرشد مُلْهِم
ويستغرق طارحاً فيه وابل جُوده ... فمن فعله فى جوده يُتَعلَّم
فلو أن أمْلاك البَسيطة أنصفوا ... لألقوا إليه الأمر طوعاً وسَلَّم
وفى الدِّين والدنيا وفى البأس والنّدى ... لكم يا بنى نصر مقامٌ معظَّم

ومنها :

إليك أمير المسلمين اقتَضَيْتُها ... حمايل شكر طيرُها مُتَرنِّم
تَنُمُّ بعَرْف المسك أنفاسها ... إذا يفوه لراوٍ فى النَّدى بها فمُ
فبامتك سُيِّرت فى المسامع ذكرُها ... ويغزى فى أقصى البلاد ويُشْئم
ولو أننى فى المدح سَحْبان وائل ... وأنجدنى فيه حبيبٌ ومُسْلم
لما كنت إلاّ عن عُلاك مُقَصِّر ... ومن بعض ما نشدت وتُولى وتُنعم

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . ووردت فى النفح كالآتى (اعلل منك الوجد والليل ملتق) .

(٢) هكذا وردت فى الاسكوريال . وفى النفح (مؤلم) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بزورة) .

بمَبِيت ملاذاً للأنام ورحمة ... وساعَدَك الإسْعاد حيث يُتَمِّمُ

ومن شعره مذيلًا على البيت الأخير حسبما نُسب إليه :

نامت جفونك يا سُؤلى ولم أنم ... ماذاك إلا لفرط الوَجْد والألم[١]

أشكو إلى الله مابى من محبتكم ... فهو العليم بما نلقى من السَّقَمَ[٢]

إن كان سَفْكُ دمى أقصى مرادِكم ... فما غَلَتْ نظرة منكم بسفك دَمِ

ومما نسب إليه كذلك :

قِفْ بى وناد بين تلك الطُّلول ... أين الألى كانوا عليها نُزُول

أين ليالينا بهم والمُنَى ... نَجْنيه غضّاً بالرضا والقبول

لا حَمَلوا بعض الذى حملوا ... يوم تولّت بالقِباب الحُمول

إن غِبْتم يا أهل نَجْد فنى ... قلبى أنتمُ وضلوعى حُلول

ومما خاطبنى به :

تالله ما أوْرَى زِناد القَلَق ... سوى ريح[٣] لاح لى بالأبرق

أيقنت بالحين فلولا نَفْحَة ... نجْدِيَّة منكم تَلافَتْ رَمَق[٤]

لكنت أقضى بتلظِّى زفرة ... وحسرة بين الدموع تَلْتق[٤]

فآه من هول النَّوى وما جَنَى ... على القلوب موقف التَّفَرُّق

يا حاكى الغُصْن انثنَى مُتَوَّجا ... بالبدر تحت لَمَّةٍ من غَسَق

الله فى نَفْس مُعَنًّى أقصدت ... من لاعج الشّوق بما لم تُطق

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (والسقم) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الألم) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بريق) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (رمق ، نلتق) .

أنى على أكثرها بَرْح الأسى ... دع ما مضى منها وأدرك ما بقى (١)
ولو بإلمام خيال فى الكرى ... إن ساعد الجفنُ رقيبَ الأرَق
فَرُبَّ زورٍ من خيالٍ زائر ... أقرَّ عينى وإن لم يَصْدُق
شُفيت من بَرْح الأسى لو أنَّ مَنْ ... أصبح رقى فى يديه مُعْتِق (١)
ففى مُعاناة الليالى عائق ... عن التصابى وفنون القَلَق
وفى ضمان ما يعانى المرء من ... نَوايبِ الدهر مَشيب المَفْرق
هذا لعَمْرى مع أنى لم أبتْ ... منها بشكوى رَوْعة أو فرَق
فقد أخذت من خُطوب غدْرها (٢) ... بابن الخطيب إلاّ من ممّا أتّقى (١)
فخر الوزارة الذى ما مثله ... بدرٌ عَلا فى مغرب أو مشرق
ومذ أوانيه زمانى لم أبل ... من صَرْفه من مُرْعد أو مُبْرق
لا سيما مذ حَطَطْتُ فى حِما ... جواره (٣) الأمنع رَحْل أينَق
أيقنت أنى فى رجائى (٤) لم أخِبْ ... وأنَّ مسعى بغْيتى لم يخفق
نَدْب له فى كل حُسْن آية ... تناسَبَت فى الخَلْق أو الخُلُق
فى وجهه مَسْحة بِشْرٍ إن بدت ... تَبَهرجت أنوار شمس الأفق
تُعتبر الأبصار فى لألائها (٥) ... عليه من نور السَّماح المشرق
كالدهر فى اسْتِينائه وبَطْشه ... كالسيف فى حدِّ الظُّبا والرونق
إن بَخُل الغيث استهلّت يده ... بوابل من غيث جُودٍ غدِق
وإن وَشَت صفحة طِرْس انجلا ... ليلُ دُجاها عن سَنًى مُؤتلق

(١) هكذا وردت كلها فى الإسكوريال . ووردت فى النفح كالآتى (بقى ، معتق ، اتقى ، اينق) .
(٢) هكذا وردت فى النفح . ووردت فى الإسكوريال (دهرها) والأولى أنسب للمعنى .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى النفح (مقامه) .
(٤) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (رجا) .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (الألاء ما) .

بمثلها من حَبَرات أخجلت   حواشى الرَّوض خُدود المَهْرق
ما راق فى الآذان أشْناف سِوَى   مُلتقَطات لفظه المُفْترق
تود أجيـاد الغوانى أن يُرى   حَلْيُها من درٍّ ذاك المنطق
فسَلْ به هـل آده الأمر الذى   تَحمَّل فى شَرْخ الشباب المونَّق
إذا رأى الرّأى فلا يخطئه   يُمْنُ اختيارٍ للطريق الأوْفق
أيه أبا عبـد الإِله هاكَهـا   عذراء تَحْثُو فى وجوه السَّبق
خذها إليك بِكْر فِـكْر يَزْدرى   لديك بالأعْشى لدى المُحَلق
لازلت مرهوب الجنـاب مُرتجًى   مَوْصول عزٍّ فى سُعودٍ تَرْتَق
مُبَلَّغُ الآمال فيما تبتغى   مُؤَمَّنٌ الأغراض فيما تَتَّق

ناب فى القيادة البحرية عن خاله القايد أبى على الرَّنداحى ، و وُلى أسطول المُنَـكّب برهة . توفى بمراكش فى عام خمسة وخمسين وسبعمائة رحمه الله .

محمد بن محمد بن جعفر بن مُشتَمل الأسلمى (١)

من أهل ألمرية ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بالبليانى .

حـــاله

قال شيخنا أبو البركات ، ناب عنى فى بعض الأعمال بألمريّة ،وخطب بنَحانس من غربيها ، ثم خطب بجمة مُرْشانة ، وهو الآن بها،وعقد الشروط قبل بألمريّة . عفيفٌ طاهر الذّيل ،نبيل الأغراض ، مهذّب الأخلاق ، قيِّمٌ على القراءات ،

(١) وردت هذه الترجمة فقط فى الإسكوريال . ولم ترد فى «ج» ولا فى «الزيتونة» .

والنحو والأدب ، جيِّدُ الشعر والكتابة ......(١) من الضبط ، وإجادة العبارة عن المعنى المراد .

تواليفه

قال ، له رَجَز فى علم الكلام جيد ، ورجز آخر فى ألفاظ فصيح ثعلب ، عرِىّ عن الحشو ، على تَقْعير فيه يُغتفر لما جمع من اقتصاره ، وله تأليف فى الوبا سماه بإصلاح النيَّة فى المَسْألة الطاعونية .

مشيخته

قال ، أخذ عنى وعن أبيه جملة من الدواوين ، وعن غيرى من أهل بلده .

شعره

قال ، ومما أنشدنى من شعره قوله :

هَفا بى من بين المغانى عقيقُها ... ومن بينه انفَضَّت لعينى عقيقُها
ومالَتْ لليد قبابُه وأشْرَقَــــنى بالدمع منها شروقُها
يهيجُ أنفاسِى غراماً نسيمُها ... وتَقْدَح نارُ الشوق عندى بروقُها
ومن دون واديها ظِباءٌ خوادل ... حكى لحظُها ماضى الشِّفار رقيقَها
فلو برزت الشمس منهنّ فى الضحى ... مُخَدَّرة أضحت كالا تفوقها
نسيم الصَّبا أن سُيِّرت نحو الحِمَى ... فقل تحيى الدِّيار النَّازحات تشوقُها
غريب كَيِيب مُسْتهام مُتَيَّم ... جريح الجُفون السَّاهرات عريقُها
فهل عَطْفة تُرجى وهل أمل يُرى ... بعودة أيام تقضَّى أنيقها
سقى وتعلم من أدمع الصبِّ جُودها ... من دِيَم الغَيْث المُلثات ريقها

---

(١) مكانها بالمخطوطات كلمات مشوهة وممحاة .

قال وأنشدنى أيضاً ، وقال كَلِفت إجازة هذا البيت الأول من هذه القصيدة ، إذ ليس لى :

مَنْ عادى ومَنْ ناصرى ومُنْصِفى — هذا دمعى سَفَكْته بنتُ المنصف
أو من يُخَلِّصنى وقد أوهى صحيحُ — الجسم منى لحظُ طرفٍ مُدنف
جَفْنٌ تحيّر والهوى يُهديه — لفؤادِ كلٍّ من الهوى لم يألف
مُتَناعسٌ يُهدى السُّهاد ويصرع — البَطَل السكِرَ بلحظه المُتضَعّف
تبدو وتَشْدو للعيون وللمسامع — فهى بين مُكحَّل ومُشَنَّف
مَلَكَت بصنعتها عنان عِنانها — وعدَت عليها كأنْ لم تُعْرف
تُغْنى إذا غنَّت بطيب صوتها — عن أن يزُود لحنها بالمِعْزَف
أما تغنّت أو تَثَنَّت تهتف — قُمْرى نغَمتها وغضٌ المِعْطَف
يأتى على تكرُّر ما غنَّت به صدقاً — بكلٌ غريب أو مُسْتَطرف
تُهدِى للنفوس على اختلاف طِباعها — من نُبلها ما تشتهى بتلطف
كنَّا وجَفْن الدهر عنا ناعِسٌ — خَلْف سِتْر للأمان مُسَجَّف
حتى وشَى بالسِّر دهرٌ حاسد — كَلِفٌ بتَنْغيص الكريم الأشْرَف
واخَجْلتا إن لم أمُتْ يوم النَّوى — لهفاً وما إن كنتُ بعدُ بمنصِف
لكننى مما نَحَلت وذُبْت لم — يَرَنى الحِمام فكنتُ عنه أخْتَفى
كم ذا أبيتُ وليس لى من مُسعد — فى حالتى غير الدموع الذُرَّف
يا هل ترى هذا الزمانُ وصرفُه — هل يَسْمحان بعودةٍ وتألُّف
صبراً أبا يعقوبهم فهى النَّوى — لولا هَمَتْ شوقا للُقيا يوسف

قال وأنشدنى أيضاً لنفسه ، والبيت الأخير لغيره :

ما للأحِبّة فى أحكامهم جاروا — نأوا جميعاً فلا خِلٌّ ولا جار

كيف البقا وقد بانت قبابهم ... وقد خلَت منهم وأسفى الدّار
حُداة تمسّهم بالقلب قد رحلوا ... ياليتهم حملوا الجثمان إذ سار
جار الزمان علينا فى فراقهم ... من قبل أن تنقضى للصّبّ أوطار
ساروا فخيّمت الأشواق بعدهم ... مالى عليها سوى الآماق أنصار
تراك يارَبْعَهم ترجو رجوعهم ... ياليت لو ساعَدَت فى ذاك أقدار
ودّعت منهم شموساً ما مطالعها ... إلاّ من الوَشْى أطواق وأزرار
أستودع الله من فاز الفراق بهم ... وخلّفوا ودمعُ العين مِدْرار

قلت ، ولا خفاء بتَخَلُّف هذا النمط عن الإجادة ، والله يَقْبِض ويَبْسُط ، وشافِعُنا عرضُ الإكثار .

توفى فى آخر أربعة وستين وسبع ماية .

محمد بن محمد بن حزب الله

من أهل وادى آش ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف باسم جدّه .

حـــاله

دَمِثٌ ، متخلق ، سهل الجانب ، كثير الدُّعابة ، خفيف الروح ، له خطٌّ حسن ووراقة بديعة ، وإحكام لبعض العمليّة ، واقتدار على النظم . اتصل بباب السلطان ملك المغرب ، وارْتَسم كاتبا مع الجُمْلة ، فارْتاش ، وحسُنت حاله .

وجرى ذكره فى الإكليل الزاهر [١] بما نصه : راقمٌ واشى ، رقيق الجوانب والحواشى ، تزهى بخطّه المَهارق والطروس ، وتتجلّى فى حُلل بدايعه ، كما تتجلى

(١) هو من كتب ابن الخطيب الصغرى . وقد سبق التعريف به .

العَرُوس ، إلى خُلُق كثير التجمل ، ونفس عظيمة التحمُّل . ودود[1] سهل الجانب ، عذب المذانب . لمّا قُضيت الوقيعة بطريف[2] ، أقال الله عثارها ، وعجّل ثارها ، قذف به موج ذلك البحر ، وتفلّت إفلات الهَدْى المقرب إلى النحر ، ورمى به إلى رُندة[3] القرار ، وقد عرى من أثوابه ، كما عرى الغرار ، فتعرّف للحين بأديبها المُفْلق ، وبارقها المتألق أبى الحجاج المُنْتَشَا فرى ، فراقه ببشر لقايه ، ونَهَل على الظمأ فى سِقايه ، وكانت بينهما مخاطبات ، أنشدنيها بعد إيابه ، وأخبرنى بما كان من ذهاب زاده ، وسَلْب ثيابه .

وخاطبنى من شرح حاله فى ارتحاله بما نصه : ولما دخلتُ رُندة الأنيقة البطاح ، المحتوية على الأدب والسّماح ، والعلم والصلاح ، أبرز القدر أن لقيت بها شيخنا المُعَمَّر رئيس الأدباء ، وقُدْوة الفقهاء ، أبا الحجاج المُنْتَشافرى ، وكنت لم أشاهده قبل هذا العِيان ، ولا سَمَح لى بلقاية صرفُ الزمان ، ولم أزل أُكْلَفُ بمقطوعاته العجيبة ، وأولع بضرايبه الغريبة ، وتأتى منه مخاطبات تُزْرى بالعقود بهجة ، وتطير لها العقود لهجة . نَظْمٌ كما تنفّس الصبح عن تَسْنيمه ، ونثر كما تأسس الدُّر بتنظيمه ، فأحلّنى منه محلّ الروح من الجسد ، وشهد لى أنى أعزّ مَنْ عليه وَرَد ، ورآنى قد ظهرت على مَضاضة الاكتياب ، لكونى قريبُ عهدٍ بالإياب ، مهزوماً انهزام الأحْزاب ، خالى الوطاب ، نَزْر الثياب ، فقال فيم الجزع ، ذهب بحـــول الله الخوف ، وأمِنَ الفزع ، فأجبته عَجِلاً ، وقلت أخاطبه مرتجلا .

---

(١) وردت فى المخطوط (وود) وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٢) سبق أن عرفنا بموقعة طريف ، وهى التى نشبت بين المسلمين والنصارى على ضفاف نهر سلادو على مقربة من طريف فى سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) وهزم فيها المسلمون هزيمة فادحة (راجع ص ١٨٠) .

(٣) هى من قواعد الأندلس الخالدة ، وتقع فى شمال المثلث الإسبانى ، غربى مالقة ، وجنوبى نهر وادى لكه . وقد سقطت فى أيدى النصارى فى سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) .

لا تجزعي نفسي لفَقْد معاشري ... وذهاب مالي في سبيل القادر
ورُندة ها أنتِ خـــير بلاده ... وبهـا أبو حجاج المنتشافري
سيُريك حُسْن فرايد من نظمه ... فتُزيل كل كآبة في الخاطر

فأجابني مرتجلا :

سُراي ياقلبي المشوق وناظري ... بمزار ذي الشَّرف السَّنِي الطاهر
روضُ المعارف زهرها ازّاهي ... ومَن أوصافه أعيَت ثنا الشاكر
ولوادِ آشٍ فخــار لم يزل ... من كابن حزبِ الله نورَ النّاظر
وافي يُشَرِّف رُندة بقدومه ... فغدت به أفقا لبدر زاهر
من روضة الأدباء أبدى زهرة ... قد أينعت عن فكر حَبْر ماهر
جمع المآثر بالسَّناة وبالسَّنا ... أعظِم به من صانعٍ لمـآثر
ما زلت أسمع من ثَناه مآثراً ... كانت لسامعها معاً والذّاكر
حتى رأى بصري حقائق وصفه ... فتنعَّمَت كالأقمــار نواظري
لا زال محبُوّاً بكــل مسرَّة ... تجرى له بالحظّ حكم مُقادر

ثم خاطبه القاضي المُنتشافري بعد انصرافه إلى وطنه بقوله :

أبي الدمع بعدك إلا انفجاراً ... لدهر بِبُعدك في الحُكم جارا
أذاق اللقاء الحُلو لو لم يصل به ... للنّوى جَرْعاتٍ مُرارا
رعى الله لَمْح ذاك اللقاء وإن ... يكُ أشواقنا قد أثاراً
قصاراي شكواي طول النوى ... وفقدي أناة وصل قِصاراً
سقتني القِداح ومن بعده ... فوادي القريح قد أذكت أوارا
ألا يا صباً هُبْ من أربُعي ... إلى واد آش تحيي الدّيارا
ألا خُصّ من رَبْعها منزلا ... بأربابه الأكرمين استنارا

وهم إلى حِزْب إلآـه الألى تساموا فَخاراً وطابوا نِجاراً

فأجابه بأبيات منها :

تألّق بَرْق العُلا واستنارا فأجّج إذ لاح فى القلب نارا
وذكّرنى وقت أُنسٍ مضا بُرندة حيث الجـــلال استشارا
وكانت لنفسى سَناً فى حماها طوالا فأصبحت لديها قِصارا
فأجريت دمع العُيون اشتياقاً ففاضت لأُجَل فراقى بحارا
وقالت لى النفس من لم يجد نصيراً سوى الدّمع قلّ انتصارا
قطعتُ المُنا عندها لمحة وودّعتها وامتطيت القِفارا
وضيّعت تلك المُنا غفلة ووافيت أبْغى نابس ديارا

ومنها :

أرِقْتُ لذاك السّنا ليلة وما نومها ذُقْتُ إلاّ غِرارا
وجسمى أجلّ الجسوم التهاباً وقلبي أشدّ القلوب انكِسارا
إلى أن تجرّعت كأس النّوى وقلت زمانى على الشّمل جارا
وصبّرتُ نفسى لِفقدانها هنالك بالرّغم ليس اختيارا

وقال من قصيدة :

حللتُ لبرق لاح من سَرْحتى نَجْدْ حنين تِهامى تَحِنّ إلى نجد
وقلت لعلّ القلب تبْرا كلومُهُ ومن ذا يصدّ النار عن شِيمة الوَقْد
إن شاركتْني فى المحبّة فرْقة فها أنا فى وجْدى وفى كَلَفى وحِدُ

وهو إلى هذا العهد بالحال الموصوفة .

محمد بن إبراهيم بن عيسى بن داود الحميرى(١)

من أهل مالقة ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن عيسى

حــــاله

كان أديباً ، حسن الخط ، جيّد النظم ، منظرفاً ، لوذعياً ، مطبوعاً ، مُنْحطاً فى هواه ، جامحاً فى ميدان بطالته ، معاقراً للنَّبيذ ، على حِفْظ للرسم ، واضْطلاع بالخدمة ، وإيثار للمروءة ، ومعرفة بمقادير الأمور ، وتشبُّث بأذيال الحُظْوة . كتب للرياسة السَّعيدية بمالقة ، ونظر على ألقاب جِباياتها ، وانتفع الناس بجاهه وماله ، ووقع الثناء على حسن وساطته . ثم سافر عنها ، وقد سَمَتْ مجادة السلطان فى غرض انتقالها إلى العُدْوة ، مُعَوَّضة بمدينة سلا من مالقة . وكان ما كان من معاجلة الأمر ، والقبض على الريِّس ، وقيام ولده بالأمر ، فأَبنَّ المذكور بالعُدْوة ، وكانت بها وفاته .

وجرى ذكره فى الإكليل الزاهر بما نصه : [عَلَمٌ](٢) من أعلام هذا الفن ، ومشَعْشِى راح هذا الدَّن ، بمجموع أدوات ، وفارس يرَاعة ، ظريف المَنْزَع ، أنيق للرأى وللمسمع ، اختص بالرياسة ، وأدار فَلَكَ إمارتها ، واتسم بِاسم كتابتها ووزارتها ، ناهضاً بالأعباء ، راقياً(٣) فى دَرَج التقريب والاجْتِباء ، مُصانعاً دهره فى راحٍ وراحة ، آوياً إلى فضل وسماحة ، وخِصْب ساحة ، كلما فرغ من شأن خدمته ، وانصرف عن ربِّ نعمته ، عقد شِرْباً(٤) ، وأطفأ من الاهتمام

---

(١) وردت هذه الترجمة فقط فى الإسكوريال . ولم ترد فى «ج» ولا «الزيتونة» .

(٢) الزيادة من نفح الطيب .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح صاعدا .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تربا) والأولى أنسب للمعنى والسياق .

بغير الأيام حرْباً ، وعكف على صوت يَسْتعيده ، وظَرْف يبديه ويعيده . فلما تقلّبت بالرياسة الحال، وقُوّضت منها الرحال ، استقر بالمغرب غريباً ، يقلب طَرْفاً مُسْتريبا ، ويلحظ الدنيا تَبِعةً عليه وتثريباً ، وإن كان لم يعدم من أمرايها حُظْوةَ وتقريباً ، وما برح يبوح بشَجَنة ، ويرتاح إلى عهود وطنه .

شعره وكتابته

مما كتبه ، وبيّن فيه أدبه قوله :

يا نازحين ولم أفارق منهم ... شوقاً تأجّج فى الضُّلوع ضرامُه
غُيّبتمُ عن ناظرى وشخصكم ... حيث استقر من الضلوع مقامُه
رَمَت النَّوى شملى فشُتّت نظمه[١] ... والبَيْنُ رامٍ لا تطيش سهامه
وقد اعتدى فينا وجدَّ مُبالغا ... وجَرَت بحكم جوره أحكامُه
أترى الزمان مُؤخِّراً فى مدَّتى ... حتى أراه قد انقضَت أيَّامه

تحملها يا نسيم نَجْدِية النَّفحات ، وَجْدِيَّة اللّفحات ، يؤدى عنى نَغَمُها[٢] إلى الأحِبَّة سلاماً ، ويورد عليهم لفحُها بَرْداً وسلاماً ، ولا تقل كيف تُحمِّلُنى ناراً ، وتُرسل على الأحِبَّة منى إعْصارا . كلا إذا أهديتهم تحية إينامى ، وأنِسوا من من جانب هُبُوبك[٣] نار ضرام أنْفاسى ، وارتاحوا إلى هُبُوبك ، واهتزّوا فى كنفٍ مَسْرى جَنُوبك ، وتعلّلوا بها[٤] تعاليلا ، وأوسعوا آثار مَهَبِّك تقبيلا ، أرسلها عليهم بَليلا ، وخاطبهم بلطافة تَلَطُّفك تعليلا . ألم ترونى كيف جئتكم بما حَمّلنى عليلا .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (شمله) .

(٢) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى النفح .

(٣) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (حقوقك) . والأولى أنسب للمعنى والسياق .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (بك) .

كذاك تركتُه مُلْقًى بأرض ... له فيها التعلُّل بالرِّياح
إذا هبَّت إليه صَبا إليهـا ... وإن جاءته من كلٍّ النواح
تساعده الحمايم حين يَبْكى ... فما ينفكُّ موصول النِّياح
يخاطِبْن مهما طِرْن شوقاً ... أما فِيكنَّ واهِيةُ الجنـاح

ولولا تعلُّله بالأمانى ، وتحدُّث نفسه بزمان التَّدانى ، لـكان قد قضى نَحْبه ، ولم أبلغـكم إلا نَعْيه أو نَدْبه ، لا كنه يتعلل من الآمال بالوعد الَمْطول ، ويَتَطارح(١) باقتراحاته على الزمن المجهول ، ويحدث نفسه ، وقد قنَعت من بُروق(٢) الآمال بالخُلَّب ، ووثِقت بمواعيد الدهر القُلَّب ؛ فيناجيها بوحى ضميره ، وإيماء تصويره ، كيف أجِدُك يوم الالتقاء بالأحباب ، والتخلُّص من رِبْقة الاغتراب ، أبائنة الحضور أم بادية الاضطراب . كأنِّى بك وقد استفزَّك ولَهُ السرور . فصرفك عن مشاهدة الحضور ، وعاقَتْك غشاوة الاستِعْبار للاستِبشار ، عن اجْتِلاء محيًّا ذلك النهار .

يوم يداوى زماناتى من أزمانى ... أز بر(٣) تَنْغِيص أحيانى فأحيانى
جعلتُ لله نَذْراً صـومه أبداً ... أفى به وأوفى شرط إيمـانى
إذا ارتفعنا وزال البُعْد وانقطعت ... أشْطان دهر قد التفَّت بأشْطانى
أعده خير أعياد الزمان إذا ... أوْطَأنى السعد فيه تُرْبَ أوطانى

أرأيت كيف ارتياحى إلى التذكار . وانقيادى إلى معلَّلات توهُّمات الأفكار ، كأنّ البُعْد باستغراقها ، قد طُويت شُقَّته ، وذهبت عنى مشقته ؛ وكأنى بالتَّخَيُّل بين تلك الخمايل أتنَسَّم صَباها ، وأتَنَسَّمُ رُباها ، وأجنى أزهارها ، وأجتلى

(١) هكذا فى النفح وفى الإسكوريال (يطارح) والأولى أنسب للمعنى .
(٢) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (برق) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى النفح (أزال) .

أنوارها ، وأجول فى خمايلها ، وأتنعّم ببُكرها وأصايلها ، وأطوف بمعالمها ، وأتنشق أزهار كمايمها ، وأُصيخ بإذن الشّون إلى سَجع حمايمها ، وقد داخلتنى الأفراح ، ونالت منى نَشْوة الارتياح. ودنا السُّرور لتوسُّم[1] ذهاب الأتراح.[2] فلما أفقت من غَمَرات سُكرى ، ووثبت من هفوات فكرى ، وجدّت مرارة ما شابه لُبّى فى استغراق دهرى ، وكأنّى من حينئذ عالجت وقفة الفراق ، وابتدأت منازعة الأشواق ، وكأنما أغمضتنى للنوم ، وسمح لى بتلك الفكرة الحلم :

ذَكَرَ الدّيار[3] فهاجه تذكاره ... وسَرَت به من حينه أفكاره
فاحتلّ منها حيث كان حُلُوله ... بالوهم فيها واستقرّ قراره
بالقُرْب الآمال من هفواته ... لو أنه قضَتْ بها أوطاره

فإذا جيتَها أيها القادم ، والأصيل قد خلع عليها بُرْداً مُورساً ، والربيع قد مدّ على القيمان منها سُنْدُساً ، اتخذها فديتك مُعرَّساً ، واجرر ذيولك فيها تبختُراً ، وبثّ فيها من طيب نفحاتك عنبرا ، وافتق عليها من نوافح أنفاسك مِسكاً أذفرا ، واعطف بعاطف بانها ، وارقص قُضُب ريحانها ، وصافح صفحات نهرها ، ونافح نفحات زهرها . هذه كلها أمارات ، وعن أسرار مقاصدى عبارات ، هنالك تنتعش بها صُبابات ، تعالج صَبابات ، تتعلل بإقبالك ، وتمسك على لَثم أذيالك ، وتبدو لك فى صِفَة الفانى المتهالك ، لاطفها بلطافة اعتلالك ، وترفّق بها ترفّق أمثالك ، فإذا أمالت بهم إلى هواك الأشواق ، ولَوَوا إليك الارؤس والأعناق ، وسألوك عن اضطرابى فى الآفاق ، وتقلبى بين الأشآم والأعراق ، فقل لهم عَرَض له[4] فى أسفاره ، ما يعرض للبدر فى سَرَاره ، من سِرّ السَّرار ، وطاق

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (لتوهم) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (الانتزاح) والتصويب من النفح .
(٣) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (العقيق) . والأولى أنسب للمعنى .
(٤) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (لهم) .

المحاق ، وقد تركته وهو يُسامر الفرْقَدين ، ويُساير النيِّرين ، وينشد إذا راعه البَيْنُ :

وقد نكون وما يُخشى [١] تفرُّقُنا   واليوم نحن وما يُرْجى تلاقينا

لم يفارق وعثاء الأسفار ، ولا ألقى من [٢] يده عصا التَّسيار ، يتهاداه الغَوْر والنَّجد . ويتداوله الأرْقال والوَخْد . وقد لفَحَته الرَّمْضاء ، وسَئِمه الإنْضاء فالجهات تلفظُه ، والآكام تُنْهِظه ، تحمل هومَه الرَّواسم ، [وتَحْفى به النَّواسم] [٣] .

لا يستقرُّ بأرض حين يَبْلُغُها   ولا له غير حَدْو العِيس إيناس

ثم إذا استَوْفوا سؤالك عن حالى ، وتقلبى بين حالى [٤] حِلِّى وتَرْحالى ، وبلغت القلوب منهم الحناجر ، وملأت الدموع المحاجر ، وابتلَّت ذيولك بمائها ، لا بل تضَرَّجَتْ بدمائها ، فحيِّهم عني تحيَّة مُنْفصل . وودِّعهم وَداع مُرْتحل . ثم اعطف عليهم رِكابك ، ومهِّد لهم جَنابك ، [وقل لهم] [٥] إذا سألنى عن المنازل بَعْد سُكّانها ، والرُّبوع بعد ظَعْن أظْعانها . بماذا أُجيبُه ، وبماذا [٦] يسكن وَجِيبُه . فسيقولون لك هى البلاقِعُ المُقْفرات التى أصبحت نَكِرَات .

صُمٌّ صداها وعَفَّى رسمُها   واستَعْجَمت عن منطق السايل

قل لهم كيف الرَّوض وآسُه ، وعمَّاذا [٧] تتأرَّجُ أنفاسه ، عهدى به والحمام يردد

---

(١) هكذ فى النفح . وفى الإسكوريال (ولا) والأولى أنسب للسياق .
(٢) هكذ فى النفح . وفى الإسكوريال (عن) .
(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، ووردت فى النفح (وتحياته البواسم) . والأولى أكثر تمشياً مع المعنى والسياق .
(٤) هذه الكلمة زائدة فى الإسكوريال .
(٥) هذه الزيادة من النفح .
(٦) هكذ وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (ولماذا) . والأولى أنسب للمعنى والسياق .
(٧) هكذ وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (وعما) . والأولى أنسب للمعنى .

أسجاعه، والذُّباب يغنى به هَزِجاً، فيحكُ بذراعه ذراعَه، وغُصونه تعتنق، وأحشاء جداوله تَصْطَفق، وأسحاره تَتَنَسَّم، وآصالُه تَغْتَبق(١)، كما كانت بقية نَضْرَته، وكما عهدتُها أنيقةَ خُضْرته، وكيف التفاتةُ عن أزْرَق نَهْره، وتأنُّقه فى تكليل أكليله ببانع زهره. وهل رقَّ نسيم آصاله، وصَفَتْ موارد جداوله، وكيف انفِساحُ ساحاته، والتفافُ دَوْحاته، وهل تمتدُّ كما كانت مع العَشِىِّ فَيْنانة سَرْحاته. عهدى بها، المديدة الظِّلال، المُزَعْفَرة السِّربال، لم تُحِدِّق الآن به عُيون نَرْجِسه، ولا مُدَّ بِساط سُنْدسه. وأين منه مجالس لذَّاتى، ومعاهد غَدَواتى ورَوَحاتى، إذ أبارى فى المُجُون لمن أبارى، وأسابِق إلى اللَّذات كلَّ من يُجارى. فسيقولون لك ذَوَتْ أفنانُه، وانْقَصَفت أغصانه، وتكدَّرت غُدْرانه، وتغيَّر ريحُه وريحانه، وأقفرت معالمه، وأُخرِست حَمايمه، واستحالت به حُلَلُ خمايله، وتغيَّرت وجوه بُكَره وأصايله، فإن صَلْصَل حَنين رَعْدٍ، فَمَنْ قلبى لفراقه خَفَقْ، وإن تلألأ برقٌ، فمن حَرِّ حشاى ائتلَق، وإن سَحَّت السُّحب فمُساعدة لجفنى، وإن طال بكاؤها فعنِّى، حيَّاها الله منازل لم تَزَلْ بمَنْظوم الشَّمل أواهل. وحين انْتَثَر نُثِرت أزهارها أسفاً، ولم تَثْن الريح من أغصانها مِعْطَفاً، أعاد الله الشَّمل فيها إلى مُحكم نظامه، وجعل الدهر الذى فرَّقه يتأنَّق فى أحكامه. وهو سبحانه يَجْبُر الصَّدع، ويُعَجِّل الجَمع، إنه بالإجابة جَدير، وعلى ما يشاء قدير. إيهٍ بُنىَّ كيف حال من استَوْدَعتهم أمانَتَك، وألزَمْتَهم صَوْنك وصِيانتك، وألبَسْتهم نَسَبك، ومهدت لهم حَسَبك، الله فى حِفْظهم، فهو اللَّائق بفعالك، والمناسب لشرف خِلالك، إرْعَ لهم الاغتراب لديك، والانقطاع إليك، فهم أمانةُ الله

---

(١) هكذ وردت فى الإسكوريال. ووردت فى النفح (تتوسم). والأولى أكثر تمشياً مع السياق.

[تعالى](١) فى يَدَيْك ، وهو سبحانه يحفَظُك بحفظهم ، ويوالى بلَحْظِك أسباب لَحْظِهم ، وإن ذهبتم إلى معرفة الأحوال ، فَنِعِم الله مُمْتدَّة الظِّلال ، وخَيْراته(٢) ضافِية(٣) السِّربال ، لولا الشوق المُلازم ، والوَجْدُ الذى سَكَن الحيازم .

ووقفت من شعره على قصيدة من جملة رسالة ، أثبتها وهى :

أَلِلْبرق يبدو تَسْطير الجـوانح ... وللوَرْق تشدو وتستهل السَّوابح
وقلبى للبرق الخَفُوق مُساعـد ... ووجدى لِلْوَرق الثكالى مُطارح
إذا البرق أَوْرَى فى الظلام زِنادى ... فلِلْوَجد فى زِنْد الصَّبابة قادح
وكم وقفةٍ لى حيث مال بى الهوى ... أُغادِ بها شكوى الجوى وأُراوح
تنازِعُنى منها للشُّجون فأشتكى ... ويكثُر بَثّى عنـدها فأسامح
أَبُثُّ شجونى والحمام يُصيخ لى ... ويُسعدنى فيا تُبيح التَّبارح
وتطرب أغصان الأراك فَتَنْثنى ... إلى صَفْحة النهر الثَّقيل تصافح
فتبتسم الأزهار منهـا تعجُّباً ... فتُهدى إليها عَرْفها وتُنافح
كذلك حتى يماد عطف شغفى ... وطَرْفى أبدى هِزَّة وهو مارح
فلما التَظَى وجْدِى ترنَّم صاهِلاً ... فقلتُ أَمِثْلى يَشْتكى الوَجْدَ نابح
صرفت عَدُوَّ البِيد أرخو عِنانه ... وقلتُ له شمِّر فإننى سابح
تهيأ لقطع البِيد واعتَسِف السُّرَى ... سيلقاك غَيْظان بهـا وممايح
تَحَمْحَم لو يستطيع نُطْقاً لقال له ... بمثلى تَلَقَّى هـذه وتُكافح
وحمَّلتُه عزْماً تعـوَّد مثله ... فقام به مُسْتَقْبلا من يُناطح
ويمَّمت بيداً لم أُصاحب لجوَّها ... سوى جِلْدِ لا يُتَّقى منه فاضح

---

(١) هذه الزيادة من النفح .

(٢) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (وخيره) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وارفة) .

وماذى الغرارين استجدّت مضاه ... إذا جُرّدت يوم الجلاد الصّفايح
ومُنْدمجٌ صِدْق الأنابيب نافذٌ به ... عند كرّى فى الحروب أقايح
ومِرْتُ فلاألقى سوى الوحش نافراً ... وقد شرّدت فى الظّبا السوانح
تُحدّق نحوى أعيُناً لم يَلُح لها ... سَناً لكَ أسْنَى ولا هُو لايح
وقد زأرت أُسْدٌ تقحّمت غيلُها ... فقلت تَمَاوت إنها لنَوايح
وكم طاف بى للخَبْر من طايف بها ... فلم أُصغِ سمعاً نحوها وهو صايح
ويَعْرض لى وجهاً دمياً ومنظراً ... شنيعاً له تَبْدو عليه القبايح
فما راعنى منه تلوّن حاله ... بل أيقظ عزمى فانثنَى وهو كالح
فلما اكتَسَتْ شمسُ العشىّ شحوبَها ... ومالت إلى أفْقِ الغروب تُنازح
تَسَرْبَلتُ للإدْلاج جنْح دَجْنَةٍ ... فها أنذا غَرْمى إلى القصد جانح
فخُضْتُ ظلام الليل والنجم شاخصٌ ... إلىّ بلَحْظِ طرفُه لى لايح
يرده شَزَراً إلىّ كأنما ... على له حقدٌ به لا يُسامح
وراقب من شكلى السِّماك نظيره ... خلا لزمكلى أعزَل وهو رامح
يخطُّ وميضُ البرق لى منه أسْطُراً ... على صفحة الظَّلماء فهى لوايح
إذا خطّها ما بين عينَىّ لم أزل ... أكفكِف دمعى نحوها فهو طامح
ومازلت سراً فى حَشَى النبل كامناً ... إلى أن بدا مِن نايِم الصبح فاتح
وهبّ نسيم الصبح فانعطَفت له ... قُدود غصونٍ قد رقتْها صوادح
يُجاذب ذِكْرى أحاديث لم أزل ... يردِّدُها منى مُجِدٌ ومازح
ومِلْتَ إلى التّعريس لما انقضى السُّرى ... أرُوض له نفسى وعزْمى جامح
ومال الكَرَى بى مَيْلَةً سَكَنَتْ لها ... على نَصَب الوَعْثاء منى الجوارح
كمن أخذت منه الشُّمول بثارها ... فبات يَشْقى وهو ريّان طافح
وقرّبتْ الأحلام لى كل مَأْمَل ... فأدنته منى وهو فى الحق نازح

أرتنى وجوهاً لو بذلتُ لقربها ... حياتى لِمَنْ بالقُرْب منه يُساعِ
لقَلَّ لها عمرىَ وما ملَكت يدى ... وحدَّثت نفسى أنْ تجزى رابح
وما زالتُ أشكو بيننا غُصص النوى ... وما طوّحت بى فى الزمان الطوايح
فمنهـا نفورٌ للشرور بواسمٌ ... لقُرْبه ومنها للفراق نوايح
تقرّبها الأحلامُ منّى ودونها ... مهامِهُ فيها للهجير لوافح
وبحرٌ طمَت أمواجه وشآبيب ... وقفر به للسّالكين جوامح
قضيتُ حقوق الشوق فى زَوْرة ... للكرَى فإنّ زيارات الكرَى لموانع
يقرِّبنَ آمالا تباعدُ بينها ... وتصبَّت فيها للنفوس الطّوايح
فلما تولىّ عن النوم أعقبَتْ ... همومٌ أثارتها الشّجون فوادح
وعُدْت إلى شكوى البلاء ولم أزل ... أردّدها والعذْر منى واضح
وما بلّغتْ عن مشافهةُ الكرَى ... تُبلّغُها عن الرياح اللّوافح
وحَسْبُك قلبٌ فى أسار اشتياقه ... وقد أسْلَمَته فى يدَيه الجوانح

وفاته

قال شيخنا أبو بكر بن شبرين ، توفى بسِجِلْماسة فى صفر عام ستة عشر وسبعماية .

محمد بن محمد بن عبد الله بن مقاتل

من أهل مالقة ، يكنى أبا بكر .

---

(١) وردت هذه الترجمة فقط فى الإسكوريال ، ولم ترد فى «ج» ولا «الزيتونة» .

حــــاله

من كتاب الإكليل : نابغةٌ مالقية ، وخَلَفٌ وبقية ، ومغربى الوطن أخلاقه مَشْرِقية . أزْمَعَ الرحيلِ إلى المشرق ، مع اخضرار العود ، وسواد المَفْرِق ، فلما توسّطت السفينة اللُّجج ، وقارعت الثَّبَج ، مال عليها البحر ، فسقاها كأس الحِمام، وأولدها قبل التمام ، وكان فيمن اشتملت عليه أعوادها ، وانضم على نوره سوادُها ، جملة من الطلبة والأدباء ، وأبناء السراة الحُسبَاء ، أصبح كلٌّ منهم مُطيعاً لداعي الرَّدى وسميعاً ، وأحيوا فُرادى وماتوا جميعاً، فأجْرُوا الدموع حزناً، وأرسلوا العَبَرات عليهم مُزْنا . وكان البحر لمّا طَمَس سُبُلَ خلاصهم وسدَّها ، وأحال هَضْبَةَ سفينتهم وهدّها ، غار على نفوسهم النَّفيسة واستردها . والفقيه أبو بكر ، مع إكثاره ، وانقياد نِظامه ، ونِثاره ، لم أظفر من أدبه إلا بالقليل التافه ، بعد وداعه وانصرافه .

فمن ذلك قوله وقد أبصر فتى عاثراً :

ومُهفهف هافِي المعاطف أحورُ فَضَحت أشعةُ نوره الأقمارا
زلّت له قدم فأصبح عاثراً بين الأنام لعا لِذاك عثارا
لو كنت أعلمُ ما يكون فرشتُ فى ذاك المكان الخدَّ والأشْفارا

وقال متغزِّلا :

أيالبنى الرِّفاء تُنضى[1] ظباؤهم[2] جُفون ظِباهم والفؤاد كليم
لقد قطع الأحشاء منهم مهفهفٌ له التِّبر خَدٌّ واللُّجين أديم
يسدِّد إذ يرمى قسىّ حواجب وأسهمها من مقلتيه تسوم
وتُسقمنى عيناه وهى سقيمة ومن عجبٍ سُقمٌ جناه سقيم

(١) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (تمضى)
(٢) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (ظباهم) .

ويذبُل جسمى فى هواه صَبابةً وفى وَصْله للعاشقين نعيم

توفى فى حدود أخريات عام تسعة وثلاثين وسبعماية غريقاً بأحواز الغِبْطة من ساحل ألمريّة .

محمد بن أحمد بن أحمد بن صفوان القيسى(١)

ولد الشيخ أبى الطاهر ، من أهل مالقة .

من كتاب الإكليل : نبيلٌ فطِن ، متحرك ذهن ، كان أبوه رحمه الله ، يتبَّرم بجداله ، ويخشى مواقع رَشْق نِباله ، ويُشِيم بأرقِّ الاعتراض فى سؤاله ، فيُشفق من اختلال خلاله ، إذ طريقه إنما هى أذواق لاتشرح ، وأسرار لاتفضح . وكان ممن اخترم ، وجُدَّ حبلُ أمله وصُرم ، فأفَل عقب أبيه ، وكان له أدب يخوض فيه .

فمن ذلك ، وقد أبصر فتى وسيما على ريحانه :

بدرٌ تجلىّ على غصن من الآس يُبْرى ويُسْقِم فهو الممرض الآسى
عادى المنازل إلا القلب منزلة فماله وجميع الناس من ناس

وقال :

ياعالمـــا بالسِّر والجَهْرْ وملجأى فى العُسْر واليُسْر
جُدْ لى بمـــا أملته منك يامولاى واجْبرُ بالرِّضا كَسْرى

وفاته : فى عام خمسة وسبعماية .

(١) هذه الترجمة واردة فى الإسكوريال فقط . ولم ترد فى "ج" ولا «الزيتونة» .

محمد بن محمد بن عبد الواحد بن محمد البلوى(١)

من أهل ألمرية ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بنَسَبه ، وقد مر ذكر أبيه في العُمّال .

حـــاله

هذا الرجل من أبناء النعم ، وذوى البيوتات ، كثير السكون والحياء ، آل به ذلك أخيراً للوُلوثة ، لم يستفق منها لطف الله به . حسن الخط ، مطبوع الأدب ، سيّال الطبع ، مَعِينه . وناب عن بعض القضاة ، وهو الآن رهينُ ما ذكر ، يتمنى أهله وفاته ، والله ولىّ المعافاة ، بفضله .

وجرى ذكره فى الإكليل بما نصه : من أولى الخِلال البارعة والخصال ، خطًّا رايقا ، ونظما بمثله لايقا ، ودُعابة يسترها تجهُّم ، وسكوتاً فى طيِّه إدراك وتفهُّم . عُنى بالرواية والتقييد ، ومال فى النظم إلى بعض التوليد ، وله أصالة ثبتت فى السَّرْو عروقها ، وتألقت فى سما المجادة بروقها ، وتصرف بين النيابة فى الأحكام الشرعية ، وبين الشهادات العملية المرعية .

شعـــره

ومن شعره فيما خاطبنى به ، مهنئاً فى إعذار أولادى أسعدهم الله ، افتتح ذلك بأن قال .

قال ، يعتذر عن خدمة الإعذار ، ويصل المدح والثنا على بُعد الدار ، وذلك(٢) بتاريخ الوسط من شعبان فى عام تسعة وأربعين وسبعمائة :

---

(١) هذه الترجمة واردة فقط فى الاسكوريال . ولم ترد فى «ج» ولا «الزيتونة» .

(٢) ورد فى المخطوط (ولان) وهو تحريف اقتضى التصويب .

لا عُذر لى عن خِدمة الإعذار — وإن نأى وطنى وشطّ مزارى
أو عاقنى عنه الزمان وصرفه — نَقْضُ الأمان عادة الأعصار
قد كنت أرغب أن أفوت بخدمتى — وأخطر حِلىٌّ عنـــد باب الدار
باب المسَرّة بالضبع وأهـــله — متشمّراً فيـــه بفضل إزار
من شاء أن يلقى الزمان وأهله — ويرى جلا الإشماع(١) فى الأفـكار
فليأت حىّ ابن الخطيب ملبّيا — فيفوز بالإعظام والإكبار
كم ضمّ من جيدٍ كرام فضلهم — يسمو ويعلو فى ذوى الأقدار
إذ حيث ناديه فقف ىنى — وقل نلتُ المنى بتلطّف ووقار
يا من له الشرف القديم ومن — له الحَسَبُ الصميم العدّ يوم فخار
يُهنيك ما قد نلتَ من أمل به — فى الفرقدين النّيرين يسار
نجلاك قُطبا كل تَجْر باذخ — أملان مرجُوّان فى الاعتبـار
عبد الإلـه وصنوهُ قمر العلا — فرعان من أصل زَكا وبحار
ناهيك من قرين فى أفق العلا — ينميهما نورٌ من الأنوار
زاكى الأرومة مغرق فى مجده — جمّ الفضايل طيّب الأخبار
رقّت طبـايعه وراق جمـاله — فـكأنما خُلقا من الأزهار
وجلّت شمايل حُسْنه فـكأنمـا — خلعت عليه رقة الأسحار
فإذا تـكلم قلت ظل ساقط — أو وَقْع درٍّ من نُحور جوار
أو فتّ مسك الحبر فى قرطاسه — بالروض غبّ الوا كف المدرار
تتّسم الأقلام بين بنـانه — فيريك نظم الدرّ فى الأسطـار
فتخال من تلك البنان كأنمـا — نَهِلت تُفَتّح ناضر النُّوار

(١) وردت فى المخطوط (الإشاع) ، وبالتصويب يستقيم المعنى والسياق .

تلقـاه فيّـاض الندى مُتهلّلا ... يلقاك بالبِشر والاستبشار
بحر البلاغة قُسها وأيادُها ... سَحْبانها خَبرٌ من الأخبار
إن ناظَر العلمـاء فهو أمامهم ... شرفُ المعارف واحد النظـار
أرْبىَ على العلماء بالصِّيت الذى ... قد كان فى الآفاق كل مطار
ما ضره إن لم يجىء متقدّماً ... السَّبْقُ يعرف آخر المضمار
إن كان أُخَّره الزمان لحكمة ... ظهرت وما خفيت كضوء نهار
الشمس تُحجب وهى أعظم نَيِّر ... وتُرى من الآفاق إثر دَرار
يا ابن الخطيب خطبتُها لعلاكم ... بِـكْراً تُزف لـكم من الأفـكار
جاءتك من خجل على قَدَم الحيا ... قد طُيِّبت بثَنايك المِعْطـار
وأنت تؤدى بعض حق واجب ... عن نازح الإمكان والأفـكار
مدّت يد التَّطفيل نحو عُلاكم ... فتوحّشت من جودكم بنَضار
فابذل لها فى النَّقد صفحك إنهـا ... شـكوى التقصير فى الأشعار
لازلت فى دَعَةٍ وعزٍّ دايم ... ومسرّةٍ تَتْرى مع الأعصار

ومن السُّلطانيات قوله من قصيدة نسيبها :

تبسم ثغر الدهر فى القُضُب المُلْد ... فأذكى الحيا خَجلةً وجنةَ الورد
ونبّه وَقْعُ الطّل ألحاظ نرجس ... فمال الوَسنان وعاد إلى الشهد
ونمَّ سَنْبرُ الروض فى مِسكة الدُّجا ... نسيم شذا الخير كالمسك والنَّد
وغطّى ظلام الليل حُمرة أفقه ... كما دار مُسْوَدُّ العِذار على الخدّ
وباتت قلوب الشُّهب تخفق رقّة ... لما حلَّ بالمشتاق من لَوْعة الوَجْد
وأهمَى عليه الغيم أجفان مُشْفق ... بذكره فاستمطر الدَّمع للخدّ

ومنهـا

كأنّى لم أقِف فى الحىّ وقفةَ عاشق ... غداة افترقنا والنَّوى زَندها يُمدُّ
وناديت حادىَ العِيس عرِّج ... لعلّى أبثُّك وجدى إن تمر على نَجْد
فقال اتّيد يا صاح مالك ملجأٌ ... سوى الملك المنصور فى الرِّفق والرُّشْد

ومما خاطبنى به قوله :

عَلِّلونى ولو بوعـدٍ مُحال ... وحِلُونى ولو بطيف خيال
واعلموا أننى أسير هواكم ... لست أنفكُّ إلا عن عِقال
فدموعى من بينكم فى انْسكاب ... وفؤادى من سحركم فى اشتغال
يا أُهَيْل الحِمَى كفانى غرامى ... حَسْبِى بما قد جرّ . . .(١) ال
مَنْ مُجيرى من لحظِ ريم ظلوم ... حلَّل الهجر بعد طيب الوصال
ناعسُ الطرف أسمر الجفن منى ... طال منه الجوى بطول الليال
بابلىُّ اللّحـاظ أصْمَى فؤاده ... ورماه من غنجه بنبـال
وكسا الجسم من هواه نُحولا ... قصده فى النَّوى بذاك النحال
ما ابتدا فى الوصال يوماً بعطف ... مُذْ روى فى الغرام باب اشتغال
ليس لى منه فى الهوى من مُخْبِر ... غير تاج العُلا وقطب الكمال
علم الدين عزُّه وسناه ذِرْوَة ... المجـد بَدْرُ أفق الجـلال
هو غيثُ النَّدا وبحر العطايا ... هو شمس الهدى فريد المعال
إن وَشَى فى الرقاع بالنقش قلنا ... صفحة الطِّرس حُلِّيت باللآل
أو دَجا الخطب فهو فيه شِهاب ... رايةُ الصبح فى ظلال الضلال
أوبنا العَضْب فهو فى الأمن ماض ... صادقُ العزم ضيق المجـال
لستَ تلقى مِثـاله فى زمان ... جلَّ فى الدهر يا أخى عن مثـال
قد نأى حُبِّى له عن ديارى ... لا لجَدْوى ولا لنَيْل نوال

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال يتخللها البياض .

لـكن اشتقتُ أن أرى منه وجهاً　　نوره فاضحٌ لنور الهلال
وكما هِمْت فيه ألثم كفًا قد　　أتت بالنوال قبل السؤال
سألها ابن الخطيب عذراً أجابت　　تلثم النعل قبل شسع النعال
وتُوفى حقّ الوزارة عمن هو　　مِلْكٌ لها على كل حال

محمد بن محمد بن الشَّديّد(١)

من أهل مالقة ، يكنى أبا عبد الله .

حاله

ذكر فى الإكليل بما نصه : شاعر مجيد ، حَوْك الكلام ، ولا يَقْصُر فيه عن درجة الأعلام . رحل إلى الحجاز لأول أمره ، فطال بالبلاد المَشْرقية ثَواؤه . وعُميت أنباؤه ، وعلى هذا العهد وقفتُ [له] على قصيدة بخطّه غرضها نبيل ، ومرعاها غير وبيل ، تدل على نَفْس ونَفَس ، وإضاءة قَبَس ، وهى :

لنا فى كل مَكْرُمة مَقام　　ومن فوق النجوم لنا مُقام
روينا من مياه المجد لمّا　　وردناها وقد كثر الزحام

ومنها :

فنحن هُمْ وقل لى مَنْ سوانا　　لنا التقديم قُدْماً والكلام
لنا الأيدى الطوال بكل ضرب　　يهزّ به لدى الروع الحسام
ونحن اللابسون لكل دِرْع　　يصيبُ الشمس منهنّ انثلام
بأندلس لنا أيام حرب　　مواقِفُهن فى الدنيا عظام

(١) هذه الترجمة واردة فى الإسكوريال فقط . وقد نقل المقرى عن الإحاطة نبذة فى ترجمة المذكور جاء فيها أنه محمد بن قاسم بن أحمد بن ابراهيم الأنصارى الجيانى الأصل ثم المالقى . ثم نقل عنه بعد ذلك ما أورده ابن الخطيب فى الإكليل (النفح ج ٤ ص ٤١ و ٤٢).

ثَوى منها قلوب الرُّوم خوفاً ... يُخَوَّف منه فى المَهْد الغلام
حَمينا جانب الدين احتسابا ... فما هو لا يُهان ولا يُضام
وتحت الراية الحمراء منّا ... كتايبُ لا تطاق ولا ترام
بنو نَصْرٍ وما أدراك[1] ماهم ... أُسود الحرب والقوم الكرام
لهم فى حربهم فَتَكات عمرو ... فللأعمار عندهم انصرام
يقول عداتُهم مهما أَلَمُّوا ... أتونا ما من الموت اعتصام
إذا شرعوا الأسنّة يوم حرب ... فحقِّق أنّ ذاك هو الحِمام
كأن رماحهم فيها نجوم ... إذا ما أشبه الليلَ الغمام[2]
أناس تخلف الأيام ميتاً ... بحىّ منهم فلهم دوام
رأينا من أبى الحجاج شخصاً ... على تلك الصفات له قيام
مُوَقَّى العِرْض محمود السجايا ... كريم الكفّ مقدام همام
يجول بذهنه فى كل شىء ... فيدركه وإن عز المرام
قويم الرأى فى نُوَب الليالى ... إذا ما الرأى فارقه القوام
له فى كل معضلة مضاء ... مضاء الكفّ ساعده الحُسام
رؤوف قادر يغضى ويعفو ... وإن عظم اجتناء واجترام
تطوف ببيت سُؤْدُده القوافى ... كما قد طاف بالبيت الأنام
وتسجد فى مَقام عُلاه شكرا ... ونعم الرُّكن ذلك والمقام
أفارسها إذا ما الحرب أَخْنَتْ ... على أبطالها ودنا الحِمام
وممطرها إذا ما السحب كفّت ... وكفُّ أخى الندى أبداً غمام

---

(١) هكذا وردت فى النفح . وفى المخطوطات (ما أدريك) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (القتام) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بيحيا) .

لك الذكر الجميل بكل قطر   لك الشرف الأصيل المُسْتدام
لقد جِينا[1] البلاد فحيث سِرْنا   رأينا أن مُلْكَك لا يرام
فَضُلت ملوكها شرقاً وغرباً   وبتَّ لملكها يقظاً ونامُ
فأنت لكل مَعْلُوَّة مدار   وأنت لكل مَكْرُمة إمام
جعلتَ بلاد أندلس إذا ما   ذكرت تغار مصرُ والشآم
مكان أنت فيه مكان عزٍّ   وأوطان حَلَلْتَ بها كرام
وهبتُك من بنات الفكر بِكْرا   لها من حُسْن لقياك ابتسام
فنزِّه طرف مجدك فى حُلاها   فللمجد الأصيل بها اهتمام

محمد بن مسعود بن خالصة[2] بن فرج بن مجاهد ابن أبى الخصال الغافقى

الإمام البليغ ، المحدِّث الحجّة ، يكنى أبا عبد الله . أصله من فَرْغَليط من شُقُورة ، من كورة جيّان ، وسكن قرطبة وغرناطة .

حـــاله

قال ابن الزُّبير عند ذكره : ذو الوزارتين . أبو عبد الله بن أبى الخصال . كان من أهل المعارف الجمَّة ، والإتقان لصناعة الحديث . والمعرفة برجاله ، والتقييد لغريبه ، وإتقان ضَبْطه ، والمعرفة بالعربية واللغة[3] والأدب ، والنَّسَب

(١) وردت فى الإسكوريال (جئت) . والتصويب من النفح .
(٢) هكذا وردت فى «ج» ، وفى «الزيتونة» . وفى الإسكوريال (خلصة) .
(٣) وردت فى الإسكوريال و«الزيتونة» . وساقطة فى «ج» .

والتاريخ ، متقدماً فى ذلك كله . وأما الكتابة والنظم ، فهو إمامهما المتفق عليه ، والمُنَحا كم فيهما إليه .

ولما ذكره أبو القاسم الملاّحى بنحو ذلك قال : لم يكن فى عصره مثله ، مع دين وفضل وورع .

قال أبو عمرو بن الإمام الإستِجّى فى سِمْط الجُمان ، لما ذكره : البحر الذى لا يُماتَح ولا يُشاطر ، والغيث الذى لا يُساجل ولا يُقاطر [1] ، والروض الذى لا يُفاوح ولا يُماطر ، والطّود الذى لا يزاحم ولا يخاطر ، الذى جمع أشتات المحاسن ، على [ماءٍ غير ملح] [2] ولا آسِن ، وكثرت فواضله ، فأمنت المُماثل والمُحاسن ، الذى قَصِرت البلاغة [على مَحْتده] [3] ، وألقيت أزمة الفصاحة فى يده ، وتشرّفت الخطابة والكتابة باعتزائهما إليه ، فنثل كنانتها ، وأرسل كامِنَها ، وأوضح أسرارها ودقائقها ، فحسب الماهر التّحرير ، [والجَهبذ العلامة البصير] [4] إذا أبدع فى كلامه ، وأينع فى روض الإجادة نِثاره ونظامه ، [وطالت قَنى الخطّية الذبل أقلامه] [5] ، أن يستنير بأنواره ، [ويقتَفى بعض مناهجه وآثاره] [6] وينثر على أثوابه مِسْك غُباره ، وليعلم كيف يتفاضل الخبر والإنشاء ، ويتلو إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

[وعضّه المقوّر أبو نصر] [7] فى قلائده . حيث قال ، « هو وإن كان خامل المَنْشأ نازِلَه ، لم يُنْزِله الجدُ منازله ، ولا فرع للعَلاء هضابا ، ولا ارتشف للسّنا رضابا ،

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (يخاطر) والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» و «الزيتونة» . ووردت فى الإسكوريال (على غير طوق) . والأولى متمشية مع المعنى والسياق .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى الإسكوريال (عليه) . والأولى أنسب للسياق ومقتضيات السجع .

(٤ و ٥ و ٦) هذه العبارات الثلاثة المحصورة بين الحواصر واردة فى الإسكوريال . والأولى منها ساقطة فى المخطوطين . والثانية والثالثة ساقطة فى «ج . وواردة فى «الزيتونة» .

(٧) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ومكانها فى المخطوطين (وذكره الفتح فى قلائده) وأبو نصر هو كنية الفتح بن خاقان صاحب القلائد .

فقد تميّز بنفسه ، وتحيز من [أبناء][1] جنسه ، وظهر بذاته ، ونَفَرَ بأدواته» .

مشيخته

قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير ، فى الصلة ، روى عن الغسانى ، والصَّدفى[2] وأبي الحسن بن الباذش ، وأبى عمران بن تَليد ، وأبى بحر الأسدى ، وأبى عبد الله النَّفَزِى ، وجماعة غيرهم .

تواليفه

قال الأستاذ ، وأما كتبه وشعره[3] وتواليفه الأدبية ، فكل ذلك مشهور ، متداول بأيدى الناس ، وقلَّ من يُعلم بعده ، أن يجتمع له مثله ، رحمه الله .

من روى عنه

روى عنه ابن بَشْكوال ، وابن حبيش ، وابن مضاء وغيرهم ؛ وكل ذلك ذكره فى رِحاله، وهو أعرف بتقدُّمه فى احتفاله .

شعره[4]

وله شعر كثير . فمن إخوانياته ما خاطب به أبا إسحق بن خفاجة :

هبَّ النسيم هبوب ذى إشفاق ... يُذهبن الهوى بجناحه الخفّاق

(١) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين . وهى ساقطة فى الإسكوريال . وفى القلائد

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (الصديقى) .

(٣) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال والزيتونة . وساقطة فى «ج» .

(٤) لم يرد فى «ج» و «الزيتونة» من شعر ابن أبى الخصال سوى عشرة أبيات ، فى حين أن شعره فى مخطوط الإسكوريال يملأ عدة صفحات من لوحة ٢٢ إلى لوحة ٢٨ ، ويرد ضمن ذلك الأبيات العشرة التى وردت فى المخطوطين . ومن ثم فقد رأينا أن نتبع مخطوط الإسكوريال فى إيراد شعره .

وكأنما صبح الغصون بنَشْوة ... باحت لها سراير العشاق
وإذا تلاعبت الرياح ببـــانِهِ ... لعب الغرام بمهجة المشتاق
مَهْ يانسيم فقد كبُرت عن الصّبا ... لم يبق من تلك الصّبابة باق
إن كنتَ ذاك فلست ذاك ولا ... أنا قد أذِنتَك مفارقى بفراق
ولقد عَهِدت سُراك من عُدَد الهوى ... والموت فى نظرى وفى استنشاق
أيام لو عَنَّ السلو لخاطـــرى ... قرّبته هَدْياً إلى أشواق
الهوى إلفِى والبطالة مرْكبى ... والأمن ظِلّى والشباب رواق
فى حيث قُسّمت المُدامة قسمةً ... ضيزى لأن السكر من أخلاق
لا ذنب للصّهْباء أنى غاصب ... ولذاك قام السكر باستحقاق
ولقد صدَدْتُ الكأس فانقبضت ... بها من بعد ما انبسطت يمين السّاق
وتركتُ فى وسط النّدامى خلّة ... هامت بها الوُسْطى من الأعلاق
فاستَشْرَفُونى مذكّرين وعندهم ... أنى أدين اللهو دين نفاق
وحَبابُها نَفَث الحَباب وربما ... سَدِكت يد الملسوع منه براق
وكأنه لما توقر من فوقهـــا ... نورٌ تجسّم من ندى الأحداق
لو بارح نَفَح النَّوى فى روضة ... فأثارها وسَرى عن الأحداق
ولقد جلوا والله ينوأ كيدهم ... فتّانة الأوصاف والأعراق
أغوى بها إبليس قدُماً أدَماً ... وهى السّر يرتمى فى هواها الباق
تالله أصرف نحوها وجْدَ الرضا ... لو شَعْشَعت برضا أبى إسحاق

ومن نسيبه :

وليله عنــبرَيةُ الأفق ... رَوَيت فيها السرور من طرق
وكـنت حَرّان فاقتدحتُ بها ... نارا من الرّاح برّدت حُـــرق

وافت بها عاطلا وقد لبست ... غِلالةً فُصِّلت من الحَدَق
فأجابها الدهر من بنيه دُجا ... لقيته كالإصباح فى نسَق
قامت لنا فى المقام أوجُهم ... وراحُهم بالنجوم والشَّفق
وأطلع البدر من ذُرى غصن ... تَهفو عليه القلوب كالورق
من عبد شمس بدا سناه ... وهل ذاك النور إلا لذاك الأفق
مدّ بحمراء من مُدامته ... بيضاء كفٍّ مسكيّة العَبَق
فخلتها وردة مُنعَّمة ... تحمل من سُوسنٍ على طبق
نشرَت فى الراح حين نشرتُها ... ما غادرت مقلتاه من رَمق

وقال :

[يا حبذا ليله لنا سَلَفَت ... أغرت بنفسى الهوى وما عرَفت
دارت بظلمائها المُدام فكم ... نَرْجِسة من بنفسِج قَطَفَت] (١)

وقال [فى مُغَنٍّ زار ، بعده أغبَّ وشطَّ للزار] (٢) .

[وافى وقد عظُمت علىّ ذنوبه ... فى غيبةٍ قبُحت (٣) بها آثاره
فمحا إساءته لنا إحسانُه ... واستغفرت لذنوبه أوتاره (٤)] (٥)

وقال يعتذر عن استبطاء مُكاتبة :

ألم تعلموا والقلب رَهْنٌ لديكم ... يخبِّركم عنى بمُضجِره بعدى

---

(٢) ورد هذان البيتان فى «ج» و «الزيتونة» .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وقد ورد مكانها فى المخطوطين (فى غائب آب بعد ما غب المزار) . ويلوح لنا أن عبارة الإسكوريال هى الأرجح . حيث وردت فى البيت الثانى كلمة (أو تاره) ، وهى نما يقترن بذكر المغنى .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (حظيت) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (أنواره) . وفى الزيتونة (أماره) .

(٥) ورد هذان البيتان فى «ج» و «الزيتونة» .

فلو قلبتنى الحادثات مكانكم لأنهبتُها وفرى واوُ دلأتها خدى
ألم تعلموا أنى وأهلى وواحـــدٌ فدا ولا أرضى بتفدية وحدى

ومن قوله فى غرض المـــدح يخاطب تاشفين بن على[1] ويذكر الوقعة بكرّكى ، يقول فيها :

الله أعطاك فتحاً غير مشترك وردُ عزمك عن فوتٍ إلى دَرَك
أرسل عِنان جوادٍ أنت راكبُه واضمُمْ يديك ودَعْهُ فى يد الملَك
حتى يصيرَ إلى الحسنى على ثقة يَهدى سبيلك هادٍ غير مُؤتمك
قد كان بُعْدُك للأعداء مَملكة حتى استدَرّت عليهم كورةُ الفلك
سارت بك الجردا وطار القضا بها والخيرُ قد قيدّ الأعداء فى شَرَك
فما تركت كمِيًّا غير مُنعفر ولا تركت نجيعاً غير منسَفك
ناموا وما نام موتور على حَنَق أسدى إذا فرصة من السلك
فَصبَّحتْهم جنود الله باطشةً والصبح من عَبَرات الفجر فى مُسُك
من كل مُبتدر كالنَّجم مُنكدر تفيض أنفسهم غيظاً من المَسَك
فطاعنوكم بأرماح وما طَعَنت وضاربوكم بأسياف ولم تحِك
تعجل النحر فيهم قبل موسمه وقدَّمَ الهدى منهم كل ذى نُسُك
فالطير عاكفة والوحش واقفة قد أثقلتها لحوم القوم عن حرَك
عَدَت على كل عادٍ منهم أسر بعثَه فى حَنجر رَحْب وفى حَنَك
كلى هنيئاً مريئاً واشكرى مَلِكاً قَرَنْكِ أسيافه فى كل مُعترك

---

(١) هو الأمير تاشفين بن على بن يوسف المرابطى ، أمير المسلمين بالمغرب والأندلس (٥٠٠ – ٥٣٧ هـ) . وقد ولاه أبوه شئون الأندلس فى سنة ٥٢٢ هـ . وقد خاض تاشفين عدة معارك ظافرة ضد القشتاليين ، كانت منها معركة كركى فى سنة ٥٣١ هـ (١١٣٦ م) . وكركى بلدة حصينة تقع على مقربة من قلعة رباح جنوبى نهر وادى يانه .

فلو تَنَضَّدت الهامات إذ نشرت ... بالقـاع للغيظـان بالنَّبك
أبرح وطالب بباقى الدهر ماضيه ... فيوم بَدْرٍ أقامه الفيء فى فَدَك
وكم مضى لك من يوم بِنْتَ له ... فى ماقط برماح الخطِّ مُشْتبك
بالنَّقْع مُرْتكم بالمـوت مُلْتَئِم ... بالبيض مشتمل بالسُّمْر مُحْتبك
فحصُ القِباب إلى فحص الصعاب ... إلى أُرْيُولة مَداساتٍ إلى السَّكك
وكم على خَبْر محمود وجاوته ... للروم من مُرْتكل غير مُتَرك
وفِئْتَ للصفر حتى قِيلَ قد غدروا ... سَمَوْتَ تطلب نصر الله بالدَّرك
فأسْلَمتهم إلى الإسلام غَدْوَتهم ... وأذْهَبَ السيف ما بالدِّن من حُنُك
يا أيهـا الملك السامى بهمته ... إلى رضى الله لا تَعْدَم رضى المَلِك
مازلت تُسمعه بُشرى وتُطلعه ... أخرى كدرٍّ على الأجياد مُنْسَلك
بيَّضت وجه أمير المؤمنين بهـا ... والأرض من ظُلْمة الإلحاد فى حَلَك
فاستَشْعر النَّصر واهتَزت منابُره ... بذكر أرْوَع للكفار مُحْتَنك
فأخْلَدك ولمن والاك طاعته ... خُلودَ برٍّ بتقوى الله مُمْتَسِك
وافيتَ والغيثُ زاخر قد بكا طَرَباً ... لمَّا ظفرت وكم بلله من الضَّحك
وتمّ الله ما أنشأت من حسن ... بكل مُنْسَبِك منه ومُنْتَمك
وعن قريب تُباهى الأرض من زهير سماهـا بهـا غَضَّة الحَبْك

فعُد وقُد واعتمد وأحد وسُدْ وأبد
وقُلْ وصِلْ واستَطِل واستولِ وانتَهك

وحسبُك الله فرداً لا نظير له ... تغنيك نُصْرته عن كل مُشْترك

ومن قوله فى غرض الرثاء ، يرثى الفقيد أبا الحسن بن مغيث :

الدهر ليس على حُر بمؤتمن ... وأى عِلْق تخطَّته يد الزمن

يأبى العفا على الدنيا وساكنها   كأن أدبر لم يسكن إلى سكن
ياباكيا فرقة الأحباب عن شحط   هلا بكيت فراق الروح للبدن
نور تقيد فى طين إلى أجل   وانحاز عنوا وخلى الطين فى الكفن
كالطير فى شرك يسمو إلى دَرَك   حتى تخلص من سقم ومن درن
إن لم يكن فى رضى الله التقا وهما   فيالها صفقة بتت على دغن
يا شد ما افترقا من بعد ما اعتنقا   أظنها محرقة كانت على دخن
ورب سار إلى وجه يسر به   وافى وقد نبت المرعى على الدمن
أتى إلى الله لا سمع ولا بصر   يدعو إلى الرشد أو يهدى إلى السنن
فى كل يوم فراق لا بقاء له   من صاحب كرم أو سيد قمن
أعيا أبا حسن فقد الذين مضوا   فمن لنا بالذى أعيا أبا حسن
كأن البقية فى قوم قد انقرضوا   فهاج ما شاء ذاك القرن من شجن
يعد فدا وفى أثوابه رمز من   كل ذى خلق عمرو وذى فطن
وإن من أوجدتنا كل مفتقد   حياته لعزيز الفقد والظمن
من للملوك إذا خفت حلومهم   بما يقاوم ذاك الطيش من سكن

ومنها :

يا يونس لا تسر أصبحنا لوحشتنا   نشكو اغترابا وما بنا عن الوطن
ويامطاعا مطيعا لا عناد له   فى كل أمر على الإسلام مؤتمن
كم خطت كار تجاج البحر مبهمة   فرجتها بحسام سل من لسن
طود المهابة فى الجلا وإن جذبت   عنانه خلوة هزت ذرى وتر
أكرم به سببا تلقى الرسول به   لحس واردة فى الفرض والسنن
ناهيك من منهج سم القصور به   هوى فمن قدر عال إلى فدن

من كل وادى التُّقى يسقى الغمام به ... فيستهل شروق الضَّرع باللبن
تجملَتْ بك فى أحسابها مُضَر ... وأصْلُ مجدك فى جُرْثومة اليمن
من دولة حولها الأنصار حاشدة ... فى طامح شامخ الأركان والقُنَن
من الذين هُمْ رووا وهُمْ نصروا ... من عَيْشة الدِّين لا من جذوة الفتن
إن يَبْدُ مطّلع منهم ومُستمع ... فارغب بنفسك عن لحظٍ وعن أُذُن
ما بَعْد منطقه وشْىٌ ولا زَهَرٌ ... ولا لأعْلاق ذاك الدُّر من ثَمَن
أقول وفينا فضلُ سُودَده ... استغفر الله ملءُ السِّر والعلَن
محمدٌ ومغيثٌ نِعْم ذا عوضاً ... هما سُلالة ذاك العارض الهتِن
تقيلا هَدْيه فى كل صالحة ... نصر السَّوابق عن طَبْعٍ وعن مَرَن
ما حلّ حَبْوَته إلا وقد عقدا حُبًّا ... بما اختار من أيدٍ ومن منن
غُرٌّ الأحِبَّة عند حسن عهدهما ... وإن يونسَ فى الأثواب والجُنَن
علماً وحلماً وترحيباً وتَكرِمة ... للزايرين وإغضاء على زَكَن
يا وافد الغيث أوْسِع قبره نزَلا ... ورَوْماً حول ذاك الدِّيم من ثُكن
وطبق الأرض وبلا فى شفاعته ... فنعم رابد ذاك الرِّيف واليَمَن
وأنتِ يا أرض كونى مرَّةً بأبى ... مثوًى كريمٍ ليوم البَعْث مُرْتَهن
وإن تردَّت بتُرب فيك أعظُمه ... فكم لها فى جِنان الخُلد من رَدَن

ومن شعره قوله مخمّساً [كتب بها][1]، وقد أقام بمراكش يتشوق إلى قرطبة:

بدَت[2] لهم بالغُور والشَّمل جامع ... بروقٌ بأعلام العُذَيب لوامع

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال. ووردت فى المخطوطين (وكتبها).
(٢) هكذا وردت فى المخطوطين. وفى الإسكوريال (سجت) والأولى أنسب للسياق.

فباحت بأسرار الضمير المدامع | ورُبَّ غـــرام لم تنله المسامع
[أذاع بها][1] من فيضها التصويب[2] .

[ألا فى سبيل الشّوق قَلْبٌ مؤثلُ | برِكب إذا شاه والبروق تحمل
هو المــــوت الا إننى أتحمَّل | إذا قلت هذا مَنْهل عزَّ مَنْهل
وراية برقٍ نحوها القلبَ يجنبُ .

أبى الله إمّا كل بُعْدٍ فشـابت | وإما دنُوٌّ الدار منهم ففايت
ولا يُلفت البين للصَّمِّ لافت | ويارَبٌّ حىّ البارقَ المتهافت
غرابٌ بتفريق الأحبَّة ينْعَبُ .

خنوا بدمى ذاك الوَسِيق المُضَرَّجا | وروضاً بغَيْض العاشقين تأرّجا
عفى الله عنــــه قاتلاً ما تحرَّجا | تمشِّى الرَّدى فى نَشْره وتدرّجا
وفى كل شىء للمَنِيَّة مذهب .

سَقى الله عهــداً قد تقلَّص ظلُّه | حيا قَطْرُه يحيي الرُبا مستهله
وعى به شخصاً كريماً أجله | يُصِبحُ فؤادى تارة ويُعِلُّه
ويُلْمُه بالذكر طَوْراً ويُشْعِب

رمانى على قُرْب بشَرْخ ذكائه | فأغْشَت جُفونى نظرة من ذكايه
وغُصْت بأدنى شُعبة من سمايه | شِمابى وجا البحر فى غُلوَائه
فكل قرب ردع خدّيه يركب

ألم يأته أنىَّ ركنتُ قعــوداَ | وأجمعت عن وفزِ الـكلام قعودا
ولم أعتصر للذّكْر بَعْدك عودا | وأزهقنى هذا الزمان صُعودا

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (ودام بها) .
(٢) هذه المقطوعة الحماسية واردة فى المخطوطين .

فربْع الذى بين الجوانح سَبْسَب .

على تلك من حال دعَوْتُ سميعا وذكرتُ رَوْضاً بالعقاب مَرِيعا
وتملأُ الشعب المَذْحِجى جميعاً وسرباً بأكناف الرُّصافة ريعا

وأحداق عينٍ بالحمام تقلَّب

ولم أنسَ ممشانا إلى القصْر ذى النَّخل بحيث تجافى الطُّود عن دَمِثٍ سهل
وأشرفُ لا عن عظم قدْرٍ ولا فضل ولكنه للمُلْك قام على رِجْل

يقيه تباريحَ الشمال ويَحْجُب .

فكم توجَّع ينتابُه برسيسه ويرتحل الفتى بأرجل عيسِه
إبق أمِّ عمرو فى بقايا دَرِيسه كسحق اليمانى مُغتليه نفيسُه

فرُقعته تُسْبى القلوب وتُعجب

وبيضاء للبِيض البهاليل تعتريه وتهتزُّ بالبان جلالا وتنتَزى
سوى أنها بعد الصَّنيع المُطَرَّز كساها البِلَى والثُّكل أثواب مُعْوِز

يبكى وتبكى للزايرين وتَنْدِب .

وكم لك بالزهراء من مُتَردد ووقفة مُتَّسق الجامع مُقصد
يسكن من خَفْق الجوانح باليد ويهْتِك حُجَب النَّاصر بن محمد

ولا هيبة تُخشى هنالك وتُرهب .

لنعم مقام الخاشع المُتَنسك وكانت فى محلّ العَبْشَمين المُمَلّك
متى يورد النَّفس العزيزة يَسْفِك وإن يَسُم نحو الأبلق الفرد يملك

وأى مرام رامه يتصعَّب

قصورٌ كان الماء يعشق مَبْناها فطوْراً يرى تاجاً بمفرِق أعلاها

وطوراً يرى خُلخال أسْوَق سُفْلاها إذا زَلَّ وَهْناً عن ذوايبَ يهواها
يقول هَوَى بدراً أو انقضَّ كوكب

أتاها على رَغْمِ الجبال الشَّواهق وكل مُنيف للنجوم مُراهق
وكم دَفَعت فى الصَّدر منه بعانق فأوْدَعَ فى أحشائها والمفارق
حساباً بأنفاس الرياح يذْرَب

هى الخُود من قرن إلى قدم حُسْناً تناصف أقصاها جمالا مع الأدنى
ودَرَج كالأفلاك مبنى على مبنى توافَقْن فى الإتقان واختلف المعْنى
وأسباب هذا الحُسْن قد تنشَّعب

فأين الشُّموس الكالِفات بها ليلاً وأين الغُصون المائسات بها مَيْلا
وأين الظِّبا السابحات بها ذيلا وأين الثُّرَى رَجْلاوأين الحصاخيلا
فوا عجبا لو أن من يتَعجب

كم احتَضَنَت فيها القِيان المزاهرا وكم فاوَحَتْ فيها الرِّياض المجامِرا
وكمساهَرتَفيهاالكواكب سامِرا وكم قد أجاب الطير فيها المزامرا
عظيم من الدنيا شعاع مُطَنَّب

كأن لم يكن يقضى بهاالنُّهىوالأمر ويُجبى إلى خزائنها البرُّ والبحر
ويُسفر مخفوراً بذمَّتها الفخر ويُصبح مختوماً بِطينَتها الدهر
وأيامه تُعْزى إليها وتُنْسب

ومالك عن ذات القِرِىِّ النَّواضح وناصحةٌ تعْزى قديماً لناصح
وذى أثَرٍ على الدهر واضح يُخبر عن عهدٍ هنالك صالح
ويَعْمُرُ ذكر الذاهبين ويخرب

تلاقى عليه فيضُ نهرٍ وجدول — تَصَعَّد من سِفْلٍ وأقبل من علِ
فهذا جنوبىٌّ وذلك شمْأل — وما اتفقا إلا على خير منزل
وإلا فإن الفضل منه مُجَرَّب

كأنهما فى الطِّيب كانا تنافرا — فساروا إلى وَصْل القضاء وسافرا
ولما تلاقى السابقان تناظرا — فقال ولىُّ الحق مَهْلاً تظافرا
فكلُّكما عذْبُ المجاجة طيِّب

ألم يعلما أن اللَّجاج هو المقْتُ — وأن الذى لا يقبل النِّصْف مُنْبَتٌّ
وما منكما إلَّا له عندنا وقت — فلما استبان الحقُّ واتجه السَّمْت
تقشّع من نور المودة غَيْهَب .

وإن لها بالعامريَّة لَمَظْهرا — ومُسْتَشْرَفاً يُلهى العيون ومَنْظراً
ورَوْضاً على شطىَّ خضارة أخضرا — وجَوْسق مَلِك قد علا وتجبَّرا
له تَرَّةٌ عند الكواكب تُطلب

غيره فى عُنْفوان الموارد — وأَثْبَتَه فى ملتقى كل وارد
وأَبْرزه للأريحىِّ المجاهد — وكلِّ فتى عن حُرْمة الدين زايد
حفيظتُه فى صدره تتلهَّب

تَقَدَّم عن قصر الخلافة فرسخا — وأَصْحَر بالأرض الفضاء ليصرخا .
فخالته أرض الشِّرك فيها مُنَوَّخا — كذلك من جاس الدِّيار ودوَّخا
فردْعته فى القلب تَسرى وتُرهب

أوليك قوم قد مضوا وتصدَّعوا — قضوا ما قضوا من أمرهم ثم ودَّعوا
فهل لهم رِكْزٌ يُحَسُّ ويُسمع — تأمَّل فهذا ظاهر الأرض بَلْقَع
إلا أنهم فى بطنها حيث غُيِّب.

ألستَ ترى أن المقام على شَفا … وأن بياض الصُّبح ليس بذى خَفا
وكم رَسْم دارٍ للأحِبَّة قد عفا … وكأنْ حديثاً للوفود مُعرّفاً
فأصبح وحش المُنتدى يُتجنَّب

ولله فى الدّارات ذات المصانع … أخلّاء صِدْقٍ كالنجوم الطّوالع
أُشيِّع بينهم كلُّ أبيض ناصع … وأُرْجع حتى لمت يوماً براجع
فياليتنى فى قِسْمتى أتهيَّب

أقرطبة لم يُثننى عنك سُلْوانُ … ولا بمثل إخوانى بمَغْناك إخوان
وإنى إذا لم أُسْقَ ماءك ظمآن … ولكنْ عَدانى عنك أمرٌ له شان
وموطنى آثارٌ تُعَدُّ وتُكتب

لك الحقُّ والفضل الذى ليس يُدفع … وأنتِ لشمْسِ الدِّين والعلم مطلع
ولولاك كان العلم يُطوى ويُرفع … وكل التُّقى والهُدى والخير أجمع
إليك تناهى والحسود مُعذَّب

ألم تَكُ خُصَّت باختيار الخلايف … ودانت لهم فيها ملوك الطّوايف
وعضّ ثِقاف المُلْك كلَّ مخالف … بكل حسام مُرْهف الحدّ راعف
به تُحقن الآجال طوراً وتُسكب

إلى مُلْكها انقاد الملوك وسلَّموا … وكعبتها نَدا الوفود ويَمَّموا
وفيها استفادوا شَرْحهم وتعلّموا … وعاذوا بها من دهرهم وتحرَّموا
فنكَّب عنهم صرفه المُتَسحِّب

علوتِ فما فى الحُسْن فوقك مُرتقا … هواؤك مختارٌ وتُربك مُنْتقا
وجسرُك للدنيا وللدِّين مُلْتقى … وبيتُك مربوع القواعد بالتُّقا

إلى فضله لأ كباب تُنْضى و تُضرب

تولى خيــار التابعين بقــاءه ‏ وخَطَوا بأطراف العَوالى فنــاءه

ومدّوا طويلا صيتَه وثنــاء ‏ فلا زال مخلوعٌ عليه سَناه

ولا زال سَعْىُ الــكايدين يُخَيِّب

وبالغٌ فيــــه كلُّ أروَع أصْيَد ‏ طويل المعالى والمــكارم واليد

وشادوا وجادوا سيِّداً بعد سيد ‏ فبادوا جميعاً عن صنيع مُخَلَّد

يقوم عليـــــه الثناء ويخطُب

مصابيحه مثْلُ النجوم الشَّوابك ‏ تمزِّق أثواب النجوم الحَوالك

وتحفظه من كل لاهٍ وسالك ‏ أجادِل تنقضُّ انقضاض النَّيازك

فإبشارهم بالطُبْطَبية تُنهب

أجِدُك لم تَشهد بهــا ليلة القَدْر ‏ وقد جاش بِرُّ الناس منه إلى بحر

وقد أُسْرِجت فيه جبالٌ من الزُّهْر ‏ فلو أن ذلك النُّور يُقبس من فجر

لأوْشَك نور الفجر يَفْني و يَنْضَب

كأن للثُّرَيَّاوات أطوادٌ من نرجس ‏ ذوا ئِبُه تَهْفُو بأدنى تنفُّس

وطيب دخان النَّد من كل مُعَطَّس ‏ وأنفاسُه فى كل جسم ومَلْبَس

وأذياله فوق الــكوا كب تُسحب

إلى أن تبدَّت راية الفجر تزحف ‏ وقد قضى الذى لا يُسوِّف

تولوا وأزهار المصابيح تُقْطف ‏ وأبصارُها صوناً تغضُّ وتُطْرِف

كما تُنْصل الأرماح ثم تُركَّب

سلامٌ على غيــابهــا وحضورها ‏ سلام على أوطانها وقصورها

سلام على صَخْرابها وقبورها ولا زال سورُ الله من دون سورها

فحسن دفاع الله أحمَى وأرْهَب

وفى ظهرها المشون كل مرفع وفى بطنها المَمْشوق كل مُشَفع

متى تأته شكوى الظلَّامة تُرفع وكل بعيد المُسْتغاث مُدَفَّعَ

من الله فى تلك المواطن يَقْرُب

وكم كُرْبة ملء الجوانح والقلب طَرَقت وقدنام المواسون من صَحْب

بِرَوعتها قبر الولى لى وَهَب وناديت فى التُّرب المُقَدَّس يارب

فأبَتُّ بما يهوى الفؤاد ويَرْغَب

فياصَحْبى حان قَبْلَكَ مصرعى وكنتَ على عهد الوفا والرِّضا معى

فخطَّ بضاحى ذلك الثَّرى مَضْجعى وذَرْنى لجار القوم غير مُرَوَّع

فعندهم للجار أهـــلٌ ومرحبُ

رعى الله من يرعى العهود على النَّوى ويُظْهر بالقول المُحَبَّر ما نوى

ولِبِنْيته من مُسْتَحكم الوُدِّ والهوى يرى كلَّ وادٍ غير واديه مُجْتَوى

وأهدى سـبيله الذى يتَجَنَّب](1)

كتابتـــه

وكتابة ذى الوزارتين رحمه الله ، كالشمس(2) شُهرة ، والبحر(3) والقَطْر

---

(١) إن جميع الشعر الخماسى المحصور بين الحواصر وارد كله فى الإسكوريال . وساقط فى المخطوطين .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (الشمس) .

(٣) ساقطة فى «ج» وواردة فى الإسكوريال والزيتونة .

كثرة ، ونحن نثبت له شيئاً من ذلك ليلّا يخلو هذا الكتاب من شيء من بيّانه .

كتب يراجع الوزير أبا بكر بن عبد العزيز ، من رسالة ، كتب بها إليه مع حاج يضرب القُرعة :

أطال الله بقاء وليّي [١] ، وإمامي [٢] ، الذى له إكْبارى وإعْظامى، وفى سِلْكه انّسامى وانْتِظامى،[وإلى مُلْكه انتسابى واعْتِزابى ، وبوُدّه افتخارى وانْتِزابى] [٣]، للفضايل مجيباً ومبدياً ، وللمحامد مشتملا ومُرْتدياً [٤]، وبالغرايب مُتْحفاً ومُهْدياً ، [ولازال الرّخاء وأزل ، وجدّ من المصافاة وهَزَل، وسَحَت من المراعاة وجَزُل] [٥] . وصل كتابُه صحبة عرّاف اليمامة، وخِرِّ [٦] نجْد و تِهامه، [يُقرِّظه ويزكّية ، ويصِفُه بالخبّ [٧] يفسِّره ويُجليه] [٨] ، والخِفيّ [٩] يظهره ويبديه . ولعله رائدٌ، لابن أبى صايد ، أو هاد للمسيح الدّجال قايد . أشهد شهادة إنصاف ، أن عنده لَعَضْباً صاف [١٠] ، ولو كان هناك ناظر صادق [١١] طافٍ ، ولله خبايا الألْطاف ، لقلتُ هو بادٍ غير خافٍ ، من بين كل ناعلٍ وحافٍ . وسأخبرُك أيدك الله ، بما أنْمق ، وكيف طار ونَعق ، وتوسّد الكرامة ، وارتفق ، [طَرَقٌ له وصِنْك

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (رييسى) .

(٢) ساقطة فى «ج» وواردة فى الإسكوريال و «الزيتونة» .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال . وساقط فى «ج» و «الزيتونة» .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» . وفى «الزيتونة» (مجتديا) .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال و«الزيتونة» مع فروقات يسيرة ؛ وساقط فى «ج» .

(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى «ج» (وحادي) . والزيتونة (وحرا) .

(٧) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (الحق) .

(٨) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال والزيتونة . ومكانه فى «ج» عبارة (يقرظه ويجليه) فقط .

(٩) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (والخفاء) .

(١٠) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى «ج» (أصداف) .

(١١) وردت فى المخطوطين . وساقطة فى الإسكوريال .

ونَعْتك ، وثقَّفه بَرْيك ونحتك ، ورفعه للعيون جَدُّك وبختك](١) ، وامتدت نحوه النواظر ، واستَشْرَفه الغايب والحاضر ، وتسابق إليه النَّابه(٢) والخامل ، وازدحم عليه العاطل والعامل . هذا يلتمس مزيداً ، وذاك يَبْتغى حظاً(٣) جديداً ، وهذا يطلب تَقْليداً ، [وذلك يَسُلُّ إلى مَغاليقه إقليداً](٤) . فكلما حَزَب ، وغلّ وجلب ، حَلَب واستَدَرَّ ، وتلقاه [وإن ساءه الغيب](٥) بما سَرَّ . وكنت وانفتُ جملة من الأعيان ، ووافقت ثُلَّة من جِلّة الإخوان ، على تَمْشِية أمره ، وتَوْشِية ذِكره ، فلما صَدَقت تلك الفِرقة ، واستوت بهم تلك الفُرْقة ، أحضرناه للسَّبار ، وأقعدناه للنقد والاختيار ، وأردنا أن نقف على جلايا تلك الأخبار ، فأحضرنا طَحْناً ونَطْعاً ، وسَرَينا عنه من الوَحْشَة قَطْعاً ، وقلنا له خذ دفوك ، ولاتوردُنا(٦) إلاّ صَفْوك ، ولا تصانِعْنا فى الكريهة التى نراها ، والحادثة تستَفْظع ذكراها ؛ فما عندنا جهل ، وما منّا إلا مُحْتَنِك كَهْل ، لا يتكاده حَزَن ، ولا يستخفه سهل ، فسكن جايشُ فَوْره ، وضرب بلحيته على زَوْره ، ثم صعّد فيناالنظر وصوّب ، واستهل صارخاً وثوّب [وتحرّج من الكذب وتحوّب](٧) ، وقال لست للعثرة خابطاً ، ولا للطَّرْف غامضاً ، ولا عن الصدق إذا صَدَع حايداً ، ولا للغَدْر ممّن وقع منه ذايداً ، ولا بمعجزات النبُوّة لاعباً ، ولا لصريح الجِدّ مُداعياً ، ولا تطيبُنى مسألة ولا حُلْوان ، ولا تستَفِزُّنى نَنايد كثيرة ولا ألوان . إنما هو رَسْمٌ وخَطٌّ ،

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال و« الزيتونة » . وساقط فى «ج» .
(٢) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (النبيه) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى «ج» (شيئا) .
(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال و« الزيتونة » . وساقط فى «ج» .
(٥) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى المخطوطين .
(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى «ج» . وفى « الزيتونة » (تزدنا إلى) .
(٧) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والزيتونة . وساقطة فى «ج» .

ورفع وحَطٌّ ، ونَحْسٌ وسعدٌ ، ونقد ووعد ، ويوم وغَد[١] . فقلنا له الآن صحّت الوفادة [وأينعَت الإرادة][٢] . ثم نظر إلينا نظر المستَقِلّ[٣] واجتذب النّطع اجتذاب المُدِل[٣] ، ونثل الطّجن وهاله ، وأداره حتى [استدار هاله][٤] ، ثم قال يا أيها الملأ هذا المبتدأ[٥] ، فأيكم يبدأ . فرمقني القوم بأبصارهم ، ونفَروا وكبّروا ، وليتّهم [عند ذلك][٦] صفّروا . فقلت يا قوم قد عضضتُ على ناجذى حِلْماً ، [وقتلت شأني كلّه عِلْماً][٧] ، [وعقدت بيني وبين غدٍ سِلْماً][٨] ، فكيف أستكشف عما أعرف ، وأسبقهم عما لا يستبهم . على الرحمن توكلت ، وعلى الشيطان تَرَكّلت ، ومن كسْبى أكلت ، [وفى مَبْرك السّلامة بَرَكت][٩] ، وجسيات الأمور تَرَكتني وتَركْتُ ، والنفس[١٠] المطمئنة رجوت ، ولعلني قد نجوتُ ، [وأصبت فيما نَحَوْتُ][١١] . فلحظتني عند هذه المقالة عينُه ، وطواني[١٢] صدقُه ومَيْنُه . [ثم صار القوم دونى أنجية ، وأعدّ له كل تَوْرية

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (وبعد) والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى المخطوطين و« ج » و« الزيتونة » (وتعينت الزيادة) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى «ج» (المستثقل) . وفى الزيتونة (المقل) .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (استباطها) .

(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (النبأ) .

(٦) هذه العبارة واردة فى المخطوطين وساقطة فى الإسكوريال .

(٧) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال و « الزيتونة » . وورد مكانها فى «ج» (وقلت كل ذلك أتقنه حفظا) .

(٨) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى المخطوطين .

(٩) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال و« الزيتونة » . ووردت فى «ج» كذا فى (وعن مبرك الشيطان نكلت) .

(١٠) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (المسة) .

(١١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى «ج» والزيتونة (صدقت - أصبت فيما قد رجوت).

(١٢) هكذا وردت فى الإسكوريال و «الزيتونة» . وفى «ج» (وأدهشنى) .

وتَمْمية . فقال قايل منهم ، تعالوا نشترك فى ضمير ، ونَرْمِه بهذا الطاغية ابن رُذْمير](١) ففى كل قلب منه نَدَب كبير ، والسؤال عنه دين وأدب ، فإن أصابه استرحنا من النَّصَب والشُّخوص ، وحِرنا من العموم إلى الخصوص ، وإن أخطأه فهو لمـا سواه أخْطَأ ، ولمـا يدَّعيه ويريدُه منه أبْطَأ . فقالوا نِعْم ما عرضت ، وأحْسِن بما رويت وفرَضت . فلما رأيناه يُثْقِل التَّعريض ، ويُحكم التقرير والتعويض ، قلنا له حقِّق ضميرك كل التحقيق ، وضع مِسْبحتك فى فى الدقيق . [فابتدر ما أمر](٢) وحسَرَ عن ذراعه وشمَّر ، ومرت أصبُعه فى خطِّه مر الذَّر المتهالك ، ووقعت وَقْع القطر المُتَدارك ، [لا تمس الطَّحن إلا تحليلا ، وغَمْزاً كالوهم قليلا](٣) فطوراً يستقيم سبيلا ، وتارة يستدير إكليلا ، وآونة يأتى بالسماء ونجومها قَبِيلا . فكان هنالك لنعش من بنات ، وللثُّريَّا من إخوات ، وطير قابضات ، وصافَّات وأسراب ناشراتٍ خافقات . فلما استوفى عُدَدَه ، وبلغ أَمَدَه ، وختم طرائقَه وقِدَدَه ، وأعطى الأصول وفروعها ، وتدبَّر تفاريقها وجموعها ، فجمع وتقبَّض ، وفَتَر ثم انتَفَض ، [وصعَّد ذهنه وتَسافه ، وأخذ الطَّحن فَسافَه](٤) ، وزفر وشهق ، وعشَّر ونَهق ، وألصق بظهره حشاه . وكتم الرَّبو ثم أفشاه ، وقال هذا الذى كنت أخشاه ، عَمِيتم الأثر ، [وكتمتم حقيقة الخبر](٥) ، [وعَثَرتم خاطى فما عَثَر ، ونثرتم نظام الحدْس فما انتثر](٦) .

---

(١) هذه العبارة ما بين الحاصرتين واردة فى الإسكوريال . ولم يرد منها فى المخطوطين سوى عبارة (ثم صار القوم إلى ذكر الطاغية ابن رذمير) .

(٢) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى المخطوطين .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى « الزيتونة » كالآتى (لا تمس الصخمى إلا عليلا ، و عمراً كالوسم ولو خليلا) . وهى ساقطة فى «ج» .

(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال و« الزيتونة » . وساقط فى «ج» .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى المخطوطين . وساقط فى الإسكوريال .

(٦) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال و« الزيتونة » وساقط فى «ج» .

سألتم عن رُوح شارد، وشيطان مارد، وصادر مع اللّحظات وارد، لا يُوطن داراً، ولا يأوى قراراً ولا يُطعم النّوم إلا غِراراً . نعم أمْرُه عندى مستقر، هو زِنديق مُسْتتر، وشهاب من شُهُب الكفر مستمر. ثم رجّع البصر واختصر، وعاد إلى الحساب يتقرّاه، والصواب يتحرّاه، وتتبّع أديم الطّحن ففَرَاه، وقال أعوذ بالله من شرٍّ ما أراه. إلى كم أُرى فى غلاء وبلاء؛ كأنى لست ذا أمْرار وأحْلاء، تالله لو كانت قَرْعة رفعة وعلاء؛ ما غاب عنى اللّحيانى ذو السبَّلَة؛ ولواجهنا البياض ذو الغُرَّة المستقلة، مواجهة حسان لَجبَله . النّحس على هذه الروح قد رُتّب[1]، وكُتب عليه [من الشقاء][2] ما كُتب، وأخرج النُّصرة الداخلة من العَتَب. ثم أشار إلى الحُمرة، وكأنما وضع يده على جَمْرة، وقال كَوْسَجَ نَعِيٌّ، وسِناط الوجه شَقِيٌّ، وثِقاف وطريق، وجماعة وتفريق، وقَبْضُ خارج، ومَنْكوس مارج . ثم وضع عمامته، ولَوْلَب[3] هامته، وأمال وجهه لجراً طلقاً، ثم عرضه مجناً مُطرقاً، وعقد أنامله عضًّا، [وأدْمَى صدره دعًّا ورضًّا، وقطع بَصَره لحًّا وغضًّا، وتكفأ وتقلعّ][4] وأدْلَعْ لسانه فانْدلَع . فقلنا شرُّ تأبطه، أو شيطان يتخبّطه، أو قرين يستنزله ويَخْتِله[5] أو رؤى فى الذرة والغارب يَفْتِله . [ثم تجاحظ وتحاذر، وتضاءل وتنازر][6]، وقال، والذى أحيا عازِر، وأخرج إبراهيم[7] من آزَرْ، وملك عِنان الريح وأذعن له كل شىء

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال و« الزيتونة » . وفى «ج» (غلب) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى « الزيتونة » (من التأوه) . وهى ساقطة فى «ج» .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (أبدى) . والزيتونة (وأركب) .

(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال . وساقط فى المخطوطين .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» . وفى « الزيتونة » (ويختلبه) .

(٦) هكذا ورد ما بين الحاصرتين فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (ثم تجاحظ وتكادن، وتضاءل وتبادن) .

(٧) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (البرائح) .

بالسجود والتَّسْبيح ، إنه لمن عُبَّاد المسيح ، هيهات هيهات ، لا أُضَغْضِع بطَنْ ، ولا يُقَعْقَع لى بِشَن ، ولا أُنازع من هذه الفنون فى فَنّ . قد ركبت أثْباج البحار ، وقطعت نِياط المَفاوز والقِفار . وشافهنى الحرُم والبيت ، وصافحنى الحجر الكُمَيْت ، وأحْرَمت ولَبَّيت ، وطُفت ووفيت ، وزُرْت المصطفى صلى الله عليه وسلم وتحفَّيت . ثم مِلْت على عَدَنْ ، وانحدرت عن اليمن ، واستسقيت كل راعِدة ، وأتيت كل قاعِدة ، ورأيت صاحب الجمل قُس بن ساعدة ، ووردت عُكاظ ، وصدّقت الحُفّاظ ، وقُدت العصية بِنِسْع ، ومسّحت الشامات بأَخْمُس وتِسع ، ووقفت حيث وقف الحكمان ، وشهدت زحف التُّركان ، وكيف تصاولت القُروم ، وغُلبت الرُّوم ، [وهزم المدبر المقبل ، واكتسحت الجحاش الإبل][1] . فقلنا لله أنت ، لقد جَلَيت عن نفسك ، وأربى يومُك على أمسك ، ولقد صدق مُطْريك ، ووفَت صحيفة تزكيك ، [وما كانت فراستنا لتخيب فيك][2] . فماذا تَسْتَقْرى من اللوح ، وترى فى ذلك الروح ، بِعَيْشك [ألا ما أَمْتَعْتنا][3] بالإفشاء والبَوْح . فرجع فى البحث أدْراجه ، وطالع كواكبه وأبْراجه ، وظل[4] على مادة الطَّحن ، يرقُم ويَرمُق ، ويفْتُق ويَرْتُق . ثم جعل يبتسم ، وقال أحلف بالله وأقسم . لقد استقام النَّسم ، وإنه لكما أُرسِم وأُسِم ، وإنى لا أجده إلا لاغباً مَبْهوراً ، ومنكوداً مقهوراً . ولن يلبث إلا شهوراً ، قد أفَل طالع[5] جَدّه ، وفُلّ حَدّه ، وأتى عليه نقى خَدّه ، وصبيٌّ لم يَمْلِك أبوه وملَك

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال . وساقط فى المخطوطين .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . وفى الإسكوريال و«الزيتونة» (وما كانت فراسة — فراستنا لتنام فيك) . والأولى أرجح .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (الا ما أمعنت) .

(٤) هذه الكلمة واردة فى «ج» . وساقطة فى الإسكوريال و« الزيتونة » .

(٥) هذه الكلمة واردة فى «ج» . وساقطة فى « الزيتونة » والإسكوريال .

جَدّه ، فقلنا صرّحت وأوضحت ، وشهّرت هذا المَسْتور وفضحت ، وإن ساعدك قدر ، وكان لك عن هذا الوُرود صَدَر ، فحظك مُبْتدر ؛ وخطّك[1] صاف لا يشوبه كَدَر . فقال هذا أمر قد آن أو كان ، وسيأتيكم الخبر الآن . فانفصلنا وأصْغَينا الآذان ، وجعلنا نتلقى الرُّكبان ، فلم يَرُعنا إلا النّعمى الناجمة ، والبُشرى الهاجمة بما بان ، فأدهنا فى شأنه ، ولم يكن يعاوده خوف طغيانه ، فإذا الخبر لم يَخطُ صِماخه ، وكأنما كان عوداً وافى مناخه ، أو طايراً أمّ أفراخه . فلم يَنْشِب أن أقبل يَصْمُد نحونا أى صَمْد ، ويتعرضنا على عَمْد ، تعرّض الجوزاء للنجوم ؛ [وينقضّ انقضاض نَيازك النجوم][2] ، وقال ألم يأنْ أن تدينوا لى بالإكبار ، وتعلموا أنى من الجهابذة الكبار ، فقلنا منك الإسْجاح ، فقد مَلَكت ومنك ولك النجاح ، أيّة سَلَكت . فأطْرَق زَهْواً ، وأعرض عنا لَهْواً ، وقال اعلموا أن القُرْعة لو طوت أسرارها ، ومنعتنى[3] أخبارها ، لمزّقتُ صِدارها ، وذَرَوْتُ غُبارها ، ولكان لى عنها أوسع مُنْتَدح ، وأنْجَد زِناد يُقْدح ، أين أنتم عن رَصْدى الأحْلاك ، وعِلْمى بالأفلاك ، أنا فى مَرَج الموج ، وأوْج الأوْج ، والمتفرد بعلم الفَرْد والزَّوج ، ومُشْترط السَّرطان ، ومُسْتَدير الدَّبران ، وبايع للْمُشترى بالميزان ، والقابض بيوم[4] الحساب والعمل ، على روق الثّور وذنب الحَمَل ، [أعْقِد نَصْل العقرب][5] ، وأُقيّد الأبعد والأقرب ، لصَيْد أوابدِها بالدقايق

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال و « الزيتونة » . وفى «ج» (ولحظك) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (وانتقض انقضاض المارد المرجوم) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (غيبتنى) .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (بيد) . والأولى أرجح .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (عندى نعل العقرب) والأولى أرجح .

والدَّرَج ، [حتى اضطُرَّ سارحها إلى الحَرَج ، وأصبحُها فى أضيق مُنْعَرج][١] ، [أنا استذكرت بالأنبار فَرْحَة الإقبال وتَرحة الإدبار][٢] ، وطالعت إقليدس ، فاستنبطته ، وصارعت المَجسْطِى فجسطنته ، وارتمطتُ إلى الأرِتماطيق ، [وأطقتُ الأنوطيق][٣] ، ولحظتُ التحليل بحل ما عقده ، وانتضيته ما مَطَل به الجهابذة، فنفذته . وعاينتُ[٤] زُحل ، حين استقلَّ على بعيره[٥] ورَحَل ،وضايقته فى ساحته، وحصرتُه فى مِساحته ، وحضرت قِرانه ، وشَهِدت تقدُّمه ومُرانه ، وشاهدته [شَفراً بشَفر][٦] ، وناجانى برقاً يُعد فى الكُفر ، وتخريبه لمُلْك الصُّفر ، [وتفريقه لبلاد اللَّطينة][٧] وإنجاز الوعد فى فتح قُسَنْطينة . أنا عقدت رشا الدلو ، وذَرَوْتُ غُبار الحُوت للفِلو . أنا اقتدحتُ [سَقْط الجَوْزَهر][٨] ، فلاح بعد خفايه وظَهَر . أنا استثرتُ[٩] الهلال من مكامن سَرَرِه ، [وأخذت عليه ثنايا سَفَره][١٠] ، وقَدَدْتُ قُلامته من ظُفْره ، ودللت طير الصَّاير على شجره ، فجنيتُ المُرَّ من ثمره ، أنا طرقت الزُّهرة فى خِدْرها ، وصافحتها من الفكرة بيد

---

(١) هكذا وردت هذه الفقرة فى الإسكوريال . ومكانها فى المخطوطين (واضطر من ها هنا إلى الحرج ، وأجمعهم فى ضيق المنعرج) .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (أنا استدركت بالانبار ، حركة الإقبال والإدبار) . والأولى أبلغ معنى .

(٣) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال و «الزيتونة» . وساقطة فى «ج» .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين وفى الإسكوريال (أنا عادلت) .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال و «الزيتونة» . وفى «ج» (رحيله) .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (شبرا وشبر – شبرا بشبر) .

(٧) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (وتقريبه لبلادهم طينه) . والأولى أدل على المعنى .

(٨) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (زند جوزانه – الجوزاه) .

(٩) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (استخرجت) .

(١٠) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال و «الزيتونة» . وساقطة فى « ج » .

لم تَدْرِها . أنا أذكيت على ذكاء فظلّت تَلْتَهب . وأحْرَزتها من الوهم شَطْناً ، [أجذبها به فتنجذب][1] . أنا أنْعى المُعْتَبرين حياتَها ، [فيشبهون الحَسَنة ، ويتحرّون أوقاتها ، حتى تَنْتَشر بعد الطىّ حياتُها][2] ، وتستقيل من المِنار آياتها . أنا انتضيت للشباب شَرْخاً ، وأضرمت للمِرّيخ عقاراً ومَرَخاً ، حتى أتفانى بملاحم حُروبه ، وحوادث طلوعه وغُروبه ، وتلمّظه إلى النّجيع ، وولوغه فى مُهجة البطل الشّجيع . أنا أبرى من اللَّمَم ، وأشفى من الصَّمم ، وأنقل العَطْس إلى الشَّمَم. فقلنا أما الأولى : فقد سلّمنا لك جميعها ، وأمّا هذه الثلاثة فلن تستطيعها . قال فلِمَ تعجزون ولا تَسْتَخزون . فقلنا من كان له علاج فبِنَفْسه يبدأ ، ونَغَب بغيره . ولسنا نريدك ، ولكن تهتزّ يدُك . قال أما من يديهم رَوِى . وألقى فى رُوعه ما ألقى فى رُوعى ، فمَثَله كالصّارم ، حُسْنُه فى فِرِنْده ، لا غِمْده ، وجماله فى حَدّه لا فى خَدّه ، والمرء كما قيل بأصْغَرَيه ، لا بمَنْخَرَيه ، والشأن فى الحَيْزوم ، لا فى الخَيْشوم ، وفى الذَّكرَين ، لا فى الأُنْثَيين . وبعد فهو كلام ظاهره إجمال ، وباطنه احتمال ، وسأنبّئكم [بغزارة سَيْله ، وفجر ليله][3] . أما الأفْطس فيدلى الضِّغْنة ، ويتزوج فى آل جِفْنَه . فإن الله أتمّ ، جاء الولدُ أتمّ ، وإن نام عِرْقُ خاله ، بَقِى الولد بحاله . وأما الأصَمّ ، فيخرج عن الغلام ، وبلا فال ، ويطلب فى بنى السّميعة بَرَكة الإسْمِيَّة والفال ، فإن الله أراد ، ظَفِر بالمُراد ، وجاء ابنه[4] أسْمَع من قراد . فأحسّ من بعض الحاضرين تمريضاً ، وعاين طَرْفاً غَضيضاً ،

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ومكانها فى المخطوطين (حتى جرت جرى المهذب) .

(٢) هذه العبارة واردة فقط فى « الزيتونة » .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (بفجر سيله لا بفجر ليله) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (الولد) . والمؤدى واحد .

[فتعكَّر وتشذَّر](١) ، وطوَّف وحذَّر ؛ وقال صاحب الشريعة ، سمّاهم بنى السّميعه ، قوموا يا بنى اللّكيعة ، فقد قطعتم رزقى ، وآذيتم(٢) طُرُقى ، وأذْلَلتم ضَرْبى وطَرْقى ، وسدَدْتُم طَوْقى ، وأخذتم على أُفُقى غَرْبى وشَرْقى . [ذَرُونى للتى هى للبَلِيّة تَجْنى، ثم الوَجْد يَعنى ، لو شَرِب نواديه إثْر تَجَنٍّ](٣) . ثم نجا بعَزْمته سَيلاً ، وأرسل بنات نَعْشٍ ذيلا ، وقد أفاد بما استصحب من مَيامِنك ليلاً [كذّبنى أيدك الله عند نواه](٤) ولم يُطْلعنى طَلْع ما نواه ؛ وما ذاك إلا لمطمع لَوَاه ، ومَغْنَم هواه. فَرُفِعت لى بعد وداعه نَجْوه ، ورَمَتْنى بشخصه نَجْوة [فقلت ما أراك إلا غائل ، أوْرثت عنك الحبائل](٥) . فَسُراك سُرى قَيْن ، وحديثك مَيْن ، ألم تعبر دُجَيْلا . ويمَّمت سُهَيْلا . فقال طَرِبتُ إلى الأصفية الصِّغار ، وشاقنى الشوق بين الطّواغيت والأصْفار . فقلت له هلم إلى خطٍّ نعيده ، وحظٍّ نستفيده . فقال لولا أن تقولوا الساعة متى ، وتطالبونى بإحياء الموتى ، لما أجمعتُ إلى الغرب غروباً ، ولأريتُكم من الحذق ضروباً . ثم قال إن لى بالحَضْرة أفراخاً ، وأمّا استصرختُ عليها استصراخاً ، وانسلختُ منها انسلاخاً ، وأعيا علىّ أمره ، فلم أعلم له ظَعْناً ولا مناخاً . فلبثت كذلك أياماً ، قد اعتمّ على أمره اعتِياماً ، ولم أعرف له إنْجاداً ولا اهتماماً(٦) ، فإذا به وقد اضمرتُ عنه بأساً ، ولم أطمع فيه رأساً ، قد أشَبَّ لى شباباً ، ولمعت صلعتُه شِهاباً ، تكتنفه صُرَّة ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (فتكدر وتشور) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى «ج» (وداريتم) . و« الزيتونة » (واورديتم) .

(٣) هكذا وردت هذه الفقرة التى بين الحاصرتين فى « الزيتونة » . وهى سقطة فى «ج» . وفى الإسكوريال وردت على النحو الآتى : (ذرونى التى هى الليل يجز ، ثم الوقد يمن ، لو شرب نواديه ترن) .

(٤) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال و« الزيتونة » . وساقطة فى «ج» .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى المخطوطين . وساقط فى الإسكوريال .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (اتهاما) . و« الزيتونة » (التّهلما) .

و بيُمناه قَوْصَرة ، وتزود يسراه جرة . فقلت له قاتلك الله ، [ما أشد فقْداتك ، إلا فقدتك ، وما أذكر وجداتك إلا وجدتك][١] أين أفراخُك ، والأمُّ التى جذبها استِضْراذك . فقال الصعلوك ، لو أعلم مذاهبه ، تُحرَّم مناهبه ، وتُخدم مراهبه . ذَرْنى وعلاجى ، أحاجى وأداجى ، وأعاين وأناجى ، وأتقلب فى بَرَكة دُعاء الباجى . فقلت له مالك والمَيْت ، ورحم الله من ممَّيت . قال ، لمّا أذن الله فالتّأمت[٢] الشّيمة ، وتمزّقت عنى المَشِيمة ، هممت بالدّمْرق ، ولففت فى الخَرْق ، [وفارقته من الضيق مُنتداه][٣] ، وأفْلتنى يداه ؛ فحنّكنى السعد[٤] بتَمْر المدينة ، وسقانى من ماء البَلْدة الأمينة ، وعوّذنى بدعوات متينة ، فها أنا كما ترى [أتهادى واجتنب][٥] وأستَحْلى وأستَعْذب . فقلنا لعَمْرك[٦] إنه لفضل عميم ، لولا الصّميم ، [وإنها لمَنْقَبة][٧] ؛ لولا العقبة [وأثرَة مُلتَمسة ، لولا العَطْسة][٨] . فقال دعنا من زخاريفك ، وأغضض من عِنان تصاريفك . البازل لا يكون إلا ذميا ، والليث لا يوجد إلا شَميا[٩] . ثم [قام وحَمل][١٠] ، وابتدر وارتجل :

عيشُنا كله خُدَع ... فاترك اللوم عنك وَدَع
أنا كالليث والليوث بأرسامها[١١] تَرَع

---

(١) هذه الفقرة واردة فى الإسكوريال . ووارد منها فى "الزيتونة" عبارة (ما أشد بفقدك إلا وما أدركها) وهى ساقطة كلها فى "ج" .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (باتمام) .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . وورد مكانها فى الإسكوريال (ومثلت فى منتداه) .

(٤) هذه الكلمة واردة فى المخطوطين . وساقطة فى الإسكوريال .

(٥) هكذا وردت هاتان الكلمتان فى الإسكوريال والزيتونة . وفى "ج" (استحلى واستجذب)

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (لعمر الله) .

(٧) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى "ج" (ونوائل معتقبة) .

(٨) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال والزيتونة . وساقط فى "ج" .

(٩) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (ستيما) .

(١٠) هكذ فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (قال وأجمل) .

(١١) هكذا فى الإسكوريال وفى المخطوطين (بأساتها) والأولى أرجح .

ولها الأوجُه السَّيمة من يَلْقها يُرَع
أىُّ حسن لمازن بيد الدّل يُخترع
أنا كالسّيف حدُّه لا يبالى بما وقع
إنما الحُسْن للمهاة وللظّبى يا لَكِع

فقلت تبّاً لك ساير اليوم، إنك لتَريش وتَبرى، وتُقدُّ وتفرى، وتحاسن وتُقابح[(١)]، وتُهارش وتُنابح، [وتُحب وتتأمل، وتُحسن وتغلغل][(٢)] وتُشاعر وتُراجز، وتُناطح وتناجز. وأنت على هذا كله مُصِرٌّ[(٣)]، ما جزاؤك إلا ريح فيها صِرٌّ، فما هو إلا أن غفلت عنه لمحة طَرْف، أو نفحة عَرْف، ثم التفتُّ، وإذا به قد أفلس، وكأنما كان برْقاً خُلَّس، ولم أدر أقام أو جلس.

ومحاسنه القَطْرُ[(٤)] الذى لا يُعد، والأمر الذى يأخذه الحدُّ. وكفى بهذه الرسالة دليلا على جلالة مقداره، وتدفُّق بحاره [وفَخَازه][(٥)]، لما اشتملت عليه من بلاغة وبيان، وبساط حال أنت على خبره بميان، وعلوم ذات افتنان، خلد الله عليه الرحمة: وضاعف له [المنة والنعمة][(٦)].

[مولده: بأوايل ربيع الثانى عام خمس وستين وأربع ماية][(٧)].

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال و«الزيتونة». وفى «ج» (وتخاشن).

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال. ووردت فى المخطوطين كالآتى: (وتخب وتجب وتناقل وتخاتل – تحامل).

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال. وفى المخطوطين (معجب بها – مغرما).

(٤) هكذا فى الإسكوريال. وفى المخطوطين (كالقطر).

(٥) هذه الكلمة واردة فى المخطوطين، وساقطة فى الإسكوريال.

(٦) هكذا وردت فى المخطوطين، وفى الإسكوريال (المنحة).

(٧) هكذا وردت هذه الفقرة فى «الزيتونة». وهى ساقطة فى «ج». ووردت فى الإسكوريال (ولد سنة خمس وستين وأربعماية).

وفـاته

من خط الحافظ المحدث أبي القاسم بن بشكوال رحمه الله . كان ممن أصيب أيام الهرج بقرطبة ، فعظم المصاب به ، الشيخ[١] الأجل ، ذو الوزارتين ، السيد الكامل [الشهير الأثير][٢] ، الأديب [اللغوى السرى][٣] الكاتب البليغ ، معجزة زمانه [وسابق أقرانه][٤] ، ذو المحاسن الجمة ، [الجليلة الباهرة][٥] ، والأدوات الرفيعة الزكية ، الطاهرة الكاملة ، المجمع على تناهى نباهته ، وحمد[٦] خصاله وفصاحته ، [من لا يشق غباره ، ولا تلحق آثاره ، معجزة زمانه فى صناعة النثر والنظم][٧] ، أبو عبد الله بن أبى الخصال [رحمه الله تعالى ورضى عنه][٨] ونضر وجهه . ألفى مقتولا قرب [باب داره][٩] بالمدينة ، وقد سلب ما كان عليه ، بعد نهب داره ، واستيصال حاله ، وذهاب ماله . وذلك يوم السبت الثانى عشر من شهر ذى الحجة من سنة أربعين وخمسماية . فاحتمل إلى الربض الشرقى[١٠] بحرمة الدرب ، فغسل هنالك وكفن ، ودفن بمقبرة ابن عباس عصر يوم الأحد بعده ، ونعى إلى الناس وهم مشغولون بما كانوا بسبيله من الفتنة . فكثر التفجع لفقده ، والتأسف على مصاب مثله ، وأجمعوا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (الفقيه) .

(٢) هذه الزيادة من المخطوطين .

(٣) هذه الزيادة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى المخطوطين .

(٤) هذه الزيادة من المخطوطين .

(٥) هذه الزيادة من المخطوطين .

(٦) هذه الكلمة واردة فى المخطوطين ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٧) هذا وارد فى المخطوطين . وساقطة فى الإسكوريال .

(٨) هذا وارد فى المخطوطين . وساقط فى الإسكوريال .

(٩) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (منزله) .

(١٠) كان « الربض الشرقى » من قرطبة ، يقع فى قسمها المسمى بالمدينة العتيقة أو « الشرقية » فى شمالها الشرقى ، عند منحنى نهر الوادى الكبير .

على أنه كان آخر رجال الأندلس علماً وحلما، وفهما ومعرفة ،وذكاء وحكمة ويقظة، وجلالة ونباهة، وتفنناً فى العلوم . وكان له [رحمه الله][١] اهتمام بها، وتقدم فى معرفتها وإتقانها . وكان رحمه الله، صاحب لغة وتاريخ[٢] وحديث، وخبر وسير، [ومعرفة برجال الحديث، مضطلعا بها][٣] ، ومعرفة [بوقائع العرب][٤] وأيام الناس، وبالنثر والنظم . وكان جزْل القول، عذب اللفظ، حلو الكلام [عذب الفكاهة][٥] فصيح اللسان، بارع الخطّ [حسْنه ومتقنه][٥] . كان فى ذلك كله واحد عصره . و نسيج وحده ، يُسلَّم إليه فى ذلك كله ، مع جمال مَنْظره، وحسن خلقه، وكرم فعاله، ومشاركته لإخوانه . وكان مع ذلك كله [جميل التواضع، حسن المعاشرة لأهل العلم][٦] مسارعا لمهاتهم، نهاضاً بتكاليفهم، حافظا لعهدهم، مكرِما لنُبهائهم، واسع الصدر، حسن المجالسة والمحادثة، كثير المذاكرة، جمُّ الإفادة . له تصانيف جليلة[٧] نبيهة ،ظهر فيها علمه وفهمه، أخذها الناس عنه مع ساير ما كان يحمله ويتقنه، عن أشياخه الذين أخذ عنهم، وسمع منهم، وقرأ عليهم[٨] .

وقال غيره : قتل بدروب الفرعونى بقرب رَحَبة أبان، بداخل مدينة قرطبة، قرب باب عبد الجبّار يوم دخلها النصارى مع أميرهم ملك طليطلة، يوم قيام

---

(١) زائدة فى المخطوطين .

(٢) زائدة فى المخطوطين .

(٣) الزيادة من المخطوطين .

(٤) الزيادة من المخطوطين .

(٥) الزيادة من المخطوطين .

(٦) هذه الزيادة من المخطوطين

(٧) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة . وفى «ج» (رفيعة القدر) .

(٨) تتبعنا فى هذه الفقرة الأخيرة نص المخطوطين والإسكوريال، وأخرجناها فى صيانة مشتركة .

ابن حَمْدين ،واقتتاله مع يحيى بن على بن غانية المسوفى [المُلَثَّم المرابطى][1] يوم الأحد لثلاث عشرة مضت من ذى الحجة عام أربعين وخمسمائة . قتله بَرْبَرْ المصامدة رجّالة أهل دولة الثام لحُسْن ملبسه ، ولم يعرفوه ، وقتلوا معه [ابن أخته][2] عبد الله بن عبد العزيز بن مسعود ، وكان أنكحه إبنته ، فقتلا معا . وكان محمد خيرة الشيوخ ، وعبد الله خيرة الأحداث ، رحمهما الله تعالى .

محمد بن مُفَضل بن مُهيب اللخمى[3]

يكنى أبا بكر من أهل شِلب[4] من العَليا .

حاله

قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير ، كان منقبضاً عن الناس ، أديبا، شاعرا، خمّس عشرينيات الفازازى ، رحمه الله تعالى . وذكره صاحب الذيل . وقال لى شيخنا أبو البركات ، وهو جدّه ، أبو أبيه ، ما معناه : كان شريفاً ، عالى الهمة ، عظيم الوقار ، ألُوفا ، صَمُوتا ، نحيف الجسم ، آدم اللونِ ، خفيف العارض ، مُقطّب الوجه ، دايم العبوس ، شامخ الأنف ، إلا أنه كان رجلا عالما راسخا ، عظيم النزاهة ، حافظا للمروءة ، شهير الذكر ، خطيباً مِصْقعاً ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى المخطوطين (من المرابطين) .

(٢) زائدة فى الإسكوريال .

(٣) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال فقط . ولم ترد فى «ج» . ولا «الزيتونة» .

(٤) هى بلدة برتغالية صغيرة ، تقع فى نهاية ولاية الغرب الأندلسية ، فى جنوبى البرتغال على مقربة من المحيط . وينتسب إليها الشاعر الكبير أبو بكر بن عمار . وبالبرتغالية Silves

مَهيبا كشهرته ، قديم الرياسة ، يُعضِّد حديثَه قديمَه . واستقر بألمرية ، لما تغلب العدو على بَلَد سلفه . ولما توفى شيخ المشايخ : أبو إسحق بن الحجاج . تنافس الناس من البلدين ، وغيرهم ، فى خُطْبة بنته . قال شيخنا أبو البركات : ومن خطه نقلت ، وكان ابن مَهيب واحداً منهم فى الإلحاح بالخُطبة ، متقدما فى حَلْبتهم ، بجيوش الأشعار . ورام غلبَتَه ذوو اليسار ، من حيث كان بحمراء جيش الإعسار ، فأذلهم بالمقابلة فى عُقر الدار ، فلم يرجعوا من الغنيمة إلا بالفرار . قلت ، وجلب فى هذا المعنى شعراً كثيراً ، ناسب الغرض . ونال من المُتَغلب على ألمريّة ، على عهده ، حُظْوة ، فاستظهر به تارة على معقل مَرْشانة[1] وتارة على الرسالة إلى الحَضْرة الحفصية بتونس . ولما آب من سفره إليها ، سعى به لديه بما أوجب أن يحجرَ عليه التَّصرف ، وسجنه بمنزله . فلما قصد ألمرية الغالب بالله[2] ، مُسْتَخلصا إياها من يد الرئيس أبى عبد الله بن الرَّميمى[2] ونزل بمدينتها ، وحاصر قَصَبتها ، وقع اختيار الحاصر والمحصور على تعيين ابن مهيب ، بمحاولة الأمر ، وعقد الصلح ، رضىً بدينه وأمانته ، فعَقَد الصلح بينهما على أن يسلم ابن الرميمى القصبة ، ويُعان على ركوب البحر بماله وأهله وولده ، فتأتّى ذلك واكتسب عند الغالب بالله ، ما شاء من عزّة ونَجَلة .

وقفنى شيخنا أبو البركات على ظهير سلطانى ، صدر عن الأمير الغالب بالله ، يدل على جلالة قدره نصه :

---

(١) سبق التعريف بها .

(٢) الإشارة إلى الغالب بالله هنا يقصد بها محمد بن يوسف بن نصر أو محمد بن الأحمر الكبير مؤسس مملكة غرناطة ، وكانت ألمرية وقت قيامه ، فى يد منافسه المتوكل بن هود ، وعليها من قبله الوزير أبو عبد الله بن الرميمى . وتوفى ابن هود فى ألمرية فى ظروف غامضة فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ . فلما ملك ابن الأحمر غرناطة واستقر بها فى رمضان من هذا العام ، سار إلى المرية وحاصرها واستولى عليها .

هذا ظهيرٌ كريم ، أظهر العناية الحافلة لمُستوحيها ومُستَحِقها ، وأجراه من الرعاية الكاملة على الحُب طرقُها . أمر بإحكام أحكامه ، والتزام العمل بفصوله وأقسامه ، الأمير عبد الله محمد بن يوسف بن نَصْر ، نَصَرَ الله أعلامه ، وأدام لإقامة قِسْط العدل أيامه، لوليّه العلىّ المكانة ، وصفيّه الملىء بأزكى المعرفة والديّانة ، الحرىّ بما اختصه ، أيده الله ، من الحفظ لمرتبته السامية والصيّانة . للشيخ الفقيه ، الجليل ، العالم ، الأوحد ، العَلَمَ ، الأتقَى ، الأزهر ، الفاضل ، الخطيب الأرفع ، المحدث الثقة ، الرّاوية ، الصالح ، السُنى ، الحافظ ، الحافل ، الماجد ، السّرِى ، الطاهر ، المُكرّم ، المبرور ، الكامل ، أبى بكر بن الشيخ الوزير الأجل ، الفقيه ، الحسيب ، الأصيل ، الأمجد ، المكرم ، المبرور ، الأفضل ، المرحوم ، أبى عمرو ابن مَهِيب ، أدام الله عزةّ جانبه ، ووصل بالعلم والعمل أرتقاء مراتبه ، أقام به الشّواهد على اعتقاده ، أنه أخلَصُ أوليائه وُدّاً ، وأفضلهم قصداً ، وأكرمهم عهداً ، حين ظهرت له ، أيده الله ، آثار آرايه الأصيلة ، وبانت فى الصلاح والإصلاح ، مَيامِنُ مناقبه الجميلة ، ووجب له من العناية والمزيّات ، أتمّ ما توجبه معارفه ، وتقتضيه مجادته وزَهادته ، التى لا يفنُد فى وصفها واصف . وأعلن ، بأنه دام عزّه ، أحقّ من حُفِظَت عليه ، مرتبةُ صدور العلماء الراسخين فى العلم ، وأُبقِيت مزيّةُ ما تميز به من التّقى والوَرَع الكافى والحِلْم ، وبَرَع بصلة العناية بجانبه ، لما أهّلته إليه معرفته من نَفْع المتعلمين ، وإرشاد من يَسْتَرشده فى مسايل الدين من المسلمين ، وأفصَح بأنه أولى مخصوص بالتجلّة والتوقير ، وأجدُر مَنْصُوص على أن قَدْره لديه معتمدٌ بالتكريم والتكبير . وأمَرَ ، أعلى الله أمْرَه ، أن يستمر له ، ولزوجه الحرّة الأصيلة الزكية ، التقية الصالحة ، المصونة المكرمة المبرورة ، عائشة بنت الشيخ الفقيه الجليل العالم الصالح السّنى ، الزاهد الفاضل ، المرحوم المقدس ، الأرْضَى ، أبى إسحق بن الحاج ، ما اطّردت به العادة لهما قديماً

وحديثاً، وتضمنه الظهيران الكريمان المؤرخ أحدها بالعشر الأواخر لشوال عام خمسة وثلاثين وستماية، من صرف النظر فى أعشارها وزكواتهما إليهما، ليضعا ذلك فى أحقّ الوجوه، ويؤديا فيه حق لله تعالى، ما مثلهما علماً ودينا من يؤديه موكولاً ذلك لله، إلى ما لديهما، من نشر الأمانة، مصروفا إلى نظرها الجارى، مع العلم والديانة، وتجديد أحكام ما بأيديهما من الظهاير والأوامر القديمة والحديثة، المتضمنة تسويغ الأملاك، على اختلافها، وتباين أجناسها وأوصافها، لهما ولأعقابهما، على التأبيد والتخليد، والمحاشاة من اللوازم، والمعاوز وللمغارم، وأن يطرد لشركائهما، وعمرة أملاكهما، ووكلائهما، وحواشيهما، ومن اتصل بهما، جميل العناية، وجميل الرعاية، وموصول الحماية، الاستمرار الذى يطرد العمل به مدى الأيام، وتتوالى التمشية له، من غير انصرام على الدوام، موفىً بذلك، ما يحق لجانب الفقيه العالم، الأوحد الأسنى، أبى بكر. أدام الله عزته، من حظوظ الإجلال، منتهىً فيه، إلى أبعد آماد العنايات الشريفة، الفسيحة المجال، مقتضىً على حقٍّ ما انفرد به من العلم، واتصف به من الديانة، اللذين أضفيا عليه ملابس البهاء والجلال. فمن وقف على هذا الظهير الكريم من الولاة والعمال، وساير ولاة الأشغال، وليتلقه بغاية الائتمار والامتثال، إن شاء الله. وكتب فى الثانى عشر من ذى الحجة عام ثلاثة وأربعين وستمائة.

مشيخته

أخذ عن أبى العباس أحمد بن منذر الإشبيلى، تلا عليه بإشبيليه. وعلى عباس ابن عطية أبى عمرو. وروى عن أبى محمد عبد الكبير الإشبيلى، وصحب أبا الحسن بن زرقون، وتفقه عليه. وانتقل إلى المرية، فصحب أبا إسحق البلفيقى وأخذ عنه، وتزوج ابنته. وأجاز له أبو عبد الله بن هشام الشواش وغيره. ثم انتقل آخر عمره إلى سبتة.

شعـــره

نقلت من خطّ شيخنا أبي البركات قوله في غرض الوصية :

أليل النّوى هل من سبيل إلى فَجْر ... ويا قلبُ كم تأسى ويا دمعُ كم تجرى
أبى القلبُ إلا أن يهيم بحبّكم ... وأن تبرحوا إلا القليل عن الفكر
رحلتُ عنكم لا بقلبي وإنما ... تركتُ لديكم حين ودّعتكم سِرّى
أعود بدهر الوَصْل من حين هَجْركم ... ورُبّ وصال مُسْتعاد من الهجر
للعُباب نفسى لست أنفق قربكم ... لزُهْدى فيكم بل حَرصت على البِرّ
تقطّع أكبادٌ عليكم صبابة ... فاصبر إن الخير أجْمَعَ في الصبر
وبالقلب من لا يصلح الصبر عنهم ... وإن كان خيرا فهو عنهم من الشّر
فلولاهُم ما كنت أحسَبُ ساعة ... فقدتكم فيها عِياناً من العُمْر
ألا يا أخى فاسمع وُصاتى فإنها ... لبثّك لعَذْرى من أخ سالم الصّدر
يحبُّك في ذات الإلــه ويبتغى ... بحبك عند الله مُدّخر الأجــر
ألا إنما التوفيق كنت من أهله ... مراعاة حقّ الله في السّر والجهر
بتوحيده في ذاته وصفـاته ... وأفعاله أيضا وفي النّدى والأمر
فثابر على القرار والأثَر الذى ... يصحُّ عن المختار والسادة الغُرّ
وعُدّ لك الخيرات عما سواها ... وكن بها مُسْتمسكا أبد الدهر
إذا يسلك الشيطان فجّاً سوى الذى سلكت ولا يلفى سبيلا إلى مكر
وفرّق الأجناس حاشى تقيّهم ... فقد ظهر الإفساد في البرّ والبحر
ولا تنسَني واذكر أخاك بدعوةٍ ... فإنك منه يا أخى لعَلَى ذِكر

قال شيخنا أبو البركات ، ومن شعره ، ومن خطّه نقلت :

للصالحين إلى الصلاح طريق ... رَحُبَت بهم وعدَت عليك تضيق

صرفوا النفوس من الهوى عن صوبها   فغدت إلى طلب النّجاة تتوق

منها بعد أبيات :

ياقرّة العين استمع من ناصح   فى صدره قلبٌ عليك شفيق
أنت الشّقيق ولادةً ولذلك لى   روحٌ لروحك فى الخُلوص شقيق
لا تخدَعَنْك تُرّهات أُحدِثت   وخزعبلات للجهول تروق
واعكف على القرآن دهرك واجتمع   فالشُّغل عنك لغيره تفريق
إن الحديث وفقهه وعلومه   هذا الذى للمؤمنين يليق
واهجر بنى الدنيا فإنّ بهجرهم   يتضاعف الإيمان والتصديق
والحقْ بقوم قد عنَوا بتجارة   نفقت لهم يوم القيامة سُوق
واحفظ لسانك عن إذاية مُسلم   فسِبابه قال الرسول فسوق
لا تبلكْ همّ الرزق فهو مُقدَّر   والعبْد طول حياته مرزوق
ولترض بالرحمن ربّا حاكماً   ودع الفضول فمنه ضلّ فريق
حلّوا عقال عقولهم وتحكّموا   إن التحكم بالعقول مُروق
ولقد أتتك نصيحتى ولشمسها   فى أفق حبك يا حبيبُ شُروق
فكن القريب مكانُه من نفعها   فكان سدّتها إليك سحيق
واصطد ببازى العزم أطيار الرضا   فأخوك غايةُ بازه التّحليق
ولتجعل التسبيح شأنك إنه   فى الصّعب ممن شأنُه التّصفيق
واقنع بعلم الوحْى علماً ثم لا   يذهب بك التّشقيق والتوفيق
لا ترض فيه بالدنيّة ولتمُتْ   عطَشاً إذا لم تُذق منه رحيق
ما كلُّ علم يُهتدى بحصوله   منه الرّكيك نعَمْ ومنه رقيق
كمدارك الأصوات منها طيّبٌ   تَسلو النفوس به ومنه نهيق
وعليكمُ منى تحيةُ من له   قلبٌ إليكم أجمعه مَشُوق

وقال ، ألفيت بخطه ما نصه ؛ وكان بعض السفهاء قد كتب إلى بيتين من شعر وهما :

إليك أبا بكر رفعت وسيلتى ... ومِثْلُك من تُلقى إليه الوسائل
غَرقت ببحر الذُّل يوما وليس لى ... بأرضكم إلا اهتمامك ساحل

وأساء المحاولة فى دفعها ، فصرفته ، ولم أقف عليهما ، فضرب عليهما ، وكتب فى ظهرها :

حلَلْتَ أبا بكر بموطن عزة ... فأنسيتَ ما قد كنتَ فيه من الذُّل
وأصلك من كِبْر وكن مُتكبِّرًا ... وكيف يطيب الفرع من ذلك الأصل

وكتبت إليه صحبة دراهم وجَّهت بها إليه :

جفوتَ وما زال الجفـــا سجية ... لمثلك ما إن زال تُبْلى بها مَثَلُ
وما قلتَ فى أصلى فِكَذْبة فاجر ... رأى الفرعِ محموداً فعاب على الأصل
وبالإفك ما عثرتَ لا بحقيقـــة ... فما الكِبْرُ من شأنى ولا كنتُ فى ذل
وما زلت والله الحميد مُكرَّماً ... وفى نائبات الدهر للعقد والحلّ
ولو كنتَ من يتَّقى الله لم تكن ... تمد متى تَسْخط وعند الرِّضا تَحُل
أما قلتَ أنى ساحل لك عندما ... غَرِقت ببحر الذُّل فى زمن المَحْل
وكيف نَسَخْتَ المدح بالذم قبل أن ... تبثَّ لى الشكوى وتُدْلى بما تُدْل
ولكن لُؤم الطبع يحمل أهــله ... على الصَّعب من سبِّ الكرام أو النَّيل
إن كان بعض الكِبْر نقصا فإنه ... عليك من الأوغاد يُحسب فى الفَضْل
وما الذُّل إلا ما أتى بك نحونا ... فقيراً من التَّقوى سليباً من العقل
ومطلوبُك الدُّنيا تجدها خسيسةً ... توافى خسيس النَّفْس والقول والفعل
وما الجود إلا ما أصبتَ مكانه ... ومهما فَقَدْتَ الأصل لا عار فى البُخْل

ومثلُك من يُجفى ويقلب خلسئاً فلستَ لإسداء الصَّنيعة بالأهل
ولكننى عوَّدت نفسى عادةً من البَذْل لم أعدل بهـا قط عن نَذْل
فخذها لحاكَ الله غير مبارك لسميك فيها يا بن خانية النَّعل
ومثلى من يُوذَى فيحتمل الأذى ولكنه قد يُدر الجهل بالجهل
وقد قال من لا شك فى قوله من الحكما القتلُ أذهبُ للقتل
فإن زِدْتَنا زِدنا وإن كنتَ نادماً تَمِلناك أخذاً فى أمورك بالعدل
فنى كل شيء لستُ عنك مقصِّرا بما شئت من قطع وما شئت من وصل

قال الشيخ ، قول الماجى ، وأصلك من كبر : معناه التعريض يكون سلف أبى بكر بن مَهيب ، علوا فى أنفسهم وتكبروا ، فثاروا بسبب ذلك بطبيرة[1] وجهاتها ، ثار منهم عبد الرحمن جدُّ أبى بكر ، ثم حسن ، ثم عامر أخوه ، وإلى هذا أشار أبو بكر بن مهيب بقوله فى بعض شعره :

إن لم أكن ملكا فكنتُ رئِّساً

وأنشد فى الصلة الزبيرية[2] قوله رحمه الله :

أملى من الدنيا المباحة كِسْرة أُبقى بها رمقى ودارٌ نابية
قد أضْرَب الزمان عن سكانها فكأنْها فى القفْر دارٌ خالية

ومن شعره فى المقطوعات :

ترحَّل صبرى والولوع مقيم وصحَّ اشتياقى والسلوُّ سقيم
فياليت شعرى هل أفوز بعطف من زيَّنت خدِّى وِرْداً عليه أقوم

---

(١) طبيرة Tavera ، هى بلدة من بلاد ولاية الغرب الأندلسية تقع فى جنوبى البرتغال على شاطىء المحيط ، على مقربة من مصب نهر وادى يانة . وقد وقعت بها عدة ثورات فى أوائل العهد الموحدى فى ، منتصف القرن السادس الهجرى .

(٢) الصلة الزبيرية ، يقصد بها كتاب «صلة الصلة» لأبى جعفر بن الزبير .

ويا جنّة قد حيل بينى وبينها بقلبى من شَوْقَى إليك جحيم

دخوله غرناطة

قال الشيخ ، دخل غرناطة مرتين ، أُخبرنى بذلك الشيخ القاضى أبو الحسن ابن عُبيدة ، وهو بصير بأخباره ، إذ هو من أصحاب سلفه ، وممن رافق جدّه فى الكَتْب عن بعض الأُمراء مدة ، وفى الخطابة بالمرِيّة أخرى .

توفى بسبتة أول ليلة من جمادى الآخرة عام خمسة وأربعين وستماية

محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقى

حاله

من صلة ابن الزبير : كان كاتباً بارعاً ، شاعراً مجيداً ، له مشاركة فى أصول الفقه وعلم الكلام ، وغير ذلك ، مع نباهة وحُسْن فهم ، [ذو فضل وتعقل][1] وحسن سَمْت . وورد على غرناطة ، واستُعمل فى الكتابة السلطانية مدة ، وكان معلوم[2] القَدْر ، معظما عند الكافة[3] . ثم إنه رجع إلى مُرْسية ، وقد ساءت أحوالها ، فأقام بها مدة ، ثم انفصل عنها ، [وقد اشتدت أحوالها][4] ، واستقر بالعُدْوة بعد مُكابدة .

قلت ، أخبرنى شيخنا أبو الحسن الجياب رحمه الله ، قال ، كان شَكِس[5]

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال و «الزيتونة» . وفى «ج» (ذا نباهة) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (عظيم) .
(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (صنفه) .
(٤) هذه الجملة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى المخطوطين .
(٥) هكذ وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (شكه) وهو تحريف .

الأخلاق ، متقاطبا ، زاهياً(١) بنفسه ؛ ابتدأ يوماً كتاباً مُصَدَّراً بخطبته ، فقال فيه يصف صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم « عفوة العفوة »(٢) ، وتركه لأمر عرض له ، فنظر إليه الفقيه عمر اللَّوْشى ، وهو كاتب المقام السلطانى ، فظن لقصوره أنه وَهَمَ ، وأراد « الصفوة » فأصلحه ، فلما عاد ونظر إليه مزّقه ، وكسر الآلة ، وقال لا أقيم بموضع [بلغ فيه الجهل إلى هذا القَدْر](٣) ، ويتَسوَّر به الإصلاح على قلم يُطْمع بعد فى مقامه . وانصرف ، واستقر بتِلمْسان ، كاتباً عن سلطانها أبى يحيى يَغْمُرا سن(٤) بن زيّان . وزعموا أن المستنصر أبا عبد الله بن الأمير أبى زكريا ، استقدمه على عادته فى استدعاء الكتاب المشاهير والعلماء(٥) وبعث إليه ألف دينار من الذهب العَيْن ، فاعتذر وورد عليه المال ، وكانت(٦) ، أشق ما مر على المستنصر ، [وظهر له عُلوُّ شأنه](٧) ، وبعدُ همته .

مشيخته

روى عن القاضيين أبى عيسى بن أبى السداد ، وأبى بكر بن مُحْرز ، وعن الأستاذ أبى بكر محمد بن محمد المعروف بالقرشى ، وقرأ وسمع على هؤلاء ببلده ، [وأجاز له كتابةً أبو الربيع بن سالم وغيره](٨) .

---

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (ذاهبا) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . ومعناها (خيرة الخيرة) . ووردت فى المخطوطين (صفوة الصفوة) .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (يحصل فيه هذا الغدر) .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين ، وهو الاسم الكامل . ووردت فى الإسكوريال (يغمور) وهو مختصر الاسم .

(٥) واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى المخطوطين .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (فكان ذلك) .

(٧) هكذا وردت فى «ج» . وفى الإسكوريال «والزيتونة» (لأجل بأو) .

(٨) هذه الجملة واردة فى الإسكوريال « والزيتونة » . وساقطة فى «ج» .

شعـــره

من ذلك قوله :

أقنع بما أوتيته تنَلْ الغِنا ... وإذا دَهَتْكَ مُلِمَّةٌ فتصبَّر
واعـــلم بأن الرزق مقسوم فلو ... رُمْنا زيادة ذرَّة لم نقـــدر
والله أرحم بالعباد فلا تسل ... أحداً تَعِش عَيْشَ الكِرام وتُؤجر
وإذا سخطت لبؤس حالك مرة ... ورأيت نفسك [قد غَوَتْ فاتبصر] (١)
وانظر [إلى من كان دونك] (٢) تدَّكر ... لعظيم نعمته عليك وتشكر

[ومما قاله فى صباه :

يا دعـــوة شاكٍ ما قـــد ... دهاه من لِحاظ رشاك
ظبى تصدّى للقـــلوب يصيدها ... من ناظِرَيه فى سلاح شاك
ورَمَى وإن قالوا رنـــا عن ... فاترٍ ساج عليه سيم النُّسَّاك
قد كنت أحذر بطشه لو أننى ... أبصرت منه مخايل الفتّاك
أو ما عليه ولا عليه حاكمٌ ... يحمى ثُغُورك أو يُحوط حماك
أو ما لجارك ذمّةٌ مـــرعيَّة ... أبذا يَطُلُّ دمُ الغريب طِلاك
إنى استنمت إلى ظلالك ضلّة ... فإذا ظباءُك ماضيات ظباك
مالى أخاطب بانَةً ما أن تعى ... قولا ولا ترْنى لدمعة بـــاك
أكريمة الحيّين هـــل لمتيَّم ... رُحْمَى لديك فأرتجى رحماك
أصبتنى بعد المشيب وليس من ... عُذْر لمن لم يُصبه ثراك
لولا ما جذبت عِنانى لوعةٌ ... والله يشهد أننى لَوْلاك

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (قد ثبت فاستنفر) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (إلى من دون حالك) .

لما دعا داعي هـــواك أجبتُه ... من لا يجيب إذا دَعَتْ عيناك
أصليتَنى نار الصُّدود وإننى ... راضٍ بأن أُصْلَى ولا أسلاك
وأبحت ما منع التشرُّع من دمى ... بالله مَنْ أفتاك قتل فتاك
وتركتُ قلبى طايراً متخبِّطا ... شباك خَتْلك أو بطون سباك
ومنعتُ أجفانى لذيذ منامها ... كى لا يتيح لى الكَرَى لُقياك
ولقد عجبتُ وأنتِ جدُّ بخيلة ... أن أُعْرتِ الشمس بعض حُلاك
إنى لأيأسُ من وصلك تارة ... لكن أُعلِّلُ مَطْمعى بعُلاك
أسماك أنك قد خفضت مكانتى ... هلّا خَلَعْتِ علىّ من سماك
إنى مُعنّاكِ المتيَّم فليكن ... حظّى لديكِ مناسبا مَغْناك
تثنى معاطفَك الصبا خُوطيّة ... وكذا الصبا فصباك مثل حِماك
أبعدتنى منها بطامنة واحِ ... ألذاك سمّتْك الورى بسمك
أأموت من عطش وثغرك مَوْردٌ ... فيه الحياة استَوْدعتها فاك
هـــلا نَهى عن حُلوةٍ فلعلهٍ ... وضعتِ أداة النفى فى اسم لماك

وقال يجيب أبا عبد الله بن خميس رحمه الله، عن قصيدة بعث بها إليه أولها:

رُد فى حدايق مايها مرتادُ ... قد لذّ مَورودٌ وطاب مُراد
زُرْق الأسنة دون زُرق إِجَمامها ... وظباً كما رَنت العيون حِداد

هذه الأبيات:

نعم المراد لمن غدى يرتاد ... مرعًى يرفّ نبـــاته ومهاد
سالَتْ عـــلى العافى جداوِلُه ... كما صالت على العادى بدا ناد
فشدّدتُ رَحْـــل مطيّتى منه ... إلى حيث السيادة تُبتنى وتُشاد

وركبتُ ناجيةً مباريةَ الصَّبا ... خَفْراً فوق خضارة تُعتاد
يقتادُها سكانُها قُلْبٌ عـلى ... من كان من سكانها استبداد
عجباً لهم أحـلامهم عاديَّةٌ ... تَمْضى عليهم حكمها أعـواد
خبّر تِلمْسانًا بأنى جئتُها ... لمّا دعانى نحـوها الرُّواد
وعاقتها سمعـاً ولم أر حُسْنَها ... إلا أناساً حـدّثوا فأجادُ
ولَرُبَّ حُسْنٍ لا ثـواه ناظرٌ ... وبراه لا يخفى عليه فـؤاد
ودخلتُها فدخلت منهـا جنَّةً ... سكانها لا تختفى ولا حياد
ورأيت فضلا باهـرا ومكارما ... وعُلا تفاخر دونها التَّعداد
أهل الرِّواية والدراية والنَّدَا ... فى نُورهم أبدا لنا استمْداد
فهم إذا سُئِلوا بحار معارف ... ولدى السكينة والنهى أطواد
درجاتها ينحطُّ عنها غيرهم ... ومن الورى قَترٌ ومنه وهاد
فأجلهم وأحلُّهم من مهجتى ... بمكانةٍ ما فوقهـا مُزْداد
وأودُّ حين أخُطُّ أطيب ذكرهم ... لو أنّ أسْوَد مُقْلـتى مِداد

وقال يخاطبه وقد وقف على بعض قصيدة :

رقّت حواشى طبعِك ابن خميس ... فهفا قريضُك بى وهاج رَسيسى
ولمثله يَصْبُو الحليم ويمـترى ... ما للشروق به وسيرُ العِيس
لك فى البلاغة والبلاغةُ بعـض ما تحويه من أثرٍ محلٌ رئيسى
نَظْمٌ ونـثر لا تُبارى فيهما ... تمهدّت ذاك وذا بعلم الطُّوس][1]

وقال عند وفاته وربما نُسبت لغيره :

ربٌّ أنت الحليم فاغفر ذنوبى ... ليس يعفو عن الذنوب[2] سواكا

(١) الشعر المحصور بين الحاصرتين وارد كله فى الإسكوريال . وساقط فى المخطوطين .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (الذنب) .

رب ثبِّت عند السؤال لسانى ... وأقمنى عـــلى طريق هُداكا
رب كن إذا وقفتُ ذليلا ناكـــسَ الرأى استحى أن أراكا
رب من لى والنار قد قَرُبت لى ... [وأنا قد أبحتُ عهد ِحماكا](١)
رب مالى من عُدَّةٍ لمـآلى(٢) ... غير أنى أعددت صِدْق رجاكا
رب أقررتُ أنى عبدَ سوء ... حِلْمُك الجمُّ غرَّه فعصاكا
رب أنت الجواد بالخير دوماً ... لم تزل راحماً فهب لى رضاكا
رب إن لم أكن لفضلك(٣) أهْلاً ... باجْتِرائِي فأنت أهلٌ لذاكا

نـــثره

ومن نثره ما خاطب به صديقين له بمرسية من مدينة إشبيلية :

كتبتُه ، كتب الله لـكما فوزاً بالحسنى ، وأجْناكما من ثمرات(٤) إحسانه أكثر ما يُجنى . من إشبيلية ، وحالى بحمد الله حسنة ، ونفسى بحب قربكما مرْتَهنة ، وعلى بما لديكما من السَّراوة التى جُبِلتما على فِطْرتها ، [وامتَزْتما فى الاجتلاء بغُرَّتها](٥) ، علم لايدخله الشك ، ونِسْبتى إلى وُدكما الذى لبسته مُعْلَماً وتقلَّدتُه مُحْرِماً ، لا يعبر عن معناها إلا بما لا يزال . ولا ينفكُّ . فلنَثْنِ عِنان القلم عن مداده ، ونأخذ فى حديث سواه . وصلنا إشبيلية ضحوة يوم الثلاثاء خامس ربيع الآخر ، ولقينا الإفانْت(٦) على ميلين ، وفُزْنا بما ظهر من بِشْره واعتنايه بقرار

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . ووردت فى المخطوطين كالآتى (وأنا تحت أحمد وحماكا) .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (لما ب) والأولى أرجح .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (لذلك) . والأولى أرجح .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (ثمرة) .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (وامتزتما بقوتبا) .

(٦) الإفانت هنا يقصد بها «الإنفانتى» Infante ، وهو لقب يطلق على ولى عهد ملك قشتالة ، ويجب أن نذكر أن إشبيلية كانت فى الوقت الذى يتحدث فيه الكاتب عنها قد سقطت فى أيدى القشتاليين وذلك فى شعبان سنة ٦٤٦ هـ (نوفبر ١٢٤٨ م) ، وغدت مدينة نصرانية ، ثم جعلت عاصمة لمملكة قشتالة .

الخاطر ، وقرة العين ، و نزلنا فى الأخْبِية خارج البلد ، موضعا[١] يعرف بالقنب ، قد تفجر عيونا ، وجمع ماؤه وهواؤه من المحاسن فنونا ، وعرض علينا النزول فى الدِّيار داخل المدينة ، فرأينا المقام فيه[٢] ، أحد الأسباب المُسْعِدة[٣] على حفظ الصحة المَعِينة ، ورغبنا عن المدينة لحرِّها الوهاج ، وغبارها العَجاج ، ومايها الأجاج . ولما ثاب من النشاط البارح ، واستقل من المَطِيِّ الرازح ، طفت فى خارجها وداخلها ، ووقفت[٤] على مبانيها المشيَّدة ومنازلها ، ورأيت انسياب أراقِشها ، وتقصيت آثار طُرْيانَتِها[٥] وبراقِشها[٦] فشاهدتُ من المبانى العتيقة ، والمنارة[٧] الأنيقة ، ما يملأ[٨] أعين النُظَّار ، وينفسح فيه مجال الاعتبار . على أنى ما رأيتها إلا بعد ما استولى عليها الخسْف . وبان عنها الظَّرف ، ونبا عنها الطَّرف ، فلا ترى من مغانيها إلا طللا دارسا ، ولا تلمح من بدايعها[٩] إلا مُحيًّا عابسا ، لـكن الرائى إذا قدَّر وضعها الأول ، وركب وهمه من مبانيها ما تحالَّ ، وتخيل فى ذهنه حُسْنها وتمثل ، تصور حُسْناً يدعو إلى المجون ، ويُسْلى عن الشجون

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى «ج» (سيوضع) .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» وفى الإسكوريال (فيها) . وفى «ج» (القنب) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى «ج» (المساعدة) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (واطلعت) .

(٥) طرياتها يقصد بها طريانة Triana ضاحية إشبيلية الجميلة الواقعة إزاءها على الضفة الغربية من نهر الوادى الكبير . وما تزال طريانة حتى اليوم من أجمل ضواحى إشبيلية .

(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى الاسكوريال (وفلسها) . وفى الزيتونة (وعشها) والأولى أرجح وأنسب للسياق .

(٧) المنارة يقصد بها هنا منارة الجامع الأعظم الواقعة فى قلب إشبيلية ، وهى التى حولت فيما بعد من أعلاها إلى برج لأجراس كنيسة إشبيلية العظمى ، التى بنيت فوق موقع الجامع ، وما تزال حتى اليوم من أعظم الآثار الأندلسية الباقية . وتعرف بالإسبانية باسم (لاخيرالدا) La Giralda .

(٨) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى «ج» (يستميل) .

(٩) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (معالمها) .

[لولا أنها عُرِضت لأشمط راهب . لما دان إلّا بدَن ، ولا تقرّب بغير قارب][1]

وحسبى أن أصفها بما يقيها من القبول ، وأقول إنها فى البلاد بمنزلة الربيع من الفصول ، ولولا أن خاطرى مقَسّم وفكرى حده مثلم ، لقضيت من الإطناب وطَراً ، ولم أدع من معاهدها[2] عيناً إلا وصفتها ولا أثراً .

توفى بتلمسان يوم عاشوراء سنة ست وثمانين وستماية .

محمد بن عبد الله بن محمد بن لب الأمى[3]

يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن الصايغ ، بالصاد المهملة ، والغين المعجمة ، من أهل المريّة .

حاله

من خط شيخنا أبى البركات فى «الكتاب المؤتمن على أنباء أبناء الزمن» . كان سهلا ، سَلِس القياد ، لذيذ العشرة ، دَمِث الأخلاق ، ميالا إلى الدَّعة ، نفُورا عن النَّصَب ، يركن إلى فضل نباهة وذكا ، يُحاسب بها عند التحصيل والدراسة ، والدُّؤوب على الطلب ، من رجل يجرى من الألحان على مضمار لطيف ، ولم يكن له صوت رخيم ، يُساوق إنطباعه فى التّلحين ، يخبر ذلك بالأوتار . وحاول من ذلك بيده مع أصحابه ، مالاذ به الظرفاء منهم . واستُعمل بدار الأشراف بالمرية ، فأحكم تلك الطريقة فى أقرب زمان ، وجاء زمامه يروق من ذلك العمل شأنه . ثم

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال و«الزيتونة» . وساقط فى «ج» .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى المخطوطين (معالمها) .

(٣) وردت هذه الترجمة فى مخطوط الإسكوريال فقط ولم ترد . فى « ج » ولا « «الزيتونة »

نهضت به همته إلى أوفع من ذلك ، فسار إلى غرناطة ، وقرأ بها العربية وغيرها ، وانخرط فى سلك نبهاء الطلبة لأدنى مدة . ثم رحل إلى بلاد المشرق فى حدود العشرين وسبعمائة ، فلم يتجاوز القاهرة لموافقة هواها علة ... كان يشكوها ، وأخذ فى إقراء العربية بها ، وعُرف بها إلى أن صار يدعى بأبى عبد الله النحوى . قال شيخنا المذكور ، ورأى فى صغره فارةً أنثى ، فقال هذه قُرَيْنَة ، فلُقِّب بذلك ، وصار هذا اللقب أغلب من إسمه ومعرفته .

وجرى ذكره فى التاج بمانصه : لجُّ معرفةٍ لا يغيض ، وصاحب فنون يأخذ فيها ويفيض . نشأ ببلده مشمِّراً عن ساعد اجتهاده ، وشارك فى فُنُن العلم ووهاده ، حتى أينع روضُه ، وفهق حوضُه . ثم أخذ فى إراحة ذاته ، وشام بارقة لذَّاته ، ثم سار فى البطالة سير الجموح ، وواصل الغَبُوق بالصَّبوح ، حتى قضى وطره ، وسئم بطَرَه ، وركب الفُلْك ، وخاض اللُّجج الحُلْك ، واستقر بمصر على النعمة العريضة ، على شك فى قضاء الحجَّة العريضة ، وهو بمدرستها الصالحية ، نبيه المكانة ، معدود فى أهل العلم والديانة .

مشيخته

قرأ بالمرية على المكتِّب أبى عبد الله النُّمَيْرى ، وأخذ عن شيخ الجماعة أبى الحسن بن أبى العيش ، وقرأ بالحضرة على الخطيب أبى الحسن القِيجاطى وغيره . وأخذ بالقاهرة عن الأستاذ أبى حيّان ، وانتفع به وبجاهه .

شعره

قال شيخنا أبو البركات ، وكان أخذ من قَرْض جيد الشعر بالحظِّ الوافر . فمن شعره ما نقله إلينا الحاج الحافظ المُكَتِّب أبو جعفر بن غصن ، حسبما قيّده عنه بمصر .

بَعُدَ المزار ولوّعته أشواق حكما بفيض مدامع الآماق

وخفوقُ نجْدِى النسيمِ إذا سَرى ... أذكى لهيب فؤادى الخفّاق
أمُعَلِّلى إن التّواصل فى غدٍ ... من ذا الذى لغدٍ فَدَيتُك باق
إن الليالى سَبَقٌ قد أنْبأت ... وإذا تولّت لم تُنَل بلحاق
فصفحٌ تمدّونه على الحى سقى الحِما ... صوبُ الغمام الواكف الرّقراق
فيه لذى القلب السليم ودادهُ ... قلبٌ سليمٌ ياله من راق
قلبٌ غداة فراقهم فارقته ... لا كان فى الأيام يومُ فراق
يا سارياً والليل ساجٍ عاكف ... يَفْتَرى للملا بنجايب ونياق
عرِّج على مَثْوى النّبى محمد ... خيرُ البرية ذى المَنْخُل البَرّاق
ورسول ربٍّ العالمين ومن له ... حفظُ العهود وصحةُ الميثاق
الظّاهر الآيات قام دليلها ... والطّاهر الأخلاق والأعراق
بَدْرُ الهدى البادى آياتُه ... وجَبِينُهُ كالشمس فى الإشراق
الشّافع المقبول من عَمّ الورى ... بالجود والإرفاد والإرفاق
والصّادق المأمون أكرم مُرْسَلٍ ... سارت رسالتُه إلى الآفاق
أعلى الكرام نداً وأبسطُهم يداً ... قَبَضَتْ عِنان المجد باستحقاق
وأشدُّ خلق الله إقداما إذا ... حَمِي الوطيس وشمّرت عن ساق
أمضاهم والخيل تعثر فى القنا ... وتجُول مسبَّحاً فى الدّم المُهراق
من صيّر الأديان ديناً واحدا ... من بعد إشراق مضى ونفاق
وأحلّنا من حُرمة الإسلام فى ... ظلٍّ ظليل وارف الأوراق
لو أن للبَدْر المنير كمالُه ... ما ناله كسْفٌ ونكسُ محاق
لو أن للبحرين جود يمينه ... أمِن السّفين غوابل الإغراق
لو أن للآباء رحمة قلبه ... ذابت نفوسُهم من الإشفاق
ذو العلم والخُلُق المُنْجلى ... والجاه والشّرف القديم الباق

آياته شُهُبٌ وغرٌّ بنـــانه ... سحبُ النَّوال تُدَرُّ بالأرزاق
فاحت فُيوح الأرض وهو غيانُها ... وَرَبت رُبى الإيمان وهو الشاق
ذو رأفة بالمؤمنين ورحمـــة ... وهُدًى وتأديبٍ بحُسْن سياق
وخصال مَجْد أفردت بالخصْل فى ... مَرْسى الفَخار وغاية السبّـــاق
ذو المعجزات الغُرِّ والآى التى ... كم آية فقدت وهُنَّ بواق
ثنت المعارض خيراً لما حكت ... فَلْق الصّباح وكان ذا إفلاق
يقظ الفؤاد سُرّى وقد هَجَع ... الورى لمقام صدق فوق ظهر بُراق
وسما وأملاك السّما تحفُّـــة ... حتى تجاوزهنّ سَبْع طِبـــاق

منها :

ياذا الذى اتصل الرّجا بحبله ... وانبتّ من هذا لِلْورى بعلاق
حُبيٌّ إليك وسيلتى وذخيرتى ... إنى من الأعمال ذو إملاق
وإليك أعملت الرّواحل ضُمَّراً ... تختال بين الوَخْد والأعناق
تُجبا إذا نشرت تلك الفلا ... تَطْوى الفلا مُمْتدّة الأعناق
يحدو بهنّ من النّحيب مردّدٌ ... وتقودهنّ أزِمّة الأشـــواق
غرضٌ إليه فوّقْنا أسْهُماً ... وهى القِسِىّ بُرين كالأفواق
وأنَخْتُها بفنايك الرّحب الذى ... وَسع الوَرَى بالنايل الدفاق
وقوّى مؤمّلك الشفاعة فى غدٍ ... وكفى بها هبةً من الرّزاق
وعليك ياخير الأنام تحيةٌ ... تحي النفوس بنَشْرها الفتّاق
تتأرّج الأرْجاء من لفَحاتهـا ... أرَجُ النّدى بمدحك المِصْداق

منها :

قسماً بطيب تُراب طيبَة إنه ... مِسْكُ الأنوف وأثْمُد الأحداق
وأثبار مسجده الذى برحابه ... لمعامل الرّحمن أى نفـــاق

لا جود فيه بأدمع أسلا كها ... منظومةٌ بترايبٍ وتراق
أغدو بتَقْبيل على حَصْبايه ... وعلى كرام جُدُره بعناق
وعليك ذا النُّورين تسليم له ... نورٌ يلوح بصَفْحه المُهْراق
كَفُوا لنبي وكفوا على جنّةٍ ... خُيِّرت له بشهادة وصداق
وعلى أب السِّبْطين من سبق الأُلَى ... سبقوا إلى الإسلام أيّ سباق
الطاهر الصِّهر ابن عم المصطفى ... شَرفٌ على التَّعميم والإطلاق
مُبْدِى القضا من وراء حجابها ... ومُفَتِّح الأحكام عن إغلاق
يغزو العُداة بغلظة فيعيدهم ... بصوارم تفرى القفار رقاق
وراياته لا شيء من عِقيانها ... بمطار يوم وغىً ولا بُمطاق
وعلى كرامٍ ستَّة عثرت بهم ... عند النظام ليالى النُّسّاق
ما بين أروع ماجدٍ نيرانه ... جَنْح الظلام تشبُّ للطُّرّاق
وأخي حروب صدّه رشفُ القنا ... عما قدود مثلهن رِقاق
ما غرّدت شجواً مطوقة وما ... شقت كمام رّوض عن أطواق
وعلى القرابة والصّحابة كلِّهم ... والتابعين لهم ليوم تلاق

ولماسنّى الله فى الرُّوم الوقْعَة المُبيرة والوقيعة الشهيرة(١)، التى أجلت عن قتل مليكهم معركتُها، وانتهت للفتح معركتها وحركتها، وعمّت الإسلام بانتماس فلّ الكفر بركتُها، قَدِم مع الوفود من أهل بلده، وهنّأ أمير المسلمين(٢) بفتحه ذلك، وطلوع ولده، فقال :

---

(١) الإشارة هنا إلى الموقعة التى نشبت بين القشتاليين بقيادة الدون بيدرو والدون خوان الوصيين على ملك قشتالة ألفونسو الحادى عشر، والجيش الغرناطى بقيادة شيخ الغزاة أبى سعيد عثمان ابن أبى العلاء فى هضبة إلبيرة على مقربة من غرناطة، وذلك فى ٢٠ ربيع الثانى سنة ٧١٨ هـ (مايو سنة ١٣١٨م) وهزم فيها النصارى هزيمة فادحة، وقتل دون بيدرو وزميله دون خوان وجمهرة من النبلاء والقادة والكبراء النصارى، وغرق من النصارى عدد جم بنهر شنيل، وحصل المسلمون على مقادير عظيمة من الغنائم والأسلاب. وكان ذلك فى عهد السلطان أبى الوليد إسماعيل (٧١٣ — ٧٢٥ هـ)

(٢) أمير المسلمين المشار إليه هنا هو السلطان أبو الوليد إسماعيل السابق ذكره.

أمليكُ أم بدرُ الدُّجا الوضّاح — وحُسامه أم بارق لمّــــاح
أعلى المسالك ما بنته يدُ التُّقى — وعمادها الأعلام والأرماح
وأحَقُّ من يدعى خليفةُ ربِّه — ملك خلافته هُدًى ونجــاح
كأمير أندلس وناصرها الذى — أفنى العُداة حُسامه السفّـــاح
أسمى الملوك أبوالوليد المُرْتضى — وأعزُّ من شَرُفت به الأمداح
هو دَوْحةُ الملك العَلِي فروعُها — وبراحتَيْه ترزق الأدْواح
ويمحو رسم عداته بلبّـــاته — نطق الكتابُ وخُطَّت الألواح
بدْرُ الكمال لو أن بَدْرا مثله — لم يبد خشْية نوره الإصباح
بحرُ النّوال لو أن بدرا مثله — لارتاع خِشْية فَيْضه المـــلاّح
ولمثله قاد الجياد عـــدوُّه — فَخبا له قِدحٌ وخاب قِداح
أهْواه شيطان الهوى فى لُجَّة — إن الهوى بأليفه طَمّـــاح
طمعُ الشقى أضــلّه وأذلَّه — كل المطامع للغَبى فُضـــاح
فأبادهم وملوكهم فتحٌ بدا — وبَسْعد جَدِّك رُبّما فتّاح
وقواصل تُبْرى بهن مفاصل — وصِفاحٌ يُفرى بهن صِفـــاح
لم تُفْن كلّهم سيوفُ الهند بل — لسيوف جُودك فى النفوس جراح
ما زال حتُّ عُداك يحسد مَيْتَهم — ويحثُّ فَوْتاً عاجلا فيُراح
فاقتلْ كبيرهم واحي صغـــيرهم — واسب النّسا فما عليك جُناح
تستبيح ما حاط العُداة وما حوا — وحماك يامنصور ليس يُباح
يأمّة الكُفران تفنيداً وهــــل — لجفون أعمى ينجلى مصباح
أتركتم بِطرو[1] وحيدا مفْردا — يَشْدو عليه الطاير الصيّاح

(١) بطرو هنا هو الدون بيدرو (وبالعربية بطره) الوصى على ملك قشتالة لمتقدم ذكره .

وجُوان(١) يرتشف الندى فنـــديمه غِربانه ووساده الصِّفاح

وكذلك المُطْران جاد رسومه قطرُ المنايا الصارمِ الدلّاح

أروسٌ أم تَبيض النعام بمَرْجنا أصنافكم هذى أم الأشباح

ما لِلمطامير اشتكت من ضيقها بالمال والأسرى وهنّ فساح

جارَتْ بكم أبطالنا فكأنكم كَشْحٌ وجيش المسلمين وشاح

تبا لرُومى بهم براحـــــة أبرام عن خَيل الإله براح

قُصّت قــوادِمكم فما إقدامكم وللبل جَنح الكُفْر تغيض جناح

هذا فـــلا تستعجلوا ببلادِكم ستَرون كيف يكون الاستِفتاح

قد انثَنَت بطحاؤنا بحطامكم ونباتُها الريحـــان والنفاح

تالله ما كنتم بأول عسكر أمَلَ النجاح وحِينُه يجتـــاح

القسُّ غرّكم ليهلك نَسْلكم بسيوفنا إنْ إفْكَه لصراح

كم ذا يسخِّركم ويَسْخَر منكم غــدراً ومكراً إنه لوَقاح

منهـــا :

وفوارس نشوا لُهبِ فراس طلبوا انتشاو الدّما للـــرّاح

أرْبَوا على الأسَد الهِزَبْر بسالةً مع أنهم غرٌّ الوجوه صِباح

خاضوا بحار الحرب يطْمُو بحرُها ووطيسها حامى الصَّلى لفّاح

ما هم ببذل نفوسهم ونفيسهم عن النوال والنِّزال سِجاح

وإذا هم ذُكروا بنادٍ فانتَشَق مسكا تضوع عَرْفُه النفّاح

فغدا وراح النصر يقدم جمعهم ويحفهم حيث اغتدوا أو راح

سناك مولانا بسَعْدٍ مُقبل خُلصاء قد عمّتهم له أفراح

---

(١) جوان هو الدون خوان الوصى على ملك قشتالة المشار إليه فيما تقدم .

وبنجلك البَدْر الذى آفاقــــه   مُلْكٌ وهالتهُ هُدى وصلاح
بدرُ البدور فلا بِدار عليــــه   وبذا نارت أربعٌ وبِطاح
فلكم عدوّ أفلّ بزوغه   خَسَفَتْ به الأوجال والأتْراح
ويُمنا ونالك بالأمير تجــــدُّدٌ   كلٌّ بُحبك نفسُهُ ترتاح
قد جاء بعد العسر يسرٌ شامل   قد جاء بعد الشدّة الإنجاح
فالحمد لله الذى قــــد خصنًا   ولنا بحمدك بعده إفصاح
وعلى المقام المَوْلَوِى تحيةٌ   كالزَّهر إذ تُهدى شذاه رياح
ما خطَّ مدحُك فى الطُّروس مُحبِّر   ومُحيي دجاجر الأصيل صباح

وقال يرثى الخطيب ببلده ، الشهير الفاضل ، أبا الحسن بن شعيب رحمه الله .

بَوادِى لقد حماتِ ماليس لقواه   فراقٌ ولى شرف الأرض تقواه
بُليت بذا التفريق فاصبر فربما   بلغتَ بحسن الصبر ما تمنّاه
شجا كل نفس فقد أنفَسِ جوهر   تُعد ولا تُحصى كِرام سجاياه
بكى كلُّنا حزناً عليه كما بكى   لفُرْقته محــــرابه ومُصَلاه
فلله خَطْب جليل لقد رمى   أجلَّ خطيب بالجلالة مُصْماه
فلولا كم يغلب تأسِّينا الأسى   ولم يشمل الشَّملَ التفجعُ لولاه
فلم يبق إلا من جفا جَفْنُه الـكَرَى   ومن جانبَتْ وصلَ المضاجع جَنْباه
وفاة لمرئٌ وفىّ فوُفِّى أجرُه   وأصفَى بإصفاه الإلـــه وصافاه
أبى الحَسَن العَدْل الرِّضا المحسن الذى أتَتْه بأضعاف الزيادة حُسْناه
خطيبٌ جلا فصل الخطاب بيانُه   وأعدلَ قاض فاضل فى قضاياه
وجسم الهدى الرَّحب السبيل وروحه   ولفظُ العُلي الفخ الأصيل ومعناه

مطيعٌ رفيع خاضع متواضع كريم ... حليم طاهـــر القلب أوّاه
متى يمشى هوْناً ليس إلاّ لمسجد ... تميد خجلا أرضٌ بها حطّ نعلاه
تـكلّمه عرفٌ وذكر وحكمة ... تلذ بها الأسماع ما كان أحلاه
كذا صمتُه خوفٌ وفـكر وخَشْية ... فمـا زال يخشى الله والـكل يخشاه
يصوم وقد طال النهار مَهجَراً ... وتبحر بالليل للتغمّض عيناه
فـكم دارس أحياه بن أربعُ التُّقا ... وكم غاسِق من حِنْدِس الليل أحياه
فياطيِّبا أصلاً وذكراً وتُرْبة ... ومنه استفاد الطَّيب أطيب ريّاه
وفى حشرقة تحن ومرتجاً وباطنا ... وأمن سنى شمس الضحى من محيّاه
محيًّا يروى النــاظرين تهلُّلاً ... فتعرفه فى الصالحين بسيماه
بُحبِّك هامَتْ كل نفس مُنيبة ... كذا من أحبَّ الله حببه الله
فما أنْعَمَ الأرض التى بك قُدِّست ... وآثر ذياك الضريح وأنْداه
بُشراك إنا قد شغلنا بحزننا ... ورِضْوان بُشْراه بذلك بُشراه
عزاً لأهْلِيه الأهِلة أنهـــم ... لم يعْترى من بعده العزُّ والجاه
نال شُعيب فى الزمان بدُورَة ... ولم تـكن الشمس المنيرة إلاَّه
أعزِّى أولى الإيمان كلا بفقْده ... نَعَمْ وأسنيه بحِبِّه مأواه
سقى الله وتحِى الحيا ذلك الثرى ... وغاداه صَوْبُ الغاديات وميّاه
كما قد سقاه ليـــلة الدَّفن ربُّه ... من الغيثِ وكاف السحاب وأسخاه
ترضُّوا عن القاضى الإمام خطيبكم ... فقد رضى الرحمن عنه وأرضاه
وصلُّوا على هادى الأنام نبيكم ... صلاةً بها يمحو المسىء خطاياه
عليك سلام الله ما الروض فاحَ ... إن سَرَتْ سَحَراً ريح الصَّبا بخزاماه

توفى رحمه الله فى رمضان تحقيقاً من سنة خمس على ثلث وسبع ماية[1] ، أخبرنى بذلك من يُوثق به .

محمد بن عبد الله بن الحاج البضيمة[2]

من أهل مالقة ، وتردد كثيراً على الحضرة ، مُسْترفداً ومُنشدا ، وفى غير ذلك من الأغراض يكنى أبا عبد الله .

حــاله وشعره

من الإكليل[3] : شاعر اتخذ النظم بضاعة ، وما ترك السعى فى مذاهبه ساعة ، أجرى فى الملا ، لا فى الخلا ، وجعل ذكره دِلوه فى الدِّلا ، وركض فى حَلْبة النجبا النجايب ، ورمى فى الخواطى بسهم صايب ، فخرج بُهْرجُه ونفَقَ ، وارتَفَد بسببه وارْتَفَق . وهو الآن قد سالمته السنون ، وكأنّما أمِن المَنُون ، من رجل مَكْفُوف الأذى ، حسن الحالة إلا إذا ، هذا قُلت ، ثبت هذا والمذكور حيٌّ ، وقد مات رحمه الله .

ومن شعره :

---

(١) من الو ضح أن تاريخ وفاة ابن لب الأمى ، لا يمكن أن يكون سنة ٧٠٥ هـ حسبما يذكر ابن الخطيب وقد فاته ما ذكره من قبل من أنه قدم مع الوفود إلى غرناطة للتهنئة فى النصر الذى أحرزه أمير المسلمين على النصارى فى الوقيعة التى حدثت سنة ٧١٨ هـ ، وأنه أى ابن لب قد ذكر فى شعره دون بيادرو ودون خوان قائدى القشتاليين الذين هلكا فى الموقعة ، كما أنه هنأ السلطان أبى الوليد فى شعره . ولم يحكم السلطان أبو الوليد إلا من سنة ٧١٣ هـ . وربما كان التاريخ الصحيح لوفاة ابن لب الأمى هو سنة ٧٢٥ هـ .

(٢) وردت هذه الترجمة فقط فى مخطوط الإسكوريال .

(٣) سبق التعريف بكتاب «الإكليل الزاهر» .

رجاى فى المولى العظيم عظيم　　غَنيت به حيث الغِنى بمدُيم
وحَسْبى الرجا فيمن عليه معَوَّلى　　حديث حديثٍ لم يزل وخديم
وماعرَفت نَفْسى سوى بابِ فضله　　على ثقةٍ أن الـكريم كريم
فإن قيل عنِّى مُذنب قلت سيِّـــــدُ　　كفيل بغفران الذنوب رحيم
وما اعتَصم الملوك إلا بحَبْله　　فجانِبُه نُعْمَى لنـــــا ونَعيم
رضاه سبيـــــلٌ للنجاة وحبُّه　　طريق لجنّات النَّعيم قديم

وأنشد يوما الأمير ثالث الأمراء من بنى نصر[١] يهنيه بالملك ويُعزّيه :

على من تُنْشَر اليـــوم البُنود　　وتحت لواء من تُسْرى الجنود

وقال [على هذا الـكذا ، الذى بين يديك][٢] فخجل ، وعظُم استظراف الحاضرين لذلك .

توفى فى كذا وسبعمائة .

محمد بن عبد الله بن فُطيس[٣]

يكنى أبا عبد الله من أهل مالَقة . وقال الأستاذ[٤] من بيت فُطيس الألبيريين .

---

(١) ثالث الأمراء من بنى نصر هو السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد الفقيه . وكان ضريراً ، ويلقب بمحمد المخلوع ، وقد حكم من سنة ٧٠١–٧٠٨ هـ (١٣٠١ –١٣٠٨ م) .

(٢) وردت هذه العبارة فى اللمحة البدرية كالآتى (على هذا الزبلخ الذى ترى قدامك – يعنى نفسه (ص ٤٨) .

(٣) وردت هذه الترجمة فقط فى مخطوط الإسكوريال .

(٤) الإشارة هنا إلى الأستاذ أبى جعفر بن الزبير صاحب كتاب صلة الصلة .

حـــاله

قال ، طبيبٌ ماهر ، وأديب شاعر ، كان فى أيام بنى حسُّون[١] ، يخفُّ عليهم ، وله فيهم أمداح كثيرة . يُذكر أنه دخل يوماً على القاضى أبى مروان بن حسُّون ، بعد انقطاع عن زيارته ، فعَتَبه القاضى ، فاعتذر ، ثم أنشد :

يا حاملاً من عُـــلاه تاجاً ... ومن سَنَـا وجهه سراجا
لو كان روْدى عـــديل وُدِّى ... لـكنت من بابك الرِّتاجا
إن لم يعُـــرِّج عليك شخصى ... نَفْسى وروحى عليك عاجا

وذكره ابن عسكر[٢] فى كتابه .

محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن فتوح [ابن محمد بن أيوب][٣] ابن محمد بن الحكيم اللخمى ذو الوزارتين

يكنى أبا عبد الله رندى النشأة ، إشبيلى الأصل ، يرجع بيته ، وبيت بنى حجاج ، وبيت بنى عباد ، إلى جُرثومة واحدة ، وانتقل سلفُه إلى رندة [فى دولة بنى عباد ، ويحيي جد والده هو المعروف بالحكيم لطِبِّه . وقدم ذو الوزارتين على

(١) الإشارة هنا إلى القاضى أبى الحكم بن حسون قاضى مالقة فى أواخر العهد المرابطى . وقد ثار على المرابطين بمالقة واستولى على الحكم وذلك حوالى سنة ٥٤٠ هـ ، وتسمى بالأمير ، وجعل أخاه أبا الحسن بن حسون قائداً لجيشه . ولكن المرابطين فى القواعد المجاورة تألبوا عليه ودبروا إسقاطه بالتفاهم مع بعض خدامه ، واستطاعوا الاستيلاء على القصبة . فامتنع ابن حسون بقصره ، واضطر فى النهاية إلى الانتحار ، فاقتحم المرابطون القصر ، وبعثوا برأسه إلى مراكش (سنة ٥٤٧ هـ).

(٢) هو محمد بن على بن الخضر بن هارون الغسانى ويعرف بابن عسكر ، وقد ترجم له ابن الخطيب فيما تقدم من هذا المجلد (ص ١٧٢–١٧٥) .

(٣) هذه الزيادة من الإسكوريال .

حضرة غرناطة أيام السلطان أبى عبد الله محمد بن محمد بن نصر، إثر قفوله من الحج فى رحلته التى رافق فيها العلّامة أبا عبد الله بن رُشَيد الفهرى؛ فألحقه السلطان بكُتّابه، وأقام يكتب له فى ديوان الإنشاء، إلى أن توفى هذا السلطان، وتقلد الملك بعده ولى عهده أبو عبد الله المخلوع، فقلّده الوزارة والكتابة، وأشرك معه فى الوزارة، أبا سُلطان عبد العزيز بن سلطان الدّانى. فلما توفى أبو سُلطان، أفرده السلطان بالوزارة، ولقّبه ذا الوزارتين، وصار صاحبَ أمره، إلى أن توفى بحضرة غرناطة قتيلا، نفعه الله تعالى، غَدْوة يوم الفِطر، مستهل شوال سنة ثمان وسبعمائة، وذلك لتاريخ خلع سلطانه، وخلافة أخيه أمير المسلمين أبى الجيوش، مكانه][1].

حـــاله

[كان رحمه الله تعالى عَلَماً فى الفضيلة والسّراوة، ومكارم الأخلاق، كريم النفس، واسع الإيثار، متين الحُرْمة، عالى الهمة، كاتباً بليغاً، أديباً، شاعراً، حسن الخطّ، يكتب خطوطاً على أنواع، كلها جميلة الانطباع، خطيباً، فصيح القلم، زاكى الشِّيم، مُؤْثِراً لأهل العلم والأدب، برّاً بأهل الفضل والحسب، نفقت بعدته للفضائل أسواق، وأشرقت بإمداده للفضائل آفاق][2]. ومن «عائد الصلة»: كان رحمه الله فريد دهره سماحةً[3]، وبشاشة، ولَوْذَعية، وانطباعاً، رقيق الحاشية، نافذ العَزْمة[4]، مهتزاً للمديح، طَلْقاً للأمل، كهفاً للغريب، بَرْمَكى

(١) هذه الفقرة الطويلة المحصورة بين الحاصرتين واردة فى النفح وساقطة فى «الزيتونة» وفى الإسكوريال. وفقط وردت فى هذين المخطوطين بعد كلمة رندة، وقبل بداية الفقرة، هذه العبارة «فناهيك من أصالة وجلالة وكرم طعمة».

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط فى «الزيتونة». وفى الإسكوريال. ووارد فى النفح.

(٣) هكذا وردت فى «ج». وفى «الزيتونة»: (ساحة).

(٤) هكذا وردت فى «الزيتوية» والإسكوريال. وفى «ج» (العزيمة).

للـائدة ، مُهَلَّبي الحلوى[١] ، ريّان من الأدب ، مضطلعاً بالرواية ، مستكثراً من الفائدة . يقوم على المسائل الفقهية ، ويتقدم الناس فى باب التّحسين والتّقبيح، ورَفْع راية[٢] الحديث والتّحديث ، نَفّق بضاعة الطلب ، وأحيا معالم الأدب ، وأكرم العلم والعلماء[٣] ، ولم تُشغله السياسة عن النظر ، ولا عاقه تدبير الملك عن المسالمة والسماع ، والإفراط[٤] فى اقتناء الكتب ، حتى ضاقت قصوره عن خَزائنها ، وأثْرت أنديتُه من ذخائرها . قام له الدهر على رِجْل ، وأخدمه صدور البُيوتات ، وأعلام الرّياسات ، وخُوطب من البلاد النازحة ، وأُمّل من[٥] الآفاق النائية .

رحلته ونباهته

رحل إلى الحجاز الشريف من بلده ، على فَتاء سِنّه ، أول عام ثلاث وثمانين وستمائة ، فحج وزار ، وتجول فى بلاد المشرق ، مُنْتجعاً عوالى الرواية فى مظانّها ، ومُنَقّراً عنها عند مُسِنّى شيوخها ؛ وقيد الأناشيد الغريبة ، والأبيات المُرْقِصة ، وأقام بمكة شرفها الله ، من شهر رمضان إلى انقضاء الموسم ، فأخذ بها عن جماعة يأتى ذكرهم فى مشيخته . وانصرف إلى المدينة المشرّفة ، ثم تَقَفّل مع الرّكْب الشامى إلى دمشق ، ثم كرّ إلى المغرب ، لا يمر بمجلس عِلْم أو تعلّم إلا رَوَى أو رُوِّى . واحتل رندة حرسها الله أواخر عام خمسة وثمانين وستمائة ، وأقام بها عَيْناً فى قرابته ، وعَلَماً فى أهله ، مُعَظّماً عندهم[٦] ، إلى أن أوْقَع السلطان بالوزراء

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (الخاوة) والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (رؤية) . وفى الإسكوريال (آية) . والأولى أرجح .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (العامل) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (وأفرط) .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى الإسكوريال و«الزيتونة» (فى) .

(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى الإسكوريال و«الزيتونة» (لديهم) والمؤدى واحد .

من بنى حبيب ، أنوقيعة البَرْمَسكيّة . وورد رندة فى أثر ذلك ، [فى شهر جمادى الآخرة من عام ستة وثمانين وسمانية](١) فتعرّض إليه ، ومدحه(٢) ، وهنّأه بقصيدة طويلة ، من أوليات شعره ، أولها :

هل إلى ودّ عَشيّات الوصـال سبب أم ذاك من ضَرْب المُحال

فلما أنشدها إياه ، أُعجب به ، وبحُسْن خطّه ونَصاعة ظَرْفه ، فأثنى عليه ، واستدعاه إلى الوفادة على حَضْرته(٣) ، [فوفد إليها فى آخر العام المذكور](٤) ، فأثبته فى خواصّ دولته ، [وأحْظاه لديه](٥) إلى أن رقّاه إلى كتابة الإنشاء ببابه . واستمرّت حاله ، مُعظَّم القَدْر ، مخصوصاً بالمزيّة ، إلى أن توفى السلطان ، ثانى الملوك من بنى نصر ، وتقلد الملك بعده ، وليُّ عهده أبو عبد الله ، فزاد فى إحظائه وتقريبه ، وجمع له بين الكتابة والوزاوة ، ولقبه بذى الوزارتين ؛ وأعطاه العلامة ، وقلّده الأمر ، فبَعُد الصّيت وطاب الذّكر ، إلى أن كان من الأمر ما يأتى [به الذكر](٦) قريباً إنشاء الله تعالى .

مشيخته(٧)

قرأ بُرُندة على الشيخ النحوى أبى الحسن على بن يوسف العَبْدَرى السَّفاح ،

(١) هذه الزيادة واردة فى «الزيتونة» . وساقطة فى «ج» والإسكوريال.

(٢) هذه الكلمة واردة فى «الزيتونة» . وساقطة فى «ج» والإسكوريال.

(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (الحضرة) .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال و«الزيتونة» . ووردت فى «ج» كالآتى : (فوفد آخر عام ستة وثمانين) .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . وفى «الزيتونة» (وأحيا ملكه) وفى الإسكوريال (وأحظيا ملكه .)

(٦) هذه الزيادة واردة فى «الزيتونة» والإسكوريال .

(٧) جاء فى مخطوط الإسكوريال تحت كلمة «مشيخته» ما يأتى : «قلت لم أر فى هذا الكتاب مشيخة أطول منها فاختصرتها لطولها . على أنى فى هذا الإختصار لهذا الكتاب أقيد المشيخة قاصداً لتبرك بذكر أشياخ العلم وحملة الدين وقادته ، جعلنى الله ممن انتظم فى غمارهم ، وسلك مسلك أتباعهم =

القرآن العظيم بالروايات السبع ، والعربية وغير ذلك . وعلى الخطيب بها أبى القاسم ابن الأيسر ، وأخذ عن والده جميع مرْوِياته ، واستجاز له فى صغره أعلام ذلك الزمان ، وأخذ فى رحلته عن الجِلّة [من الجملة](١) الذين يضيق عن أمثالهم الحصر .

فنهم أبو اليمن جار الله بن عساكر ، لقيه بالحَرَم الشريف ، وانتفع به ، واستكثر من الرواية عنه . ومنهم الشيخ أبو العز عبد العزيز بن عبد المنعم الحرّانى المعروف بابن هِبَة الله الحرانى . [ومنهم الشيخ الشريف أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمر بن معطى بن الإمام الجزائرى ، جزائر المغرب ، نزيل بغداد . ومنهم الشيخ أبو الصفا خليل بن أبى بكر بن محمد المرادى الحنبلى ، لقيه بالقاهرة . ومنهم الشيخ رَضِى الدين القسْطميني أبو بكر . ومنهم الشيخ شرف الدين الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطى إمام الديار المصرية فى الحديث ومؤرخها وحافظها](٢) . ومنهم عبد المنعم بن محمد بن يوسف بن أحمد الخيمى شهاب الدين أبو عبد الله نزيل مَشْهد الحُسَين بن على ، قرأ عليه قصيدته البائية الفريدة التى أولها :

يا مُطّلباً(٣) ليس لى فى غيره أرب ⁂ إليك آل التقَصِّى وانتهى الطلب

= وآثارهم . وبعد ما نقل الشيخ ابن الخطيب منها نحو الثلاثة أوراق ، قال فى آخر ذلك ، «إلى طايفة كثيرة من أهل المشرق والمغرب» . ومن الواضح أن هذا كلام الناسخ الذى قام «باختصار» الكتاب . ولكنا رأينا أن لا نجاريه فى ذلك ، وأن نذكر مشيخة ابن الحكيم مفصلة حسبما وردت فى مخطوطى «ج» «والزيتونة» .

(١) هذه الزيادة من «الزيتونة» .

(٢) وردت الأسماء المحصورة بين الحاصرتين فى مخطوط الزيتونة على النحو الآتى : « وشرف الدين أبو العباس من أهل الجزاير عمالة إفريقية ونزيل بغداد ، ومنهم خليل بن أبى بكر بن بكر بن محمد المرادى نايب قاضى الحنابلة بالقاهرة المصرية يكنى أبا الصفا لقيه بالقاهرة المعزية ، ومنهم أبو بكر بن عمر بن على القسطمانى رضى الدين ، ومنهم عبد المؤمن بن خلف بن أبى الحسن ابن شرف الدين الخضرى الدمياطى ....» .

(٣) هكذا وردت فى «ج» ، وفى النفح . وفى الزيتونة (ياطالبا) »

ومنها البيت المشهور الذى وقع النزاع فيه :

يا بارقاً بأعالى الرّقمتــــين بدا لقد حَكَيْتَ ولكن فاتك الشّنب[١]

ومنهم عبد المولى يحيي بن حماد البَعْلبكى، مولده سنة إحدى عشرة وستمائة. ومنهم محمد بن بكر بن خلف بن أبى القاسم الصَّفار . ومنهم الشيخ أبو الفضل الأديب جمال الدين بن أبى الخير بن على بن عبد الله بن رواحة . ومنهم محمد بن يحيي بن عبد الله القرشى جمال الدين أبو صادق ، ومن تخريجه الأربعون المرويّة بالأسانيد المصرية . وسمع الخَلَبِيّات[٢] من ابن عماد الحرّانى ، والشيخ أبي الفضل عبد الرحيم خطيب الجزيرة ، ومولده سنة ثمان وتسعين وخمسمائة . ومنهم الشيخ محمد بن غباس الأشعرى تقى الدين الحافظ أبو القاسم . ومنهم الشيخ محمد بن إسماعيل بن عبد الله بن عبد المجيد الأنماطى . ومنهم أبو البدر بن عبد الله ابن أبي الزبير الكاتب المصرى . ومنهم الشيخ عبد الرحيم بن عبد المنعم بن خلف التُدميرى . ومن رؤساء شيوخه : الشيخ محيي الدين أبو الفضل . ومنهم زينب بنت الإمام أبى محمد عبد اللطيف بن يوسف [بن محمد بن على][٣] البغدادى ، تُكنى أم الفضل ، وسمعت[٤] من أبيها . ومنهم محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد الخُراسانى ، أبو عبد الله مُوَفَّق الدين ، وألبسه خِرْقة التصوف . ومنهم الشيخ محمد بن يحيي بن هَبيرة الشَّيبانى شرف الدين . ومنهم الشيخ شهاب الدين أحمد بن عيسى بن يوسف بن إبراهيم بن إسماعيل السِّلَفى . ومنهم الشيخ على بن عبد الكريم بن عبد الله الدِّمشقى ، أبو الحسن ، ولد سنة سبع وتسعين

(١) هذا البيت وارد فى «ج» . وساقط فى «الزيتونة» .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى «الزيتونة» .

(٣) هذه الزيادة من «الزيتونة» .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (تحمل عن) .

وخمسماية . ومنهم الشيخ غازى بن أبي الفضل بن عبد الوهاب الجلاوى . ومنهم الشيخ نور الدين على بن محمد أبى البركات الأنصارى المقرىء بحَرَم الخليل، سمع من أبي الحسن على بن شجاع . [ومنهم يوسف بن دواد بن عيسى بن أيوب الحنفى](1) .

ومنهم الملك الأوحد يعقوب بن الملك الناصر صلاح الدين ، وداود بن الملك المعظّم عيسى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب . ومنهم عبد المنعم بن يحيي بن إبراهيم بن على بن جعفر القرشى الزُّهرى خطيب القُدْس . ومنهم الشيخ عبد الحفيظ ابن بَدْران مويُدْعى علىّ الدين من أهل بانياس ، سمع من ابن صيصرى . ومنهم الشيخ على بن عبد الرحمن بن عبد المنعم المقدّسى . ومنهم الشيخ محمد بن محمد بن سالم ابن يوسف بن أسلم القرشى ، جمال الدين . ومنهم عبد الواسع بن عبد الكافى شمس الدين . ومنهم الشيخ أحمد بن أحمد الزَّجاجى [البغدادى الإمام تقى الدين . ومنهم عبد الجليل بن أحمد بن الزَّجاج](2) . ومنهم فاطمة بنت إبراهيم بن محمد بن محمود بن جوهر البعلبكى ، الشيخة الكاتبة الخيرّة أم الخير . ومنهم الشيخ يوسف ابن أبى ناصر السفاوى . ومنهم الشيخ عبد السلام بن محمد [بن مزروع](3) أبو محمد عفيف الدين . ومنهم الشيخ أحمد بن عثمان بن محمد الشافعى البخارى شمس الدين . ومنهم الشيخ عبد الله بن خير بن أبى محمد بن خلف القرشى . ومنهم الشيخ محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الباقى بن على الصوّاف شرف الدين . ومنهم الشيخ على بن محمد بن أبى القاسم بن محمد بن محمد بن أبى بكر بن زُرِيق الكاتب ، لقيه بتونس . ومنهم الشيخ سليمان بن على بن عبد الله الكاتب التلِمسانى عفيف الدين الصوفى الأديب نزيل دمشق ، ومولده بتلمسان .

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى «الزيتونة» . وساقط فى «ج» .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى «الزيتونة» وساقط فى «ج» .

(٣) هذه الزيادة من «الزيتونة» .

ومنهم الشيخ محمد بن على بن أحمد بن على بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أحمد الميمونى البُسْتى القسطلانى قطب الدين ، الإمام المفتى شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة المُعِزِّية . ومنهم الشيخ عبد الكريم بن على بن جعفر القرشى جمال الدين . ومنهم الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الظاهر جمال الدين . ومنهم محمد بن محمد بن إبراهيم النجاشى . ومنهم الشيخ عبد الله بن محمد بن محمد بن أبى بكر الطبرى إمام الروضة النبوية ثم الصخرة القُدْسية . ومنهم الشيخ فخر الدين عثمان بن أبى محمد بن إسماعيل بن جَنْدوة . ومنهم الشيخ عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد العَلِى بن أنسكرت فخر الدين . ومنهم الشيخ ثابت بن على بن عبد العزيز بن قاسم بن عبد الرازق ، سمع على ابن المغير البغدادى . ومنهم الشيخ أمين الدين أبو الهامات جبريل بن إسماعيل بن سيد الأهل الغسانى[1] . ومنهم الشيخ محمد بن أحمد بن عبد الله الأندلسى الأصل شرف الدين ، سمع من علم الدين الشيخونى وغيره . ومنهم الشيخ محمد بن محمد الشامى الشافعى الدمشقى إمام مسجد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، يدعى شمس الدين ، سمع من الزبيدى . ومنهم الشيخ يحيى بن الخضر بن حاتم الأنصارى ، يعرف بابن عزّ الدولة .

وأجاز له جماعة ، منهم ابن عماد الحرّانى ، ومنهم ابن يحيى بن محمد بن محمد الهَمْدانى كمال الدين ، وسمع من ابن الزَّجّاج وابن رَوَاح الحِميرى . ومنهم الشيخ عبد الملك أبو المعالى بن مُفَضّل الواسطى ، عُرِف بابن الجَوزى سمع على جماعة ، منهم شُعيب الزعفرانى ، ومنهم الشيخ محمد بن أحمد بن ياسر بن شاكر الحاكى . ومنهم الإمام مفتى المسلمين رضى الله عنه . ومنهم أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن خليل العَسْقَلانى المكّى . ومنهم الخطيب أبو عبد الله محمد بن صالح بن أحمد بن محمد بن رُحَيمة الكِنانى خطيب بِجايه . ومنهم قاضى القضاة ببلاد إفريقية أبو العباس

(١) هذه الكلمة واردة فى «الزيتونة» ، وساقطة فى «ج» .

ابن الغماز[1] البلنسى ، لقيه بتونس . ومنهم الفقيه العلامة الوزير أبو القاسم محمد بن عبد الله بن يحيي بن عبد الرحمن بن يوسف بن جُزى الكلبي . ومنهم الشيخ أبو محمد عبدالله بن يوسف الخلابى . ومنهم الشيخ المغربى أبو محمد الحجاج ابن يوسف بن إبراهيم بن عتّاب،لقيه بتونس . ومنهم الشيخ الفقيه أبو بكر بن محمد ابن إبراهيم بن محمد بن يربوع السَّبتى . ومنهم الإمام قُدْوة النحاة أبو الحسين[2] عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله بن أحمد بن عبد الله بن أبي الربيع القرشي . ومنهم الإمام أبو على ناصر الدين منصور بن أحمد ابن عبد الحق الزَّواوى المِشْدالى من أهل بجاية . ومنهم الخطيب القاضى أبو عمرو إسحق بن أبى إسحق بن عبد الوهاب الرُّندى . إلى طائفة كبيرة من أهل المشرق والمغرب .

محنته

أغْرَى به الأمير ولى العهد ، بسبب أمور اختلف فيها ، منها أبيات فى هَجْو الدولة النصرية ، الله أعلم بصحة نِسْبَتها إليه ، فأوقع به [وناله بين يديه نكالٌ كبير][3] أفلَت منه برِفق[4] ، واختفى مدة فى المآذن المُقْفَلة والأماكن الخفيَة ، حتى أصحى له جوُّ سخطه ، [وقضى الله برد أمره إليه ، واستيـــلا به على ما وراء بابه][5] .

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (النمار) .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (أبو الحسن) .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» «والزيتونة» . ووردت فى الإسكوريال على النحو الآتى (فتنوول بين يديه بنكال كبير) .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الإسكوريال (برمق) .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال «والزيتونة» . ووردت فى «ج» (وقضى الأمر باستلابه).

من روى عنه(١)

أخذ عنه الخطيب الصالح أبو إسحق بن أبي العاصي ، وتدبّج معه رفيقه عبد الله بن رُشيد وغير واحد . وكان ممدوحاً ، وممن مدحه الرئيس أبو محمد عبد المُهَيمن الحضرمي ، والرئيس أبو الحسن بن الجيّاب ، وناهيك بهما . ومن بديع مدح ابن الجياب له ، قصيدة رائية رائقة ، يهنّيه فيها بعيد الفطر منها في أولها :

يا قادماً عمّت الدنيـــا بشائرُهُ ... أهـــلا بمقدمك الميمون طائره
ومرحباً بك من عيد تحف به ... من السعادة أجناد تُظاهـــــره
قَدِمت فالخلق في نُعمى وفي جَذَل ... أبْدَى بك البشر باديه وحاضره
والأرض قد لبست أثواب سُنْدسها ... والرّوض قد بَسَمت منه أزاهره
حاكت يدُ الغيث في ساحاته حُللا ... لمّا سقاها دوا كاً منك باكره
فلاح فيها من الأنــوار باهرها ... وفاح فيها من النُّوار عاطـــــره
وقام فيها خطيب الطّير مرتجلا ... والزهر قد رُصّعت منه منابره
مُوشّى ثوبٍ طـواه الدهر آونة ... فها هو اليوم للأبصار ناشره
فالغصْن من نَشْوة يثْني معاطفه ... والطّير من طربٍ تَشْدو مزاهره
وللكمام انشقاق عن أزاهرها ... كما بَدت لك من خلٍّ ضمائرُه
لله يومك ما أذكى فضـــائله ... قامت لدين الهوى فيه شعائره
فكم سَرِيرة فضلٍ فيك قد خبئت ... وكم جمالٍ بدا للناس ظاهـــره
فافْخَر بحـــ.وٍ على الأيام قاطبة ... فما لفضلك من نِدٍّ يظاهـــره
فأنت في عصرنا كابن الحكيم إذا ... قِيسَت بفخرٍ أولى العَلْيا مفاخره

---

(١) وردت الفقرة التالية تحت هذا العنوان والقصيدة التي تليها ، وهي من نظم ابن الجياب فقط في مخطوط جاينجوس . ولم ترد في « الزيتونة» ولا في «الإسكوريال» .

يَلْتاح منه بأفق المُلْك نور هُدى	تضاءل الشمس مهما لاح زاهره
مجدٌ صميم على عرش السِّماك سَما	طالت مبانيه واستَعلت مظاهره
وزارة الدِّين والعِلْم الذى رُفعت	أعلامه والنَّدى الفيَّاض زاخره
وليس هذا ببدع من مكارمه	ساوَت أوائله فيه أواخره
يَلْقى الأمور بصدرٍ منه منشرح	بحرٌ وآراؤه العظمى جواهره
راعى أمور الرَّعايا مُعْمِلاً نظراً	كمِثْل عَلْياه معدوماً نظائرُه
والملك سَيَّر فى تدبيره حُكْماً	تنال ما عجزت عنه عساكره
سياسةُ الحكم لا بَطْشٌ يكدرها	فهو المَهيب وما تُخْشى بوادره
لا يَصْدُر الملك إلا عن إشارته	فالرُّشد لا تتعداه مصادره
تجرى الأمور على أقصى إرادته	كأنما دهره فيه يُشاوره
وكم مقام له فى كل مَكْرُمة	أنْسَت مواردُه فيها مصادرَه
ففضلُها طبَّق الآفاق أجمعها	كأنه مَثَلٌ قد سار سائره
فليس يَجْحَدُه إلا أخو حسَد	يرى الصباح فيُعْشِى منه ناظره
لا مُلْك أكبر من مُلْكٍ يدبره	لا مُلْك أسعد من مُلْكٍ يؤازره
يا عِزَّ أمرٍ به اشتدَّت مضاربه	يا حُسْن مُلْكٍ به ازدانت محاضره
تُثْنى البلاد وأهلوها بما عرفوا	ويشهد الدهر آتيه وعابره
بُشْرى لآمله الموصول مأمَلُه	تَعْساً لحاسده المقطوع دابرُه
فالعِلْمُ قد أشرقت نوراً مطالعه	والجود قد أسبلَت سَحًّا مواطره
والناس فى بِشْر وللمُلْك فى ظَفَر	عالٍ على كلِّ عالى القدر قاهره
والأرض قد مُلِئت أمناً جوانبها	بِيُمْن من خَلُصت فيها سرائره
وإلى أياديه من مثْنى وواحدةٍ	تساجل البحر إن فاضت زواخرُه
فكلَّ يوم تَلْقانا عوارفه	كساه أمواله الطولى دفاتره

فمن يؤدّى لما أولاه من نِعَم   شكراً ولو أن سَحْبانا يُظاهره
يا أيها العَبْد بادِر لَثْم راحَتِهِ   فلثْمُها خيرُ مأمول تُبادره
وافخر بأن لَقِيت ابن الحكيم على   عصرٍ يُباريك أو دهر تُفاخره
ولّى الصيام وقد عُظّمت حرمتُه   فأجرُه لَكَ وافيه ووافره
وأقبل العيدُ فاستقبل به جَذَلاً   واهْنَأ به قادماً عمّت بشائرُه

ومن مبح الرئيس أبى محمد عبد المهيمن الحَضْرمِى له قوله :

تراءى سَحيرا والنسيم عليل   وللنّجم طَرْف بالصباح كليل
وللفجر نَهرٌ خاضه الليل فاعتلت   شوى أدْهم الظَّلماء منه خجول
بريقٌ بأعلى الرَّقْمتين كأنه   طلائع شُهْبٍ والسماء تجول
فمزّق ساجى الليل منه شرارة   وخرّق سِترِ الغيم منه نُصول
تبسّم ثغرُ الروض عند ابتسامه   وفاضت عيونٌ للغمام همول
ومالت غصون البان نَشْوى كأنها   يُدار عليها من صباه شَمول
وغنّت على تلك الغصون حمائم   لهن حفيفٌ فوقها وهَديل
إذا سَجَعت فى لحنها ثم قَرْقرت   يطابح خفيفٌ دونها وثقيل
سقى الله رَبْعاً لا يزال يشوقنى   إليه رسومٌ دونها وطلول
وجاد ربّاه كلما ذرّ شارق   من الوَدْق هتّانُ أجشُّ هَطُول
ومالىَ أستَسْقى الغمام ومَدْمعى   سفوحٌ على تلك العِراص هَمُول
وعاذِلةٌ باتت تلوم على السُّرى   وَتُكثر من تِعْذالها وتُطيل
تقول إلى كم ذا فراقٌ وغربةٌ   ونأىٌ على ما خيّلت ورحيل
ذرينى أسعى للتى تُكسِب العلا   سناه وتُبقى الذّكر وهو جميل
فأما ترينى من مُمارسة الهوى   نحيلا فحدُّ المَشْرفى نحيـل
وفوق أنابيب اليراعة صَفْوة   تزين وفى قدِّ القناة ذبول

ولولا السُّرى لم يجتل البدرُ كاملا ... ولا بات منه للسعـود نَزِيل
ولولا اغتراب المرء فى طلب العلا ... لما كان نحو المجد منه وصول
ولولا نوال ابن الحكيم محمد ... لأصبح رَبْعُ المجد وهو مُحيل
وزيرٌ سما فوق السِّماك جلالة ... وليس له إلاّ نجـوم قبيل
من القوم أما فى النَّدىّ فإنهم ... هضاب وأما فى النَّدَى فسيول
حَوَوا شرف العَلْياء إرثا ومكسبا ... وطابت فروعٌ منهم وأصول
وما جونةٌ هطّالة ذات هَيْدب ... مَرَتْها شمول مُرْجِف وقبول
لها زَجَل من رَعْدها ولوامع ... من البَرْق عنها للعيون كُلول
كما هَدَرت وسط القِلاص وأرسلت شقاشقها عند الهياج فحول
بأجْوَدِ من كفٌ الوزير محمد ... إذا ما توالت للسِّنين مُحول
ولا روضةٌ بالحسن طيِّبة الشَّذا ... يَنُم عليها أذْخَرٌ وجليـل
وقد أُذْكيت للزُّهر فيها مجامر ... تُعَطِّر منها للنسيم ذيول
وفى مُقل النُّوار للطَّل عَبْرة ... تُردِّدُها أجفانها وتُجيـل
بأطيب من أخلاقه الغُرٌ كلما ... تفاقم خَطْبٌ للزمان يهـول
حويتَ أبا عبد الإلَه مناقباً ... تفوت يدَى مَنْ رامها وتطول
ففَرْناطة مِصْرٌ وأنت خَصيبها ... ونائلُ يمناك الكريمة نِيلُ
فداك رجالٌ حاولوا دَرْك العلا ... ببخلٍ وهل نال العلاء بخيل
تخيَّرك المولى وزيراً وناصحاً ... فـكان له مما أراد حصول
وألقى مقاليد الأمور مُفوِّضا ... إليك فلم يَعْدل يمينك سُول
وقام بحفظ المُلْك منك مؤيد ... نَهوضٌ بما أعيا سواك كفيل
وساس الرعايا منك أشْوَسُ باسل ... مبيدُ العِدا للمُعتفين مُنيل
وأبْلَجُ وقّاد الجبين كأنما ... على وَجْنتيه للنضار مَسيل

نميم به العلياء حتى كأنها　　بُثَينة فى الحب وهو جميل
له عزمات لو أعير مضاؤها　　حسامٌ لما نالت ظُباه فلول
سَرى ذكره فى الخافقين فأصبحت إليه قلوب العالمين تميل
وأغدَى قَرِيضى جودُه وثناؤه　　فأصبح فى أقصى البلاد يجول
إليك أيا فخر الوزارة أرقلَت　　برحلى هوجاء الشّجاء ذَلول
فلَمَّتْ إلى لقياك ناصيةَ الفَلا　　بأيدى رِكابٍ سيرهنّ ذَميل
تُسَدِّدُنى سهماً لكل ثَنية　　ضوامرُ أشباه القسِىّ نحول
وقد لَفَظَتنى الأرض حتى رَمَتْ إلى　　ذَراك برحلى هَوْجل وهجول
فقيّدت أفراسى به وركائبى　　ولذّ مقامٌ لى به وحلول
وقد كنت ذا نفسٍ عزُوفٍ وهمّة　　عليها لأحداث الزمان دُخول
وتهوى العُلا حظى وتغرى بضده　　لذاك اعْتَرَته رقّةٌ ونحول
وتأبى لى الأيام إلا إدالةً　　فَصَونك لى أن الزمان مُديل
فكل خضوعٍ فى جنابك عِزَّةٌ　　وكل اعتزازٍ قد عَداك خُمول[1]

شعره

وبضاعته فى الشعر مُزْجاة ، وإن كان أعْلَمَ الناس بنقده[2] ، وأشدهم تيقُّظا[3] [لمواقعه الحسنة وأضدادها][4] . فمن ذلك قوله ، ورفعه إلى السلطان

(١) وردت هذه القصيدة فى «ج» فقط . ولم ترد فى «الزيتونة» ولا فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (به) «والزيتونة» (بنبره) .

(٣) هكذا وردت فى «ج» «والزيتونة» . وفى الإسكوريال (تفطنا) .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى «ج» (لموافقة الحسن وضده)

ببلده رُندة ، وهو إذ ذاك فتى يملأ العين أُبَّهة ، ويستميل القلوب لباقة ، وهى(١)، ومن خطه نقلتُ :

هل إلى رد عَشِيات الوصال ... سبب أم ذاك من ضَرْب المُحال
حالة يسرى بها الوهم إلى ... أنها تُنْبِت بُرءاً باعتلال
وليالى ما تبقّى بعدها ... غيرُ أشواق إلى تلك الليال
إذ مجال الوصْل(٢) فيها مسرحى ... ونَعيمى آمرٌ فيها ووال
ولحالات التّراضى جولةٌ ... مَزَجَت بين قَبُول واقتبال
فبوادِى الخيف خوفى مُسْعَدٌ ... وبأكناف مُنَى أسْنيَ نوال
لست أنْسَي الأنسُ فيها أبداً ... لا ولا بالعَذْل فى ذاك أُبال
وغزالٌ قد بدا لى وجهه ... فرأيتُ البَدْرَ فى حال الكمال
ما أمال التيه من أعطافه ... لم يَكُن إلا على فضل اعتدال
خُصَّ بالحسْن فما أنت ترى ... بعده للناس حظّاً فى الجمال
من تسلى عن هواه(٣) فأنا ... بسواه عن هواه غيرُ سال
فلئن أتعبنى حُبى له ... فكم نِلْتُ به أنعم حال
إذ لآلىء جيده من قبلى ... ووشاحاه يمينى وشمال
خَلِف النومَ لى السُّهدُ به ... وترامى الشخص لا طيف الخيال
فيداوى بلماه ظمئى ... مَزْجُك الصهباء بالماء لزُلال
أو أشادت ثنا المَلْك الأوحد الأسمى الهُمام المُتعال
مَلِكٌ إن قلت فيه مَلِكاً ... لم تكن إلا محقّاً فى المقال

(١) هذه الكلمة زائدة فى الإسكوريال .
(٢) هكذا وردت فى النفح . وفى «ج» (الليل) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى «ج» «والزيتونة» (هواها) . والأولى أنسب للسياق .

أيد الإسلام بالعـــدل فما　　أن ترى رسماً لأصحاب[1] الضلال
ذو أيادٍ شملت كلّ الورى　　ومعالٍ يالها خـــيرُ مَعال
همّةٌ هامت بأحـــوال التقى　　وصفات بالجلالات حِـــوال
وقف النفس على إجهـــادها　　بين صوم وصلاة ونوال[2]

ومنها فى ذكر القوم الموقع بهم :

وفريق من عُتاة[3] عاندوا　　أمره فاستوجبوا سوء نـكال[4]
غرّهم طولُ التجـــافى عنهم　　مع شيطانٍ لهم كان[5] مُوال
فلقـــد كانت بهم رُندة أو　　أهلهـا فى ســوء تدبير وحال
ولقد كان النِّفاق مَذهَباً　　فاشياً بين هاتيك التـــلال
ما يعود اليوم إلا بادروا　　برواة ونـكيرات ثقـال
طُوِّقوا النُّعمى فلمـا أنكروا　　طُوِّقوا العَدْل بذى البيض العَوال
[ماطل الدهر بهم غريمه　　فهو الآن وفى بعد المطـال
ولقد كنت غريم الدهر إذ　　شدَّنى جورُهم شدَّ عِقال
ولـكم نافرتُه مجتهداً عندما　　ضاق بهم صَدْرُ احتمال][6]
أعقبوا جزاء ما قد أسْلَفوا　　فى الدُّنا ويعقبوه فى المآل

وهى طويلة ومنها :

أيهـا المـــولى الذى نعماؤه　　أعجزت عن شكرها كُنْهَ المقال

---

(١) هكذا فى «ج» والنفح . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (أرباب) .
(٢) هذا البيت وارد فى «ج» والإسكوريال . وساقط فى «الزيتونة» .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى «ج» (عقاد) ، وفى «الزيتونة» (عناة) . والأولى أرجح .
(٤) هكذا وردت فى «ج» «والزيتونة» . وفى الإسكوريال (النكال) .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (دال) .
(٦) هذه الأبيات الثلاثة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى «ج» و «الزيتونة» .

ها أنا أنشدكم مهنئاً من ... بديع النّظم بالسّحر الحلال
فأنا العبد الذى حُبُّكم ... لم يزل واللّه فى قلبى وبال
أوْرَقت روضة آمالى لكم ... وتولاّها الكبير المتعال[1]
واقتنيت الجاه من خِدْمتكم ... فهو ما أدّخره من كنزِ مال[2]

ومنها :

يا أمير المسلمين هذه ... خدمة تنبئ عن أصدق[3] حال
هى بنت ساعة أو ليلة ... سَهلت بالحبِّ فى ذاك الجلال
علها إذ أجادت مَدْحها ... من بعيد الفهم يُلغيها وقال
فهى فى تأدية الشكر لكم ... أبداً بين احتفاء واحتفال

وكتب رحمه الله يخاطب أهله من مدينة تونس :

حىِّ حىَّ باللّه يا ريح نَجْد[4] ... وتحمّل عظيم سوق ووجدى
وإذا ما بَثَثْتَ حالى فبلّغ ... من سلامى لهم على قدر وُدّى
ما تناسَيْتُهم [وهل فى مغيبى][5] ... هم[6] نسونى على تطاوُل بُعْدى
بى شوق إليهم ليس يُعْزى ... لجميل ولا لسُكّان[7] نَجْد
يا نسيم الصَّبا إذا جئت قوماً ... ملئت أرضهم بشيح ورُنْد
[فتلطّف عند المرور عليهم ... وحقوقاً لهم علىَّ فأدِّ

(١) وردت هذه الشطرة فى «الزيتونة» والإسكوريال والنفح على النحو الآتى : (مذ تولاها الرباب المنوال) .

(٢) هذا البيت وارد فى «الزيتونة» والإسكوريال ، وساقط فى «ج» .

(٣) هكذا وردت فى «ج» و«الزيتونة» والنفح . وفى الإسكوريال (صادق) .

(٤) هكذا وردت فى الزيتونة والإسكوريال . ووردت فى «ج» (مجد) وهو تحريف .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» و«الزيتونة» والنفح . وفى الإسكوريال (وها فى يقينى)

(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والنفح والإسكوريال (ما) .

(٧) هكذا وردت فى والإسكوريال والنفح . وفى «ج» (أسكان) . وفى الزيتونة (كساكن) .

قل لهم قد غدوت من وَجْدهم[(١)] في حال شوق لكل رُنْد[(٢)] وزَنْد][(٣)]
وإن استفسروا حديثي فإني باعتناء الإله بلغتُ قصدي
فله الحمد إذ حباني بلطف عنده قلَّ كل شكر وحمد

[قال شيخنا أبو بكر ولده، وجدت بخطه رحمة الله عليه، رسالة خاطب بها أخاه أبا إسحق إبراهيم افتتحها بقصيدة أولها][(٤)].

ذَكَر اللِّوى شوقاً إلى أقماره فقضى أسًى أو كاد من تذكاره
وعلا زفيرُ حريق[(٥)] نار ضلوعه فرمى على وَجَناته بشراره
لو كنتَ تُبصر خطّه في خدِّه لقرأتَ سرَّ الوَجْد من أسطاره
يا عاذليه اقْصِروا فلربما[(٦)] أفضَى عتابُكم إلى إضراره
إن لم تعينوه على برجائه لا تُنكروا بالله خَلْع عِذاره
ما كان أكْتَمه لأسرار الهوى لو أنّ جُند الصبر من أنصاره
ما ذنبُه والبَيْنُ قَطَّع قلبه أسفاً وأذكى النار في أعشاره
بَخِل اللِّوى بالساكنيه وطيفهم وحديثه ونسيمه[(٧)] ومزاره
يا برقُ خُذ دمعي وعرِّج باللِّوى فأْ فُحْه في باناته وعَراره

---

(١) هكذا وردت في «ج». وفي «الزيتونة» (أجلهم).

(٢) هكذا وردت هاتان الكلمتان في «ج». وفي «الزيتونة» (ورخد وندى).

(٣) هذان البيتان ساقطان في الإسكوريال ووارادان في «ج» وفي «الزيتونة» والنفح.

(٤) هكذا وردت هذه الفقرة في الإسكوريال. ووردت في «ج» على النحو الآتي: (وافتتح مخاطبته لأخيه الأكبر أبي إسحق إبراهيم بقصيدة أولها).

(٥) هكذا وردت في «ج» والنفح. وفي الإسكوريال (رحيق).

(٦) هكذا وردت في «ج» والنفح. وفي الإسكوريال (فلشدما).

(٧) هكذا وردت في الإسكوريال والنفح. وفي «ج» (ونسيبه).

وإذا لقيتَ بهـا الذى بإخائه ... ألقَى خطوب الدهر أو بجواره
فاقر السلام عليه قَدْر محبـتى ... فيه وتَرْفيعى إلى مقـداره
وألِمْ بسائر أخـوتى وقرابتى ... من لم أكُنْ لجوارهم بالـكاره
ما منهم إلا أخٌ أو سيـدٌ ... أبداً أرى دأبى على إكباره
فاثبتْ لذاك الحـىّ أن أخاهم ... فى حِفْظِ عهدهم على استبصاره
ما مَنْزل اللـذات فى أوطانه ... كلاّ ولا السُّلوان من أوطاره(١)

وقال رحمه الله فى غرض كلّفه ساطانه القولَ فيه :

ألا واصِلْ مواصلة العقـار ... ودَعْ عنك التخلُّقُ بالوقار
وقُمْ واخلع عِذارك فى غـزال ... يحقُّ لمثله خلعُ العِـذار
قضيبٌ مائس من فوق دِعْص ... تعمَّم بالدُّجى فوق النهـار
ولاح بخـدّه ألف ولام ... فصار مُعَرَّفاً بين الدوارى(٢)
رمانى قاسمٌ والسين صـاد ... بأشفار تنوب عن الشِّفار
وقد قُسِّمت محـاسن وجنتيه ... على ضِدين من ماء ونار
فذاك الماء من دمعى عليه ... وتلك النار من فرط استِعـار
عجبتُ له أقام بربْع قلـبى ... على ما شَبَّ فيه من الأوار
ألفتُ الحبَّ حتى صار طبعاً ... فمـا أحتـاج فيه إلى ادِّكار
فمـالى عن مذاهبه ذهاب ... وهذا فيه أشعارى شِعارُ

وقال العلامة ابنُ رُشَيد فى «ملء العَيْبة» ، لمـا قَدِمنا المدينة سنة ٦٨٤هـ، كان معى رفيقى الوزير أبو عبد الله بن أبى القاسم الحكيم ، وكان أرْمَد ، فلما دخلنا ذا الحليفة أونحوها ، نزلنا عن الأكوار ، وقَوِى الشوق لقرب المزار ، فنزل وبادر

---

(١) هذا البيت زائد فى الإسكوريال . هذا ولم ترد هذه القصيدة فى مخطوط الزيتونة .
(٢) هكذا فى «ج» . وفى الإسكوريال (الدرار) .

إلى المشى على قدميه احتِساباً لتلك الآثار ، وإعظاماً لمن حلّ فى تلك الديار ، فأحسّ بالشفاء ، فأنشد لنفسه فى وصف الحال قوله :

ولما رأينا من ربوع حبيبنا ... بيَثْرب أعلاماً أَثَرْن لنا الحبا
وبالتُّرب منها إذ كَحَلْنا جفوننا ... شُفينا فلا بأساً نخاف ولا كربا
وحين تبدَّى للعيون جمالها ... ومن بعدها عنا أديلت لنا قُرْبا
نزلنا من الأكوار نمشى كرامة ... لمن حلّ فيها أن نُلمّ به رَكْبا
نُسِحُّ سِجال الدمع فى عَرَصاتها ... ونَلْثِم من حبٍّ لواطئه التُّرْبا
وإنّ بقائى دونه لخسارة ... ولو أن كَفِّى تملأُ الشرق والغرْبا
فياعجباً ممن يحبُّ بِزَعْمه ... يقيم مع الدعوى ويستعمل الكَتْبا
وزلاّت مثلى لا تعدُّ كثيرةً ... وبُعدى عن المختار أعظمها ذَنْبا[1]

ومن شعره قوله :

ما أحسن العقل وآثاره ... لو لازم الإنسان إيثاره
يصُون بالعقل الفتى نفسه ... كما يصون الحرُّ أسراره
لاسيما إن كان فى غُرْبةٍ ... يحتاج أن يُعْرَف مقدارُه[2]

وقوله رحمه الله :

إنى لأعْيِر أحياناً فيلحقنى ... يُسْرٌ من الله أن العُسْر قد زالا
يقول خيرُ الورى فى سُنَّة ثبتت ... أنفِقْ ولاتخش من ذى العرش إقلالا[3]

وهو من أحسن ماقاله رحمه الله .

ومن شعره قوله :

---

(١) لم ترد هذه القصيدة فى مخطوط «الزيتونة» ولا فى الإسكوريال .
(٢) لم ترد هذه الأبيات فى «الزيتونة» .
(٣) لم يرد هذان البيتان فى «الزيتونة» .

فقدتُ حياتي بالفراق[١] ومن غدا | بحال نوًى عمّن يحب فقد نفد
ومن أجل بُعدى من ديارٍ أُلِفْتُها | جحيم فؤادى قد تلظّى وقد وقَدْ

وحُكى أن ذا الوزارتين المترجم، لما اجتمع مع الفقيه الكاتب ابن أبي مَدْين أنشده ابن أبي مدين :

عشِقْتُكمو بالسّمع نبل لقاكم | وتَمْعُ الفتى يهوى لعَمْرِ كطَرْفه
وحبَّبنى ذكرُ الجايس إليكمو | فلما التقينا كنتم فوق وصْفِه[٢]

فأنشده ذو الوزارتين ابن الحكيم قوله :

مازلت أسمع عن عَلْياك كلَّ سَنِي | أبهى من الشمس أو أجْلَى من القمر
حتى رأى بَصَرى فوق الذى سَمِعَت | أذنى فوفَّق بين السّمع والبصر[٣]

ومن نظمه مما يكتب على قوس :

أنا عُدّةٌ للدين فى يد مَنْ غدا | لله منتصراً على أعــدائه
أحكى الهلال وأسْهمى فى رَجْمِها | لمن اعتدى تَحكى رجوم سمائه[٤]
قد جاء فى القرآن أنى عُدَّة | إذ نصَّ خير الخلق مُحْكم آيه[٥]
وإذا العدوُّ أصابه سهمى فقد | سَبَق القضاء بهلكه وفنائه

ومن توقيعه مانقلته من خط ولده أبى بكر فى كتابه المسمى «بالموارد المستعذبة»، وكان [بمدينة وادى آش][٦] الفقيه [السكنذ أبو عبد الله محمد بن غالب][٧]

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» والإسكوريال . وفى «ج» (بالعراق) .
(٢) لم يرد هذان البيتان فى «الزيتونة» .
(٣) لم يرد هذان البيتان فى «الزيتونة» .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» و«الزيتونة» (نجوم) والأولى أرجح .
(٥) هذا البيت ساقط فى الزيتونة .
(٦) هكذا وردت فى الزيتونة والإسكوريال . وفى «ج» (بوادى آش) .
(٧) هذه كلها زيادات وردت فى «الزيتونة» والإسكوريال .

العاريى ، فكتب يوماً إلى [الشيخ][١] خاصة والدى [وخلاصته][١] أبى جعفر ابن داود قصيدة [طويلة][١] على روى السين يشتكى فيها من [جَوْر] [١] مشرف بلدهم إذ ذاك أبى القاسم بن حسّان منها :

فياصفىّ أبى العباس كيف ترى وأنت كيِّس[٢] من فيهامن أكياس[٣]
ولُوه إن كان ممن ترتضون به فقد دنا الفتح للأشراف فى فاس[٤]

ومنها يستطر ذكر ذى الوزارتين [رحمه الله][٥] :

للشرق فضلٌ منه أشرقت شهبٌ من نورهم اقْتَبَسُونا كل مِقباس[٦]

فوقع عليها رحمة الله تعالى عليه [ورضوانه][٧] :

إن أفْرَطَت بابن حسّان غوائلُه فالأمر يكسوه ثوب الذُّل والياس[٨]
وإن تَزِلّ به فى جَوْره قَدَمٌ كان الجزاء له ضرباً على الرّاس
فقد أقامنى المولى بنعمتـــه لبثٌ أحكامه بالعدل فى الناس

كتابتـــه

وهى مرتفعة[٩] عن نمط شعره[١٠]. فمن ذلك رسالة كتبها عن سلطانه فى فتح مدينة قِيجاطة[١١] :

---

(١) هذه كلها زيادات وردت فى «الزيتونة» والإسكوريال .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى الإسكوريال (أكيس) .

(٣) هذا البيت ساقط فى الزيتونة .

(٤) هكذا وردت فى «ج» والإسكوريال . وفى «الزيتونة» (جلاس) .

(٥) هذه الزيادة من الإسكوريال .

(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (أقباس) .

(٧) الزيادة من الزيتونة .

(٨) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (الباس) . والأولى أرجح .

(٩) هكذا فى «ج» «والزيتونة» . وفى الإسكوريال (مترفعة) وهو تحريف .

(١٠) هكذا فى «ج» و«الزيتونة» وفى الإسكوريال (تطمه) .

(١١) قيجاطة وبالإسبانية Quesada ، مدينة أندلسية من أعمال ولاية جيان تقع على مقربة من نهر الوادى الكبير شمال شرقى مدينة جيان . وينتسب إليها عدد من العلماء .

من الأمير فلان ، أيده الله ونصره ، [ووفقه لما يحب ، حتى يكون ممن قام بفرض الجهاد ونشره][١] . إلى ابننا الذى نمنحه الحُبّ والرضى ، [ونسأل الله أن يهبه الخلال التى تُسْتحسن][٢] ، والشِّيم التى تُرتضى ، الولد الأنْجب[٣] ، الأرْضى ، الأنجد ، الأرْشد ، الأسْعد ، محمد ، والى الله تعالى إسعاده ، وتولى بالتوفيق والإرشاد سَداده[٤] ، وأطْلع عليه من أنباء الفتوح المُبَشَّرة بالنصر للمنوح ، ما يكمل من بُغيته فى نصر دين الإسلام [ويُسْنى][٥] مراده .

أما بعد حمد الله ، الذى جعل الجهاد فى سبيله أفضل الأعمال ، [الذى يقربه إلى رضاه][٦] ، وندب إليه بما وعد من الثواب عليه ، فقال يا أيها النبى حَرِّض المؤمنين على القتال ، تنبيها على محل الثقة ، بأن الفئة القليلة من أوليائه ، تغلب الفئة الكثيرة من أعدائه ، وتُدارك دين الإسلام بإنجاز وعده فى قوله ، ولَيَنْصُرَنّ الله من ينصره ، على رغم أنف من ظن [أنه خاذله ، تعالى الله عن خِذْلان جنده][٧] . والصلاة والسلام على نبيه ورسوله ومُجتباه ، لهداية الخلق لسلوك سبيل الحق ، والعمل بمقتضاه . قال تعالى فيما أنزل : قاتلوا الذين يَلونكم من الكفار ، تحريضاً على أن يمحو ظلام ضلالهم بنور هداه . صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله الأبرار ، وأصحابه الأشداء على الكفار ، الذين جرّدوا فى نُصْرَة دينه

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . وفى الإسكوريال كالآتى (وكافأ سعيه الذى وقفه على إقامة فرض الجهاد ونصره) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . وفى الإسكوريال (ونشكر الله على ما وهبنا من الخلال) .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (الأحب) .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (مراده) .

(٥) الزيادة من الإسكوريال . وورد مقابلها فى «الزيتونة» (وينهى) .

(٦) الزيادة من الزيتونة .

(٧) ورد مكان هذه العبارة فى الزيتونة والإسكوريال ما يأتى (إنه إن خذله آفاض الكفر دماه) .

صَوارمَ(١) العزم ، وأمضوا ظُباه، وفتحوا مازَوَى له من مشارق الأرض ومغاربها، حتى عمّ الإسلام حدّ للعمور ومنتهاه . فإنا كتبنا لكم . كتب الله لكم من سماع البشائر ما يعود بتحويل(٢) الأحوال ، وأطْلع عليكم من أنباء الفتوح ما يلوح بآفاق الآمال(٣)، مُبَشِّرا باليُمْن والإقبال . من قيجاطة ، وبركات ثقتنا بالله وحده ، تُظْهر لنا عجائب مكنونات أَلْطافه ، وتجنينا ثمار النصر فى إبّان قِطافه ، وتُسَخِّر(٤) لنا ورْد مَشْرع الفتح فترِد عذب نطافه ، والحمد لله الذى هدانا لأن نتقلَّد نجادها، ونمتطى جوادها ، ونستورِى زنادها ، ونستفتح بها(٥) مغالق المآرب ،[ولطائف المطالب](٦) حتى دخلت الملة الحنيفية فى هذه الجزيرة الأندلسية ، أغوارها وأنجادها . وقد تقرر عند الخاص والعام من أهل الإسلام ، واشتهر فى جميع الأقطار اشتهار الصبح فى سواد الظلام ، أنا لم نزل نبذُل جُهْدنا فى أن تكون كلمة الله هى العُليا ، ونسمح فى ذلك بالنفوس والأموال رجاء ثواب الله ، لا لغرض(٧) دُنيا ، وأنّا ما قصّرنا فى الاستنْصار والاستِنْفار [ولا قصَّرنا عن الاعتضاد لكل من أمّلنا معونته(٨) والاستظهار](٩) ، ولا اكتفينا بمُطوَّلات الرسائل وبنات الأفكار ، حتى اقتحمنا بنفوسنا لُجَج البحار ، وسمحنا بالطّارف من أموالنا والتِّلاد ، وأعطينا رجاء [نُصْرة الإسلام](١٠) موفور الأموال والبلاد،

(١) هكذا وردت «فى الزيتونة» والإسكوريال . وفى «ج» (صارم) .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى الإسكوريال (بتمهيد) .
(٣) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (الإيمان) . والأولى أرجح وأنسب للسياق .
(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (وتسجل) . والأولى أرجح .
(٥) هذه الكلمة زائدة فى الإسكوريال .
(٦) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . وفى الإسكوريال (ونستسهل مصاعب المطالب) .
(٧) هكذا وردت فى «الزيتونة» والإسكوريال . وفى «ج» (لعرض) .
(٨) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى «ج» (معاملته) . والأولى أرجح .
(٩) ما بين الحاصرتين ساقط فى الإسكوريال .
(١٠) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (نصر الله) .

واشترينا بما أنعم الله به علينا ، ما فَرَض الله على كافة أهل الإسلام من الجهاد ، فلم يكن بين تَلْبية المدعوّ وزُهده ، وبين قبوله وردّه ، إلا كما يحْسُو الطائر ماء الثِّماد ، وبأبى الله أن يكل نصر هذه الجزيرة إلى سواه ، وأن يجعل فيها سَبَباً[١] إلا لمن أخلص لوجهه الكريم علانيته ونجواه . ولما أسلم الإسلام بهذه الجزيرة الغريبة[٢] إلى مثاويه ، وبقى المسلمون يتوقعون حادثاً ساءت ظنونهم لباديه ؛ ألقينا إلى الثقة بالله تعالى [وحده][٣] يَدَ الاستسلام ، وشمّرنا عن ساعد الجِدّ والاجتهاد فى جهاد عبَدَة الأصنام ، وأخذنا بمقتضى قوله تعالى : وأنفِقُوا فى سبيل الله أخْذَ الاعتزام ، فأمدّنا الله تعالى بتوالى البشائر ، ونصرنا بألطاف أغْنَى فيها خلوصُ الضمائر عن قُوّاد[٤] العساكر ، ونقلنا على أيدى قُوّادنا ورجالنا من السَّبايا والغنائم ، ما عُدّ ذكره فى الآفاق كالمثل السائر ، وإن تَعُدُّوا نعمة الله لا تُحصوها ، وكيف يُحصيها المحصى أو يحْصُرها الحاصر . وحين أبْدَت لنا العناية الربّانية وجوه الفُتُوح[٥] سافرة المُحَيَّا ، وانْتَشَقْنا [نسيم][٦] النَّصر الممنوح عَبِق الرَّيا ، استخرنا الله تعالى فى الغزو بأنفسنا ، ونعم للمُسْتخار ، وكتبنا إلى من قرب من عمّالنا بالحض على الجهاد والاستِنْفار . وحين وافى من خف للجهاد من الأجناد والمُطّوّعين ، وغدوا بحكم رغبتهم فى الثواب على طاعة الله مجتمعين ، خرجنا بهم ، ونَصْرُ الله تعالى أهدى دليل ، وعناية الله بهذه الفئة المُفْرَدة من المسلمين ، تقضى[٧] بتَقْريب

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» والإسكوريال . وفى «ج» (شيئا) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (الغربية) والزيتونة (العربية) . والأولى أرجع بالنسبة للمعنى المقصود .

(٣) هذه الكلمة زائدة فى الإسكوريال .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى الإسكوريال و«الزيتونة» (قود) .

(٥) هكذا وردت فى «الزيتونة» والإسكوريال . وفى «ج» (الفتح) والأولى أرجع وأكثر تمشياً مع السياق .

(٦) هذه الكلمة زائدة فى الإسكوريال .

(٧) هكذا وردت فى «ج» والإسكوريال . وفى «الزيتونة» (تقتضى) .

البعيد من آمالنا ، وتكثير القليل . ونحن نسأل الله تعالى أن يحملنا على جادّة الرّضا والقبول ، وأن يرشدنا إلى طريق يفضى إلى بلوغ الأمنية والمأمول ، إلى أن حللْنا عشيّة يوم الأحد ثانى يوم خروجنا بمقربة(١) حصن اللقْوة(٢)، فأدَرْنا به . التّدبير ، واستشرنا من أوليائنا من تحققنا نصحه فيما يشير ، فاقتضى الرأى المقترن بالرّشاد ، المؤذن بالإسعاد ، قصد قيجاطة [لما رجى من](٣) تيسير فتحها ، وأملا فى إضاءة فجر الأمانى لديها ، وبيان صُبْحها ، فسِرْنا [نحوها](٤) فى جيش ، يجرُّ على المَجَرّة ذيل النقع المُثار ، ويضيق عن كثرته واسع(٥) الأقطار ، ويقِرُّ عين الإسلام ، بما اشتمل عليه من الحُماة والأنصار [تطير بهم نيّاتهم](٦) بأجنِحَة العزم إلى قبض أرواح الكفار . فلما وصلنا إلى وادى يانه(٧) على مَقْربة منها ، نزلنا به نريح الجياد ، ونكمل التأهُّب للقتال والاستعداد ، وبات المسلمون ليلتهم يسألون الله تعالى بأن يمنحهم(٨) الإعانة بتأييده والإمداد . وحين لجر الفجر وأنار النّهار ، وقدحت به الأصباح زَنْد الأنوار ، رَكِبنا إليها والعساكر قد انتظمت عقودها ، والسيوف قد كادت تلفظها غُمودها ، وبصاير الأولياء المجاهدين قد لاح من نصر الله تعالى معهودها . فلما وصلناها ، وجدنا ناسًا قد سبَقوا إليها بالبُوس ، وهتَكوا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» و«الزيتونة» (بمقبرة) وهو تحريف .

(٢) هكذا وردت فى «ج» و«الزيتونة» . وفى الإسكوريال (اللقون) .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى «ج» (رغبة فى تيسير) . وفى «الزيتونة» (من تيسير) .

(٤) هذه الكلمة زائدة فى الإسكوريال .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (واسعة) وفى الإسكوريال (واسعات) .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت محرفة فى «ج» (يطير بهم ثبانهم) «والزيتونة» (يطير بهم ثيابهم) .

(٧) الإشارة هنا إلى نهر وادى يانه وبالإسبانية Guadiana ، الذى تقع قيجاطة على مقربة من شرقيه .

(٨) هكذا وردت فى «ج . وفى «الزيتونة» (يلهم) وفى الإسكوريال (يلهمهم) .

سِتر عِصْمَتها المحروس، [وأُذِنَ لها](١) بزوال النعم، وذهاب النفوس ، فعاجلها الأولياء بالقتال، وأهدوا إليها حُمر المنايا من زُرْق النصّال ، [ورَشَقوا جنودها بالنبّال ، وجدّوا بنات الآجال](٢) ، فلما رأوا ما لا طاقة لهم به ، لاذوا بالفرار من الأسوار ، وولّوا الأدبار ، وودّعوا الديار وما فيها من الآثار . وتَسَنّم المسلمون ذِرْوة البلد الأول فملكوه ، وخرّقوا حجاب السِّتر المسدول عليه وَهَتَكوه ، وتسرعوا إلى البلد الثانى ، [وقد ملأ النصارى أسواره](٣) من حُماة رجالهم ، وانتقوهم من مُتَخَيَّرى أبطالهم ، ممن وثقوا بإقدامه فى حماية ضلالهم ، فحمل عليهم(٤) المسلمون حَملة عرّفوهم بها كيف يكون اللقاء، [وصَرَفوهم إلى ما تنصرف إليه أرواحهم من الشقّاء](٤) ، وأظهروا لهم [من صدق العزايم](٥) ما علموا به أن لدين الإسلام أنصاراً لا يرغبون بأنفسهم عن الذبّ عنه وحماية راياته ، ولا يَصْدُرون إلا إلى طاعة الله ابتغاء مَرْضاته . وبادر جماعة إلى إضرام باب المدينة بالنيران ، وعقدوا تحت سماء العَجاج منها سماء الدُّخان ، ورموا النصارى [من النبّال](٦) بشُهُب تتبع منهم كل شيطان . فهزم الله النصارى ؛ وولوا أدبارهم ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فأخْلُوا بروجهم وأسوارهم ، وتَسَنّمها المسلمون مُعْلنين شعار الإسلام ، رافعين من الرايات الحُمر كواكب فى سماء السّعادة

(١) وردت فى «ج» (وخذلوها) وفى «الزيتونة» (وأخرجها) . والتصويب من الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . ووردت فى الإسكوريال و«الزيتونة» كالآتى : (ورشقوا جردها بمدنيات من الآجال) .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى «ج» (وقد ملئوا أسواره) . وفى الزيتونة (القصر الى) .

(٤) وردت فى «ج» (عليه) . والتصويب من «الزيتونة» والإسكوريال .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . ووردت فى الإسكوريال والزيتونة كالآتى : (وأعلموهم بصدقها أن أقرب الأحوال إليهم الشقاء) .

(٥) وردت هذه العبارة فى «ج» (وأظهروا لهم من الصدف عن الغنايم) . والتصويب من «الزيتونة» والإسكوريال .

(٦) الزيادة من لإسكوريال .

تُبَشِّر بتيسير كل مرام[1] . ودخلوا المدينة ، فألفوا بها من القُوت والعَتاد ، والمتاع الفاخر ،الذى يربو على التَّعداد ،[ما ملأ][2] كلَّ يمين وشمال ، وظهروا عليها بعد بلوغ الأمانى على الكمال ، [وقتلوا بها من الحُماة أعداء ، أبدوا فى حماية ضلالهم ماضى الفِنا والاعتزام][3] وأعملوا فيهم ماضى العوامل وشَبا الإضرام . وارتفع النصارى إلى القَصَبة لائذين بامتناعها ، مُعتصمين بعُلُوِّها وارتفاعها ، مُتَخَيِّلين [لضلالهم ، وعدم استبصارهم][4] أن نور الهدى لا يحلُّ بديارهم . فرأينا أن نُرقى الرجال إلى أبراج البلد وأسواره ، وأمرناهم أن يبيتوا طول ليلتهم مُضَيِّقين على من اعتصم بالقصبة فى حِصاره ، وعَمَدنا بالعسكر المظفر إلى موضع استيطانه من المحلة المنصورة واستقراره . فلما بدا ضوء الصباح بنور الإشراق ، ولاح وجهُ[5] الغزالة طارحاً شعاعه على الآفاق ، أمرنا بترتيب العساكر على القصبة للحصار ، وعيَّنا لكل جماعة منهم جهةً يبادرون إلى منازلتها بالقتال أشدَّ[6] البدار ، فانتهى المسلمون من ذلك [إلى غاية لم][7] تَخْطُر للكافرين ببال ، وجرَّعوهم كؤوس المنايا. وأداروا بها بنات الحنايا ، [فأفضت السِّجال][8] وأظهر الكفار ، مع وقوعهم فى بحر الموت صبرا وطمعوا ، أن يقيموا بذلك لصلبانهم

(١) هكذا وردت فى «ج» والإسكوريال . وفى «الزيتونة» (مراد) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال و«الزيتونة» . وفى «ج» (فملئوا) .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، وفى «الزيتونة» مع تحريف يسير . ووردت فى «ج» كالآتى (وقتلوا من بها من أهل الضلال والظلام) .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . ووردت فى الإسكوريال و«الزيتونة» (متخيلين لاستبصارهم فى ضلالهم) .

(٥) هكذا وردت فى «ج» وفى الإسكوريال و«الزيتونة» (قرن) .

(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفي الإسكوريال (أوفى) .

(٧) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى «ج» (الذى لم) والأولى أفصح وأنسب للسياق) .

(٨) الزيادة من الإسكوريال .

عُذْرا . فلما رأوا من عزْمنا مالم تتخيله ظنونُهم وأوهامهم ، وصابرَهم المسلمون عند النِّزال مصابرةً عَظُم فيها إقدامهم [وثَبَتَت أقدامهم][1] ألقوا بأيديهم إلى التَّهلكة ، إلقاء [من هاله لَمَان الأسنة ، واهتزاز رُدَيْنيات القنا][2] ، ولاذوا بطلب الأمان لياذ الغريق بالساحل ، بعد ما أشرف على الفَنَاء ، وهبط زعيمهم ، مقتحما خطر تلك المسالك ، متضرِّعا تضرع من طمع فى الحياة بعد ما أخذته أيدى المهالك ، وشَرَط أن يُمَلِّكنا القصبة . ويبقى خديماً لنا بما بيده من البلاد الكثيرة [والكَتِيبة][3] المنتخبة ، فلم نظهر له عند ذلك قَبُولا ، [ولم نجعل له][4] إلى تكميل ما رغب فيه سبيلا ، فقاده البَأس الشديد إلى الإذعان ورغب أن يُكمل ما نريده على شرط[5] الأمان . فأسْعَفْنا رغبته على شروط ، بَعُد عَهْدُ المسلمين بمثلها ، [وهُيِّئت الأسباب بما نعتمده][6] من الثقة بالله وحده فى أمورنا كلها ، وذلك على كذا وكذا . وحين كَمُلت الشروط حق التَّكميل ، وظهرت لنا [منه][7] إمارات الوفاء الجميل ، دخلنا القصبة حماها الله ، وقد أغْنى [يوم][8] النصر عن شَهْر السلاح ، كما أغنى ضوء الصبح [عن نور المصباح][9] ، ورُفعت على أبراجها حُمر الأعلام ، ناطقةً عن الإسلام ، بالتعريف والإعلام . وفى الحين وجهنا من يَقْبِضْ تلك الحصون ، ويُزيل ما بها من جُرْم[10] الكفر المأفون ، أمناء

(١) هذه الزيادة من الإسكوريال .

(٢) مابين الحاصرتين ساقط فى الإسكوريال ، ووارد فى «ج» و«الزيتونة» .

(٣) هذه الكلمة زائدة فى الإسكوريال .

(٤) هكذا وردت فى «ج» و«الزيتونة» . وفى الإسكوريال (ولا جعلنا له) .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» و«الزيتونة» (شروطا) .

(٦) هكذا وردت فى «ج» «والزيتونة» . وفى الإسكوريال (وهيأت أسبابها ما يعتمد) .

(٧) هذه الكلمة زائدة فى الإسكوريال .

(٨) هذه الكلمة زائدة فى «الزيتونة» .

(٩) هكذا وردت فى «ج» . وفى الإسكوريال (عن فعل الصفاح) و«الزيتونة» (عن فعل المصباح) .

(١٠) هكذا وردت فى «ج» وفى الزيتونة والإسكوريال (حريم) .

رجالنا . فالحمد لله على هذه النعمة التى أحدثت للقلوب استبشارا ، وخفضت [علَم التثليث][(١)] ، ورفعت للتوحيد منارا ، وأظهرت للملّة الحنيفية على أعدائها اعتلاء واستكبارا . وهذا القدر من الفتح [وإن كان][(٢)] سامى الفخْر ، باقى الذكر بقاء الدهر ، فإننا لنرجو من فضل الله أن يُتْبعه[(٣)] بما هو أعلى منه متانة ، وأعظم[(٤)] فى قلوب أهل الإيمان موقعاً وأعز مكانة ، وأن يرغم بما يظهر على أيدينا من عز الإسلام ، أنف من أظهر له عنادا وخِذْلانا . فاستبشروا بهذا الفتح العظيم وبشّروا ، واشكروا الله عليه، فواجب أن تشكروا . وقد كتبنا هذا ، ونحن على عزمنا فى غزو بلاد الكفار . والسعى الحميد [إلى التنكيل بهم][(٥)] والإضرار ، والمسلمون أعزهم الله فى أرضهم يشنون المغار[(٦)] ، ويمتلكون الأنجاد منها والأغوار ، ويكثرون القتل والأسار ، ويحَكّمون أينما نزلوا السّيف والنار ، [والسلام][(٧)] .

ومن نثر آخر إجازة ما صورته :

[وها أنا أجرى منه على حسن مُعْتَقده ، وأَكِلُه فى هذا الغرض إلى ماراه بمقتضى توَدُّده ، وأُجيز له ولولديه ، أقرّ الله بهما عينه ، وجمع بينهما وبينه ، رواية جميع ما نقلته وحملته ، وحُسْنُ اطلاعه يُفَصِّل من ذلك ما أجملته ، فقد أَطْلَقتُ لهم الإذن فى جميعه ، وأَبَحْتُ لهم الحَمْل عنى ، ولهم الاختيار فى تنويعه . والله سبحانه وتعالى يُخلص أعمالنا لذاته ، ويجعلها فى ابتغاء مُرضاته . قال هذا محمد بن

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (علما) . وفى الإسكوريال (للشرك علما) .
(٢) هذه الزيادة من الإسكوريال .
(٣) هكذا وردت فى «ج» و«الزيتونة» . وفى الإسكوريال (يشفعه) .
(٤) هكذا فى «ج» والإسكوريال . وفى «الزيتونة» (وأسنى) .
(٥) هكذا فى «ج» . وفى الزيتونة والإسكوريال (فى القطع بهم) .
(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الزيتونة» (الغارات) . وفى الإسكوريال (المغوار) .
(٧) واردة فى «الزيتونة» والإسكوريال . وساقطة فى «ج» .

عبد الرحمن بن الحكيم حامداً لله عز وجل ، ومصلياً ومسلماً](١) .

وفاته

قُتل رحمه الله صَبيحة عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة ، وذلك لتاريخ خلع سلطانه . واستولت يد الغوغاء على منازله ، شغلهم بها مُدَبِّر الفتنة ، خيفةً من أن يعاجلوه قبل تمام أمره . فضاع بها مال لا يُكتب ، وعُروض لا يُعلم لها قيمة من الكُتُب ، والذخيرة والفرش والآنية والسلاح والمتاع والخُرْثِيّ ، واَخفِرت ذمّته ، وتُعُدِّى به عُدوة القتل إلى المُثْلة ، وقانا الله مصارع السوء ، فَطِيف بشِلوه ، وانتُهب فضاع [ولم يُقبَر](٢) ، وجرت فيه شناعة كبيرة ، رحمه الله تعالى .

مولده

بُرُنْدَة ظهر يوم الإثنين الحادى والعشرين من ربيع الأول المبارك ، من عام ستين وستمائة(٣) . وممن رثاه شيخنا أبو بكر بن شِبْرين رحمه الله تعالى بقوله :

[سَقَى الله أشْلاء كرُمْن على البِلى ... وما غَضَّ من مقدارها حادث البَلا

ومما شَجانى أن أُهِين مكانُها ... وأُهمل قَدْرٌ ما عهدناه مُهْمَلا

ألا أصْنع بها يادهرُ ما أنت صانعُ ... فما كنتَ إلا عبْدها المُتَذَلِّلا](٤)

سَفَكْتَ وما كان الرَّقُوء نواله ... لقد جئتَها شَنْعاء فاضِحَةَ المَلا

يكفى سبنتى أزرق العين مُطرِقٌ ... عدا فغدا فى غَيِّه متوغِّلا

لِنِعْمَ قتيلُ القوم فى يوم عِيده ... قتيلٌ تبكيه المكارم والعُلا

---

(١) هذه الفقرة التى بين الحاصرتين وردت فقط فى «ج» . ولم ترد فى «الزيتونة» ولا فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت في «ج» . وفى «الزيتونة» والإسكوريال (فلم يجبر) والأولى أرجح وأكثر تمشيا مع السياق .

(٣) هذه الفقرة الخاصة بمولد ابن الحكيم لم ترد فى «ج» . ووردت فى «الزيتونة» والإسكوريال

(٤) هذه الأبيات الثلاثة هى التى وردت فقط من القصيدة فى «الزيتونة» .

إلا إن يوم ابن الحكيم لمُشْكِلٌ   فؤادى فما ينفكُّ ماعشتُ مُشْكِلا
فَقَدْناه فى يوم أغرَّ مُحَجَّل   ففى الحَشْرِ نلقاه أغرَّ مُحَجَّلا
مَحَتْ نحوه الأيام وهو عَمِيدُها   فلم تشكر النُّعمى ولم تحفظ الوَلا
تعاوَرَت الأسياف منه مُمَدَّحاً   كريماً سمافوق السَّما كين مَنْزِلا(١)
وخانته رِجْلٌ فى الطَّوافِ به سَعَتْ   فناه بِصَدْرٍ للعلوم تحمَّلا
وجَدلٌ لم يَحْضُره فى الحىّ ناصرٌ   فمن مُبَلِّغ الأحياء أن مُهَلْهَلا
يد الله فى ذاك الأديم مُمَزَّقا   تبارك ما هَبَّتْ جنوباً وشَمْألا
ومِنْ حَزَنى أن لَسْتُ أعرف مَلْحَداً   له فأرى للتُّرْب منه مقبلا
رُوَيْدك يا مَنْ قد غدا شامتاً به   فبالأمس ما كان العماد المُؤَمَّلا
وكنا نُنادى أو نُراوح بابَه   وقد ظلّ فى أوْج العُلا مُتَوَقِّلا
ذكرناه يوماً فاستَهَلَّت جفوننا   بدمع إذا ما أمْحَل العام أخْضَلا
وما زج منه الحُزْن طول اعتبارنا   ولم نَدْرِ ماذا منهما كان أطْوَلا
وهاج لنا شَجْواً تذكُّرُ مجلسٍ   له كان يَهْدى الحىَّ والملأ الأُلى
به كانت الدنيا تؤخر مُدْبراً   من الناس حتْماً أو تقدم مُقْبلا
لِتَبْكِ عيونُ الباكيات على فتًى   كريم إذا ما أسْبَغ العُرْف أجْزَلا
على خادم الآثار تُتْلَى صحائحا   على حامل القرآن يُتْلَى مفصلا
على عَضُدِ المُلْك الذى قد تضوعت   مكارمه فى الأرض مِسْكاً ومَنْدلا
على قاسم الأموال فينا على الذى   وضعْنا لديه كل إصْرٍ على علا
وأنَّي لنا من بعده مُتَعَلَّلٌ   وما كان فى حاجاتنا مُتَعَلَّلا
ألا يا قصيرَ العُمْر يا كاملَ العُلا   يميناً لقد غادَرْت حُزْناً مؤثَّلا
يسوء المُصَلَّى أن هَلَكْتَ ولم تَقُمْ   عليك صلاةٌ فيه يشهدها المَلا

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «ج» (مرحلا) . والأولى أرجح .

وذاك لأنّ الأمر فيــه شهادةٌ ... وسُنَّتُها محفوظةٌ لن تُبَدَّلا
فيا أيها المَيْت الكريم الذي قضى ... سعيداً حميداً فاضلاً ومُفْضلا
لتَنْهَل من ربٍّ السماء شهادة ... تُلاقى بِبُشْرَى وجْهك المتَهلِّلا
رثيتُك عن حبٍّ ثَوَى فى جوانحى ... فما ودَّع القلب العميد[وماقَلا](1)
ويارُبَّ من أوليتُه منك نعمةً ... وكنتَ له ذُخْراً عتيداً ومَوْئلا
تناساك حتى ما تَمُرُّ ببــاله ... ولم يَدْكر ذاك النَّدى والتَّفَضلا
يُرابض فى مثْواك كلَّ عشيَّةٍ ... صَفِيف شَواء أو قديداً مُعَجَّلا
كَلَى الله من ينسى الأذمَّة وافضاً ... ويَذْهل مهما أصبح الأمر مُشْكلا
حنانَيْك يا بَدْرَ الهُدى فلشدَّما ... تركتَ بُدُور الأفق بعد أُفَّلا
وكنتَ لآمالى حيــاةً هنيئةً ... فغادرت منى اليوم قَلْباً مُقَتَّلا
فلا وأبيــك الخير ما أنا بالذى ... على البُعْد يَنْسى من ذِمامك ماخلا
فأنت الذى آوَيْتَنى مُتغرِّباً ... وأنت الذى أكرمتنى مُتطَفِّلا
[فإن لم أنَلْ منك الذى كنتُ آملاً ... فما كنتَ إلا المُحسِنَ المتَفَضِّلا](2)
فآليتُ لا ينفَك قلبى مُكْمَداً ... عليك ولا ينفَكُّ دمعى مُسْبَلا

محمد بن عبد الرحمن العقيلى الجراوى(3)

من أهل وادى آش ، وسكن غرناطة .

حـاله

فقيه أديب مُتَطَبِّب ، متفنن فى علوم جمة ، شاعر مطبوع ، يكنى أبا بكر .

---

(1) هكذا فى «ج» . وفى الإسكوريال (ولا قلا) .
(2) هذا البيت زائد فى الإسكوريال .
(3) هذه الترجمة واردة فقط فى مخطوط الإسكوريال .

مدح الأمير على بن يوسف اللمتونى بقوله :

رحــلوا الركايب موهناً   فأذاع عُرْفُهم السّنـــا
والحلى قــد أغرى بهم   لما ترنّم مُعلنـــا
كم حفّ حــول خيامهم   من كل خطّار القَنـــا

قال أبو جعفر بن الزبير ، ينفك منها قصايد :

رحلوا الركاب موهناً ليكتموا   ظَعْن الحُمول وهل تُوارى الأنجم
فأذاع سرَّهم السّنا ورمى بهم   فلٌّ الذميل شــذاهم المُتَنَسم
كم حف حمل قبابهم وزكابهم   من ليث غاب فى براثنه الدم
من كل خطّار القناة مموه   بين الرحيل نَصْبُه يستسلم

وهى طويلة ، خاطب بها أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشُفين . وقال فى وصف القصيدة :

أيا ملكا يسمو بسَعْد مُساعد   وقَدْرٍ على علوِّ الكواكب صاعد
نظمت قصيداً فى عُلاك مُضَمَّناً   ثلاث قواف فى ثلاث قصايد
إذا فُصلت أغْنَى عن البعض بعضُها   وإن وُصلت كانت ككعب وساعد

فأجازه بظهير كريم بتحرير ماله وتنويهه .

محمد بن عبدالرحمن (١) المُتأهل

من أهل وادى آش يعرف (٢) بعمامتى

حـــاله

من التاج : ناظم أبيات ، وموضح غُرر وشِيَات ، وصاحب توقيعات

(١) هكذا وردت فى أواخر الجزء الأول من مخطوط الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال (عبد الرحيم) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (المعروف) .

رفيعات ، وإشارات ذوات شارات . وكان شاعراً مِكثاراً ، وجواداً لا يخاف[(١)] عِثاراً . أُدْخل على أمير بلده المخلوع عن مُلْكه ، بعد انتِثار[(٢)] سِلْكه ، وخروج الحضرة عن ملكه ، واستقراره بوادى آش ، مروع[(٣)] البال ، معلَّلا بالآمال ، وقد بلغه دخول طبرنش فى طاعته ، فأنشده من ساعته :

خذها اليك طبرنشا شَفَّعٍ بها وادى الأشا
والأم تتبع بنتها والله يفعل ما يشا

ومن نوادره العذبة يطلب خطة الحِسْبة :

أنلنى يا خير البرية خُطَّة ترفعنى قَدْراً وتكسبنى عزاً
فأعتزُّ فى أهلى كما اعتز بَيْدَقٌ على سُفْرة الشطرنج لما انثنى فرزاً

فوقع الأمر بظهر رقعته ، ما ثبت فى حرف النون عند ذكره ، والاحتجاج بفضله .

وفاته

كان حياً بعد سنة سبع عشرة وسبعمائة . وفد على الحضرة مرات كثيرة .

محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طُفَيل القيسى

من أهل وادى آش ، يكنى أبا بكر .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (يخلف) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «الزيتوية» (استنثار) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (مورّوع) .

حـــاله (١)

كان عالماً ، صدْراً ، حكيما ، فيلسوفاً ، عارفاً بالمقالات والآراء ، كلفاً بالحكمة المشرقية ، محققاً ، متصوفاً ، طبيباً ماهراً ، فقيهاً بارع الأدب ، ناظماً ، ناثراً ، مشاركاً فى جملة من الفنون .

مشيخته

روى عن أبى محمد الرُّشاطى ، وعبد الحق بن عطية وغيرهما .

حُظْوته ودخوله غرناطة

اختصّ بالريس أبى جعفر ، وأبى الحسن بن مَلْحان . قال ابن الأبار فى تُحفْته ، وكتب لوالى غرناطة وقتاً .

تواليفه

رسالة حىّ بن يقظان ، والأرجوزة الطبيّة المجهولة ، وغير ذلك .

شعـره

قال ، وهو القايل من قصيدة فى فتح قَفْصة سنة [ست وتسعين](٢) وأُنفِذت إلى البلاد :

ولما انقضى الفتح الذى كان يُرتجى   وأصبح حزب الله أَغْلَبَ غالب
وأنجزَنا وعدٌ من الله صادق   كفيل بإبطال الظنون الكواذب
وساعدنا التّوفيق حتى بينّت   مقاصدنا مشروحة بالعواقب

(١) واردة فى «الزيتونة» وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال و«الزيتونة» . وهو تحريف ، وصحته (ست وسبعين) أعنى عام ٥٧٦ هـ وهو العام الذى افتتح فيه الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف مدينة قفصة ، التى خرجت على طاعته ، وكان فى ركابه طبيبه الخاص أبو بكر بن طفيل المترجم له . وقد أنفذت قصيدة ابن طفيل مع رسالة الفتح التى بعثت إلى البلاد .

وأذعن من عليا هلالُ بن عامر ... أبى وليّ الأمر كلُّ مجانب
وهبّوا إذا هبَّ النسيم كما سرى ... ولم يتركوا بالشّرق علقة آيب
يغصُّ بهم عرْض الفلا وهو واسع[1] ... وقد زاحموا الآفاق من كل جانب
كأنّ بسيط الأرض حلْقَة خاتم ... بهم وخِضَمُّ البحر بعض المذانب
ومدّ على حكم الصغار لسلمنا ... يديه عظيمُ الروم فى حال راغب
يُصرّح بالرويا وبين ضلوعه ... نَفَسُ مذعور ونفْرة راهب
وعِىٌّ من لسان الحال أفصحُ خُطْبة ... ما وضحت عنه فِصاح القواضب
وأبصر متْن الأرض كفة حامل ... عليه وإصراه فى كفٍّ حالب
أشرنا بأعناق الجياد إليكم ... وعُجْباً عليكم من صدور الرّكايب
إلى بُقْعة قد بيّن الله فضلها ... بمن حلّ فيها من ولىٍّ وصاحب
على الصّفوة الأدْنَين منّا تحيةٌ ... توافيهم بين الصَّبا والجنايب

وله أيضاً :

ألمّت وقد نام الرقيب[2] وهوّما ... وأسْرت الوادى[3] العقيق من الحما
وراح إلى نجْدٍ فرُحتُ مُنْجدا ... ومرت بنُعمان فأضحى مُنَعَّما
وجرّت على ترْب المُخْصِب ذيلها ... فما زال ذاك التّرب نهباً مقسما
تناقله أيدى التجار لطيمة ... ويحمله الدارين أيّان يمما
ولما رأتْ أن لا ظلام يجنها ... وأن سُراها فيه لن يتكتما
سرت[4] عذبات الرّبط عن حرّ وجهها فأبدت شُعاعا يرفع اليوم مظلما[5]

---

(١) وفى بعض النصوص تروى هذه الشطرة كالآتى (يغص بهم عرض الفيافى وطولها) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى المعجب لعبد الواحد المراكشى (المشيخ) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى المعجب (إلى الوادى) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى المعجب (نفت) .

(٥) وردت هذه الشطرة فى المعجب كالآتى (فأبدت محيا يدهش المتوسما) .

فكأنّ تجلّيها حجاب جمالها ... كشمس الضحى يَعْشَى بها الطَّرف كلّما
ولما رأت زُهْر الكواكب أنها ... هى النيرُ الأسمى وإن كان باسما
بكت أسفاً أن لم تفُزْ بجوارها ... وأسْعدها صوبُ الغمام فأسْجما
فجاءت يَمُجُّ القطر ريّان بُرْدها ... فتنفضه كالدُّر فذّاً وتوأما
يضم علينا الماء فضل زكاتها ... كلٌ بل سقط الطَّلِّ نوراً مُكمَّما
ويفْتَقُ نَضْح الغيث طيب عَرْفها ... نسيم الصَّبا بين العَرار منمنّما
جلَتْ عن ثناياها وأومَضَ برقُها[1] ... فلم أدر من شقّ الدُّجُنَّة منهما
وساعدنى جفْنُ الغمام على البكا ... فلم أدر وجْداً[2] أيّنا كان أسْجما
ونظم سِمْطى ثغرها ووشاحها ... فأبصرتُ دُرَّ الثغر أحْلَى وأنْظما
تقول وقد ألْمَتْ أطراف كفّها ... يدى وقد أنْعلَتْ أخْمصُها الغما
نشدتُك لا يذْهَبْ بك الشوق مذهباً ... يُسَهّل صعباً أو يُرخّص مأثما
فأقْصَرْت لا مُستغنياً عن نوالها ... ولكن رأيتُ الصَّبر أوفى وأكرما[3]

وقال :

أتذكر إذ مسحتُ بفيك عَيْنى ... وقد حلَّ البكا فيها عقوده
ذكرتُ بأن ريقَك ماء وَرْد ... فقابلتُ الحرارة بالبروده

وقال :

سألتُ من المليحة بُرء دائى ... برَشْفِ بُرُودها العذب المزاج
فما زالت تُقبِّل فى جفونى ... وتُبْهرنى بأصناف الحِجاج
وقالت إن طرْفك أصلاً لدائك ... فليقدَّم فى العلاج

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى المعجب (بارق) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى المعجب (دمعا) .
(٣) هذه القصيدة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى «الزيتونة» .

توفى بمراكش سنة إحدى وثمانين وخمسماية وحضر السلطان[١] جنازته .

محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبيد الله
ابن عيّاش التُّجيبى البُرْشانى

من أهل حصن بُرْشانة[٢] المحسوب فى هذه العِمالة ، يكنى أبا عبد الله ، كاتب الخلافة .

حـــاله

قال القاضى أبو عبد الله بن عبد الملك[٣] ، كان كاتباً بارعاً ، نصيحا ، مُشرفاً على علوم اللسان ، حافظاً للُّغات الآداب ، جزْلا ، سَرِىّ الهمة ، كبير المقدار ، حسن الخلق ، كريم الطباع ، نفّاعاً بجاهه وماله ، كثير الاعتناء بطلبة العِلْم ، والسعى الجميل لهم ، وإفاضة المعروف على قُصاده ، مستعيناً على ذلك بما نال من الثروة والحُظْوة والجاه ، عند الأمراء من بنى عبد المؤمن ، إذ كان صاحب القلم الأعلى ، على عهد المنصور وابنه ، رفيع المنزلة والمكانة لديهم ، قاصداً الإعراب فى كلامه ، لا يخاطب أحداً فى كلامه من الناس ، على تفاريق أحوالهم ، إلا بكلام مُعْرَب ، وربما استعمله فى مخاطبه قَدِمته وأَمَته ، من حُوشِىّ الألفاظ ، مالا يكاد يستعمله ، ولا يفهمه إلّا حُفَّاظ اللغة من أهل العلم ، عادة أَلِفَها واستمرت حاله عليها .

---

(١) المقصود بالسلطان هنا ، هو الخليفة الموحدى يعقوب المنصور ، وكان ابن طفيل طبيبه الخاص ، وصديقه الأثير لديه .

(٢) برشانة وبالإسبانية Purchina بلدة تقع على نهر المنصورة شمالى المرية وقد سبق التعريف بها .

(٣) هو القاضى ابن عبد الملك المراكشى صاحب كتاب «الذيل والتكملة» وقد سبق التعريف به .

مشيخته

روى عن أبي عبد الله بن حُميد ، وابن أبي القاسم [السُّهَيلي][(١)] ، وابن حُبَيْش ، [وروى عنه بنوه أبو جعفر ، وأبو القاسم ، وعبد الرحمن ، وأبو جعفر ابن عثمان ، وأبو القاسم البلوي][(١)] .

تواليفه

له اختصارٌ حسن في إصلاح المنطق ، ورسايل مشهورة ، تناقلها الناس ، وشِعرٌ يُحْسِن في بعضه .

جاهه

حدث الشيخ أبو القاسم البلوي ، قال كنت أخِفُّ إليه ، وأشفع عنده في كبار المسايل ، فيسرع في قضايها . ولقد عرَضت لبعض أصحابي من أهل بلاد الأندلس حاجةٌ مُهِمَّةٌ كبيرة ، وجب عليّ السعي فيها ، والتماس قضايها وفاء لربِّها ، ولم يكن لها إلا ما قَدَرتُه من حسن نظره فيها ، ورجوته من جميل أثره في تيسير أمرها ، وكان قد أصابه حينئذ التِياثٌ لَزِم من أجله داره ، ودخلت عليه عايداً ، فأطال السؤال عن حالي ، وتبسَّط معي في الكلام ، مبالغة في تأنيسي ، فأجّلت ذكر الحاجة ، ورغبت منه في الشَّفاعة عند السلطان في شأنها ، وكان مضطجعاً ، فاستوى جالساً ، وقال لي ، جَهِل الناس قَدْري ، وكرَّرها ثلاثا ، في مثل هذا أشفع إلى أمير المؤمنين ، هات الدَّواة والقرطاس ، فناولته إياها ، فكتب برغبتي ، ورفعه إلى السلطان ، فصُرِف في الحين مُعَلَّما ، فاستدعاني ، ودفعه إليّ ، وقال يا أبا القاسم ، لا أرضى منك أن تُحْجِم عني في التماس قضاء حاجة تعرَّضت لك خاصة ، وإن كانت لأحد من معارفك عامة ، كَبُرت أو صَغُرت ، فألتَزِم قضاءها ،

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد في «الزيتونة» وساقط في الإسكوريال .

وعلىّ الوفا ، فإن لكل مَكْسَب زكاة ، وزكاة الجاه بَذْله .

وحدّثنى شيخى أبو الحسن بن الجيّاب ، عمن حدثه من أشياخه ، قال ، عرض أبو عبد الله بن عيّاش والكاتب ابن القالى[1] على المنصور كتابين ، وهو فى بعض الغزَوات ، فى كَلَب البَرْد ، وبين يديه كانون جَمْر . وكان ابن عياش بارعَ الخطّ ، وابن القالى ركيكَه ، ويفضُلُه فى البلاغة ، أو بالعكس الشك منى . وقال المنصور أى كَتْبٍ لو كان بهذا الخط ، وأى خطٍّ لو كان بهذا الكَتْبِ ، فرضى ابن القالى ، وسَخِط ابن عياش . فانتزع الكتاب من يد المنصور ، وطرحه فى النار وانصرف . قال ، فتغيّر وجهُ المنصور ، وابتدر أحد الأشياخ ؛ فقال يا أمير المؤمنين ، طَعَنْتُم له فى الوسيلة التى عرّفته ببابكم ، فعَظُمت غَيْرتُه لمعرفته بقَدْر السبب الموصل إليكم . فسُرِّى عن المنصور ، وقال لأحد خدّامه ، إذهب إلى السّبى ، فاخْتَر أجمل نساء الأبكار ؛ وأت بابن عياش ، فقل له هذه تُطْفى من خُلُقك . قال ابن عياش يخاطب ولَدَه ، وقد حدّث الحديث : هى أُمّك يامحمد أو فلان .

بعض أخباره مع المنصور

ومحاورته الدّالة على جلالة قدره

قال ابن خميس ؛ حدّثنى خالى أبو عبد الله ابن عسكر ، أن الكاتب أبا عبد الله بن عيّاش ، كتب يوماً كتاباً ليهودى ، فكتب فيه ، ويحمل على البرّ والكرامة . فقال له المنصور[2] ، من أين لك أن تقول فى كافر ، ويحمل على البرّ والكرامة . فقال ففكّرت ساعة ، وقد علمت أن الاعتراض يلزمنى ، فقلت ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إذا أتاكم كريمُ قومٍ ، فأكرموه ؛

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (ابن القالى) .

(٢) وردت بعد هذه الكلمة فى الإسكوريال الكلمات الآتية (ففكرت ساعة وقد علمت) . وهى مكررة وقد جاء مكانها بعد .

وهذا عام فى الكافر، وغيره . فقال نعم هذه الكرامة ، فالمبرة أين أخذتها ، قال فسكتُ ولم أجد جوابا ، قال فقرأ المنصور ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم « لا ينهاكم الله عن الذين ، لم يقاتلونكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من ديارهم أن تبرّوهم وتُقسطوا إليهم ، إن الله يحب المُقسطين » . قال فشهدتُ بذلك ؛ وشكرته .

شعـــــره

من شعره :

بلنسية بَيْنى عن العلياء سَلْوَةٌ فإنك روضٌ لا أحِنُّ لزَهرك
وكيف يحبُّ المرء داراً تقَسَّمت على صارِمَىْ جِذع(١) وفِتْنَة مُشْرِك

وذكره الأديب أبو بحر صفوان بن إدريس فى « زاد المسافر » عند اسم ابن عيّاش ، قال ، اجتمعنا فى ليلة بمرّاكش ، فقال أبو عبد الله ابن عيّاش :

وليلةٌ من ليالى الصّفح قد جمعت إخوانَ صِدْقٍ ووصْلٌ للدهر غير مُخْتلس
كانوا على سِنَة الأيام قد بعدُوا فألَّفَتْ بينهم لو ساعد الفَلَسُ

وقال من قصيدة :

أشفارها(٢) أم صارِمُ الحجّاج وجُفُونُهـا أم فِتْنَةُ الحلّاج
فإذا نظرتَ لأرضها وسمائها لم تَلْفَ غير أسنَّةٍ وزُجاج

وقال فى للمُصْحف الإمام ، المنسوب إلى عثمان بن عفان ، لما أمر المنصور بتَحْليَته بنفيس الدُّرّ من قصيده :

---

(١) وردت فى الإسكوريال (جوع) والتصويب من «الزيتونة» .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (بأشفارها) .

ونَقَلْتَ من كلِّ مُلْكٍ ذخيرةً   كأنهم كانوا بَرَسْم مكاسبه
فإن وَرِثَ الأملاكَ شرْقاً ومَغْرِباً   فكم قد أخلُّوا جاهلين بواجبه
وألبَسْتَه الدُّر والياقوت حِلْيةً   وغيرُك قد روّاه من دَمِ صاحبه

كتابته

قال ابن سعيد(1) فى المُرْقصات والمُطْربات ، أبو عبد الله بن عيّاش ، كاتب الناصر وغيره ، من بنى عبد المؤمن ، وواسِطَةُ عِقْد تَرْسِيله ، قوله فى رسالة كتبها فى نزول الناصر على المَهْدِية بحراً وبراً ، واسترجاعها من أيدى المُلَثَّمين(2) :

ولما حَلَلْنا عُرَى السفر ، بأن حللنا حِمَى المَهْدِيّة ، تناءلنا بأن تكون لمن حَلَّ بساحتها هَدِيّة ، فأحْدَقْنا بها إحداق الهُدْب بالعَيْن ، وأطَرْنا لمختلس وصالها غِرْبان البَيْن ، فبانت بليلةَ باسِنِيّة(3) ، وصابَح يوماً صافحته فيه يد المَنِيّة . ولما اجْتَلَينا منها عروساً ، قد مُدَّ بين يديها بساط الماء ، وتوجت بالهلال ، وقَرَطَته بالثُّريا ، ووُشِّحَت بنجوم السّماء ، والسُّحب تَسْحَب عليها أرْدانها ، فتَرَدِيها تارة مُتَلَثِّمَة ، وطوراً سافرةً ، وكأنما شُرُفاتها المُشْرِفة أنامل مُخْضَبة بالدَّياجى ،

(1) هو على بن موسى بن سعيد الأندلسى المعروف بابن سعيد المغربى ، وأصله من سادة قلعة يحصب من أعمال غرناطة . وهو سليل أسرة من الأدباء تعاقبت فى تصنيف مؤلف أدبى وتاريخى ضخم أتمه على بن موسى آخر من نبغ من الأسرة ، وهو يضم كتابين كبيرين هما «المشرق فى حلى المشرق» «والمغرب فى حلى المغرب» وموضوعهما الحديث عن فضائل مدن المشرق والمغرب . ولابن سعيد كتب أخرى منها «المرقص والمطرب» ، و«الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد» «وملوك الشعر» ، وغيرها . مولده سنة ٦١٠ هـ وتوفى بدمشق فى سنة ٦٧٣ هـ . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد .

(2) يقصد بالملثمين هنا بنو غانية ، سادة ميورقة ، وأولياء المرابطين (الملثمين) . وكانوا قد غزوا إفريقية ، فى أواخر القرن السادس الهجرى ، واستولوا على معظم قواعدها ومنها ثغر المهدية ، الذى استرده الموحدون من يحيى بن غانية الميورقى فى سنة ٦٠٢ هـ ، فى عهد الخليفة الناصر بن يعقوب المنصور .

(3) هكذا وردت هذه الكلمة فى «الزيتونة» ، وفى الإسكوريال كلمة محرفة رسمها (مابغية) .

مختتمة بالكواكب الزاهرة ، تضحى عن شذب لا تزال تقبله أفواه المجانيق ، وتمسي باسمة عن لعس ، لا تبرح ترشفه شفاه سهام الحريق . خطبناها ، فأرادت التنبيه على قدرها ، والتوفير في إعلاء مهرها ، ومن خطب الحسناء، لم يغله المهر ، فتمنعت تمنع المقصورات في الخيام ، وأطالت إعمال العامل في خدمتها ، وتجريد الحسام ، إلى أن تحققت عظم موقعها في النفوس ، ورأت(١) كثرة ما ألقى لها من نثار الرؤوس ، جنحت إلى الإحصان بعد النشوز ، ورأت اللجاج في الامتناع من قبول الإحسان لا يجوز ، فأمكنت زمامها من يد خاطبها ، بعد مطاولة خطبها وخطابها ، وأمتعته على رغم رقبيها بعناقها ، ورشف رضابها ، فبانت معرسا ، حيث لا حجال إلا من البنود ، ولا خلوق إلا من [دماء](٢) أبطال الجنود ، فأصبح وقد تلألأت بهذه البشاير وجوه الأفكار ، وطارت بمسارها سوايح البرارى ، وسوابح البحار . فالحمد لله الذى أقر الحق فى نصابه ، واسترجعه من أيدى غصابه ، حمداً يجمع شمل النعم ، ويلقحها كما تلقح الرياح الديم ، فشنفوا الأسماع بهذه البشاير ، واملئوا الصدور بمايرويه لكم من أحاديثها كل وارد وصادر ، فهو الفتح الذى تفتحت له أبواب السماء [وعم الخير واليمن به](٣) بسيلى الشرق والماء ، فشكر الله عليه فرض ، فى كل قطر من أقطار الأرض .

دخل غرناطة ، مرتاداً ، ومتعلما ، ومجتازاً .

مولده : ببرشانة بلده ، عام خمسين وخمس ماية .

وفاته : توفى بمراكش فى شهر رجب الفرد من عام ثمانية عشرة وستماية ، رحمه الله .

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى الإسكوريال (وزادت) وهو تحريف .

(٢) واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى «الزيتونة» .

(٣) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى « الزيتونة » .

محمد بن على بن محمد بن إبراهيم بن محمد الهَمْدانى(١)

من أهل وادى آش ، يكنى أبا القاسم ويعرف بابن البرّاق .

حـاله

قال ابن عبد الملك ، كان محدّثاً حافظاً ، راويةً مكثرا ، ثقةً ضابطاً ، شُهِر بحفظ كتب كثيرة ، من الحديث ، وغيره ، ذا نظر صالح فى الطّلب ، أديباً بارعاً ، كاتباً بليغاً ، مُكثراً لجيِّدِه ، سريع البديهة فى النظم والنثر ، والأدب أغلبُ عليه . قال أبو القاسم بن المواعينى ، ما رأيت فى عباد الله ، أسْرَعَ ارتجالا منه .

مشيخته

روى عن أبى بحر يوسف بن أحمد بن أبى عَيْشون ، وأبى بكر بن زَرْقون ، وابن قيد ، وابن إبراهيم بن الملل ، وابن النِّعمة وصَحْبه(٢) ، ولَقِيه بمرّاكش ، ووليد بن مُوفق ، وأبى عبد الله بن يوسف بن سعادة ، ولازمه أزيد من ست سنين ، وأكثر عنه ، وابن العُمْرسى ، وأبى العباس بن إدريس ، والخرّوبى ، وتلا عليه بالسَّبع ، وأكثر عنه ، وعَرَض عليه من حفظه كثيراً ، وابن مضاء ، وأبى على بن عرب ، وأبى القاسم بن حُبَيْش ، وابن عبد الجبار ، وأبى محمد بن سهل الضرير ، وعاشر وقاسم بن دحمان ، وأبى يوسف بن طلحة . وأجاز له أبو بكر بن العربى ، وابن خير ، وابن مَنْدلة ، وابن تَمارة ،

---

(١) هذه الترجمة واردة فى الإسكوريال فقط ، وساقطة فى «الزيتونة» و«ج» .

(٢) وردت فى الإسكوريال (وتحبه) ، وهو فيما يبدو تحريف اقتضى التصويب .

وأبو الحسن شريح ، وابن هُذيل ، ويونس بن مُغيث ، وأبو الجليل مفرج بن سلمة ، وأبو عبد الله حفيد مكى ، وأبو عبد الرحمن بن مساعد ، وأبو عامر محمد بن أحمد السالمى ، وأبو القاسم بن بشكوال ، وأبو محمد بن عبيد الله وأبو مروان البيّاضى ، وابن قُزمان ، وأبو الوليد بن حجاج .

من روى عنه

روى عنه ابنه أبو القاسم ، وأبو الحسن بن محمد بن بقى الغسّانى ، وأبو عبد الله محمد بن يحيى الشُّكرى ، وأبو العباس النبّاتى ، وأبو عمرو بن عيّاد ، وهو أسنّ منه وأبو الكرم جودى .

تواليفه

صنّف فى الأدب مصنّفات منها « بهجة الأفكار ، وفرصةُ التذّكار فى مختار الأشعار » ، ومباشرة ليلة السّفح ، ومقاله فى الإخوان ، خرّجها من شواهد الحِكم ، ومصنّف فى أخبار معاوية ، والدُّر المنظم فى الإحسار المطّم ، ومجموع فى الألغاز ، وروضة الحدائق فى تأليف الكلام الرائق ، مجموع نظمه ونثره ، وملقى السبل فى فضل رمضان ، وقصيدته فى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم ، وخطرات الواجد فى رثاء الواحد ، ورجوم الإنذار بهجوم العِذار ، إلى غير ذلك .

محنته

غرّبه الأمير ابن سعد[1] من وطنه ، وألزمه سكنى مُرْسية ، ثم بلَنْسية . ولما مات ابن سعد آخر يوم من رجب سبع وستّين وخمس مائة ، عاد إلى وطنه واستقر به يفيده الديّة ، إلى آخر عمره .

(١) هو الأمير محمد بن سعد بن مردنيش الجذامى أمير بلنسية ومرسية ، وقد سبق أن ترجم له ابن الخطيب فيما تقدم (ص ١٢٠ – ١٢٧) .

شعره

وشعره كثير . فمن ذلك القصيدة الشهيرة فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر صحابته :

بالهَضْبِ هَضْب زرود أو تلعاتها ساقتك هاتفةٌ على نَغَماتها
مصدورة تفتن فى جيعها فيبين نَفْثُ السِّحر فى نَفَثاتها
إن راغها راد الضحى أو راعها جَنْح الدُّجا سِيّان فى ذكراتها
هذا يُمَتِّعُها وذاك يشوقها والموت فى يَقَظاتها وسِناتها
ولولا التَّعَلل بالكَرَى ينتابُها نضحت فزَوْرُ الطَّيف بَرْحُ شِكاتها
لكن بين جُفونها وهِنامها خرزاً تثير النهب فى كَرّاتها
ولئن نعقتُ لها به فتقولَ مَنْ يَلْقى الرِّياح بمُلتقى هبّاتها
مَطْلُولة الفَرْعين يُلحفها الرُّبى كَتفاً ويَلْثَمها المُنى زهراتها
وتُسِيغها ماء النَّخيلة جُرْعةً لِغياضها من مُجْتنى نجلاتها

منها :

يا من تبلَّج نوره عن صادع بالواضحات الغُرِّ من آياتها
يا شارعاً فى أُمَّةٍ جعات به وسطاً فغالت مستدام حياتها
فى دار خُلْدٍ لا يَشِيب وليدُها حيث الشَّباب برفٌ فى جَنّاتها
وتنَسُّم الرِّضوان فى أكنافها وشميمُ الرَّيحان من جَنَباتها
يا مُصْطَفاها مُرْفِعٌ قَدْرُها بأكُنفُها يا مُنْتهى عَلْياتها
يا مُنْتَقاها من أُرومة هاشم يا هاشِمَ الصُّلبان فى نَزَواتها
يا خاضِداً للشِّرْك شَوْكَة حزبه يا يافعاً للعُرْب فى جَمَراتها

قلت ، نقل الشيخ أزيد من ذلك أو ضعفه أو نحوه . إلى أن قال ، وهى طويلة ، قلتُ وثقيلةُ الرُّوح . ولقد صدق فى قوله .

ومن شعره :

يا بَدْرُ تِمْ طالعاً فى الحَشَي ... بَرَّح بى منك أوان المغيب
حظُّك من قلبي تعذيبُه ... وحظُّه منك الأسى والوجِيب
فمن يكن يُزهى بلبس المُنى ... فإن زَهْوى بلمحاس النَّحيب
فى ساعة قصر أنيابها ... غيبتُه لى وحضور الرَّقيب
لعلَّ من باعد ما بيننا ... يُفَرِّج الكُرْبة عما قريب

[وقال][1] :

رثوا القِباب بأدمع مَفْضُوضة ... ذوى للفراق وأكبُدٍ تتَصرَّم
فللنَّفْس فى تلك الرُّبوع حبيبةٌ ... والقلب فى إثْر الوداع مُقَسَّمُ
هل لى بهاتيك الظِّبا إلماعة ... أم هل لذاك السِّرب شَمْلٌ يُنْظم
حَقًّا فقدتُ الذَّات عند فراقهم ... فالشَّخص يُوجد والحقيقة تُعْدم

وفاته

توفى ببلده لثلاث بقين من رمضان ست وتسعين وخمس ماية . قال أبو القاسم المواعيني ، عَثَر فى مَشْيه فسقط ، فكان سبب مَنِيَّته ، ودخل غرناطة ، فى غير ما وُجْهة منها ، راويا عن أبى القاسم بن الفرس . ومع ذلك فهو من أحوازها وبُنَيَّاتها .

محمد بن على بن محمد بن على بن محمد بن خاتمة الأنصارى[2]

من أهل ألمرية ، يكنى أبا عبد الله :

حاله

من كتاب الإكليل ما نصه : ممن ثَكلته اليراعة ، وفَقَدته البراعة ، تأدب

(١) وضعنا هذه الكلمة لاختلاف الشعر .

(٢) وردت لمحمد بن خاتمة الإنصارى أيضا فى «الزيتونة» ترجمة موجزة لا تعدو أربعة عشر سطراً.

بأخيه(١) ، وتهذَّب ، وأراه فى النظم المَذْهب ، وكساه من التفهُّم والتعليم البُرْد المُذهَّب ، فاقتنى واقتدى ، وراح فى الحَلْبة واغتدى ، حتى نَبُل وشَدا . ولو أمهله الدهر لمبلغ المدا . وأما خطُّه فقيد الأبصار ، وطُرْفة من طُرَف الأمصار ، واعتبط يانع الشَّبيبة ، مُخْضَرَّ الكتيبة .

شعـــــره

كفُّوا الملام فلا أُصغى إلى العَذَل — عقلى وسمعى عن العُذّال فى شغل

[يقول فى هذه القصيدة :

هَزْلُ المحبّة جِدٌّ والهوان هوًى — والصبُّ يتلف بين الجدّ والهزل
مَنْ مُسْعِدٍ وفؤادى لا يساعدنى — أو مَنْ شَفِيعى وذُلِّى ليس يشفع لى
أعلِّل النَّفْس بالآمال أُطْمِعُها — حتى وقَعْتُ من التَّعليل فى عِلَل
لئن كنتَ تجهل مافى الحبِّ من مِحَنٍ — أنا الخبير فغيرى اليومَ لا تَسَلِ
أنا الذى قد حَلَبْتُ الحبَّ أشْطُرَه — فلم يُفِدْنى لا حولى ولا حيلِ
لا أشرب الرّاح كى أَحْلُو براحتها — لكن لأدْفَع ما بالنَّفْس من كسلِ
ولا أجول بطَرْفى فى الرياض سوى — ذكْرِى لأيامنا فى ظلِّها الأول
أنا العَهْدُ مضى ما كان أعْذَبَه — لم يبق لى غير آياتٍ من الخَبَل
كم فَدَيتُك يا قلبى وأنت على — تلك الغِواية لم تَبْرَح ولم تزل
فاخترْ لنفسك إما أن تُصاحِبَنى — حُلْواً وإلا فَدَعْنى منك وارتحِل
فقد تبعتُك حتى سرتُ من شَغَفى — ولَوْعتى فى الهوى أعجوبة المُثُل

ومن شعره :

ومَضَ البرقُ فثار القَلَق — ومضى النَّوم وحلَّ الأرق

---

(١) وردت ترجمة أخيه أحمد بن خاتمة فى المجلد الأول من الإحاطة (١٩٧٣) ص ٢٣٩ – ٢٥٩ .

ويَنْعانى من غرامى قد شكا ‏ ‏ ودموعى من وُلوعى تَنْطق
ودليــلى فى غَليــلى زَفْرَتى ‏ ‏ وعـذابى بانتِحابى أَصْدَق
وحَسُودى من وَقُودى رقَّ لى ‏ ‏ ضِمْناً فيهـا الحمى والأَبْرَق
وعِشيّـــات تَقَضَّت باللِّوى ‏ ‏ فى مخيِّلى الدهر منها رونَق
إذ شبابى والتَّصابى جُمِعا ‏ ‏ ورياض الأُنْس غضٌّ مُونَق
شتَّ يوم البَيْن شملى ‏ ‏ ليت ما خُلق البين لقلبٍ يعشق
آه من يوم قضى لى فُرْقة ‏ ‏ شاب منِّى يوم حلَّت مِفرَق

ومن ذلك :

أيا جيرةَ الحيِّ المُمَنَّع جارُه ‏ ‏ سقى ربْعَكم دمعى إذا بَخِلَ الوَبْل
متى غِبْتم عنى فأنتم بخاطرى ‏ ‏ وإن تقصدوا ذُلِّى فقد لذَّ لى الذُّل
عذابكم قُرْبٌ وبُخْلُكم ندى ‏ ‏ وإذلالكم عزٌّ وهُجْرانكم وَصْل
وأنتم نَعيمى لا نَعِمْتُ بغيركم ‏ ‏ ورَوْضى لا ما أريد ولا ظِلُّ][(١)]

ومن ظريف نزعاته قوله :

الرَّفْعُ نَعْتكم لا خابكم أملُ ‏ ‏ والخَفْضُ شيمةُ شأنى والهوى دُول
هل منكم لى عدف بعْد بُعْدِكم ‏ ‏ إذ ليس لى منكم ياسادتى بَدَل

وفاته

اعتُبط فى الطاعون فى أوايل ربيع الأول عام خمسين وسبعمائة . وَرَدَ إلى الحضرة غير ما مرة

(١) كل ما ورد من الشعر بين الحاصرتين ساقط فى « الزيتونة » ، ووارد فى الإسكوريال .

محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قُزْمان الزُّهرى (١)

من أهل قرطبة يكنى أبا بكر

حـــاله

نسيجُ وَحْده ، أدباً وظرفاً ولَوْذَعِيَّةً وشهرة . قال ابن عبد الملك ، كان أديباً بارعاً ، محسناً ، شاعراً حُلو الكلام ، مليح التَّنْدير، مبرِّزاً فى نظم الطريقة الهزلية، بلسان عوام الأندلس ، الملقب بالزَّجَل . قلتُ وهذه الطريقة بديعةٌ يتحكَّم فيها ألقاب البديع ، وتَنفَسِخ لكثير مما يضيق سلوكه على الشاعر . وبلغ فيها أبو بكر مَبْلغاً حَجَرَهُ الله عن سواه . فهو آيتُها المعجزة ، وحجَّتها البالغة ، وفارسها العَلَم ، والمُبْتَدَى فيها والمُتَمِّم ، رحمه الله . وقال الفَتْح (٢) فيه : «مبرِّزٌ فى البيان، ومُحرِزٌ السَّبق عند تسابق الأعيان ، اشتمل عليه المتوكل على الله اشتمالا رقَّاه إلى مجالس ، وكساه ملابس ، واقتطع أسمى الرُّتَب وتبوّأها ، ونال أسنى الخُطط وما تملأها » .

شعـــــره

قال الفَتْح ، وقد أثبت له ما يُعلم به رفيع قدره ، ويُعرف كيف أسا الزمن بغدره ، قوله :

ركِبوا السيول (٣) من الخيول وركّبوا   فوق العَوالى السُّمْر زُرْقَ قِطاف
وتجلَّلوا الغُدْران من ماذيهم   مرتجَّة إلا على الأكتاف (٤)

(١) لنا فى خاتمة هذا المجلد تعليق على هذه الترجمة .

(٢) هو الفتح بن خاقان صاحب كتاب «قلائد العقيان» المتوفى سنة ٥٣٥ هـ .

(٣) وردت فى الإسكوريال (الخيول) والتصويب من القلائد .

(٤) وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال كالآتى :(مرتجة إلا على الأكتاف) . والتصويب من « القلائد » .

[وكتب إليه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن أبي الخصال يستدعيه إلى مجلس أُنْس :

أنى أهزُّك هزَّ الصَّارم الخذِم ... وبيننا كلُّ ما تدريه من ذِمَمِ
ذاك شاك من قطع أُنْس أنت واصلُه ... بما لديك من الآداب والحِكم
وشتَّ شملُ كِرام أنت ناظمُه ... ورُدَّ دعوة أهل المجد والكرم
ولو دُعيت إلى أمثالها لسَعتْ ... إليك سعى مَشُوقٍ هائم قَدِم
وإن نشطْتَ لتصريفي صرفتُ له ... وجهى وكنتُ من الأعوان والخَدَم
وما أريد سوى عفوٍ تجود به ... وفى حديثك ما يُشْفى من الألم
أنت المُقَدَّم فى فخرٍ وفى أدب ... فاطلَعْ علينا طلوع السيِّد العَمِم

فأجابه رحمه الله :

أتى من المجد أمرٌ لا مَرَدَّ له ... نمْشى على الرأس فيه لا على القَدَم
لَبَّيك لبيك أضعافا مُضاعفة ... إنى أجَبْتُ ولكن داعى الكَرَم
لى همَّة ولأهل العِزِّ مَطْمَحُها ... لا زلتَ فى كلِّ مَجْد مطمح الهمم
وإن حَقَّك معروف وملتزم ... وكيف يُوجد عندى غيرُ مُلتزِم
زَفْنٌ[(١)] وَرقْصٌ وما أحببتَ من مُلَح ... عندى وأكثر ما تَدْريه من شِيَم
حتى يكون كلامُ الحاضرين بها ... عند الصَّباح وما بالعهد من قِدَم
يا ليلة السَّفح هلاَّ عُدت ثانية ... سقى زمانك هطَّالٌ من الدِّيَم][(٢)]

وقال فى غرض النَّسيب :

يارُبَّ يوم زادنى فيه ... من أطْلَع من غُرَّبه كوكبا
ذو شفَةٍ لَمْياء معسولة ... يَنْشَعُ من خدَّيه ماء الصِّبا

---

(١) زفن أى طرب و رقص .

(٢) الشعر الذى بين الحاصرتين كله ساقطه فى «الزيتونة» .

قلت له وهَبْ لى بها قُبْلَةً　　فقال لى مُبتسما مُرحِّبا
فذقْت شيئا لم أذُقْ مثله　　لله ما أحْلى وما أعْذبا
أسْعَدنى الله بإسعـــاده　　يا شقوَتى يا شقوتى لو أبا

وقال :

جئت لتوديعه وقد ذرفت　　عيناى من حَسْرَةٍ وعيناه
فى موكب البَيْن باكِين ولا　　أصْعَب من موقف وقفناه
معانقاً جيدَه على حذر　　فمن رآنى مُقَبِّلاً فاه
نَغَّص توديعُه لعاشقه　　ما كان من قبل قد تمناه

وقال يعتذر ارتجالا وأحسن ما أراد :

يا أهل ذا المجلس السّامى سَراوتُهُ　　ما مِلت لسكننى مالت بى الرّاح
وإن أكن مُظْعِنا مصباح بيتكم　　فـكلٌّ من فيكمُ فى البيت مصباح

وقال يُهنى بعرس :

صَرَفت إليك وجوهُها الأفراح　　وتـكنَّفتك سعادةٌ ونجـاح
فاقضِ المآرب فى زمان صالح　　لا سُدَّ عنك من الزّمان صلاح
إن كان كالشمس المنيرة حُسْنها　　فالبَدْرُ أنت وما عليك جُناح
لا فرق بينكما لرأيٍ فاستوى　　زىٌّ النساء قلادةٌ ووشـاح
هل يُوقد المصباح عند كما مُهجًا　　وكلا كما بِبَهائه مصبــاح
أحْرَزْتَ يا عبد العزيز محاسنا　　كثُرت فلم تَستَوفها الأمداح
يا من له كفٌّ تجود وأضلعٌ　　مُطوِى على حِفظ الوداد شحاح
ما ألقتْ الحاجات دونى قُفْلها　　إلا ويمن يمينك المِفْتاح
فى كل ما تنحو إليه ملاحةٌ　　وكذاك أفعال المَليح مِلاح][1]

---

(١) الشعر الذى بين الحاصرتين ساقط فى الزيتونة .

ومن حكمه قوله :

كثير المال تَبْذُله فيبقى ... ولا يبقى مع البُخْل القليل
ومن غرسَت يداه ثمار جُودٍ ... ففى ظلٍّ الثناء له مقيل

وقال رحمه الله :

وعهدى بالشَّباب وحُسْنِ قدِّى ... حكى ألفَ ابن مقلة فى الكتاب
فصرت اليوم مُنْحَنيا كأنّى ... أُفَتش فى التّراب على الشباب

وقال رحمه الله :

يُمسك الفارس رُمحاً ... وأنا أمسك فيها قَصَبة(١)
وكلانا بطلٌ فى حرْبه ... إن الأقلام رِماح الكَتَبَة

قال ابن عبد الملك : أنشدت على شيخنا أبى الحسن الرُّعينى ، قال ، أخبرنا الراوية أبو القاسم بن الطَّيلْسان ، قال سألته ، يعنى أبا القاسم أحمد بن أبى بكر هذا ، أن ينشد شيئاً من شعر أبيه المُغْرِب(٢) ، فأخرج لى قطعة بخط أبيه وأنشده . وقال أنشدنى أبى رحمه الله لنفسه :

أحسنُ ما نِيط فى الدُّعا لمن ... رُتِّب فى خُطَّة من الخطط
خلَّصك الله من عَوايقها ... ودُمْتَ فى عِصْمة من الغلط
مُقَرَّباً منك ما تُسَرُّ به ... وكل مكروهة على شَحَط
الكلُّ بالعدل منك مُغْتبط ... وليس فى الناس غيرُ مُغْتبط
وليس يخليك من أنا لكها(٣) ... من عملٍ بالنّجاة مُرْتبط

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (القصبة) .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى الإسكوريال (المعرب) . والأولى أرجح .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى «الزيتونة» (أما لكيها) .

فانفذ بعون الله مُجْتهدا ... بقلب [صَفِيّ بالضمير] (١) مرتبط
يا صاحب الأمر والذي (٢) يدُه ... نايلُها للعُفاة غير بَطِ
رفعتم يا بني رَفاعة ما كان ... من المُلُوّات [فى هَبَط] (٣)
ومنبر الحق من سوّاه بكم ... فها هو الآن غيرُ مُختلط
وانضبط الأمر واستقام لكم ... ولم يكن من قبل ذا بمُنْضَبِط
أتيْتَ فى كل ما أتيتَ به ... فالغيثُ بعد الرجا والقَنَط
جَلَلْت عمّن سِواك منزلةً ... فلستَ مِمّن سِواك فى نَمَط
أنت من المجد والعُلا طرفٌ ... وكلُّهم فى العُلا من الوَسَط

كتابتـه

وقفتُ من ذلك على أفانين. منها فى استهلال شهر رمضان قوله:

سلام على أنس المجتهدين، وراحة المُتَهَجِّدين، وقرّة أعين المهتدين، والذى زَيّن الله به الدُّنيا، وأعزّ به الدين. شرَّف الله به الإسلام، وجعل أيامه رُقوما فى عواتق الأيام. وشهوره غُرَراً فى جِباه الأعلام، وحلَّ به عن رقاب الأمة قَلايد الآثام، ونزّه فيه الأسماع عن المكاره، وصان الأفواه من رَفَثِ الكلام. أشهد أن الله أثنى عليك، وأدخل من شاء الجنّة على يديك، وخصّك من الفضايل بما يمشى فيه التَّفسير حتى يَكلّ ويَسْأم، ذلك اللسان ويملُّ، وأبادت ذنوب الأمة بمثل ما أبادت الشمس الظِّلَّ، ذلك الذى يتهلل للسماء هلاله، ويهتزُّ العرش لجلاله، وترتج الملايكة فى حين إقباله، وتدخل الحُور العين فى زينتها تكريماً، وتلتزم إجْلالَه وتعظيماً، ويهتدى فيه الناس إلى دينهم صراطاً مستقيما، وتُغَلُّ الشياطين على ما

---

(١) هكذا وردت هاتان الكلمتان فى «الزيتونة». وفى الإسكوريال (صافى الضمير).
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال. وفى «الزيتونة» (التى).
(٣) هكذا فى الإسكوريال. وفى «الزيتونة» (منهبط).

خُيِّلت . وتذوق وبال ما كادت به وتخيلت ، ويشمِّر التَّقِيُّ لعبادة ربِّه ذيلا ، وتهبط الملايكة إلى سماء[1] الدنيا ليلا ، وينتظم المُتَّقون فى ديوانه انتظام السِّلك ، ويكون خُلُوف فَم الصايم عند الله أطيب من ريح المسك ، وتفتح الجنَّة أبواباً ، ويُغفر لمن صامه إيماناً واحتساباً ، جزاءً من ربك عطاء حسابا ، وبما فضَّلك الله على سائر الشهور ، وقضى لك بالشَّرف والفضل المشهور . فَرَضَك فى كتابه ، ومدحك فى خطابه ، حيث قال ، شهرُ رمضان الذى أُنْزِل فيه القرآن هُدًى للناس ، وبينات من الهدى والفُرقان ، يعنى تكبيرُ الناس عليك ، وتقليبُ أحداقهم بالنظر إليك ، حين لُثِمت بالسحاب ، ونظرتَ من تحت ذلك النِّقاب ، وقد يمتاز الشَّيْب وأن استتر بالخضاب ، حتى إذا وقف الأيمَّة منك على الصَّحيح ، وصرَّحوا برؤيتك كلَّ التصريح ، نَظَرت كل جماعة فى اجتماعها ، وتأهَّبت القرَّاء لإشفاعها ، واندفعت الأصوات باختلاف أنواعها ، وتضرعت[2] الألباب ، وطلبت المواقف أواخر الأعشار والأحزاب ، وابتديت ألم[3] ذلك الكتاب ، عندما أوقدت قناديل كأنما قد بَدَت من الصباح ، ورقصت رقص النواهد عند هبوب الرياح ، والله نُور السموات والأرض ، مَثَلُ نوره كمِشكاة فيها مصباح ، فأمَّلك المسلمون فى سرٍّ وجهر ، وحُطَّت أثقال السيئات عن كل ظَهْر ، والتُمست الليلةُ التى هى خيرٌ من ألف شهر ، فنشط الصالحون بك صوماً ، وهجر المُتَهجِّدون فى ليلك نوماً ، وأكملْنَاك إن أذن الله ثلاثين يوما . فيا أيها الذى رَحَل ، رحل[4] بعد مُقامة ، وقام للسَّفر من مقامه ، ورأى من قضى حقَّه ، ومن قصَّر فى صيامه ، فمشى الناس إلى تَشْييعه ، وبَكُوا لفراقه وتوديعه ، ونَدِم المُضَيِّع على ما كان من تَضْييعه ، ولم يثق

---

(١) وردت فى الإسكوريال (السماء) والتصويب من «الزيتونة» .

(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى الإسكوريال (واصطرعت) .

(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» والإسكوريال (أ.ل.م) .

(٤) هكذا وردت هذه الكلمة مكررة فى الإسكوريال . ولم تكرر فى الزيتونة .

بدوام العيش إلى وقت رجوعه ، فعضَّ على كفِّه ندماً ، وبكَتْ عينه ماء وكَبِده دماً . رويدا حتى أمرح فى ميدان فِراقك ، وأتضرع إلى حَنانك وإشفاقك ، وأتشفى من تَقْبيلك وعناقك : وأسَلُ منك حاجةً إن أراد الله قضاها ، وشاء نفوذها وإمضاها ، إذا أنت وقفْت لربِّ العالمين ، فَتَقَبلك من قوم ، وردَّك فى وجوه آخرين. إن تُثنى جميلا ، فعسى يصفح لعهده وإن أسا ، فعلِم الله أنى نويت التوبة أولا وآخراً ، وأمُلْت الأداء باطنا وظاهرا ، وكنتَ على ذلك لو هَدى الله قادراً ، وإنما عُلِم ، من تقصير الإنسان ما علِم ، وللمرء ماقُضى عليه به وحُكم ، وإن النفس لأمَّارةٌ بالسُّوء إلا من رَحم ، فإن غَفَر فبطَوْله وإحسانه ، وإن عاقب فبما قدَّمتَ يدُ العبد من عصيانه ، فياوَحْشَةً لهذه الفرقة ، ويا أسفا على بعد الشُّقة ، ويا شدّة(١) ما خلَّفْتَه لنا بفراقك من الجُهْد والمشقة ، ولطالما هَجَر الإنسان بك ذنبه ، وراقب إعظاما لكربه ، وشَرَحْتَ إلى أعمال البرِّ قلبه . ومع هذا أتراك ترجع وتُرى ، أم تُضَمُّ علينا دونك أطباق الثَّرى . فياوَيْلتا إن حل الأجل ، ولم أقضِ دينْك ، ورجَعْت وقد حال الموت بينى وبينك . فأغْرب ، لا جعله الله آخر التوديع ، وأىُّ قلب يستطيع .

وقال فى استهلال شوال :

ولكل مقام مقال . الله أكبر هذا هلالُ شوّال قد طَلَع ، وكر فى منازله وقَطَع ، وغاب أحد عشر شهراً ، ثم رَجَع . مالى أراه رقيق الاستهلال ، خفىّ الهلال ، ورودا تردّد فى مثل الخلال ، ما باله أسى الله رسْمَه ، وصحَّح جسمه ، ورفع فى شهور العام اسمه ، على وجهه صُفْرةٌ بَيِّنة ، ونار إشراقه ليِّنة ، وأرى السحاب تعتمده وتَقِف ، وتغشاه سُوَيْعة وتنصرف ، ما أراه إلاَّ بطُول ذلك المقام ، وتوالى الأهوال العِظام . أصابه مرض فى فصْلٍ من فصول العام ، فعادته كما يُعاد المريض ، وبَكَتْه

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (وياشر) والأولى أرجح .

الأيام الغُرُّ والليالى البِيض ، وقُلْنَ كلأك الله وكفاك ، وحاطك وشفاك ، وقُلْ كيف نجدك ، لافُضَّ فاك ، هذا على الظَّن لا على التحقيق ، ومجازٌ لا يحْكُم التَّصديق . وإنه ليَبْعُدُ مثل هذا المقدار ، أن يَقْدح فيه طول الغَيْب ، وتواتُر الأسفار . أليس هو قد ألِفَ مجالى الرِّياح ، وصَحِب بَرْد الصَّباح ، وشاهد الأهْوِية مع الغَدْو والرَّواح ، وطواها بتجربته طَيَّ الوِشاح . ما ذاك إلا أنَّه رأى الشمس فى بعض الأيام ماشيةً ، والحُسْن يأخذ منها وسَطاً وحاشيةً ، ودلائل شبابها ظاهرةٌ فاشيةٌ ، فوقع منها فى نفسه ما وقع ، وثَبَّت على قلبه من النَّظر ما زرع ، ووقع فى شَرَكها ، وحقَّ له أن يقع . فرَثَتْ هى لحاله وأشفقت ، ونَهَجت بوصالها وتأنَّقت ، وقطعت من معدن نَيْلها وأنفقت ، ورأت أنها له شاكلةٌ يبلغ أمَلَها ، وتبلغ مأمَله ، ولذلك ما مدَّت لذيذ السَّماح ، فتعرَّضت بالعشِيِّ ، وارتصدها فى الصباح ، مع ما أيقنَّا به من الانقطاع ، ويئسنا من الاجتماع ، كما نفَذ القَدَر ، وصدر الخبر.

وقال تعلمن لا الشمس ينبغى لها أن تُدْرِك القمر ، فوَجَد لذلك وجْداً شديداً ، وأذاقه مع الساعات شوقاً جديداً ، وأصبح بها دنفاً ، وأمسى عميداً ، حتى سَلَب ذلك بَهاه ، وأذهب سَناه ، وردَّه النحول كما شاه ، ولقى منها مثل ما لقى غَيْلانُ من ميَّته ، وجميلٌ من بُثَينته ، وحنَّ إليها حنين عُروة إلى عَفْرا ، وموعدها يوم وهَب ناقته الصَّفراء . على رِسْلك أنى وَهَمت ، وحَسِبت ذلك حقّاً وتوهَّمت ، والآن وقد فَطِنت ، وأصبت الفَصَّ فيما ظننت ، إنه لقى رمضان فى إقباله ، وضَمَّه نقْصان هلاله ، وصامه فجأة ولم يكُ فى باله ، فأثَّر ذلك فى وجهه الطَّلْق ، وأضعفه كما فعل بساير الخَلْق ، وها هو قد أقبل من سفره البعيد ، فقُل هو هلال الفِطْر أو قُلْ هو هلال العيد ، فلَقَه صباح مَشِى الناس فيه مَشْى الحَباب ، ولبسوا أفضلَ الثياب ، وبرزوا إلى مُصَلاهم من كل باب ، فارتفعت هِمَّةُ الإسلام ، وشرُفَت أمة محمد عليه السلام ، وخَطَب بالناس ودعا للإمام ، عندما طلعت

الشمس بوجه كدَوْرِ المرآة ، ولونٍ كصفا المهراة . وخرج لا يُنْسيها ريمُ الفلاة . وقضوا السُّنَّة ، وبذلوا الجهد فى ذلك والمِنَّة ، وسألوا من الله أن يُدْخِلهم الجنَّة ، ثم خطبوا حمداً لله وشكراً ، وذكروه كذكرهم آباءهم أو أشدّ ذكراً ، ثم انصرفوا راشدين ، وافترقوا حامدين ، وشبّك الشيخ بيديه ، ونظر الشّاب فى كفَّيه ، ورجعوا على غير الطريق الذى أتوا عليه ، فلقد استَشْفَى من الرُّؤية ذو عينين ، وتذكَّر العاشق موقف البَيْن ، وشقَّ المُتَنَزِّه بين الصَّفين ، فنقل عينيه من الوَشْيِ إلى الدِّيباج ، ووجوهٌ كضوء السِّراج ، وعيونٌ أقْتَل من سيف الحجّاج ، ونظراتٍ لا يُدفع داؤها بالعلاج ، وقد زُيِّنت العيون بالتكحيل ، والشعور بالتَّرجيل ، وكُرِّر السِّواك على مواضع التَّقْبيل ، وطُوِّقت الأعناق بالعقود ، وضُرب الفِكر فى صفحات الخدُود ، ومُدَّ بالغالية على مواضع السجود ، وأقبلت صَنْعا بأوْشيتها ، وعنت بأرديتها ، ودخلت العروس فى حِلْيَتها ، ورُقِّمت الكفوف بالحنّاء ، وأُثني على الحُسْن وهو أحقُّ بالثناء ، وطُلِّقت التَّوبة ثلاثاً بعد البناء ، وغصَّ الذِّراع بالسِّوار ، وتُختِّم فى اليمين واليسار ، وأُمسكت الثياب بأيدى الأبكار ، ومشت الأماء أمام الأحرار ، وتقدمت الدَّايات بالأطفال الصِّغار ، وامتلأت الدُّنيا سروراً ، وانقلب الكلُّ إلى أهله مسروراً . وبينما كانت الحال كما نَصَصْت ، والحكاية كما قَصَصْت ، إذ لألأت الدنيا بَرْقاً ، وامتدَّ مع الأُفُقين غرباً وشرقاً ، وردَّ لمعانه عيون الناظرين زُرْقاً ، ولولا أنه جرَّب حتى يَدْرا ، لقيل قد طلعت مع الشمس شمسٌ أخرى ، حتى أقبل من شَرُفَت العربُ بنسبه ، وفَخَر الإسلام بسببه ، من انتَسَب إلى زَهْرةٍ وقُصَيّ ، وازدانت به آل غالب وآل لؤى ، من إذا ذكر المجد فهو مُمْسك بنَده ، أو الفضل فهو لابسٌ بُرْدَه ، أو الفخر فهو واسِطَةُ عِقْده ، أو الحُسْن فهو نسيج وحده ، الذى رفع لواء العليا ، وعارضت مكارمه صوب[1] الحبا ، وحكت محاسنه زهرة الحياة الدنيا . فأما

(١) أول الكلمة فى المخطوط مختف تحت الحبر ونرجح هذه القراءة .

وجهُه فكما شَرَقت الشمس وأشْرَقت ، وغَرُبت كوا كب سمايها وشَرُقت ، وتفتَّحت أطواق الليل عن غُرر مجده وتشققت . ولولا حياً يغلب عليه ، وخَفَرٌ يصحبه إذا نظرت إليه ، لاستحال النهار ، وغارت لنوره كوا كب الأسحار ، ولكاد سَنا بَرْقه يذهب بالأبصار ، لا يحفل بالصبح إذا انفَلَق ، ولا بالفجر إذا عمّ آفاق الدُّجا وطبّق ، ولو بدا للمسافر فى ليله لطَرَق ، قد عجم الأبنوس على العاج ، وأدار جَفْناً كما عَطَف على أطفالها النِّعاج ، يَضْرب بها ضرب السيف ، ويُلِم بالفؤاد إلمام الطَّيف ، ويتلقَّاها السَّحَر تلقِّى الكريم للضيف ، لو جرَّدها على الرَّيْم لوقف ، أو على فِرْعون ما صرف من سِحْره ما صرف ، أو على بِسْطام ابن قَيْس لألقى سِلاحه وانصرف . وأما أدواته فكما انشقّت الأرض عن نباتها ، وأخذت زُخْرُفها فى إنباتها ، ونَفَح عَرف النَّسيم فى جَنَباتها ، يتفنَّن أفانين الزهر ، ويتقلب تقلُّب الدهر ، وتطْلعُ له نوادر كالنجوم الزهر ، لو أبصره مُطَرِّف ما شهر بخطِّه ، ولا جرَّ من العُجْب ذيل مِرْطِه ، ولا كان المخبر معه من شَرْطه . وأما أنه لو قُرى على سحبان كتابَه ، وانحدر على نهره عُبابه ، وملأت مسامعه أطنابه وأسبابه ، ما قام فى بيانه ولا قعد ، ولنزل عن مَقامه الذى إليه صَعد ، ولا خَلّف من بلاغته ما وعد . لعَمْرُك ما كان بِشْر بن المعتمر يتفنَّن للبلاغة فنوناً ، ولا يتقبَّلها بطوناً ومُتوناً ، ولا أبو العتاهية ليُشْرِطَها كلاماً موزوناً ، ولا نمَّق الحسَنُ بن سهل الألفاظ ، ولا رَفَع قسٌّ بن ساعدة صوتَه بعُكاظ ، ولا أغاظ زيدُ بن على ، هشاماً بما أغاظ . وأما مكارمه فكما انسكب الغيث عن ظِلاله وخرج الوَدْقُ من غِلاله ، فتدارك النِّعمة عن فوتها ، وأحيا الأرض بعد مَوْتها ، ذلك الشريف الأجلُّ ، الوزير الأفضل ، أبو طالب ابن القُرشى الزُّهرى ، أدام الله اعتزازه ، كما رَقَم فى حُلَل الفخر طِرازه ، فاجتمعت به السيادة بعد افتراقها ، وأشرق وجه الأرض لإشراقها ، والتفَّت الثياب

بالشباب ، وضمُّ الرَّكاب بالرَّكاب ، ولاعهدٌ كأيام الشباب ، فوصل القريب البعيد ، وهنوه كما جرت العادة بالعيد ، فوقف مع رِكابه وسَلّمت،وجرت كلاماً وبه تـكَلَّمت ، فقلت تقبَّل الله سعيك ، وزكَّى عملك ، وبلَّغك فيما توده أمَلَك ، ولا تأملتَ وجهًا من السُّرور إلا تأمَّلك ، ونفَعك بمـا أوليت ، وأجزل حظَّك على ما صُمْت وصَلَّيت ، ووافقَتْك لعلٌ وساعدتك لَيْت ، وهنّاك عيد الفطر وهنّأته ، وبداك بالمسرات وبدأته ، وتبرأ لك الدهر مما تحسد وبرَّأته . وهكذا يحول الله أعيادٌ واعتياد ، وعمرٌ فى دوام ، وعزٌ فى ازدياد،والسُّنة تفصح بفضلك إفصاح الخطباء من إياد ، وأقرأ عليك سلام الله ما أشرق الضُّحا ، ودام الفِطْر والأضحى[١] .

دخوله غرناطة

دخل غرناطة، وتردَّد إليها غير ما مرة ، وأقام بها ؛ وامتدح ابن أضحى[٢] وابن هانى ، وابن سعيد وغيرهم من أهلها . قال ابن سعيد فى « طالعه»[٣] ، وقد وصف وصول ابن قزمان إلى غرناطة ، واجتماعه بجنَّته بقرية الزاوية[٤] من خارجها، بمَنْزِهون القليعية الأديبة ، وما جرى بينهما ، وأنها قالت له بعقب ارتجال بديع ، وكان لبس غِفارة صفراء ، أحسنت يا بقرة بنى إسرائيل ، إلا أنَّك لا تَسُرُّ النَّاظرين ، فقال لها إن لم أسُر النَّاظرين ، فأنا أسُرُّ السامعين،وإنما يُطلب سرور

---

(١) وردت هذه الرسالة التى قيلت فى شوال ، فى مخطوط الإسكوريال فقط،(لوحة٥٧–٥٩) ولم ترد فى «الزيتونة» .

(٢) هو أبو الحسن على بن عمر بن أضحى ، وهو أحد ثوار الأندلس ، فى أواخر عهد المرابطين . وقد ثار بغرناطة فى سنة ٥٣٩ ﻫ ولكنه لم يستطع الصمود ضدهم ، فاعتصم بالقصبة وتوفى سنة ٥٤٠ ﻫ (١١٤٥م) .

(٣) سبق التعريف بابن سعيد، و«طالعه» أى كتابه (الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد) .

(٤) الزاوية هى قرية صغيرة تقع على مقربة من غرناطة . وبالإسبانية La Zubia

الناظرين منك، يا فاعلة ياصانعة . وتمكن السُّكر من ابن قزمان، وآل الأمر إلى أن تدافعوا معه حتى رموه فى البركة، فما خرج منها إلا وثيابه تقطر، وقد شرب كثيراً من الماء، فقال إسمع ياوزير ثم أنشد :

إيه أبا بكر ولا حَوْل لى   بدفع أعْيان وأنْذال
وذات جُرْحٍ واسع دافق   بالماء يحكى حال أذيال
غرَّقتنى فى الماء يا سيدى   كَفِّرْه بالتغريق فى المال

فأمر بتجريده، وخلع عليه ما يليق به [ولم يعر] [١] لهم بعد عهدهم بمثله .

ولم ينتقل ابن قزمان من غرناطة، إلا بعد ما أُجزل له من الإحسان، ومدحه بما هو فى ديوان أزجاله .

محنته

جرَت عليه بابن حَمْدين [٢] محنة كبيرة، عظُم لها نكاله، بسبب شَكاسَةِ أخلاق كان موصوفا بها، وحدَّةٍ شَقِى سببها . وقد ألمّ الفتح فى قلايده بذلك، واختلّت حاله بآخرة، واحتاج بعد انفصال أمر مخدومه الذى نوَّه به .

توفى بقرطبة لليلة بقيت من رمضان سنة خمس وخمسين وخمسماية، والأمير ابن سعد يحاصر قرطبة . رحمه الله .

محمد بن غالب الرُّصافى

يكنى أبا عبد الله، بلنسى الأصل، سكن غرناطة مدة، ثم مالقة

---

(١) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى الإسكوريال (ومر) والأولى أرجح وبها يستقيم المعنى .

(٢) هو القاضى أبو جعفر بن حمدين قاضى قرطبة . ثار بقرطبة عندما ضعف أمر المرابطين فى سنة ٥٣٩ هـ، وأعلن نفسه أميراً عليها واستمرت رياسته بها نحو عام . ثم تغلب عليه ابن غانية قائد المرابطين . وجرت له بعد ذلك خطوب لم يتمكن خلالها من استرداد رياسته . وتوفى سنة ٥٤٦ هـ .

حـــاله

قال الأستاذ[١] ، كان فحلا من فحول الشعراء ، ورئيسا فى الأدباء ، عفيفا ، ساكنا ، وقورا ، ذا سَمْت وعقل . وقال القاضى[٢] : كان شاعرا مُجيدا ، رقيق الغزل، سلس الطبع، بارع التَّشبيهات، بديع الاستعارات ، نبيل المقاصد والأغراض، كاتباً بليغاً ، ديِّنا ، وقورا ، عفيفاً ، متفقها ، عالى الهمة ، حسن الخَلْق والخُلق والسَّمت ، تام العقل، مُقْبلا على مايعنيه من التَّعيش بصناعة الرَّفى[٣] التى كان يعالجها بيده، لم يَبْتَذل نفسه فى خدمة ، ولا تعرض لانتجاع بقافية ، خلا وقت سُكناه بغرناطة ، فإنه امتدح واليها حينئذ ، ثم نَزَع عن ذلك ، راضيا بالخمول حالاً ، والقناعة مالاً ، على شدة الرغبة فيه ، واغتنام ما يصدر عنه .

أخبار عقله وسكونه

قال الفقيه أبو الحسن شاكر بن الفخّار المالقى ، وكان خبيراً بأحوالة : ما رأيت عمرى رجلا أحسن سَمْتا ، وأطول صَمْتا ، من أبى عبد الله الرصافى . وقال غيره من أصحابه ، كان رفاء ، فما سمع له أحد من جيرانه كلمة فى أحد . وقال أبو عمرو ابن سالم ، كان صاحباً لأبى ، ولقيته غير ما مرة ، وكان له موضع يخرج إليه فى فصل العصير ، فكنت أجتاز عليه مع أبى فألثم يده ، فربما قبّل رأسى ، ودعا لى ، وكان أبى يَسَلْه الدعاء فيخجل ، ويقول أنا والله أصغر من ذلك . قال ، وكان بإزايه أبو جعفر البَلَنْسى . وكان مُتوقِّد الخاطر ، فربما تكلم مع أحد التجار ، فكان منه هفوة ، فيقول له جلساؤه ، شتان والله بينك وبين أبى عبيد الله فى العقل والصمت ، فربما طالبه بأشياء ليجاوبه عليها ، فما يزيد على التبسم .

---

(١) الأستاذ هنا ، يعنى الأستاذ أبو جعفر بن الزبير صاحب كتاب (صلة الصلة) .

(٢) القاضى يقصد بها هنا ، القاضى ابن عبد الملك المراكشى صاحب «الذيل والتكملة» .

(٣) هكذا وردت فى «الزيتونة» . وفى الإسكوريال (الرفو) .

فلما كان أحد الأيام، جاء البلنسي ليفتح دكانه. فتعمد إلقاء الغلق من يده، فوقع على رأس أبي عبد الله ، وهو مقبل على شغله، فسال دمه، فما زاد على أن قام ومَسَح الدم ، ثم ربط رأسه، وعاد إلى شغله . فلما رأى ذلك منه أبو جعفر ترامى عليه ، وجعل يُقَبِّل يديه ، ويقول ، والله ما سمعت برجل أصبر منك ، ولا أعقل .

شعره

وشعره لا نهاية فوقه رونقا ومائية، وحلاوة وطلاوة، ورقّة ديباجة، وتمكّن ألفاظ ، وتأصُّل معنى . وكان رحمه الله ، قد خرج صغيرا من وطنه، فكان أبداً يكثر الحنين إليه ، ويقْصر أكثر منظومه عليه . ومحاسنه كثيرة فيه ، فمن ذلك قوله :

خليلى ما لليد قد عَبِقت نَشْرا ... ومالرؤوس الرَّكب قد رجحت سُكرا
هل المسْك مفْتُوتاً بمدرجة الصَّبا ... أم القوم أجْرُوا من بلنسيةٍ ذِكْرا
خليليَّ عُوجا بي قليلا فإنه حديثٌ ... كبَرْد الماء فى الكَبِد الحَرَّا
قِفا غيرَ مأمورين ولتَتَصَدّيا ... على ثقةٍ للمُزْن فاستَسْقِيا القطرا
بجسر مَعان والرُّصافة إنّه على القَطْر ... أن يسقى الرُّصافة والجسرا
بلادى التى رِيشَت قُوَيْدُ متى بها ... فريخاً وأورثتْنى قرارتُها وَكْرا
فبادى أنيق العَيْش فى ريق الصِّبا ... أبى الله أن أنسى اغترارى بها غُرَّا
لبسنا بها ثوب الشباب لباسها ... ولكن عُرينا من حُلاه ولم تعْرا
أمنزلَنا عصر الشبيبة ما الذى ... طوَى دوننا تلك الشبيبة والعصْرا
محلٌّ أغرُّ العهد لم نُبد ذكره ... على كَبدٍ إلا امْتَرى أدْمُعا حُمْرا
أكلُّ مكان كان فى الأرض مَسْقطاً ... لرأس الفتى يهواه ما عاش مُضْطرا
ولا مثل مَدْحُوٍّ من المسك تُربةً ... تملى الصَّبا فيه حيقتها عِطرا

نباتٌ كأن الخدَّ يحمل نوره ... تخال لُجيناً فى أعاليه أو تِبْرا
وما كترصيع المجـرّة جَلَّت ... نواصيَه الأزهار واشتبكت زُهْرا
أنيقٌ كريّان الحياة التى خلَت ... طليقٌ كرَيْعان الشَّباب الذى مرّا
وقالوا هل الفردوس ما قد وصفتَه ... فقلت وما الفردوس فى الجنّة الأُخرا
بلنسْية تلك الزُّمـردة التى ... تَسيل عليها كل لؤلؤة نَهْرا
كأنّ عروساً أبدع الله حُسْنها ... فصيَّر من شَرْخ الشَّباب لها عُمرا
يزيد منها شَعْشَعـانية الضُّحى ... مضاحكةُ الشمس البُحَيرة والبَحْرا
تُراجم أنفاس الرياح بزَهْرها ... نجوماً فلا شيطان يُغرَّبها ذعرا
وإن كان قد مُدَّت يدُ البَيْن بيننـا ... من الأرض ما يَهْوى الُمجِدُّ به شَهْرا
هى الدُّرة البيضاء من حيث جِدَّتها ... أضاءت ومن للدُّر أن يشبه الدُّرا
خليلى أن أصْدر لها فإنهـا ... هى الوطن المحبوب أوكَلْتَه الصَّدرا
ولم أطْوِعنها الخطْو هجراً لها إذاً ... فلا لَثَمت نَعْلى مساكنها الخضْرا
ولـكن إجلالاً لتُرْبتهـا التى ... تضُمُّ فتاها النَّدْب أو كهْلَها الحرَّا
أكارمُ عاث الدهر ما شاء فيهم ... فبادت لياليهم فهل أشتـكى الدهرا
هجوعٌ ببطن وأرضٌ قد ضرّب الرَّدى عليهم قُبيبات فُويق الثَّرى غُبْرا
تقَضَّوا فمن نجم سالكٍ سـاقطٍ ... أبى الله أن يرعى السِّماك أو النَّسْرا
ومَنْ سابق هذا إذا شا غايةً شا ... وغير محمود جياد العلى حُضْرا
أناسٌ إذا لاقيت من شِيت منهم ... تلقَّوك لا غثٌّ الحديث ولا غِمْرا
وقد دَرَجت أعمارهم فتطلَّعـوا ... هلال ثلاث لو شفا رَقَّ أو بَدْرا
ثلاثة أمجاد من النفَر الأُلى ... زكَوا خبراً بين الورى وزكوا خُبْرا
ثَـكِلْتهم ثَـكْلاً دَهَى العين والحشَى ... فعَبْر ذا أمَّا وسَجْر ذا جمـرَا
كفى حزَنا أنى تباعدت عنهـم ... فلم ألق من سَرّى منها ولا سُرا

وإلى متى أسْلُ بهم كلَّ راكب   ليُظهــر لى خَيْراً تأبط لى شرا
أباحثه عن صالحاتٍ عَهِدتُها هناك   فيُشْبِى بما يَقصِم الظَّهــرا
مُحيّا خليلٍ غاض ماء حيــاته   وساكنُ قصرٍ أضرَّ مسكنُه القَبْرا
وأزْهَرَ كالإصباح قد كنت أجْتلى   سناءً كما يستقبل الأرِقُ الفَجْـرا
فتىً لم يكن خِلْوُ الصِّفات من النّدى   ولم يتناس الجود أصْرَم أم أثرا
يَصْرف ما بين اليراعة والقنــا   أنامِلَه لا بل هَواطله الغُرَّا
طويلُ نجادِ السيف لانَ كأنمــا   تخطَّى به فى البرد خَطِّيّة سمرا
سقَتْهُ على ما فيك من أريحيــة   خلايقُ هنَّ الخمرُ أو تشبه الخمرا
ونَشْرُ محيا للمكارم لو سَرَت   حُمياه فى وجه الأصيل لما اصفرّا
[هل السعد إلا حيث حط صعيده   لمن بلَّ فى شَفْرى ضريح له شَفْرا
طَوَيْنَ الليالى طيَّهن وإنمــا   طوَين عنى التَّجــلد والصَّبرا
فلا حُرِمت سقياه أدمعُ مُزْنَةٍ   ترى مَبْسم النّوار عَنْبر مُعْتَرَّا
وما دعوتى للمُزْن عُذْراً لدعوتى   إذا ما جعَلْتَ البُعد عن قُربه عذرا](١)

وقال يرثى أبا محمد بن أبى العباس بمالقة :

أبنِى البلاغة فيم حفلُ النادى   هَبْها عُكاظ فأين قِسُّ أياد
أما البيان فقد أجرَّ لسانه   فيكم بفتْكته الحِمام العاد
عرَشت سمــا عُلايكم ما أنتم   من بَعْد ذلكم الشَّهاب الهادى
حُطُّوا على عُمُدالطريق فقدخبَت   لآلئُ ذاك الكوكب الوقّاد
ما فُلَّ لهزمه الصَّقيل وإنمــا   نُثرت كعوب قنـاكم المناد
إيه عميد الحىِّ غير مُــدافع   إيه فِدى لك غابر الأمجـاد
ما عذر سِلْكٍ كنت عِقْد نظامه   إن لم يَصِرْ بُرْداً إلى الأباد

(١) الأبيات المحصورة بين الحاصرتين ، واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى «الزيتونة» .

حيث الزمان عليك ثكلاً أن يرى ... من طول ليل فى قميص حِداد
يُومى بأنجُمِه لما قلّدته ... من درٍّ ألفاظ وبيض أياد
كشفُ الحجاب فما ترى مُتفضلا ... فى ساعة تُصغى به وتُنادِ
ألمِم بربْعك غير مأمورٍ فقد ... غُصّ الفنا بأرجُل القُصّاد
خبراً يُبلّغه إليك ودونه ... أمن العُداة وراحة الحُسّاد
قد طأطأ الجَبَلُ المنيف قذاله ... للجار بعدك واقشعرّ الواد
أعِد التفاتك نحونا وأظنه ... مِثل الحديث لديك غيرُ معاد
وامسح لنا عن مُقلتيك من الكَرى ... نوماً تكابد من بُكى وسُهاد
هذا الصباح ولا تهُب إلى ... متى طال الرُّقاد ولات حين رقاد
وكأنما قال الرَّدى نَمْ وادعاً ... سَبَقت إلى البُشرى بحُسْن معاد
أمُوَسَّداً تلك الرخام بمرقد ... أخشِن به من مرقد ووِساد
خَصِبَت بقَدْرك حفرةٌ فكأنها ... من جوفها فى مِثل حرف الصّاد
وثَّر لجنبك من أثاث مُخَيَّم ... تُرْب ندٌ وصفايح أنضاد
يا ظاعناً رِكَبَ السُّرى فى ليلةٍ ... طار الدليلُ بها وحاد الحاد
أعزز علينا أن حَطَطْت بمنزل ... تَبِلٌ عن الزُّوار والعُوّاد
جار الأفراد هنالك جيرةً ... سُقْياً لتلك الجيرة الأفراد
الساكنين إلى المعاد قِبابهم ... منشورةُ الأطناب والأعماد
من كل مُلْقية الجراب بمَضْرِب ... ناب البِلَى فيه عن الأوتاد
بمُعَرَّس السَّفر الألى ركبوا ... السُّرى مجهولة الغايات والآماد
سِيّان فيهم ليلةٌ ونهارُها ... ما أشبه التَّأويب بالإسئاد
لِحَق البطون من اللّعب على الطّوى ... وعلى الرّواحل عُنفوان الزاد
لله هم فلشدّ ما نَفَضوا من ... أمتعة الحياة فى حقايب الأجساد

يا ليت شعرى والمُنا لكَ جنَّة　　والحال مؤذنةٌ بِطول بُعاد
هل للعُلا بك بَعْدَها من نهضة　　أم لانقِضاء نَوَاك من ميعاد
بأبى وقد ساروا بنعْشِك صارمٌ　　كثُرَت حمايِله على الأكتاد
ذُلَّت عوانق حامليك فإنهم　　شامُوك فى غِمْدٍ بغير نجاد
نعم الذَّما البرُّ ما قد غوَّروا　　جُثمانه بالأبرق المُنْقاد
عَلَيا خُصّ بها الضريح وإنما　　نعم الغُوَير بأبؤس الأنجاد
أبنى العباس أىُّ حلاحل　　سَلَبَتْكم الدُّنيا وأىُّ مَصَاد
هل كان إلاّ العَين وافق سهمها　　قدَراً فأقصَد أيُّما إقصاد
أخلِلْ بمجد لا يُسَدّ مكانه　　بالإخوة النُّجباء والأولاد
ولِكَمْ يُرى بك من هضاب لم يكن　　لولاك غيرُ دَكادك ووِهاد
ما زلت تُنْعشها بسَيبِك قابضاً　　منها على الأضباع والأعضاد
حتى أراك أبا محمد الرَّدى　　كيف انهِداد بَواذِخ الأطْواد
يا حرَّها من جَمْرَةٍ مَشْبُوبةٍ　　يلقى لها الأيدى على الأكتاد
كيف العزاء وإنها لرَزِيَّة　　خرج الأسى فيها عن المُعتاد
صدع النُّعاة بها فقلتُ لمَدْمَعى　　كيف انسِكابُك يا أبا الجواد
لك من دَمِى ماشِيت غير مُنَهْنَهٍ　　صب كيف شِيت مُعصفر الأبراد
بقُصَير مجتهد وحَسْبُك غاية　　لو قد بلَغْت بها كبير مُراد
أما الدموع فهى أضعفُ ناصرٍ　　لكنّهن كثيرةُ التَّعداد
ثُم السَّلام ولا أغبَّ قراره　　وأرتْك صوب روايح وغَواد
تُسقيك ما سَفَحت عليك يراعة　　فى خدِّ قرطاس دموعُ مِداد

ومن غرامياته وإخوانياته قوله من قصيدة:

عاد الحديثُ إلى ما جرَّ أطْيَبه　　والشيء يبعث ذِكْر الشيء عن سبب

إيه عن الـكُدْية البيضاء إنّ لها ... هوًى يغلب أخيك الواله الوَصِب
راوِح بها السّهل من أكنافها ... وأرِح رِكابنا ليْلنا هذا من التعب
وانضح نواحيها من مُقْلتيك وسَلْ ... من الـكثيب الـكريم المهد في الـكُثب
وقل لسَرْحَته يا سرحة كرُمت ... على أبي عامر عُزّى عن السُّحب
يا عذبة الماء والظل انْعَمي ... طفلا حُيِّيتِ مُمْسِية ميّادة الغضب
ما ذا على ظِلّكِ الألْمَى وقد قلَصَت ... أفياؤهُ لو ضَفَى شيأً لمغترب
الله في رمقٍ من جارك الجَنِب ... أهكذا تنقضي نَفْسي لديك ظمأ
لولاك يا سَرْحُ لم يبق الفلا عَطِلا ... من السُّرى والدُّجا خفاقةُ الطُّنُب
ولم نَبِت نتقاضى من مدامعنا ... دَيْناً لتُرْبك من رِقْراقها السّرِب
إنّا إذا ما تصدّى من هوى طَلَلٍ ... عُجْنا عليه فحيّيناه عن كَثَب
مُسْتَعطفين سَخيّات الشئون له ... حتى يحاك عليه مُوَشّى العُشب
سَلي خُمَيلتك الرَّيا بأية ما ... كانت تَرُفُّ بها ريحانة الأدب
عن فِتْيَة نزلوا على سَرَارتها ... عفَت محاسنهم إلاّ مِن الـكُتُب
محافظين على العَلْيا وربّما ... هزّوا السجايا قليلا بابنة العِنب
حتى إذا ما قضوا من كأسها وطراً ... وضاحكوها لدى جِدٌّ من الطّرب
راحوا رواحاً وقد ريدت عَمايمهم ... حُلُماً ودارت على أسْنَى من الشُّهب
لا يظهر الشكر حالا في ذوايبهم ... الا التفات الصبا في السُّن الهَذَب
الْمُنْزِلين القوافي من معاقلها ... والخاضِعين لديها شَوْكة العرب][1]

ومن مقطوعاته قوله :

دعاك خليل والأصيـــل كأنه ... عليلٌ يقضي مدة الزمن الباق
إلى شط مُنْساب كأنك ماؤه ... صَفَاً ضميراً وعذوبةَ أخـــلاق

(١) هذه القصيدة واردة في الإسكوريال ، وساقطة في «الزيتونة» .

ومَهْوى جَناح للصَّبا يمسح الرُّبا ... خَفِيٌّ الخوافى والقوادم خفّاق
وفتيانُ صدقٍ كالنجوم تألّفوا ... على النَّأى من شتَّى بروج وآفاق
على حين راح البرق فى الجو مُغمِداً ... ظُباه ودمع المُزْن فى جَفْنه راق
وجالت بعينى فى الرياض التفاتةٌ ... حَبَسْتُ بها كأسى قليلا عن السّاق
على سَطْر خيرى ذكرتك فانثنى ... يميلُ بأعناقٍ ويَرْنُو بأحداق
وقِفْ وقفَةَ المحبوب منه فإنها ... شمايل مَشْغوفٍ بمرآك مُشْتاق
وصِلْ زهرات منه صفْر كأنها ... وقد خَضِبت قَطْراً محاجر عشّاق

وقال وكلفها فى حايك [وهو بديع][(١)] .

قالوا وقد أكثروا فى حبه عَذَلُ ... لو لم تهم بمُزال القَدْر مُبتذل
فقلت لو انّ أمرى فى الصَّبابة لى ... لاخترت ذاك ولكن ليس ذلك لِ
فى كل قلب عزيزات مُذَلَّلة للحُسْن ... والحُسْنُ مَلِكٌ حيث جلّ وَلِ
علقته حبيبىٌّ الثغر عاطرُه ... درّى لون المُحَيّا أحْوَرُ المُقَل
إذا تأملته أعطاك ملتفتاً ... ما شِيت من لحظات الشّادن الوَجِل
هيهات أبغى به من غيره بدَلا ... أخرى الليالى وهل فى الغير من بدل
غُزَيل لم تزل فى الغَزْل جايلةٌ ... بنانُه جَوَلان الفِكر فى الغَزَل
جذلان تلعب بالمحراك أنمله ... على السَّدى لَعِب الأيام بالأمل
ما أن يَنِي تعب الأطراف مشتغلا ... أفديه من تعب الأطراف مشتغل
ضَرْباً بكفّيه أو فحصاً بأخمصه ... تخَبُّط الظَّبى فى أشراك مُحْتبل

وقال :

ومهفهفٌ كالغصن إلاّ أنه ... سلب التثنى النوم عن أثنايه
أضحى ينام وقد تحدّد[(٢)] خدُّه ... عرقاً فقلت الورد رُشّ بمايه

(١) هاتان الكلمتان واردتان فى الإسكوريال ، وساقطتان فى «الزيتونة» .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى المعجب (تحبب) .

وقال :

أدِرْها فالغمامة قـــد أجالت سيوف البَرْق فى لِمَم البطاح
وراق الروضُ طاووساً بهيّاً تهبُّ عليه أنفاس الرياح
تقول وقد ثنى قُزَحٌ عليـــه ثياب الغَيْم مُعْلمة النـــواح
خذوا للصحو أهبتكم فإنى أعرتُ للمُزْن قادِمَتى جَناح

وقال :

أدِرْها على أمر فما ثم من بأس وإن جدّدت آذانها ورقُ الآس
وما هى إلا ضاحكات غمائم لواعبُ من ومْض البروق بمقياس
ووفد رياح زَعْزَع النَّهر مدة كما وطيت دِرْعاً سنابك أفراس

وقال فى وصف مغن مُحسن :

ومُطارح مما تجس بنـــانه صوتاً أفاض عليه ماء وقاره
يُثنى الحمام فلا يروح لوكره طرباً وورق بنيه فى منقاره

وقال يصف جدول ماء عليه سَرْحة ، ولها حكاية معروفة :

ومُهَدَّل الشَّطين تحسب أنه مُتَسَيِّل(١) من درةٍ لصفايه
فاءت عليه مع العَشِيَّة(٢) سرحة صدئت لفيئتها صفيحةُ مايه
فتراه أزرق فى غِلالة سُمْرةٍ كالدَّارع استلقى بظلّ لوايه(٣)

نـــثره

قال من مقامة يصف القلم :

قصير كالأنابيب لـكنه يطول مضاً طوال الرِّماح
إذا عبَّ للنفس فى دامِسٍ ودبَّ من الطِّرس فوق الصفاح
تجلّت به مُشكلات الأمور ولان له الصعب بعد الجماح

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى المعجب (متسايل) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى المعجب (المجيرة) .
(٣) هذا البيت ساقط فى الزيتونة .

فلولا هو[١] لغَدَت أغصان الاكتساب ذاوية[٢]، وبيوت الأموال خاوية، وأسرعت إليها البوسى،وأصبحت كفؤاد أمّ موسى، فهو لا محالة تَجرُها الأربع، وميزانها الأرجح. به تُدِرُّ ألبانها، وتثمر أفنانها، وتستمر أفضالُها وإحسانُها، وهو رأس مالها؛وقطبُ عُمّالها وأعمالها. وصاحب القلم قد حوى المملكة بأسرها، وتحكّم في طَيِّها ونَشْرها، وهو قُطْب مدارها،وجُهَيْنَة أخبارها، وسرُّ اختيارها واختبارها، ومظهر مجدها وفخارها، يعقد الرَّايات لكل والٍ، ويمنحهم من المبَرة كلَّ صافية المقيل، ضافية السِّربال، يُطفى جَمرة [الحربِ][٣] العَوان، ويكايد العَدُوَّ بلا صارم ولا سِنان، يَقُدُّ المفاصل، ويتخلل الأباطح والمعاقل، ويقمع الحواسد والعواذل.

وفاته: توفى بمالقة يوم الثلاثاء لإحدى عشرة بقيت من رمضان سنة اثنين وسبعين وخمسماية. وقبره مشهور بها.

محمد بن قاسم بن أبى بكر القرشى المالقى

من أهل مالقة، وسكن غرناطة وتردد إليها

حـــاله

كان لبيبا لوذعيا، جامعاً لخصال، من خطٍّ بارع وكتابة، ونظم، وشطرنج، إلى نادرٍ حار، وخاطر ذكى، وجُرأة. توجه إلى العُدْوة، وارتَسَم بها طبيبا، وتولى النظر على المارِسْتان بفاس فى ربيع الثانى من عام أربعة وخمسين وسبعمائة

شعــره

أنشدنى بمدينة فاس عام ستة وخمسين، فى وُجْهتى رسولا إلى المغرب، قوله فى رجل يقطع فى الكاغد:

(١) هكذا فى الإسكوريال «والزيتونة». وهى مقابل الرسم الحديث (فلولاه).
(٢) هكذا وردت فى «الزيتونة». وفى الإسكوريال (خاوية) وهو تحريف.
(٣) هذه الكلمة واردة فى «الزيتونة» وساقطة فى الإسكوريال.

أبا على حُسَينــــا أين الوفا منك أينا
قد بيّن الدمعُ وجدى وأنت تزداد بَيْنا
بلّت لحاظك قلبى تا لله ما قلتُ مينا
قط المقص لهذا سبب الصَّب مينا
بقيت تفتر حُسْنا ودمتَ تزداد زَيْنا

وقال أيضاً :

فَضْلُ التجارات باد فى الصناعات لولا الذى هو فيها هاجرُ عات
حاز الجمال فأعيانى وأعجزنى وإن دعيت بوصّاف ونعّات

وكان شديد المغالطة، ذاهباً أقصى مذاهب القِحة، يحرك من لا يتحرك، ويُغضب من لا يغضب. عتَب يوما جدّته على طعام طبختة له، ولم يستَطِبْه، وكان بين يديه [القِط] يصدعه بصياح طابه، فقال له ضجرا، خمسمائة سوط، فقالت له جدّته لم تعط هذه السياط للقط، إنما عنَيْتَنى بها، وأعطيتها باسم القط، فقال لها حاش لله يا مولاتى، وبهذا البخل تدرينى أو الزحام عليها، بل ذلك للقط حلالا طيباً، ولك أنت ألف من طِيبَة قَلْب، فأرسلها مثلا، ومازلنا نتفكه بذلك، وكان فى هذا الباب لا يُشَق غباره.

مولده : بمالقة عام ثلاثة وسبع ماية.

وفاته: بعث إلىّ الفقيه أبو عبد الله الشديد، يعرفنى أنه توفى فى أواسط عام سبعة وخمسين وسبعمائة.

محمد بن سليمان بن القصيره

أبو بكر، كاتب الدولة اللّمتونية، وعَلَمُ وقته.

حـاله

قال ابن الصيرفى[١] الوزير الكاتب ، الناظم ، الناثر ، القايم بعمود الكتابة، والحامل للواء البلاغة ، والسابق الذى لا يُشَق غباره ، ولا تخمد أبداً أنواره . اجتمع له براعة النثر ، وجَزالة النظم ، رقيق النَّسيج ، حَصيف المَتنْ ، رُقعته ماشيت فى العين واليد . قال ابن عبد الملك ، وكان كاتبا مجيدا ، بارع الخطّ ، كتب عن يوسف بن تاشُفين .

مشيختـه

روى عن أبى الحجاج الأعلم ، وأبى الحسن بن شُرَيح ، وروى عنه أبو الوليد هشام بن يوسف بن الملجوم ، لقِيه بمرّاكُش .

شعـره

وهو عندى فى نمط دون ما وُصف به . فمن ذلك قوله من قصيدة أنحى فيها على ابن ذى النُّون ، ومدح ابن عباد ، عند خلع ابن جَهْوَر ، أبى الوليد، وتَصيير قرطبة إليه :

فسَلْ عنه أحشاء ابن ذى النون هل سَرَى ... إليها سكون منذ زلزلها الذُّعر
وهل قَدَرت مذ أوْحشَته طلايعُ ... الظهور عليه أن تؤْنسه الخمر
[ألم يَجْن يحيي من تعاطيك ظلّه ... سَجا لك هيهات الشُّهى منك يا بَدْر
لجاراك واستَوْفَيْت أبْعَد غاية ... وآخره عن شأوك الكف والعثر
فأحرزتَ فَضْل السَّبق عفواً وكفُّه ... على رَغمه مما توهمّه صِفْر
وياشدّ ما أغرته قرطبةٌ وقد ... أبْشرتها خَيْلُنا فكان لك الدُّر][٢]

(١) ابن الصيرفى ، مؤرخ الدولة المرابطية . سبق التعريف به .
(٢) الأبيات الأربعة التى بين الحاصرتين ساقطة فى «الزيتونة» .

ومنها :

[أتتك وقد أزرَى ببهجة حُسْنها ولا لأنها من جوْر مالكها طِمْر
فألبستها من سابغ العدل حلَّة زهاها بها تيهٌ وغازلها كِبْر
وجاءتك متفالا فضمَّخ جيبها وازدانها من ذكرك المعتلى عطار
وأجريت ماء الجود فى عرَصاتها فروَّض حتى كاد أن يورُق الصَّخرُ
وطاب هوا أفقِها فكأنها تهبُّ نسيماً فيه أخلاقُك الزُّهر
وما أدْرَكتهم فى هواك هوادةٌ وما أئتمروا إلاَّ لِما أمر البرُّ
وما قلدوك لأمرٍ إلا لواجب جئتَه فيه المُجرِّبُ والغَمْرُ
وبوّأهم فى ذِروة المجد معْقِلا حرامٌ على الأيام إلمامه حَجَر
وأوردهم من فَضْل سَيْبك مورداً على كثرة الوارد مشرعه غَمْرُ
فلولاك لم تُفْصل عُرى الإصْر عنهم ولا انفكَّ من رِبْق الأذى لهم أسْرُ
أعَدْتَ نهار ليلهم ولطالما أراهم نجوم الليل فى أفقه الظهر
ولا زلت تُؤوِيهم إلى ظلِّ دَوحةٍ من العزِّ فى أرجابها النِّعَما خُضْرُ](١)

كتابته

وهى من قلَّة التصنع والإخشِيشان ، بحيث لا يخفى غرضها . ولكل زمان رجاله . وهى مع ذلك تُزينها السذاجة ، وتشفع لها الغضاضة . كتب عن الأمير يوسف بن تاشفين ولاية عهده لولده :

« هذا كتاب توليةٍ عظيم جسيم ، وتوصيةٍ حميم كريم ، مُهدت(٢) على الرِّضا قواعده ، وأُكدت بيد(٣) التقوى [مواعده](٤) ومعاقده ، وسُدِّدت

(١) هذه القصيدة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى « الزيتونة » .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بنيت) وفى نص آخر (صدرت) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى « الزيتونة » (على) .
(٤) الزيادة من « الزيتونة » .

إلى الحُسنَى مقاصده ، وأبعدت عن [الهوادة والهوى][1] مصادرُه ومواردُه .
أنفذه أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبو يعقوب يوسف بن تاشفين ، أدام الله أمره ، وأعزّ نصره ، وأطال فيما يرضيه منه ، ويرضى به عنه عمره ، غير مُحابٍ ، ولا تارك فى النصيحة لله ولرسوله والمسلمين ، مَوْضِع ارتياب لمرتاب ، للأمير الأجل أبى الحسن علىّ ابنه ، المُتَقَبِّل هِمَمَهُ وشِيمه ، المتأثِّل حِلمه وتحلمه ، الناشىء فى حِجْر تَقْويمه وتأديبه ، المتصرف بين يدى تخريجه وتَدْريبه ، أدام الله عزّه وتوفيقه ، ونهج إلى كل صالح من الأعمال طريقه ، وقد تهمَّم بمن تحت عصاه من المسلمين ، وهدى فى انتقاء من يخلفه هدى [المتَّقين ، ولم ير أن يتركهم بعد سُدّى غير مدينين][2] واعتام فى النِّصاب الرفيع ، واختار واستنصح أولى الرأى والدين ، واستشار فلم يوقع[3] بعد طول تأمل ، وتراخى مدة ، وتمثل اختياره ، واختبار من فاوضه فى ذلك من أولى التقوى[4] والحُنْكة واستشارة الأعْلية ، ولا صار بدونهم الارتياد والاجتهاد إلاّ إليه ، ولا التقى رُوّاد الرأى والتشاور إلا لديه . فولاّه عن استحكام بصيرة ، وبعد طول مَشُورة ، عهده ، وأفضى إليه الأمر والنهى ، والقَبْض والبَسْط [عنده][5] بعده ، وجعله خليفته السّاد فى رعاياه مَسَدّه ، وأوطأ عقبه جماهير الرجال ، و ناط به مهمات الأمور والأعمال ، وعهد إليه أن يتَّقى الله مااستطاع ، ولا يعدل عن سَمْت العدل وحُكم الكتاب والسُّنة ، فى أحد عصا أو أطاع ، ولا ينام عن حُماه[6] الحَيْف والخوف بالاضطجاع ، ولا يتلَيَّنُ دون معلن شكوى ، ولا يتَصَام عن مُسْتَصرخ لذى بَلْوى ، وأن ينظم

(١) وردتا هكذا فى الإسكوريال . ومكانهما فى « الزيتونة » (الحوادث) .
(٢) ما بين الحاصرتين ساقط فى « الزيتونة » .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (يوافقه) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (التق) .
(٥) هذه الكلمة زائدة فى الزيتونة .
(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (جملة) .

أقصى البلاد وأدناها فى سِلْك تدبيره ، ولا يكون بين القريب والبعيد بَوْنٌ فى إحصائه[١] وتقديره . ثم دعا أدام الله تأييده ، لمبايعته ، أدام الله عزه ونصره ، مَنْ حضر ودنا من المسلمين ، فلبّوا مسرعين ، وأتوا مُهْطِعين ، وأعطوا صفقة إيمانهم متبرِّعين متطوعين ، وبايعوه على السمع والطاعة، والتزام سُنَن[٢] الجماعة، وبذل النصيحة جهد[٣] الاستطاعة ، ومناصفة من ناصفه ، ومُحاربة من حاربه ، ومكايدة من كايده ، ومُعاندة من عانده، لا يدَّخرون فى ذلك على حال المَنْشَط مقدرة، ولا يحتجون[٤] فى حالتى الرضا والسخط إلى مَعْذرة . ثم أمر بمخاطبة ساير أهل[٥] البلاد لمبايعته ، كل طائفة منهم فى بلدها[٦] ، وتعطيه كما أعطاه من حضر ، صفقة يدها ، حتى ينتظم فى التزام طاعته القريب والبعيد ، ويجتمع على الاعتصام بحبل دعوته ، الغايب والشهيد ، وتَطْمئنّ من أعلام الناس وخيارهم نفوسٌ قلقة ، وتنام عيونٌ لم تزل مخافة إقذائها مُورقة[٧] ، ويشمل الناس كافة السرور والاستبشار ، وتتمكن لديهم الدَّعة ، ويتمهَّد القرار ، وتنشأ لهم فى الصلاح آمال ، ويستقبلهم جَدُّ صالح وإقبال . والله يبارك لهم بَيْعة رضوان ، وصَفْقة رُجْحان ، ودعوة يُمنٍ وأمان ، إنه على ما يشاء قدير ، لا إله إلا هو ، نعم المولى ونعم النصير . شهد على إشهاد أمير المسلمين بكل ما ذكر عنه فوق هذا من بيعته، ولقيه حَمْلة[٨] عنه ممن التزم البيعة المنصوصة قبل ، وأعطى صفقته طائعاً متبرعاً

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (أحكامه) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (سنة) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (قدر) .
(٤) هكذا فى «الزيتونة» . وفى الإسكوريال (يحجون) والأولى أرجح .
(٥) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى «الزيتونة» .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (وطنها) .
(٧) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى «الزيتونة» .
(٨) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (جملة) .

بها . وبالله التوفيق . وكُتب بحضرة قرطبة فى ذى الحجة سنة ست وتسعين وأربعمائة » .

دخل غرناطة غير ما مرّة ، وحدْه ، وفى رِكاب أميره .

توفى فى جمادى الآخرة من عام ثمانية وخمسمائة[1] .

محمد بن يوسف بن عبد الله بن إبراهيم التميمى المازنى

من أهل سَرَقُسْطَة ، ودخل غرناطة ، وروى عن أبى الحسن بن البادِش بها ، يكنى أبا الطاهر . وله المقامات اللُّزوميات المعروفة .

حـــاله

كان كاتباً لغوياً شاعراً ، مُعْتَمداً فى الأدب ، فرداً ، متقدماً فى ذلك فى وقته ، وله المقامات المعروفة ، وشعره كثير مُدَوَّن .

مشيختة

روى عن أبى على الصَّدفى ، وأبى محمد بن السيد ، وأبى الحسن بن الأخضر ، وأبى عبد الله بن سليمان المعروف بابن أخت غانم ، وأبى محمد بن عتّاب ، وأبى الحسن بن البادِش . وأبى محمد عبد الله بن محمد التُّجيبى الدُّكلى ، وأبى القاسم ابن صوابه[2] ، وأبى عمران بن أبى تلَيد ، وغيرهم . أخذ عنه القاضى أبو العباس ابن مَضاء ، أُخذ عنه الكامل المُبرِّد ، قال . وعليه اعتمد فى تَقيِيده . وروى عنــه المُقْرى المُسِن ، الخطيب أبو جعفر بن يحيي الكتانى ، وذكره هو وابن مضاء .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (وربعمائة) . وهو تحريف . والتصويب من «الزيتونة» .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى «الزيتونة» (صرافه) .

توفى بقرطبة ظهر يوم الثلاثاء، الحادى والعشرين من جمادى الأولى، سنة ثمان وثلاثين وخمسماية، بزمانة لازمته نحوا من ثلاثة أعوام، نفعه الله.

شعــــــره

أيا قمــر أتطلع من وشاح ... على غصن فاخر من كل راح
أدار السحر من عينيه خمراً ... معتّقة فأسكر كل صاح
وأهدى إذ تهادى كلُّ طيبٍ ... كخوط البان فى أيدى الرياح
وأحيا حين حيّا نفسَ صَبٍّ ... غدت فى قبضة الحب المتاح
وسوّغ منه عَتْبى بعد عتب ... وعلّلنى براح فوق راح
وأجْنانى الأمانى فى أمانٍ ... وجُنْحُ الليل مسدول الجناح

وقال أيضاً :

ومُنَعّم الأعطاف معسول اللّما ... ماشيت من بِدْع المحاسن فيه
لمّا ظفرتُ بليلة من وصله ... والضّب غيرُ الوصل لا يشفيه
أنْضَحْتُ وردة خدّه بنفسى ... وظللت أشرب ماءها من فِيه

وقال أيضاً :

حَكَتْ السُّلاف صفاته بحبابها ... من ثَغْره ومذاقها من رَشْفه
وتوردت فحكت شقايق خدّه ... وتأرّجت فنسيمها من عَرْفه
وصفَتْ فوق[1] أديمها فكأنها ... من حُسْن رونق وجنتيه ولُطْفه
لعِبَت بألباب الرجال وغادرت ... أجسامهم صَرْعى كفِعْلة طَرْفه

(١) هكذا فى «الزيتونة». وفى الإسكوريال (فرق) وهو تحريف.

« ومن الغرباء فى هذا الحرف »

محمد بن حسن العُمرانى الشريف

من أهل فاس

حــــاله

كان جهَوياً ساذجاً ، خشن البزة ، غير مُرهف التّجند ، ينظم الشعر ، ويذكر كثيراً من مسائل الفروع ، ومعانات الفرائض ، يُجَعْجع بها فى مجالس الدّروس ، تشقى به المدرسون ، على وتيرة من صحة السّجية ، وحسن العهد ، وقلة التصنُّع .

وجرى ذكره فى الإكليل : كريم الانتماء ، مستظل[1] بأغصان الشجرة الشّماء ، من رجل ، سليم الضمير ، ذى باطن أصفَى من الماء النّمير ، له فى الشعر طبع يشهد بعروبية أصوله ، ومضاء نصوله .

فمن ذلك قوله يخاطب السلطان أمير المسلمين ، وقد أمر له بكسوة :

مَنَحتَ مُنِحتَ النصر والعز والرضا ... ولازلت بالإحسان له مُقْرِضاً

ولا زلت للعَلْيـا جَنَى مُـكارماً ... وللإمر للملك العزيز مُقيضا

ولا زالت الأملاك باسمك تُتَّقى ... وجيشك وفْراً يملأ الأرض والفضا

ولا زلت ميمون النَّقيبة ظافراً ... مهيباً ووهّاباً وسيفك مُنْتضا

تقِرُّ به الدِّين الحنيف وأهله ... وتقمع جبّاراً وتُهلك مُبْغِضا

وَصَلت شريف البيت من آل هاشم ... وخَولته أسنى مرادٍ ومقْتَضا

وجُدْت بإعطاء اللُّجين وكُسْوة ... سَتُكْسَى ثوباً من النور أبيضا

وما زالت الأنصار تفعل هكذا ... نال علىٌّ فى الزمان الذى مضا

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح ، متظلل .

هم نصروا الهادى وآووا وجدّلوا ... بحدّ ذُباب السيف من كان مُعرضا
نُخذْ ذا أبا الحجاج من خير مادح ... لخير مَليكٍ فى البريّة مُرْتَضا
فقد كان قبل اليوم غاض قريضه ... فلما رأى الإحسان منك تَفَيَّضا
ونَظْمُ الفتى يسمو على قدر ما يرى ... من الجود مهما ينقضى نيلُه انقضا
ومن حِكَمِ القول الّلهى مَتَح الّلهى ... ومن مدح الأملاك يرجو التّعرضا
فلا زال يهديك الشريف قصائدا ... ينال بها منك المودة والرضا

وقال يخاطب من أخلفته بوارق الأمل فيه، وخابت لديه وسائل قوافيه:

الشعر أسنى كلام خُصّ بالعرب ... والجود فى كل صِنف خيرُ مكتسب
وأفضل الشعر أبيات يقـــدمها ... فى صدر حاجته من كان ذا أدب
فما يُوفى كريمٌ حقّ مادحه ... لو كان أَوْلاه مّما يحويه من نَشَب
المـال يَفْنى إذا طال الثّواء به ... والمدح يبقى مدى الأزمان والحِقَب
وقد مدحتُ لأقوام ذى حسب ... فيما ظننتُ وليسوا من ذوى حسب
مدحتهم بكلام لو مدحتُ به ... دهرى أمنتُ من الإملاق والنَّصب
فعاد مدحى لهم هجواً يصدقه ... من لؤمهم عودتى عنهم بلا أرب
فـكان ما قلتُ من مدحهم كذباً ... أستغفر الله من زورٍ ومن كذب

وقال فى غرض يظهر من الأبيات، يخاطب السلطان:

مالى أرى تاج الملوك وحوله ... عُبدان لا حلم ولا آداب
فـكأنه البازى الصّيود وحوله ... نَغَرٌ يقلب ريشه وغراب
يا أيها الملك الـكرام جدوده ... أسنى المحافل غيرُها أتراب
أبْدِلْهما من بالبيض من صَفَّيْهما ... إن العبيـــد محلُّها الأبواب

وفـــاته

توفى فى حدود ثمانية وأربعين وسبعمائة أو بعد ذلك.

محمد بن محمد بن إبراهيم بن المرادى ابن العشاب

قرطبي الأصل ، تونسى الولادة والمنشأ ، ابن نعمة وغنى جاه وحرمة

حـــاله

كان حيِيًّا فاضلاً كريماً ، سخيًّا . ورد على الأندلس ، مُفْلتاً من نسكبة أبيه، وقد عَرَكَتْه عَرْكَ الرَّحى لثقالها ، على سُنَن من الوقار والدِّيانة والِحما ، يقوم على بعض الأعمال النبيهة .

وجرى ذكره فى الإكليل بما نصه : جواد لا يُتعاطى طلقه ، وصبح فضل لا يُماثل فَلَقُهُ . كانت لوالده رحمه الله ، من الدول الحفصيَّة منزلة لطيفة المحل ، ومفاوضة فى العَقْد والحلّ ، ولم يزل يسمو[١] به قدم النَّجابة ، من العمل إلى الحجابة . و نشأ ابنه هذا، مَقْضى الديون ، مُفدًّى بالأنفس والعيون . والدهر ذو ألوان ، ومارِق حرب عَوان ، والأيام كُرات تُتَلَقَّف ، وأهوال[٢] لا تتوقَّف ، فألوى بهم الدهر وألحى ، وأغام جوَّهم[٣] بعَقِب ما أضحى ، فشملهم الاعتقال؛ وتعاورتْهم النُّوب الثقال ، واستقرَّت بالمشرق رِكابه ، وحطَّت به أقتابه ؛ فحجَّ واعتمر ، واستوطن تلك المعاهد وعَمَر ، وعكف على كتاب الله فجوَّد الحروف ، [وأحكم الخلف المعروف][٤] وقيّد وأسند ، وتكرَّر إلى دور الحديث وتردد ، وقدم على هذا الوطن قدوم النَّسيم البليل على كَبد العليل . ولما استقر به[٥]

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تسمو) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (أحوال) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (جوه) . والتصويب من النفح .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ومكانها فى النفح (وقرأ المعروف) .

(٥) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (بها) .

قراره ، واشتمل على جَفْنه غِراره ، بادرتُ إلى مؤانسته ، وثابرت على مجالسته ، فاجتليت للسرو شخصاً ، وطالعت ديوان الوفا مُسْتَقْصا .

شعره

وشعره ليس بحايد عن الإحسان ، ولا غُفْلٍ من النكت الحِسان . فمن ذلك ما خاطبنى به :

بِيُمن أبى عبد الله محمد يُمَن ... هــدأ القُطْر وانسجم القَطْرُ
أفاض علينا من جزيل عطايه ... بحورَ الدِّيم المدُّ ليس لها جَزْرُ
وأنسنا لمّا عَدِمنــا مَغانياً ... إذاذُكرت فى القلب من ذكرها عِبر
هنيئاً بعيد الفطر يا خير ماجد ... كريم به تسمو السِّيادة والفخر
ودمت مدى الأيام أفى ظل نعمة ... تُطيع لك الدنيا ويَعْنُو لك الدهر

ومما خاطب به سلطانه فى حال الاعتقال :

لعل عفوك بعد السُّخط يغشانى ... يوماً فيُنعش قلب الوالد العان
مولاى رحماك إنى قد عَهِدتك ... ذا حلم وعفو وإشفاق وتَحْنان
فاصرف حَنانك واعطف علىّ ... وجُدْ برحمةٍ منك تحيى جسمى الفان
فقد تناهى الأسى عندى وعذّبنى ... وشرّد النوم عن عينى وأعيان
وحقُّ ألايك الحُسْنى ومالك من ... طوْلٍ وفضلٍ وإنعام وإحسان
إنى ولو حلّت البلوى على كَبِدى ... وأسبكت فوق خدّ دمعى القان
لواثقٌ بحنــان منك يَطْرُقنى ... عما قريب وعفوٍ عاجل دان
دامت سعودُك فى الدنيا مضاعفة ... تنل طوعاً كلّ سلطان

محمد بن محمد بن عبد الملك بن محمد ابن سعيد الأنصارى الأوسى

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن عبد الملك، من أهل مرّاكُش، وسكن غرناطة

حاله

من عايد الصلة : كان رحمه الله غريب المَنْزَع، شديد الانقباض، محجوب المحاسن، تنبو العين عنه جهامة، وغرابةَ شكل، ووَحْشَةَ ظاهر، فى طىّ ذلك أدبٌ غضٌّ، ونَفْسٌ حرَّة، وحديث ممتع، وأبوّة كريمة، أحد الصابرين على الجَهْد، المتمسكين بأسباب الحشمة، الراضين بالخصاصة. وأبوه قاضى القضاة، نسيجُ وحده، الإمام العالم، التاريخى، المُتَبَحِّر فى الأدب(١)، تقلَّبت به أيدى الدهر بعد وفاته لتَبِعةٍ سُلِّطت على نسبه، فاستقر بمالقة، متحارفا مقدورا عليه، لا يُهتدى لمكان فضله، إلا من عثر عليه جُزافا.

شعره

من لم يصُنْ فى أمل وجهه عنك فصُنْ وجهك عن ردِّه
واعرف له الفضل وعرِّف به حيث أحلَّ النفس من قصده

ومما خاطبنى به قوله :

وُلِّيت ولايةً أحسنت فيها ليعلم أنها شَرُفت بقدرك
وكم والٍ أساء فقيل فيه دنىُّ القَدْر ليس لها بِمُدرك

وأنشدنى فى ذلك أيضاً رحمة الله عليه :

وُليت فقيل أحسنَّ خير وال فعاق مدى مداركها بفضله

(١) الإشارة هنا إلى أبيه القاضى ابن عبد الملك المراكشى صاحب « الذيل والتكملة ».

وكم والٍ أساء فقيل دنا فمحا محاسنها بفعله

ومما خاطب به السلطان يَسْتعديه على من مَطَله من العمال ، وعذّر عليه واجبه من الطعام والمال :

مولاى نصيراً فكم يُضام مَن مالَه غيرك اعتصام
أمرتَ لى بالخلاص فمر لى عنده المال والطعام
فقال ما اعتاده جواباً وحَسْبِىَ الله والإمام
هذا مقامٌ ولا فعال بغير مولاى والسلام

وفاته

فقد فى وقيعة على المسلمين من جيش مالقة بأحواز إستبّة(١) فى ذى قعدة من عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة .

محمد [بن خميس](٢) بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد ابن خميس الحَجْرى حَجْرُ ذى رُعين التِّلمسانى

يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن خميس

حاله

من عايد الصلة : كان رحمه الله نسيج وحده زهداً وانقباضاً ، وأدبا وهمة ، حسن الشَّيبة ، جميل الهيئة ، سليم الصَّدر ، قليل التَّصَنُّع ، بعيدا عن الرِّيا

---

(١) يبدو أن هناك لبسا فى إيراد هذا الاسم . لأن إستبة تقع جنوب شرق مدينة إستجة على مقربة من قرطبة . والظاهر أن المقصود هنا ، هو ثغر إشتبونة Estepona الصغير الواقع على شاطىء البحر المتوسط بين مربلة وجبل طارق ، على مقربة من ثغر مالقة .

(٢) هذه الزيادة فى النسبة من « الزيتونة » . (ج ٢ لوحة ٢٣٩)

والهوادة[١] عاملا على السياحة والعُزلة، عالما بالمعارف القديمة، مضطلعاً بتفاريق النِّحل، قايماً على صناعة العربية والأصلين، طبقةُ الوقت فى الشعر، وفحلُ الأوان فى النظم المُطول، أقدر الناس على اجتلاب الغريب، ومزج الجزالة بالسلاسة، ووضع الألفاظ البيانيَّة مواضعها، شديد الانتقا والإرجا، خامد نار الرَّوية، منافسا فى الطريقة منافسة كبيرة. كتب بتلْمسان عن ملوكها من بنى زيَّان، ثم فرَّ عنهم، وقد أوجس منهم خيفةً، لبعض ما يجرى بأبواب الملوك. وبعد ذلك بمدة، قدم غرناطة، فاهتز الوزير ابن الحكيم لتلقِّيه، ومتَّ إليه بالوسيلة العلمية، واجتذبه بخُطْبة[٢] التلميذ، واستَفَزَّه[٣] بتأنيسه وبرِّه، وأقعده للإقراء بجواره. وكان يروم الرِّحلة، وينوى السفر، والقضاء يُثبِّطه. حدثنى شيخنا الرئيس أبو الحسن بن الجياب، قال بلغ الوزير أبا عبد الله الحكيم أنه يروم السفر فشقَّ ذلك عليه، وكلَّفنا تحريك الحديث بحضرته. وجرى ذلك. فقال الشيخ أنا كالدَّم بطبعى، أتحرك فى كل ربيع.

شعره

وشعره بديع. فمن ذلك قوله يمدح أبا سعيد بن عامر، ويذكر الوَحْشَة الواقعة بينه وبين أبى بكر بن خَطَّاب:

مشوق زار رَبعك يا إماما ... محا آثار دمنتها التثاما
تتبع ريقه الطَّل ارتشافاً ... فما نفعت ولا نَقَعت أُواما
وقبَّل خدَّ وَرْدَتها جهارا ... وماراعى لضَرَّتها ذماما
وما لكريم بيتك أن يدانى ... ولا لعُلا قدرك أن يُساما
ولكن عاش فى رسم مُغَنّى ... تجشمه سلاماً واستلاماً

(١) هكذا فى الإسكوريال. وفى أزهار الرياض (الهوى).
(٢) وردت فى الإسكوريال (بمخطفة) والتصويب من الزيتونة.
(٣) هكذا وردت فى الزيتونة. وفى الإسكوريال ربما قرئت (واستفسره).

لنَفَس روضة المَطْلُول وَهْنا　　　لحنٍ وشمُ ريّاه فهاما
تلقى طيب بـ ... ته[١] حديثا　　　رَوَت مسْنداً عنه النُّعاما
فيا نَفَس الصَّبا إن جيت ساحا　　　ولم تعرف لسا كنها مَقاما
وأخطأت الطريق إلى حِماها　　　فردتك العرادة والخزآما
فلا تُبْصر بسَرْحتها قضيبا　　　ولا تُذْعِر بمسرحها سواما
وعانق قُرباتها ارتباطاً　　　وصافح كفَّ سَوْسِنها التزاما
ونافح عَرْف زهرتها كِباً　　　تعاطِك ماء ريقَتِها مُداما
ويا بَرْقاً أضاء[٢] على اوال　　　يمانياً متى جِيت الشآما
أثغر إمامة أنت ابتساماً　　　أم الدُّر الأُوامى انتظاما
خَفَقْت ببطن واديها لِواً　　　ولحت على ثُنَيَّتها حُساما
أمُشْبِهُ قلبي المُضْنى احتداما　　　علام ذُدت عن عيني المناما
ولِمَ [أسهرتنى وطردتَ][٣] عنى　　　خيالاً كان يأتيني لِماما
وأبلغُ منـــه تأريقاً لجفنى　　　كلامُ أثخن الأحشا كِلاما
تعرَّض لى فأيقظت[٤] القوافى　　　ولو تُرك القطا يوماً لناما
وقيل وما أرى يومى كأمْسِى　　　جَدَعْتَ رواطبا وقَلَبْتَ هاما
وجرَّعتَ العدوَّ سُمّاً زُعافاً　　　فكان لحسدِ مَوْتاً زُؤاما
دعوت زعيمهم ذاك ابتياما　　　ورُعْت خميسهم ذاك اللُّماما
نزعت شواه كبشهم نطاحا　　　ولم أترك لقَرْمِهم سِناما
أضام وفى يدى قلبي لماذا　　　أضام أبا سعيد[٥] أو علاما

(١) هكذا فى الإسكوريال حرفان بينهما بياض .
(٢) وفى نص (أطل) .
(٣) وفى نص (أسكرتنى وصددت) .
(٤) وردت فى الإسكوريال (فأنبطت) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال وفى نص آخر (بغير جرم) .

به وبما أذلق من لسانى ... أفل الصارم العَضْب انهزاما
وغرام الوزير أبى سعيد ... أصرفه إذا شيت انتقاما
به وبنجله البَرّ انتصارى ... لما أكلوه من لحمى حراما
أعثمن بن عامر لا تَكِلْنى(١) ... لدهــر علّم الشح الغماما
وردتُ فلم أرِد إلاّ سرابا ... وشمت فلم أشِم إلا جِهاما
قَطَعْتُ الأرضَ طولاً ثم عرضاً ... أزور بَنى ممالكها الكراما
وجاجانِبى على كرم نداهم ... وأعجلت الخوافى والقداما
وذلّت المطامع من إبائى ... وقَبّلت البراجم والسّلاما
ومن أدَبى نصبتُ لهم حبالا ... أصيد بها النَّعام ولا النُّعاما
فلم أر مثل رَبْعى دار أُنْس ... ولم أر مثــل عثمن إماما
ولا كأبيه أوكُنى أبيه ... أبىّ يحيى غيوثاً أو رِهاما
كفانى بابن عامر خَفْضُ عَيْشٍ ... ورفع مكانبى إلا أضاما
وإنى من ولايك فى يفَــاع ... أقابل منهم بدْرَهم التّماما

ومن شعره رحمه الله قوله :

تُراجع من دنياك ما أنت تارك ... وتَسْلُها(٢) العُتْبَى وهاهى فارِك(٣)
تؤمل بعد الترك رجع ودادها ... وشر وداد ما تود الترائك
حلا لك منها ما خلا(٤) لك فى الصِّبا ... فأنت على حــلوايه متهالك
تظاهر بالسُّلوان عنها تجمُّلا ... فقلبُك محزون وثغرُك ضاحك

---

(١) وردت هذه الشطرة فى نص آخر كالآتى (خليلى إن قدرت فلا تكلنى) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تسألها) .

(٣) ورد فى مخطوط الإسكوريال (اللوحة ٦٨ فى أسفل الصفحة) ما يأتى : الفرك بغض المرأة زوجها ، وقد فركته تفركه فهى فارك .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (حلا) والأولى أرجح .

تنزهتُ عنهـا نَخْوة لا زهادة ... وشَعْر عِذارى أسودُ اللون حالك
ليالى تُغْرى بى وإن هى أعْرَضَت ... زنانب من ضَوَّاتها وعَواتك
غصون قُدودٍ فى حِقاف روادِفٍ ... تَمايَلُ من ثِقَلٍ بين الأرايك
تُطاعِنُنى منهن فى كل ملعب ... ثُدِىٌّ كأسنان الرماح فواتك
وكم كِلَّةٍ فيها هتكتُ ودونها ... صدور العوالى والسُّيوف البواتك
ولا خِدْنُ إلا ما أعدت رَدينه ... لطالبهـــا أو ما تخيَّر هالك
تُضِلُّ فواد المرء عن قصد رشده ... فواتِرُ ألحاظ للظُّبـــا الفواتك
وفى كل سِنٍّ لابن آدم وإن تَطُل ... سنوه طِباع جَمـــةٌ وعوايك
وإلا فــالى بعد ما شابَ مَفْرِق ... وأعْجَز رأيى عجزٌ من الرُّكارك
أجوب إليها كلَّ بَيْداء مَخْلَقٍ ... ترافقنى فيها الرجال الحواتك[1]
واسترشد الشُّهب الشوابك جار ... إذا اشْتَبهت فيها علىّ المسالك
نُهازِز أمثال الجياد تُودةً ... أغَوارِب أمثال الهضاب تَوامِك
ظَما، وما غير السَّماوة مورد ... ويَنْحَىٍّ وما دون الصُّواة مبارك
ذو أهل عن عضٌ الرجال ظهورها ... إذا ما اشتكت عضٌ السروج الموارك
إذا ما نباعن سُنْبُك الأرض سُنْبك ... هَلَعْن فلانَتْ تحتهنَّ السَّنابك
تَقُدُّ بنا فى كل قاع وفَدْفَدٍ ... بوَايكها والمُنْغيات الدَّراهك
فأمامُها رِىٌّ كالسحاب مَوالِع ... وأمامُها رَكاً كالرُّباح بَواشك
قِلاصٌ بأطواف الُجديل بَوالع ... وجُرْدٌ لأوساط الشَّكيم عَوالك
ترامى بها ليد النُّوق كل مُرْتَمى ... فهنَّ نُوَّاح للرَّدى أو هوالك
وكم منزل خَلَّيتُه لطلابها ... تُعَفِّيه تمدِّى السَّافيات السَّواهك

---

(١) الحواتك من حتك أى أسرع فى السير .

يمرُّ به زُوَّاره وعفاته   وما آن به إلا الصُّوق الحبايك
وآثارتنا تقادم عهدهم   وهن عليه جاثيات بَوارِك
لوارِب أفراس ونؤى حذاة   ثلاث أثافِ كالحمام سَوادِك
تمرُّ عليه نَسْمة الفجر مثلما   تمرُّ على طيب العروس للداوِك
وأرْكب كالشهد ينفح بُرْدَه   لمجهولِ حَسِّ ماله للدهر مُبانك
يطلبها مِنِّي غريمٌ مُماحك   ويَمْطُلني منها عديمٌ مُماعِك(١)
أحاول منها لما تمدّو فى الصِّبا   ومن دونه وقْعُ الحمام للَّواتِك
يُسَلِّى الفتى منها وإن راق حُسْنُها   حَسايِف لا تُحصى ومَبارك
فمنها مَلالٌ دايم لا تُمَلُّه   وتُرور إفكٍ عن رِضى الحق آفِك
تُهاون بالإوفك الرجال جهالةً   وما أهلك الأحياء إلاّ الأفايك
تزن طولِ تَسْهادى وقدرى تَمَلْملى   طَوالِ الليالى والنجوم النَّوابك
تَغير على الدهر منه جحافل   كأنَّ مُدَوَّم الرَّجم فيها نيازك
فليت الذى سوَّدتُ فيها مُعَوَّضٌ   بما بيَّضت منى دُجاها الحوالك
ألا لا أنَذَكِّرني تِلمسان والهوى   ومادهكت منَّا الخطوب الدواهك
فإنَّ ادِّكار ما مضى من زمانها   لِجسْمى وللَّصبر الجميل لناهِك
ولا تَصِفَنّ أمواهها لى فإنها   لنيران أشواقى إليها مُحاوِك
ومَنْ حال عن عهدٍ أو أخفرَ ذِمَّةً   فإنى على تلك العهود لرامك
سَقَى منزلى فيها وإن عَمَّ رسمه   عِهاد الغوادى والدُّموع السَّوافِك
وجادت ثرَى قبرٍ بمسجد صالح   رواعِدُها والمُدْجِنات الحواشِك
ولا أقلَعت عن دار يونس مُزْنة   يُروى صداه لقطرها المتدارِك

---

(١) ورد فى هامش المخطوط : مماعك (المماطل) والمعك (اللجاج) . وفى القاموس معك ، أى مطله ودافعه .

إلى ان يروق الناظرين رُواؤها ... ويُرضى الرُّعاوى نبتُها المتلاحك
ويصبح من حول الحيا في عراضها ... زُرُّق تحكى بُسطها ودرانك(١)
ولا برحت منه ملائكة الرضى ... تصلّى على ذاك الصدى وتبارك
وطوبى لمن روى منازله الحيا ... وبشرى لمن صلت عليه الملايك
ألا ليت شعرى هل تقضى لبانتى ... إذا ما انقضت عشرٌ عليها دكادك
وهل تمكن الطيفُ المغِبُّ زيارة ... فيرقب أو نُلقى إليه الروامك
وهل تغفل الأيام عنها بقدر ما ... تُودى إليها بالعتاب الحالك
وياليت شعرى أى أرض تقلّنى إذا ... كلٌ عن رحلى الجلال السكالك
وأى غرار من صفاها يخننى ... إذا فقدتنى مسها والدكادك
إذا جهل الناس الزمان فإننى ... بدونهم دون الأنام لحائك
تثبّت إذا ما قتَ تعمل خطوة ... فإن بقاع الأرض طُرًّا شوائك
ولا تبتذل وجهاً لصاحب نعمة ... فما مثلُ بذل الوجه للستر هاتك
تجنّبهم ما استطعت واحذر أذاهم ... ولا تلقهم إلّا وهرُك شائك
فكلٌّ على ما أنعم الله حاسد ... وكلٌّ إذا لم يعصم الله حاسك
ولا تأنس ريبة الزمان فإنه ... بمَن فات منا لا محالة فاتك
تمنى مصاب بربر وأعاره ... وترضى ذكامى فارس والمنادك
وبدّرت الليالى الجون حوْضى لجاجها ... وتعرف إقدامى عليها المهالك
فما أذعنت إلا إلى عُشّارِ ... ولا أصفقت إلا على الشكاشك
ولا قصدت إلا فنائى وقودُها ... ولن أملت إلا قتامى الضرارك
به شرُفت أذواؤها وملوكها ... كما شرُفت بالنوبهار البرامك
فلا تدعُوَن غيرى لدفع مُلمّة ... إذا ما دهى من حادث الدهر داهك(٢)

(١) فى هامش المخطوط : الدرانك ضرب من البسط .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (داعك) .

فما إن لذاك الصوت غيرى[١] سامع ... وما إن لبيت المجد بعدى سامك
يغص ويشجى نهشل ومجاشع ... بما اورثتنى حمير والسكاسك
تفارقنى روحى[٢] التى اسْتُ غيرها ... وطيب تناى[٣] لاصق بى صايك
وماذا عسى يرجو لداتى وأرتجى ... وقد سحطت منا اللحا والأفانك[٤]
يعود لنا شرخ الشباب الذى مضى ... إذا عاد للدنيا عقيل ومالك

ومن شعره أيضاً قوله :

شحت بساحك يا محل الأدمع ... وتقرمت سفاً عليك الأضلع
ولطالما جادت ثرى الآمال من ... جاوى مؤملك الغيوث الهمع
لله أيام بهـــا قضيتهـــا ... قد كنت أعلم أنها لا ترجع
فلقد رشفت بها رضاب مدامة ... بنسيم أنفاس البديع تشعشع
فى روضة يرضيك منها انهـا ... مرعى لأفكار الندام[٥] ومشرع
تجرى بها فقر سكنت[٦] رهانها ... أجدى بميدان الكلام وأسرع
فقر كريعان الشباب وعهدنا ... بجنابها وهو الجناب الأمنع
نفائة الأنواء فى عقد الثرى ... والنفث فى عقد الثرى لا يمنع
حتى إذا حاك الربيع برودها ... وكسا رباها وشيه المتنوع
بدأت كمايم زهرها تبدى بها ... بدعاً تفرق تارة وتجمع
قد ضم منها ما تجمع مغلق ... إذ بت منها ما تفرق مصقع

(١) وردت فى الإسكوريال (غير) . والتصويب من النفح .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الروح) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ثنائى) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الافانك) .
(٥) وفى نص (الندامى) .
(٦) وفى نص (كميت) .

وكلاهما مهما أردت مُسالم ومُحارب ومؤمن ومُرَوّع
كل له شَرْع البيان مُحَلَّل المُنْكَر فى مثل هذا مُدْفَع
حيث ازدهت أنوار كلّ حديقة أدباً يُنْظَم تارة ويُسَجع
فمُرَجّل من رقها ومُهَلّل ومُسَمَّطٌ من نظمها ومُصَرَّع
أبدى البديعُ بها بدايعَ صُنْعِه فمُجَنّس ومُبدَل ومُرَصَّع
ومُوَشّح ومُرَشَّح ومُصَدَّر ومُكَرَّر ومُفَرَّع ومُتَبع
كل يروق بها بحُسْن(١) رُوايِه وإذا تزين به كلامك تبرع
ولقد غدوت بها وفى وَكَنَاتِها طيرٌ لها فوق الغصون تُرَجّع
بمُطَهَّم الفكر الذى ما إن له إلّا بمُتّن الأدلة مرتع(٢)
قيد المطالب لا يزال نَجِيبُه بين الجياد لعتقه أو يوضع
أرمى به الأمدَ البعيد وإنه جِملٌ يَضِلّ به الدليل الأصمع
من بعد ما عفتَ الـسّوارى سُبَلَه وتَحَت معالمه الرّياح الأربع
لـكننى جَدّدت دائر رسمه فطريقه من بعد ذلك مَهْيَعُ
أوضحت فهم حدوده وضُروبه والـكلُّ فى كلِّ المسالك يَنْفع(٣)
حتى وَرَدْتُ من السماع مواردًا فيها لظمآن المباحث مَكرع
مع كل مصقول الذكاء لحدسه لذكاء أسرار الطبايع مَطْلَع
يرتاد من نَجع العناصر نُجْعَةً فيها مصيفٌ للعقول ومَرْبَع
لا شىء أبدع من تجاوُرِها وما يُبْتَدى بها ذاك التجاور أبدع
فإذا تَشَعْشَع مزجها أورى بها نار الحباحب مَزْجُها المُتَشَعْشِع

(١) وردت فى الإسكوريال (حسن).
(٢) هكذا فى الإسكوريال. وفى نص (مصرع).
(٣) هكذا فى الإسكوريال. وفى نص (يدفع).

فَسكِينُ سرٍّ حياته بحبابها　　من بعد قَدْح زنادها مستودع
وهنا تُفاض عليه صورته التى　　لبهابها شُمُّ الطبايع تخضع
من واهب الصُّور [التى قد خصَّها](١)　　ببديع حكمته الحكيمُ المبدع
ربٌّ له فى كل شىء حِكْمة　　يقضى بها البَدْعى والمُتشرع
وحلاتُ من أرض الرياضة أربعًا　　نفسى الفداء لها وهذى الأربع
قامَتْ زواياها فما أوتادها　　إلّا تقوم ما تقيم الأضلع
وتناسب أقدارُها نسبًا لها　　لو كنتَ تُبْصرها فروعٌ فُرَّع
فأجلُ ما قد تَمَّته بحلولها　　مِن بارقٍ لجَناب رُشدى يلمع
لا شك أنَّ وراءه مُطراً له　　فى كل ضَرْب من قياسٍ مُوقع
بحرٌ رَوىٌّ مُترَعٌ ملاَّحه　　من فيضه هذا الروِى المترع
لم لا أضيع بها عِهاد مدامعى　　إنى إذاً لعهُودها لمضيِّع
خلِّىَّ لو لم تسعدانى فى البكا　　لقطعتُ من حبليكما(٢) مايُقطع
أرأيتما نَفَساً تفارق جسمها　　وبه تَنعُّمُها ولا تتوجع
عَظُمت رزيتُها وأى رزيَّة　　ظلَّت لها أكبادنا تَتَصدَّع(٣)
هذى حمامُك ياعلىُّ سَوَاجعٌ　　وأخالها أسفًا عليها تَسْجع
إن طارَحَتْنى وِرْقها فبأضلعى　　شوقٌ يطارحه ادِّكارٌ مُوجع
آه على جسمى الذى فارقته　　لا كنتُ مِمَّن جسمه لا يَرْجع
ومِن العُجاب رجوعُ ما أودى(٤) به　　دهرٌ بتشتُّت(٥) الأحِبّة مولع

(١) وردت فى الإسكوريال (الذى قد خصه) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (حبلكما) والتصويب أرجح للوزن والسياق .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (تتقطع) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (أردى) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (بتشتيت) .

الجورُ منه إذا استمر طبيعةٌ | والعدلُ منه إذا استقام تَطَبع
هذى عقوبة زلّة سَلَفَت بها | من أكل طُعْمَته التى لا تُشبع
قد كنتُ أمنع رَضْخ نفسى قبلها | واليوم أوجبُ أنّه لا يُمنع
لم لا وقد أصبحتُ بعد محلّة | فيها السحايب بالرغايب تهمع
دار يدرُّ الرزق من أخلاقها | ولكم دعا داعٍ بها من يُوضع
وكأنّ مجلسها البهىّ بصدرها | مَلِكٌ بأعلى دَسْته[1] متربِّعٌ
وكأن مجْمَرَ عنبرٍ بفنايها | يُذكى ما قد سيف[2] منه يسطع
وكأنها المُتَوكلية بهجةً | وعلىٌّ بن الجَهْم فيها يُبدع
فى حجر ضَبّ خافض بجواره | من كان قَبْلُ له العوامل تُرْفع
يا نَفْثة للصدور كم لكِ قبلها | من زَفْرةٍ بين الجوانح تَسْفَع
وعساك تَنْقع غُلة بك إنها | بجحيم ما أسبلته لا تنقع
لله أنت مذاعةً أودعتها | من كل سِرٍّ بالضمائر يُودَع
بدويّةٌ فى لفظها ونظامها | حضَريةٌ فيما به يُتَرَجَّع
لم لا تُشْفَع فى الذى أشكو بها | ومثالُها فى مثله يُتَشفع[3]
كَمُلَت وما افترعت فأى خريدة | لو كان يفرعها همام أروع
بارت على فأصبحت لحيائها | منى بضافى مِرْطها تتلفَّع

ومن شعره قوله يمدح ذا الوزارتين أبا عبد الله بن الحكيم ، وهى من مشاهير أمداحه :

---

(١) وردت فى الإسكوريال (دستها) . والتصويب أرجح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (ضاع) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (تشفع) والتصويب أرجح .

سَلِ الريح إن لم تُسْعِد السفن أنواء … فعند صَباها من تلِمسان أنباء

وفى خَفقان البرق منها إشارة … إليك بما تُنْمِى إليها وإيماء

تمرُّ الليالى ليلةً بعد ليلة … وللأُذن إصغاءٌ وللعين كلاء

وإنى لأصْبُو للصَّبا كلما سرَت … وللنجم مهما كان للنَّجم أصباء

وأُهدِى إليها كل حين[1] تحيّةً … وفى ردِّ إهداء التحية إهداء

واستجْلِب النوم الغِرار ومضجعى … قَتادٌ كما شاءت نواها وسُلاء

لعل خيالاً من لَدُنْها يمرُّ بى … ففى مرِّه بى من جوَى الشوق إبراء

وكيف خلوص الطَّيف منها وحولها[2] … عيونٌ لها فى كل طالعة راء

وإنى لمشتاق إليها ومُنْبِئ … ببعض اشتياقى لو تمكن إنباء

وكم قايلٍ تَفْنَى غراماً بحبها … وقد أخلقت منها مِلاء وإملاء

لعشرة أعوام عليها تجرَّمت … إذا مضى قيظٌ بها جاء إهراء

يطنب فيها عابثون[3] وخُزَّب … ويرحل عنها قاطنون وأحياء[4]

كأن رماح الذاهبين لملكها … قِداح وأموال المنازل أبداء

فلا تبغينَّ فيها مناخاً لراكب … فقد قَلَصَت منها ظِلال وأفياء

ومن عجبي[5] أن طال سَقْمى ونَزْعها … وقسم إضناء علينا وإطناء

وكم أرجفوا غيظاً بها ثم أرجؤا … فيكذبُ إرجاف ويَصْدق إرجاء

يرددها عياً بها الدهر مثلما … يُرَدِّد حرفُ الفاء فى النطق فأفاء

فيامنزلاً نال الردَى منه ما اشتهى … ترى وهل لعُمْر الأنس بعدك إنساء

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وم) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ودونها) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (عاثون) .

(٤) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (وثناه) والأولى أرجح .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (عجب) .

وهل للظى الحرب التى فيك تلتظى ... إذا ما انقضت أيام بؤسك إطفاء
وهل لى زمانٌ أرتجى فيه عودةً ... إليك ووجهُ البشر أزهرُ وضّاء
فوا سيئ حالى(١) إن هلكتُ ولم أقل ... اصحبى بها الغرُّ الكرام الاهاوّا
ولم أطرق الدير الذى كنتُ طارقاً ... كمادى(٢) وبدر الأفق أسلغ مسناء
أطيفُ به حتى تهـــرَّ كلابُه ... وقد نام عسّاس وهوّم سبّاء
ولا صاحب الأحسام ولهـــذم ... وطرْفٌ لحدّ الليل مذ كان وطّاء
وأسحَمُ قارى كشمرى حُلْكةً ... تلألأ فيه من سَنَى الصبح أضواء
فما لشرابى فى سواك مرارةٌ ... ولا لطعامى دون بابك إمراء
وبادارى الأولى بحرب [حلاوة](٣) ... وقد جدّ عيثٌ فى بلاها وأرداء
أما [آن] أن يحمى حماك كمهده ... وتجتاز أحماشٌ(٤) عليك وأحماء
أما آن أن يعشو لنارك طارقٌ ... جنيب له رفعٌ إليك ودأداء
يُرجى نوالا أو يؤمل دعوةً ... فما زال قارٍ فى ذراك وقرّاء
أحن لها ما أطتْ النيبُ حولها ... وما عاقها عن مورد الماء إظماء
فما فاتها منى نزاع على النوى ... ولا فاتنى منها على القرب إجشاء
كذلك جَدّى فى صحابى وأسرتى ... ومن لى به من(٥) أهل وُدّى إن فاؤوا
ولولا جوار ابن الحكيم محمد ... لما فات نفسى من بنى الدهر إقماء
حمانى فلم تنتب محلى نوايبُ ... بسوء ولم ترزأ فؤادى أرزاء
وأكفاء بينى فى كفالة جاهه ... فصاروا عبيداً لى وهم لىَ أكفاء

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (فواجربالى) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . فى نص آخر (بليل) .

(٣) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (أصحاب) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ذى) .

يؤمُّون قصدى طاعة ومحبة فما عُفِتة عافوا وما شِئته شاء[١]
دعانى إلى المجد لذى كنتُ آملا فلم يكُ لى عن دعوة المجد إبطاء
وبوّأنى من هَضْبة العزّ تَلْعَةً بناجى الشبا منه[٢] صعود وطأطاء
[يشايعنى فيها][٣] إذا سرتُ حافظٌ ويَكلأنى منها إذا نمتُ كلاء
ولا مثلُ نومى فى كفالة غيره وللذئب إلمام وللصِّلّ إلماء
بغيضةِ ليثٍ أو بمرقب خالب تَنِد[٤] كِساً فيه وتقطع أكساء
إذا كان لى من نايب المُلْكِ كافلٌ ففى حيثما هوّمتُ كِنٌّ وإدْفاء
وأخوانُ صدقٍ من صنايع جاهه يُبادرنى منهم قيامٌ وإبلاء
سُراعٌ لما يُرجى من الخير عندهم ومن كل ما يُخشى من الشر إبراء
إليك أيا عبد الإلـه صنعتها لزوميّةً فيها لوَجْدى إفشاء
مُبَرّأةٌ مما يعيبُ لزومَها إذا عاب أكفاء سواها وإيطاء
أذعتُ بها السر الذى كان قبلها عليه لأحناء الجوانح إضناء
وإن لم يكن كلّ الذى كنتَ[٥] آملاً واعْوَز إكلاء فما عاز إكاء
ومن يتكلف مُفْحَما شُكر مِنّة فمالى إلى ذاك التكلّف إلجاء
إذا مُنْشِدٌ لم يكن عنك ومُنْشِىء فلا كان إنشاد ولا كان إنشاء

ومن شعره قوله .

أطار فؤادى برق ألاحا قُمْ ضم بعد لو كرّ جناحا

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (شاءوا) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (منها) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (يشيعنى منها) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تبز) .
(٥) وردت فى الإسكوريال (أنت) . والتصويب من النفح .

كأنّ تألُّقَهُ فى الدُّجا حُسام جبان يهاب الكفاحا
أضاء وللعين إغفـاءةً تلذُّ إذا ما سنى الفجر لاحا
كمِنَى خفىٌّ بدا بعضُـــه وزِيد بيانا فزاد اتِّضاحا
كأن النجوم وقد غرُبت نواهلُ ماءٍ صدَرْن قِماحا[1]
لواغب[1] باتت تُجدُّ السُّرى فأدركها الصبح روحى رِلاحا
وقد لبس الليل أسمـــاله فمحّت[1] عليه بلاً وانصياحا[1]
وأيقظ روض الرُّبا زهره فحيّا نسيمُ صَباه الصّباحا
كأن النهار وقد غالها مبيت مال حواه اجتياحا
أنى يستفيض دموعى امتياحا ويُلهب نار ضلوعى اقتداحا
فلم يلْقَ دجن انتحابى شحيحا ولم يلفَ زَنْدَ اشتياقى شَحاحا
ولولا توقُّد نـار الحَشى لانفدتُ ماء جفونى امتياحا
وممّا يُشرِّد عنى الكرى هديل حَمام إذا نمتُ صاحا
ينوح علىّ وأبكى له فأقطع لَيْلِى بكاً أو نياحا
أعين أريحى أطلت الأسى عليك وما زدت إلاّ انتزاحا
دعينى أردُّ ماء دمعى[2] فلم أرد بعد مايك ماءً قَراحا
أحنُّ اليك إذا سفت ريحا وأبكى عليك إذا ذُقت راحا
وأفنى التباحا إليك وكم أشحتُ بوجهى عنك انشاحا
ولولا سَخايم قوم أبوا إيابى رَكبت إليك الرِّياحا
أباحوا حِماى وكم مـــرة حَميتُ حِمى عِرْضهم أن يُباحا

(١) ورد فى هامش المخطوط ما يأتى : قمح البعير إذا رفع رأسه وامتنع من الشراب ريا — لواغب روحى طلاحا : كل ذلك بمعنى أعيا — مح الثوب إذا بلى ، وانصاح التوب إذا انشق .
(٢) وفى نص : عينى .

ودافعتُ عنهم بشمْرى انتصارا ... فكان الجزاء جلاى المتاحا
أباعوا ودادى بخسا فسَلْ ... أكان سماحهم بى رباحا
وأغروا بنفسى طلابها ... سِرَاراً فجاءوا لقتلى صُراحا
وآلوا يمينا على أنّ ما ... توهمت لم يكُ إلاّ مزاحا
فشاورتُ نفسى فى ذا فما ... رأت لى بغير الفَلاة فَلاحا
فبتُّ أناغى نجوم الدُّجا ... نجاء فلم ألقَ(١) إلا نجاحا
أجوب الدياجير وحدى ولا ... مؤانس إلا القطا والسِّراحا(٢)
وإلّا الثعالب تحتس فى ... مبيتى فتملأ سمعى ضُباحا(٣)
أجوز الأفاحيص فيحاً قفارا ... وأعرو الأداحى غبرا فساحا
فأعيى شَوارد هفنى عداء ... وأعلو لَواغى تلك صياحا
وجواب بدو إذا استنبحوا ... أجابوا عَوَاء وأمُّوا النُّباحا
يرون قِتالى فى الحجر حِلاً ... وإذهاب نفسى فيه مُباحا
قصدتُ هنام(٤) فلم أُخْطِهم ... أعاجمُ شوس العيون قباحا
فَسَلْ كيف كان خلاصى من ... أسارهم أسرى أم سَراحا
ولا مثلُ بيتٍ تيمّمته فلم ... ألفَ إلّا الغنا والسّماحا
عيابا ملاء ونيباً سمانا ... وغيداً خدالاً(٥) وعوداً أقاحا
وإلا أعاريب شُمُّ الأنوف ... كرامُ الجدود فصاحاً صباحا
وإلاّ يعافير سودُ العيون ... يَرَين فساد المُحِب صلاحا
يرُدْن فينا لِحاظاً مُراضا ... يُمرِضن منّا القلوب الصّحاحا.

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (ألف) .
(٢) فى الهامش : جمع سرحان وهو الذئب . (٣) الضباح هو صوت الثعلب .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (سنام) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (حسانا) .

وتحت الوَجاج طِلاً رَبْرَب لوْ أنّ القيان رفعْن الوَجاجا
أرانى محاسن منه فلم أطق عن حِماه بقلبى بَراحا
مُحيّاً وسيما وفرْعاً أثيثا وتمدّاً قويماً وردْفاً رداحا
وأبدَى لعينى بدايع لم يدع لى عقلاً بها حين راحا
إذا لم يُرد غيرَ سَفْك دمى فحِلّ وبل له ما استباحا
وما زلتُ مُمْحاً بنفسى كذا متى ما رأيتُ الوجوه الملاحا
وبابن رُشَيد تعوّذت من هواه فقد زدتُ فيه افتضاحا
وقد ضاق صدرى عن كَتْمه وأودعته جَفْن عينى فباحا
وبابن رُشيد تعوّذت من خُطوب أجَلْن علىّ القِداحا
ألحّ الزمان بأحداثه فألقيتُ طوعاً إليه السّلاحا
أعاد شبابى مَشِيباً كما سمت وصيّر نسكى طَلاحا[1]
وفرّق بينى وبين الأُهيل ولم يَرَ ذا عليه جُناحا
أخى وسمىٌّ أصيخْ مُسْعداً[2] لشجوِ حَزِين إليك استراحا
فقد جَبّ ظهرى على ضعفه كُداماً وأدهى شواتى نطاحا
وطوّح بى عن تِلِمسان ما ظننتُ فراقى لها أن يُتاحا
وأعجل سيرى عنه ولم يدعنى أُوَدِّع تلك البِطاحا
نأى بصديقك عن رَبْعِه فكان له النّأى موتاً صُراحا
وكان عزيزاً على قومه إذا هاج خاضوا إليه الرّماحا
فها هو إن قال لم يُلتفت إليه امتهاناً له واطّراحا
عجبتُ لدهرى هذا وما ألاقى مساء به وصباحا

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (صلاحا) . والأولى أرجح .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (مسمعا) .

لقد هدَّ منِّي رُكناً شديداً ... وذلل مني حياءً لقاحا
وُقيت الرَّدى من أخٍ مخلص ... لو استطعتُ طرتُ إليه ارتياحا
وإنى على فَيْح ما بيننا ... لأتبّع ذاك الشّذا حيث فاحا
أحن إليه حنين الفحول[1] ... ونَوْح الحمام إذا هو ناحا
وأسأل عنه هبوب النَّسيم ... وخفْقَ الوميض إذا ما ألاحا
وإن شِيت عِرْفان حالى وما ... يُعانيه جسمى ضَنًى أو صَحاحا
فقلبٌ يذوب إليك اشتياقا ... وصدرٌ يفاح إليك انشراحا
وغرس وداد أصاب فَضاء ... نَدياً وصادف أرضاً بَراحا
كراسخ مجد تأثّلته ... فلم تخش بعد عليه امتِصاحا
وعليـــاء بوّأتها لو بَغَى ... سمواً إليها السِّماك لطاحا
مكارمُ جُمعت أفذاذُها ... فـكانت لعطف[2] عُلاك وِشاحا
ودرسُ علوم تهيم بها ... عَمَرْت الغَدْوَ به والرَّواحا
نشأتَ عن الخير واعتَدْتَه ... فلم تَدرِ إلا التُّقى والصَّلاحا
وقُمْتَ[3] لها أيما رحــلة ... كَسَحْتَ المعارف فيها اكتساحا
بهرتَ رجال الحديث اقتداء ... وفُتَّ رجال الكمال اقتراحا
فما [إن جليس][4] إذا قلت قال ... أو أن الخطيب إذا لُحتَ لاحا
ولو لم تحـــجَّ بها مكة ... لحجَّ الملايك عنك صُراحا
وأما أنا بعد نَهْى النُّهى ... فما زادنى[5] الطَّبعُ إلا جِماحا

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (العجول) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (لعضب) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (رحلت) .
(٤) وردت محرفة فى الإسكوريال (ابن حبيش) .
(٥) وردت فى الإسكوريال (زاد) والتصويب لازم لاستقامة الوزن والسياق .

أدير كؤوسَ هواى اغتِباقا ... وأشرب ماء دموعى اصْطِباحا
فبرْد جواى بردٌ جواب ... تُوَبِّخ فيه مَثْنى الوُقاحا
وهنّ بنيّات فكرى وقد ... أتَيْنَك فاخفض لهنّ الجناحا

ومن شعره رحمه الله قوله يمدح ذا الوزارتين المتقدم ذكره ، ويذكر غِفارةَ وجّهها له مع هديه :

كَبَتَ العِدى إنعامُك البَغْتُ ... فَلِيَ الهنا وللعِدى الكَبْتُ
يا من إلى جَدوى أنامله ... يُزْجِى[1] للسَّفين وتُزْجر البُخت
لولاك لم يُوصل بناحية ... وخدٌ ولم يُقْطع بها دَشت[2]
لولاك لم يَطلع بها نَشرٌ ... منه ولم يَهْبط بها خَبْت
خَوَّلتنى مالم تَسَعْه يدى ... فأصابنى من كثره غَمْتُ
شتَّى أيادٍ كلّما عظُمت ... عندى تلكأ خاطرى الْهَتُّ
يَعْيَى لسانى عن إذاعتها ... ويضيقُ عن شكرى لها الوقت
وطَّأت لى الدنيا فلا عِوَجٌ ... فيما أرى منها ولا أَمْتُ
أمْكَنْتَنِى منها فما ليدى ... رده ولا لمقالتى عتُّ
بانْتَ فى برّى ولا نَسَبٌ ... أُدْلِى إليك به ولا حَسَبُ
لكنّ حَسْبِى إن متَتُّ به ... يوماً إليك ودادى البَحْتُ
بوركتَ من رجل برؤيته ... يُوسى الضنا ويُعالج الفَتُّ
لو سار فى يهماء مقْفِرة ... فى حيث لا ماء ولا نَبْتُ
لتفجّر الماء النمير بها ... ولأعشبت أرجاؤها[3] المَرْتُ

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (يرجى) .
(٢) الدشت هنا بمعنى الصحراء .
(٣) مكانها بياض بالمخطوط . والإضافة من (المنتخب النفيس) .

لا تحسَبن البحت نيل غِنى ... نيلُ الرضا منه هو البَخْتُ
آلت جلالتُه وحقَّ لها ... أن لا يحيط بكُنْهِها نَعْتُ
أظْهَرْتَ دِينَ الله فى زمن ... ما زال يَغْلِب حقَّهُ البَهْتُ
شَيَّدتَه وهدَدْتَ مُتعضاً ... لضياعه ما شَيَّد الجِبْتُ
أمَّنْتَ أرض المسلمين فلا ... ذئب يُخاف بها ولا لصت
وحَفِظْتَها من كل نايبة ... تُخشى فأنت حفيظها الثَّبْت
ونهجتَ سبيل المَكْرُمات فما ... لمؤمل عن غايه ألْتُ
لم تُبق غفْلاً من مَتالعها ... إلا وفيه لحاير بُرْتُ
هادِنْ طُغاة الكفر ما هدأت ... حتى يجىء نهارُها المَحْتُ
دَعْها تودَّع فى معاقلها ... ما لم تَمُدُّه جُفلتها العَفْتُ
كم ذُدْتَها عنّا وقد هَبَرت ... لمراشنا أشداقها الهَرَت
بوقوف طَرْفِك عند شدَّته ... يَنْأى ويفخَرُ مُلْكها الرّت
ويشكر ما اظهَرْت من كرم ... فى ذاك تفصح عُجْمَها المَرْتُ
لك من ممالكها وإن رُغمت ... ما جال فيه جوادك الحتُّ
ولكل أصْيَد من بطارقها ... فى كلِّ أرَى له دعت
لولا لباك البيض ما أرِقَت ... للقايها أفراسنا الكُمْتُ
عنده لمَنْ يَنْتابُه مقَةٌ ... ولمن يُنيب لغيره مَقْتُ[(١)]
ولو أن بِيضَك لم تَسُلْ لما ... ذُلَّت أُنوفُ طُغاتها الشُّلْت
يا ابن الحكيم أمِنْت صرف ردَى ... أبداً له فى أثلتى نَحْت
وبيُمْنه أنِسْتُ من أملى ... ما لم يكن يوماً له عرت

---

(١) هذا البيت مدون بهامش المخطوط . وفى نص (المقت) .

مَثْنَي الوزارة مـــوئلي وله ... ما دمت أملاك قدرتي أقتُ
وببأسه أطْنِي شرارةَ من ... يَعْثُو وأقْدَحُ أنف من يَعْتُ
عمَّ الورى جوداً وفضلَ غِنًى ... حتى تساوى المَــدُّ والغَلْتُ
وهمَى على عالٍ ومُنْخَفِــض ... لم يبق فــوقٌ لا ولا تحتُ
ظل إذا نصطافُ معتــــدلٌ ... عَطِرِ الشَّـذا وحْياً إذا نَشْتُ
يتضاءل الصبح المنير إذا ... لاقى سَنـــاه جبينك الصَّلْتُ
حتى كأنّ شمس الضحى قمرٌ ... وكأن ضوء شعاعها نَفْتُ
وغريبةٌ فى لُطف صَنْعتها ... يَعْنى الزمانُ وما لها أُخْتُ
يَنأى النَّدى بها إذا لَبِسَت ... وبِنَيه إن طُوِيتْ بها التختُ
زنجيَّةٌ لـكن مُحَتِــدها ... فى الرُّوم يعنو القسُّ والشَّنْتُ(١)
مثــلُ العروس على مِنَصَّتهــا ... من شأنهــا التَّزْيين والزَّتُّ
لأكون أنحلُ ما أكون هُدًى ... فيهــا فيَقْبُلُ جسوَ الشَّخْتُ
وبمثل شَيْبى فوق حُلَّكتها ... يُبْدو الوقارُ ويحفظُ السَّمْتُ
تُظهرينى بلماسهــــا وبه ... عندى لها الإيثار ما عِشْتُ
لازلتَ تُؤثرنى بهـــا أبداً ... ولا تَنِ من يشْقى(٢) بذا السَّلْت
وبقيتَ تُدرك ما تُريد وما ... تَهوى بقــاءً ماله فتُّ

ومن شعره أيضاً فى المدح قوله رحمه الله من قصيدة ثبتت فى ديوان مجموع من أمداحه منها قوله :

طرَقَتْك وهِناً أخت آل علاج ... والرَّكْبُ بين دَكادك وحِراج
فى ليلة لَيْلاء لم ينبح بها ... كلبٌ ولم يصرخ أذينُ دجاج

---

(١) يرمز بها هنا إلى القداسة — مثل شنت ياقب ، وشنت مرية . وبالإسبانية Santo

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (يشجى) .

أنّى اهتَدَت لمضلين توهنوا ... منها لهتك دياجرٍ ودَيـــاج
مُتَسَربلى بُرْدَ الظّلام كأنهم ... فيه قِداح فى رماية ساج
وثقوا بحمود السُّرى وتسلّوا ... لمخارمَ مجهولةٍ وفجـاج
ومنازلٌ دُرْسُ الرسوم بلاقعٌ ... أخوين[١] من هيج ومن هِجْهاج
مُحِتْ معالمهنّ غير مثلم ... كسوار تاج أو كدملج عاج
ومَواثلُ مثل الحَمام جوانمٌ ... وُرْقٌ وأسْحَمُ دائم التَّشحاج
ومُشَجّجٌ مازال مَنْهل الحيا ... يبكى صداه بدمعه الثجّـــاج
حتى أعاد لعوده أوراقَه ... خُضْرَ الظلال ذكيّة الآراج
وكسا عَراة عِراصه من وَشْيه ... حُللا تُبَوِّر صنعة الديباج
لا مثل ليلات [مَضَيْن سريعة][٢] ... برّدت حرارة قلبى المهتاج
أدركتَ منها فى صباى مطالبى ... وقضيتُ منها فى شبابى حاج
كم ليلة مرّت ولم يشعر بهـا ... غيرى وَغير منادمى وسراج
بتنا نُديِر إلى انبلاج صباحها ... كأس الهوى صِرفاً بغير مِزاج
وتُدير أعيُننا حديثَ غرامنا ... بمراوزٍ من فِضّها[٣] وأحاج
بمآرج[٤] النفحات من دارين أو ... بمدارج النَّسمات من دَرّاج
وخلوص وُدٌّ فى نقَاء سريرة ... كسلاف راحٍ فى صفاء زُجاج
أمحضته حظّى من الزمن الذى ... أعيي مراسى أهله وعـــلاج
واخترتُ قرب جواره لخلوصه ... وتركت كلَّ مُماذق مزّاج
ما فى زمانك غيره فاخلص له ... غَيْباً وداهنْ من أردتَ وداج

---

(١) وردت فى الإسكوريال (أتوين) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (بنعب سويقة) . والتصويب من (المنتخب) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى نص (فضة) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (بمؤرج) .

لا تحملنَّ بغيره واستغنين ... بوقاره عن كل غَمْر ماج
أترُكْ بنى الدنيا وأعرض عنهم ... فعساك[1] تُطْعم لذَّة الإثلاج
نزَّهت نفسى عنهم بنواله ... وحَفِظْتها من جاهه بسياج
أصبحتُ من آلايه وولايه ... فى عزّة ضَحْيا وعزٍّ داجِ
ولو أنى عجت الركبَ مُيَمِّما ... أحداً سواه ما حَمِدتُ مَعاجِ
طَلْقٌ إذا احتلك الزمان أنار فى ... ظلمائه كالكوكب الوهّاج
طُودُ الرصانة والرّزانة والحِجا ... بحرُ الندى المتلاطم الأمواج
وغمامُه الهامى على آمـــاله ... من غير إرْعاد ولا إزْعاج
وهِزَبْرُ آجام القنى الضّارى إذا ... سقطت عواتمها[2] على الأزْجاج
ضَمَنَ الإلّه له على أعدايه ... ما شاء من ظَفرٍ ومن إفلاج
أبقى أبو عبد الإلّه محمدُ ... ما شاد والده أبو الحجّـــاج
وبنى أبو إسحق قبل وصنوُه ... رُكنا الضعيف وممدنا[3] المحتاج
وجرى على آثار[4] أسْلاف لهم ... دَرَجوا وكلهم على مِنْهاج
ما منهم إلا أعزُّ مباركٌ ... مصباح ليل أو صباح عَجاج
بيتٌ بنوه من سراوة حِمْير ... فى الذِّروة العَلْياء من صِنْهاج
كم كان فى الماضين من أسلافهم ... من ربِّ إكليل وصاحب تاج
أساسُ كل رياسةٍ ورؤسُ ... كل سياسةٍ وليوث كل هياج
أعيَتْ نجوم الليل من سهر وما ... أعيا أبو موسى من الإدلاج

---

(١) وردت فى الإسكوريال (بأسا) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (عواملها) . والتصويب من المنتخب .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى نص (مؤلا).

(٤) وردت فى الإسكوريال (أسال) .

حتى أصارته لرحمة ربه	يومَ العقاب وقيعةُ الأعلاج
وأقيم نَجْلُ أخيه بعد مقامه	فيهم يطاعن مثله ويواج
فردا يَلفُّ كتايباً بكتايب	ويكبُّ أفواجا على أفواج
حتى تجلَّى دجنُ كل شجاجةٍ	عنهم وأمسك رَعد كل ضجاج
مَنْ مِثْلُ يوسف فى قراع[1] كتايب	ولقاء أعــداء وخوض لجاج
أو مَنْ يشقُّ من الأنام غُبارَه	فى ردِّ آراء ونقض حُجاج
إن خاض يوماً فى بيان حقيقة	[أنهى عن][2] الثورى والحلاّج[3]
وإذا تـكلم فى الغَريب وضَبْطه	لم يَعْبأ بالعُتْبى والزَّجّاج
أنْسَتْ قصايده جرول[4] أشعارُه	وأراجز العجلى[4] والعجّاج
جمع الفصاحة والصَّباحة والتقا	والجود فى وَجْدٍ وفى إحراج
تخشاه أسْدُ الغاب فى آجامها	والرُّوم فى الأسوار والأبراج
إنّا بنى قحطان لم نُخلق لغـــير غِياثِ ملهوفٍ ومنعة لاج	
نُبْرِى طَلا الأعراب فى الهيجا وفى	اللأْواء سوف نمارى الأعراج
بسيوفنـا البيض اليمانيَّة التى	طُبعت لحزِّ غَلاصِم ووِداج
تأبى لنا الإحجام عن أعدائنا	يوم اللّقاء طهارة الأمشاج
أنصارُ [خير العالمين][5] وحزبه	وحماته فى الجَحْفل الرَّجْراج
وفُداته بنفوسهم ونَفيسهم	من غَدْرِ مُغتـال ومُبَّة هاج
هم صَفْوة الخلق التى اختيرت له	وسواهم همَجٌ من الأمهاج

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (نزال) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى نص (أربى على) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (الحجاج) . والأولى أرجح .
(٤) ورد فى هامش المخطوط ما يأتى : جرول هو الحطيئة . والعجلى هو أبو النجم .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (دين الهاشمى) .

إلاّ الأُلى سبقوا بباهر فضلهم ... من ساير الأصحاب والأزواج
وكفى بحِكمتنا إقامةُ حُجّة ... وبرُكنِنا من كَعْبَة الحُجّاج
ولنا مفاخرُ فى القديم شهيرةٌ ... كالصُّبح فى وَضَحٍ وفى إبْلاج
منّا التَّبابعة الذين ببابهم ... كانت تُنِيخ جُباةُ كل خراج
ولأمرهم كانت تُدين ممالِكُ الـ ... ـدُّنيا بلا قهر ولا إحراج
من يقتدح زَنْداً فإن زِنادَهم ... فى الجود وارِيةٌ بلا إخراج
أبوابُهم مفتوحة لضيوفهم ... أبداً بلا قُفْل ولا مِزْلاج

ومما اشتهر من شعره قوله :

أرّق عينى بارقٌ من أثال ... كأنّه فى جُنْح ليلى ذُبالْ
أثار شوقاً فى ضمير الحشى(١) ... وعَبْرتى فى صحن خدّى أسالْ
حكى فؤادى قلقاً واشتعال ... وجَفْن عينى أرَقاً وانهمالْ
[جوانحُ تلفح نيرانُها ... وأدمعٌ تنهل مثل العَزال](٢)
قولوا وشاةَ الحُبِّ ماشئتم ... ما لذّة الحب سوى أن يُقال
عُذْراً لِلُوّامى ولا عـذر لى ... فزلّة العالِم ما إن تُقال
قم نطرد الهمَّ بمشمولةٍ ... تقصِّر الليل إذا الليـل طال
وعاطِها صفراء ذمّيّةً ... تمنعها الذّمّة من أن تُنال
كالمِسْك ريحاً واللَّما مَطْعما ... والتِّبر لوناً والهوا فى اعتدال
عَتَّقها فى الدَّنِّ خَمّارُها ... والبِكْرُ لا تعرف غير الحِجال
لا تُثْقِب المصباح لا واسقِنى ... على سَنَى البرق وضوء الهلال
فالعيشُ نومٌ والرَّدى يَقَظةٌ ... والمرء ما بينهما كالخيال

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الحشا) .
(٢) هذا البيت وارد فى النفح . وساقط فى الإسكوريال .

خُذْها على تَنْغيم مِسْطارِها ... بين خَوابيها وبين الدَّوال
فى روضة باكر ونَمْنِيها[١] ... أخمل دارين وأنْسَى أوال
كأن فار المِسْك مَفْبُوقةٌ[٢] ... فيها إذا هبَّتْ صَباً أو شمال
من كلِّ[٣] ساجى الطَّرْف ألحاظُه ... مُفَوَّقات أبداً للنضال
مَن عاذرى والكل لى عاذل[٤] ... من حَسَنِ الوجه قبيح الفِعال
من خُلِّبِي الوَعْد كَذَّابه ... لَيَّان لا يعرف غير المطال
كأنه الدهر وأىُّ امرئٍ ... يبقى على حالٍ إذا الدهر حال
أما ترانى آخذاً ناقضاً ... عليه ما سوَّغَنى[٥] من محال
ولم أكن قطُّ له عائباً ... كمثل ما عابَتْه قَبْلى رجال
يأبى ثراء المال عِلمى وهل ... يجتمع الضِّدَّان علمٌ ومال
وتأنفُ الأرضُ مُقامى بها ... حتى تهادانى ظهور الرجال
لولا بنو زيَّان ما لَذَّ لى العيشُ ولا هانَتْ علىّ الليال
هم خوَّفوا الدهر وهم خفَّفوا ... على بنى الدهر[٦] خُطاه الثِّقال
وَرِثت[٧] من عامرهم سيِّداً ... غَمْرَ رداء الحَمْد غَمْرَ[٨] النَّوال
وكعبةٌ للجود منصوبةٌ ... يسعى إليها الناس من كل حال[٩]

---

(١) وردت فى الإسكوريال (وميته) . والتصويب من النفح .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (مفتوتة) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (كف) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (عاذر) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (سوفنى) .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الدنيا) .
(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (لقيت) .
(٨) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (جم) .
(٩) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بال) .

خُذْها أبا زيّان من شاعــــر مُسْتَملح النَّزعة عَذْبِ المقال
يَلْتَفِظُ الألفــاظ لَفْظَ النَّوى ويَنْظِم الآلاء نَظم اللآل
مُجارِياً مهيــار في قــوله ما كنتُ لولا طمعي في الخيال[1]

ومماقال أيضاً ، واشتمل ذلك على شيء من نظمه ونثره . وهذا الرجل مُغْرِبُ النزعة ، في شفوف نظمه على نثره :

عجباً لها أيذوق طعم وِصالهــا من ليس يطمع[2] أن يمُرَّ ببالهــا
وأنا الفقير إلى تعِلّة ســـاعةٍ منها وتمنعني زكاة جمــالها
كم [ذا وعن][3] عيني الـكرَى متأنفٌ[4] يبدو ويخفَى في خفي مطالها
يسمو لها بَدْرُ الدُّجا مُتضايلاً كتضاءل الحسْناء في أسمالها
وابنُ السَّبيل يجيء يقْبِس نارها ليلاً فتمنحه عقيلة مالها
يعتادُني في النوم طيفُ خيالها فتصيبُني ألحاظُهـا بنبـالهـا
كم ليلةٍ جادت به فـكأنمـا زُفَّت إلى ذكاءٍ وقتِ زوالهـا
أَسْرِي فعِطْرُها[5] وعُطْلُ شُهبِها يأبى شَذا المِعْطار من مِعطالها
وسوادُ طُرَّته كجُنْح ظلامها وبياضُ غُرَّته كضوء هلالها
دعني أُشِمُّ بالوهم أدنى لمحـةٍ[6] من ثغرها وأَشِمُّ مِسْكة خالها
ماراد طَرْفي في حديقة خدِّها إلا لِفتْنَتِه بحُسْن دلالهـا

(١) وقصيدة مهيار مطلعها : ما كنت لولا طمعي في الخيال أنشد ليلي بين طول الليال (النفح ج ٣ ص ١٨٧) .

(٢) هكذا في الإسكوريال . وفي النفح (يأمل) .

(٣) وردت في الإسكوريال (كم ذاد عن) والتصويب من النفح .

(٤) وردت في الإسكوريال (متألق) . والتصويب من النفح .

(٥) هكذا في الإسكوريال . وفي النفح (فعطلها) .

(٦) هكذا في الإسكوريال . وفي النفح (لمعة) .

أنسيبُ شِعْرِي رَقَّ مثل نَسيمها فشمول راحِك مثلُ ريح شمالها
وانقل أحاديث الهوى واشرح غـــريبَ لُغاتها وأذكر ثقات رجالها
وإذا مررتَ برامةٍ فتَوَقَّ من أطلايها وتمشَّ في أطـــلالها
وانصب لمَغْزِلهـا حِبالة قانصٍ ودَعْ السكرى شرَكاً لصيد غزالها
وأسِل جداولها بفَيْض دموعها وانْضَح جوانِحَها بفضل سِجالها
أنا من بقيَّة معشرٍ عرَّكتهم هذي النَّوى عَرْكَ الرَّحى بثِقالها
أكرم بها فئةً أريق نجيعُها بَغْياً فراق العينَ حسنُ جمالها[١]
حلَّت مُدامة وَصْلها وحلَّت لهم فإن انتشُوا فبُحْوها وحَلالها
بلغت بهِرْمِسَ غاية ما نالهـا أحدٌ وناه بهـا لبعد منـالهـا
وعَدَتْ على سُقراط صورة[٢] كأسها فهريقُ ما في الدَّن من جريالها
وسَرَت إلى فاراب منها نفحةٌ قُدْسية جاءت بنُخبة آلِهـــا
ليصوغَ من ألحانه في حانها ما سَوَّغ القسيس من أرْمالها
وتعلقت[٣] في سُهْرَوَرْدَ فأسهرت عيناً يُؤَرِّقُها طروق خيالهـا
فخبا شهاب الدِّين لمـا أشرقت وخبا[٤] فلم يثبت لنور جلالها
ما جُنَّ مثل جُنونه أحـــد ولا مُحِحت يدٌ بيضا بمثل نوالها
وبدت على الشُّوذي منها نفحة[٥] ما لاح منهـا غير لمعة آلهـا
بَطُلَت حقيقتـــه وحالت حاله فبما يُعبِّر عن حقيقته حالهـا
هذي صُبـابتهم ترِقُّ صَبـابةً فيروق شاربُهـا صفاء زُلالهـا

---

(١) هكذا في الإسكوريال . وفي النفح (مآلها) .
(٢) هكذا في الإسكوريال . وفي النفح (سورة) .
(٣) هكذا في الإسكوريال . وفي النفح (وتغلغلت) .
(٤) هكذا في الإسكوريال . وفي النفح (وخوى) .
(٥) هكذا في الإسكوريال . وفي النفح (نشوة) .

إعلم أبا الفضل بن يحي أنني … من بعدها أجرى على آسالها
فإذا رأيتَ مُوَلَّهاً مثلى فخذ … فى عَذْله إن كنت من عُذَّالها
لا تَعْجَبَن لما ترى من شأنها … فى حِلّها إن كان أو تَرْحالها
فصلاحُها بفسادها ونعيمُها … بعذابها ورشادُها بضلالها
ومن العجايب أن أقيم ببلدة … يوماً وأسْلَمُ من أذى جُهّالها
شُغلوا بدُنياهم أما شَغَلَتْهم … عنى فكم ضيِّعت من أشغالها
حُجبوا بجهلهم فإن لاحَتْ لهم … شمسُ الهُدى عشوا[1] بضوء ذُبالها
وإن انْتَسَبْتُ فإننى من دَوحَةٍ … تتقيل الأقيال برد[2] ظِلالها
من حمير[3] من ذى رُعين من ذُرى … حَجْر من العظماء من أقيالها
وإذا رجعتُ لطينتى معنًى فما … سِلسالُهم بأرَقَّ من صِلصالها
لله درُّك أى نَجْل كريمة … وَلَدَتْه ناس[4] منك بعد حبالها[5]
ولأنت لاعَدِمتُك والد فخرها … وسماك مُؤْدَدِها وبدرُ كمالها
أغلِظ على من عاث من أنذالها[6] … واخشع لمن تلقاه من أبدالها[7]
والبس بما[8] أوليتها من نعمة … حُلَلَ الثَّناء وجُرَّ من أذيالها
خذها أبا الفضل بن يحي تحفة … جاءتكَ لم ينُسج على منوالها
ماجال فى مِضمارها شِعرٌ ولا … سمحت[9] قريحة شاعر بمثالها

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى أزهار الرياض (عبثوا) .
(٢) فى الإسكوريال (أرد) . والتصويب من الزيتونة .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة .
(٤) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (فلس) .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (أبذالها) .
(٧) وردت فى الإسكوريال (أبداتها) . التصويب من الزيتونة .
(٨) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (لما) .
(٩) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (سحت) .

وانلْ أبا البرَكات من بَرَكاتها   وادفع مِحَال شكوكه بمحالها

هذه أمتّع الله ببقايك،وأسْعَد بلقايك. وأراهابما تؤمله من شريف اعتنايك، وترجوه من جَميل احتفايك، ما تعرفُ به من احتذايك، وتعترفُ له ببركة اعتفايك، كريمة الأحياء، وعقيلة الأموات والأحياء، بنت الأَذْواء والأقيال، ومقصورةُ الإمرةِ والحجال؛ بل أسيره الأساوير والأحجال. على أنها حليفةُ آلام وأوْصاب، وأليفةُ أشجان وأطْراب، صُبابة أغراب من صُيّابة أعراب، جاورَت سَيْفَ بن ذى يزن فى رأس غُمدان، وجاوزتْ مَسْلَمة بن مخلد يوم جابية الجوْلان، وذَلُقَت لسان ابن أخته حسّان، فتضاءلت لرقة حَدِّه جسوم بنى عبد المُدان، وقرّبه وماشيم من غِمْدِه قيد ابن الإطنابة بين يدى النُّعمان، قربت ببنى جفْنة مزار جِلّق، وسَعرت لبنى تميم نار مُحلّق؛ ومرّت على مُعتاد غالب، فما أنِست ناره، وطافَت ببيت عبد الله بن دارم، فلم ترض جواره، ولو حلت بفَناية، واستَحلّت ما أحل لها من مبذول حِبائه، لاغتُفرِ لها ما جَنَته ببطن أوُاره، وكلّاتً لها حبوتا مجاشع وزرارة، مزقت على مزيقيا جُللاً، وأذهبت يوم حليمة مثلا، وأركبت عَفزاً شر يومها يَجْدَع[١] جَملا، وناطت بأذن مارية[٢] قِرْطها، وجرّت على أثر الكندى مِرْطَها، وقفها بين الدَّخول فَحَوْمل فَوَقفت، وأنفِها يومَ دارة جلْجُل فأنفت منه وما ألِفَت، عقر ناقته وانتهس عبيطها، ودخل خِدْر عُنَيْزَة وأمال غَبيطها. أغْرت أبا قابوس بزياد، واسرَجت للزبيدى فرَس أبى داود[٣]، ونافرت بحاتم طَىّ كعب إياد، وساورت للمساور

---

(١) هكذا فى الإسكوريال. وفى نص (يحدج).

(٢) وردت فى الإسكوريال (ريه) والتصويب من (المنتخب).

(٣) هكذا فى الإسكوريال. وفى نص (أدو اد).

بمثل جُوده السّاير . ولئن بلت الجعفرى لبيدا ، فلقد استعبدت الأسدى عبيداً ، وقطعت به فى أثر سُلَيماه الأسدية[1] بيداً ، أرته المنية على حربة هندها المَلحوب ، وما حال [قريضه][2] دون جريضه ، وأقفر من أهله مَلْحُوب : ومازالت تخبط فى شعاب الأنساب ، فتَرْشِد ، وتُنْشِد ضالتها اليمانية ، فتنشد :

إن كنت من سيف بن ذى يزن ... فانزل بسيف البحر من عدَن

وذَرِ الشآم وما بنــــاه به الــــرُّومى من قصر ومن فَدَن[3]

تعلف سَيْل العرم، وترد غسان، وتمهد لها أهضام تبالة، فتقول مرعى ولا كالسّعدان، تساجل عن سَمِيحة بابن خُزام ، وتناضل بسمير يوم خزام ، وتَنْمى قاتل ستة آلاف ، وكاسى بيت الله الحرام ثلاثة الأفواف ، فلو ساجلَت بنَبْعها أبا كَرْب، وأرته ضراعة خدها التّرب ، لما جَلَت به أخضر الجلدة فى بيت العرب ، ماجداً يملأ الدّلو إلى عَقْد الـكَرْب ، بل لو حطت بفناء بيتها الحجرى رَحْلها[4] ، وساجلت بفناء جدّها ذى رُعين ، لاستَوْفت سجلها . كم عاذت بسيفها اليَزنى ، فأدركت ذحلها ، ولاذت بركنها اليمنى فأجزل مَحلُّها . ولو استسقت بأوديتها ، لأذهبت مَحْلها . كافحت عن دينها الحنيفى ، فما كَهم حُسامها ، ونافحَت عن نبيِّها الأمىّ ، فأيدت بروح القدس سهامها . سدّت باب الدرب دون بنى الأصفَر ، وشدّت لموته ثوب موتٍ أحمر ، وما شَغَلها كَسْرُ تاج كِسْرى عن قَرْع هامة قَيْصر . ولقد حلت من سنام نسبها اليعربى باسمك ذُروة ، وتعلقت من ذمام نبيها العربى بأوثق عُرْوة . تفرّد صاحب تيماء بأبلقه الفرد فعزّ ، وتمرد ربّ دَوْمة الجَنْدل لما كان من مارد فى حِرز ، فما

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (الأمهرية) .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال . وواردة فى المنتخب .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى رواية (مدن) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى نص (رجلها) .

فإنك ، أعزك الله ، بمن حلَّ من قُدْسِي عقله ، بمَعْقِل قُدُس ، يُطار إليه فلا يُطار ، وراد من فردوس أدبه ، فى جنّة لا يُضام رائدُها ولا يُضار . زَها بمجاورة المُلْكِ فازْدهى رؤساء الممالك ، وشُغِف بمجاورة الملك ، فاشتغل عن مطالعة المسالك ، أيُشَقُّ غُباره ، وعلى جبين المرزم مَثاره ، أو يُنتَهك ذماره ، وقابُ الأسد بيتُه ، ودار أخيه أسامة زاره . ولما قَضَت من أنديتها العربية أوطارها ، واستوْفت على أشْرَف منازعها الأدبية أطْوارها ، وعَطَّرت بنوافح أنفاسها الذَّكية آثارها ، وأطْلعت فى ظُلَم أنفاسها الدَّجُوجية كواكبها النيِّرة وأقمارها ، عطفت على مَعْقلتها الشاذلية فحلت عِقالها ، وأمر لها فراق الوطن . فلما استمر [لها][1] حلالها ، استودعت بطنان تبالة آلها ، وتركت أهضامها المُخْصِبة وحلالها . أطلت على دارات العرب فحيت أطلالها ، ودعت لزيارة أختها اليونانية ، أذواء حِمْير وأقيالها . أطْمَعتها بلمعيَّة ألمعيَّتها الأعجَمية ، ومثلها يُطمع ، وجاء بها من قُدَماء الحكماء كلُّ أوحدى الأحوذية ، فباتت تخبُّ إليه وتوضع ، باحثة عن مركز دارتهم[2] الفيثاغورية ؛ آخذة فى إصلاح هيئتهم الإنكساغورية[3] ، مؤثرةً لما تدل عليه دقائقُ حقائقِ بقايا علوم مقاييسهم البرهانية ، وتشير إليه رموزُ كنوزِ وصايا عُلماء نواميسهم الكَلْدانية ، من مأثور تأثير لاهوتية قوامم السماوية ، وراغبةً فيما يُفاض على على مادتها الجِسْمانية ، ويطرأ على عاقليتها الهيولانية ، من عُلْويات آثار مواهبها الربانية ، موافقة لمثلهم المفارقة أفضل موافقة ، موافقةً لما وافق من شوارد آرايهم المُوَفَّقة أحسن موافقة . وتحت هذه الأستار مُحذَرات أسرار أضرَّ بها الإسرار ، وطالما نكر معارفها الإنكار ، ونفَثات من صُدور أولئك الصدور ، إلى بطون

---

(١) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٢) هكذا فى الإسكوريال وفى نص (دائرتهم) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال وفى نص (الإنكسارية) .

هذه الأوراق ، فى ظهور فوق دفاتر فَلْسَفيات معانى علومهم الرِّقاق . وفى تلك للغانى ، أبكار معانى ، سكن الجوانح والصدور ، بدل الأرايك والخدور ، ولَحن فى دياجى ظُلَمِ هذه الأحاجى ، كأقمار فى أطمار، بَهَرْن وما ظَهَرْن ، وسَطَعْن وما لَمعْن، فعَشِقْن وما رَمَقْن ، واستَمْلَحْن وما لَمَحْن . أدَرْن خمورَ أجفانهن على ماخوريات ألحانهن، فهيَّجت البلابل نَغَمُ هذه البلابل ، واستفْرَغته الأكياس ، مُتْرعات تلك الأكواس . ماسِحْرُ بابل ، كخمْربابل ، ولا [منتقى][(1)] أغانيهن الأوايل ، كحمايكم الهَوَادل ، إنوصلت هَدِيلَها بِخَفيف ، وصلن ثَقيلهن بخفيف . إيه أيها الشمرى المشمل ، دعنا من حديثك المُضْمَحِل ، سِربنا أيها الفارس النَّدُس ، من حظيرة النفس ، إلى حضرة القُدْس ، صرِّح بإطلاق الجمال ، وجُل من عالَميتك الملَكوتية فى أفسح مجال ، تَمشِ بين مقاصر قُصورها ، ومعاصر خمورها ، رخىَّ البال ، مرخىَّ السربال ، فما ينسج لك على منوال ، نادمٌ عليها من شَفَف دَنَّ سُقراط ، إن استَحْسَنْتَ لها حِسان ، فما يَصْلُح لك ، صالح بن علاط . بت صَريعِ مُحَيّاها ، فقد أوْصَت بمعالجة عقير مُعاقرة عُقارها بقراط ، لا تخش صاحب شرطتها ، فلا شَرْط له عليك ولا اشتراط ، مالك غير مبديك الأول ، من قال امتَثِل الأمر ، وما عليك من أمْر وال . على رِسْلك ما هذا العَجَل ، لا خطأ تتوقّعه ولا خَطَل ، أمكْرَه أنت فى هذه الكريهة ، أم بَطَل . لوعلم أنك ضباربة هذا الخيس ، وخبعثة[(2)] ذلك الخيس ، لما عانى اليمُ وسيس ، شوقاً إليك محمد بن خميس ، على أنْ لا غالب اليوم لأنى غالب ، ولا طالبٌ يُدْرِك شأو هذا الطالب ، فقهٌ بلا تفيهق ، وحِذْقٌ فى تحَذْلُق . أقسم أبا الفضل بمالكَ على أبى البركات [من الفضل] ، ذلك العراقى الأرومة ، لا هذا الفارسى الجرثومة ،

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (منتقلات) والأول أرجح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بنعشته) .

وإن يك ذلك ، إسرايلى الأصل ، وهذا إسمعيلى الجنس ، عاوى الفَضْل . فلتلك الذات ، شرفُ تلك الأدوات. قدّم لى غالبُنا المذكور ، من بأسه الغُرُّ لا رفع ، وأسمى من مقعد ، رقوطيهم المشهور ، من إغرناطة الحمراء ، ومن متبوّأ أبى أميّتهم المرحوم ، من جنّات جزيرتهم الخضراء ، فيا لنت أبا الفضل من هنه العربجة[(١)] ، وألوك[(٢)] . أورأيت فى عمرك ، مثل هذا الصعلوك ، لا والله ما على ظهر هذه الغبراء ، من يتظاهر بمثل هذه المعرفة فى بنى غبرا . فأى شىء هذا المنزع إيش ، لاحال لنا معك ولا عيش ، من يضحك على هذا العايش. ما هذا الخبل ، أخمار بك أم نمل ، إرجع إلى ما كنت بصدده ، وُقيت الزلل ، خذ فى الجدّ فما يليق بك الهزل . رق عن ذلك لحك لنا منه أرقّ غزل ، ماذا أقول ، وأى عقل يطاوعنى على هذا المقول . أفحمتنى والله عن مكالمتكم هذه المحن ، ومنعتنى من طلب مسالمتكم ، مالكم علىّ فى دنياكم هذه من الإحن . إن تكلمت كلمت ، وإذا استعجمت عُجمت . أما لهذه العلة آس ، أم على هذه الفيلة مواس ؛ ما حيلتى فى طبع بلدكم الجاسى . إما يلين لضعفى [أما يرق][(٣)] قلبُ زمانكم القاسى . ما هذه الدّمن يا بنى حضراوات الدمن ، اظهرتم المحن ، فقلب لكم ظهر المجن . إن مرّ بكم الولى حقتموه ، وإن زجركم العالم فجرتم عليه ففسقتموه ، وإذا نجم فيكم الحكيم ، غصصتم به ، فكفرتموه وزندقتموه ، كونوا فوضى ، فما لكم اليوم [مسْراً سِواه][(٤)] واذهبوا من مراعيكم المستوبلة ، حيث شئتم ، فقد أهملكم الرعاة . ضيّعتم النص

---

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (المجرته) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (والدك) .

(٣) وردت فى الإسكوريال ، (أما يلين) مرة أخرى . والتعديل من كتاب (المنتخب النفيس) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (مسراه) والتصويب من «الزيتونة» .

والشرائع ، وأظهرتم فى بِدَعِـكم العجايب والبَدايع . نَفَقْتُم النفاق، وأقمتم سوق الفسوق على ساق . استَصْغَرتم الـكباير ، وأبحتُم الصغاير . أين غَنِيُّـكم الشاكر ، ينفقد فقيركم الصابر ، أين عالِـكم الماهر ، يرشد متُعلِّمَـكم الحاير . مات العلمُ بموت العلماء ، وحكَم الجهل بقطع دابر الحـكماء . جرِّد لنا شريعتَك يا أفضل الشارعين . أتِمَّ فيها موعظتك يا أفصح النابعين . لا والله [ما يوقظكم](١) من هذا الوَسَن، وعظ الحَسَن ، ولا يُنقذكم من فِتَنِ هذا الزمن ، إلا سَيْفُ مُعلِّمه أبى الحسن والسلام .

قدم غرناطة فى أواخر عام ثلاثة وسبعماية . وتوفى فى يوم مقتل صاحبه الوزير أبى عبد الله بن الحـكيم ، فرّ من دهليز جاره فيمن كان بها من الأعلام ، بعد أن نُهبت ثيابه ، حسبما جرى على غيره من الحاضرين ، وهو يقول ، هكذا تقوم الساعة بغتةً . ولقيه بعض قرابة السلطان ، ممن كان الوزير قد وَتَره ، فشرع الرُّمح إليه، فتوسل إليه برسول الله ، فلم يقبل منه ، وطعنه ، فقتله يوم عيد الفطر عام ثمانية وسبعماية ، وآخر العهدُ به ، مطّرحاً بالعراء ، خارج باب الفخّارين ، لا يُعلم قبره(٢) ، لمـكان الهرج فى تلك الأيام . نَسَلُ الله جميل ستره . وساء بأثر قتله إياه حال [ذلك الرجل](٣) وفسَد فـكره ، وشرَد نومه، وأصابته علّة رديّة ، فـكان يَثِب المرة بعد الأخرى ، يقول ابن خميس يقتلنى ، حتى مات لأيام من مقتل المذكور(٤) .

---

(١) هذه الزيادة من الزيتونة ، وبها يستقيم السياق .

(٢) وردت فى الإسكوريال (مكانه) . والتصويب من الزيتونة .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (قاتله) .

(٤) نود أن نشير هنا إلى أننا قد انتفعنا بمراجعة شعر ابن خميس ونثره ،على ما ورد منهما فى كتاب (المنتخب النفيس من شعر أبى عبد الله بن خميس –تلمسان سنة ١٩٦٥) لصديقنا العلامة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة المغربية .

محمد بن عمر بن على بن إبراهيم المليكشى

يكنى أبا عبد الله .

حـــاله

كان فاضلا ، متخلقاً ، أديباً ، شاعراً ، صوفياً ، جميلَ العشرة ، حسنَ الخلق كريم العهد ،طيّب النفس . كتب عن الأمراء بإفريقية ، ونال حُظوة ، ثم شرّق وحجّ ، ولقى جلّة ، ووصل الأندلس عام ثمانية عشر وسبعماية ، فلقى بغرناطة حفايةً ، وانْسَحَبَت بها عليه جِراية ، ثم انصرف إلى وطنه ، وناله به اعتقال ، ثم تخلص من النّكبة ، وأقام به ، يُزجى وقته إلى آخر عمره .

وجرى ذكرُه فى « الإكليل الزاهر »: كاتبُ الخلافة ، ومُشَعشع الأدب المُزْرى بالسُّلافة ، كان يرحمه الله ، بطل مجال ، وربّ روية وارتجال ، قدم على هذه البلاد ، وقد نَبا به وطنه ، وضاق ببعض الحوادث عَطَنُهُ ، فتلوّم بها تلوم النسيم بين الخمايل ، وحلّ بها محل الطّيف من الوشاح الجايل ، ولبث مدة إقامته تحت جراية واسعة ، ومبرة يانعة . ثم آثر قطره ، فولّى وجهه شَطْره ، واستقبله دهره بالإنابة ، وقلده خُطّة الكتابة ، واستقامت حاله ، وحطّت رحاله ، وله شعر أنيق ، وتصوّفٌ وتحقيق ، ورحلته إلى الحجاز ، سببها فى الخير وثيق ، ونسبتها فى الصالحات(١) عريق .

شعـــره

نقلت من خطّ الوزير أبى بكر بن ذى الوزارتين ، مما قَيَّد عنه ، وكان خبيراً بحاله :

---

(١) وردت فى الإسكوريال (الصامحت) . والتصويب من النفح .

رضى نلت من كل ما يهـــوى　　فلا توُقفنى موقفَ الذّل والشكوى
وصفحاً عن الجانى المسيء لنفسه　　كفاه الذى يلقاه من شدّة البلوى
بما بيننا من خلوة معنوية　　أرقُّ من النجوى وأحْلَى من السّلوى
قفى أتشكّى لوعةَ البَيْن ساعةً(١)　　ولا يكُ هذا آخرُ العهد بالنّجوى
قفى [ساعة فى](٢) عرْصَة الدار وانظرى　　إلى عاشق لا يستفيق من البلوى
وكم قد سألتُ الريحَ شوقاً إليكم　　فما حنّ مسراها إلىّ ولا ألوى
فياريح حتى أنتِ ممن يغار بى　　ويانجدُ حتى أنتَ تهوى الذى أهوى
خُلقتُ ولى قلبٌ جليدٌ على النّوى　　ولا كن على فقد الأحبّة لا يقوى

وحدَّث بعض من عُنى بأخباره أيّام مُقامه بمالقة واستقراره ؛ أنه لقى ليلة بباب الملعب فى أبوابها ظَبْيةً من ظبيات الأنس ، [وفِتْنة من فِتَن](٣) هذا الجنس ، فخطب وصالها ، واتقى بفؤاده نصالها ، حتى همّت بالانقياد ، وانعطفت انعطاف الغُصن الميّاد ، فأبقى على نفسه ، وأمسك ، وأنف من خَلع العِـــذار ، بعد ما تنسّك ، وقال :

لم أنس وقْفَتَنا . بباب الملعب　　بين الرُّجا واليأس من مُتَجَنّب
وعُدت فكنت مراقباً لحديثها　　يا ذلَّ وقْفَة خايف مُترقّب
وتذلّلَتْ فذُللْت بعد تعزّز　　يأتى الغرام بكل أمر معجب
بدويةٌ أبدى الجمال بوجهها　　ما شيتَ من خدٍّ شريق مذهب
تدنو وتبعد نُفْـــرةً وتجنُّباً　　فتكاد تحسبها مهاة الرَّبرب
ورنَت بلحظ فاتر لك فاتن　　أنضى وأمْضى من حُسام المضرب

(١) وردت فى الإسكوريال (ياعلوا) . والتصويب من النفح .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ساعدينى) .
(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، وفى النفح (قينة من قينات) .

وأرتك[١] بابل سحرها بجفونها — فَسَبَت وحق لمثلها أن تَسْتَب
وتضاحكت فحكت بنيّر ثغرها — لمعاتِ[٢] نور ضياء برق خُلّب
بمنظم فى عقد سِمطى جوهـــر — عن شبه نور الأقحوان الأشنب
وتمايلت كالغصن أخْضَله النّدى — ريّان من ماء الشبيبة مُخْصب
تثنيه أرياح[٣] الصَّبابةِ والصَّبا — فتراه بين مُشرّق ومُغرّب
أبَتْ الرّوادف أن تَميل بميله — فرَست وجال كأنه فى لولب
مُتَتوجاً بهلال وجه لاح فى — خلل السجوف[٤] لحاجب ومُحَجّب
يامن رأى فيهـــا مُحباً مُغرماً — لم ينقلب الا بقلبِ قُلّب
ما زال مذ ولىّ يحـــاول حيلة — تدنية من نيل للمنى والمَطْلب
فأجال نار الفـكر حتى أوْقَدت — فى القلب نار تَشَوّق وتلهّب
فتلاقت الأرواح قبل جسومها — وكذا البسيط يكون قبل مركّب

ومن مقطوعاته البديعة ، مما سمع منه بغرناطة ، حرسها الله ، أيام مقامه بها قوله :

أرى لك يا قلبى بقلبى محبّـــةً — بعثتُ بها سِرّى إليك رسولا
فقابله بالبشر واقبل عشيّةً — فقد هبّ مِسْكى[٥] للنسيم عليلا
ولا تعتذر بالقَطر أو بلل الندى — فأحسنُ ما يأتى النسيم بليلا

ونقلت من خط الفقيه القاضى أبى جعفر الرُّعينى ، مما أملاه علىّ بمنزله بغرناطه. قال وحضرت فى عام ثلاثة عشر وسبعماية ، يوم إحرام الـكعبة العليّة ، وذلك

---

(١) وردت فى الإسكوريال (وأتاك) . والتصويب من النفح .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (لمعان) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (أرواح) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (السحاب) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مسك) .

فى شهر ذى القعدة على اصطلاحهم فى ذلك ، وصفته أن يتزين سَدَنة البيت من شيبة بأحسن زِى ، ويعمدوا إلى كرسى ، يصل فيه صاعده ، إلى ثلث الكسوة ، ويقطعها من هنالك ، ويبقى الثلثان إلى الموسم ، وهو يوم مشهود عند سكان الحرم ، يحتفل له ، ويقوم المنشدون أدراج الكعبة ينشدون . فقلت فى ذلك :

ألم ترها قد شمرت تطلب الجدا ... وتخبر أن الأمر قد بلغ الحدّا
نُجد كما جُدتَ إليها وشمّر عن السّاعد الأقوى تنل عندها سعدا
طوَت بُردها طى السّجل كناية ... لأمر خَفِى سره طوت البُرْدا
وأبدَت محيّــاها لحيّا جماله ... وقبّل على صون المقلة ذلك الخدّا
فكم ستَرت سودُ البُرود جمالها ... وغطته لا كن عن سنها الرّمدا
وكم خال ذاك الخال عما مُقصّر ... عن العلم بالأنساب لا يعرف الحدّا
لقد سَفَرت عن وجهها الكعبة التى ... لها المسْنِيُّ فى حُسْنها المُبدا
وقالت ألا أين مُشكّلى ، قصدوا إلى جمالى فقد أبدى الحجابُ الذى أبْدا
فلبّت لها العشّاق من كل جانب ... يؤمّونها يستقربون لها البُعدا
فمن نَدِفٍ أشفى على تلفٍ ومن ... مُحبٌ على قرب يهيم بها وَجْدا
ومن ساهر على النجوم ولم يذق ... بعينيه طعم النور أو يبلغ القصدا
يسائل عن بدوٍ وبدرٌ تجاهه ... كذلك اشتراك اللفظ قد ينقص الحدا
ومن مُسْتهام لا يقرُّ قراره ... كأنّ به من حرِّ أشواقه وقدا
يقلب قلباً بين جنبيه موريا ... أوار الأسى فيه فتحسبه زندا
إذا ما حدى حادى الرّكاب ركابه ... كأن قلوب الراكبين له تُحدا
أحاد بها إن أنت جئت بها مِنِي ... ونلت المُنى والأمن فانزل ورُدْوردا
ولا خوف هذا الخَيفُ والتربة التى ... سرت قد عين المصطفى عدا
وفى عرفات فاعترف وانصرف إلى ... مشاعر فيها يرحم المالك العبدا

وإن كنت من أوفى العبيد جرايما ... فحسن نبيل العقد من ربك العَقدا
لين صدقت فيك الوعيد جرايم ... فعفواً الجميل الصفح يصدقك الوعدا
وعُد مفضياً للبيت طُف واستلم وقُم ... بها للمقام الرحب واسجد وكن عبدا
ورُد فى الثنا والحمد والشكر واجتهد ... فمن عرف الإحسان زادته حمدا
وعُج نحو فرض الحب وأقض حقوقه ... وزر قبر من لولاك من هَديه رشدا

قال ، وكنت فى زمن الحداثة ، أفضل الأصيل على السَّحَر ، وأقول فيه رقة المودّع ورقّة المعتذر . فلما كان أوان الأسفار ، واتصلت ليالى السير ، إلى أوقات الأسحار ، ورأيت أفق الشرق أشرق ، ووجدت القايل بفضل السَّحَر أصدق ، فابتدأت راكباً ، فلما جيت لذكر الجناب العلىّ النبوى ، أتممت ماشياً ، وأنا فى رملة بين مصر وعقَبة إيله ، وقلت :

ما أحسن الأفق الشرق إسفارا ... فكم هدا فى دُجى الإدلاج أسفارا
إذا بدا سارت الأظعان هاديةً ... له وصارت به الظلماء أنوارا
يجلو غياهب ليلٍ طالما سدلت ... على المحبين فى الظلماء أستارا
ونمّ منه نسيم ثم ذا بعد على ... أحاديث كانت ثَمّ أسرارا
مَرّت سحيرا فبرّت سرّ ذى سحر ... أهدت له ريح من يهواه معطارا
سرت ببانات أكناف اللّوى ... فغدت كأنّ داريّن قد أصبحت دارا
طابت بطيبةَ أرواح معطرة ... بها فأصبح أفق الشوق عطّارا
كأنما فَلَق الإصباح حين بدا ... خدر بهجة حسن الشمس قد وارا
حتى بدت وتبدت حسن صورتها ... فعمّته الأرض أنجاداً وأغوارا
كأنه دعـــوة المختار حين بدت ... دانت لها الخلق إعلانا وإسرارا
من نوره كل نور أنت تُبصره ... ونوره زاد الأبصـــار إبصارا

هدا به الله أقواماً به سعـــداء | لولاه كانوا مع الكفر كفارا
هو الشّفيع الذى قالت شفاعته | للموقنين ألا لا تدخلوا النّارا
هو العفوُّ عن الجانى وإن عظُمت | من المسيء ذنوب كان غفّارا
هو الكريم الذى ما ردّ سائله | يوما ولو كرّر التّسآل تكرارا
هو الحبيب الذى ألقى محبته | فى كل قلب فقلبى نحوه طارا
أحبّه كلُّ مخلوق وهام به | حتى الجمادات أحجاراً وأشجارا
وانشقّ بدر الدُّجا من نور غرّته | وانهلّت السحب من كفّيه أنهارا

ومن مقطوعاته ، قال ، ومما نظمته فى ليل السُّرى ، وتخيل طيف الكرى ، أقصيدٍ قصدته أى معنى أردته ، أشغل عنه مابى منه :

منع الهجر من سُليمى هجوعا | فانثنى طبعها يريد الرُّجوعـــا
بعثتْه ليلا يعلّل قلبـــاً | مُستهاماً بها محبّـــاً ولوعا
لم يجد غير طَرْف جفنٍ قريح | شاخصا نحوها يذرُّ الدموعـــا

وكتب إلى صديقه شيخنا أبى بكر بن شبرين من بجاية ، وهو معتقل بقصبتها ، وقد امتحنه بذلك أبو عبد الله بن سيد الناس :

شَرْحُ حالى لمن يريد سؤالى | إننى فى اعتقال مولى الموالى
مُطلق الحمد والثنـاء عليه | وهو للعطف والجميل موالى
لا أرى للولاة فىّ احتكاما | وولىٌّ مال على كل والى
أرتجى بالمصاب تكفير ذنبى | حسبما جاء فى الصِّحاح العوالى
لا تدوم الدُّنا ولا الخير فيهـــا | وكذا الشّر ذا وذا للزوال
فاغتنم ساعة الوصـــال وكم | من محنة وهى منحة من نوال
فإذا غبتُ عنك فاحضر | تجدها للجواب المفيد عن السؤال

فهى نورٌ للنهار والنور منها ... وهى الانس فى الليالى الطوال
فاستَدِمْها تَدُم ولا تضجَّ منها ... وأدِرْها على اليمين ووال

فإنّ الكأس مجراها على اليمين ، ومسراها فى الصبح المبين ، تغنى عن الإصباح والمصباح ، وتدنى لهم معنى النور المشرق فى الوجوه الصِّباح ، وتجرى فى الأشباح ، فتسرى فى الأرواح . وهذه الرسالة طويلة ، فيها كل بديع من نظم ونثر .

فأجابه رحمه الله :

أرغمنّ هذه القيود الثِّقال ... ربَّ وُدٍّ مصيره للتَّغـــال
طال صبرى على الجديدين حتى ... كدت مما لقيت أن يُشْفقا لِ
إن بعض الرضا لديه فسيح ... أىّ مدد به وأىّ ابتقـــال
حاش لله أن أكون لشىء ... شاده الصانع القديم بغال
إن عندى من الثناء عليه ... لأمانى لم يملهنّ القـــال
يا إمامى الذى بودى لو ... أمكن لصى إليه أوار قال
أرجُ دنياك وارج مولاك واعلم ... أن راجى سواه غير مُقـــال
وابتغاء الثواب من ربك اعمل ... فهو يُجزى الأعمال بالمثقال
واغتنم غيبة الرّقيب ففيها ... لقلوب الرجال أىُّ صقـــال
وأجل فى الوجود فكر غنىّ ... عن ضروب الإنعام والأحقال
وإذا الوقت ضاق وسّعـــه ... بالصبر ولا تنس من شهير المقال
ربما تكره النفوس من الأمر ... له فرجةٌ كحل العِقـــال

لا غروَ أن وقع توان ، أو تلوّم دهر ذو ألوان ، فالأمر بين الكاف والنون ، ومن صبر ، لم يبوء بصفقة المغبون ، وللسعداء تخصيصٍ ، ومع التقريب تمحيص ،

وما عن القضاء محيص، والمتصرف فى ماله غير مَعْتوب ،وقديم الحقيقة إلى الحيف ليس بمنسوب. وقد ورد خطاب عمادى أطاب الله محضره ، وسدّد إلى المرامى العليّة نظره ، ناطقا بلسان التفويض ، سارحا من الرّضا فى الفضاء العريض، لايذاً بالانقياد والتسليم ،قايماً على أسكفّة باب الأدب، لمثابة حكم الحكيم .

ومنها : والوقايع عافا كم الله وُعّاظ ونحن هُجود . وفى الحىّ إيقاظ ، وما كل المعانى تؤديها الألفاظ . وهذا الفنا الذى نشأ عن الوقت ، هو إن شاء الله عين البقيا . وإذا أحبّ الله عبداً حماه الدنيا ، وما هى إلا فتون ، وجنون فنون ، وحديث كاه مُجون . وقد يجمع الله الشتيتين ، ولن يغلب عسرٌ يسْرين ولا باس ، ويا خَطْب لا مساس ، وأبعد الله اليأس ، وإنما يوفى الأجر الصابرون ، ولا ييأس من روح الله إلاّ القوم الـكافرون . وهى طويله بديعة .

أسمع بحضرة غرناطة لما قدم عليها ، وارتسم فى جملة الـكتاب بها ، وحدّث عن رضى الدين أبى أحمد إبراهيم الطبرى ، بسماعه من الشريف يونس بن يحيي الهاشمى ، بسماعه من أبى الوقت طرّاد . وعن الإمام سراج الدين أبى حفص عمر بن طراد المعرى القاضى بالحرم الشريف ، وعن شرف الدين أبى عبد الله محمد بن عبد الحميد الهمَدانى ، وعن الإمام بهاء الدين الخيرى عن أبى الطاهر السّلفى ، وعن جماعة غيرهم . وكان وروده على الأندلس فى أوايل عام خمسة عشر وسبعماية ،وحضر بها غزوات ، ولقى من كان بها من الأعلام . ثم انصرف عنها فى أوايل عام ثمانية عشر ، وأحلّ بسبتة، فأكرم رييسها أبو عمر يحيي بن أبى طالب العَزفى قدومه، وأنزله بدار جليلة ، كان بها علو مطل على البحر ، لم يتمكن من مفتاحه، لأمر اقتضى ذلك ، فكتب إليه :

يا صاحب البلد المليح المشرق   ما مثله فى مَغْرب أو مَشْرق

منها :

وخفضتَ عيشى فيه فارفع منزلى حتى أرى الدنيا بطَرْفٍ مُطرِق

وتجول فى البلاد ، ولقى من بها ، واتصل بالأمير أبى على بسجلماسة . ومدحه بقصيدة حُفظ له منها :

فيا يوسفىَّ الحسن والصفح والرضا تصدَّق على الدنيا بسلطانك العدل

ثم اتصل بوطنه .

وفـــاته

نقلت من خط شيخنا أبى بكر المذكور : وفى عام أربعين وسبعماية ، توفى بتونس صاحبنا الحاج الفاضل المتصوِّف ، الكاتب أبو عبد الله محمد بن على المليكشى الشهير بابن عمر ، صدرٌ فى الطلبة والكتاب ، شهيرٌ ذو تواضع وإيثار ، وقبول حسن ، رحمه الله .

محمد بن على بن الحسن بن راجح الحسنى

من أهل تونس يكنى أبا عبد الله .

حــــاله

هذا الرجل الفاضل ، صاحب رُواء وأُبَّهة ، نظيفُ البزَّة ، فارهُ المَرْكب ، صدوف عن المَلَّة ، مقيم للرسم ، مطفِّف فى مكيال الإطراء ، جموحٌ فى إيجاب الحقوق ، مترام إلى أقصى آماد التوغُّل ، سخىُّ اللسان بالثناء نرثاره ، فكِهٌ مطبوعٌ ، حسن الخلق ،

عنب الفـكاهة ، مخصوصٌ حيث حلّ من الملوك والأمراء بالأثَرَة ، وممّن دونهم بالمُداخلة والصُّحبة ، ينظم الشِّعر ، ويحاضر بالأبيات ، ويتقدّم فى باب التّحسين والتّقبيح ، ويقوم على تاريخ بلده ، ويثابر على لِقاء أهل المعرفة ، والأخذ عن أولى الرواية . قَدِم على الأندلس فى إحدى جمادين ، عام خمسين وسبعماية ، مُفْلتاً من الوقيعة بالسلطان أبى الحسن بالجهات الشرقية ، بأيدى بنى زَيّان وأحْلافهم[1] ، فمهّد له سلطانُها ، رحمه الله ، كنَفَ برِّه ، وأواه إلى سعة رَعْيه ، وتأكّدت بينى وبينه صحبة .

شعـــره

كتبتُ إليه لأول قدومه بمـا نصه ، أحذو حذو أبيات ، ذَكَر أن شيخنا أبا محمد الحضرمى خاطبَه بها :

أمِنْ جانب الغربى نفحةُ بارحِ ... سَرَتْ منه أرواحُ الجوَى فى الجوانح[2]
قَدَحْت بها زَنْد الغرام وإنمـا ... تجافَيْتُ فى دين السُّلوِّ لقادِحِ
وما هى إلا نَسمة حاجـــرية ... رَمَى الشوقُ منها كلَّ قلبٍ بقادح
وَجَحنا لها من غير شك[3] كأنها ... شمايلُ أخلاق الشّريف ابن راجح

---

(١) الوقيعة التى يشير إليها ابن الخطيب ، وقعت بين السلطان أبى الحسن المرينى ملك المغرب وبنى زيان ، على أثر عوده من حملته إلى تونس بعد فقدها ، وبعد غرق أسطوله فى مياهها ، مرتداً بفلول قواته عبر الجزائر فى طريقه إلى المغرب الأقصى . وكان بنو زيان ملوك تلمسان السابقين ، قد استطاعوا استردادها ، وقت سير السلطان أبى الحسن إلى تونس . فحاول السلطان أبو الحسن عند عوده مهاجمتها لاستعادتها ، فتصدى له بنو زيان فى قواتهم بقيادة أبى ثابت بن زيان ، أخى سلطان تلمسان عثمان ابن عبد الرحمن ، فهزم السلطان أبو الحسن ، ونهب معسكره ، وقتل ولده الناصر . وارتد فى فلوله ميمماً صوب المغرب من طريق الجنوب ، وكان ذلك فى أواخر سنة ٧٥٠ هـ . ويلوح لنا أن ابن الخطيب قد وهم فى ذكر السنة التى قدم فيها المترجم إلى الأندلس وأنها سنة ٧٥٠ هـ .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الجوارح) .

(٣) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (سكر) والأولى أرجح .

فتى هاشمٌ سبْقاً إلى كلِّ عليّة وصبراً مُعار الحبْل[1] فى كل فادح
أصيــلُ العلاجم السيادةُ ذكره طرازُ نضار فى بُرود المــدايح
وفُرْقان مجدٍ يصدع الشَّكَّ نورُه حبَا الله منه كلَّ صدرٍ بشارح
وفارسُ ميدانِ البيانِ إذا انْتَضى صحايفَه أنسَت مضاء الصَّفايح
رقيقٌ كما راقتك نَغْمةُ ساجع وجزلٌ كما راعتْك صولةُ جارح
إذا ما احتبى مُسْتَحْفِزاً فى بلاغةٍ وخيض خِضَمُّ القولِ منه بسابح
وقد شُرعت فى مَجْمع الحفل نحوه أسنَّةُ حربٍ للعيــون اللّوامح
فما ضَعْضَعت منه لصولة صادحٍ ولا ذَهَبَت منه بحكمة ناصح
تذكّرتُ قُسّاً قايماً فى عُـكاظِه وقد غُصَّ بالشُمِّ الأنوفِ الجحاجح
ليَهنِك شمسُ الدين ما حُزت من علا خواتِمُها موصولةٌ بالفــواتح
رَعَى الله ركباً أطلع الصبحَ مُسْفِراً لمرآك من فوق الرُّبى والأباطح

ومنها:

أقول لقومى عندما حطّ كورُها وساعدها السَّعْدان وَسْط المسارح
ذَرُوها وأرضُ الله لا تعْرِضوا لها بمَعْرِض سوء فهى ناقةُ صالح
إذا ما أرَدْنا القول فيها فَمَنْ لنا بطوعِ القوافى وانبعاثِ القرايح
بقيت منى نفسٌ وتُحفةُ رايد ومورِدُ ظمآن وكعبةُ مادح
ولا زلت تلقى الرحب والبر حينما أرحت السُّرى من كل غاد ورايح

فأجابنى بما نصه:

أمِن مَطلَعٍ لأنوار لحــــةِ لايح [تُعار لمفقود][2] عن الحىِّ نازحُ
وهل بالمُنى من موردِ الوصلِ يرتوى غليلُ عليلٍ للتواصـــل جانح

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (مغار الفتل) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى النفح كالآتى (تعاد لمفؤد) .

فيافَيْضَ عين الدمع مالِكَ والحِمى ... ورَنْدا الحمى والشيح شيحُ المشايح (١)
مَرَابع آرامى ومــــوردُ ناقتى ... فسقيا لها سُقياً لناقةِ صـــالح
سَقَى الله ذاك الحىّ وَدْقاً فإنه ... حِمى لَمحَات العين عن لمح سانح (٢)
وأبْدَى لنا حورُ الخيام تُزَفُّ فى ... حُلَى الحسن والحُسْن وحَلْى الملائح
ترى حىّ تلك الحور للحور مَهْيع ... يدلُّ وهل حَسْمٌ لداء التّبارح
ويا دَوْحة الرَّيْحان هل لى عودةٌ ... لعَمْر عُقار الأُنس بين الأباطح
وهل أنت إلا طَلّة (٣) حاتميّـــةٌ ... تُغَصُّ نواديها بغـــادٍ ورائح
أقام بها الفخرُ ابن الخطيب مَنابراً ... لترتيل آياتٍ للنّدى والمَنائح
وشفّع بالإنجيل حَمْد مــــديحه ... وأوْتَر بالتّوراةِ (٤) شَفْع المدائح
وفرّق بالفُرقان كلَّ فَريقـــةٍ ... نأت عن رشادٍ فيه معنى النصائح
وهل هو إلا للبَريّة مُرْشِـــدٌ ... لكل هَدى هادٍ لأرجح راجح

[فبُشْراك شمسَ الدين] (٥) سادِبك الورى وأوْرَى الهُدى للرُّشد أوضح واضح

متى قُلتَ لم تترك مقالا لقايل ... فإن لم تَقُل لم يغْن حمدٌ (٦) لمادح
فمَنْ حام بالحىّ الذى أنت أهلُه (٧) ... وعام ببحرٍ من عطايك طافح
يحقّ له أن يَشْفَع الحمـــدَ بالثّنا ... ويغدُو بذاك البحر أسبحَ سابح
ويا فوزَ مَلِكٍ دُمْت صدرَ صدوره ... وبُشرى له قد راح أرْبح رابح
بآرايك التى تدلُّ على الهُدى ... وتبدى لمن خَصّصْت سُبْل المناجح

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى النفح (الأشايح) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (لامح)
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (حلة) .
(٤) وردت فى الإسكوريال (التورية) . والتصويب من النفح .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (فبشرى لسان الدين) .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مدح)
(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ربه)

مَلَكْتَ خصالَ السَّبْقِ فى كل غاية ومَلَّكت مَنْ ملكت ياابن الجحاجح
مطامحُ آمالٍ لأشرف همةٍ أقلُّ مراميها أجلُّ المطامح
فدونكها يا مُهدى المدح مدحةً أجبتُ(١) بها عن مدح أشرف مادح
يُهنيك بالعام الذى عمّ حمده مواهبُ هاتيك البحار الطوافح
فخذها سَنِىّ الفخر يا خيْرَ مُسْبلٍ على الخلق أغضا ستورِ التسامح
ودم خاطبَ العَليا لها خيرَ خاطبٍ وأتوَق توّاق وأطمح طامح

وتلقانى بمالقة عند قدومى من الرسالة إلى المغرب، فى محرم عام ستة وخمسين وسبعماية، ونظم لى هذه الأبيات، ولا حول ولا قوة إلا بالله :

قدومُك ذا أبدى لذى الراية الحمرا ثغور الرضا تعبر عن شنب البُشرا
وأينع فجرُ الرشد من فلَق الهدى وكوّنه نهــــرا وفجره فجرا
سَرينا له كى يحمد السيرُ والسُّرى ونرقب شمس الدين من فرعك الفجرا
ونصبح فى أحيان المنّ نستلم مواطنكم شغفاً وآثاركم وترا
ونخطب ما يا ابن الخطيب تشا من كرايم ذاك الحى إذ نُهزُ الشمرا
فقابلتَ بالإقبال والبر والرضا وأقريتَ من يقرا وأقررتَ من قرّا
فأبنا قدّس الحمد حضرة قدسنا وأقدامنا نملا وأمداحكم تقرا
هنيًا لنا نلنا ونلنا ولم نزل ننال ولاكن هذه المنّة الكبرا
وأينا وزير المُلك والمُلك واللوى وحزب اللوى كلٌّ يشد به أزرا
سجدنا وكبّرنا وقلنا رسولُنا آتى بالذى يُرضى بشرى لنا بُشرا
ويُهنى الورى هذا الإياب فإنّ فى نتايجه للدهر ما يُشهر الدهرا
أرانا سَنا ذا اليوم أجمل مَنظر وجَلّى لنا من وجهك الشمس والبدرا
أما والذى أوليتَ من نعمةٍ غدَت تعلّمنا للمنعم الحمد والشكرا

(١) وردت فى الإسكوريال (أصبت). والتصويب من النفح.

لأنتَ لسان الدِّين للدِّين حُجَّة · تؤيده سِرّاً وتعضده جَهْرا
بقيت لنا كَتِفاً منيعاً مشرفاً · ودمتَ له عَضُداً ودُمْت له نصرا
ودُمْنا بكم فى كلِّ أمنٍ ومنَّة · نُدير المُنا خَمرا أو نُصلى العِدا جمرا

ومن أمثل ما مدح به السلطان لأول قدومه بالنسبة إلى غير ذلك من شعره :

أما والعُيون النُّجل ترمق عن سِحر · ووَرْدُ رياض الخدِّ والكأس والخمر
وريحانُه والرَّاح والطَّل والطِّلا · ونَرْجِسُه والزَّهر والنُّور والنَّهر
ونور جَبين الشمس فى رونق الضُّحا · وهالةُ بدرٍ التَّم منتصف الشهر
لقد قلَّدت آراء يوسف مُلْكه · قلايدَ نصرٍ لن تَبيد مع الدهر
وقد أيَّده الإسلام مِنه بناصرٍ · نصيرٍ وخيرُ النصر نصرُ بنى نصر
هم القومُ أنصارُ النبى محمدٍ · وحِزبهِ وعصبةِ الأعلام فى اليُسر والعُسر
وحسبُك من قوم حموا سيِّد الورى · وقاموا بنَصر الحقِّ فى السِّر والجهر
سقى شِرعة الإسلام وَدْقُ سيوفهم · رحيقُ الأمانى طيِّبُ العَرْف والنَّشر
فأصبح روضُ الرُّشْد يعبقُ طيبُه · ودَوْحُ الهُدى بالزَّهر أزهارُه تُزرى
فياسايلى عنه وعن سَطَواته إذا · لاح محفوفاً براياته الحُمْر
وجُزْ مع الأقدام جَيْشاً عرمرما · وشَرِّد بالتأييد شِرْذَمة الكفر
لخليلةٍ تنبيك عما وراءها · ولا غَرْو فالإفصاح يُعرف بالعجز
فيافوز مَنْ أدناه بالغُنْم والغِنا · ويا وَيْلَ مَنْ أقصاه للقَفْر والفقر
يميناً بما اختارت يداك وأحْرَزت · من المُلْك والتأييد والنَّهى والأمر
لقد أصْعدتْ مُجْدى مدائحُك التى · ومجدُك والعَلْيا مَدَحْت بها شعرِ
وحقٌّ لمثلى يُشفع الحمد بالثَّنا · ويتلو معانيه مع الشَّفْع والوَتْر
فأجْنى ثِمار الأُنس من رَوْضة المُنا · وأقطف زُهَير الحمد من شجر الشكر
وأشرب ماء الفوز عَذْباً خِتامه · رحيقَ براح السَّمح فى أكوس البِشر

ولا بَرِحت أمْداحُكم تعجز النهى   وإلاَّ فكم تُنْجِى من العُسر لليسر
ولا زالت الأقدار تخدم رأيكم   ورايَاتِكم ما دام نجمٌ للسرا يَسِرِ

وكتب إلىّ فى غرض يظهر منه نصّ للمراجعة ، وحسبنا الله :

أما والذى لى فى خُلاك من الحمد   ومالك ملاكى علىّ من الرِّفد
لقد أشْعَرتنى النفس أنك مُعرض   عن المسرف اللاَّبى لفطرك يستجد
فإن زلّةٌ بدت لك جَهْرة فصفحا   فما والله إذ كُنْتُ عن عَمْد

فراجعته بقولى :

أجِلُّك عن عَتْبٍ يَغُضُّ من الوُدّ   وأكرم وجْه العُذْر منك عن الرّد
ولا كننى أُهدى إليك نصيحتى   وإن كنت قد أهديتُها ثم لم تُجد
إذا مَقُول الإنسان جاوز حدّه   تحولّت الأغراضُ منه إلى الضدّ
فأصبح منه الجدُّ هَزْلاً مُذَمَّماً   وأصبح منه الهزل فى مَعْرِض الجدّ
فما استطعتَ فيضاً للعِنان فإنه   أحقُّ السجايا بالعُلا والمَجْد

توفى يوم الخميس الثالث لشعبان عام خمسة وستين وسبعمائة ، وقد ناهز السبعين سنة ، ودفن بروضتنا بباب إلبيرة ، وأُعفِى شارب الشمر من نابى مِقصّه . وغير هذه الدعوى قرارها تجاوز القضية .

محمد بن على بن عمر العبدرى

من أهل تونس ، شاطبى الأصل ، يكنى أبا عبد الله ، صاحبنا .

حـــاله

كان فاضلا من أبناء النعم ، وأخلاف العافية ، وَلِى أبوه الحِجابة بتونس عن

سلطانها برهة، ثم عدا عليه الدهر ، واضطر ولده هذا إلى اللحاق بالمشرق، فاتصل به سُكناه وحجّ، وآب إلى هذه البلاد. ظريفَ النّزعة ، حُلو الضّريبة، كثيرَ الانطباع، يكتبُ ويُشعر ، ويَتكلُّف بالأدب، ثم انصرف إلى وطنه. وخاطبنى إلى هذا العهد ، يُعرّفنى بتقلّده خُطّة العلامة ، والحمد لله .

وجرى ذكره فى كتاب « الإكليل » بما نصه : غذىّ نعمة هامية ، وقريعُ رتبة سامية ، صُرفت إلى سلفه الوجوه ، ولم يبق بإفريقية إلا من يخافُه ويرجوه، وبلغ هو مدة ذلك الشرف ، الغاية من الترف . ثم قَلَب الدهر له ظهر المِجَن ، واشتد به[(1)] الحِمار عند فراغ الدّن، ولحق صاحبنا هذا بالمشرق ، بعد خطوبٍ مبيرة، وشدّة كبيرة، فامتزج بسكانه وقُطانه، ونال من اللذات مالم ينله فى أوطانه، واكتسب الشمايل المُذّاب ، وكان كابن الجهم، بُعث إلى الرّصافة ، ليرقّ فذاب، ثم حوّم على وطنه تحويم الطّائر ، وألمّ بهذه المدينة[(2)] إلمام الخيال الزاير، فاغتنمتُ صفْقة وُدّه ، لحين وروده ، وخطَبتُ موالاته على انقباضه وشروده ، فحصلتُ منه على درّة تُقتنى ، وحديقة طيّبة الجنى .

شعره

أنشدنى فى أصحاب له بمصر قاموا ببرّه :

لكل أناس مذهبٌ وسجيّةٌ ... ومذهبُ أولاد النظام المكارم

إذا كنت فيهم ثاوياً كنتَ سيّداً ... وإن غبت عنهم لم تنلْك المظالم

أولئك صحبى لاعَدِمت حياتَهم ... ولا عدموا السّعد الذى هو دايم

أُغَنّى بذكرام وطيب حديثهم ... كما غرّدت فوق الغصون الحمايم

(١) وردت فى الإسكوريال (بهم) . والتصويب من النفح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (البلاد) .

ومن شعره يتشوق إلى تلك الديار ، ويتعلل بالتذكار ، قوله :

أحِبَّتَنا بمصر لو رأيتم ... بكائى عند أطراف النهار
لكنتم تُشفقون لفرط وجدى ... وما ألقاه من بُعد المزار(١)

ومن شعره :

تَغَنّي حمام الأيك يوماً بذكرهم ... فأطرب حتى كدتُ من ذكرهم أفنى
فقلت حمام الأيك لا تُبك جيرةً ... نأوا وانقضت وصلُهم عنّا
فقال ولم يُردِد جواباً لسائل ... ألا ليتنا كنا جميعاً بذا ألحقنا

ومن جيد شعره الذى أجهد فيه قريحته ، قوله يمدح السلطان المعظم أبا الحسن في ميلاد عام سبعة وأربعين وسبعماية :

تقر ملوك الأرض أنك مولاها ... وأن الدنا وقف عليك قضاياها

ومنها :

طلعتَ بأفق الأرض شمساً منيرة ... أنار على كل البلاد مُحيّاها
حَكيتَ لنا الفاروق حتى كأننا ... بعين لا نُكذّب رؤياها
وسرتَ على آثاره خيرَ سيرةٍ ... قطعنا بأن الله ربُّك يرضاها
إذا ذُكِرت سيرُ الملوك بمحفل ... ونادى بها النّادى وحسّن دنياها
فجُودُك رُوّاها وملكُك زانها ... وعدلك زاها وذكرك حلّاها
وأنت لها كهفٌ حصين ومَعْقِلٌ ... تلوذ بها أولى الأمور وأخراها

ومنها بعد كثير :

ومنكم ذوو التيجان والهمم التى ... أناف على أعلى السّما كين أدناها
إذا غاب منهم مالكٌ قام مالكٌ ... مجدّدٌ للبيت المقدّس علياها

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الديار)

بناها على التقوى وأسس بينها   أبو يوسفُ الزاكى وسيّر مبناها
وأورثها عثمن خيرَ خليفة   وأحلمَ من ساس الأنام وأنداها
وقام علىٌّ بعده خير مالك   وخيرُ إمام فى الورى راقب الله
على بن عمر بن يعقوب ذو العلا   مذيق الأعادى حينما سار بلْواها
أدام الله وأعطى الخلافة وقتها   ونوّر أحلاك الخطوب وجلّاها

ووصلنى كتاب منه مؤرخ فى التاسع عشر من شهر شعبان المكرم من عام أربعة وستين وسبعماية جَدَّد عهدى من شعره بما نصه :

رحلنا فشرّقنا وراحوا فغرّبوا   ففاضت لروعات الفراق عيُون
فيا أدمعى مُنْهلّةً إثر بَيْنِهم   كأنّ جفونى بالدموع عيون
فيا مَعْهداً قد بِنْتُ عنه مكلفا   بديلى منه أنّةٌ وحنين
سقتك غوادى المُزْن كرّ عشيةٍ   ودادُك محلول النطاق هتُون
فإن تكن الأيام لم تقض بيننا   بوَصْل فما يُقضى فسوف يكون
يعزّ علينا أن نُفارق ربْعكم   وأنّا على أيدى الخطوب نَهون
ولو بلّغتْنى العيرُ عنكم رسالة   وساعد دهرٌ باللقاء ضنين
لكنّا على ما تعلمون من الهوى   ولا كن لأحداث الزمان فُنون

تم المجلد الثانى

من كتاب « الإحاطة »

ملحــق
فى التعليق على ترجمة
محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان الزهرى ، أبو بكر
(الواردة فى صفحة ٤٩٤ ــ ٥٠٥)

نقل ابن الخطيب فى بداية هذه الترجمة ، ما وصفه به ابن عبد الملك المراكشى فى قوله : « كان أديباً ، بارعاً ، محسناً ، شاعراً ، حلو الكلام ، مليح التندير ، مبرزاً فى نظم الطريقة الهزلية ، بلسان عوام الأندلس ، الملقب بالزجل » . ثم علق على ذلك بقوله : « وهذه الطريقة بديعة ، يتحكم فيها ألقاب البديع ، وتنفسح لكثير مما يضيق سلوكه على الشاعر . وبلغ فيها أبو بكر مبلغاً ، حجره الله عن سواه ، فهو آيتها المعجزة ، وحجتها البالغة ، وفارسها العلَم ،والمبتدى فيها والمتمم » .

وهذا كلام لاغبار عليه، إذا ذكرنا أن اسم صاحب الترجمة ، هو بالفعل اسم ابن قزمان ، أمير الزجل الأندلسى المشهور ، وأن تاريخ وفاته الذى يقدمه إلينا ابن الخطيب هو بالفعل التاريخ الصحيح . ولكن ابن الخطيب ، يورد لنا بعد ذلك فى وصفه، فقرة من كلام صاحب «القلائد»،وفيها أنه اتصل بالمتوكل ابن الأفطس ، وحظى لديه . وهنا يتغير الاتجاه ويبدأ الخطأ ،ويغدو ابن الخطيب ، فيما يقدمه إلينا من نظمه ونثره ــ وهو مالا يحتوى على أية مقطوعة من الزجل ــ وهو يقدم إلينا فى الواقع ترجمة شخص آخر من بنى قزمان ، هو عم إمام الزجل، واسمه الحقيقى هو أبو بكر ، محمد بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان القرطبى .

وقد أورد لنا ابن بشكوال فى « الصلة » ترجمة المذكور فى أسطر قلائل ، ووصفه بأنه كان « من أهل العلم والذكاء والفهم ، وكانت عنده دراية ورواية ولغة ، وأدب وافر » . ثم قال إنه توفى فى سنة ٥٠٨ هـ (كتاب الصلة ــ القاهرة ــ ج ١ ص ٥٤٠) .

وذكره الفتح فى كتاب «القلائد» ، ووصفه بالوزير الكاتب ، وأنه كتب للمتوكل ابن الأفطس ، أمير بطليوس ، المتوفى سنة ٤٨٨ هـ ، وحظى لديه .

وأضاف إلى ذلك أنه اتصل فى أواخر عمره بالقاضى ابن حمدين المتغلب على قرطبة، وخدمه، ثم لقى بعد ذلك على يده شر الهوان والأذى، لحدّة كانت فى طبعه. وهذه الفقرة الأخيرة، لا يمكن نسبتها إلى ابن قزمان الأكبر لأن ابن حمدين لم يحكم قرطبة الا فى سنة ٥٣٩ هـ، على أثر انهيار سلطان المرابطين فى الأندلس. وإذن فهى تتعلق بحياة ابن قزمان الأصغر، وهو أمير الزجل (قلائد العقيان — القاهرة — ص ١٨٧).

وقد أوضح لنا هذه التفرقة بين ابن قزمان الأكبر (العم)، وابن أخيه ابن قزمان الأصغر (أمير الزجل) ابن سعيد الأندلسى، فى كتابه «المغرب فى حلى المغرب»، فيمن ذكره من بيت بنى قزمان. فترجم لنا أولا لأبى بكر محمد الأكبر ابن عبد الملك بن عيسى بن قزمان القرطبى، وأشار فى ذلك إلى ما ذكره عنه ابن بسام فى «الذخيرة» من خدمته للمتوكل صاحب بطليوس، ولكنه وقع بعد ذلك فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الفتح فى «القلائد» من ذكر اتصاله بابن حمدين (المغرب فى حلى المغرب — القاهرة — ج ١ ص ٩٩ و ١٠٠).

ثم ترجم بعد ذلك لأبى بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان الأصغر (ج ١ ص ١٠٠). ثم عاد فترجمه مرة أخرى (ج ١ ص ١٦٧ — ١٧١). ووصفه فى الترجمتين بأنه «إمام الزجالين بالأندلس». وأورد له فى الترجمة الثانية عدداً من مقطوعاته الزجلية الشهيرة.

ومن الواضح أن رواية ابن سعيد، وقد كتب كتابه «المغرب» حول منتصف القرن السابع الهجرى وتوفى سنة ٦٧٣ هـ، وكان بذلك أقرب إلى عصر ابن قزمان من ابن عبد الملك وابن الخطيب، هى أقرب إلى التحقيق والثقة.

وأخيراً فقـد أشار ابن خلدون فى مقدمته، فى الفصل الذى عقده عن «الموشحات والأزجال بالأندلس» إلى ابن قزمان، ووصفه بأنه كان إمام الزجالين على الإطلاق، وذكر أنه كان لعهد الملثّمين، أى المرابطين (المقدمة — بولاق — ص ٥٢٤). وهذا تأييد آخر لرواية ابن سعيد، لأن عهد المرابطين بالأندلس كان بين سنتى ٤٨٤ و ٥٥٠ هـ، وقد توفى ابن قزمان، أمير الزجل حسبما تقدم فى سنة ٥٥٥ هـ.

فهارس المجلد الثانى

من كتاب «الإحـــاطة»

فهرست التراجم

صفحة

صفحة

مخطوط الإسكوريال المفتتح بالسفر السابع

صفحة

فهرست الرسائل والقطع النثرية

صفحة

فهرست الشعر والشعراء[١]

(١) نورد هنا أسماء الشعراء مرتبة على حروف المعجم ، ونشير إلى شعرهم بإيراد الشطرة الأولى من البيت الأول من كل قصيدة أو مقطوعة من المنظوم .

صفحة

صفحة

فهرست الكتب والرسائل

التي ورد ذكرها خلال الكتاب

س — ظ

ع — غ

ف — ك

فهرست القبائل والطوائف والدول

فهرست البلدان والأماكن

ج – خ

ف . ق . ك

ل – م

فهرست الأعلام

ف ــ ك

ل ــ م

ن ـــ ى

كمل طبع المجلد الثانى من كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة »
بمطابع الشركة المصرية للطباعة والنشر ، بمدينة القاهرة المعزية
فى اليوم الرابع عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٩٤ هـ الموافق لليوم
الرابع من شهر يوليه سنة ١٩٧٤ م

HISTORY AND BIOGRAPHICAL DICTIONARY OF GRANADA

entitled

AL - IHATA FI AKHBAR GHARNATA

BY

VIZIER LISAN - ud - DIN IBN - ul - KHATIB

Edited with an Introduction and Notes

BY

MOHAMED ABDULLA ENAN

Author of : Moorish Empire in Spain. Age of the Almoravides and Almohades. End of the Moorish Empire in Spain. Monumentos Moros en Espana y Portugal, Life and Work of Ibn Khaldun. Life and Work of Ibn - ul - Khatib; etc.

Vol. II

Publisher : Al-Khanghi Bookshop, Cairo

Al-Tibaa Almisriyah Co. Press

Cairo - 1974